طريق الأطياف

نظرت للطفلة
باستياء وقالت "ما الفائدة
من الاحتفاظ بها؟.. إنها على
وشك لفظ أنفاسها الأخيرة.."
ثبت بصره على وجه الطفلة
المتهاوية بين ذراعيه، والتى استشعر
جسدها البارد بشدة من بين ملابسها الخفيفة،
وغمغم "هذا ما لن أسمح به فى الوقت الحالى.."
نظرت له من بين رموشها الكثيفة الطويلة، وقالت
بابتسامة جانبية "هذا ما لم أتوقعه من شرس مثلك.."
لم يعلق وهو يشد ذراعيه حول الطفلة محاولاً منحها بعض
الدفء، فمالت نحوه مضيفة وابتسامتها تتسع "ما رأيك بأن تمنحنى
إياها؟.. لن تكون لذيذة الطعم لو ماتت بالفعل.."
نظر لها نظرة متوحشة قائلاً بصوته العميق "حاولى ذلك لو أردتِ أن
أنهش عنقك الدقيق هذا.."
أطلقت ضحكة مرحة كتغريدة عصفور عذب، وقالت وهى ترتفع بجسدها عالياً بخفة
"لقد أصبح المتوحد يعبأ لأمر طفلة.. يا للسخرية.."
ونظرت له بهدوء مضيفة "هل تذكرك هذه الطفلة بالطفل الذى قتلته؟.."

بقلم: خيال

khayal-world.blogspot.com

عالم الأطياف
ش
غ
ش
ج
جزيرة رؤوس الشياطين
مدينة ركام الملح
جزيرة الكاهن
مدينة الأرض العالية
جبال الفيلان
قرى الفيي المعلقة
جبال وكر التنين
قرية الشن
قرى المزارعين
قلعة أنصاف الرجال
مدينة الصيادين
منزل الحكيم
طريق الأطياف
قرى الريبال

[مقدمة]

رفعت الطفلة ذات السبعة أعوام بصرها لترى تلك العينان الفضيتان بلمعة متوهجة تراقبانها من خلف أجمة قريبة.. أجفلت الطفلة شيئاً ما وهي ترى الوجه الذي برز من خلف الأجمة وفروه منتصب بتحفز وتهديد واضحين حتى لطفلة في عمرها هذا.. أعجزها ذعرها عن القفز واقفة والهرب من المكان، فظلت جالسة في موقعها حيث تلطخت يداها بالتراب أثناء بحثها عن بعض الجذور التي تؤكل في هذا الجو الصقيعي والأرض المتجمدة.. بقيت الطفلة تنظر شاحبة للوجه الذي وقف في موقعه في مستوى لا يتجاوز مستوى نصف قامة رجل بالغ، لكن لعينيها الصغيرتين بدا لها بقامة هائلة ضخمة مع انتصاب فروه مما منحه أبعاداً أكبر وأكثر وحشية..

ورغم رجفة شفتيها، لكنها لم تتحرك من موقعها أو يصدر منها صوت وهي ترى الوجه قد كشرّ عن أنيابه وصدرت من حلقه زمجرة تحذيرية خافتة.. ورغم أن عيناها قد علقتا في أسر تلك العينان الفضيتان الآسرتان رغم وحشيتهما، لكن تراءى لها أنها تلحظ دماً على جانب عنقه يتصبب بغزارة.. ظلت صامتة وهي تراقب الذئب الذي ظهر من خلف الأجمة بفرو أبيض لامع، وأنف امتزج مع فمه في تكشيرة قوية أظهرت أنيابه الطويلة، بينما خطا خطوتين مقترباً منها فازدادت رجفة جسدها وكادت أنفاسها تنقطع لذعرها..

وبعد خطوتين فقط، فوجئت بالذئب يتكوم أرضاً بصوتٍ قوي، ومن بين الصمت الغريب الذي تلا ذلك لاحظت الدماء التي تزايدت رقعتها على فرائه وبدأت تلطخ الأرض العشبية بسرعة.. فأدركت أن الذئب مصابٌ بعدد من الخدوش والجراح في أجزاء متفرقة من جسده، وإن كان جرح عنقه هو الأعمق والأكثر تأثيراً وبشاعة لعينيها الطفوليتين..

نهضت الطفلة متلفتة حولها بتوتر كبير وقد خفت فزعها بعد أن اطمأنت أن الذئب لا يستطيع الحراك، ثم حملت حصيلتها الضئيلة من الجذور في سلة متواضعة تملكها، وركضت مبتعدة بخطواتها القصيرة وقدميها الحافيتين.. لكنها بعد عدة أمتار توقفت فجأة والنسمة الهادئة التي هبّت نحوها قد حملت لها صوتاً خافتاً

أشعل كيانها كله..

كان الصوت الخافت يشبه صوت الأنين الذي قد يصدره بشري.. نظرت خلفها وهي ترى الذئب متكوماً في موقعه وإن كان صدره يعلو ويهبط بلهاث واضح.. ومرة أخرى استطاعت أن تسمع ذلك الصوت الذي يشبه الأنين.. لكن..... كان ذلك أنيناً بالفعل.. أنينٌ عميق ويعبر عن ألمٍ عنيفٍ ومعاناة كبيرة..

قلبت الطفلة بصرها فيما حولها، ثم تقدمت من الذئب عدة خطوات وهي تراقب ملامحه بقلق خشية أن يهجم عليها.. فهي تعرف أن الحيوانات الجريحة تكون أكثر شراسة وعنفاً من المعتاد.. فكيف يكون الذئب عندما يكون جريحاً؟.. ولما صارت على بعد خطوات قليلة منه، استطاعت أن ترى عيناه اللتان كانتا متيقظتين وتنظران لها بصمت.. كان منظراً مؤلماً، واختفت أمام عينيها صورة الذئب الشرس المخيف.. كان كل ما تراه في تلك اللحظة هو تلك العينان اللتان تداريان ألماً عارماً ويأساً كبيراً، وتبثان في نفسها عوض الخوف والفزع، الرغبة بإنقاذه بأي وسيلة كانت..

وسرعان ما استدارت الفتاة بصمت مبتعدة لا تلوي على شيء..

[تمهيد]

عندما عدتُ للجزيرة التي يشبه شكلها شكل الهلال، وتتوسط المجرى العريض للنهر الذي يقطع هذه السهول لجزئين، كنت واثقة أنه لم يعد بعد.. ليس هذا موعد عودته ولن يطأ أرض هذه الجزيرة قبل منتصف الليل، بينما لم تكدْ الشمس تغرب بعد في هذه اللحظة.. لذا بكّرتُ بالعودة لأتمكن من الحصول على بعض الوقت لإتمام ما جئت لأجله.. ما انتظرته سنوات وسنوات طوال..

هرعتُ راكضة نحو كوخ متوسط الحجم لا يوحي بأي رفاهية ولا يشي بأي وضاعة كذلك، يقع على رأس هذه الجزيرة.. اندفعتُ نحو غرفة معينة من غرف ذلك الكوخ، وفتحت قفل بابها بسهولة قد تثير دهشة صاحبها عندما يعلم بالأمر.. أسرعت بتفتيش الغرفة تفتيشاً دقيقاً قالبة محتويات بعض الصناديق وأنا أبحث عن هدفي بشكل محموم.. كان العرق يتصبب غزيراً على جبيني ووجهي، ورجفة قلق اعترت يداي لما أنا مقدمة عليه لكني تجاهلت ذلك وأنا أرمي محتويات الصناديق بإهمال قبل أن أستدير نحو الفراش الخشبي القريب وأرفع الحشية عليه للبحث عما تحتها غير عابئة بالغبار المتكدس تحت السرير وعلى الأرض الخشبية التي قلما تطالها يد بالتنظيف.. وبعد بحث طويل في أرجاء الغرفة عثرت على صندوق مخفي بشكل محكم وسط تجويف خاص في قلب أحد الكتب الكثيرة التي تناثرت في الغرفة.. أمسكت الصندوق الصغير وفتحته بيد ترتجف.. ووسطه استطعت أن أجد تلك اللفافة الصغيرة العتيقة ذات الأطراف المهترئة.. فتحت اللفافة بحذر وتأملت محتواها بنظرة سريعة بخبرة كافية لأدرك أن هذه اللفافة تحوي ما أبتغيه من هذا البحث المحموم.. فتنهدت وأنا أرمي الكتاب جانباً وأنهض هامسة بلهفة "أخيراً.."

انتهى ما كنت أفعله بعثوري على مبتغاي، فاستدرت مغادرة بسرعة وأنا أخفي اللفافة في ثيابي.. الآن يحق لي أن أهنأ بالاً وقد حصلت على كل ما أبغيه من هذا الكوخ الذي كاد يكتم أنفاسي طوال بقائي فيه..

أسرعت بلهفة نحو باب الغرفة منتوية أن أغادر هذه الجزيرة دون عودة، عندما فوجئت بذلك الجسد الذي سدّ علي المخرج.. أطلقت شهقة خافتة بسبب التوتر الشديد الذي كنت عليه وتراجعت خطوات بارتباك

واضح محدقة بالرجل الذي تقدم نحوي بدوره قائلاً بصوت حمل تعجباً خفيفاً "ما الذي تفعلينه هنا؟.. ظننتك لم تعودي من مهمتك بعد.."

لم أكن بحاجة لاختلاق أي تبرير لوجودي هنا، فالغرفة المقلوبة رأساً على عقب تشي بما لا يمكن إخفاءه بكلمات.. تراجعت خطوة أخرى محاولة ألا ألفت انتباه الرجل للفافة المخفية في ملابسي.. لكنه أدرك ما جرى بنظرة سريعة للكتاب الملقى جانباً والصندوق الفارغ قربه.. فزفر باستياء وقال "لم أتوقع أن تخالفي أمري بهذه الصفاقة يا فتاة.."

ومد يده إلي بأمر صامت لا يقبل الجدال، لكني لم أستسلم له بسهولة بعد كل ما تكبدته لأحصل على اللفافة، فقلت باندفاع "لماذا؟.."

قال بتقطيبة "ما معنى هذا السؤال؟.. هذا أمر، ولا يحق لك مخالفته بأي حال من الأحوال.."

تراجعت خطوة أخرى وأنا أرمقه بنظرة حملت تحدياً لأمره ذاك، فقال "ما الذي تسعين إليه حقاً بالحصول على هذه اللفافة؟"

أجبت بتحدٍ "أن أغادر، لأنني أكره هذا المكان.."

اكتست عينا الرجل ببعض اللطف وهو يقول "لماذا؟.. ما الذي لا يعجبك في هذا المكان؟.. ما الذي تريدينه بعد كل ما قدمته لك؟"

قلت بحدة "لا أعني منزلك هذا.. أنا أكره هذا العالم كله.."

عاد الرجل لتقطيبته وهو يعلق "وهل هذا هو الحل؟.."

ظللت أنظر له معقودة الحاجبين وأنا أمسك اللفافة المخفية في ملابسي بشدة، فقال الرجل وهو يكسو لهجته ببعض الحزم "أعيدي اللفافة وأنا أعدك أن أتناسى كل ما رأيته.. كان خطأً مني الاحتفاظ بها طوال هذه المدة.. فلا خير يرتجى منها.."

قلت بصوت مرتجف ولهجة غاضبة "لماذا تحتفظ بهذا العلم لك وحدك؟.. ألا ترى أن هذه أنانية بالغة من شخص يجب ألا يتحلى بتلك الصفة بتاتاً؟"

قال الرجل بحزم "ليست أنانية.. أنا لي أن أقدّر أهمية أي معرفة تصل ليديّ ومعرفة المخاطر التي قد تهدد

بها هذا العالم.. وما أراه لا يستحق أن يرى النور، فلا يمكن لأحد الاعتراض على إخفائي إياه للأبد.."

رفعت بصري له قائلة بحدة "لكني أحتاجها.. أريد هذه اللفافة ولا يحق لك حرماني منها.."

قطب الرجل لرؤية الإصرار في عيني، وقال وقد استبدل الحزم بالصرامة "ما الذي تريدينه منها؟.. ألا تعرفين ما يمكن أن تتسببي به بلفافة صغيرة كهذه؟.."

قلت بسرعة "لا يهمني.."

ظل الرجل ينظر لي وخيبة أمل تتبدى في عينيه، ثم زفر وتقدم خطوة قائلاً "لقد حاولت تجاهل إحساسي في السنوات السابقة بشأنك.. كنت أرى أي خطورة تتمثل فيك وفيما تحصلين عليه من معرفة لا يصل إليها إلا قلة نادرة في هذا العالم.. لكني كنت أؤكد لنفسي أنك لن تخيّبي ظني بك.. أنك ستصبحين أفضل من توقعاتي بكثير.. ولكن....."

تراجعت بدوري خطوة والرجل يضيف بلهجة قاسية "لقد فات أوان التخمين وأصبحت أرى ما أنت عليه حقيقة.. ولذا، لا يمكنني الصمت وتركك تغادرين بهذه اللفافة.."

ومدّ يده إلي بأمرٍ صامت.. كان يسدّ علي الطريق ويمنعني من الهرب، عندها لم أجد بدّاً من إظهار استسلامي وأنا مدركة أنني لن أقدر على التغلب عليه أو تجاوزه بسهولة.. رغم كبر سنه لكنه يفوقني قوة من عدة نواحي، ولن يكون هناك خاسر سواي لو أظهرت اعتراضي عليه.. تقدمت نحوه برأس خفيض، وقلت بخفوت "معك حق.. يبدو أنني تسرعت، وخسرت بذلك ثقتك الكبيرة بي.."

فقال الرجل "لا يمكن إنكار ذلك.. وحتى لو حاولتِ الاعتذار عن هذا التصرف، فلا يمكنني نسيان ما فعلته ولا منحك ثقتي بعدهاأبداً.."

ظلت يده ممدودة بانتظار أن يستلم اللفافة مني، لكن بدا أنه لاحظ حركة شفتي السريعة والصامتة وأنا خافضة بصري.. أدرك الرجل في تلك اللحظة الخديعة التي انتويت بها مباغتته عندما يفقد حذره، فتراجع بسرعة رافعاً ذراعه لتباغته لطمة قوية تفوق بقوتها قوة عشر رجال، فتلقيه عند الجانب الآخر من الكوخ.. كتم الرجل ألمه الشديد وهو يهب واقفاً من جديد لمواجهتي، لكني كنت في تلك اللحظة قد استدرت للنافذة القريبة وفتحت مصراعيها وأنا أقفز عبرها.. هرع الرجل عائداً للغرفة وصاح "توقفي.."

لكنني انسللت من النافذة لألقي نفسي على المرج الأخضر خارجاً، ثم اعتدلت لأفر هاربة قبل أن يمنعني شيء.. ورغم أن الرجل تلكأ قرب النافذة للحظة مراقباً هروبي بصمت، لكن هذا لم يشعرني بأي راحة وأنا مدركة أنه يملك وسائل أخرى لإيقاف هروبي واستعادتي.. لذا كانت استماتتي في الهرب أشد قبل أن تبوء محاولتي بالفشل الذريع.. فلا مكان للفشل قبل أن أجني ثمار مجازفتي بكل ما أملك بهذه الصورة..

لم تمض ساعة واحدة على هذا الموقف، حتى كنتُ أقف لاهثة وأنا أنظر لموضع قرب قدمي بصمت.. ثم تسللت ابتسامة شاحبة لجانب شفتي وأنا أغمغم "كان عليك أن تستسلم أيها العجوز.."

نظر الرجل لي من موقعه على الأرض دون أن يستطيع أن يكتم شهيقه المتألم.. فيما زفرت وأنا أتقدم فأضع قدمي على ذراعه الساقطة بجنبه لأزيد آلامه العنيفة وأقول "لم يكن من الصعب عليّ التغلب عليك، وذلك لسبب بسيط.. أنت لا تجرؤ على إيذائي، بينما أقدر أنا على ذلك.."

وابتسمت ابتسامة قاسية وأنا أضيف "بكسر ذراعيك وساقيك، وتهشم أسنانك، أصبحت عاجزاً عن ردعي بأي وسيلة كانت.. ألستَ مسروراً بهذا؟"

لم يظهر الرجل أي ألم أو صدمة وهو يرمقني بصمت والدماء تتدفق من فمه فيما وقفت قربه وأنا أنظر له بقسوة وشماته.. ثم رفعت يدي مشيرة بإصبعي نحوه قائلة "هذه نهايتك أيها العجوز.."

فوجئتُ بتلك الضربة القوية التي أصابت بطني ورمتني أمتاراً للخلف حتى أطلقت صيحة متألمة.. لكني قفزت واقفة بسرعة وأنا أقول بغلّ "أما زلت تملك المزيد من الحيل؟"

وأضفت قائلة من بين أسناني "لكن هذه نهايتك دون شك.."

وتطايرت بضع عصافير مع الضجة التي صدرت من ذلك الموقع قبل أن يسود الصمت إلا من لهاثي المتلاحق بشدة..

الفصل الأول: طريق الأصياف

رفع الحكيم رأسه بصمت وتشمم الهواء، ثم قال بصوته المهتز نظراً لعمره الكبير "الليلة تنذر بعاصفة عاتية.."

قالت مساعدته الصغيرة التي لا تبدو بأكبر من العاشرة من عمرها وهي تتلفت حولها "وما الغريب في ذلك؟.. نحن في موسم الأعاصير بالفعل.."

قال الحكيم هازاً رأسه "لا.. تلك ستكون عاصفة من نوع مختلف.. سيثور الأخ في وجه أخيه.. وسيقتل الأب فيها ابنه، وستسيل الدماء أنهاراً دون أي رادع .."

تساءلت المساعدة بدهشة "كيف عرفت كل هذا؟"

أجابها وهو يمسد لحيته البيضاء الطويلة "رائحة الهواء تنبئني بذلك.."

وبالنظر لمعرفتها بالحكيم لسنوات طوال، الذي يتهامس الجميع بأن الريح نفسها تهمس بالأسرار في أذنه، لم يكن ذلك الجواب ليدهشها بأي حال..

انتصب الفتى واقفاً في ذلك الموقع المحدود وهو يراقب الأفق الذي أظلم بسبب الغيوم الكثيفة منذراً بتقلبات عنيفة في الجو.. لكنه لم يتوتر لهذا كثيراً وهو يسمع مزيج زمجرة عميقة مع حسيس خفيف يصدر قربه.. فمد يده بتلقائية وربت على الرأس الضخم القريب منه، ومسح على مقدمة الرأس مغمغماً "لا داعي لهذا التوتر يا أخي.. إنها عاصفة وستمضي ككل عاصفة غيرها.."

لكن الزمجرة التي تصدر قريباً منه لم تكن توحي بأن الأمر بسيط بالفعل، فلم يعلق الفتى وهو يعود للجلوس في ذلك الموقع من الكهف العميق الذي آواه مع أخيه..

مهما يحدث في مثل هذه الأوقات، فلا علاقة له به.. كل ما عليه فعله أن يحرص أن تمر هذه الليلة بخير دون أن يفقد أخاه زمام السيطرة على نفسه.. هذا كل ما يمكنه، وما يجب عليه، فعله..

جلست تلك المرأة الطويلة، بأطراف دقيقة وشعر لامع عسلي حتى الكتفين وعينان خضراوان زاهيتان، على فرع شجرة سامقة وهي تعبث بخصلة من خصلات شعرها وترمق الأرض السوداء التي تتخللها الأشجار من تحتها.. ومن بين فروع الأشجار الكثيفة، تناهى لسمعها صوت الزمجرة والعواء الشرس متكرراً بعدة حناجر، واستطاعت أن تلمح بين فينة وأخرى جوانب تلك المعركة التي دارت بين عدد محدود من الأطراف.. مالت شفتا المرأة المكتنزتين بابتسامة عابثة وهي تقول بصوت هامس "لنرَ كيف تستطيع الخلاص من هذه الورطة أيها المتكبر.."

ورغم الدماء التي سالت أرضاً، ورائحتها تصل لأنف المرأة الحساس، إلا أن ذلك لم يزعجها ويرعبها بل أثار شغفاً واضحاً في عينيها وهي تراقب خيوط الدماء التي شكلت لوحة مرعبة على الأرض..

بالنسبة لساما، تلك الطفلة التي لم تكد تبلغ الخامسة من العمر، كان ذكر (طريق الأطياف) يملؤها فضولاً وشغفاً بشكل لا يتوقعه أحد.. اعتادت رؤية القلق في وجوه الكبار من حولها وهم يرددون ذلك الاسم، والرجفة واضحة في الأيدي والشفاه، بينما تدور الأعين في محاجرها كلما تناقلوا خبراً جديداً عن ذلك الطريق.. لكن ساما كانت تستمع لهم بشغف بالغ حتى تجد من يزجرها بعيداً، أو من يحذرها من الاقتراب من ذلك الطريق بقلق ظاهر..

لم يكن طريقاً فعلياً، بل كان موقعاً في الغابة يعرفه أغلب رجال القرية الزراعية التي تعيش فيها ساما مع أبويها.. ورغم معرفة البالغين بموقع ذلك الطريق، لكنهم يحتفظون بأمره سراً ويمنعون الأطفال من اللعب في دائرة واسعة حوله.. كانت تلك السرية هي محاولة لإبعاد الأطفال عن ذلك الموقع، مع حكايات وحكايات عن الطفل أو الطفلة التي اختفت دون رجعة في أوقات بعيدة.. وكما خمّن الجميع، أصبح ذلك الجزء من الغابة مرتعاً للصبية الذين يحاولون استكشاف رجولتهم وشجاعتهم فيه..

ومع الأطفال الذين يماثلونها عمراً، كانت ساما تسير في ذلك الموقع بفضول ظاهر وهي تستكشفه دون وجل وصياح الصبية القريبين يمنحها نوعاً من الأمان الجزئي.. فكانت تلك الجماعة تستكشف الموقع بحثاً عن الطريق بتحدٍ واضحٍ لأوامر الكبار، وتفاخر أوضح بشجاعتهم وعدم خوفهم مما يخيف رجالاً أكبر سناً وأكثر قوة منهم.. لكن كل ذلك ينقضي حينما تبدأ الشمس في إرسال أشعتها الحمراء عبر أشجار الغابة إعلاناً بقرب مغيبها وحلول الليل بشكل حثيث، عندها تتهاوى شجاعة الصبية وهم يسارعون للعودة للقرية القريبة بعذرٍ أو بآخر، وسرعان ما تلحقهم الفتيات قلقات من تزايد الظلمة حولهن وهن يستحضرن الحكايات التي يحكيها الكبار عن ذلك الموقع..

لكن تلك المتعة التي تجدها ساما في هذه القرية الهادئة قد تبخرت بين ليلة وضحاها.. ومن يرى هذه الطفلة التي يكسو وجهها الشحوب، بشعرٍ قصير مبعثر يغطيه الطين، وبأصابع متورمة وأظفار متكسرة، ناحلة الجسد من الجوع والقدمان تدميان مع كل خطوة تخطوها.. من يراها لا يكاد يتذكر تلك الطفلة ذات الوجه الدائري الممتلئ بخدين حمراوين وعينان سوداوان جميلتان وبشرة سمراء، وعلى رأسها شعرٌ ناعم بلون أسود كظلام الليل، يحيط وجهها بشكل دائري كوشاح جميل يكلل هذا الوجه المشرق..

لا تدري ساما متى بدأت حياتها تتحول بشكل درامي.. كل ما تدركه أن الأمر ابتدأ بموت والديها في ليلة مظلمة لا يكاد المرء يرى يده فيها، دون أن يخبرها أحد بكيفية موتهما ولا سببه، وذكرياتها عن تلك الليلة يغمرها ضباب كثيف لا يمكن أن يتعجب له المرء نسبة لسنها الصغيرة.. تطور الأمر بعدها عندما بدأت ساما تتنقل بين عدة بيوت من تلك القرية لتأوي إليها ويضمها أصحاب ذلك البيت في كنفهم، لكن ذلك لا يدوم في أحسن الأحوال إلا لما يقارب الأسبوعين، قبل أن تجد من يجذبها معه لتغادر البيت نحو بيت آخر في القرية دون أن تعرف السبب الذي لأجله عليها الرحيل.. ما الذي فعلته؟.. أي خطأ ارتكبته لتطرد من هذا البيت أو ذاك؟.. ولِمَ لا يشرح لها أحدٌ أي أمر ويكتفون بالصمت المريب والنظرات القلقة؟..

أخيراً، انتهى بها المطاف في بيت رجل عجوز يكاد يقارب السبعين من عمره، عصبي المزاج نحيل العود وبلحية بيضاء تكاد تصل لبطنه وتسترخي عليه كلما جلس متكوماً في جانب البيت.. لم يكن لذلك الرجل أي أهل، ولم يصاحبه أحد في القرية لسوء طباعه.. لا تعلم ساما ما الذي جعله يضمّها لبيته، لكنها ودّت في أوقات كثيرة لو أنه لم يفعل..

لم يكن ذلك الرجل يملك ما يمنحها إياه، وكل ما قام به لأجلها هو أن سحبها معه في اليوم التالي للغابة القريبة منذ شروق الشمس، وأراها الكيفية التي تقوم بها بجمع بعض الثمار من أشجارها ونبش الأرض بحثاً عن الجذور التي تؤكل.. لم تعمل ساما قط في حياة والديها ولا في المنازل التي آوتها لمدد قصيرة، ولم تفهم حاجتها لهذا العمل.. لكن صراخ الرجل العصبي كان يوقظها كل فجر من نومها وهي مرتعبة لا تملك الرفض أو التذمر.. فكانت تهرع حاملة سلة من الخيزران نحو الغابة القريبة من بيت الرجل، فتنفذ ما طلبه منها بصمت رغم الآلام التي تشعر بها في أصابعها وقدميها الحافيتين.. ولا تتذمر رغم الجوع الذي يعصر معدتها عصراً، فتكتفي بالتهام بعض الثمار التي تعثر عليها حتى لو كانت بطعم قوي حاذق لا يناسب لسانها الغضّ، وتشرب جرعات من الماء لإسكات صرخات معدتها الحادة من الجداول التي تقطع الغابة بخريرٍ محبب يغري بالاسترخاء والاستمتاع بهذا الجو الهادئ البعيد عن القرية وصخبها..

مضت سنواتٌ طويلة وحياة ساما لا تكاد تتغير قيد أنملة.. تسمع الصياح العصبي ذاته فجر كل يوم، إلا إن بكّرت هي بالنهوض وغادرت قبل استيقاظ العجوز من نومه، وهذا نادراً ما يحدث.. تقضي ساعات يومها وحيدة بين جنبات الغابة التي تكون ساكنة هادئة في الخريف والشتاء، صاخبة ضاجّة بالحياة في الصيف والربيع.. وفي أوقات نادرة يرسلها العجوز لتقوم بعمل أو آخر في القرية القريبة حيث يقع بيته في جانب بعيد منها وأقرب للغابة من البقية.. وبعد كل هذا المجهود الذي لا يلائم طفلة بعمرها، فإن جلّ ما تحصل عليه كعشاء هو أن تحتسي حساءً باهت المذاق وتأكل القليل من الطعام قبل أن تنسحب لفراشها الهزيل وترتمي عليه بصمت..

بدت الأيام لساما طويلة مملة وبدأ عقلها ينفر من هذه الحياة التي تحياها رغماً عنها.. تنهدت وهي جالسة في

يوم من الأيام في جانب الغابة تراقب ذلك الجزء منها حيث تفترش الأوراق الصفراء والبنية الأرض مخفية الأرض السوداء تحتها، فيما تكوّمت بعض تلك الأوراق في جوانب ذلك الجدول الذي سعى بإصرار وسط الصخور وعبر الغابة الواسعة.. كان مرور الماء على الصخور التي تعترض طريقه وسقوطه من فوقها يصدر خريراً عذب الصوت ويشعر ساما براحة كبيرة قلّما باتت تحصل عليها في غير هذا المكان.. استقرّت السلة متوسطة الحجم قربها وفي قعرها تكومت الجذور التي استخرجتها ساما من الأرض الباردة في هذا النهار دون أن تتمكن من ملء نصف تلك السلة..

أصبح هذا المجهود مضنياً أكثر مع اقتراب الشتاء وازدياد البرد بشكل كبير، بحيث صار عمل ساما عسيراً بشكل ملحوظ.. لكن هل يمكنها التذمر وصياح الرجل العجوز يلاحقها كلما أخفقت في ملء سلتها قبل غياب الشمس كل يوم؟..

تاهت عينا ساما في مياه الجدول الجارية بكل هدوء وسلاسة، وهي تحاول بعقلها البسيط معرفة السبب الذي لأجله أصبحت تعيش في بيت ذلك الرجل بلا صلة حقيقية بينهما.. مرت ثلاث سنوات منذ اصطحبتها تلك المرأة لبيت هذا الرجل العجوز وأمرتها بالبقاء عنده وإطاعته في كل ما يقوله.. تذكر في ذلك الوقت أن المرأة لم تكن تواجهها ولم تلتقِ عيناها بعيني ساما منذ خروجهما من المنزل، بل كانت تحدثها وهي تنظر للأفق ولمنازل القرية القريبة والتوتر ظاهر في ملامحها..

ومنذ تلك الليلة، والتي قضتها باكية في فراشٍ قبيح الرائحة فرش لها أرضاً، قضت ساما تلك السنوات في عزلة شبه تامة.. لم يأتِ أحد البالغين الذين آووها في منازلهم لرؤيتها والاطمئنان عليها، ولم يهتم الأطفال الذي صاحبتهم في سنواتها الأولى بلقياها وانشغلوا بألعابهم وعبثهم الدائم الذي لا يعرف الهدوء.. والآن، بعد أن بلغت ساما الثامنة، أصبحت تدرك ما حولها، وتلاحظ بكل وضوح أن من تمرّ به من رجال ونساء يتجنبونها ويديرون أعينهم بعيداً وكأنها مجرد هواء يمر بجنبات القرية.. فما سبب ذلك يا ترى؟.. ألأنها فقدت والديها وهي صغيرة؟.. ألأنها لا تستطيع إعالة نفسها؟.. أم لشيء آخر ارتكبته ولا تكاد تذكره؟..

قطبت جبينها بشدة محاولة تذكر ذلك السبب، والذي قلب حياتها بتلك الصورة، عندما التمعت في ذهنها صورة لعينين واسعتين تحدقان فيها بإصرار.. غلبت ساما نفضة خفيفة وهي تجفل للحظة محاولة تذكر صاحب، أو صاحبة، تلك العينان.. لكن ذكرياتها تلك غلفها ضباب كثيف.. لا تذكر أمراً إلا ذلك

التحديق الذي يتجاوزها ويتغلغل في تلافيف مخها وكأنه ينظر لأعماقها بشكل مباشر.. لا تذكر شكل العينان ولا حتى لونهما.. ولكأنهما تلونتا بمئات الألوان حتى أصبحتا بلا لون..

وخلال لحظة، غابت تلك الذكرى من عقلها خلف الضباب مخلفة وخزًا غريبًا خلف عنق ساما.. مدت ساما يدها وفركت مؤخرة عنقها ظنًا منها أن حشرة في الغابة قد وخزتها، ثم عادت يدها تلقائياً لتلك القلادة البسيطة التي تزين عنقها والتي لا تتعدى شريطاً جلدياً رفيعاً تتوسطه قطعة صغيرة تعتبرها ساما كتميمة حظ لها، رغم أن الحظ تجنبها بشكل تام منذ عدة سنوات.. ظلت تعبث بالقلادة للحظات ساهمة قبل أن تتنهد وتنهض حاملة سلتها الخفيفة وقدمها تتخذ دربها المعهود نحو بيت ذلك الرجل العجوز وعقلها سارح في أفكار تتردد فيه بإصرار.. حتى متى عليها الاستسلام لهذا العجوز صعب الطباع؟.. لمَ عليها أن تطيعه وتبقى معه؟.. لقد فكرت مراراً وتكراراً بالهرب من بيته، لكن أي بيت سيؤويها في هذه القرية التي تتجنبها وكأنها وباء أو طاعون؟..

لقد حاولت بالفعل في بداية عيشها معه الهرب منه، وانطلقت راكضة من بيته الوضيع بعد أن ضربها ضربة مؤلمة لأنها فقدت السلة وكل ما جمعته لذلك اليوم.. كانت قد أمضت ما يقل عن أسبوع في بيته، وبعد تلك الضربة التي آلمت جانب وجهها بقوة، فإنها لم تتردد في الهرب من البيت والركض عبر طرقات القرية الحجرية وبين منازلها متجاهلة صياحه الغاضب خلفها.. وصلت بعد ركض قصير لآخر منزلٍ آواها، وهو منزل المرأة التي ساقتها لمنزل العجوز، وطرقت بابه بشدة وهي تصيح بحرقة.. كانت خطوات العجوز رغم سنه الكبيرة وضعفه الواضح تقترب منها، ولذلك استماتت في طرق الباب وهي تصيح بهلع آملة أن تنقذها تلك المرأة من ضربات جديدة بيد ذلك الرجل الذي لا يعرف الرفق والطيبة.. لكن لما فتح الباب، ظهر خلفه وجه المرأة المصعوقة وهي ترى ساما بخدٍ أحمر ووجه غارق في البكاء وهي تصيح بها باكية "أرجوك.. إنه قادم لضربي من جديد.. لا تتركيه يصل إليّ.."

وقفت المرأة سادّة أمامها طريق الدخول لبيتها، وقالت بصوت حازم ووجه متغيرّ من الغضب "عودي لبيتك يا ساما.."

تشبثت ساما بها وهي تصيح "سيضربني من جديد.. أنا لا أريد العودة إليه.. أرجوك.."

غالبت المرأة انفعالها وهي تقول بحزم أكبر "عودي لبيتك يا ساما الآن.. لا يجب بفتاة أن تهرب من منزلها

لأي سبب كان.."

قالت ساما ودموعها تغرق وجهها "ولكنه.. لكن....."

ردت عليها المرأة بشدة "لا مكان لك إلا هناك.. كوني فتاة مطيعة ولا تخيّبي ظن أهل القرية بك.. من الطبيعي أن يقوم العجوز بتأديبك إن أخطأت.. لابد أنك أثرتِ مصيبة أخرى في منزله.."

تزايد تدفق الدموع من عيني ساما وهي تنظر للمرأة بصدمة ورجاء لم يجدا رداً لدى المرأة التي أغلقت الباب في وجهها.. لم تلبث ساما بعدها إلا لحظة حتى وجدت يد العجوز القاسية تقبض على ذراعها فيجرها معه جراً عائداً لبيته.. لم يبادر بالمساس بها ربما خشية من نظرات أهل القرية، لكن قسوة قبضته دلّت ساما على المصير الذي ينتظرها فور أن يغلق باب البيت عليهما.. ولم تكن ليلتها تلك مريحة وهي تجد صعوبة كبيرة في النوم مع الآلام التي انتشرت في أنحاء جسدها والبكاء الذي شرِقَت به وهي تخشى أن تصدر صوتاً فيزداد غضب العجوز ويذيقها ضرباته وركلاته من جديد..

وغنيٌّ عن القول أن ساما لم تكرر محاولتها تلك في السنوات التالية بتاتاً..

لكن الآن، وبعد أن بلغت الثامنة، بدأت التفكير جدياً في هذا الأمر من جديد.. ربما يكمن الحل في أن ترحل نحو قرية أخرى.. لن يكون الأمر صعباً، فهي صغيرة وخفيفة الجسد ويمكنها أن تقطع مسافات بعيدة دون تعب.. الطعام والماء ليسا مشكلة فهي تعرف كل ما يمكن استغلاله من هذه الغابة.. وتبقى الحيوانات الضارية التي قد تعج بها هذه الغابة، لكن لم تشعر ساما بقلق كبير لهذا الأمر وعقلها الصغير يهيئ لها أنها قادرة على الهرب منها وتفاديها بوسيلة ما..

ملأها هذا التفكير بشيء من البهجة والحماس وخطواتها تصبح أكثر خفة وانطلاقاً من السابق أثناء عودتها للقرية.. ربما تحاول تنفيذ مخططها هذا غداً، وربما تتمكن بالفعل من تجاوز الغابة قبل حلول الليل والوصول لقرية أخرى أكثر طيبة ولطافة في التعامل معها.. عندها ليس عليها أن تحتمل صياح العجوز ويده الثقيلة، وليس عليها أن تعمل في هذا الجو الصقيعي لأي سبب كان..

غمرها الحبور وأفكارها تدور في الحياة الهانئة التي ستجدها في الجانب الآخر من الغابة، حتى تجاوزت أشجار الغابة الكثيفة وأصبحت تطل من موقعها المرتفع على بيت الرجل العجوز وعلى القرية الممتدة بمزارعها ومنازلها خلفه.. فكان أول ما لاحظته، بخلاف الشمس التي أحالت السماء للون أحمرٍ زاهٍ، هي

تلك الجماعة من الرجال الذين وقفوا أمام بيت العجوز وهم يتحدثون معه وصياحه يصل لسمعها بوضوح.. تنهدت ساما وهي تقترب محاولة تخيّل ما ارتكبه العجوز ليتسبب في ثورة رجال القرية بهذا الشكل.. لم يكن هذا منظراً غريباً، فهي قد اعتادت رؤيته مرة كل بضعة أيام على الأقل، فالرجل يثير المشاكل ويسبب صداعاً دائماً لأهل القرية منذ عرفته، ولا تدري حتى الآن لِمَ لمْ يقم أحدهم بطرده منها..

حملت لها النسمة الباردة بعضاً من حديث الرجال، وهي تسمع العجوز يصيح بحنق "ما الذي تبغونه بعد؟.. لقد أجبرتموني على إعالتها لسنوات طوال، والآن بعد أن كبرت وأصبحت تعود عليّ ببعض الفائدة تريدون استعادتها؟.. ما الذي تبغونه بالضبط؟"

رفعت ساما حاجبيها وقد أدركت أن الحديث يدور عنها، فاستمرت بالتقدم منهم دون أن ينتبه إليها أحدهم لخفوت خطواتها، فسمعت أحد الرجال يقول للعجوز بحدة "عمدة القرية يصرّ على إحضار الفتاة إليه.. هناك العديد من الماشية قد هلكت في حظيرته، وزوجته قد مرضت مرضاً شديداً منذ عدة أيام دون أن تبدو عليها بوادر الشفاء.."

قال العجوز بصلف "وما شأني بهذا؟"

أجاب الرجل بحنق "لابد أن هذا الخراب حلّ على العمدة من وجود الطفلة.. لقد أصيب أصحاب كل بيت آواها بالمرض أو حلّ بهم الخراب، ناهيك عما جرى لأبويها.. وربما هي صبّت جام حقدها على العمدة بعد كل ما جرى، وبعد أن أجبرت على العيش مع شخص مثلك.. كل هذه الأمور ظواهر لا يمكن إغفالها.. ألا تعرف معناها؟.."

وإزاء تقطيبة العجوز أوضح الرجل قائلاً "يعني أنها طفلة مستبدلة.. هذه ليست بشرية.. لا يمكن أن تكون كذلك.. لابد أن غولاً أو كائناً آخر من تلك الكائنات الشريرة قد استبدل الطفلة البشرية بطفلته.. ولم يدرك أبواها ما جرى حتى قضيا نحبيهما.. وإن لم نفعل شيئاً، فقد يعمّ الخراب القرية كلها.."

فقال العجوز بهزء "لكني بخير كما ترون، ولم يحلّ بي أي خراب طوال السنوات الماضية.."

غمغم أحد الرجال بسخرية واضحة متأملاً البيت الوضيع خلفه "وأي خراب سيحلّ بك مع كل ما أنت فيه؟"

قطب العجوز بحنق، فيما انتبه أحد الرجال لساما التي وقفت في موقعها تنظر إليهم بارتجافة واضحة..

فصاح الرجل "ها هي.."

زال الجمود الذي اعترى جسد ساما في اللحظة التي سمعت صيحته تلك، فاستدارت بشكل لا إرادي وعادت للغابة راكضة بعد أن أفلتت السلة التي كانت تحملها.. لم تكن قد فهمت الكثير من حديثهم، ولم تكن تعرف ما يراد بها.. لكن الغضب في الوجوه والكلمات الي بدت لها حانقة لم تكن توحي بأي نهاية سعيدة.. لذا لم تملك إلا أن تفرّ محاولة تمالك الهلع في صدرها، فيما سمعت تصايح الرجال من خلفها وهم يلاحقونها بسرعة وأحدهم يصيح "أحضر الكلاب.. لا يمكن أن ندعها تفلت بأي صورة كانت.."

وبالنسبة لساما، كان هذا دافعاً لها لتزيد سرعتها وهي تتخيرّ طرقات تعرفها جيداً في الغابة.. عليها الفرار.. وعليها أن تفعل ذلك بأسرع ما يمكن..

ترددت الغابة صوت عصفور صدح بتغريدة جميلة لم تجد أذناً تستمع إليها في الموقع الساكن.. ولم يلبث العصفور أن طار فزعاً مع اقتراب ساما من تلك الشجرة راكضة بأسرع ما تستطيع.. لكنها لم تنتبه لما أثارته من فزع في نفس العصفور وغيره من سكان الغابة وهي فزعة بدورها تركض بغير تريث، فيما تعالى نباح واضح من خلفها يقترب منها بسرعة كبيرة..

بدأت البرودة تشتد مع اقتراب الشمس من الأفق، وبدأت ساما تفقد الإحساس في يديها وقدميها الحافيتين، وقرصات مؤلمة تنتشر في أطرافها وفي خديها المتجمدين، ولهاثها يتكاثف على شكل بخار كثيف فور أن يتجاوز فمها..

كانت قمم الجبال القريبة قد اكتست بالثلج معلنة عن دخول الشتاء بقوة.. ورغم أن الثلوج لا تطال هذه الغابة السوداء في المعتاد، إلا أن هذا لا يدل على أن الجو سيكون ألطف أو أكثر دفئاً، ولذا كانت معاناة الطفلة أشد وأقسى في تلك اللحظات..

تعثرت ساما بقوة فسقطت أرضاً بعنف أوقف اندفاعها وسط الأشجار.. رغم أن الأرض ترابية تكاد تخلو من الصخور الكبيرة ومغطاة بعدد هائل من الأوراق المصفرة المتساقطة من الأشجار العارية، إلا أن هذا لم يكف لحمايتها من تلك السقطة التي أورثتها عدة سجحات في ذراعيها وقدميها وكدمة في خدها، بينما

بدأت تستطعم الدماء في حلقها.. لكنها لم تتريث لحظة وهي تنهض محاولة تجاهل تلك الآلام والفزع الذي يملأ قلبها لا يسمح لها بلحظة راحة..

تناهى لسمعها الصياح المتعالي من خلفها، ونباح الكلاب التي اكتسبت شراسة وحماساً كبيرين لهذه المطاردة.. فدفعت ساما نفسها للركض من جديد وهي تغيّر طريقها لتصعد منحدراً قصيراً تخفي الأشجار الكثيفة أعلاه.. بدأت تلهث بشدة مع ذلك المجهود، وطرقات الفزع التي ينفذها قلبها تكاد تجعل أنفاسها تتقطع، لكن نباح الكلاب الذي غدا أقرب فأقرب جعلها لا تتوقف ولا تعبأ لكل الآلام التي يصرخ بها جسدها..

تجاوزت ساما جانب الأشجار التي تفصلها عن قمة المنحدر، بينما بدأت الكلاب في صعود المنحدر بدورها ولعابها يتطاير بحماس لاقترابها من هدفها.. فيما اقترب جمعٌ من الرجال وصياحهم يلهب حماس الكلاب أكثر فأكثر.. بدأت المسافة تتقلص بين الفتاة اللاهثة وبين أسرع الكلاب وأقواها وأكثرها شراسة، والذي مدّ قدميه بركض سريع وخطوات واسعة وهو يفتح فمه منتوياً نهش ساقها لإجبارها على الوقوف..

أطلقت ساما صيحة قصيرة مذعورة لمرآه وهي تدفع نفسها بقوة بين صفّ الشجيرات التي خلت من الأوراق، وتجاوزتها بأسرع ما تستطيع والأفرع المجردة تخدشها وتسبب لها آلاماً جمّة.. لكنها تجاهلت ذلك وهي تسمع لهاث الكلب الذي انحنى وهو يلحقها متسللاً بين الشجيرات والكلاب الأخرى تتبعه في مواقع قريبة..

قبل أن تتجاوز ساما الشجيرات، لاحظت الفراغ الذي يبدو خلفها، وأدركت أنها تقع على رأس منحدرٍ لا تعلم حجمه أو خطورته، لكن لهاث الكلب خلفها الذي تكاد تشعر به على ساقها من الخلف أعماها عن التفكير وهي تدفع نفسها بقوة متجاوزة آخر صف من الفروع القاسية، وفي اللحظة ذاتها اندفع الكلب الشرس نحوها مطلقاً زمجرة أخيرة وهو يحاول قضم ساقها الدقيقة، لكن أسنانه أطبقت على الفراغ بعد أن سقطت ساما متدحرجة على المنحدر الصخري بعنف وشهقاتها تصل لسمع الرجال الملاحقين لها..

وقف الكلب يزمجر بغضب قبل أن تخفت زمجرته وهو يزوم ويدور في موقعه بقلق واضح والكلاب الأخرى تحذو حذوه.. فيما لحق الرجال بالكلاب في فترة وجيزة وأحدهم يصيح "أين اختفت؟"

أشار رجل إلى المنحدر عند أقدامهم وهو يقول "لقد سقطت في هذا المنحدر.. أنا متأكد أنني رأيتها تهوي فيه.."

ضيّق آخر عينيه وهو ينظر عبر المنحدر الذي كان بانحدار سهل رغم الصخور التي تتناثر فيه، لكنه كان عميقاً نوعاً ما والغابة التي لا يتغلغل فيها النور تكسوه بظلمة شديدة، فيما شكلت بعض الصخور الكبيرة غطاء يغطيه عن الأعين في الأعلى.. فقال الرجل عابساً "أين هي؟.. أنا لا أراها.."

تقدم الثاني خطوة وهو يدفع أحد الكلاب أمامه قائلاً "علينا اللحاق بها قبل أن تهرب لقرية أخرى.."

لكن الكلب تراجع خطوات باعتراض صريح وهو يزمجر بغضب مما أدهش الرجل، فيما قال آخر مادّاً ذراعه ليوقف البقية "مهلاً.. يكفي ما فعلناه حتى الآن.."

قال الثاني باعتراض وهو يجذب الكلب المتراجع من الحلقة التي تحيط بعنقه "لمَ؟.. العمدة أمرنا بالقبض عليها وإحضارها إليه مهما كان الأمر.."

قال الأول مقطباً "لا يمكننا ذلك الآن.. هذه منطقة محظورة.."

نظر له الرجل الثاني بشيء من عدم الفهم، فأشار الأول للكلاب التي تراجعت خطوات باعتراض صريح "انفعال الكلاب وكفّها عن المطاردة هو أكبر دليل أننا وصلنا إليه.."

وأضاف متأملاً المنحدر الساكن الذي يلفّه الصمت الغريب على هذه الغابة "وصلنا إلى مدخل طريق الأطياف.."

تراجع الرجل الثاني والذي كان الأصغر سناً في المجموعة قائلاً بارتباك "طريق الأطياف؟.. أأنت متأكد؟.. لكني كنت أظن مدخله هو أحد الكهوف الواقعة في الجانب الآخر من الغابة.."

قال الرجل الأول "لا.. بل هذا هو.. لكننا أطلقنا تلك الإشاعات لإبعاد الأطفال عن هذه البقعة وكبح جماح فضولهم حولها.."

وأضاف مشيراً للمنحدر عند قدميه "ألا ترى أن الطفلة قد اختفت فور سقوطها فيه؟.. لا بد أنها قد دخلت طريق الأطياف بالفعل.."

اتسعت الأعين عندها ورجل ثالث يقول "كيف استدلت الطفلة على هذا الموقع بالذات؟.. أتعلم ما يعنيه ذلك؟.. لقد هربت الطفلة عائدة لعالمها الأصلي.. يبدو أن كل ما قيل عنها صحيح.."

فقال الأول وهو يستدير مغادراً "هذا لا يهم.. المهم أننا تخلصنا من ذلك الكائن.."

تأمل الرجل الثاني ذلك المنحدر الذي يخيّم السكون والظلام عليه بشكل غريب للناظر إليه، ثم استدار وقشعريرة تسري في جسده وهو يجذب الكلب القريب مغادراً الموقع.. بدأت الكلاب تتراكض مبتعدة عائدة للقرية بسرور واضح للابتعاد عن ذلك المكان، فيما غمغم الرجل الثاني "هل هذا يعني أن النحس الذي يلازم القرية سيزول مع غيابها؟.."

أجاب الأول بحزم "لابد أن يحدث ذلك مع رحيلها.."

غادر الرجال والصمت يلفهم حتى غيّبهم الظلام الذي بدا دامساً في هذا الجزء من الغابة..

عندما تهاوت ساما وقد فوجئت بالأرض تختفي من تحت قدميها، سقطت متدحرجة على المنحدر الصخري بشكل مؤلم دون أن تملك تخفيف سقوطها بتاتاً.. وبعد بضع لحظات بدت لها أبدية، توقف جسدها تماماً عند قاع المنحدر لتفقد الوعي مع ذلك السقوط الذي لم يترفق بجسدها الضعيف الغض..

طال غيابها عن الوعي فترة لا تدركها، ثم فتحت عينيها فجأة بعد أن استعادت وعيها وعادت لها ذكرى ما جرى قبل سقوطها.. هبّت جالسة بتعب وهي تشعر بكل جزء من جسدها يصرخ بألم شديد أورثها دواراً خفيفاً.. جلست تتلفت حولها وهي تنصت للصمت في الموقع.. هل غادر الرجال ويئسوا منها؟.. هالها ألا تتمكن من رؤية شيء وقد فوجئت بالظلام الدامس يغمر المنطقة حولها بحيث لم تتمكن من رؤية يدها ولا رؤية تفاصيل ما حولها.. كان الصمت تاماً بشكل مريب، لا حفيف ورقة ولا نسمة هواء تمر بين الأشجار فتهز أوراقها، ولا حتى صوت جدول ماءٍ قريب أو زقزقة عصفور وحيد تأخر في الهجرة نحو الجنوب..

نهضت ساما محاولة تجاهل آلامها، وسارت بخطوات متعثرة مادة يديها أمامها فيما بدا لها اتجاهاً معاكساً لموقع القرية.. لم ترغب بأن تعود أدراجها فيقبض عليها رجال القرية، ولا تعلم ما الذي ينتوون فعله بها مع إصرارهم على مطاردتها بذلك الشكل، لكن خيالها صوّر لها أشكالاً عديدة للمصير الذي ينتظرها بأيديهم.. لذا فضّلت الاستمرار في طريقها حتى تعثر على مخبأ تختبئ فيه لهذه الليلة حتى تطلع شمس النهار وتتمكن من رؤية طريقها بشكل أفضل..

بعد سير قصير، تخللته عثرات وسقطات مؤلمة سبّبت لها أوجاعاً فوق أوجاعها، قررت ساما أخيراً التوقف في جانب المكان حيث وجدت صخوراً ضخمة تشكل لها مأوىً مؤقتاً حتى طلوع الصباح.. لم تكن تستطيع رؤية لمحة مما حولها، لكنها بتلمس الصخور خمّنت أنها كافية لإخفائها في الوقت الحالي، لذا انطوت بجسدها الصغير في ذلك الموقع والتزمت الصمت التام.. طال الصمت واستمر الظلام أمداً طويلاً لعقل الطفلة الصغيرة، لكن رغم ذلك لم يراودها النعاس بتاتاً.. ظلت متيقظة بعينين مفتوحتين رغم أنها لا ترى ولو ضوءاً صغيراً حولها، وكلما تراءى لسمعها أي صوت خافت أدارت رأسها نحوه بتوتر ورعب لا محدودين.. مع تزايد الظلمة وتطاول الوقت كان ذعرها من هذا الموقع يزداد وقلقها يتعاظم مما قد يقترب منها لينهش جسدها الضعيف دون أن تدرك ما يجري حولها..

وبعد وقت طويل طويل جداً، لمحت ساما بطرف عينها نوراً باهتاً في جانب المكان، فالتفتت إليه بقلق خشية أن يكون ذلك ضوء مشاعل رجال القرية، فلا يبدو أن الشمس ستطلع في أي وقت قريب.. لكن ذلك الضوء الفضي كان يختلف عن ضوء المشاعل الأصفر، رغم أنه بدا متموجاً مثله ونوره يسقط على الصخور القريبة.. لاحظت ساما من مخبئها أن ذلك الضوء كان يقترب منها بخفة، وأنه لم يكن يرتفع أكثر من مقدار إصبعٍ عن مستوى الأرض..

توترت ساما نوعاً ما وهي تحدق في ذلك الضوء، وهو الشيء الوحيد الذي تتمكن من رؤيته حالياً.. ولما اقترب منها صاحب الضوء، أدركت أن ما تراه كان كائناً قصيراً لا يتعدى طوله طول إصبع من أصابعها، وقد بدا لعينيها مضيئاً بنفسه وهو يقترب منها دون وجل وبفضول ظاهر.. كان حجمه الصغير مما أبعد القلق عن نفس ساما وهي تراقب الكائن بدورها متفحصة.. هل هو من حيوانات الغابة؟.. يبدو أنه لا يخرج إلا ليلاً، لذا لم ترَه قط رغم تكرر تجوالها في جنبات الغابة طوال السنوات الماضية..

كان الكائن القصير ضئيلاً برأس أكبر من جسده، وعينان سوداوان لا تظهران أي تعابير، وفم صغير مفتوح بصمت.. يقف على قدميه بينما تتدلى يداه بجانب جسده بلا حراك.. لا يكسو رأسه أو جسده أي شعر، ويكاد يخلو من أي تفاصيل بخلاف عيناه وفمه، ولا يصدر منه أي صوت.. تحيّرت ساما من الضوء الذي يبدو أنه ينبع منه لكن في الوقت ذاته كان هادئاً وكأنه محاط بغلالة من نور القمر الخفيف..

تشجعت ساما مع مرأى الكائن الذي بقي واقفاً أمامها دون حراك، فقالت "من أين أتيت يا صغير؟.. هل

تستطيع أن تضيء لي الطريق؟"

مدت يدها له محاولة لمسه، فلم يتراجع وهو يراقبها بتمعن واضح.. وقبل أن تتمكن ساما من لمسه، انتبهت لوجود كائن آخر يقف على مبعدة منهما.. رفعت بصرها إليه، لترى في تلك اللحظة أعداداً كبيرة من تلك الكائنات وهي تخرج من مخابئها بين الصخور وضوؤها يعطيها لمحة واضحة عن الموقع حولها.. رغم أن أعداد تلك الكائنات كانت بالمئات، لكنه لم يُثِر توجساً في نفسها بل بدا منظراً مبهجاً لعينيها وذكرها بأحد الاحتفالات التي تقيمها القرية مع انتهاء موسم الشتاء، حيث تعلق الأضواء في جنبات المنازل وتغدو القرية متوهجة بنورٍ جميل وألوان متنوعة تبهج الناظر إليها..

بدأت تلك الكائنات تقترب من ساما التي اتسعت ابتسامتها ثم ضحكت للفضول الظاهر في الأعين المحيطة بها.. ثم تشجعت لتمسك أحدها بخفة بيدها فلم تجد منه ممانعة ولم يظهر خوفاً منها، عندها حملته ونهضت لتخطو خطوتين فتجد أن تلك الكائنات قد تجمعت حولها وبدأت تساير خطواتها بخطوات سريعة مضحكة.. تزايدت ضحكات ساما وهي تسرع بخطواتها مراقبة محاولات الكائنات الحثيثة لتقليص المسافة بينها وبين ساما، ونور تلك الكائنات يعطيها لمحة واضحة للطريق الذي تسلكه بحيث جنّبها السقوط على الصخور المتناثرة في الموقع..

ثم بدأت الكائنات القريبة منها بتسلق ساقيها والتسلل على ظهرها وذراعيها، حتى تجمع العشرات منها على كتفيها وذراعيها ورأسها وساما تضحك بشكل لا إرادي للدغدغة التي تثير ها أقدام الكائنات الصغيرة وهي تسعى على جسدها.. وبعد لحظات لم تطُل، شعرت ساما بتعب بالغ بحيث خفت من سيرها بحدة والكائنات تلحق بها وتسبقها بخطوات وهي ترفع رأسها تراقبها بصمت.. لهثت ساما شيئاً ما وهي تستند على ركبتيها بيديها.. كانت متعبة، وراودتها رغبة شديدة بالراحة بانتظار الصباح..

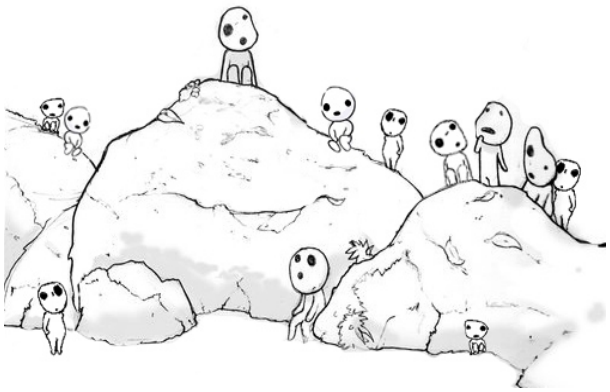

كان الطريق أمامها لا نهائياً، فلا تكاد ترى إلى أين تسير ولا تتمكن من رؤية حدود الموقع حولها رغم الضوء الذي تلقية الكائنات عند قدميها.. شعرت بالمزيد من الكائنات تصعد على جسدها لتصل لكتفيها

ورأسها، ورغم صغر حجمها لكن ساما شعرت كأن صخرة ثقيلة تستقر على كتفيها، وبدأ جسدها يتثاقل أكثر فأكثر حتى انهارت على ركبتيها وهي تستند على الأرض بيديها بتعب بالغ.. بدأت الرؤية تغيم أمام عينيها، وبدأ تنفسها يتثاقل أكثر فأكثر فيتحول لشهيق قوي تجرّ به أنفاسها بقوة فيما تزايد الألم في صدرها مع كل نفسٍ تسحبه..

لم يكن سنّ ساما يسمح لها بربط الأمور ببعضها البعض، وكل ما دار بذهنها في تلك اللحظات أن التعب البالغ الذي تشعر به هو جراء المطاردة القاسية التي جرت لها في الغابة.. وكل ما تمنته في تلك اللحظات هو أن تغمض عينيها وتنام نوماً عميقاً يخفف عنها هذا التعب البالغ الذي تشعر به..

لكنها لم تشعر بنفسها وهي تسقط أرضاً على الأرض الصخرية، وفيما بدأ تنفسها يخفت أكثر فأكثر، بدأت تلك الكائنات تقترب منها دون وجل فتصعد على ظهرها وتكاد تغطيها وهي تصدر صوتاً خافتاً كأنه رنين مئات الأجراس.. وبينما تهاوى وعي ساما أكثر فأكثر، لم تجد لديها من القوة إلا لرفع يدها والتشبث بالقلادة التي تحيط عنقها بقوة، وكأنها تحاول استشعار بعض الأمان منها أو تطمين نفسها بأن كل الأمور ستكون على ما يرام بعد هذه الغفوة التي ستغفوها..

وسرعان ما تهاوى وعيها في غيبوبة عميقة مخلفة صمتاً تاماً إلا من تردد تلك الأجراس التي تعالت بشكل يزيد الموقع وحشة..

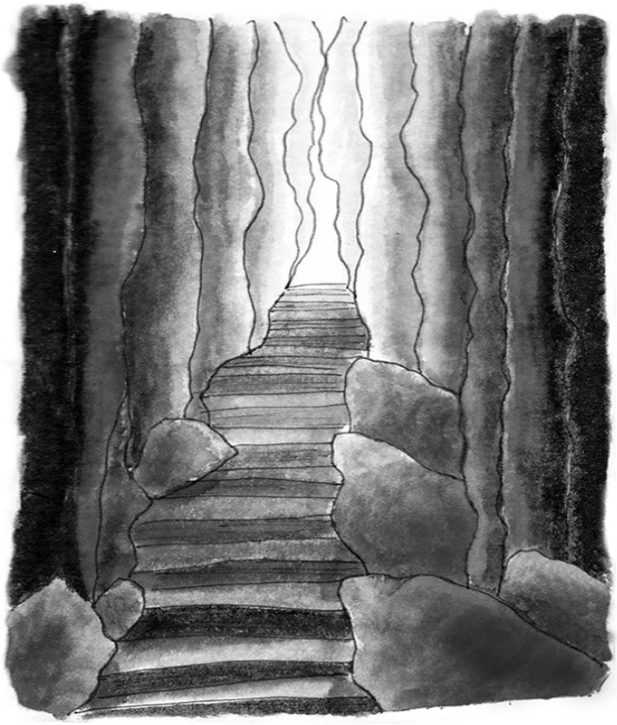

الفصل الثاني : شجرة الحكمة

على جذع شجرة ساقطة قرب نهرٍ واسع يسير بسلاسة، جلس ذلك الرجل ذو الكتفين العريضين وطول فارع وسمارٍ خفيف.. شعره القصير بلون أبيض غريب، ولم يكن ذلك بسبب عمره فهو لا يبدو قد جاوز مرحلة الشباب بعد.. بوجه طويل غير حليق، وأنف حاد يعلو فماً متجهماً بشكل دائم، وعيناه الرماديتان تلتمعان بوهج غاضب وهو يراقب تلك المرأة التي جلست على فرع شجرة سامقة في موقع قريب.. ثم سمعها تقول بصوت رقيق "لا داعي لهذه النظرات الحارقة.. لقد عرضت عليك عرضاً، ولا أريد منك إلا التفكير به ملياً.."

قال بسرعة "عرضك مرفوض.. فهلا تركتني وشأني؟"

قالت وهي تعبث بخصلات شعرها كعادتها "هل تستثقل وجود امرأة جميلة مثلي؟.. لهذا السبب ستظل وحيداً لما بقي لك من العمر.."

لم يعلق الرجل على قولها وهو يراها تدير خصلات شعرها مراراً بإصبعها قبل أن ترميها للخلف وتبادله النظرات بثقة بالغة.. كانت بالفعل جميلة، إن كان بالإمكان وصف امرأة بجناحين بهذا الوصف.. بوجه أبيض وعينان واسعتان خضراوان ورموش كثيفة، أنفها دقيق وطويل، يعلو فماً كرزياً وذقناً ناعماً.. شعرها المتموج بلون عسلي لا يتجاوز كتفيها، وجسدها طويل نحيف بأطراف دقيقة، ومن ظهرها نبت جناحان شفافان يشبهان جناحي اليعسوب بلمعة خضراء زاهية.. وترتدي ملابس مرنة تلتف حول جسدها كاملاً وتضيق عند قدميها ويديها مانحة إياها سهولة في الحركة والطيران دون معوقات..

لم يتعجب الرجل لرؤية الجناحين على ظهرها، فهذا ليس منظراً مستغرباً في هذا العالم.. ورغم ملامحها الجميلة التي لا تفوت أي ناظر إليها، إلا أن نظراتها القاسية وابتسامتها المغرورة تطغى على ذلك الجمال.. أشاح الرجل بوجهه وهو يراقب الدوائر التي تتكون وسط النهر مع الصخور التي يرميها فيه، عندها قالت المرأة بشيء من الضجر "لا أدري سبب عنادك هذا.. أنت تعلم أنني لا أستطيع اللجوء لغيرك، فلا تخيّب ظني.."

قال بجفاء "من هو العنيد هنا؟.. لقد مضت سنة كاملة منذ لقائنا المشؤوم ذاك، فما الذي أعادك إليّ بعد هذه المدة؟.. أنا لا يهمني تحقيق رغباتك الحمقاء تلك.. لمَ لا تنجزين هذا الأمر بنفسك؟.."

أجابت بسرعة "أتظن أنني لم أحاول؟.. لكن كل ما حققته هو أن طُردتُ شرّ طردة بشكل مهين.. أتظن أنني قادرة على أن أحط من قدري مرة أخرى في محاولة جديدة؟"

عندها قال بغلظة "لا يهمني أمرك قيد شعرة.."

ونهض مغادراً الموقع بعد أن سئم إلحاحها، لكنها لحقته وهي تطير بجناحيها بخفة وهما يصدران صوتاً خافتاً.. فبقيت على شيء من الارتفاع بعيداً عن قبضته تحسباً للأسوأ، وقالت بهدوء "أنت لن تتخلص مني بسهولة يا هذا.. ما الذي يغيظك في الاقتراح الذي اقترحته؟"

زمجر الرجل بغيظ، فأسرعت تقف في وجهه وهي تقول بابتسامة عابثة "أنت لن تدّعي الطيبة والشفقة الآن.. أليس كذلك؟.. لا تقل لي إن أمر ذلك العجوز يهمك.."

ومالت نحوه مضيفة "لقد حذرتك منه سابقاً، لكنك لم تستمع لنصحي.. هل نسيت بهذه السرعة؟.."

تجاوزها الرجل مستمراً بسيره، فقالت وهي ترتفع من جديد "لو أنك استمعت لنصحي، وفعلت ما طلبته منك سابقاً، لكنت الآن تعيش معززاً وسط قبيلتك.. لكنك تشبثت بعنادك، وحصدت نتيجة ذلك بأقسى مما توقعت.."

فقال الرجل بغلظة "ولست نادماً على ذلك.."

غمغمت بملل وهي تدير بصرها جانباً "يا لك من أحمق.."

وعندما عادت ببصرها إليه، وجدته قد اختفى من أمامها بسرعته الفائقة، فأسرعت تطير محاولة اللحاق به وهي تهمس بغيظ "لن تهرب مني مجدداً يا هذا.."

عندما استعادت ساما وعيها فجأة، فتحت عينيها بقوة وأنفاسها تتلاحق وكأنها تستعيد ذلك التعب البالغ الذي شعرت به قبل فقدانها للوعي.. تلفتت حولها في المكان المظلم، وظنت لوهلة أنها لا تزال في ذلك الموقع من الغابة.. فأين اختفت تلك الكائنات المضيئة؟..

انتبهت في تلك اللحظة للفراش الوثير الذي تنام عليه، وبدا لها أنها تستطيع رؤية حدود الأشياء القريبة منها بضوء خفيف يتسلل من نافذة قريبة.. إنها في منزل.. هل عادت للقرية؟.. تلاحقت دقات قلبها بشيء من التوتر وهي تحاول النهوض جالسة.. هل عثر عليها رجال قريتها؟.. ما الذي سيفعلونه بها؟.. بل ما الذي فعلته ليلاحقوها بهذا الإصرار؟.. ما تزال تلك الإجابة عصيّة على عقلها الصغير..

حاولت النزول من الفراش المنخفض، لكن ساقاها المرتجفتان أبتا أن تطيعاها وهي تتهاوى في مكانها من جديد، عندما سمعت صوتاً خافتاً في جانب المكان.. استدارت بسرعة وقلق شديد لترى عند باب تلك الغرفة فتاة لا تتجاوزها في العمر تقف حاملة سراجاً زيتياً يتوهج ضوؤه في الغرفة المظلمة.. ابتسمت الفتاة شيئاً ما وقالت وهي تتقدم خطوات "هل استيقظت أخيراً؟.. أتشعرين أنك أفضل حالاً؟"

ظلت ساما تراقب الفتاة بقلق شديد محاولة تذكر إن كانت قد رأتها سابقاً في القرية.. فهي في العمر ذاته، فلا بد أنها في السابق كانت تلهو معها ومع بقية الفتيات والصبية في الغابة.. لكن ذاكرتها خانتها وهي عاجزة عن معرفة هويتها أو هوية المكان الذي هي فيه.. كانت الفتاة لا تكاد تبلغ العاشرة من عمرها، بجسد صغير وضئيل ووجه نحيف أبيض وخدين حمراوين.. شعرها البني يكاد لا يتجاوز أذنيها، وعيناها العسليتان دائريتان وتلتمعان بفضول ظاهر وهي تراقب ساما بدورها.. وملابسها رغم بساطتها لا تشبه ملابس الفتيات القرويات التي تمتاز بطولها واتساعها عادة، فهي عبارة عن قميص طويل فضفاض يصل لركبتيها وتحته بنطال قطني ضيق أسود اللون، وقد منحتها الملابس التي تبدو كبيرة عليها شكلاً أصغر مما هي عليه حقاً..

وضعت الفتاة السراج على طاولة قريبة واقتربت من ساما متسائلة "لِمَ أنت خائفة؟.. هل تخشينني؟"

قالت ساما متوجسة "هل عدتُ للقرية؟.. كيف وصلوا إليّ وأعادوني؟.. وما الذي سيفعلونه بي؟"

نظرت لها الفتاة باهتمام وقالت "لا أدري عمّ تتحدثين، لكنك لست في قرية.. لقد عثر عليك الحكيم وأنت فاقدة الوعي وأحضرك إلى هنا.. لكن، قولي لي.. ما الذي جاء بك لطريق الأطياف؟.. وكيف تمكنت من تجاوزه دون أن تفقدي حياتك؟"

اتسعت عينا ساما وهي تغمغم "طريق الأطياف؟.."

ثم قالت بانفعال "إذن تلك الكائنات الصغيرة هي....."

أجابت الفتاة "أجل.. هي الأطياف، ولا يعبر بشري طريق الأطياف ويحتفظ بروحه بعدها بتاتاً.. لذا أنتِ حالة نادرة بالتأكيد.."

ومدت يدها بابتسامة قائلة "أنا مالو.. مساعدة الحكيم.. وأنتِ؟"

أجابت ساما بتوتر "أنا ساما.. لكن... من هو ذلك الحكيم؟.. وما الذي ينوي فعله بي؟"

أتاها صوت رجل عجوز من خلف مالو يقول "وما الذي سأفعله بك إلا إنقاذ حياتك؟.. كان تواجدي في طريق الأطياف صدفة بالتأكيد، لكن لولا تلك الصدفة لما استعدتِ وعيك بتاتاً بعدها يا فتاة.."

نظرت ساما إلى الرجل لتجده طويلاً نحيفاً وإن كان محني الكتفين لعمره الكبير، وهذا ما بدا بوضوح في تجاعيد وجهه وحاجبيه الكثين المنخفضين على عينين صغيرتين ولحيته الطويلة البيضاء وشعره الثائر.. يرفل في ثياب طويلة واسعة داكنة اللون بدون أي زينة واضحة..

اقترب الرجل منها مغمغماً "كيف تشعرين الآن؟.. أأنت أفضل حالاً؟"

قالت ساما بدهشة "ما الذي جرى لي؟.."

أجابت مالو بشيء من الانفعال "لقد عثر عليك الحكيم فاقدة الوعي في طريق الأطياف.. الأطياف كائنات مسالمة ظاهرياً، ولكنها تمتص طاقة من يمر عبر ذلك الطريق وتفقده قواه حتى يسقط فاقداً الوعي.. عندها تستمر في امتصاص رحيق الحياة منه حتى يغدو جثة لا روح فيها.."

ارتجف جسد ساما لذلك الوصف وهي تتذكر تلك الكائنات الوديعة، فيما أضافت مالو بحماس "لا يمكنك تخيّل كيف يحدث ذلك في لحظات معدودة فقط.. ونادراً ما يفلت امرئ من هذا المصير مهما كانت هويته.. فقوة الأطياف تكمن في جموعها الهائلة فيما لا يشكل أي فرد منها تهديداً يذكر.. لكن....."

والتفتت للحكيم الذي وقف جانباً مضيفة "لكن من الغريب أن ساما قد نجت من هذا المصير.. حتى لو تصادف وجودك في المكان ذاته في الوقت ذاته، لا يمكن كبح جماح الأطياف ومنعها من إكمال عملها للنهاية.. فكيف؟"

اقترب الحكيم من ساما مجيباً بابتسامة "تلك صدفة كما قلت لك.. تواجدي هناك صدفة بالتأكيد، لكن

الأغرب منها تواجد هذا الشيء مع الفتاة.."

مد يده نحو عنق ساما ورفع القلادة التي تحيط بها، والتي كانت عبارة عن شريط جلدي دقيق يحمل في نهايته ناباً حاداً عاجي اللون.. نظرت مالو للقلادة بدهشة فيما تساءلت ساما وهي تقبض على القلادة التي لطالما اعتبرتها تميمة حظ، دون أن تدرك ما يجعلها تعتقد هذا الاعتقاد "لماذا؟.. ما بها هذه القلادة؟"

قال الحكيم "حالما رأت الأطياف هذه القلادة، بادرت للفرار من المكان تاركة إياك غارقة في غيبوبة عميقة.. ولما وصلت ورأيتك ظننت أنك قد قضيت نحبك، ولكني صدمت لرؤيتك حية بعد، ولاختفاء الأطياف من الموقع بخوف ظاهر.. لكن زالت دهشتي مع مرأى هذه القلادة في عنقك.."

اندفعت ساما تسأل بفضول "وما هو ذلك الناب؟.. هل الأطياف تخشى الحيوانات المفترسة؟.."

أجاب الحكيم وهو يجلس جانباً "لا.. إلا لو كان الناب خاصاً بقبائل (الريبال).. فهي الوحيدة التي تخشاها الأطياف وتهرب منها دون أن نعرف سبباً مفهوماً لذلك.."

اتسعت عينا مالو وهي تهتف "(الريبال)؟.. أهو لأحدها؟"

نقلت ساما بصرها بينهما بعدم فهم، فيما نظر إليها الحكيم قائلاً "والآن يا فتاة.. هل تخبرينني من أنت؟.. وكيف وصلت لهذا المكان؟.. بل من أين حصلت على هذا الناب؟"

توترت ساما بشدة وقد راودها شعور بأن الرجل لو عرف حكاية هربها من القرية فسيعيدها إليها بكل تأكيد.. لذا دفعت نفسها للنهوض والنزول عن الفراش وهي تقول بارتباك "عليّ الرحيل.. لا أستطيع البقاء هنا.."

ودفعت مالو من أمامها وهي تتجه نحو باب الغرفة، عندما قال الحكيم بصوت واضح "أين يمكن لبشرية أن تذهب في عالم الأطياف هذا؟.. ستفقدين حياتك خلال ساعات معدودة.."

ارتجفت ساما وهي تنظر إليه بعينين متسعتين، وقالت بارتباك "عالم الأطياف؟.. ماذا تعني؟.. لمَ قد أفقد حياتي؟"

نهض الحكيم واقفاً وأجاب "ما رأيك بأن تعودي للجلوس وتخففي من ذعرك هذا؟.. سأشرح لك كل ما يدور بذهنك من أسئلة.. ولا تخشي شيئاً.. أنت بأمانٍ هنا.."

نقلت ساما بصرها بتردد بين الحكيم وبين الفتاة المدعوة مالو، فابتسمت لها مالو ابتسامة خفيفة أبعدت

القلق عن نفسها وهي تقول "لا تخشيْ شيئاً.. نحن لا نريد بك شراً.."

غالبت ساما ارتباكها بصعوبة، وعادت لتجلس على السرير بصمت وسكون، وقد غلبتها طبيعتها التي تجعلها تطيع ما تؤمر به دون جدال..

انخفض الفتى ذو الستة عشر عاماً في موقعه وسط الأشجار الكثيفة، وتأمل الغابة حوله بحذر وصمت شديدين.. كان المكان ساكناً بشدة، إن تغاضينا عن ضجيج حيوانات وحشرات الغابة التي لا تكاد تهدأ لحظة واحدة.. لكن عدا عن ذلك، وعندما تعتاد الأذن ذلك الضجيج وتبدأ في تناسيه، فإن صوتاً آخر لا يكاد يتردد في المكان إلا صوت حفيف الأوراق الخفيف إثر هبوب نسمة هادئة..

تشمم الفتى الهواء بحرص بحثاً عن أثر لرائحة غريبة فيه، لكن تعذر عليه ذلك من اتجاه هبوب النسمة المعاكس لموقعه.. فزفر بصوت خفيف وهو يهمس "ما الذي جاء بي لهذا المكان؟.. لقد أوقعت نفسي في ورطة.."

تلفت حوله من جديد، ثم سار بين الأشجار بحذر بالغ، عندما سمع طلقة عالية الصوت من خلفه.. ارتمى جانباً بتلقائية وتدحرج قبل أن يعتدل مواجهاً مَن خلفه، فرأى شبكة دائرية ذات حبال غليظة نوعاً ما وقد سقطت أرضاً في الموقع الذي كان فيه منذ لحظة، ورأى خلفه تلك المرأة التي تتجاوز بطولها وجسدها العريض بقية النساء عادة، وفي يدها بندقية عريضة الفوهة ينسلّ الدخان منها بعد الطلقة التي أطلقتها..

استدار الفتى محاولاً الابتعاد من جديد في جهة أخرى، بينما صاحت المرأة بصوت مرتفع "لن تهرب مني يا هذا.."

وسارعت للحاق به وهي تتناول أداة تشبه القوس العادي بحجم صغير، وإن كانت أكثر تطوراً ويتم تثبيتها على ظاهر اليد، وتساعد مستخدمها على تلقيمها بالسهام وإطلاقها بسرعة ومهارة أكبر من المعتاد.. فاتخذت المرأة مكاناً علوياً على صخرة قريبة، وصوّبت بحذر شديد قبل أن تطلق السهم نحو الفتى الذي أولاها ظهره هارباً.. أصاب السهم جانباً قريباً من الفتى الذي انثنى جانباً وغيرّ طريقه، فسارعت المرأة

لإمطاره بسهام أخرى بأسرع ما تستطيع وهي تحاول التدقيق في تصويبها أكثر في كل مرة.. وبينما استدار الفتى محاولاً اتخاذ شجيرات كثيفة كحاجز بينه وبين المرأة، وجد سهماً من سهامها يصيب ساقه فيخترقها مسبباً له ألماً حارقاً وهو يتعثر في ركضه ويسقط أرضاً..

أطلقت المرأة صيحة نصر وهي تقفز من موقعها وتركض نحوه متناولة بندقيتها الأخرى وتجهزها بطلقة جديدة.. ولما اقتربت من الفتى الذي جثا ممسكاً بساقه المصابة، رفعت بندقيتها بتأهب وهي تغمغم "لا تتحرك الآن يا صغير.."

لكن الفتى الذي لم يرفع رأسه مع اقترابها قفز فجأة نحوها، فسارعت المرأة لإطلاق طلقة من بندقيتها نحوه.. لكن الفتى تجاوز مسار الطلقة بسرعة مستخدماً جناحين طويلين يشابهان جناحا خفاش برزا من ظهره، فعاوناه على الارتفاع عالياً قبل أن يهوي على المرأة ويرتطم بها بقدميه فيسقطها أرضاً وهو يجثم فوقها.. زمجر الفتى بغيظ وهو يضغط على عنقها بيديه بقوة تفوق من هم بعمره، لكن المرأة لم تجفل لسقوطها بل بادرت لرميه بحفنة من التراب في وجهه، مما اضطر الفتى لأن يخفف قبضته وهو ينفض التراب عن عينيه متألماً.. عندها رمته المرأة من فوقها بعنف على وجهه ووضعت ركبتها على ظهره وهي تمسك ذراعيه بيد، بينما استخرجت حبلاً من حقيبة تحملها على كتفها قائلة بابتسامة "والآن كُن ولداً طيباً ولا داعي لإثارة الشغب.."

وأضافت بسخرية "ألم تدرك بعد لمَ ترصّدت لك في هذه الغابة بالذات؟.. لكيلا تتمكن من استخدام هذين الجناحين الجميلين وتفر هارباً مني.. فقد سئمت ملاحقتك.."

صاح الفتى غاضباً وهو يحاول منعها من تقييده "لمَ تلاحقينني بهذا الإصرار؟"

أجابت وهي تثبته بقوة "لأن اصطياد أخي التنين أسهل من اصطياد التنين ذاته.. ألا ترى ذلك؟"

زمجر الفتى بغيظ، ورفرف بقوة بجناحيه محاولاً الخلاص منها بأي وسيلة كانت.. ورغم وزنها الثقيل على ظهره، لكنه باستماتته الكبيرة وغضبه الشديد تمكن من رفع جسده بجناحيه قليلاً، قبل أن يدفع المرأة من فوق ظهره بعيداً عنه مما أجبرها على إفلاته.. عندها لم يتردد الفتى في القفز وهو يرفّ بجناحيه رفة سريعة حملها كل قوته، قبل أن يضمّ جناحيه قليلاً ويكتفي بضربات سريعة وقصيرة ليرفع نفسه عالياً ويخترق فرجة محدودة بين الأشجار القريبة نحو السماء.. وفور أن تجاوز حاجز الأشجار تمكن من فتح جناحيه دون

خوف وهو يحلق بأسرع ما عنده مبتعداً، والسهام تتطاير خلفه أو ترتطم بالأشجار القريبة في إخفاق واضح لاصطياده..

أصدرت المرأة صوتاً حانقاً بلسانها، وأعادت القوس الذي ترفعه بيدها لتثبته في حزام خاص على ظهرها.. ثم تناولت البندقية التي سقطت منها أرضاً وهي تدمدم بحنق "فشل ذريع ليوم آخر.. يبدو أن هذه المهمة لن تكون أسهل مع كل يوم يمضي.."

ونفضت ثيابها زافرة "لآخر مرة أقوم باصطياد كائن طائر.. جناحاه هذان يثيران الغيظ بشدة.."

في تلك الأثناء، كان الفتى قد ابتعد بسرعة البرق وتجاوز مساحة كبيرة من الغابة الكثيفة تحته حتى اطمأن أنه ابتعد عن المرأة وتخلص من ملاحقتها له.. عندها وقف على رأس إحدى الأشجار العالية، وقام بسحب السهم الذي لم يزل يخترق ساقه وهو يكتم أنينه.. رمى السهم بعد أن تأمله للحظة، وزفر وهو يتطلع حوله مغمغماً "يبدو أن حظي اليوم سيئ أيضاً.. لا مناص من الرحيل إذاً.."

عاد للتحليق على ارتفاع كافٍ ليأمن أي هجوم من الأرض تحته، وتجاوز الغابة بسرعته الكبيرة ليحلق نحو السلسلة الجبلية ذات القمم العالية المدببة والتي يكسوها الثلج طوال السنة.. تجاوز أقرب الجبال إليه وسار عبر ثنايا السلسلة حتى وصل لجبل متوسط الحجم والمكان، فخفف سرعة طيرانه وهو يقترب من كهف عميق يقع في جزءٍ عالٍ من ذلك الجبل.. هبط الفتى عند مدخل الكهف وضمّ جناحيه لجسده لاهثاً وهو يتأمل الجرح في ساقه.. انحنى رافعاً طرف بنطاله بحاشيته المتمزقة، وتأمل الجرح العميق الذي لا يزال ينزف شيئاً ما بعد أن تخلص من السهم.. فغمغم وهو يحاول مسح الدماء بكم قميصه "تلك المرأة كادت تقتلني.. يا لها من مجنونة.."

شعر بلفحة هواء ساخنة تداعب شعره، فرفع رأسه ليواجه ذلك الرأس الضخم لتنين يكاد يتجاوز حجمه ثلاث مرات، وقد ضمّه الكهف بالكاد.. كان التنين بلون أسود وذو أطراف حمراء، مما زاده وحشية وهيبة لمن يراه، بفم طويل مدبب وأنياب واضحة، وعينان صفراوان تلتمعان في النور الخافت وسط الكهف.. جناحاه اللذان يشابهان جناحا الفتى يكاد يصل طولهما لستة أمتار، وذيله الطويل يطوحه خلفه بحركات خافتة.. خفض التنين رأسه نحو ساق الفتى الدامية وتشممها وهو يزمجر شيئاً ما.. فربت الفتى على رأسه وأبعده عن الدماء بعد أن شعر بتوتره لرائحتها قائلاً بابتسامة "لا تقلق يا أخي.. كل الأمور على ما يرام.."

وسار نحو عمق الكهف والتنين يتململ في موقعه قبل أن يلحقه خافضاً رأسه لئلا يضرب السقف المنخفض.. وصل الفتى لجدول صغير يقطع الكهف من العمق حتى ينساب خارجه من بين الصخور.. فشرع الفتى بغسل جرحه بعد أن خلع حذاءه ورفع بنطاله للأعلى.. ثم بحث عن خرقة نظيفة ليجد إحداها بعد بحث طويل، فربط الجرح كيفما كان واستلقى جانباً بتعب زافراً بقوة..

جثم التنين على صدره رغم وزنه الثقيل وهو يتشمم وجهه ويلعق بعض الخدوش التي أصابت جبينه.. فربت الفتى على التنين ولم يدفعه من فوقه رغم ثقله لئلا يغضبه، وقال "لا بد أنك جائع.. عليك انتظار الليل، فلا آمن من خروجك في وضح النهار.. خاصة مع صيادة مجنونة تلاحقنا بكل إصرار.."

دار التنين حول نفسه، ثم جثا جانباً وهو يستكين واضعاً رأسه على ذراعيه، بينما أغمض الفتى عينيه محاولاً الحصول على بعض الراحة بدوره قبل غروب الشمس.. لقد باءت محاولاته بالفشل هذا اليوم وهو يحاول اصطياد إحدى الطرائد من الغابة، وفوق ذلك نُكِب بتلك المرأة التي أصبحت تلاحقه ليل نهار منذ شهر كامل.. فمتى سيهنأ ببقائه وحيداً مع أخيه في هذه الجبال؟.. هل يحاول الانتقال لمكان آخر؟.. قد تستطيع المرأة ببعض البحث الوصول إلى مخبئهما هذا حتى لو حاولا تضليلها مراراً وتكراراً.. لكن فكرة الانتقال أصابته ببعض الضيق.. لقد عاش سني عمره في هذا الكهف بعيداً عن القرى والمساكن وأي مكان مأهول بالبشر.. فكيف له أن يخاطر بالترحال عابراً مواقع مأهولة مع ما قد يسببه ذلك من خطورة، عليهما وعلى سكان تلك الأراضي معاً..

تباً لتلك الصيادة التي أفسدت هناء أيامهما.. وكل هذا لأجل نقود بخسة تحصل عليها من بيعه في سوق الصيادين.. لكنه لن يسمح لها بذلك أبداً.. لن يسمح لها قطعاً..

هبطت ساما درجات خشبية دائرية ضيقة تغوص في عمق ذلك المنزل الخشبي الذي يرتفع طولياً بشكل يتجاوز ما تعرفه عن المنازل العادية.. بعد أن انقادت لرأي الحكيم، عرض عليها الحديث معه في غرفة الجلوس والحصول على بعض الطعام لتعويض بعض ما فقدته من طاقة.. وها هي تنزل نحو الطابق الأرضي للمنزل تتقدمها مالو نازلة الدرجات وهي تقول "كوني حذرة لئلا تسقطي.."

صمتت ساما وهي تتبعها حذرة ولا تكاد ترى نهاية لهذه الدرجات، ورغم أن مالو كانت تحمل بيدها سراجاً، إلا أن نوره لم يكن يزيل إلا جانباً من الظلمة التي تخيّم على المكان.. لاحظت ساما اقترابهما من نافذة جانبية في الحائط الخشبي، فلم تملك فضولها وهي تنظر عبرها متأملة المنزل من الأعلى وما حوله.. عندها لم تملك اتساع عينيها وشهقة خافتة صدرت منها، فحول جدران البيت الخشبي امتدت أفرع طويلة وسميكة تمتاز بكثافة غير عادية للأوراق الخضراء الزاهية، فيما يلتف جذعٌ هائل حول البيت ولارتفاعٍ بدا لعينيها عالياً جداً.. ومن رؤية النوافذ الموزعة في ذلك الجذع الضخم، أدركت ساما أن ذلك البيت يتكون من ست طوابق على الأقل، تحيطه تلك الشجرة وتكاد تخفيه عن الأعين.. أم أن ذلك البيت قد اتخذ من الشجرة مستقراً له؟..

نظرت ساما لمالو التي تراقب انفعالاتها وقالت بدهشة "هل نحن وسط شجرة حقاً؟"

اقتربت مالو ونظرت عبر النافذة قائلة "فعلاً.. لقد اتخذ الحكيم من هذه الشجرة منزلاً له، فهي توفر له الحماية وتوثق بنيان بيته بشكل لا تفعله المنازل الحجرية العادية.. لكن رغم اتساع جذع هذه الشجرة، فإن كل طابق من هذا المنزل لا يحوي إلا غرفة واحدة فقط.."

تساءلت ساما "من يسكن هذا المنزل الكبير؟.. إنه أكبر وأعلى من أي منازل في القرية التي عشت فيها.."

قالت مالو "لا يعيش في هذا المنزل إلا الحكيم، وأنا مساعدته.. فهو يفضل العزلة ولا يحب الإزعاج.."

واستمرت بالنزول مضيفة "يحضر إلينا بعض الزوار أحياناً، وبعضهم يمكثون لعدة أيام.. لكن عدا عن ذلك، فلا أحد في هذا المنزل غيرنا.."

نظرت ساما من النافذة مجدداً محاولة رؤية معالم الموقع حول المنزل، لكن كثافة الأوراق والأفرع القريبة

منعتها من ذلك، بالإضافة لظلام تلك الليلة التي لا يفلح القمر في إنارتها ولو بشكل ضئيل.. تخلت ساما عن النافذة وهي تتبع مالو لوقت طويلة وهما تمران ببعض الأبواب بين وقت وآخر.. رغم بساطة المكان، لكن الأبواب الخشبية كانت مزخرفة جميلة المنظر، وعند وصولهما للطابق الأرضي منه، استطاعت ساما أن ترى المكان بوضوح مع المصابيح التي توزعت في المكان..

كان الطابق الأرضي مكوناً من غرفة واحدة واسعة تمت تهيتها كغرفة جلوس، بابها خشبي ثقيل مزخرف بدوره، وتوزعت بعض الأرائك الوثيرة وإن كانت بسيطة المظهر في جوانب المكان.. استقرت طاولة للطعام خشبية بدورها مع كراسٍ خفيفة في جانب الغرفة، فيما احتلت الحوائط الدائرية للغرفة أرففٌ بارتفاعها وتكدست مئات الكتب بأنواعها عليها، بالإ ضافة لبعض التماثيل واللوحات التي تشكل رسومات هندسية متنوعة مع أسهم وشروحات حولها بخط صغير.. وفي جانب آخر خارطة بدت لعيني ساما غريبة وهي التي لم ترَ مثلها قط، ولم ترَ ما يتجاوز قريتها الصغيرة والغابة المحيطة بها..

وضعت مالو السراج على طاولة جانبية، وأشارت لساما بالجلوس على كرسي قريب.. ثم هرعت لإعداد شرابٍ دافئٍ لها وبعض الشطائر الخفيفة.. بدأ الجوع يعصر معدة ساما بالفعل وهي تشمّ رائحة الطعام الخفيفة، فيما دارت ببصرها حولها وهي تتعجب مما سمعته من الحكيم في تلك الغرفة.. ماذا يعني بعالم الأطياف؟.. هل هو يختلف عن القرية التي جاءت منها؟.. هل سكانها قتلة مجرمون بحيث يجزم أنها لن تحتفظ بحياتها طويلاً؟.. إنها لم تكد تفهم شيئاً من حديثه، وما تزال تحمل العديد من الأسئلة التي بحاجة لإجابات مفصلة تناسب عقلها..

مدت يدها تلقائياً نحو القلادة، وعبثت بالناب المتدلي على صدرها كعادتها قبل أن تزفر وهي تهز قدمها بصمت.. فسمعت الحكيم يقول وهو يقترب منها "أمازلت قلقة لوجودك هنا؟.. ما الذي يمكننا فعله لطمأنتك؟"

نظرت لابتسامته الخفيفة بصمت، وفركت يديها دون أن تجيب.. كانت مع جوعها الشديد تشعر بآلام شديدة في جسدها، ربما من جراء سقوطها العنيف أثناء المطاردة، أو من لقائها بالأطياف الذي لم يكن لقاءً ممتعاً كما ظنت قبلاً.. المهم أن أموراً شتى قد تظافرت لتجعلها تشعر بعدم راحة في تلك الأوقات.. وساعد الظلام وهذا البيت الغريب في جعلها أكثر قلقاً شيئاً ما، وكلمات الحكيم تتردد في عقلها مراراً وتكراراً..

منحها الحكيم ابتسامة حاول تهدئتها بها وهو يقول "أخبريني بما جرى لك في عالمك.. أنت كنت تسكنين قرية من القرى البشرية.. أليس كذلك؟.. ما الذي جاء بك بعيداً عنها لهذا المكان؟"

لاحظت ساما النظرات الفضولية التي تلقيها عليها مالو أثناء انشغالها بإعداد الطعام، فخفضت ساما بصرها وهي تتردد للحظات، ثم بدأت تشرح للحكيم ما جرى لها في اليوم السابق.. جدال القرويين مع الرجل العجوز، ولحاقهم بها دون أن تعرف سبباً حقيقياً لذلك، ثم سقوطها من ذلك المنحدر أثناء هربها من الكلاب وفقدانها للوعي لتجد نفسها وسط ظلام مطبق..

ولما انتهت من حكايتها، علق الحكيم قائلاً "لا أدري إن كان ذلك من حسن حظك أم من سوئه، لكن هربك قادك لطريق الأطياف ومنه لعالمنا هذا الذي لا يصل إليه بشري حياً أبداً.."

قالت ساما بفضول واضح "ما هو عالم الأطياف؟.. ألا يعيش فيه البشر مثلنا؟.. ألا يمكن الوصول لهذا الموقع إلا عن طريق الأطياف؟"

قال الحكيم مفسراً الأمر "لا..عالم الأطياف، يا فتاتي، عامرٌ بكل ما يخطر على بالك من كائنات وشعوب، لكنها أبعد ما تكون عن وصفها بالبشرية.. وهو لا يمتّ لعالمكم بصلة.. عالمنا وعالمكم كوجهي عملة واحدة.. هما قريبان ومتلاصقان، لكن كل عالم يحتلّ جزءاً منفصلاً عن الآخر ولا يتقابلان.. وطريق الأطياف هو السبيل الوحيد للوصول إلينا في هذا الجزء من العالم.."

وأشار إلى مالو مضيفاً "مالو مثلاً، تنتمي لشعب (الشنّ).. وهي رغم البراءة الواضحة عليها، قد عاشت عمراً يفوق عمرك بثلاث مرات على الأقل.."

نظرت ساما باهتمام إلى مالو التي تبدو مماثلة لها في العمر، فيما قالت الأخيرة باعتراض "لماذا يجب أن أكون أنا المثال الذي تستخدمه لتوضيح فكرتك؟.."

ووضعت صحناً من الشطائر أمام ساما مع كوب شراب دافئ.. فيما قال الحكيم "ربما كان من حسن حظ البشر وجود الأطياف في ذلك الطريق المؤدي لعالمكم.. فهي كما تمنع قدوم البشر إلينا، تمنع خروج كائنات عالمنا إليكم، مع ما قد تسببه من مآسي بين جنسكم الضعيف عن مقاومتها.."

نظرت له ساما باهتمام وشيء من القلق محاولة معرفة كنه هذا العالم، ولم يبدُ لها حديث الحكيم مشجعاً كثيراً.. فيما قالت مالو وهي تجلس قريباً من ساما "لا داعي لإفزاع الفتاة يا سيدي.. لنتركها تتناول بعض

الطعام فهي لابد جائعة.."

لم تنكر ساما ذلك وهي تتناول قطعة من الشطائر بشيء من التردد.. ورغم غرابة محتواها لعينيها لكنها كانت لذيذة الطعم وشجعت ساما على تناول المزيد منها واحتساء بعض ما يحتويه ذلك الكوب.. فيما احتسى الحكيم كوباً من الشاي كما بدا لعيني ساما، وانتظر بصبر وهدوء حتى أكملت الطفلة طعامها وغمغمت شاكرة لهما براحة عميقة.. متى كانت آخر مرة أكلت فيها طعاماً لذيذاً؟.. بل متى شعرت بالشبع في السنوات الثلاث الماضية كلها؟.. أسئلة لا تقدر ساما على الإجابة عليها حالياً.. ولذا، فهي شاكرة للحكيم ومالو بعمق لهذا الاهتمام الذي أولياه لها..

سمعت الحكيم يسألها باهتمام بعد أن أنهت طعامها "أخبريني.. كيف حصلت على هذا الناب؟.. لقد أدركت من شكله وطوله أنه ليس ناب حيوان عادي.. بخبرتي الطويلة، تعرفت على ملامح أنياب قبائل (الريبال) فيه، وزاد شكي الخوف الذي لمحته في الأطياف عندما وجدتك في معقلهم دون أن يجرؤ أحدهم على التقدم منك.."

نظرت ساما للناب في يدها، وغمغمت "لا أعلم ما هم (الريبال).. هذا الناب معي منذ زمن.."

ظل الحكيم ينظر لها بتفكير، فيما نظرت إليه مالو متسائلة باهتمام "(الريبال) يقدرون على العبور إلى عالم البشر بسهولة.. أليس كذلك؟"

أجاب الحكيم "بلى.. ما دامت الأطياف غير قادرة على المساس بهم، فطريقهم إلى عالم البشر لا يعترضه شيء.. لكن عادة لا يلجأ (الريبال) للذهاب هناك ولا يملكون أي اهتمامات بالبشر.. بل إن ذهابهم هناك يكسر أحد أقدس قوانين شعبهم.."

فعلقت مالو "من المستحيل كذلك أن يعبر بشري إلى عالمنا هذا سليماً.. فكيف لساما أن تحصل على هذا الناب؟"

أدارت ساما الناب في يدها بشيء من التوتر، ثم نظرت إليهما مغمغمة "ربما....."

أولياها اهتمامهما بصورة أربكتها قليلاً، ثم استجمعت شجاعتها وهي تقول "ما أذكره أنني قابلت ذئباً جريحاً في الغابة منذ سنة.."

نظرا لها بدهشة واهتمام، فقالت وهي تتأمل الناب "كان جريحاً بشدة.. ولما كدت أفرّ من مرآه، تراءى لي أنه

يئن ألماً.. ربما كان ذلك مضحكاً، لكني أجزم أنه كان يئن كأنه بشري عادي.."

تساءل الحكيم "وما الذي حدث لذلك الذئب؟"

قالت ساما "بذلت جهداً كبيراً لإقناع طبيب القرية التي أعيش فيها بعلاجه.. في البدء لم أخبره أنه ذئب، لأني خشيت أن يرفض بشدة.. أخبرته أني عثرت على حيوان جريح، ورجوته علاجه بكل وسيلة.. ولما تبعني ورأى الذئب، رفض ذلك كما توقعت وحاول الرحيل.. لكن بعد إلحاح شديد مني وتوسل كبير، رضي بأن يربط جراحه على الأقل، شريطة أن أمسك فكي الذئب بإحكام لئلا يحاول الهجوم عليه.."

قالت مالو باستنكار "كيف يطلب ذلك من فتاة ضعيفة مثلك؟"

قالت ساما "لم يحاول الذئب المقاومة بل بدا مستسلماً لنا وهو يرمقنا بصمت.. وبعد أن ضمّد الطبيب جراحه، رفض نقله للقرية لأن الأهالي قد يقتلونه طمعاً في فرائه أو للتخلص من أذاه.. وطلب مني أن أرحل وأتركه بدوري، لكني لم أستطع.."

وأضافت وهي تطرق "لم أستطع تركه في الغابة وحيداً.. بقيت معه لساعات وأنا أغطيه بأوراق الأشجار المتساقطة لتمنحه بعض الدفء.. وظللت لأيام بعدها أزوره وأزوده بما أتمكن من اصطياده من عصافير ودجاج بري وأي شيء يمكنه أكله.. كان ضعيفاً، واستغرقه الأمر ما يزيد على الأسبوع حتى بدا أنه قد تجاوز الخطر.. ولما ذهبت لرؤيته بعد تلك الأيام، وجدته قد اختفى تماماً.. ولم أجد أي أثر له إلا الناب الذي دلّني على أنني لم أكن أهذي.. بحثت عنه لأيام بعدها دون أن أعثر له على أثر، ولم أره بعدها قط.."

فعلق الحكيم قائلاً "يبدو أن ذلك الذئب كان من قبائل الرّيبال، وفَقَد هذا الناب بسبب بعض إصاباته.."

تعجبت ساما وهي تستمع له.. هل (الريبال) هم ذئاب؟.. إذن لمَ أطلق عليهم الحكيم وصف قبائل عوضاً عن قطيع؟.. وقبل أن تطرح عليه تساؤلها سمعته يسألها "ولماذا احتفظت بهذا الناب؟"

غمغمت ساما "لقد كان الذئب ألطف مما توقعت.. لم يحاول التهجم علي، وكان يستسلم لي عندما ألمس فروه دون اعتراض.. لم أستطع التخلص من الناب عندما عثرت عليه، وأحببت الاحتفاظ به ليذكرني بذلك الذئب الذي كان ألطف معي من بعض البشر.. لذا قمت بثقب الناب ببعض الجهد وصنعت منه قلادة أخفيتها في ملابسي.."

قال الحكيم "هذا من حسن حظك بالفعل.. أن تحصلي على ناب من ذئاب (الريبال)، وأن تحتفظي به ولا

تفقديه طوال تلك المدة.. وأن تراه الأطياف وتفرّ منه قبل أن تجهز على ما تملكينه من طاقة.. يا لها من صدف لا يمكن أن تحدث إلا بمعجزة.."

نظرت له ساما بشيء من القلق، فيما اندفعت مالو تقول بابتسامة "المهم أن الفتاة بخير.. أليس كذلك؟"

جمعت ساما بعض الشجاعة واندفعت تسأل "ما الذي يهم كائنات هذا العالم بالبشر بهذه الصورة؟"

أجاب الحكيم وهو يتراجع في كرسيه "البشر يمكنهم أن يمنحوا كائنات عالمنا طاقة وقدرات لا تتخيلينها.. دم البشر، ولحمهم، كفيل بقلب موازين القوى في عالمنا بشكل مذهل.. ورغم تحرّق بعض القبائل والطوائف في عالمنا لدمكم، لكن الوصول إليه مستحيل.. لذا يمكنك تخيّل ما قد يحدث عندما يعرف سكان عالمنا بوجود بشرية بينهم.."

شعرت ساما برجفة لقول الحكيم وهي تتراجع للخلف مبهوتة.. ثم غمغمت مرتبكة "هل سيأكلونني؟"

مدت مالو يدها وربتت على رأس ساما قائلة بابتسامة "لا تخشي شيئاً.. ستكونين بأمان في هذا المنزل.."

ابتسمت ساما بشيء من الامتنان، فيما قال الحكيم وهو ينهض "عليك الحصول على المزيد من الراحة لاستعادة قواك.. وغداً لنا حديثٌ آخر.."

التفتت مالو إلى ساما متسائلة "هل تخشين من النوم وحيدة يا ساما؟"

هزت ساما رأسها نفياً، فقالت مالو وهي تنهض "هذا جيد.. يمكنك أن تنامي على ذلك السرير من جديد.. وغداً صباحاً ستكونين بأفضل حال.."

لم تعلق ساما وهي تتبعها بصمت.. لقد توجست من حديث الحكيم شيئاً ما.. لكن كلمات مالو قد بعثت في قلبها بعض الطمأنينة.. ربما في الصباح تصبح هواجسها هذه بلا معنى..

سارت الصيادة في جنبات الغابة بحثاً عن موقع ملائم لقضاء بضع ساعات من الراحة بأمان بعيداً عن أي حيوان مفترس.. كان الفشل الذريع الذي مُنيت به اليوم في اصطياد أخي التنين يورثها ضيقاً وخيبة أمل كبيرة.. وهذا كان عاملاً مساعداً في جعلها تشعر بتعب وإرهاق أكثر من اللازم وهي تجر قدميها جراً في الغابة.. بالإضافة لبقائها معظم الليل تبحث عن طريدتها التي لا تنشط إلا ليلاً، فيما تحاول الحصول على

بعض النوم في النهار مما يورثها تعباً أكبر..

فكرت في مقدار ما قد تحصل عليه من بيع أخي التنين في سوق الصيادين، وتساءلت في سرها إن كان المبلغ يوازي ما بذلته من جهد للإمساك به طوال شهر كامل.. صحيح أن النقود التي ستحصل عليها لن تكون أقل من ألفي قطعة نقدية فضية، وهو مبلغ هائل مقارنة بما تحصل عليه من اصطياد الكائنات الأخرى، لكن يظل ذلك مرهوناً في نجاحها في اصطياده بالفعل.. فهذا التنين يختلف عما تعرفه عن بقية التنانين بكونه نصف آدمي، رغم أن هذا يجعله أضعف من التنانين العادية المعروفة بشراستها وقوتها التي لا يوازيها شيء في هذا العالم، لكنه يعوض هذا الضعف بذكاء ودهاء يمكنانه من الإفلات من مصايدها وهجومها في كل مرة..

زفرت المرأة بحدة وهي تسير مديرة بصرها في المكان، عندما لفت نظرها شيء دفعها لتحوّل خطواتها وهي تتقدم من أجمة مزهرة ذات رائحة عطرية، وأزهارها تكتسي لوناً بنفسجياً زاهياً يغري الناظر إليها بقطفها وشم رائحتها الزكية، فيما انثنت بتلاتها على شكل مخالب رفيعة.. تقدمت المرأة باهتمام من الأجمة واقتطفت إحدى تلك الزهور وهي تتحسسها ثم تشممتها بحذر، قبل أن تبتسم وهي تقتطف عدداً منها بحذر وتضمّها في طرف قميصها.. ثم انزوت في جانب الأجمة وأنزلت حقيبتها الثقيلة التي لا تفارقها مطلقاً من على كتفها، ومن جوفها استخرجت إناء محدوداً فوضعت الزهور في قلبه.. وباستخدام حجر صلد طولي قامت بتقطيع تلك الأزهار وهرسها بعناية كبيرة.. ثم صبّت فوقها بعض الماء من قربة جلدية تحملها، قبل أن تضع الإناء جانباً بحرص وهي تراقب تلون الماء بلون الأزهار البنفسجي.. لقد وفرت عليها هذه الأزهار جهداً ووقتاً ستبذله للذهاب لإحدى القرى القريبة بحثاً عن مواد ملائمة لتنفيذ خطة جديدة لاصطياد طريدتها.. وبأسلوب بسيط كهذا، قد يحالفها الحظ أخيراً وتتمكن من العودة لمدينتها ظافرة بعد طول غياب..

بعد بعض الوقت، كانت المرأة ترتقي إحدى الأشجار العالية، ومن فرعٍ سميك يتحمل ثقلها دون أن ينكسر قامت بربط فراش خاص يستخدمه الصيادون في مثل هذه الأماكن التي تعج بالحيوانات المفترسة.. كان ذلك الفراش عبارة عن قماش سميك على هيئة خيمة دائرية محاطة بأحزمة جلدية قوية تربطها بالفرع فوقها، فيتدلى الفراش من الفرع كعش طيور كبير الحجم.. وبعد أن تتأكد من ثبات الفراش وتحمله وزنها

لساعات طوال، فإنها تندس فيه بوضعية أقرب للجلوس.. ورغم أنه يمنحها أماناً من الحيوانات التي قد تحاول الوصول إليها أثناء نومها، لكنه لا يجعل نومها أكثر راحة رغم اعتيادها عليه.. لم تتذمر المرأة وهي تندس في الفراش تتأمل السماء من فتحته الضيقة.. رغم التعب الكبير الذي شعرت به، كان النوم عصيّاً عليها في تلك اللحظات.. حاولت إرغام نفسها على النوم لتتمكن من الحصول على بعض الراحة قبل انتهاء هذا النهار، وبدء ليلة طويلة ومطاردة جديدة.. لكن رغم كل محاولاتها ظلت متنبهة الحواس وهي تفكر بكل ما جرى لها منذ قررت أن تلاحق أخا التنين وتصطاده بإصرار..

لم تكن تلك ذكريات سعيدة، لذا أزاحتها جانباً وشغلت نفسها بعدّ أصوات الحيوانات والحشرات التي تتردد في الغابة قربها.. ولم تلبث بعدها أن غرقت في نومٍ خفيف كعادتها..

وفي نومها ذاك، سمعت صوت ضحكة عالية لم تسمعها منذ زمن.. فتحت عينيها ورأت نفسها وسط منزل ضيق يعج بالأثاث البسيط والأغراض الخاصة بالصيادين، لكنها تعرفت فيه منزلها الذي عاشت فيه سنواتها الماضية.. وفي جانب ذلك المنزل رأت رجلاً أسمر البشرة طويل الجسد وهو يضحك ضحكة مرحة ويعبث مع صبي لا يتجاوز نصف طوله.. كانا يلعبان لعبة اعتاد الصيادون على لعبها مع الصبية في سن صغيرة، وهي تساعدهم على تنبيه حواسهم واكتساب سرعة استجابة تفوق المعتاد..

بدا لها الرجل سعيداً وهو يلعب مع الصبي الذي امتلأ نشاطاً، فيما شعرت المرأة بابتسامة راضية ترتسم على شفتيها وهي تراقبهما.. بدا لها أنها لا تمانع في قضاء ما بقي من حياتها تراقب تلك اللحظات السعيدة بنفسٍ قانعة..

بعد بعض الوقت، استيقظت المرأة وهي تشعر بصداع خفيف في رأسها، ففركت جبينها وهي تغمغم عابسة "تباً لهذا الحلم.. لمَ يصرّ عقلي على تكراره؟.. هذا يجعلني أكثر تعاسة بكل تأكيد.."

زفرت وهي ترفع بصرها للسماء مجدداً.. رغم التعاسة التي تشعر بها كلما رأت حلماً كالذي راودها هذه المرة، لكنه يجدد فيها العزم على النجاح في صيدها هذا.. لقد طال بها الوقت وهي تحاول صيد هذا الفتى.. وهي لن تفشل هذه المرة بكل تأكيد..

عندما استيقظت ساما في اليوم التالي، تأملت جوانب الغرفة التي هي فيها باهتمام.. كانت الغرفة مع نور الشمس المضيء من النافذة المفتوحة تبدو مريحة وأقل وحشة مما كانت عليه في الليل.. ورغم حجمها الصغير، والأمتعة التي تعج بها بالإضافة للعديد من الكتب المهملة التي علاها الغبار، إلا أنها تبدو أكثر رحابة من منزل العجوز الذي عاشت فيه لسنوات.. نهضت ساما بشيء من النشاط بعد أن شعرت أن قواها قد عادت إليها بعد الإنهاك القوي الذي غمرها في الليلة الماضية، ونظرت أول ما فعلت من النافذة متأملة الموقع حول البيت/ الشجرة.. كانت الشجرة كثيفة الأوراق تزهو بضوء الشمس الذي يعطي أوراقها لوناً زاهياً، وحفيفها يمنح ساما راحة كبيرة وهي التي اعتادت على سماع هذا الصوت في الساعات التي تقضيها وحيدة في الغابة، لا يؤنسها إلا صدى صوت العصافير وبعض الحيوانات القارضة..

لمحت في جانب الشجرة على فرع قريب سنجاباً بنياً يركض حاملاً ثمرة صغيرة حمراء اللون.. كان يبدو كسنجاب عادي، لولا عيناه الذهبيتان وأذناه الطويلتان بشكل مبالغ فيه بحيث تدلتا قرب يديه الدقيقتين..

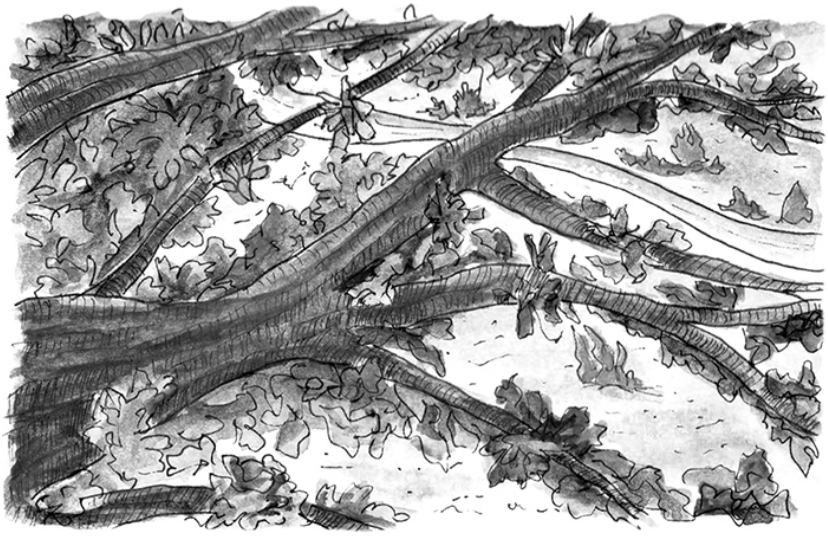

عدا عن ذلك، فقد كان عادي الهيئة وهو يسعى متسلقاً جذع الشجرة بكل مهارة.. ومن بين الأ فرع الكثيفة الممتدة، تمكنت ساما من أن تلمح مساحات عشبية واسعة حول الشجرة دون أن تبدو لها التفاصيل واضحة بشكل كامل.. فيما بدا لها في الجانب الشرقي من المنزل نهرٌ واسع التمعت مياهه بضوء الشمس القوي..

قاطع تأملاتها صوت الباب خلفها، فالتفتت لترى مالو تقول بانشراح "تبدين أفضل حالاً اليوم.. خشيت ألا تكوني قد استعدتِ قواك بشكل كامل.."

ووضعت على الفراش ثياباً قائلة "ما رأيك بأن تستبدلي ملابسك هذه؟.. تبدو مهلهلة بشدة.. حجمينا متقاربان، لذا ستناسبك ملابسي هذه دون شك.."

تساءلت ساما بشيء من الفضول "أصحيح أنك تكبرينني بكثير؟"

ابتسمت مالو ابتسامة فيها شيء من الغيظ وهي تقول "ربما.. من يدري كم يبلغ عمري حقاً؟.."

ثم أضافت "نحن ننتظرك في الأسفل.. فلا تتأخري لنتناول الفطور معاً.."

هزت ساما رأسها موافقة، فخرجت مالو مدمدمة بضيق على تعليق ساما السابق.. نظرت ساما للملابس التي لم تكن تختلف عما ترتديه مالو، ونوعاً ما شعرت بالحماس لارتدائها.. كانت ملابس نظيفة عطرة الرائحة، تحمل لوناً زهرياً جميلاً على شكل قميص واسع طويل، وبنطالاً أسود قطني يصل لكاحليها.. لا تذكر ساما متى حصلت على ثياب جديدة لآخر مرة.. منذ وصلت لبيت ذلك العجوز، ظلت ساما بثيابها القليلة القديمة التي تملكها، ولم تكد تستبدلها بجديدة أبداً رغم ما تحصل عليه من مال جراء بيع الثمار التي تلتقطها من الغابة.. ورغم أن ثيابها قد أصبحت بالية، لكن العجوز كان يتجاهل ذلك الأمر بإصرار، خاصة أن ساما لم تنمُ بشكل طبيعي ولم يتغير حجمها كثيراً في السنوات التالية إلا قليلاً..

نظرت ساما لنفسها في مرآة وجدتها في جانب الغرفة، فدارت حول نفسها وابتسامة سعيدة ترتسم على ملامحها التي لم تزل شاحبة نوعاً ما.. ثم أسرعت تغادر الغرفة نازلة الدرجات بخفة وشيء من السرور.. سيكون من الجميل أن تبقى هنا في هذا المنزل.. لم تعُد تخشى الحكيم، وهي تستلطف مالو كثيراً.. ألا يمكنها البقاء هنا ومعاونتهما فيما يحتاجانه؟.. ذلك أفضل من العودة لقريتها الكئيبة ولبيت ذلك العجوز العصبي..

كان هذا أول ما تفوهت به فور أن رأت الحكيم يدلف من باب المنزل.. فقالت بانفعال من مكانها قرب طاولة الطعام حيث تساعد مالو في إعدادها "سيدي.. هل يمكنني البقاء معكما في هذا المنزل؟"

أخذ الحكيم بهذا القول شيئاً ما، ثم تمالك نفسه وتقدم ليجلس على رأس المائدة مجيباً "هذا قولٌ سابقٌ لأوانه.."

قالت ساما بلهفة "أنا لا أريد العودة للقرية.. فهناك، لا أعلم ما الذي سيفعله الرجال بي لو استعادوني.. أما هنا، فيمكنني أن أعاون مالو في أعمالها وأن أفعل ما تطلبانه.."

قالت مالو وهي تجلس بدورها وتناول ساما بعض الخبز "هذا صعب يا ساما.. هذا العالم لا يلائم البشر.. ووجودك فيه خطورة عليك وعلى من يكون قريباً منك.."

قالت ساما "أتعنين بسبب سعي كائنات هذا العالم خلف البشر؟.. لكني بأمان هنا في هذا المنزل.. أليس كذلك؟.."

تبادلت مالو النظرات مع الحكيم الذي قال بهدوء "من يدري كم سيطول هذا الأمان يا صغيرتي؟.."

فقالت ساما برجاء "ألا يمكنك إعادة النظر في هذا الأمر يا سيدي؟.. صدقني سأعاونكما بكل ما أقدر.."

صمت الحكيم زافراً للحظة، ثم غمغم وهو يتناول طعامه "سنرى بشأن ذلك.. لا داعي للعجلة.."

شعرت ساما بأن هذه موافقة جزئية على طلبها، فغمرتها سعادة بالغة وهي تتناول الطعام الذي حضرته مالو بكل شهية..

عندما رأى الرجل تلك المرأة تحلّ قريبة من مدخل مخبئه، عبست ملامحه بشكل تلقائي.. فأسرعت المرأة تقول "فلنعقد صفقة صغيرة يا هذا.. وبهذا يمكن لي تحقيق ما أريده، وحصولك على ما تريده أنت أيضاً.."

قال الرجل بجمود "وما الذي قد أسعى إليه لتتقاطع مع مصالحك هذه؟"

قالت بثقة "أن أخبرك بما أملكه من معلومات، مقابل أن تعينني على ما أسعى إليه.."

علق الرجل بسخرية "حقاً؟.. إنني أتلهف لهذا.."

قالت بابتسامة واثقة "أنا أعرف أنك ستفعل.. خاصة لو علمت أن الأمر متعلق بعُمْرُد.."

اشتعل اهتمام الرجل على الفور وعيناه تحدقان بالمرأة بصدمة لا يمكن إنكارها.. فاتسعت ابتسامتها وهي تدير خصلة من شعرها مراراً قائلة "ألم أقل لك؟"

قال الرجل بشيء من الاستياء "وما علاقتك أنت بعمْرد؟.. هل كنت تعرفينه؟.. هل تدركين أنه اختفى قبل لقائي المشؤوم بك منذ سنة؟"

أجابت "أدرك ذلك طبعاً.. لكن ما لا تدركه أنت أن طريقانا متقاطعان منذ البداية.. لكن أنت من رفض الإصغاء إليّ.."

ومالت نحوه قائلة بلهجة توحي بالأهمية "ألم تدرك قط أن ذلك الرجل له يدٌ في اختفاء صديقك ذاك؟"

اتسعت عينا الرجل بدهشة واضحة، فيما قالت المرأة "أنت لم تدرك أنهما كانا على اتصالٍ لوقت طويل قبل

اختفاء صديقك.. كنتُ أحاول إخبارك بذلك، لولا أنك كنت تصدّني في كل مرة.. ألا ترىٰ أن هدفنا واحدٌ بالفعل؟"

غمغم الرجل بدهشة "هذا يغيرّ الكثير من الأمور، ولكنه يطرح العديد من الأسئلة وهذا يزيد الأمور سوءاً.."

ثم نظر للمرأة سائلاً بصرامة "أخبريني بكل ما تعرفينه.. دون عبث أو دوران.."

اتسعت ابتسامة المرأة وهي تقول "لا أملك المزيد من المعلومات.. هدفك ليس أنا، بل ذلك الرجل الخبيث الذي تلاعب بصديقك بغفلة من الجميع.."

صمت الرجل مفكراً بحاجبين معقودين وغضب متزايد، فقالت المرأة بشغف "إذن.. هل نحن متفقان علىٰ هدفٍ واحد؟"

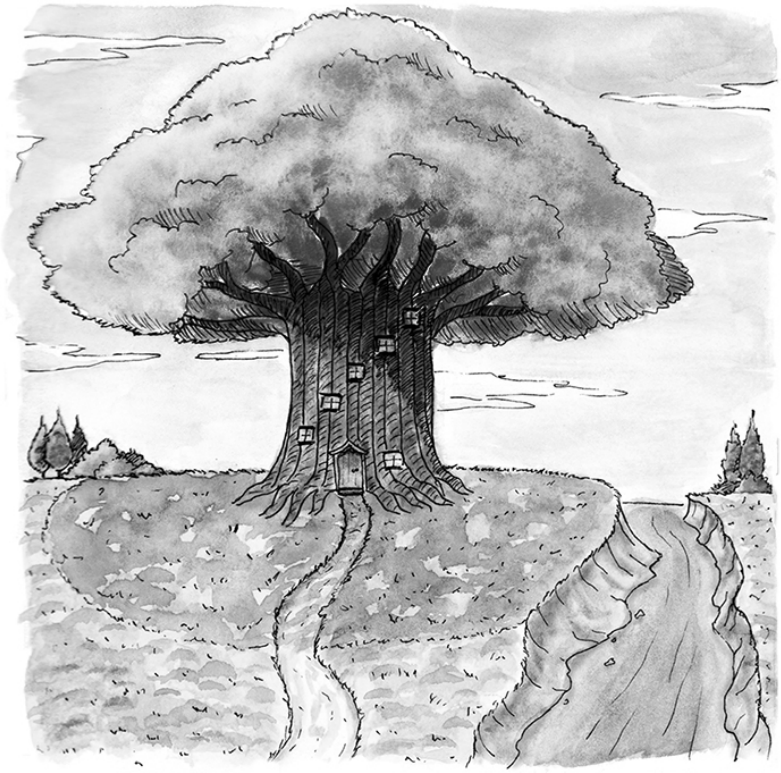

الفصل الثالث : تعويذة

في وقت متأخر من ذلك النهار، انتاب ساما ملل قوي وهي تجلس وحيدة في المنزل.. كانت قد قضت يومها في مساعدة مالو، فيما اختفى الحكيم بعد تناوله الإفطار في إحدى الغرف وأغلق بابها عليه دون أن يغادرها لساعات طوال.. وفيما ظلت ساما برفقة مالو وأغرقتها بالأسئلة عن كل شيء وأي شيء تراه أو تسمع عنه في هذا العالم، فإنها في وقت لاحق من ذلك النهار اضطرت للبقاء وحيدة في غرفة الجلوس بعد أن غادرت مالو لأمرٍ طارئ وأغلقت باب المنزل خلفها.. ولم تنسَ، قبل مغادرتها، من تحذير ساما تحذيراً شديداً من مغادرة المنزل.. وأكّدت الأمر قائلة "ستكونين بأمان مادمتِ داخل المنزل.. ولكن خارجاً لا يمكنني ضمان حياتك ولو للحظة.. فلا تغادري المنزل بتاتاً.."

هزت ساما رأسها بوعد صامت، وقضت الوقت التالي وهي تقلب بعض الكتب رغم جهلها للقراءة ولا تدري إن كانت تلك الكتب مكتوبة بلغة البشر أم لا.. تأملت بعض المجسمات وتفحصتها بفضول كبير، وراقبت الخارطة التي علقت في صدر الغرفة محاولة تفسير العلامات والخطوط المختلفة في جوانبها.. وبعد ساعتين كاملتين قضتهما وحيدة، وبعد أن طالت مراقبتها لخارج المنزل من بعض الثقوب التي تتخلل النقوش البسيطة لمصراعين خشبيين يغلقان النافذة، راودتها رغبة شديدة في الخروج ولو لمسافة قصيرة.. كان الموقع خارجاً عبارة عن سهل واسع عشبي بلون جميل والشمس التي مالت عن كبد السماء قد منحته ألقاً وجمالاً قلما رأته في القرية والغابة التي عاشت فيها طفولتها.. وفي مكان جميل ويملأ النفس ببهجة خالصة، كيف يمكن أن تلاقي ساما أي خطورة من أي كائن؟.. ربما كانت مالو تبالغ، والحكيم لن يعيرها اهتماماً لو طرقت باب غرفته لتسأله عن هذا الأمر.. لذا قررت ساما أن تقوم بهذه المغامرة الخطيرة لبضع دقائق فقط..

فتحت الباب الخشبي الثقيل، وعلى الفور هبّت نسمة هادئة في وجهها محملة برائحة صيفية منعشة ملأتها بسعادة كبيرة وهي تخطو على الأرض العشبية القريبة من الشجرة.. كانت الأوراق التي تساقطت أرضاً قد غطت منطقة واسعة، ولما رفعت ساما رأسها لم تكد ترى السماء من بين فروع الشجرة السامقة والتي

امتدت مسافة واسعة حول جذعها.. عادت ساما ببصرها لما حولها وهي تسير خطوات قليلة مبتعدة عن المنزل وقد فقدت حذرها تدريجياً.. أمضت لحظات قصيرة تأملت فيها ذلك المكان بفضول ظاهر وانشراح كبير، وقد استعادت شيئاً من حماسها بعد سنوات وسنوات قضتها في عالمٍ آخر.. عالمٍ قسا عليها في سنّ صغيرة دون أن تعرف السبب.. عالمٍ حرمها من طفولتها لغير سبب ظاهر.. والآن وقد استعادت جانباً من طفولتها، فإن ابتسامة سعيدة لم تكد ترتسم على شفتيها منذ زمن قد أضاءت وجهها بشكل واضح.. ولم يقطع تلك السعادة إلا صوتٌ خافت تردد من خلفها.. نظرت خلفاً بدهشة بحثاً عن مصدر الصوت، دون أن ترى أحداً.. ولما تردد الصوت من جديد، رفعت بصرها للأعلى بحثاً عن مصدره وقد راودها خاطرٌ أن يكون السنجاب غريب الهيئة هو صاحبه.. لكن عوضاً عن رؤية ذلك السنجاب اللطيف الصغير، فإنها رأت على فرع تلك الشجرة طائراً كبير الحجم .. كانت الظلال تغطي ملامح ذلك الطائر فلم تدرك ساما هويته.. أهو نسر؟..

رأته يفرد جناحيه بطولهما الكبير، ورفرف للحظات قبل أن يهبط أرضاً بسلاسة ليقف على بعد أمتار قليلة منها.. شحب وجه ساما بشدة وهي ترى ملامح ذلك الطائر بوضوح بعد هبوطه، ورأت أن جسده يوحي بأنه نسرٌ ضخم يكاد يوازيها طولاً، بريش بني لامع وذيل طويل نوعاً ما.. أما رأسه الذي كان يواجهها، فقد كان رأس امرأة قبيحة الشكل، يمتزج شعرها الأسود الطويل بريشها البني على ظهرها، فيما تحدق عيناها السوداوان سواداً كاملاً في وجهها بصمت..

تجمدت ساما في موقعها تنظر لذلك المخلوق بصمت، ملاحظة عنقها الطويل الذي يتصل بجسد النسر بشكل غريب، فيما انشق وجهها عن ابتسامة واسعة وساما تلاحظ أن فمها يخلو من شفتين تغطيانه، فبدت أسنانها واضحة بشكل كامل في ابتسامة مشوهة مخيفة المنظر.. تقدمت المرأة بجسد النسر خطوة بقدمها المخلبية، فيما تجمدت ساما دون أن تقدر على الحراك بذعر، ووصل لأنفها رائحة كريهة منبعها ذلك النسر..

ذهول ساما أعجزها عن الفرار، فيما كان هبوط النسر بينها وبين

باب المنزل ليقطع عليها طريق العودة.. وكأنه لا يعبأ بفرارها في تلك السهول الشاسعة، لكنه يريد منعها من العودة للمنزل بأي صورة.. وبعد لحظة صمت وتبادل للنظرات، فتحت المرأة فمها وأطلقت صيحة طويلة رفيعة ألجمت ساما من الذعر وهي تكاد تفقد توازنها والرجفة تصيب ساقيها بقوة.. كان حدسها يؤكد لها أن تلك المرأة بجسد النسر لا تنوي بها خيراً.. أهي تريد أكلها كما أخبرتها مالو سابقاً؟.. أم أنها ستختطفها عائدة بها لعشها لالتهامها في وقت لاحق؟..

تقدم النسر خطوة أخرى، عندما سمعت صوت مالو يعلو بكلمات متلاحقة حادة بلغة لم تفهم منها ساما كلمة.. نظرت خلف النسر، فلاحظت أن مالو كانت عائدة للمنزل، وقد وقفت خلفاً وهي تشير للنسر بإصبعها وتردد كلماتها الغريبة، فيما تلوى النسر للحظة وهو يدير رأسه جانباً وكأنه يقاوم أمراً ما.. وتقدم نحو ساما مطلقاً صيحة أخرى دون أن تتراجع مالو عن ترديد تلك الكلمات الغريبة مراراً وتكراراً بصوت حادٍ وعالٍ والنسر يتلوى بألم واضح، قبل أن يستسلم أخيراً ويفرد جناحيه، ثم ارتفع عالياً مرفرفاً بقوة مطلقاً صيحة حادة.. ظل النسر يدور للحظات فوق الشجرة، فيما تقدمت مالو من ساما قائلة بحدة "ما الذي تفعلينه خارجاً؟"

تساءلت ساما بدهشة "لماذا هرب ذلك المخلوق عندما سمع كلماتك؟"

أجابت مالو بضيق "منزل الحكيم محاطٌ بتعويذة خاصة لدفع الكائنات الضارة عن الدخول إليه دون دعوة.. وبخروجك من باب المنزل، فقد خرجت من حماية تلك التعويذة.. من حسن حظك أنني وصلت في الوقت الملائم، فألقيت تلك التعويذة عليك وهي تكفلت بطرد الهاربي دون أن تتمكن من الإضرار بك.."

قالت ساما بذهول "أأنت مشعوذة؟"

كان لفظ مشعوذة أبعد ما يمكن أن يطلق على فتاة صغيرة وبريئة كما بدت مالو لعيني ساما.. لكن مالو قطبت شيئاً ما وعلقت "لستُ كذلك.. لكني أعرف من التعاويذ السحرية التي تتكفل بحمايتي من كل ما يهدد حياتي.."

وأضافت وهي تجذب ساما معها عائدة للمنزل "لقد رأيت تلك الهاربي عند خروجي، وبدا لي واضحاً أنها كانت تتربص بك.. لكني كنت واثقة أنك لن تخالفي أمري ولن تغادري المنزل.. لذا لم أكن قلقة لأمرها

بتاتاً.."

خفضت ساما وجهها بحرج شديد وهي تتبع مالو بصمت، فالتفتت إليها مالو فور إغلاقها باب المنزل، وقالت ملوحة بإصبعها "ليكن هذا درساً لك.. لا تأمني أي شيء في هذا العالم.. لا تأمني شخصاً ولو بدا لك طيباً ورفيقاً بك.."

نظرت لها ساما بصمت للحظة، ثم تساءلت بشيء من التردد "حتى أنتِ؟"

قالت مالو بإصرار "حتى أنا.. عليك أن تكوني حذرة وتحافظي على حياتك بنفسك.. بقاؤك هنا لن يطول، وحتى ذلك الوقت، عليك أن تهتمي لأمر نفسك ولا تتوقعي عوناً من أحد.."

نظرت لها ساما بشيء من القلق، وقد أشعل فيها قولها أن بقاءها في هذا المكان لن يكون طويلاً توجساً عارماً لم تستطع نبذه بسهولة.. لكنها مع مرأى حنق مالو اضطرت للصمت ولم تحاول الاعتراض.. ما الذي ينوي الحكيم فعله بها؟.. هل سيعيدها لعالم البشر؟.. أم أنه أمرٌ آخر؟..

تلك الليلة، أوت ساما لفراشها باكراً رافضة دعوة مالو لتصفح بعض الكتب بعد العشاء، بحجة أنها متعبة وتريد النوم باكراً.. لكنها في الواقع انطوت في فراشها وهي تغطي رأسها بالدثار دون أن يقارب النوم عينيها.. كانت قلقة بشدة، تعيد قول مالو مراراً وتكراراً محاولة معرفة معناه.. ماذا تعني بأن بقاءها هنا لن يطول؟.. هل ينويان إعادتها لقريتها؟.. هل ضاقا بوجودها معهما؟.. كيف لها أن تتأكد من ذلك؟.. لقد حاولت سؤال مالو عن هذا الأمر عدة مرات تلك الليلة قبل العشاء، لكن محاولاتها باءت بالفشل والسؤال لا يفارق شفتيها وقلقها يزداد في كل مرة..

كانت ساما تبغض مجرد التفكير في تلك القرية التي عاملتها بصورة أدنى من الحيوانات، ولكنها في الآن ذاته بدأت تفكر جدياً في أمر بقائها في هذا العالم.. هل كان قرارها هذا صحيحاً؟.. لقد بدأت تتردد في هذا الأمر بعد المواجهة التي حصلت لها هذا النهار.. ما تزال تذكر الوجه القبيح لتلك المرأة الذي يعلو جسد النسر.. ما تزال تذكر أسنانها الحادة، وما تزال تشعر بالرجفة ذاتها التي اعترتها وهي تواجه ذلك المخلوق.. هل هذه هي حقيقة هذا العالم؟.. وهل ما ستواجهه بعدها أكثر بشاعة من هذا؟.. هل يمكنها البقاء حقاً في

هذا العالم، أم أن من الأسلم لها العودة لعالم البشر رغم كل قسوتهم؟..

تقلبت ساما في فراشها وبين هواجسها لوقت طويل، وفي وقت متأخر من تلك الليلة، ظهر رجلٌ في مكان غير بعيد عن منزل الحكيم.. كان ذلك الرجل هو ذاته صاحب الشعر الأبيض والعينان الفضيتان، فوقف هناك بصمت يتأمل الشجرة الشامخة ويتأمل نوافذ المنزل التي ساد الظلام بعضها فيما بقي القليل منها مُضاءً بضوء المصابيح الباهت.. نقل الرجل بصره إلى جذع الشجرة المقارب للأرض، ثم تقدم خطوات ثابتة وواثقة وهو يركز انتباهه لما حوله.. وخلال لحظات، وبعد بضع خطوات، شعر بشيء سميك وصلب يعترض طريقه نوعاً ما، وإن لم يكن مرئياً لعينيه.. لكنه مد ساقه بثقة كبيرة، وشعر بها تخترق ذلك الجدار اللا مرئي رغم المقاومة، وسرعان ما تبع جسده ساقه في اختراق ذلك الجدار بشيء من اليسر.. تقدم الرجل من الشجرة دون أن يتوجه لباب المنزل مباشرة.. بل نظر نحو الجذع ومد يده بهدوء إليه.. وعلى الفور، مع ما تمثله تلك اليد من تهديد واضح، اشتعلت علامات على طول الجذع وحوله بشكل مرئي بعد أن كانت خفيّة.. كانت علامات بلغة غير مفهومة له، وشعر بازدياد مقاومة الشجرة له بحيث لو استسلم للأمر قليلاً لوجد نفسه مطروداً من ذلك المكان دون هوادة..

رفع الرجل يده اليمنى وهو يتأمل العلامات تلك التي أصبحت تتوهج وتبهت في تتابع متكرر يزداد حدة مع مرور الوقت.. ومن يد الرجل، برزت مخالب حادة استطالت أكثر مما قد يوجد في يد رجل عادي، ثم بضربة سريعة طوّح مخالبه نحو جذع الشجرة وأحدث في إحدى تلك العلامات وأكبرها حجماً ضربة غائرة شوّهت شكلها بشكل واضح.. وفور أن قام بذلك، بدأ الوهج يتذبذب بوضوح ويبهت شيئاً فشيئاً حتى خمد كل شيء دفعة واحدة.. سمع الرجل صيحة من خلفه تقول بظفر "رائع.. كنت أعلم أنك تقدر على ذلك.."

لكنه تجاهل صاحب تلك الصيحة وهو يتقدم من باب المنزل.. كان الباب مغلقاً بطبيعة الحال، لكن من قال إن ذلك يشكل أي عائق أمامه؟..

في تلك اللحظة، اعتدل الحكيم في مجلسه وسط المنزل بصمت، فيما توترت مالو وهي تنظر حولها قبل أن تهمس للحكيم بصوت قلق "لقد ألغيت التعويذة يا سيدي.."

قال الحكيم وهو ينهض واقفاً "أدرك ذلك بالطبع يا مالو.."

دوّت في تلك اللحظة ضربة قوية استهدفت باب المنزل، فاهتز للحظة قبل أن يثبت في موقعه من جديد..

أجفلت مالو مع صوت الضربة القوي، ثم قالت للحكيم بقلق متزايد "هناك من يحاول دخول المنزل.. من هو؟.. وما الذي يريده؟"

تقدم الحكيم ووقف وسط المنزل بصمت، فيما تعالى الضرب من جديد بقوة أشد.. تلفتت مالو بين باب المنزل وبين الدرج المؤدي لأعلاه، ثم تساءلت "أتظن أن هدفه هو الفتاة البشرية؟"

لم يجبها الحكيم وهو يغمض عينيه ويمد يديه أمامه.. فيما عادت مالو ببصرها للأعلى وقلقها يزداد مع اشتداد المحاولات لاقتحام المنزل.. وأخيراً، شدّت عزمها واستدارت راكضة نحو الدرجات بسرعة وهي تهتف "سأقوم بتأمين ساما قبل أن يصل إليها أحد.."

لم يعترض الحكيم وهو ثابت في موقعه دون حراك، وكأنه بحركته تلك يستشعر ما يدور حوله ويستكشف جوانب ذلك الهجوم الذي يستهدف منزله الآمن.. ثم، بحركة حادة وسريعة، دفع يديه للأمام عندما خفت صوت الهجوم للحظة.. وفي الآن ذاته، شعر الرجل بشيء قوي يلطمه ويدفعه للخلف، دون أن يتمكن من رؤية شيء حقاً..كان الأمر كأنهما يدان خفيّتان تدفعانه بغلظة بعيداً، لكنه قاوم ذلك وهو يصيح بحنق "محاولاتك هذه لن تجدي معي.."

فتح الحكيم عينيه وغمغم "إذن فأنت منهم بالفعل.."

في تلك الأثناء، ركضت مالو على درجات سلم المنزل نحو الغرفة التي تقطنها ساما وقد اعتراها قلقٌ عارم.. لا تدري سبب هذا الهجوم، ولا تدري كيف تمكن أصحابه من تجاوز السور الخفي الذي يحيط بالمنزل ويحميه من أي هجوم كان.. ورغم أصداء الهجوم في الأسفل، إلا أنها هرعت صاعدة للأعلى للاطمئنان على ساما قبل أن يهاجمها مخلوق آخر.. حاولت أن تسرع أكثر وهي تركض على الدرجات بخطوات متلاحقة حانقة على ساقيها القصيرتين اللتين لا تسمحان لها بتجاوز الدرجات بشكل أسرع..

ولما وصلت لباب غرفة ساما، فتحته ودخلت الغرفة باندفاع لتجد ساما واقفة قرب الباب بقلق واضح.. بدا أن ساما كانت تهم بالخروج من الغرفة حينما باغتها دخول مالو المفاجئ، فاندفعت تقول بصوتٍ يفضح قلقها الشديد "ما الذي يجري هنا؟.. سمعت أصواتاً عالية.. ما سبب ذلك الصوت؟"

لكن لم تكن نظرة مالو تزيدها إلا قلقاً وهي تدفع ساما عائدة للغرفة قائلة "لا تشغلي نفسك بما يجري يا

ساما.. المهم ألا تغادري الغرفة بتاتاً.."

وهرعت لنافذة الغرفة فأغلقت المصراعين الخشبيين المنقوشين بنقوش منمنمة، وأحكمت إغلاقها لتمنع الدخول للغرفة بأي شكل كان.. فيما قالت ساما بإلحاح "ما الذي يجري؟.. ما سبب هذه الأصوات العالية؟"

التفتت إليها مالو قائلة بتوتر "شخص ما يحاول الهجوم على المنزل.. لا أعلم من هو ولا ما الذي يريده.. لكن وجودك هنا فيه خطورة عليك لو استطاع الوصول إليك.. لذا عليّ حمايتك بأي صورة قبل أن يحدث ذلك.."

تساءلت ساما بقلق "أليس المنزل محمياً بتعويذة؟"

أجابت مالو "ولقد تم إلغاؤها بصورة ما.. يبدو أن ذلك المهاجم يعرف ما يفعله.. لذا.. عليك ألا تغادري هذه الغرفة مهما حدث.."

ظلت ساما تنظر لها بقلق شديد وهي تبحث في ملامح مالو ما يطمئنها ولو قليلاً، لكن مالو قالت بتشديد "لا تحاولي المغادرة مطلقاً يا ساما.. أفهمتني؟"

هزت ساما رأسها إيجاباً أخيراً، فزفرت مالو قائلة "سأغلق باب الغرفة بإحكام، ونرجو ألا يتمكن المهاجم من ملاحظة وجودك فيها حتى يسيطر الحكيم على الأمر.. وبعد أن ينتهي كل شيء، سأعود لك بكل تأكيد.."

هزت ساما رأسها من جديد، فأسرعت مالو تغادر الغرفة وتغلق الباب خلفها بإحكام.. ثم وضعت راحة يدها على الباب وتمتمت بعدة كلمات ورسمت بإصبعها شكل دائرة واسعة.. كررت الأمر ثلاث مرات، ثم استدارت زافرة وغادرت هابطة الدرجات من جديد.. كانت تلك التعويذة التي ألقتها تخفي أمر ساما ووجودها عن أي كائن، فلا يمكنه أن يدرك وجودها بأي وسيلة كانت، ولا يمكنه فتح باب الغرفة إلا لو كان قادراً على إلغاء التعويذة.. لكن يعتمد هذا على معرفة ذلك المهاجم بأمر ساما بالفعل.. ولو تمكن من كسر تعويذة الحكيم حول المنزل، فلن تعجزه مثل هذه التعويذة عن تجاوزها والوصول لساما..

هبطت مالو الدرجات بأسرع ما تستطيع وهي تسمع الضرب العالي يتكرر من جديد أسفل المنزل، وفيما هي تمرّ بإحدى النوافذ التي تطل على تلك الدرجات، فوجئت بشبح أسود يظهر عند النافذة ويعترض

طريقها.. توقفت مالو للحظات بصدمة شديدة لهذا التسلل، ثم تلقائياً رفعت صوتها وهي تلقي التعويذة التي تستخدمها عادة ضد كل من يحاول التهجم عليها.. لكن قاطعها صوت ذلك الشبح الذي قال بسخرية "ادّخري أنفاسك يا صغيرة.. طفلة مثلك لا تستطيع أن تستخدم تعويذة بقوة كافية لتحجيمي.."

قالت مالو بحنق وهي تتراجع خطوة "أنا لستُ طفلة.."

قال الشبح وهو يتقدم حتى توسط الدرج أمامها "حقاً؟.."

ألقى القمر نوره على ذلك الشبح، فتمكنت مالو من رؤيته بوضوح، واستطاعت أن تتبينّ ملامح المرأة بجناحي اليعسوب وهي تتقدم منها بثقة تامة.. عندها قالت مالو وهي تتراجع خطوة من جديد "ما الذي تريدينه؟.. ألم تحاولي التسلل للمنزل منذ عدة أيام؟"

قالت المرأة بشغف "أجل، وطردني العجوز عندها بشكل مهين.. لكن، أين هو الآن ليطردني، أو ليحميك مني؟"

توترت مالو بشدة مع التماعة عيني المرأة وهي تحدق في وجهها.. شعرت بشيء من الخدر في جسدها وأنه لا يستجيب لها بصورة ملائمة، فحاولت الخلاص من المرأة بتلاوة التعويذة من جديد.. ومع كل كلمة، شعرت أن جسدها يعود تحت سيطرتها مجدداً، وأدركت مالو أن عليها فور استعادة إرادتها أن تفرّ من هذه المرأة بأسرع ما تستطيع.. لكن كيف يمكنها الفرار مع الخطورة التي تواجه ساما بوجود هذه المتسللة الغريبة؟..

قبل أن تتمّ مالو تعويذتها، فوجئت بيد المرأة المخلبية تقبض على عنقها بقوة.. أطلقت مالو صيحة مذعورة لهجوم المرأة، ثم وجدت نفسها ترتفع لتوازي طول المرأة الفارع والتي قالت بصوت كالفحيح "حان أوان سداد الدين يا صغيرة.. وللأسف، فهو دينٌ لا يخصّك بشيء، لكنك مجبرة على سداده رغم ذلك.."

حاولت مالو التخلص من قبضة المرأة، لكن تلك لم تعبأ بمحاولاتها وهي ترفعها بيد واحدة وتهبط الدرجات بخفة وسرعة.. فيما تعالى صوت تهشمٍ قوي صدر من الأسفل، عندها أدركت مالو أن المنزل قد تم اقتحامه بالفعل.. فتمتمت وهي تحاول دفع المرأة عنها "سحقاً لكم.. ما الذي تبغونه منا؟"

في الطابق السفلي من المنزل، خفض الحكيم ذراعيه مع صوت التهشم الذي صدر من الباب، والذي سرعان ما تهاوى أرضاً قطعاً متناثرة.. ومن خلفه، ظهر الرجل وهو يتقدم من وسط المنزل رافعاً يده المخلبية بتهديد واضع، فيما التمعت عيناه ببغض بينّ وهو يرمق الحكيم.. فكسر الحكيم الصمت الذي ساد للحظات وهو يقول "كان يجب أن أدرك هويتك فور أن قمت بإلغاء التعويذة.. فهذا أمرٌ لا يمكن لشخص فعله إلا إن كان مثلك.. فما الذي تفعله هنا؟.. ما الذي يريده الريابلة مني؟"

قال الرجل بصوت أجش وبغض واضح "لا شأن للريابلة بي.. أنت أكثر من يعلم ما الذي جرى بيني وبينهم منذ سنة.."

غمغم الحكيم بهدوء "وما الذي جرى؟"

اندفع الرجل نحو الحكيم بغضب ظاهر، لكن الحكيم رفع يده في اللحظة ذاتها.. وقبل أن يصل الرجل للحكيم، وجد نفسه يرتدّ للوراء بضربة خفيّة حتى ارتطم بالجدار خلفه وأسقط عدداً من الأرفف بما تحمله من كتب ومجسمات.. نهض الرجل من سقطته على الفور وقفز نحو الحكيم من جديد ليجد نفسه يرتدّ بقوة أكبر.. ورغم سقطاته المؤلمة، لم يتراجع الرجل وهو يقفز بخفة جانباً ثم يرمي كرسياً خشبياً ثقيلاً نحو خصمه.. وهذه المرة أيضاً لم يصل الكرسي لهدفه والحكيم يلوّح بيده جانباً فيطير الكرسي ويسقط بعيداً.. وفي اللحظة ذاتها، كان الرجل يهجم على الحكيم ويسقطه أرضاً وهو يضغط على عنقه بمخالبه، وقال بمقت "أتدّعي البراءة؟.. ألست أنت سبب تلك المعركة التي كدتُ أموت فيها؟.. ألست أنت سبب التشرد الذي أعيش فيه طوال الشهور الماضية؟"

قال الحكيم دون أن يظهر ألماً أو يتخلى عن هدوئه "أنت مخطئ.. لو ظننت أنني سأسعى لطردك من قبائل (الريبال) وقتلك دون سبب مفهوم، فأنت واهم.. ما كنتَ تفعله كان يعرضك لغَضْبة قبيلتك بالفعل دون تدخل مني.."

فقال الرجل بغضب ظاهر "وأنا لم آتِ لأحاسبك على وشايتك هذه.. بل جئت بحثاً عن صلتك بشخص اسمه عمرد.. ألا تعرفه؟"

نظر له الحكيم بصمت ودون انفعال، فقال الرجل بشيء من التوحش "أنت تعرفه.. لا يمكنك إنكار ذلك.. أخبرني، أين اختفى عمرد قبل سنة؟.. ما الذي دعاه للرحيل لعالم البشر دون سابق إنذار؟.. وما

علاقة رحيله لذلك العالم بك أنت؟.. لا تحاول الإنكار لأنني لن أغفر لك ذلك.."

قال الحكيم عندها "أنت لن تغفر لي حتى لو تحدثت عن الأمر.. ثم إن هذه ليست وسيلة ملائمة للحديث برأيي.."

سمعا صوت المرأة تقول "أنت لا تملك إلا الاستجابة لنا أيها العجوز.. الإجابة على أسئلته، وتسليمي ما جئت باحثة عنه.."

التفت الحكيم ليرى المرأة هابطة من الدرج وهي تحمل مالو بمخالبها، وأضافت بابتسامة متشفية "إلا إن أردت رؤية الدماء تسيل من جسد مساعدتك الصغيرة هذه.."

أتبعت قولها بأن ضغطت بمخالبها على عنق مالو والدماء تنزّ من موضع الجراح ببطء.. فيما قاومت مالو بشدة وهي تصيح "اتركيني.. ما الذي تفعلينه؟.."

كان الحكيم يدرك حجم التهديد الذي تحمله تلك المرأة، ويدرك ما يمكنها أن تفعله.. لكنه لم يُظهر أي انفعال وهو يعتدل واقفاً بعد أن أخلى الرجل سبيله قائلاً "أكلُّ هذا الهجوم لأجل بضع إجابات؟.. لو أنكم طرقتم الباب لحصلتم على ما تريدونه من إجابات ومعها كوباً من الشراب اللذيذ.."

قالت المرأة بحدة "أنت تكذب.. لقد أتيت إليك قبل فترة، فلم أرَ أي أريحية في الاستجابة لي منك.."

فقال الحكيم وهو يرمقها ويرمق الرجل "بالحديث عن الأسئلة، ما الذي جمع اثنين مثلكما معاً؟.. هذا اجتماعٌ لم أشهد مثله قط.."

تقدم الرجل منه قائلاً بغضب "نحن لم نأتِ هنا لنجيبك عن هذا.. أخبرني بما جرى لعمرد.. هل تعرف السبب الذي لأجله رحل لعالم البشر؟.. هل لك علاقة بهذا؟"

قلب الحكيم بصره بينهما للحظة، ثم أجاب بهدوء "بالطبع أعرف السبب.. أنت مدرك على من تطرح سؤالك هذا؟"

ثم استدار وجلس على أقرب كرسي مضيفاً "لكن لست أنا من دفعه لهذا العمل لو راودك هذا الأمر للحظة.. ما لم تكن تعلمه أنت أن عمرد كان يتسلل لعالم البشر مرة كل شهر ولعدة شهور مضت.. هذا ما أخبرتني به الأطياف في إحدى زياراتي لها.."

قالت المرأة بريبة "ما علاقتك بالأطياف؟.. لمَ أنت الوحيد الذي يقدر على المرور قربها دون أن تؤذيه؟.."

أشار الحكيم للرجل معلقاً "الريابلة يقدرون على ذلك أيضاً.."

فقالت المرأة بجفاء "أنت تعرف ما أعني.. أنت الوحيد من غير الريابلة ممن يقدر على ذلك.."

ابتسم الحكيم شيئاً ما وقال "علاقتي بالأطياف لم تنشأ منذ وقت قريب.. لقد نشأت منذ قرنين خلوا، على يد الرجل الذي جلب الأطياف لهذا الطريق.."

استمعت له المرأة بدهشة فيما قال الرجل "ليس هذا ما يهم.. أريد أن أعرف ما جرى لعمرد بالتحديد.. هل أنت سبب اختفائه؟.."

هز الحكيم رأسه مجيباً "لا.. أنا لا أؤذي أحداً ولا أتدخل إلا فيما يتعلق بمصلحة ما لي فيها.. في الواقع، لقد قابلت المدعو عمرد قبل اختفائه بمدة، وعقدت معه صفقة صغيرة.."

نظر له الرجل بدهشة، فأضاف الحكيم "أخبرته أنني لن أتدخل في تنقلاته بين العالمين، ولن أشي بأمره للريابلة.. بشرط أن يحقق لي أمراً ما.."

قال الرجل بغضب "ولم لا تحققه بنفسك؟.. لمَ لمْ تردع عمرد عما يفعله وأنت تدرك ما ينطوي عليه من خطر؟.."

قال الحكيم "رحيلي لعالم البشر صعبٌ جداً.. فأنا أفقد نصف قواي السحرية فور وصولي لعالمهم.. كما أن الريابلة يفقدون القدرة على العودة لهيئتهم العادية هناك أيضاً.. لذا فكرت في الاستعانة بعمرد مقابل الصمت على ما يفعله، وهو قد رحب بالأمر كثيراً.."

صاح الرجل بحنق "كيف تستغله بهذه الصورة؟!.. أنا لا أفهم سبب رحيل عمرد لعالم البشر.. لقد كان فضوله كبيراً فيما يخص ذلك العالم، وكان يكثر من الأسئلة حوله، لكن لم يتعدّ الأمر ذاك.."

قال الحكيم بهدوء "بل تعدّاه منذ زمن، لكنك لم تفطن للأمر.. أتعرف لمَ يصرّ الريابلة على عدم اجتياز طريق الأطياف؟.."

قال الرجل بجفاء "طبعاً أعرف ذلك.."

اعتدل الحكيم مجيباً على سؤاله بنفسه "الأمر لا يتعلق بالريابلة أنفسهم، فهم لا يسعون خلف لحم البشر ولا يعيثون فساداً في الأرض بطبعهم.. لكن ماذا لو استعان كائن آخر بالريابلة على اجتياز ذاك الطريق؟.. لنقل إن رجلاً من مدينة الصيادين أو من البيزون قد تمكن من اجتياز الطريق بمعاونة (الريبال)، ما الذي

سيحدث في عالم البشر عندها؟.."

فقال الرجل بحنق "هذا لا يعني أن تعين عمرد على ما فعله.."

ثم قالت المرأة زافرة بملل "أنت تكثر الحديث يا عجوز.. أنه حديثك عن ذاك (الريبال) المفقود ولننته من هذه الليلة الطويلة.."

نهض الحكيم وسار لأحد الأرفف التي تحتل الجدار خلفه، فحمل كتاباً قديماً ضخم الحجم، ورفعه بيده قائلاً "ولقد حصلت على بُغْيتي بالفعل.. عمرد أوفى بوعده لي، وأنا أوفيت بوعدي له بعدم إبلاغ الريابلة بما كان يفعله.. ورغم تحذيري له بعدم تكرار الأمر، لكنه خالفني عدة مرات.. حتى جاءتني الأطياف بنبأ اختفاءه في عالم البشر وأنه لم يعد من هناك قط.."

صاح الرجل "والسبب؟.."

هز الحكيم رأسه مجيباً "لا علم لي.. دأبتُ على زيارة الأطياف لوقت طويل بعدها، لكني لم أحصل على إجابة شافية.. إما أن يكون صاحبك قد استمرأ البقاء في ذلك العالم، وإما أن يكون قد قتل على يد أحد البشر.."

وجم الرجل وهو يستمع لما قيل.. لم يكن ذلك الخاطر قد غاب عنه أثناء بحثه عن عمرد، لكنه كان يأمل أن يجد إجابة مغايرة لدى الحكيم.. رفع الرجل رأسه أخيراً وقال "ولِمَ وشيت بأمري للريابلة وأنت تعلم أنني كنت أبحث عن عمرد؟.."

أجاب الحكيم "لكيلا تواجه مصيره ذاته في عالم البشر.."

قال الرجل محتداً "كانت عقوبتي تصل للموت على يد الريابلة.. فعن أي نجاة تتحدث؟.."

ابتسم الحكيم معلقاً "لكنك حيّ ترزق حتى الآن.."

لم يهدأ غضب الرجل بعد كل ما سمعه، لكنه أدرك أنه لا يملك الحق في محاسبة الحكيم على ما فعله.. المخطئ الحقيقي هو عمرد ذاته، والذي كسر قوانين لها قدسية خاصة بين الريابلة لتحقيق مأربه الشخصي.. وهو قد لاقى الجزاء على ما فعله كما يبدو.. فما الذي يمكنه فعله بعد كل ما جرى؟..

فوجئت المرأة برؤية الرجل يستدير ويغادر المنزل بخطوات سريعة.. لم يكن هذا ما سعَت إليه، ولم تحقق أمراً باقتحامها هذا المنزل.. فصاحت خلفه قبل أن يغادر "إلى أين؟.. لم يكن هذا اتفاقنا.."

لكن الرجل تجاهلها تماماً وهو يغادر بخطوات واسعة.. فتجاهلت أمره بدورها وهي تضغط على عنق مالو قائلة للحكيم بتهديد "والآن.. سلّمني ذلك الحجر الذي تم بيعه لك.."

قال الحكيم بهدوء "أطلقي الفتاة.."

قالت المرأة بحدة "أعد ما سرقته منا فوراً.. هذا أثرٌ غالٍ على شعبي، وله أهمية لن يقدرها شخص مثلك.. أنت تحايلت للحصول عليه باستخدام رجل خسيس باع شرفه وثقة أهل القرية به.. لكن لا يحق لك الاحتفاظ به رغم اعتراضنا.."

اقترب الحكيم منها قائلاً بصرامة "ما بيع لي قد أصبح ملكي، ولي الحق في التصرف به كيفما أشاء.. كما أن لي الحق بالدفاع عن منزلي وساكنيه بالصورة التي أراها.. فأطلقي الفتاة وارحلي قبل أن يسوء موقفك أكثر.."

قالت المرأة بغلّ "أنا لم آت لهذا المكان لأستسلم بسهولة.. ولن تقدر على إنقاذ الفتاة إن لم تستجب لي.."

فوجئت في تلك اللحظة بلطمة قوية تصيب بطنها وتلقيها للوراء شاهقة بألم.. ومع سقوطها، أفلتت مالو التي قفزت مبتعدة عنها بسرعة واضعة راحة يدها على موضع جرح رقبتها السطحي.. فيما حاولت المرأة الوقوف بسرعة وهي تدمدم "أيها الحقير.."

فوجئت به يقف عند رأسها، وسرعان ما قبض على عنقها بذراعه ورفعها بخفة وهو يقول بتهديد "نصيحتي لك أن تهربي قبل أن تجدي ما لا يسرّك.."

كان ضغط يده القوي يكاد يخنقها، ولا يوحي بتاتاً بقوة رجل بلغ من العمر أرذله.. وفور أن تركها، تهاوت المرأة للحظة قبل أن ترفع نفسها بجناحيها وتطير هاربة من المنزل..

لقد انقضت محاولة أخرى بفشل ذريع.. وغادرت مهزومة كما جاءت..

فيما كانت كل تلك الأحداث تحدث في الجزء السفلي من المنزل، فإن ساما بقيت جالسة على سريرها وهي تدفن رأسها في ركبتيها وتميل بجسدها للأمام والخلف بحركة سريعة تشي بتوترها وفزعها الشديدين.. ما الذي يجري؟.. ألم تخبرها مالو أن المنزل آمنٌ تماماً؟.. ما الذي سيجري بعد أن يتم اقتحامه بالقوة؟.. هل هذا المهاجم يسعى خلفها هي بالذات؟..

اعترتها قشعريرة وهي تفكر بكل ما قالته مالو وما سمعته من الحكيم منذ وصولها.. يا لهذا العالم الغريب والوحشي.. أن يستمد طاقته وقوته من دماء البشر ولحومهم.. أن يسعى ساكنوه خلف فتاة في عمرها لاهثين دون أن يعبؤوا بموتها أو حياتها.. أي عالم هذا الذي وصلت إليه؟..

سمعت في تلك اللحظة صيحة محدودة وتعرفت فيه صوت مالو.. فازداد توترها أضعافاً وهي تقفز واقفة على سريرها.. تلفتت حولها بقلق شديد، ثم غمغمت وهي تهبط عن سريرها وتهرع نحو الباب "مالو في خطر.. ما الذي فعلوه بها؟.."

ترددت للحظة وهي تنظر لمقبض الباب، ثم غالبت ترددها وأمسكته محاولة فتح الباب.. لكنه ظل صامداً أمام محاولاتها وكأنه جزءٌ من الجدار لا يمكن تحريكه.. تزايد قلقها وهي تبحث عن وسيلة لفتح الباب من جديد، عندما تعالى صياح مالو المذعور "اتركيني.. ما الذي تفعلينه؟.."

اتسعت عينا ساما بذعر، وشحب وجهها وهي تفكر بما يجري في الطابق السفلي من المنزل في تلك اللحظات.. إن مالو تواجه خطراً كبيراً.. فكيف لها أن تصمت وتبقى في مكانها هادئة؟.. لم تفكر ساما فيما يمكنها أن تفعله وهي تضرب بنصائح مالو السابقة عرض الحائط.. ولما استحال عليها فتح الباب رغم كل محاولاتها، هرعت نحو النافذة وفتحت مصراعيها على اتساعهما وهي تتأمل ما خلفها..

لم يكن أمام ساما من سبيل إلا الهبوط من النافذة، ثم دخول المنزل من الباب ومعاونة مالو قبل أن يحدث لها شيء.. كانت غرفتها تحتل الطابق الثالث من هذا المنزل، لذا كان ارتفاع نافذتها كبيراً على طفلة مثلها.. لكن ساما لم تفزع لرؤية ذلك الارتفاع وهي التي اعتادت زمناً طويلاً على تسلق الأشجار وتناول ما تعسرّ عليها تناوله من ثمار.. خرجت ساما من النافذة ووضعت قدمها على أقرب فرع منها.. ولحسن الحظ، كان فرعاً سميكاً تحمّل وزنها دون أن يتهاوى، فتشجعت ساما لتضع عليه قدمها الأخرى وربضت عليه للحظات وهي تنظر للأسفل بحثاً عن أسهل وسيلة للهبوط دون خطر..

وبعد لحظات، تقدمت ساما جانباً وتدلّت من ذلك الفرع نحو آخر أسفل منه وهي تتشبث بالفرع بقوة لئلا تزلّ فتسقط أرضاً سقطة خطيرة.. وبينما هي تمدّ قدمها للوصول للفرع السفلي وتثبّت نفسها عليه، شعرت بشيء يهبط على فرع الشجرة الأول قربها ويهزّه بثقله.. رفعت ساما بصرها بدهشة وشيء من التوتر، لتقابلها عينان تلتمعان بلمعة حمراء في ضوء القمر، وفم انفرج عن صفٍّ من الأسنان الحادة

وصرخة تتعالى منه فتثقب أذنها بحدتها.. ارتعبت ساما لرؤية ذلك النسر الذي أطلقت عليه مالو اسم هاربي، وقد حلّ قربها بتحفز وتوحش واضحين..

بدا لها أن ذلك الكائن بوجه المرأة لم يستسلم ويفقد الأمل في اصطيادها، وها قد آتى صبره الثمار المرجوّة.. تلقائياً، أفلتت ساما الفرع الذي تمسك به فيما زلّت قدمها دون أن تتمكن من الثبات على الفرع السفلي.. عندها سقطت من ذلك الارتفاع وهي تطلق صيحة عالية.. وخلال لحظة، والأرض تتسارع نحوها، شعرت بمخالب الهاربي تطبق على ملابسها فتوقف سقوطها وقوفاً حاداً.. لكن ساما لم تكن مسرورة بنجاتها المؤقتة وهي ترى الهاربي يحملها ويرفرف بقوة متجاوزاً أفرع الشجرة المتشابكة ومرتفعاً في السماء نحو السهول التي تمتد على رقعة واسعة من هذه المنطقة..

أطلقت ساما صيحة مرتعبة وهي ترى جسدها يتدلى في الهواء والظلام يجعلها لا ترى البعد الحقيقي للأرض تحتها.. فيما لم يكن مصيرها يوحي بأي بهجة وصياح الهاربي المرعب يزيدها فزعاً فوق فزعها السابق.. تلفتت ساما حولها بحثاً عمن ينقذها، ثم رفعت بصرها وهي تحاول دفع مخالب الهاربي بعيداً عنها وتصيح "أطلقني.. اتركني.."

دار الهاربي في السماء بقوة وساما تتأرجح مما أجبرها على التشبث بمخالبه من جديد بفزع ظاهر.. غلبها ارتباك شديد مما عليها فعله.. هل تنتظر حتى يصل بها هذا الهاربي لموقع آمن فيلتهمها دون أن تتمكن من النفاذ بجلدها؟.. أم تجبره على إسقاطها مهما كانت سقطتها تلك مميتة؟..

لاحظت انعكاس ضوء القمر على موضع قريب، وتذكرت ذلك النهر الذي رأته من نافذة غرفتها في وقت سابق من هذا اليوم.. تذكرت كذلك تحذير مالو الشديد لها ونصيحتها بأن تنقذ نفسها بنفسها ولا تنتظر عوناً من أحد..

تشجعت ساما وهي ترى الهاربي يعبر النهر بسرعة، فرفعت جسدها بجهد كبير، وأطبقت أسنانها على ساق الهاربي الذي أطلق صيحة متألمة وهو يحاول نفضها عن ساقه.. ضغطت ساما بأسنانها على الساق أكثر فأكثر وهي تستشعر طعم الدماء في فمها، لكنها لم تتوقف وهي تدرك أن هذه هي وسيلتها الوحيدة للمقاومة وإنقاذ حياتها.. بعد لحظة قصيرة، ازدادت ردة فعل الهاربي قوة وهو ينفضها محاولاً الخلاص من هجومها، فأطلقت ساما يديها عندما شعرت به يتخلى عن ملابسها.. وعلى الفور، هوت من ذلك الارتفاع

نحو النهر العريض الذي يقع أسفل منها.. حاول الهاربي اللحاق بها مجدداً، لكنها كانت قد سقطت في النهر وغاصت فيه عميقاً والنهر يدفعها معه عدة أمتار قبل أن تتمكن ساما من الارتفاع.. ثم رفعت رأسها فوق المياه بشيء من الجهد وهي تشهق بعمق.. كانت مياه النهر عميقة شيئاً ما، وجريانها القوي يمنع ساما من المقاومة وهي تدفعها بعنف وسط المجرى الواسع للنهر.. شهقت ساما وهي تحاول إبقاء وجهها فوق المياه، ملاحظة بطرف عينها أنها تبتعد ابتعاداً سريعاً عن تلك الشجرة التي تضمّ بيت الحكيم في قلبها، فيما دار الهاربي دورة في السماء وهو يطلق صيحة غاضبة للحظات قبل أن يبتعد يائساً، فأشد ما يكره الهاربي المياه التي يتعامل معها تعامل الحيوانات مع النار..

ورغم كل محاولات ساما، لم تتمكن من العودة للضفة أو إيقاف انجذابها مع مياه النهر الهائجة.. ورغم الخطر الذي يحيق بها لابتعادها عن منزل الحكيم الآمن، لكن ساما لم تملك ترف التفكير بذلك وهي تواجه خطر الغرق في النهر رغم كل مقاومتها.. تخبطت بقوة وهي ترفع وجهها فوق المياه مرات ومرات قبل أن تغمرها المياه من جديد حتى تكاد تختنق.. وقبل أن يصيبها اليأس تجد المياه تدفعها من جديد للأعلى، فتشهق بقوة محاولة سحب ما تقدر عليه من هواء قبل أن تغوص من جديد..

ظلت ساما تتخبط وهي ترى نفسها قد سارت مسافة طويلة مع مياه النهر دون أن تجد من ينقذها من هذا المأزق.. أين الحكيم؟.. وأين مالو؟.. لاحظت في تلك اللحظة أنها تمر بصخور كبيرة الحجم تعترض مجرى النهر.. فحاولت ساما التشبث بإحداها بقوة بيديها وهي تسعل مع المياه التي ابتلعتها.. كانت لا تزال تشعر بضعف كبير في ذراعيها، ورغم إصرارها وتشبثها بالصخرة بقوة، لكنها لم تتمكن من رفع جسدها فوقها وأصابعها تفلت الصخرة فتدفعها المياه معها من جديد.. كررت ساما محاولتها مرة أخرى دون نجاح يذكر، وقبل أن تفكر حتى بالمحاولة من جديد، فوجئت بجسدها يرتطم بصخرة أخرى بقوة ورأسها يضرب الصخرة بعنف آلمها وأثار دواراً في رأسها والوعي يتسرب منها.. قاومت ساما بشدة وهي تحاول رفع رأسها فوق الماء، ولما كادت تنجح في ذلك، هرب ما بقي لها من وعي وسقطت في غيبوبة لا تدري إن كانت ستستيقظ منها أم لا.. وبقي جسدها ألعوبة في يد مياه النهر التي جذبته معها بقوة وهي ترميه في كل الاتجاهات، قبل أن تلفظه في جانب من جوانب الضفة على أرض صخرية افترشتها مئات الصخور اللامعة الصغيرة بألوان وأحجام متباينة..

لم تنطوِ تلك الليلة الطويلة التي ابتدأت بهجوم الرجل على منزل الحكيم ولم تنتهِ به.. وفيما كانت ساما تصارع النهر محاولة النجاة من مصير لا تملك منه شيئاً، كان الرجل قد غادر منزل الحكيم بعد جداله العقيم معه.. لم يزدِه حديث الحكيم عن عمرد إلا حيرة وعجباً.. ما الذي جرى لعمرد في ذلك العالم؟.. رغم بحثه الدائم، لكنه لم يتمكن من العثور على أي خيط يستدل به عليه.. وبعد شهور طويلة دأب فيها على البحث عنه، غلبه اليأس من ذلك وكف عن هذا البحث بعد الحادثة التي جرت له مع الريابلة..

بعد خروجه من منزل الحكيم وابتعاده محاذياً ضفة النهر، سمع الرجل المرأة تقول حانقة وهي تلحق به "هذا ليس ما اتفقنا عليه.. أنا لم أستفد أمراً من كل ما فعلتَه الليلة.. كيف تخونني بهذه الطريقة؟.."

قال الرجل "لقد حذرتك أن تنجزي ما تريدينه بسرعة.. فأنا أتيت لمهمة محدودة ولم أكن لأنتظرك أكثر مما فعلت.."

قالت المرأة بحنق "لكني طلبت منك أن تعينني على الخلاص من الحكيم، أو على الأقل إجباره على إعادة ما سرقه لي.. ألم يكن هذا اتفاقنا؟"

قال الرجل بتقطيبة "وأنا لم أوافق على ذلك.. كل ما وافقت عليه هو معاونتك على اقتحام منزله، وهو أمرٌ لم تكوني قادرة عليه ولو بعد مائة عام.."

ركلت المرأة الهواء بقدمها بغيظ لرده وشدّت قبضتيها بقوة.. ما الذي يجبرها على البقاء معه؟.. إنها تضيّع وقتها معه دون فائدة.. والوقت يمضي دون أن تنجز أمراً مما جاءت له..

توقف الرجل للحظة عن السير وقد حمل الهواء رائحة غريبة إليه.. رائحة يعرفها وقد شمّها من قبل مراراً، لكنها غريبة على هذا المكان، وهذا العالم.. اندفع فجأة تاركاً المرأة وتبع النهر بأقصى سرعة، فيما صاحت المرأة خلفه "إلى أين؟.. ما الذي جرى لك؟"

تجاهل أسئلتها كعادته وهو يتبع الرائحة التي ازدادت قوة مع كل مسافة يقطعها.. وبعد وقت قصير، وقف فجأة لاهثاً وهو يرمق ضفة النهر التي انحدرت انحداراً طفيفاً لتلامس المياه الجارية جرياناً أبدياً..

وقف الرجل يراقب الجسد الذي استلقى على ضفة النهر الملأى بالصخور والأحجار، والذي سكن دون

حراك لوقت طويل.. كانت الرائحة خاصة بذلك الجسد، وهي رائحة يكاد يجزم أنه يعرفها تمام المعرفة..

ظهرت المرأة ذات الجناحين من خلفه وهي تراقب الجسد بفضول قبل أن تقول "أليست هذه طفلة بشرية؟"

لم يعلق الرجل وهو يهبط المنحدر ويقترب من الجسد فيتفحصه بصمت، والمرأة تضيف بتعجب "ما الذي جاء بطفلة بشرية لهذا العالم؟.. هذا أمر مستحيل استحالة تامة.."

تفحص الرجل جسد ساما ليتأكد أنها على قيد الحياة، وإن بدت للناظر إليها أنها على غير ذلك.. كان وجودها غريباً بالفعل، وزادت صدمته برؤية القلادة التي تدلت من عنقها والناب العاجي يبدو بوضوح في ضوء القمر المنير.. مد الرجل يده وتناول القلادة فتأملها بصمت للحظات قبل أن يدير بصره للطفلة ويتأمل ملامحها لوقت طويل.. ثم، دون أن ينبس بكلمة واحدة، رفع الطفلة ملاحظاً البرودة الشديدة التي اعترت جسدها بعد تبللها بمياه النهر الباردة..

تساءلت المرأة بدهشة وهي تراه يحمل الفتاة "ما الذي تنوي فعله بها؟.."

غمغم الرجل "أليس هذا بديهياً؟.. سأنقذها قبل أن تلقى حتفها بيدي كائن من كائنات هذا العالم.."

نظرت المرأة للطفلة باستياء وقالت "ما الفائدة من الاحتفاظ بها؟.. إنها على وشك لفظ أنفاسها الأخيرة.."

ثبت بصره على وجه الطفلة المتهاوية بين ذراعيه، والتي استشعر جسدها البارد بشدة من بين ملابسها الخفيفة، وغمغم "هذا ما لن أسمح به في الوقت الحالي.."

نظرت له من بين رموشها الكثيفة الطويلة، وقالت بابتسامة جانبية "هذا ما لم أتوقعه من شرسٍ مثلك.."

لم يعلق وهو يشد ذراعيه حول الطفلة محاولاً منحها بعض الدفء، فمالت نحوه مضيفة وابتسامتها تتسع "ما رأيك بأن تمنحني إياها؟.. لن تكون لذيذة الطعم لو ماتت بالفعل.."

نظر لها نظرة متوحشة قائلاً بصوته العميق "حاولي ذلك لو أردتِ أن أنهش عنقك الدقيق هذا.."

أطلقت ضحكة مرحة كتغريدة عصفور عذب، ثم قالت وهي ترتفع بجسدها عالياً بخفة "لقد أصبح هذا المتوحد يعبأ لأمر طفلة.. يا للسخرية.."

ونظرت له بهدوء مضيفة "هل تذكرك هذه الطفلة بالطفل الذي قتلته؟.."

لم يُعرِها الرجل أي اهتمام وهو يضع الطفلة على كتفه ويشرع بصعود المنحدر عائداً للسهل الذي يليه.. وسار بمحاذاة النهر بخطوات سريعة فيما وقفت المرأة تراقبه بمزيج السخرية والغيظ.. ثم نظرت خلفها للشجرة الضخمة التي بدت على مبعدة من هذا الموقع.. زفرت وهي ترتفع في السماء مجدداً مغمغمة "يبدو أن الأمر لن ينقضي بسرعة كما توقعت.. لمَ عليّ أن أتحمل صلف هذا الرجل الخشن لمدة أطول؟.. تعساً لهذا الحال الذي يجبرني على البقاء هنا مدة أطول.."

وصلت لشجرة عالية ترتفع أمتاراً عدة عن بقية الأشجار حولها، فجلست على أعلى فرع من فروعها وهي تكتف ذراعيها على صدرها وتسند ظهرها لجذع الشجرة بصمت.. لقد باءت محاولتها هذه بالفشل، وما يغيظها حقاً أنها استغرقت وقتاً طويلاً في إقناع ذلك الأحمق بمعاونتها في هذه المهمة، ولو بشكل غير مباشر.. فكيف يمكنها أن تدفعه لمعاونتها من جديد؟.. هل سيرضى بذلك حقاً؟.. ما يحنقها أنها لا تستطيع اللجوء لغيره في الوقت الحالي.. فهو الوحيد الذي يستطيع تجاوز تلك التعويذة التي ألقاها الحكيم حول منزله.. هناك العديد ممن يملكون هذه القدرة من تلك القبائل، لكن أياً منهم لن يرضى بمعاونتها مهما ألحّت عليهم بذلك.. لذا ليس أمامها إلا اللجوء لإقناع ذلك الرجل من جديد.. ففي الواقع، هي لا تملك الثقة الكافية لمواجهة الحكيم بشكل كافٍ..

ستمهل الرجل يوماً، ثم تعود للإلحاح عليه من جديد.. وتأمل أن يكون قد كفّ عن عناده وخشونته في معاملتها بعد ذلك..

عندما هدأ كل شيء بعد المعمعة التي حدثت في منزل الحكيم تلك الليلة، اقترب الحكيم من مالو التي كانت تمسح الدماء التي سالت من عنقها، فسألها بهدوء "هل أنت بخير يا صغيرة؟"

أجابت وهي تنهض واضعة كفها على عنقها "أنا بخير يا سيدي.. لم يحدث لي شيء.."

فعلق الحكيم وهو يستدير نحو كتبه التي سقطت أرضاً "كان عليك البقاء في الغرفة مع ساما.. ما كان يجب عليك أن تعودي وأنت مدركة للخطر الذي يشكله هذا الهجوم عليك.."

غمغمت بقلق "لم أكن لأتركك وحيداً يا سيدي.. ما الذي قد يفعله رجل شرس مثله بك؟ عمرك لم يكن

يسمح بمواجهة كهذه.."

قال الحكيم بابتسامة باهتة "حقاً أنا أبلغ السبعين بعد المائتين، لكنه عمرٌ لا يعدّ شيئاً مقارنة بأعمار الآخرين من بني جنسي.."

ترددت مالو للحظات وهي تعاون الحكيم في ترتيب غرفة الجلوس بعد الدمار الذي لحقها، ثم تساءلت وهي تمسك كتاباً بيديها بشدة "هل صحيحٌ ما قيل يا سيدي عن ذاك الملقب بعمرد؟"

لم يجبها الحكيم وهو يتابع ترتيب الأرفف بهدوء، فأضافت بإلحاح "هل طلبت منه الرحيل لعالم البشر حقاً؟.. لماذا قد تفعل ذلك مع كل الأخطار التي تحيق به، وبتوازن عالمنا لو تسبب بخلل في طريق الأطياف؟.. ماذا لو تمكن من طرد الأطياف من ذلك الطريق وسمح لكائنات أخرى بالمرور عبره لعالم البشر؟.. وكل هذا لأجل كتاب؟"

قال الحكيم بهدوء "هذا الكتاب من أوائل الكتب وأندرها التي امتلكها معلمي السابق.. هناك الكثير من الأمور التي حدثت في صغري، عندما كنت أتعلم على يد أكبر كهنة هذا العالم وآخرهم.. ما أذكره بوضوح حديث معلمي عن هذا الكتاب وكيف أنه فقده في عالم البشر منذ زمن قديم.. كنتُ تواقاً للحصول على الكتاب من جديد، وأعلم تمام العلم أين أجده.. لكن لو فقدت قواي كما يحدث في عالم البشر، سيغدو من العسير عليّ الحصول عليه.. لذا استعنت بذلك الرجل، مقابل التغاضي عما يفعله.. وهو قد حقق لي هذا الأمر بعد عدد من الرحلات إلى عالم البشر.."

قالت مالو بأسى "كيف أمكنك فعل ذلك؟.. قد تكون الخطورة التي يلاقيها فرد من (الريبال) في عالم البشر مشابهة للخطورة التي يلاقيها البشر في عالمنا هذا.."

ثم تذكرت وهي تعتدل متوترة، وغمغمت "ساما.. ما الذي جرى لها؟"

لم يجبها الحكيم وهو يتأمل الخراب حوله، ويتناول مجسماً عظمياً لكائن صغير لا يتجاوز حجمه حجم الكف.. فيما لم تتمهل مالو وهي تركض الدرجات عائدة لغرفة ساما التي سادها هدوء شديد.. وفور وصولها لاهثة لباب الغرفة، رفعت كفها وألغت تلك التعويذة التي أغلقت بها الباب بحركة سريعة من يدها، ثم فتحت باب الغرفة ودلفتها هاتفة "أأنت بخير يا ساما؟"

لم تجد جواباً عن سؤالها ذاك بالطبع، بالنظر للغرفة الخالية، ولمصراع النافذة الذي يضرب الحائط القريب

مع اندفاع الهواء الذي ازداد قوة في الغرفة.. أسرعت مالو نحو النافذة، ونظرت عبرها بحثاً عن أثر لساما على الأفرع القريبة أو على الأرض أسفل النافذة.. لكن لصدمتها كان المكان خالياً من أي أثر للفتاة.. نادت مالو ساما بإلحاح للحظات، ثم أغلقت مصراعي النافذة لئلا تسمح لمتسلل جديد بدخول المنزل، وأكملت بحثها في جوانب الغرفة عسى أن تعثر على الفتاة مختبئة في أحد أركانها..

ولما عادت مالو أخيراً إلى الحكيم، استطاع أن يعرف الجواب من عينيها المتسعتين قبل أن تقول بارتباك شديد "لقد اختفت ساما يا سيدي.."

تساءل الحكيم بهدوء "من النافذة؟"

فركت مالو كفيها مجيبة "بلى.. يبدو أنها خالفت أمري وفتحت النافذة.. أو أن شيئاً ما دفعها لذلك.. لكني لم أعثر لها على أثر في أي مكان يمكنني رؤيته.. وأخشى ما أخشاه أن يكون أحد الكائنات قد استغلّ خروجها من النافذة واختطفها.."

لم يعلق الحكيم للحظات، مما دفع مالو لتقول بقلق شديد "ما الذي سنفعله بهذا الأمر الآن؟"

رفع الحكيم أحد كتبه وهو يتأمل الخراب الذي حلّ في المكان، فيما أضافت بتوتر "علينا أن نبحث عنها.. ربما يلجأ مختطفها لالتهامها.. وربما كان هذا الرجل الذي هاجم المنزل يسعى في الأصل خلفها.."

ولما لم تجد من الحكيم أي تعليق يذكر على ما قالته، قالت بقلق أشد "سيدي.. ألن تفعل شيئاً لأجل ساما؟"

أجاب الحكيم بهدوء "وما الذي سأفعله؟.. لقد خرجت من المنزل ومن حماية تعويذته.. أي أمر قد يحصل لها الآن بعيدٌ عن متناول يدي.. فما الذي يمكنني فعله؟"

قالت بإلحاح "لنذهب بحثاً عنها.. قد يمكننا إنقاذها قبل أن تصاب بسوء.."

فقال الحكيم "لا أظن ذلك.. لقد فعلت كل ما أمكنني فعله لحمايتها، لكن الأقدار سارت بشكل يخالف كل محاولاتي.. فمن السخف أن نلهث لتغيير واقعها.."

نظرت له مالو بشيء من الصدمة، ثم قالت بحنق "أتعني أن قدرها أن تموت في هذا العالم؟"

وأضافت بصوت مرتجف "كيف يمكنك أن تكون قاسياً هكذا؟"

نظر لها الحكيم بهدوء وقال "مالو.. عندما تعيشين عمراً مثل عمري، وعندما تمرين بما مررت به من خبرات، سيقل اهتمامك بحياة الآخرين أو مصيرهم.. قد يبدو لك هذا المصير الذي ينتظر تلك الطفلة

بشعاً، لكني لا أراه كذلك.. لقد كانت حسنة الحظ حتى هذه اللحظة، لكن هذا لا يعني أن الحظ سيظل بجانبها لوقت أطول.."

تهاوت مالو على كرسي جانبي بصمت وصدمة، فيما قال الحكيم وهو يقلب الكتب القريبة "هناك الكثير من الأمور التي علينا الالتفات إليها.. وأولويّات علينا الاهتمام بها.."

قالت مالو باعتراض أخير "ولكن....."

قاطعها الحكيم بشيء من الصرامة "أتمنى أن تطيعيني في المرة التالية دون جدال يا مالو.. فلا طاقة لي بذلك في منزلي هذا.."

خفضت مالو بصرها بصمت وهي تفكر بقلق.. أكان هذا تهديداً منه لها؟.. هل ينوي إعادة النظر في وضعها كمساعدة وتلميذة له؟.. وإزاء ذلك الخاطر، لم تقدر إلا أن تغمغم وهي تخفض رأسها "الأمر أمرك يا سيدي.."

لم يظهر الحكيم أي سرور لطاعتها، بل استدار وغادر بصمت عائداً لغرفته، فيما نظرت مالو من النافذة القريبة وزفرت بغمّ.. ترى، ما الذي يجري لك يا ساما في هذه اللحظات؟..

الفصل الرابع : بشريــة

استيقظت ساما دفعة واحدة وقد عادت لها ذكريات ما جرىٰ قبل فقدانها لوعيها.. بدا لها في تلك اللحظة أنها تستيقظ فزعة بشكل دائم في الآونة الأخيرة.. لكنها لم تتوقف عند هذه النقطة وهي تتلفت حولها بقلق ملاحظة ذلك الدثار الذي صنع من جلد أحد الحيوانات وقد ألقي عليها وهي نائمة.. كانت في تجويف صخري أصغر من أن يكون كهفاً، لكنه يسمح للجالس فيه بالاختفاء عن الأنظار البعيدة.. وأمام التجويف، رأت النهر القريب ومياهه تجري بقوة واندفاع ملامسة جانباً ضيقاً من الأرض الصخرية يسمح للقادم بالوصول للتجويف دون الخوض في المياه..

بنظرة أخرىٰ للمكان أدركت أن شخصاً ما قد سكن فيه.. ففي جانب رأت رماداً وخشباً محترقاً دليلاً علىٰ نار أشعلت في وقت سابق.. ووجدت متاعاً قليلاً في بعض الجوانب لا يتعدىٰ بعض الملا بس ومعطفاً سميكاً، كما وجدت بقايا بعض الطعام في جانب آخر، وأغلبها عظام تم تجريدها من اللحم بالإ ضافة لبعض الفاكهة غريبة الشكل..

توجست ساما لوهلة لمرأىٰ العظام، وراودها خاطرٌ أن يكون من أحضرها لهذا الموقع يبغي التهامها.. ولم يكن ذلك غريباً بعد كل الحكايات التي سمعتها من الحكيم ومن مالو، وبعد المواجهتين اللتين التقت فيهما ذلك الكائن المسمىٰ هاربي..

نهضت ورمت الدثار جانباً، وهرعت محاولة الهرب قبل عودة صاحب هذا المكان.. وعند المدخل حيث صوت المياه العالي يصمّ أذنيها عن سماع تلك الخطوات التي تقترب، اندفعت ساما خارجة لتجد نفسها ترتطم بشخص ما بقوة أسقطتها للخلف.. رفعت بصرها للأعلىٰ بشيء من الارتعاب، لترىٰ رجلاً طويل الجسد بشكل اضطره للانحناء وهو يدخل المخبأ متسائلاً "أأنت بخير؟"

لم يكن منظره يريحها كثيراً، لكنها اطمأنت قليلاً لكونه بشرياً مثلها.. فهيئته عادية، عدا عن شعر أبيض غريب المنظر، لكنه لا يملك أذناً مدببة ولا أصابع مخلبية وقطعاً لا يملك ذيلاً يتدلىٰ خلفه.. اقترب الرجل وركع أمامها قائلاً بهدوء "لا داعي لهذا الارتعاب يا فتاة.. فأنا لن أؤذيك.."

نظرت له ساما بصمت وقلق شديد، ثم وجدت عيناها تلتفتان بشكل لا إرادي نحو كومة العظام جانباً.. وكأنها تحاول التأكد من صدق قوله رغم ما تراه.. ففهم الرجل نظرتها بشكل خاطئ وهو يقول "أأنت جائعة؟.. لا بد أن تكوني كذلك بعد الوقت الطويل الذي قضيتِه فاقدة للوعي.. من حسن الحظ أنني عثرت عليك قبل أن يجدك كائن آخر ويلتهمك.."

انتفضت ساما قلقة، ثم قالت بصوت مبحوح " وأنت.. ألن تفعل ذلك؟"

ابتسم الرجل شيئاً ما وقال "لا.. أنا لا آكل البشر.. وحيوانات الغابة تكفيني.."

رغم جهامة وجهه، لكن أشاعت ابتسامته الصغيرة شيئاً من الراحة في نفسها.. وفي الوقت ذاته، أشعرتها ببعض الألفة.. ظلت تنظر لوجهه لبعض الوقت ملاحظة عيناه الفضيتان اللامعتان بلونهما الغريب والآسر بشكل جذبها إليهما طويلاً، حتى وجدته يربت على رأسها قائلاً "أأنت بخير الآن؟.. ما هو اسمك؟"

غمغمت "ساما.."

فقال وهو ينهض واقفاً "اسمي أوس.. لا بد أنك جائعة.. ذهبت لإحضار بعض الطعام أثناء نومك.. والآن سنتناول وجبة لذيذة خلال وقت قصير.."

لاحظت ساما في تلك اللحظة بضع دجاجات بريّات وضعهن الرجل جانباً بعد أن فصل رقابهن عن أجسادهن، فحملهن قرب النهر وشرع في نتف ريشهن وتنظيفهن إعداداً لشيّ اللحم وتجهيز وجبة خفيفة له ولساما..

أدركت ساما في تلك اللحظة أن العظام التي رأتها هي عظام طيور وحيوانات صغيرة، وليست عظاماً بشرية كما هيئ لها سابقاً.. فغمرتها راحة شديدة دفعتها لتنهض وتقترب منه مراقبة عمله.. كان الرجل يبدو لها مختلفاً عمن رأتهم في هذا العالم.. بدا لها، بهيئته العادية وملابسه التي لا تختلف عن ملابس البشر كثيراً، كبشري عادي، وهذا خفف روعها قليلاً وجعل قلقها يهدأ وهي تتأمل ما يفعله.. ثم سألت باهتمام

"هل تستطيع أن تدلني على منزل الحكيم؟.. لقد سقطت في النهر وانجرفت بعيداً عن المنزل، ولا أعلم طريق العودة.."

توقف أوس مما كان يفعله، ونظر لها بصمت للحظات قبل أن يقول "أنت بشرية.. ألستِ كذلك؟"

رفعت ساما حاجبيها بشيء من الدهشة لإدراكه ذلك.. كيف يعرف من يعيش في هذا العالم أنها بشرية؟.. أهو شكلها؟.. أم أن لها رائحة خاصة تدل عليها؟..

وإزاء صمتها، قال أوس مقطباً "ما الذي تفعله بشرية في هذا العالم؟"

سألته ساما بتردد "ألست بشرياً أنت أيضاً؟"

ظل يحدق في وجهها بتقطيبة، ثم أمسك كتفيها متسائلاً "ما الذي جاء بك لهذا العالم؟.. أهو ذلك العجوز من أحضرك؟.. هل اختطفك من منزلك؟"

قالت بتوتر "لا.. لقد كنت هاربة من رجال قريتي، ووجدت نفسي أعبر طريق الأطياف.. والحكيم قد أنقذني وآواني في منزله.."

ظل أوس ينظر لها بصمت للحظة، ثم قال وهو يعود لعمله "أنصحك ألا تعودي لذلك العجوز.. لا خير في وجودك هناك.. ولا أظنه يعبأ لأمرك قيد شعرة.."

قالت بحدة "أنت مخطئ.. لابد أنه قلق علي كثيراً.. لابد أن مالو قلقة أيضاً.. يجب أن أعود، فأنا أكثر أمناً هناك من أي مكان آخر.."

قال أوس بشكل قاطع "لا.. أنت لست أأمن هناك من أي مكان آخر.. لقد احتفظ بك ذلك الرجل لغرض في نفسه.. ولا أظنه يهتم بحمايتك حقاً.."

قالت ساما بانفعال "ولكن....."

سمعت صوتاً مغايراً يقول "ثقي بكلام أوس يا فتاة.. بقاؤك مع ذلك العجوز ليس دليلاً على الأمان بتاتاً.."

بهتت ساما وهي ترى المرأة الجميلة بجناحي اليعسوب التي هبطت قرب مدخل التجويف.. ابتسمت لها المرأة ابتسامة خلابة وإن كانت خالية من أي تعاطف وهي تقول "هل يذهلك ما ترينه؟"

كانت ساما بالفعل مذهولة وهي التي لم ترَ قط بين البشر من تقاربها جمالاً، فيما قال أوس بجفاء "ما الذي أتى بك؟.. ظننت أننا انتهينا مما كان يجمعنا.."

قالت المرأة بتأكيد "من قال ذلك؟.. أنا لم أنتهِ بعد.."

قاطعتها ساما وهي تقول بانفعال "أأنت ساحرة؟.."

ضحكت المرأة ضحكة جميلة رنانة، وهذا خلب لب ساما تماماً وهي تبتسم بدورها متأملة ملامحها الجميلة..

فقالت المرأة ضاحكة " هذا ذات ما قاله أوس عندما رآني لأول مرة.. أهذه الدرجة يدهشكم رؤية فرد من (الفيي)؟.."

تساءلت ساما بدهشة "(الفيي)؟"

ابتسمت المرأة وهي تعبث بشعرها مجيبة "أجل.. اسمي تيما.. وهو اسم جميل يليق بامرأة جميلة مثلي.. أليس كذلك؟"

علق أوس بشيء من السخرية "لا يهم جمالك إن كان قلب هذا الجمال عفناً.."

نظرت له مقطبة بحاجبيها الدقيقين، وقالت حانقة "كيف تقول عني ذلك؟.. أنت لا تعرفني لتحكم عليّ بذلك.."

غمغم أوس بإصرار "أعلم ما يكفي.."

فقالت مقطبة "أهذا يعني أنك ترفض معاونتي من جديد؟"

قال "بل أرفض الاستماع إليك من الأصل.. لقد دفعتني دفعاً للهجوم على منزل الحكيم.. وقد حصلتُ على ما كنت أريده من إجابات.. الآن، لا شأن لي بك وبما تسعين إليه.."

شهقت ساما بصوت مسموع وهي تسأل مصعوقة "أأنت من هاجم منزل الحكيم؟"

نظرا لعينيها المفزوعتين وهي تنظر لأوس باستنكار.. ثم قالت باضطراب وهي تتراجع خطوات "لماذا؟.. كيف تؤذي الحكيم ومالو؟.. لقد ساعداني كثيراً.."

وأضافت بصوت يرتجف "أنت حقاً شخص سيئ.. ما كان يجب أن أسمتع إليك.."

أسرع أوس وأمسك يدها قبل أن تفرّ هاربة وهو يقول بتأكيد "لا تتسرعي في الحكم عليّ يا ساما.. فأنا لستُ شخصاً سيئاً.."

قالت وهي تحاول تخليص يدها من قبضته "لكنك هاجمت منزل الحكيم الذي آواني وأنقذني من الأطياف.. كيف تفعل هذا؟"

قال أوس بتأكيد "لكني لم أؤذِ أحدهما.. كل ما كنت أسعى إليه هو بعض الأجوبة.. وقد رحلت بعدها دون أن أسبب ضرراً لأي منهما.. ألا تثقين بي؟"

ظلت ساما تنظر له بحيرة واضطراب.. لقد كانت واثقة أن أمراً ما جرى في ذلك الهجوم، فهي لا تزال تذكر صياح مالو.. فهل تصدقه؟.. أم تصدق حدسها؟..

فقال أوس وهو يرى ترددها "لو كنتُ شخصاً سيئاً لما منحتك الأمان، ولما أنقذت حياتك بعد أن لفظك النهر على الضفة.. ألا يمكن لشيء مثل هذا أن يهدئ أفكارك؟.."

ظلت ساما تحدق في وجهه بتردد واضح، عندها علقت تيما بابتسامة "سيكون من الصعب إقناع الطفلة بهذا القول عندما تهاجم الحكيم مجدداً.."

قال أوس باستياء وحنق "ومن قال إنني سأطيعك وأفعل ذلك من جديد؟"

قالت تيما بتحدٍ "أنا أقول ذلك.."

فاقترب منها أوس خطوة تحذيرية وعيناه تلتمعان بغضب عارم قائلاً "ومن تظنين نفسك؟.. أتظنين أنك تقدرين على إجباري؟.."

تراجعت تيما خطوة وهي مقطبة، فيما أضاف أوس بلهجة مرعبة "غادري الآن ولا تدعيني أراكِ مرة أخرى.. لا تحاولي مخاطبتي في أي أمرٍ لكيلا تجدي ما لن يسرّك.."

كان تهديد أوس قد بث شيئاً من القلق في نفس تيما، فأشاحت بوجهها قائلة بغيظ "سنرى بشأن ذلك.."

وغادرت المكان طائرة بجناحيها الرقيقين فيما زفر أوس بعد رحيلها بحنق واضح.. ثم التفت إلى ساما التي كانت قد التصقت بجدار المخبأ بقلق واضح للهجته السابقة.. عندها ركع أوس أمامها قائلاً بصوت حاول جعله أكثر رقة من خشونته المعتادة "يا صغيرتي.. كيف يمكنني إقناعك بأنني لا أنوي بك شراً؟"

قالت ساما بعد تردد "خذني إلى منزل الحكيم.."

زفر أوس بضيق، ثم قال "لا بأس.. سآخذك إلى هناك فيما بعد.. لكني لن آمن عليك عنده، ولن أتركك معه مهما حاولتِ إقناعي.. هل اتفقنا؟"

هزت ساما رأسها موافقة دون تردد.. ستذهب لرؤية الحكيم، وهو سيقوم بحمايتها بكل تأكيد.. ثم سمعت أوس يضيف بلهجة منذرة "ساما.. إياك إطاعة هذه المرأة أو الاقتراب منها.. أفهمت؟.."

كان ذلك قولاً عجيباً وغير مفهوم لعقل ساما، فتساءلت ببراءة "لماذا؟.. إنها جميلة جداً وتبدو لي طيبة.."

قال أوس باستياء "لا تحكمي عليها بجمال وجهها.. هذه المرأة مخيفة، ومن الأفضل لك عدم مخالطتها وتجاهلها بشكل تام.."

ظلت ساما تنظر له بحيرة شديدة، فيما رفض أوس توضيح ذلك أكثر مما فعل.. لكن هذا لم يكن ليهدئ تساؤلات ساما ولو قليلاً.. عن هذا العالم.. وعن الادعاءات التي أطلقها هذان على الحكيم.. وعن هوية هذا الرجل الذي لا يلقي بالاً لرغبتها بأي حال من الأحوال..

وخارج المخبأ، حلقت تيما مبتعدة عن مخبأ أوس بغيظ حتى هبطت على فرع إحدى الأشجار القريبة.. زفرت بشدة وهي تسند رأسها للشجرة وتتأمل الأفق.. لقد أمضت السنة الماضية في محاولات يائسة لا تنتهي لإنجاز تلك المهمة التي أنيطت بها، وهي الآن عاجزة عن العودة وعاجزة عن البقاء كذلك.. لا تعلم كم ستبقى بعيدة عن موطنها أكثر من ذلك، ولا تعلم لِمَ عليها هي أن تنفذ هذه المهمة.. لكنها لا تملك الاعتراض حالياً.. لا على أمر رئيس قريتها الظالم، ولا على القدر الذي ساقها لهذا الرجل الجلف بالذات من بين جميع كائنات هذا العالم..

سالت دموعي غزيرة على وجهي.. لم أكن مستعدة لهذا.. لم أكن أتوقع هذه الاتهامات المجحفة.. لماذا يتم اتهامي رغم إنكاري الشديد؟..

لم يكن بإمكاني تفادي هيئتي المزرية هذه التي أبغض لأحد رؤيتها.. ومن مكاني على المنصة الخشبية المرتفعة التي شغلت موقعاً وسطاً في القرية رفعت بصري لأرى الرجل الذي نظر لي بتقطيبة أظهرت

احتقاره الواضح لي.. فيما استطعت رؤية بضع رجال ونساء وقفوا على فروع الأشجار القريبة يتأملون ما يجري بمزيج الشفقة والغضب الموجه نحوي..

قال الرجل أخيراً "ما الذي دفعك لفعل ما فعلته يا تيما؟"

نظرت له نظرة استعطاف ودموعي تنهمر دون انقطاع.. أي قولٍ أستطيع الحصول به على البراءة؟.. أي كلمة ستخلصني من المصير الذي ينتوونه لي؟..

قلت بصوت مرتجف " أنا لم أتعمد ذلك.. صدقني.. وكامون لا تعي شيئاً مما فعلته.. والجميع يدرك ذلك.."

نظر لي بهزء وقال "الكل يعرف ذلك.. لكن من يثبت لنا أنك لم تعاونيها؟.."

قلت بارتجافة وأنا أتلفت نحو الرجال والنساء حولي "لم أفعل.. صدقوني.."

وقف الرجل حائلاً بيني وبينهم وهو يقول بإصرار "لا دليل أمامنا إلا كلمتك.. وهذا أضعف من أن نقبله.. وهناك كذلك كلمة كامون، التي لا يأخذ شخص عاقل بها مطلقاً.."

والتفت إلى البقية صائحاً "لم يسبّب ما جرى ضرراً لي وحدي، بل تأثر به جميع أفراد هذه القرية.. من السهل على فتاة مثل تيما يعرف الجميع غرورها وأنانيتها أن تلقي بالتهمة على فتاة بلهاء لا تعي من أمرها شيئاً.."

ونظر لي مضيفاً "فمن يشفع لك الآن؟"

لكن النظرات الحانقة من بعض القرويين جعلتني أدرك في أي مأزق وجدت نفسي فيه.. وبعد محاكمة صورية قام بها رئيس القرية الذي يدعى سامار، تم اقتيادي للكوخ الخاص به.. وهناك، على الأرض، راقبت سامار الذي اختلى بي وابتسامة متشفية على شفتيه.. ولما وجد نفسه وحيداً معي دون رقيب قال "ألم أقل لك أنني سأسوقك مرغمة نحو هلاكك؟"

نظرت له بعدم فهم، فيما أضاف هو بصراحة تامة "أظننت أنك تقدرين على ليّ ذراعي بتهديداتك تلك؟.. الآن، أصبحت أنت المجرمة وأصبحت كلمتك مقابل كلمتي أمام أهل القرية.. فمن تظنين سيكسب ثقتهم أولاً؟.."

صمت وأنا أستوعب ما قاله ببطء.. ثم أشرت له بإصبع يرتجف وقلت "أيها الماكر.. أنت تعلم أنني بريئة لكنك دبرت الأمر لأظهر بمظهر المجرمة أمام الجميع.. أليس كذلك؟"

ابتسم سامار ابتسامة نصر وهو يرمقني بهزء، فنهضت محاولة ضربة بقبضتي بغضب.. لكنه أمسكها بيد وقال بصوت كالفحيح "وما المهم؟.. المهم أنك لن تنجي من هذا المصير.."

صحت بغضب "أيها الوغد.. كيف تفعل هذا بي وبكامون؟.. ما الذي ارتكبته بحقك؟.."

قال بنظرات حادة "أنت الأدرى بذلك.. ما يهم الآن هي العقوبة التي ستحصلين عليها.."

وتخلى عني وهو يدور في الكوخ قائلاً "لن يكون عقابك كبيراً هذه المرة.. سأرسلك في مهمة.. وعليك أن تنجزيها كما أطلبها منك دون تردد أو تهاون.."

قلت بغضب "ما الذي يجبرني على فعل ذلك؟.. سأفضح ما فعلته للآخرين فور خروجي من الكوخ، وستندم على الاستهانة بي.."

وجدته يندفع نحوي بخطوة واحدة فيضم شعري بقبضته ويشده بشكل مؤلم وهو يقول بصوت صارم "إن تفوهت بكلمة تتجاوز ما أتوقعه منك فسأحكم عليك بحكم أقسى وأشد صرامة مما قد تتخيلين.. هل تظنين أنني لن أجرؤ على إعدامك؟.. أو ربما إعدام شقيقتك البلهاء تلك.."

نظرت له بصدمة وعينين متسعتين، فقال "سأفعل ذلك دون تردد لو عصيتِ أمري.. ثم إن أحداً لن يصدق قول متهمة مثلك.. سيظنك الجميع تحاولين الخلاص من هذه الورطة التي وقعت فيها، ولن يأخذوا قولك على محمل الجد.."

تركني أتهاوى وأنا أقول بصدمة "أنت لن تلمس تلك الفتاة بسوء.. لن تجرؤ....."

قال بابتسامة جانبية "لن أفعل لو أطعتني فيما أطلبه منك.."

خفضت وجهي باستسلام واضح.. أنا بالفعل لا أملك فرصة لإقناع الأهالي ببراءتي، وأن الذنب الحقيقي يقع على رئيسها الذي يثقون به ويؤمنون بكل ما يقوله.. وفوق ذلك لا أطيق أن يمسّ أحدهم شقيقتي الصغيرة، والتي خرجت لهذه الدنيا مغيّبة العقل لا تكاد تفقه شيئاً من أحوالها.. لذا وجب عليّ حمايتها بأي شكل كان.. وجب عليّ حمايتها من أمثال هذا الرجل الذي لا يملك ذمة ولا ضميراً..

قلت أخيراً بعد صمت "سأفعل ما تريده.. لكن لا تلمس الفتاة بسوء.."

قال سامار بسخرية واضحة "لن أفعل ذلك طبعاً.. أعطيك كلمتي على هذا.."

وأي كلمة تلك من رجل مخادع مثله؟.. نهضت من سقوطي ووقفت أمامه قائلة "ما الذي تريده مني؟.."

ابتسم سامار ابتسامة واثقة ومال تجاهي قائلاً "أتعرفين رجلاً يسمّى الحكيم؟.."

مر يومان هادئان تقريباً على الفتى الذي حاول تناسي الصيادة الساعية خلفه.. لقد مضى يومان منذ آخر مرة رآها فيه، وهو يرجو أن تكون قد يئست من اللحاق به وفضّلت العودة لموطنها خالية الوفاض.. لم تكن أيام الفتى حافلة بالكثير، فهو ينزوي أغلب ساعات النهار في الكهف مع أخيه، يهتم بشؤونه وما يحتاجه للعيش وحيداً في ذلك الموقع النائي حيث لا يمكنه الاقتراب من القرى القريبة لشراء أي شيء، ولا حتى لتبادل الحديث والمعلومات مع أهالي تلك القرى.. لذا يضطر عادة لصنع ثيابه وترقيع حذائه الجلدي بنفسه في كل مرة.. بالإضافة لصنع بعض المعدات الضرورية لمعيشته مثل صنع خنجر خاص به من بعض الأحجار الصلدة، وحفر بعض القطع الخشبية لصنع أواني وأكواب خاصة به..

التنين لا يحتاج لهذه الأمور، لذا يقضي نومه نائماً بصمت وسكون.. فيما يعمل الفتى وحيداً عادة لإعداد هذه المعدات له وحده.. وبعد أن تغيب الشمس، يبدأ يومهما الفعلي.. فيرحل الاثنان للأنحاء القريبة من تلك السلسلة الجبلية، ولجانب قريب من الغابة، بحثاً عن بعض الطرائد التي تسدّ جوع التنين، فيما يكتفي الفتى بجزءٍ صغير يحمله عائداً للكهف ويقوم بشيّه وأكله..

رغم أنه يعتبر أخاً للتنين، لكنه لم يأكل لحماً نيئاً منذ زمن طويل.. كان لا يتردد في مشاركة الطعام مع أخيه ومع التنانين الأخرى في الماضي عندما كان طفلاً.. فهو قضى عمره يعيش مع التنانين ويجاريها في طبائعها وعاداتها دون أي تردد.. لكن منذ شبّ عن الطوق، وأدرك أنه يختلف عن بقية التنانين، كفّ عن مشاركتهم الطعام، وبدأ بطبخ طعامه بمفرده رغم أن ذلك لا يزيد على شيّ اللحم وأكله دون إضافة أي نوع من الملح أو بهارات أخرى إليه.. لم يخالط الفتى بشراً إلا فيما ندر، وكان ذلك قبل أن يبلغ العاشرة..

فقد كان بمقدوره عندها الرحيل عن الكهف وحيداً والنزول لبعض القرىٰ القريبة التي لم تكن تهتم بهوية الغرباء الذين يمرون بها.. وهناك، تعلم التحدث بلغتهم، وتعلم بعض الأشياء الهامة مثل إشعال النيران، ووجوب أكل اللحم مطبوخاً وكراهية النيئ منه.. بالإضافة لأمور أخرىٰ كان الفتىٰ متلهفاً لتعلمها..

لطالما تساءل في نفسه عن السبب الذي لأجله يختلف بشكله عن بقية التنانين.. عن السبب الذي كان يبدو فيه بهيئة إنسان أكثر منه تنيناً.. ولذا قادته قدماه، أو جناحاه بالأحرىٰ، لتلك القرىٰ حين كان في السابعة من عمره ليحصل علىٰ إجابة لبعض تلك الأسئلة.. ورغم كل ما تعلمه، ما يزال سبب وجوده عصيّاً علىٰ فهمه.. ولم يجد من يجيب سؤالاً هاماً مثل ذلك قط، كما لم يرَ شبيهاً له قط.. ومع مرور الوقت، بدأ القرويون بمناداته بأخي التنين.. ورغم أنه أطلق علىٰ نفسه اسماً مثل أسمائهم، لكنهم استمروا بمناداته بهذا اللقب لزمن طويل..

لكن كل ذلك انقضىٰ بعد أن حدثت تلك المأساة، وبعد أن فقد الفتىٰ عدداً من التنانين الذين تربّىٰ معهم وعاش في حضنهم طوال عمره.. والآن، لم يبقَ إلا هو والتنين الأخير.. وهو لا يجرؤ علىٰ العودة للقرىٰ من جديد، ولا يجرؤ علىٰ مفارقة أخيه الذي يستثار بسهولة ويعيث في الأرض فساداً إن غضب..

سمع الفتىٰ حمحمة خافتة وشعر بخطم التنين القاسي يبحث في ملابسه، فربت الفتىٰ علىٰ خطمه وهو يقف عند باب الكهف صامتاً يتأمل أنوار الغروب الحمراء التي تبدو من بين الجبال العالية.. ثم مدّ جناحيه ورفرف بهما وهو يرتفع سريعاً متجاوزاً ذلك المكان، وسرعان ما لحقه التنين برفرفات يدوّي صداها في المكان بسبب حجم جناحيه الكبيرين وقوتهما مقارنة بجناحيه.. حلق الفتىٰ متجاوزاً قمة جبل قريب ومستشعراً البرودة مع الثلج الذي لا يكاد يذوب عن تلك المناطق العالية من الجبال، لكنه لم يهتم بذلك قط مع جسده الذي يحتفظ بدفئه في كل الظروف.. كان التحليق والارتفاع في تلك المناطق الخالية من البشر من أحب الأمور إليه، وهي متعة خالصة لا يباريه فيها أحد.. فكان لا يعبأ لو حلق لساعات ملاحقاً أخيه الذي كان الأسرع والأقوىٰ بينهما، بينما يدور الفتىٰ حوله وهو ينقلب شقلبات سريعة..

وفي ذلك اليوم، انشغل الفتىٰ بالطيران قرب وادٍ يشق الجبال وتغزو الأشجار جانباً منه بكثافة.. مسح الموقع بعينيه، حتىٰ لفت انتباهه ذلك الوعل كبير الحجم الذي يرتفع قرناه بشكل لولبي، ويماهي لونه لون الصخور حوله حتىٰ كاد الفتىٰ يتجاوزه دون أن يراه إلا ببعض الحظ.. عندها أسرع الفتىٰ ينخفض في

طيرانه وهو يطلق صيحة يفهمها التنين.. وسرعان ما لحقه التنين وهو يهيئ مخالبه للقبض على ذلك الوعل الذي قفز وولّى الأدبار هارباً بفزع.. ناور الفتى بخفة في ذلك المكان الضيق، فيما ظل التنين يحلق على شيء من الارتفاع وبشكل موازٍ له بانتظار اللحظة الحاسمة.. قفز الوعل قفزات واسعة وهو يغيّر طريقة بسرعة وسهولة متخيراً طريقاً صعباً لا يمكّن مهاجميه من الوصول إليه بسهولة، وتحميه الصخور من كل الجوانب.. لكن الفتى لم يعبأ لذلك وهو يتجاوز ذلك الطريق الضيق بسرعة أكبر حتى وقف في وجه الوعل الذي فوجئ بهبوطه في تلك اللحظة..

غامر الوعل بالهجوم بشكل مفاجئ، وخفض رأسه مواجهاً الفتى بقرنيه وهو يركض نحوه بسرعة وقوة، فيما بقي الفتى واقفاً على صخرة بانتظار وصول الوعل إليه.. وفي لحظة اللقاء المرتقبة، قفز الفتى جانباً بسرعة مستغلاً سرعة وقوة جناحيه، ثم ارتطم بجانب الوعل الذي مرق قريباً منه بقوة حتى تسبب في اختلال توازنه وسقوطه متدحرجاً على الصخور..

لم يتمهل التنين لحظة وهو يرى سقوط الوعل دون أن يتمكن من استعادة توازنه، فطار نحوه بسرعة فائقة وأنشب مخالبه في جسده والوعل يطلق صيحة متألمة ويركل بأقدامه محاولاً الإفلات.. لكن التنين لم يعبأ بمقاومته وهو يرتفع بالسرعة ذاتها حاملاً طريدته والدماء تسيل من جراحها ملطخة الصخور تحته..

راقب الفتى التنين الذي ابتعد حاملاً طريدته، ثم تلفت حوله باحثاً عن طريدة أصغر وأخف حجماً تناسبه هو.. لم يكن الوعل ليكفيهما هما الإثنان، لذا من الطبيعي أن يتنازل الفتى عن حصته فيه بنفس راضية لصالح أخيه ذي الشهية الأكبر والتي لا يكاد الوعل يكفي لإشباعها..

حلق الفتى على ارتفاعٍ منخفض بحثاً عن طريدة أخرى.. طال بحثه في ذلك الوادي دون أن يعثر على طريدة مناسبة، ومع مضيّ الوقت، راودته نفسه على التغلغل في الغابة القريبة بحثاً عما يختبئ فيها من حيوانات.. كان في المعتاد يلجأ للبحث عن طريدته في الغابة، لكن تكرار ملاحقة المرأة له جعله يحجم عن دخولها في اليومين الماضيين.. لكن الآن بدأ يفقد الأمل في العثور على حيوان مناسب في الوادي القريب.. وقد بدأ يطرد الهواجس التي تعتريه كلما فكر في ولوج الغابة، لذا تشجع أخيراً وبدأ بالطيران بشكل منخفض متجاوزاً الأشجار القريبة وهو يحاول تفادي أي إصابة قد تصيب جناحيه.. فأي كسر فيهما لن يعجزه عن الطيران فقط، بل سيورثه آلاماً جمّة ويستغرق أسابيع طويلة ليبرأ منه..

وفيما ازدادت كثافة الأشجار، خفف الفتى طيرانه وهو يقترب من الأرض قبل أن يهبط بخفة ويركض مسافة قصيرة حتى اختبأ خلف مجموعة من الصخور.. ربض في موقعه لوقت طويل وهو يراقب غزالة برية تمشي بأقدامها الدقيقة وسط الغابة، وسرعان ما لحقها صغير لها يقفز بخفة ومرح ويركض لمسافة قصيرة قبل أن يعود لأمه ويدور حولها للحظات..

كان الفتى واثقاً أن الهواء لا يحمل رائحته للغزالة لئلا تنتبه له، وقد سكن بشكل تام أثناء مراقبتها حتى وجدها تنشغل بشرب بعض الماء من نبعٍ قريب.. عندها خفض جسده وهو يسير بأخف ما يملك دون أن يصدر صوتاً يجذب الانتباه إليه.. كان هدفه هو صغير الغزالة الذي ركض نحو شجرة قريبة وأخذ ينبش تحتها بحافره بفضول واضح.. فقدّر الفتى أنه يستطيع الاقتراب من الصغير والهجوم عليه قبل أن تنتبه الأم له، وبعدها يمكنه أن يكسر عنقه بسرعة ويقتله قبل أن تحاول الأم إنقاذه، وعندها لن تملك فعل شيء له، وستبتعد تاركة له الغنيمة اللذيذة..

كان الفتى معتاداً على الصيد، وإن لم يعقه أي عائق فهو قادر على اصطياد طريدته في المحاولة الأولى.. ولم يكن العائق هذه المرة إلا سهماً شق الهواء وسقط عند قدميه في اللحظة التي حاول القفز فيها على الصغير، فتعثر وانقلب أرضاً قبل أن يجثو في موقعه متحفزاً بحثاً عن صاحب السهم.. أما الغزالة فقد أصدرت صوتاً حاداً والصغير يهرب إليها ويبادرا بالركض مبتعدين في قفزات واسعة..

توتر الفتى بشدة مع رؤية ذلك السهم، ورؤية صاحبته التي وقفت قرب إحدى الأشجار والتصميم واضحٌ في عينيها.. ولما أطلقت سهماً آخر تفاداه الفتى بقفزة جانبية قبل أن يتدحرج ويهبّ واقفاً مولياً إياها ظهره وهو يركض بأسرع ما يمكنه.. وغمغم من بين أنفاسه اللاهثة "كيف تستدل على مكاني في كل مرة؟.. إن إصرارها يثير الإعجاب حقاً.."

لكن لم يبدُ أن الصيادة تنوي التخلي عن فرصتها هذه، فتطايرت السهام نحو الفتى الذي حاول تفاديها والمناورة بأسرع ما يستطيع.. لكن حجم السهام الأصغر من المعتاد جعل هذه المهمة أصعب عليه.. فرغم كل محاولاته، وجد أن سهمين قد أصاباه في كتفه اليمنى وفخذه الأيسر.. شعر الفتى بألم شديد في موضع الإصابة، لكنه لم يتباطأ وهو يتجاوز عدداً من الأشجار بسرعة ويختبئ خلف صخور كبيرة حجبته عن مرمى سهامها.. كان الألم يتزايد، لكنه نوعاً مطمئن أن تلك الصيادة لا تسعى لقتله بل لاصطياده حياً.. مد

يده وانتزع السهم الذي في كتفه، ثم انتزع الآخر الذي أصاب فخذه وهو يزفر متحاملاً قدر استطاعته، عندما فوجئ بصوت الأقدام على الصخور القريبة ورأى سهماً يطير لينغرز في موضع قريب من قدمه.. لم يتمهل الفتى وهو ينحني ويفر من ذلك المكان بأسرع ما يستطيع والسهام تلاحقه بإصرار، فحرص على أن يركض في خط متعرج للإفلات من إصابة جديدة، ورفع بصره للأعلى محاولاً العثور على ثغرة تتيح له النفاذ عبرها نحو السماء دون الإضرار بجناحيه..

سمع صياح المرأة في تلك اللحظة "لن تفلت مني اليوم يا صبي.."

تجاهلها وهو يزيد من سرعة خطواته الواسعة دون أن يكف عن البحث عن ثغرة بين الأشجار بإصرار.. ومع كل خطوة يخطوها، والدماء تتدفق في عروقه مجارية المجهود الذي يبذله، شعر بخدرٍ شديد في جسده منبعه موضع السهمين اللذين أصاباه.. كان الخدر أقوى من أن يتجاهله، فوقف للحظة وهو يتحسس كتفه، وراعه أنه لا يكاد يشعر بلمسات يده على جلده.. من عادته أن يتأمل السهام التي تصيبه لرؤية إن كانت مسمومة أو مغموسة في مخدر ما، لكنه اليوم لم يفعل بعد أن فاجأته الصيادة بهجوم جديد.. وها هو يحصد نتائج ذلك..

زفر وهو يستشعر الخدر في جسده ودوارٌ خفيف في رأسه، فرفع يده بالمخالب الواضحة فيها.. وبضربة سريعة، أصاب ذراعه بضربة قوية انبثق الدم منها.. كانت تلك أسهل وأسرع طريقة لتنبيه جسده واستنفاره للخلاص من أثر ذلك المخدر.. وبهذا، تتحفز النهايات العصبية في جسده ويتكفل الألم الشديد في إعادته لكامل وعيه في لحظات معدودة..

سمع في تلك اللحظة صوت المرأة تقول بسخرية "لا فائدة مما تفعله.."

استدار بسرعة ليراها تقترب منه، ولكنها للعجب لم ترفع سلاحها بوجهه بل وضعته على كتفها واكتفت بمراقبة ما يفعله بترقب.. لم يتمهل الفتى وهو يستدير مبتعداً من جديد بأسرع ما يستطيع، بينما اكتفت المرأة بملاحقته بصمت وكأنها تترقب أمراً ما.. قطب الفتى بتفكير وهو يحاول الخلاص من ملاحقتها له، عندما فوجئ بقدميه تنثنيان تحته وتسقطانه أرضاً بعنف.. تحامل الفتى للنهوض مجدداً، لكنه فوجئ بأن ذراعه وساقه المصابتان قد تشنجتا وفقد التحكم بهما كلياً، فيما بدأ التأثير ذاته يحدث بتسارع كبير في باقي أنحاء جسده، بينما احتفظ عقله بصفاء تام ولم يبدُ أنه على وشك فقدان وعيه..

حاول الفتى رفع جسده بيد ترتجف، فيما رفرف بجناحيه بقوة محاولاً الابتعاد عن هذا المكان، لكن المرأة التي اقتربت منه داست ساقه بقدمها فثبتته في موقعه وهي تقول "استسلم يا هذا.. لو حاولت الطيران بحالتك هذه، فستسقط سقطة مميته عندما تفقد التحكم بجناحيك.."

سقط الفتى على وجهه رغماً عنه، وقال بلسان ثقيل "ما الذي فعلته بي؟.."

ابتسمت وهي تراقب نضاله اليائس للنهوض "كل ما استلزمني هو أن أغمس سهامي في منقوع زهرة ابنة الشيطان.. لابد أنك تعلم أن تلك الزهور تسبب شللاً مؤقتاً لا يمكن التخلص منه.."

عبس الفتى وهو يحاول نبذ ذلك الشعور بالعجز، فيما بدأ يفقد التحكم في أطراف جسده واحداً بعد آخر.. ولم تمض لحظات معدودة حتى أصابه شلل كامل بحيث فقد الإحساس بجسده والقدرة على تحريكه، بينما احتفظ بوعيه وهو يشعر بالمرأة تقلبه على ظهره قائلة بظفر "أخيراً.. بعد نضال طويل، تمكنت منك.."

تجمد لسان الفتى في حلقه فلم يقدر حتى على إصدار صوت خافت دليل اعتراضه لما يساق له.. أراد تحذير المرأة مما تفعله.. أراد إنذارها من عواقب خطفه وإبعاده عن أخيه.. مثل هذا الفعل تبعاته خطيرة على التنين الذي لن يصمت بعد اختفائه.. فكيف له أن ينذرها دون أن يقدر حتى على تحريك جفنيه؟..

رآها تقترب منه قائلة بأسف "اعذرني لما سأفعله، لكنه إجراءٌ احتياطي ليس إلا.."

لم يفهم مغزى قولها عندما فوجئ بضربة قوية تصيب رأسه فتفقده الوعي على الفور..

في اليوم التالي للهجوم، انشغلت مالو انشغالاً كاملاً بإعادة المنزل كما كان وترميم الدمار الذي حلّ به.. انشغلت بعملها بتفانٍ وكأنها تحاول طرد ساما من ذهنها.. كانت تشعر بشيء من الذنب لأمر الفتاة التي لجأت إليهما، لكنها لم تستطع مخالفة أمر الحكيم، وهي لا تقدر على فعل شيء لها ولا تستطيع البحث عنها في هذه السهول الشاسعة.. من الذي اختطفها من غرفتها؟.. أهو ذلك الرجل الذي هاجمهم؟.. أم هي المرأة؟.. أهو كائن آخر سعى خلف دمائها الشهية؟.. لا تعلم، ولن تعلم قط ما جرى لتلك الطفلة منذ غادرت هذا المنزل..

عندما هبط الحكيم من غرفته هذا الصباح، لاحظ أن مالو تمكنت بشيء من العسر من إعادة الكتب التي

سقطت أرضاً للأرفف العالية، بالنظر لقصر قامتها وضآلتها.. فيما ألقت تعويذة مبسطة على موضع الباب المكسور لتمنع دخول كائن غير مرغوب به، وكان ذلك أقصى قدراتها الحالية..

بادرته مالو فور أن رأته قائلة "أأنت أفضل حالاً الآن يا سيدي؟.. سأجهز فطورك على الفور.."

لم يعلق الحكيم وهو يتناول بضع أدوات سقطت جانباً من أحد الأرفف، فيما قالت مالو وهي تنشغل بتحضير فطور بسيط بأسرع ما يمكنها "ما الذي سنفعله بشأن التعويذة الخاصة بالمنزل يا سيدي؟.. لا يمكننا ترك المنزل دون تعويذة تحميه.."

نظر الحكيم حوله بتمعن، ثم نظر لمالو التي انشغلت بعملها وقال "التعويذة التي كسرها ذلك الرجل بحاجة لمجهود كبير ووقت طويل حتى أعيدها.. ولا أملك الوقت الكافي لذلك.."

التفتت مالو إليه وقالت "هل تسمح لي بالقيام بها يا سيدي؟.. أملك من الخبرة ما يكفي.."

قال الحكيم مفكراً "ربما.. لكنك لا تملكين الطاقة الكافية لذلك.."

قالت مالو بإلحاح "لكني أقدر على ذلك حقاً.. لمَ لا تثق بي؟"

حمل الحكيم بضع كتب سقطت أرضاً، وقال "سنرى بشأن ذلك.. عليّ الذهاب في زيارتي المعتادة للأطياف، فهي لا تستقبلني إلا في أوقات معينة من كل شهر.. وزيارتي السابقة أفسدها وجود الطفلة البشرية، حيث رفضت الأطياف استقبالي بوجودها.. لذا عليّ تكرار المحاولة، ولن أعود قبل عدة أيام.."

ونظر لمالو مضيفاً "وفي هذا الوقت، لا يمكنني تركك وحيدة.. فلن تكوني محميّة بالتعويذة ككل مرة.."

قالت مالو "ما الذي يمكنني فعله إذاً؟"

صمت متأملاً ما بيده للحظات، ثم قال "ما رأيك بالعودة للقرية لبضع أيام؟.. سيكون من المفيد لك البقاء فيها حتى عودتي من رحلتي هذه.."

علقت مالو بشيء من اللهفة "أو يمكنني الذهاب معك لأتعلم منك كيف تتعامل مع الأطياف.."

قال الحكيم رافضاً "لا.. اذهبي للقرية.. وسأستدعيك بعد عودتي.."

لم تجادل مالو وهي تدرك أن الحكيم يكره ذلك، فعادت تتساءل "وماذا عن التعويذة؟"

أجابها "سنرى بشأن ذلك يا مالو.."

صمتت مالو وهي تنشغل بأعمالها بصمت.. كانت تتمنى أن يأخذها الحكيم في رحلاته العديدة في جوانب

عالم الأطياف.. تتمنى أن تتعلم منه أكثر مما تعلمت، وترجو أن يعتمد عليها في أمور التعاويذ وغيرها من الأعمال.. لكنه، رغم مرور السنوات التي قضتها معه، يرفض ذلك بإصرار.. فمتى سيسمح لها بأن تغوص أكثر في عالمه وتكتسب علومه؟.. متى سيسمح لها أن تصبح خليفته وحاملة أسراره من بعده؟..

عندما استعاد الفتى وعيه، وجد نفسه مقيداً ومحمولاً على عربة خالية.. كان القيد محكماً على يديه وقدميه لئلا يتمكن من النهوض، وربط جناحاه معاً لئلا يتمكن من تحريكهما محاولاً الطيران، فيما تم ربط جرح ذراعه السابق بشكل بسيط وإن كان متقناً.. لم يكن وحيداً في العربة، فقد كانت المرأة في الجانب الآخر منها وقد وضعت حقيبتها قربها وتخففت من الأسلحة التي تعلقها في حزامها عادة..

أمام العربة، سار رجل قروي قرب حماره الذي يجر العربة بصمت وخطوات بطيئة لكن ثابتة.. وبنظرة من موقعه، تأكد الفتى أنه بقي فاقداً للوعي زمناً طويلاً.. فالشمس كانت تتوسط السماء، فيما كان آخر ما يذكره هو فقدانه للوعي مع بدء الليلة السابقة.. كما أن الغابة التي كان فيها لا يبدو لها أي أثر في الأفق، بل كانت العربة تسير على طريق ترابي يقطع سهلاً واسعاً منبسطاً يزهو بخضرة يانعة، وتناثرت بعض البيوت وضيعة الحال هنا وهناك دون أن تجتمع مكونة قرية، بل كانت متفرقة وكل بيت قربه حظيرة للحيوانات ومزرعة صغيرة.. وفي مكان لا يبعد الكثير عن هذا الطريق، رأى نهراً عريضاً يشق السهل في مجرى ينخفض أمتاراً قليلة عن باقي السهل..

تململ الفتى في جلوسه وهو يشعر بتنميل شديد في أطرافه، ربما كان راجعاً لتأثير تلك النبتة التي أصابت جسده بشلل تام لساعات لا يدركها.. انتبهت المرأة لا ستيقاظه وقالت بهدوء "لا داعي لأي حركات عدوانية يا صبي.. فات أوان المقاومة.. عليك أن تستسلم لمصيرك وتبتلع هزيمتك.."

قال الفتى بحنق "أي هزيمة؟.. أنت لا تعلمين ما تتحدثين عنه.. إن لم أعد الليلة لأخي، فقد يحدث ما لا تحمد عقباه.."

قالت بهزء "التنين؟.. وهل سيلحقنا ويثور لأننا اختطفناك؟.. كيف له أن يستدل على مكانك ونحن بعيدان عن الغابة أميالاً؟.."

قال بغضب "لن يعثر عليّ، لكن ثورته ستكون موجهة للقرىٰ والمدن القريبة من الغابة.. بدوني، سيتزايد غضبه وهو يبحث عني، وسيتظافر ذلك مع جوعه الشديد الذي أسيطر عليه بصعوبة عادة.. سيهاجم القرىٰ، وسيدمر ما يدمر ويقتل من يقتل دون أن يجد ما يردعه.. ألا يهمك ما سيجري للبسطاء الذين يعيشون في تلك القرىٰ وأي مصير سيلاقونه؟.."

هزت كتفيها معلقة "لا.. ما يهمني ألا أعود خالية الوفاض لمدينة الصيادين.. وهذا ما لن يحدث اليوم.."

حاول الفتىٰ الإفلات من قيوده وهو يقول بحنق "يا لك من قاسية.. أطلقيني واتركيني أعود لأخي.. يجب أن أعيده لرشده قبل أن يثور ثورة عارمة.."

قالت بغير اهتمام "أخبرتك أن تستسلم يا صغير.. كلماتك لن تؤثر فيّ بتاتاً.."

عبس الفتىٰ بحنق شديد، ثم قال غاضباً "اسمي إيار.. لا تنادني بهذه الألقاب المهينة، فأنا لست طفلاً.."

علقت المرأة بهدوء "ليس من عادتي تبادل الأحاديث والأسماء مع طرائدي، لذا وفر جهودك وأنفاسك حتىٰ نصل.."

ظل إيار ينفخ بغيظ، وقد ساءه عدم اهتمامها لما قد يجري بعد غيابه.. في الواقع لم يكن اهتمام إيار منصباً كلياً علىٰ سكان القرىٰ، بل كان جلّ اهتمامه ما قد يجري لأخيه لو ثار حقاً وعاث في الأرض فساداً.. لو حدث ذلك حقاً، فهل سيصمت سكان القرىٰ علىٰ ما سيجري؟.. ماذا لو حاولوا ردع التنين وكف شره؟.. ما الذي قد يفعلونه به عندها؟.. إنه لا يزال يذكر تلك الحادثة التي حدثت منذ ست سنوات، وقتل فيها آخر تسع تنانين عاشوا في هذه الأرض.. ولم يبقَ بعدها إلا التنين الأخير، وهو..

ربما كان يشعر أن من مسؤوليته الحفاظ علىٰ التنين الأخير قبل أن ينقرض هذا الجنس بموته.. فهو، رغم أنه يعدّ نفسه تنيناً، لكنه يدرك أنه مجرد نسخة مشوهة من التنين.. ولو مات التنين الأخير، وهو الوحيد الذي يمكن أن يطلق عليه لقب (عائلة) فسيغدو إيار وحيداً.. فما الذي سيفعله عندها؟..

لم يكن خروج صغير التنين من بيضته سليماً معافىً أمراً مألوفاً بين عشيرة التنانين.. التنانين لا تملك نسبة تكاثر عالية بين الكائنات في هذا العالم، فعادة لا تضع أنثى التنين أكثر من بيضة واحدة في عقدٍ

كامل.. ونادراً ما يحدث ذلك بالفعل، بالإضافة لكون البيضة تواجه أخطاراً جمّة من عدد لا محدود من الكائنات.. لذا نجاة إحداها، وخروج صغير التنين منها هي معجزة بحد ذاتها..

عندما خرج الصغير من بيضته بلونه الأشهب الباهت وعيناه المغلقتان وصيحاته الضعيفة، كان ذلك مدعاة للاحتفال.. تعالت صيحاتي مختلطة بصيحات أخي ونحن نراقب الصغير بشغف واضح، فيما انشغلت أمه بلعق جسده ووجهه وجذبه قريباً من جسدها ليحظى ببعض الدفء في مواجهة جو الجبال..

لم أكن قد بلغت العاشرة من عمري بعد، ورغم أن أخي لا يكبرني في العمر بكثير، لكنه كما بقية التنانين قد بلغ مرحلة النضج، وبدأ البحث عن أنثاه الخاصة بين جمع التنانين الذي لا يزيد عددهم على عشر.. أما أنا، فقد ظللت بهيئتي الصغيرة والضئيلة وبشكلي الغريب الذي لا يشبه التنانين بأي حال.. كنتُ قد دأبتُ على الرحيل للقرية الزراعية بحثاً عن بعض الإجابات لأسئلتي العديدة عن هيئتي الغريبة وسبب وجودي بين التنانين.. بدأت باكتساب لغتهم، وتزايدت حصيلتي من الكلمات بشكل سريع ومضطرد في كل زيارة أقوم بها.. كنتُ أجد ترحيباً واضحاً من أهل تلك القرية الطيبة، وكنت أقضي الكثير من الأوقات في اللعب مع الصبية الصغار المفتونين بجناحيّ وقدرتي على الطيران.. وفي الآن ذاته لم أكن أحمل أي توجس من الغرباء الذين يمرون بالقرية في أوقات عديدة..

وعندما اقترب مني أحد الغرباء، والذي لدهشتي كان يحمل معدات وأدوات لم أرَ مثلها في حياتي، لم أجد حرجاً من الحديث مع الرجل وإجابة أسئلته المتعجبة بما يخص هيئتي الغريبة.. كنتُ معتاداً على هذه الأسئلة ولا أجد غضاضة في الإجابة عنها، وفي الآن ذاته كان اهتمامي المتزايد منصبّاً على تلك الحقيبة القماشية التي يحملها الرجل على كتفه حاملاً أغراضه بها.. قضيتُ الساعات التالية أتأمل محتويات الحقيبة والرجل يشرح لي بعضها، فيما أجيب أسئلة الرجل عن مأوى التنانين وأخبره بفرحة ظاهرة عن ذلك الصغير الذي رأى النور بعد سنواتٍ طوال لم تشهد العشيرة فيها ولادة صغير بتاتاً..

تلك الليلة خلدت للنوم بعد أن عرجت على وكر أنثى التنين وراقبت الصغير لوقت طويل وهو يحاول فتح عينيه بصعوبة ويصدر أصواتاً صغيرة ويدور في الموقع بتخبط.. ولما استيقظت، قبل شروق الشمس بوقت طويل، كان أول ما لاحظته هو الصراخ العالي للتنانين والجبال تردد الصياح بشكل قوي.. دهشت لما يحدث، وهو أمرٌ لم أشهده قط بين التنانين.. خرجت لاستطلاع ما يجري، فرأيت الأم تقف عند مدخل الكهف الذي يضمّ وكرها وهي تطلق صيحاتها مختلطة المعاني بشكل لم يدع لي مجالاً للشك.. الصغير مفقود.. كان هذا واضحاً من صياح الأم الذي مزج اللوعة بالثورة والغضب.. لو كان الأمر متعلقاً بموت الصغير لأي سبب، لكانت صيحاتها تحمل الأسى والحزن لفقده.. لم تكن لتهتاج بهذه الصورة الواضحة، ولم تكن التنانين الأخرى ستشاركها تلك الثورة.. رأيت عدداً من التنانين تحلق في السماء في مسارات دائرية وكأنها تبحث عن أثر للصغير أو سعياً منها لالتقاط رائحته، لكن كانت تلك جهوداً عابثة لم تسفر عن أي فائدة.. أو هكذا ظننت في البدء عندما سمعت صيحة من جهة مغايرة بصوت أحد التنانين.. كانت صيحة استدعاء، دالة على التقاطه لرائحة التنين الصغير.. وقد هرعت الأم تحلق نحو صاحب الصوت الذي دار مردداً صيحاته وجاذباً بقية التنانين..

توترتُ بشدة لهذا الأمر.. الصياح، وتحليق التنانين، يقود للجهة الأخرى من الجبال التي نحتلها ونعيش في جانب مقطوع منها.. رأيت أغلب التنانين تحلق نحو الجانب الغربي، حيث تنفرج السلسلة الجبلية عن سهل واسع يقطعه النهر العريض، وتحتل القرى الزراعية جانباً كبيراً منها..

ازداد توتري وأنا أطلق صيحات اعتراض محاولاً جذب انتباه التنانين ومجاهداً للحاق بها في طيرانها السريع الذي لا أجاريه.. كانت ثورة التنانين تزداد، وطيرانها خلف الرائحة الخافتة للصغير بحثاً عنه سيقودها للقرى الزراعية الهادئة، ولا أظن حدثاً كهذا سيمر على خير بتاتاً..

تبعت التنانين التي حلقت بين القمم الثلجية بخفة ورأيتها تتبع رائحة الصغير التي قادتها نحو النهر العريض والقرى القريبة منه.. وهناك، بدا أن الرائحة قد انقطعت فجأة.. كان لهذا عدة أسباب، إما أن يكون الصغير مخفياً في أحد بيوت تلك القرى، أو أن رائحته قد انقطعت بعد غرقه في النهر، أو السبب الأخير أن يكون مختطفه ذكياً واستطاع إخفاء تلك الرائحة بذكاء للتخلص من التنانين.. لكن كيف يمكنني إيصال مثل تلك المعلومة للتنانين بحصيلتي من الأصوات التي أتبادلها معها عادة؟.. أطلقت عدة صيحات وأنا أحاول الوقوف في وجوه التنانين، محاولاً جذب انتباهها وتهدئتها.. لكن كما توقعت، لم يكن أيها يصغي لي، ولم تكن الأم أقلها توتراً وغضباً وهي تهجم على أقرب قرية فتحيل ليلها الأدهم نهاراً بنيران حلقها الحارقة..

بذلت ما في وسعي لصدّ التنانين عما تفعله ولكن من أنا لأتمكن من ذلك؟..

كانت أياماً عاتية تلك التي مرت على هذا الجزء من النهر.. قتل فيها عدد لا يحصى من البشر، وغدت الحقول صريماً لا يرتجى منها أي محصول، واستحالت القرى رماداً لا حياة فيه..

قبعت في جزء من الجبال وأنا أنظر لما يجري بأسىً كبير.. كنت صغيراً، أجهل كيف يمكنني أن أعين أهل القرى على هذه المصيبة التي حلّت بهم دون ذنب، وأجهل كيف أصدّ بني قومي عن هذا الهجوم العاتي الذي لا يبقي ولا يذر.. حتى حانت تلك اللحظة التي توقعتها.. استعان أصحاب القرى بنوع من الكائنات لم أرَه قط.. لكنني عندما رأيت أحدهم تذكرت ذلك الغريب الذي ألحّ عليّ بالسؤال عن التنانين وعن صغيرها الذي رأى النور منذ عهد قريب.. كان الغريب مشابهاً لتلك الفرقة التي بدأت هجومها على التنانين.. ورغم أن عشر تنانين يمثلون قوة عاتية لا يمكن ردعها، استعانت تلك الفرقة وفرق أخرى مشابهة بذكائها اللامحدود وبأدوات لم أرَ مثلها قط.. وسرعان ما تهاوت التنانين واحداً إثر آخر بأيديهم..

وقفت في موقعي غير مصدقٍ لما أراه.. كانت حملة صيد كبيرة، نتج عنها ما لا يقل عن سبع جثث للتنانين التي تهاوت بأيدي الصيادين.. فيما هرب اثنان منهم جرحى بين الجبال، ولم يدُم بحثي عنهما طويلاً حتى رأيت جثتيهما في أحد الوديان القريبة.. لم يبقَ إلا أنا بينهم.. ولم يبقَ إلا أخي الذي رغم ثورته الشديدة لكنه لم يملك إلا إطاعتي عندما وقفت بوجهه مطلقاً صيحاتي المنذرة وأنا أدعوه للعودة لوكرنا وسط الجبال

قبل بدء هجوم الصيادين..

تراجعت مع أخي للجبال والحزن والأسى يغمر وجهي بدموع لا تجف.. ولم أعرف قط ما جرى لصغير التنين الذي اختفى دون أثر..

في مكان آخر يبعد الكثير عن هذا الموقع، راعَ أهل إحدى القرى القريبة من السلسلة الجبلية المسماة (وكر التنين) صياحٌ حاد وخشن.. تعالى الصياح العالي من مكان ما من تلك السلسلة وتكرر عدة مرات مع طلوع شمس ذلك النهار، مما وتّر أهل تلك القرية وهم ينطلقون لمزارعهم القريبة كما يفعلون عادة مع مطلع كل صباح.. فوقف بعض الرجال يتبادلون النظرات القلقة، ولما تكررت تلك الصيحات عدة مرات علق أحدهم "أليست هذه صيحة التنين؟"

قال آخر والعرق يتفصد على جبينه "لم نسمع تلك الصيحة منذ سنين.. هل جرى شيء ما هناك؟"

علق ثالث بشحوب واضح "هذه علامة سيئة.. ألا يجب أن نتخذ احتياطاتنا؟"

هز الأول رأسه بأسف قائلاً "وأي احتياطات يمكننا اتخاذها؟.. لنأمل خيراً، ولندعُ الله ألا نرى ذلك التنين في هذه المناطق مرة أخرى.."

صمت الثلاثة وهم يكملون سيرهم للمزارع الواقعة في جانب من جوانب القرية، فيما رددت الجبال صيحة التنين مرة بعد مرة.. ولم تكن الصيحة التالية بأخف وطأة مما سبقها، ولم يتمكن أهل القرية من الركون للراحة مع التهديد العلني الذي ضخمته الوديان القريبة بشكل زاد من وحشيته أضعافاً مضاعفة..

الفصل الخامس : ناب الذئب

قضت تيما الساعات التالية صامتة على غصن شجرة تطل على المخبأ الذي اتخذه أوس.. كانت تنظر للسماء ساهمة لا تكاد ترى ما تراه بعينيها حقاً.. لقد سئمت هذه المهمة التي أنيطت بها، وراودها شعورٌ قوي أن تتجاهل كل شيء وتعود لقريتها دون إبطاء.. ما الذي يجبرها على تحمل فرد من الريابلة لهذه المدة الطويلة؟.. لو لم يكن منيعاً عليها، لتخلصت منه منذ وقت طويل، علّ ذلك يهدئ بعض الغيظ الذي تشعر به تجاهه..

لاحظت في تلك اللحظة أن الطفلة قد خرجت من المخبأ ووقفت عند مدخله تتلفت حولها، قبل أن ترفع بصرها وتتأمل تيما بصمت.. فتساءلت تيما "ما الأمر؟.. أين ذلك الرجل؟"

أجابت ساما بشيء من التردد "يبدو أنه متعب، فقد خلد للنوم قبل قليل.. وقد وعدني أن يأخذني لمنزل الحكيم عند استيقاظه.."

لم تعلق تيما وهي تطلق ضحكة هازئة.. ذلك الرجل الغريب يرفض التدخل في أمور جدية وهامة، لكنه يجد من الوقت ما يكفي للاعتناء بطفلة بشرية وتلبية طلباتها مهما كانت تافهة.. وعندما التفتت تيما زافرة بملل، لاحظت عينا ساما اللتان تراقبانها بلمعة ظاهرة واهتمام واضح.. دفعت تيما شعرها المتموج للوراء وقالت بنبرة ضجر "ما الأمر؟.. لِمَ تحدقين بي بهذه الصورة؟"

حوّلت ساما بصرها للحظات متطلعة جهة أوس الذي بدا لها مستغرقاً في نوم عميق، ثم عادت ببصرها إلى تيما التي تحدق بها بدورها.. عندها فركت ساما كفيها للحظة وقالت بشيء من التردد "هل أنت مخيفة؟"

نظرت لها تيما باستنكار وقالت حانقة "مخيفة؟.. أيمكن لشخص بهيئتي هذه أن يكون مخيفاً؟.. ما الذي هيأ لك ذلك؟"

قالت ساما بارتباك أكبر "أوس هو من قال ذلك، لا أنا.. لقد حذرني منك بشدة وأنذرني من الانصياع لك أو الاقتراب منك.. ولم يفصح لي عن السبب.."

نظرت لها تيما بغيظ.. أهذا كل ما يملكه أوس لوصفها به؟.. لو أنه وصف جمالها، أو رقتها، أو حذر ساما

من الإعجاب بها، لكان أمراً مفهوماً.. لكن أيصفها بأنها مخيفة؟.. هل يرى بعينيه هاتين غولاً؟..

ارتسمت ابتسامة متلاعبة على جانب فمها الصغير المكتنز وهي تراقب ساما التي تنتظر جوابها بقلق، وقالت وهي تهبط من موقعها برفات جناحيها الناعمين "هل تريدين أن تعرفي ما يعنيه أوس بذلك؟"

هزت ساما رأسها إيجاباً بفضول ظاهر، وبدا لتيما أن تحذير أوس قد آتى نتائج عكسية قد لا تعجبه.. فازدادت ابتسامتها اتساعاً وهي تدور حول ساما هامسة بصوت ناعم "لا تلوميني على فضولك هذا.."

فوجئت ساما بأن تيما قد أمسكت بها من تحت ذراعيها ورفعت جسدها بخفة وسرعة وجناحيها يرفرفان بقوة مثيرة الهواء حولهما.. شهقت ساما وهي ترى الأرض تتضاءل بسرعة تحت قدميها، لكن تيما قالت بسرعة وتحذير "لو أصدرتِ صوتاً الآن، فسأطلقك من هذا الارتفاع لتسقطي ويتهشم جسدك قطعاً متناثرة.."

سارعت ساما لوضع يديها على فمها بقوة، فيما شعرت بأصابع تيما الطويلة والحادة تضغط على جسدها بشكل مؤلم وهما ترتفعان عالياً بسرعة وخفة لا يمكن تصديقها.. كانت تلك هي المرة الأولى التي تجد فيها ساما نفسها على هذا الارتفاع عن الأرض، ورغم تجربتها السابقة مع الهاربي لكن الظلام في تلك الليلة وذعرها الشديد منعها من استشعار تجربة كهذه التجربة.. لذا كان رعبها ممتزجاً بدهشة وانفعالٍ كبيرين خلّفا إثارة في صدرها وهي تراقب السماء الزرقاء الزاهية والأرض الخضراء التي تتسارع من تحت قدميها.. لم يطُل بهما الوقت وهما تعبران السماء، قبل أن تبدأ تيما بالانخفاض نحو منطقة تجمعت فيها بعض الأشجار مكونة منطقة صغيرة تصلح كمأوى للعديد من الحيوانات.. فأنزلت ساما عند جانب تلك الأشجار وهمست لها "اختبئي خلف هذه الشجرة لكيلا تثيري الانتباه.."

أطاعتها ساما وهي تختبئ خلف أقرب شجرة بسرعة شاعرة بالإثارة لما تفعلانه، رغم أنها لم تفهم مغزاه.. فرأت تيما تطير لمسافة قصيرة قبل أن تهبط قرب جسد صغير لم تتبينه ساما للوهلة الأولى، وقد ربض وسط مجموعة الأشجار تلك بسكون.. ولما استدار الجسد، استطاعت ساما أن ترى كائناً غريباً بلون بني وأطراف غليظة، وبأذنين مدببتين وأنف عريض فيما كانت تستطيع رؤية عيناه السوداوان الصغيرتان بالكاد.. أجفل الكائن لرؤية تيما وتراجع خطوات وهو يصدر صريراً مزعجاً من حلقه.. لكن تيما ظلت تقف أمامه وهي تنظر له بعينيها الواسعتين بصمت وثبات.. تراجع الكائن خطوة وهو يكرر الصوت

المزعج من حلقه بتهديد، لكن عندما تقدمت تيما منه بخطوات هادئة، ظل الكائن واقفاً بارتباك واضح وصوته يتقطع حتى خفت تماماً..

راقبت ساما تقدم تيما من الكائن بثقة كبيرة، ولكن عندما انحنت تيما على الكائن الذي تجمد في مكانه، بدت لها كانقضاضة حيوان مفترس على آخر ضعيف ولا يملك من أمره شيئاً.. تخلت ساما عن مخبئها واقتربت بخطوات خافتة وهي تلاحظ سكون تيما التي تمسكت بالكائن بشدة، وفي المقابل تبدت نظرات ذعر وألم في عيني الكائن رغم أنه لم يتحرك من مكانه ولم يرفع يده لدفع تيما بعيداً.. حاولت ساما الاقتراب منهما للحصول على رؤية أوضح لما يجري، فهذا ما جاءت بها تيما لأجله، وعند اقترابها منهما تجمدت للحظة وهي ترى أبعاد ما يجري بوضوح، قبل أن تطلق صيحة مرتعبة وهي تتراجع خطوات.. كانت تيما تمسك الكائن المتجمد بقوة، فيما عضت جانب عنقه بأسنانها بغير ترفق.. ومن ذلك الجانب، سالت الدماء بوضوح ملطخة وجه تيما وعنق الكائن الذي تجمد مذهولاً لما يجري، ولم يلبث أن تخاذل جسده وسقط أرضاً دون أن تفلته تيما لبعض الوقت.. ولما تخلت عنه أخيراً، رأت ساما الجسد يسقط أرضاً بلا حراك وبشحوب واضح لم تغفل عنه.. فيما التفتت إليها تيما تنظر لها بنظرة ثابتة وواثقة وهي تمسح الدماء عن وجهها، وقالت بابتسامة متلاعبة لرؤية الارتعاب في عيني الفتاة "ما رأيك؟.. هل هذا يجعلني مخيفة كما يصفني أوس؟.."

شحبت ساما بشدة وهي تتراجع خطوات، لكن تيما رفعت جسدها بخفة بجناحيها وتقدمت من ساما بسرعة خاطفة قابضة على ذراعها، وقالت بصوت خافت وابتسامة خبيثة "إلى أين يا صغيرتي؟.. لمَ أنت متعجلة للهرب الآن بعد أن أشركتك في سرّي؟.."

كاد يغمى على ساما من رائحة الدماء التي تنبعث من أنفاس تيما، فيما قرّبت الأخيرة وجهها من وجه ساما وثبتت عينيها في عيني الطفلة قائلة "أتعلمين أنني كنت معترضة على محاولات أوس لإنقاذك؟.. كان ذلك أمراً ميؤوساً منه في نظري.. لكني الآن شاكرة له محاولاته تلك.. فها أنت أمامي الآن، صحيحة ومعافاة.. والدماء الطازجة تسري في عروقك بكل عنفوان.. ألا تعلمين ما تمثله دماء البشر لشعبي؟.."

ارتجفت ساما عندما لمست تيما ذقنها بأصابعها الحادة مضيفة "والآن يحق لي أن أنال جائزة على صبري وانتظاري الطويلين.."

حاولت ساما الإفلات من قبضتها المؤلمة بينما خدشت أصابع تيما جانب خدها، لكن عينا تيما الواسعتان جمدتاها بقوة حتى أصبحت كالصنم تنتظر نهايتها بكل صمت.. لا تدري السبب الذي جعلها كذلك، لكن بدا أن لعيني تيما قوة كبيرة تكفي لتجريدها من أي إرادة، وتخضعها لها بشكل تام دون فكاك..

اتسعت ابتسامة تيما بجذل وهي تهمس "هكذا يا فتاة.. كوني مطيعة ولا تستثيري غضبي.."

أدركت ساما في تلك اللحظة ما شعر به ذلك الكائن الصغير عندما تجمد أمام عيني تيما رغم تهديدها لحياته.. ورغم الرجفة التي اعتصرت صدرها، لم تتمكن ساما من التحرك قيد أنملة ولا من تحريك إصبع أو حتى أن ترمش بعينيها، بل ظلت تحدق في عيني تيما الواسعتين بصمت وضعف.. وقبل أن يصدر منها أي صوت أو همس ضعيف اعتراضاً على ما يُراد بها، فوجئت برؤية تلك اليد التي قبضت على عنق تيما الدقيق وجذبتها بعنف بعيداً.. شعرت ساما بعودة الإحساس إليها فور ابتعاد تيما عنها، فشهقت بقوة وجسدها يتهاوى أرضاً بذعر واضح.. فيما رأت تيما التي صدرت منها حشرجة قوية مع تلك اليد التي ضغطت عليها ورفعتها عالياً، واستطاعت ساما أن تتعرف على أوس في ذلك الجسد الذي أدار لها ظهره..

رفع أوس تيما من عنقها بقبضته القوية وزمجرة غاضبة تصدر من حلقه فيما تخبطت تيما محاولة استعادة أنفاسها والخلاص منه.. فقال أوس بلهجة شديدة غاضبة "ما الذي فعلته بالفتاة أيتها الحقيرة؟.. ما الذي كنت تنوين فعله مستغلة نومي؟"

همست تيما بصعوبة من بين حشرجتها "كيف أجيبك وأنت تخنقني؟"

أطلقها أوس فتهاوت أرضاً وهي تشهق بقوة وأنفاس متلاحقة.. ثم رفعت بصرها إلى أوس متسائلة من بين شهيقها "كيف استطعت اللحاق بنا؟"

قال عابساً بشدة "لقد جذبت انتباهي صرخة الفتاة قبل وقت قصير.. وعندها أدركت أنك أنت خلف اختفائها الغريب هذا.. لحسن الحظ أن الريح قد حملت لي رائحتها ورائحة الدماء الواضحة بشدة.."

غمغمت تيما وهي تنهض بشيء من التخبط "كان عليّ أن أحسب حساب أنفك الحساس هذا.."

تقدم أوس منها ووجهه يفضح غضبه الشديد، فارتفعت تيما بسرعة مقدار متر عن الأرض بتأهب وهي تقول "لا داعي لهذا الغضب.. أنا لم أكن أنوي أن أفعل بها شيئاً مما تخشاه.."

فقال أوس بحنق "ما سبب اختفاؤك معها إذاً؟.. لقد رأيتك تحاولين شلّ حركتها بوضوح قبل وصولي.."

قالت وهي تقطب "لو كنت أريد أن أمتص دمها، لما أبقيتها في موضع قريب من مكانك لئلا تتمكن من التدخل.. أنا لازلت عند وعدي لك بألا أمسّها بسوء.. في الوقت الحالي على الأقل.."

نظر أوس مقطباً إلى ساما المرتعبة وتساءل "إذن ما الذي دفعك للقدوم معها لهذا المكان؟.. وما رائحة الدماء القوية التي شممتها قبل قليل؟"

جاءه جواب تيما بنبرة لا مبالية "كان ذلك مجرد درسٍ تعليمي لساما.."

وأضافت وهي تحدج أوس بنظرة متحدية "لتعرف لِمَ أنا (مخيفة) حقاً.. يا أوس.."

لاحظ أوس ذلك الكائن الصريع قريباً من المكان، ولم يرَه سابقاً للغضب الشديد الذي حلّ به وهو يركض تابعاً رائحة ساما ورائحة الدماء التي أصابته بشيء من الذعر.. ثم سمع تيما التي قالت وهي تفرك عنقها الطويل بيدها "أنت مدين لي بالاعتذار لتطاولك عليّ.. بالإضافة لسوء ظنك الدائم بي.."

استدار أوس عائداً للفتاة، فجذبها برفق ليساعدها على الوقوف، ثم نفض ملابسها متسائلاً "أأنت بخير؟"

هزت ساما رأسها إيجاباً وهي تتفادى النظر في عينيه بعد أن خالفت أمره الصريح بشكل سافر، وكادت تفقد حياتها جراء ذلك.. لكن أوس لم يعلق وهو يجذبها خلفه عائداً لمخبئه وتيما تقول بإلحاح وهي تتبعهما محلقة بجناحيها "أين اعتذارك يا أوس؟.. أنا مازلت أنتظر.."

قال أوس بجفاء "لا أدين لك بأي اعتذار.."

فغمغمت تيما بنعومة "ستندم على هذا بالتأكيد.."

توقف أوس واستدار إليها بغضب، ليجدها تقف خلفه مباشرة وعيناها الواسعتان ترمشان وهي تراقب غضبه الظاهر.. فقال بلهجة منذرة "إياك وإياك المساس بالفتاة في أي حال من الأحوال.. أتفهمين؟.. لن أتردد في انتزاع حنجرتك بيدي ولو لمجرد الشك.."

مطت تيما شفتيها وهي تقول "أصبحت متفانياً في حمايتها أكثر من اللازم.. فلمَ قد يفعل شخص مثلك ذلك؟.."

عاد أوس لسيره بصمت وساما تقلب بصرها بينه وبين تيما التي قالت بإلحاح "ما السبب لكل ما تفعله حقاً؟.. منذ متى أصبحت تهتم بفتاة بشرية؟.. بل منذ متى أصبحت رقيق القلب هكذا؟"

كان الفضول يغمر ساما ذاتها لتعرف إجابة السؤال هذا، فنظرت لظهر أوس العريض وهي تنتظر إجابته،

فسمعته يقول بعد بعض الصمت "إنما هو دينٌ عليّ يجب أن أوفيه.."

نظرت له ساما باهتمام بينما رفعت تيما حاجبيها وهي تقول بشيء من الا ستنكار " دين؟!.. لطفلة بشرية؟!!.."

فقال أوس بحزم "لذا ترين أنني لن أتوانى عن فعل أي شيء لحماية الفتاة وإعادتها لعالمها.. ولا يهمني من سيتأذى في سبيل ذلك.."

توقفت ساما فجأة وجذبت يدها من يده وهي تنظر له بعينين واسعتين.. نظر لها أوس بتعجب وتساءل "ما الأمر يا فتاة؟"

قالت وهي تفرك يدها باستمرار وتوتر "لكني لا أريد.."

نظرا لها بتعجب وعدم فهم، فرفعت رأسها وهي تقول بإصرار "لا أريد العودة.. أريد أن أبقى هنا.."

قالت تيما باستنكار "أنت مجنونة.."

انحنى أوس ليصل لمستوى رأس ساما وقال مواجهاً عينيها "لا مكان لك في هذا العالم يا فتاة.. مكانك مع بقية البشر.. في عالمك الأصلي.. ألا تريدين العودة لعائلتك؟"

قالت برجفة "لا.. لا عائلة لي.. وإن عدت، فسيقوم رجال القرية بقتلي.. لقد كادوا يقتلونني سابقاً.. وسيعاودون المحاولة مرة أخرى بالتأكيد.."

دهش أوس لما يسمعه، لكنه قال بإصرار "لكنك ستموتين لو بقيتِ في هذا العالم.. أنت لن تستطيعي البقاء وحيدة هنا ولو لليلة واحدة، ولن يستطيع أي شخص حمايتك لمدى العمر.."

نظرت له ساما بعينين تترقرق الدموع فيهما، فقال بحزم "سأعيدك لعالمك يا فتاة.. غداً مع شروق الشمس، نبدأ رحلة العودة.."

خفضت ساما بصرها دون أن تجيب بالموافقة، فجذبها أوس وعاد لمخبئه السابق.. كان موقناً أن هذا أفضل خيارٍ متاحٍ للفتاة، ولا يهم ما تبغيه هي حقاً.. ولو لم تكن الشمس على وشك المغيب الآن بالفعل، لقادها من فوره لمدخل طريق الأطياف، وأعادها لعالمها هرباً بها من هذا العالم الذي أقل ما يوصف به بأنه وحشي لا يعرف الرحمة.. والبقاء فيه للأقوى.. فلا مكان فيه لفتاة هشة ضعيفة مهما كانت تصرّ على البقاء.. ولا مكان فيه قطعاً لأي بشري إلا ميتاً..

في تلك الليلة، وبعد أن تناسى أهل القرى الزراعية القريبة من السلسلة الجبلية الشاهقة أمر الصيحات التي ترددت مع بداية ذلك النهار، أجفلوا مع حلول هذه الليلة بالصياح يتكرر من جديد بشكل أشد قوة وحدة.. ولارتياعهم، لم يكن ذلك الصوت يتردد من السلسلة الجبلية القريبة، بل كان يصدر من موقع أقرب إليهم من السابق..

بعد أن تكررت الصيحات عدة مرات، خرج أهل إحدى القرى يستطلعون ما جرى.. كان ظلام الليلة تلك ينيرها القمر، وتبدو الموجودات واضحة بشكل جزئي بمعاونة بعض المشاعل التي حملها الرجال في أيديهم وهم يتجمهرون في ساحة تتوسط القرية..

وعندما رفع الرجال رؤوسهم للأعلى، استطاعوا أن يلاحظوا بوضوح ذلك الجسد الذي يعكس نور القمر، وبحجم أضخم من أي طائر قد رأوه قط.. كان ذلك الجسد يحلق في السماء بجناحين ضخمين يتجاوز طول أحدهم طول الرجل العادي أضعافاً، وهو يخترق السماء بطيران سريع حتى حجب نور القمر بجسده الضخم عند مروره قربه..

ظل الرجال يراقبون ما يجري بقلق وقلة حيلة، فلا يقدر أحدهم على اعتراض التنين وإبعاده عن قراهم، ولا يتوقع أحدهم ما قد يجري لو استثاروا غضب التنين لسبب من الأسباب.. لكن التنين كان غاضباً بالفعل.. صيحاته الحادة الحانقة محملة بمشاعر الغضب الشديدة.. وكثير من رجال تلك القرى لم يسبق لهم رؤية التنين قط.. لذا راعهم كل ما يخصه.. حجمه، وشكله، وصوته، وغضبته العارمة..

اقترب عمدة القرية ورئيسها من جماعة الرجال الذين تجمهروا في الساحة، فانبرى أحد الرجال قائلاً "ما الذي يجري هنا؟.. ما الذي سبب ثورة هذا التنين بهذه الصورة؟"

قال العمدة وهو يرفع بصره للسماء "لا أدري.. لم أرَ التنين بهذه الثورة منذ سنوات طوال.. وهذا نذير سوءٍ واضح.."

تساءل أحد الرجال بقلق "هل سيلجأ للهجوم علينا؟"

أجاب العمدة "لا أدري.. لكن يجب أن نكون متأهبين.. أحضروا ما تملكونه من أسلحة وتأهبوا لطرد

التنين بعيداً بأي وسيلة كانت.."

وكأن التنين كان يؤكد أسوأ مخاوفهم، إذ لاحظ القرويون في تلك اللحظة خيطاً من النيران اندلع من فمه حتى الأرض تحته.. كان ضوء تلك النيران باهراً، فبدا كأنه ينير جانباً كبيراً من القرية.. وسرعان ما بدأت نارٌ قوية تشتعل في تلك البقعة حتى بعد أن كف التنين عن نفث النار من فمه..

تعالت شهقات وصيحات بعض النسوة اللواتي يراقبن ما يجري من نوافذ منازلهن، فيما تراكض الرجال دون إبطاء نحو موضع النار وهم يتصايحون بصدمة "الحقول.. حقولنا تحترق.."

كان هذا الموسم هو موسم جني المحاصيل، وقد بذل الرجال والنساء جهداً كبيراً في الشهور الماضية للحصول على أوفر محصول ممكن هذا العام.. لذا يمكن تخيّل الروع الذي اعتمر قلوبهم وهم يرون تلك النار العظيمة تندلع وسط محاصيلهم الأثمن من حيواتهم ذاتها.. وبالفعل، كانت النيران التي لم يبخل بها التنين قد التهمت جانباً عظيماً من تلك الحقول الجافة، وبدأت رقعتها تزداد بشكل عصيّ على السيطرة إلا بجهود عظيمة..

لم يتوانَ الرجال عن محاولة إطفاء النيران بكل ما يملكونه، مستغلين تلك القنوات المائية التي شقت طريقها من النهر القريب وبين الحقول، والتي حافظ الرجال عليها وقاموا بتحصينها وترميمها بشكل دوري لئلا تطمرها الرمال مع مرور الأيام.. كان جهداً شاقاً ذاك الذي تطلب منهم السيطرة على النيران قبل أن تغزو بقية الحقول، فيما سارع جزء من الأهالي لقطع المحاصيل القريبة من موضع النيران لمنع امتدادها أكثر وزيادة خسائرهم أكثر فأكثر.. لذا لم يكن أحدهم بقادر على الاهتمام بأمر التنين الذي أطلق صيحاته الغاضبة مرة بعد مرة.. وفي إحدى الدورات التي قام بها فوق القرية، سمع الرجال المنشغلون وسط الحقول بصياح آخر يندلع من المنازل القريبة.. وبالنظر لذلك الاتجاه، ذهلوا لرؤية النار التي اشتعلت في بعض المنازل وسط القرية، فيما تدافع كبار السن والأطفال والنساء هاربين منها لئلا تطالهم بالحرق أو الاختناق..

صاح بعض الرجال وهم يتراجعون "المنازل تحترق.. ستسقط على رؤوس ساكنيها.."

صرخ فيهم رجل آخر حانقاً "هل ستتركون الحقول حتى تغدو صريماً لا حياة فيه؟.. ارجعوا.."

لكن الرجال الذين شتّتهم الحريق وسط القرية لم يعبؤوا لندائه وهم يندفعون لإنقاذ من يمكن إنقاذه من

عوائلهم وجيرانهم.. فيما بذل البقية جهداً أكبر للسيطرة على الحريق وسط الحقول يغمرهم العرق والمياه التي ينقلونها بدلاء بسيطة وصغيرة الحجم.. ورغم كل ما يفعلونه، كانت النار تستشري بسرعة تفوق جهودهم أضعاف المرات.. فيما بقي صياح التنين الذي ازداد وحشية مع مرأى كل ذلك الدمار يتردد في الأنحاء بتهديد مستمر..

وفي إحدى دوراته، نفث النيران من فمه نحو جزءٍ آخر من الحقول التي لا تملك رد الضرر عنها بأي صورة كانت.. وفيما كان ينشر الدمار والخراب في ذلك المكان، تعالى صياحٌ متألمٌ لعدد من الرجال الذين كانوا قريبين والنيران تشبّ في ملابسهم بالسرعة ذاتها.. تقلب بعضهم في التربة تحتهم محاولين إطفاء النيران، فيما رمى بعضهم نفسه في القنوات المائية في محاولة يائسة لإيقاف ذلك الألم الحارق الذي يشوي جلودهم..

ومع مرأى ما أصاب رفاقهم، تزايد ارتعاب الرجال من التنين الذي ظل يحلق فوقهم بتهديد، ثم بدأ بعضهم يتراجع قائلاً بصوت مرتجف "لا أريد أن أقضي نحبي هنا.."

تصايح بعضهم لمنع رفاقهم من الانسحاب، لكن تزايد عدد المنسحبين مع كل لحظة تمضي بحيث لم يجد الآخرون بداً من اللحاق بهم.. وبقيت تلك الحقول تواجه الحريق وحيدة، فيما تعالى خوار بعض الأبقار والحيوانات في الحظائر التي تخلى عنها أصحابها دون أن يجدوا وقتاً لإنقاذها..

وكانت تلك ليلة من أطول الليالي التي مرت على القرية الآمنة تلك..

في اليوم التالي، غادر أوس المخبأ قبل طلوع الفجر بحثاً عن طعام له ولسلما، تاركاً الطفلة نائمة في عمق المخبأ ومتدثرة بجلد أحد الحيوانات التي حصل عليها من الطرائد التي اصطادها سابقاً.. رغم بكائها في اليوم السابق، فإن أوس غيّر رأيه بشأن إعادتها للحكيم.. أدرك مع اعتراضها أنها لا تنوي العودة لعالم البشر، وأنها قد تستغل وجودها في منزل الحكيم لتحاول الإفلات منه وإعلان عدم انصياعها لما يريده.. لكنه لم يكن ليسمح بذلك.. هذه الطفلة لا تدري ما قد يحدث لها في هذا العالم، ولا يمكنها أن تتخيّل مقدار القسوة التي قد تراها في سكانه.. لذا رحيلها أفضل لها بمئات المرات، وهو عازم على تنفيذه مهما عارضت هي ذلك..

بعد مغادرته المخبأ، ورغم أنه حرص على عدم إصدار صوت قد يوقظ الفتاة، فإن ساما نهضت جالسة وتأملت المخبأ الخالي للحظات بصمت ووجوم ظاهرين..

استغرق أوس بعض الوقت حتى اصطاد أرنباً صغيراً وحصل على بعض الثمار اللذيذة من أشجار قريبة..

ولما تمكن من العودة أخيراً والشمس قد أضاءت العالم بنورها القوي، لم يكن له ألا يلاحظ اختفاء ساما فور دخوله المخبأ.. تلفت حوله داخل وخارج المخبأ بقلق، ثم استدار إلى تيما التي جلست على أعلى شجرة كعادتها وصاح بها بغيظ "أين الفتاة؟"

نظرت له مقطبة وقالت "وما شأني؟.. ألم تمنعني من الاقتراب منها؟"

صاح أوس بحدة "أتريدين إقناعي أنها رحلت بمفردها؟.. ألم تقومي بإحدى ألاعيبك معها؟"

أشاحت تيما بعيداً وهي تقول "لست حمقاء لأفعل ذلك.. فما يزال عنقي يؤلمني من قبضتك، ومازلت أنتظر اعتذارك.."

نفخ أوس بحنق شديد متجاهلاً قولها الأخير كعادته، ثم ألقى ما بيده جانباً وأسرع يصعد على المنحدر ووقف هناك يراقب الموقع حوله ويتشمم الهواء بعمق.. كان اتجاه الريح يأتي من الجهة الجنوبية، ولم يحمل له أثراً من رائحة ساما.. كان واثقاً أنه يقدر على شم رائحتها ولو كانت تبعد مسافة كبيرة منه.. لكن عدم عثوره على رائحتها يعني أنها ليست في ذلك الاتجاه، فلا يمكن لفتاة صغيرة أن تقطع مسافة كافية لهذا في وقت قصير.. قد تكون سلكت طريقاً نحو الغرب أو الشمال، فيما يحدّ النهر طريقها نحو الشرق.. لذا استقر رأي أوس على الاتجاه شمالاً محاذياً للنهر.. راوده خاطر أن الفتاة ستسلك ذلك الطريق، ويرجو ألا يكون مخطئاً في ظنه..

بعد ركض سريع لمسافة طويلة، لاحظ أوس ذلك الظل القصير الذي وقف على حافة جرفٍ عالٍ ينخفض النهر عنده انخفاضاً كبيراً في مجراه.. ولم يكن أوس ليشك في هوية ذلك الظل وهو يغير اتجاهه فوراً ليقترب منه.. وكلما اقترب، كلما تأكد له أن صاحب ذلك الظل هو ساما.. كانت تقف عند حافة ذلك الجرف تتأمل الأفق بصمت عندما لحظت اقترابه واستدارت تنظر له بنظرات صامتة.. اقترب أوس بخطوات واسعة قائلاً بضيق "ما الذي تنوين فعله يا فتاة بهروبك هذا؟.. لنذهب هيا فقد تأخرنا بما يكفي.."

تراجعت ساما بمقدار الخطوات التي اقترب أوس منها بها، وهي تقترب بظهرها من حافة الجرف، فقطب

أوس وهو يقول بلهجة منذرة "ساما.. أطيعي ما يقال لك.."

لكن ساما لم تتردد في الوقوف على حافة الجرف الخطِر وهي تقابل تحذير أوس بتحدٍ واضح.. فهدر أوس بغضب "ما الذي تفعلينه يا مجنونة؟"

قالت بتحد لأول مرة منذ التقاها "سألقي بنفسي من هذا الجرف لو حاولت الاقتراب مني.."

صاح أوس "لِمَ تفعلين ذلك؟.. هل تريدين قتل نفسك؟.."

صاحت بدورها "لا يهمني.. ما يهمني ألا أعود لتلك القرية.. ولا أعود للرجال الذين سيقتلونني بكل تأكيد.."

نظر لها أوس بغير تصديق وهو متعجب للجدية الواضحة على وجهها.. ما الذي يدعو طفلة بعمرها للخوف من العودة لقريتها ومسقط رأسها؟.. أي حياة عاشتها تلك الطفلة ضئيلة الجسد؟..

قبل أن يتقدم أوس خطوة أخرى نحوى ساما، فوجئت الأخيرة بركلة تصيب ظهرها فتسقطها نحو أوس شاهقة.. سارع أوس لقطع المسافة الباقية والتقاطها قبل أن تجرح نفسها على الأرض الصخرية، بينما تعالى صوت تيما من خلفها وهي تقول ضاحكة "من المضحك رؤية قزمة مثلك تهدد أوس بهذه الطريقة.. يبدو أن الأدوار قد انقلبت بينكما بشكل واضح.."

ساعد أوس ساما للاعتدال واقفة وهو يصيح بتيما غاضباً "تباً لك ولعنفك.. أما أمكنك الترفق بها؟"

أدارت تيما وجهها جانباً وهي ترتفع لتجلس على إحدى الأشجار القريبة، ولما التفت أوس إلى ساما فوجئ بدموعها تسيل على خديها وهي تبكي بحرقة.. فسألها بقلق "هل أصبتِ في سقوطك هذا؟"

قالت من بين نحيبها ودموعها المنهمرة "لِمَ تريد أن تعيدني إلى هناك؟.. أنا أكره تلك القرية، وأكره البشر.. لا أريد العودة إليهم ليعاملونني كما يعاملون جرذان الحقول.. أنا لا أريد العودة.. لا أريد.."

ربت أوس على رأسها وقد غلبته حيرة مما يقدر على فعله، بينما قالت تيما عاقدة ذراعيها على صدرها "أنت حمقاء يا فتاة.. يظل البشر ألطف أخلاقاً من أي كائن في هذا العالم.."

هزت ساما رأسها رفضاً بشدة وهي تتشبث بأوس دون أن تخفت بكاؤها.. فزفر أوس أخيراً وقال "هل ستكونين أكثر راحة لو أخذتك لموقع بعيد عن تلك القرية في عالم البشر؟.. ربما آخذك لمدينة بعيدة أو قرية أخرى، وهناك يمكنك أن تبدئي بداية جديدة.."

صمتت ساما للحظة والدموع لا تفارق مآقيها، ثم همست بصوتٍ مهتز "لا أدري.."

ربت أوس على رأسها من جديد محاولاً إشعارها ببعض الأمان، ثم قال "سأمنحك يوماً لتفكري بالأمر.. ربما لن تكون الأمور بذاك السوء في المدينة.."

هزت ساما رأسها موافقة وهي تمسح دموعها بكميّها، فأعانها أوس على الوقوف والسير خلفه وهو يقول لتيما بجفاء "من الأفضل لك عدم اللحاق بنا هذه المرة.. لقد أصبح وجودك وعنفك لا يطاقان البتة.."

مطّت تيما شفتيها وهي تغمغم بحنق "يا لك من جاحد.."

راقبت ابتعادهما عنها بصمت، ثم هزت كتفيها بتأفف وطارت مبتعدة.. ها هو يومٌ آخر، وما يزال الطريق أمامها طويلاً لإقناع أوس مرة أخرى بمعاونتها.. يبدو أن الوقت سيطول قبل أن تكفّ عن قضاء لياليها في العراء كما تفعل الآن.. لكن ما الذي بيدها فعله؟.. لا يمكنها العودة لقريتها خالية الوفاض.. لا يمكنها أن تعود لتعلن فشلها في المهمة التي أوكلت لها..

لن تعود بأيدٍ خالية، فلن يكون الجزاء أقل من العناء الذي تلاقيه في تشردها هذا..

لا يدري إيار كم من الوقت قضاه في هذه الرحلة الطويلة والقاسية.. كانت المرأة تبقيه مقيداً أغلب الأوقات، ولا تطلق سراحه إلا لقضاء حاجته بعد أن تربطه بسلسلة حديدية اقترضتها من صاحب العربة، فتربط السلسلة لشجرة قريبة لئلا يتمكن الفتى من الفرار في غفلة منها.. وتكتفي بإطعامه مما تملكه وهو أقل مما يحتاجه ويتناوله عادة.. لذا بقي إيار أغلب الأوقات طاوياً جوعه وهو يشعر بإنهاك شديد لقلة الحركة وللقيد الذي يقيّد جناحيه والذي يؤلمه بشدة مع بعض التسلخات التي سببها احتكاكها المستمر بالحبل الخشن.. ولما شعر بالتعب قال لها بضيق "حتى متى ستبقينني مقيداً هكذا؟"

أجابت "حتى نصل لمدينة الصيادين.. لو كنتُ أملك قارباً لتمكنت من إيصالك في وقت وجيز عبر النهر.. لكني لا آمنك في القارب، وقد تسعى لقلبه والخلاص مني.."

قال باستياء "ليتني أتمكن من الخلاص منك.. لما ترددت في ذلك حتى لو اضطررت لقتلك.."

قالت بثقة "لا أظنك قادراً على ذلك.."

نظر لها إيار بغيظ وحنق، وزفر وهو يدير بصره جانباً.. كان يزداد ضيقاً وعصبية كلما مر الوقت وهو بعيد عن مأواه وعن أخيه.. ما الذي جرى منذ اختطفته هذه المرأة؟.. كل ساعة تمضي تزيده عصبية وقلقاً على ما جرى للتنين في غيابه.. لكنه لم يملك من أمره شيئاً والمرأة تشدد مراقبتها له في كل لحظة طوال الطريق..

ومع منتصف اليوم التالي، وجد إيار أن صاحب العربة قد وقف بها عند مفترق طرق وطلب منهما النزول.. وقفت المرأة تجادل الرجل ليوصلهما حتى مدينة الصيادين، لكن الرجل رفض بإصرار قائلاً إن هذا يأخذه بعيداً عن مساره ويعطله عن أشغاله..

استغل إيار تلك الفرصة النادرة ومراقبة المرأة تخف قليلاً أثناء انشغالها بحديثها مع الرجل، فحاول إيار التخلص من قيد قدميه وهو يحك الحبل بمخلبه الحاد محاولاً قطعه.. بذل جهده لفعل ذلك بأسرع ما يستطيع حتى تمكن من تحرير قدميه أخيراً، عندها قفز واقفاً وهبط من العربة بقفزة واسعة.. سمع المرأة تصيح بحدة عند رؤيتها لمحاولته، لكنه لم يتمهل وهو يركض نحو مجموعة من الأشجار محاولاً الاختفاء بينها حتى يجد الفرصة لتخليص جناحيه.. بدون أن يتمكن من التحليق، لن يقدر على الخلاص من هذه المرأة مهما حاول.. ولكنها لم تسمح له بذلك وهي تلاحقه بإصرار، فيما نأى الرجل الغريب عن هذا وهو يجذب حماره مبتعداً بعد أن رمى متاع المرأة أرضاً دون أن يعبأ بما يجري لهما..

بعد بعض الوقت، شعر إيار أن فرصته بالهرب تقل كلما طالت مطاردة المرأة له.. فكيف له الخلاص منها؟.. توقف للحظة وهو يختبئ خلف شجرة قريبة.. ربما هو بالفعل بحاجة للخلاص منها بشكل جذري..

لم تلاحظ المرأة وجوده خلف تلك الشجرة وهي تركض بحثاً عنه، لكن حدسها قد جعلها تخفف من ركضها بعد أن اختفى عن بصرها وتركز تفكيرها على حاسة السمع التي تتفوق بها على الكثير من الكائنات.. كان المكان حولها هادئاً ولا تسمع أي خطوات غريبة فيه.. بدأت تتشمم الهواء بحذر، ثم سارت في الطريق الذي شعرت أنه يحمل رائحة الفتى.. فقادتها قدماها إلى مكان قريب من الشجرة دون أن تقدر على تحديد الموضع الذي يختبئ فيه الفتى بالضبط.. وعند اقترابها من تلك الشجرة، حتى كادت تتجاوزها بخطواتها الحذرة، فوجئت برؤية إيار يقفز نحوها حاملاً صخرة متوسطة الحجم بعد أن فك وثاق يديه بالكاد..

قفز إيار نحو المرأة التي تراجعت خطوة، لكنها رغم حذرها لم تتمكن من إيقاف هجوم الفتى الذي ضربها بالصخرة بأقوى ما يملك حتى سقطت خلفاً على الأرض الترابية.. لكنه لم يتمكن من قتلها أو حتى تغييب وعيها بقوته التي لا يمكن مقارنتها بقواها.. ورغم ذلك، شعرت المرأة ببعض الدوار الذي حاولت مقاومته بعد تلك الضربة، لكن قبل أن تقدر على استعادة انتباهها وجدت إيار يجثم عليها ويثبت ذراعيها بقدميه، ثم مد يديه وأمسك عنقها وهو يضغط عليه بقوة والغضب ظاهر في ملامحه..

كانت المرأة في تلك اللحظات بلا حيلة، بعد أن عجزت عن التخلص منه وهو يثبّت يديها، وإيار يقبض على عنقها بمخالبه بقوة والدماء تنزّ من جلدها كلما زاد ضغطه لها.. لم تُبدِ الصيادة أي لمحة خوف وهي تراقبه بصمت، بل بدا لها ما يفعله عادلاً وطبيعياً بالنظر للعلاقة السائدة بينهما.. من الطبيعي أن يحاول قتلها، ومن الطبيعي أن تسعى لاصطياده.. هي علاقة بسيطة ولا مكان فيها للحقد والغضب والانتقام.. لذا، بالحال التي هي فيها، يكون من الطبيعي أن تتقبل محاولته لقتلها ببساطة..

كان هذا التفكير العملي غريباً على إيار الذي ظل ضاغطاً على عنقها للحظات ووجهها يحتقن شيئاً ما، بينما قلب بصره بين ما يفعله وبين ما يرتسم في عينيها من هدوء وبرود وكأنها تراقب ما يحدث لشخص آخر لا يمت لها بصلة.. لو أنها أظهرت بعض الهلع والخوف، أو أنها رمقته بنظرات غضب وحنق لتعدّيه عليها بهذه الصورة، لكانت ردة فعلٍ طبيعية ومفهومة.. أما هذا البرود، فقد أشعره بشيء من الذنب وتأنيب الضمير لم يفهم سببه.. لم يستطع تجاهل عينيها أو الفكاك منهما، ولم يقاوم هذا الشعور أكثر من لحظات معدودة قبل أن يستسلم وهو يفلت عنقها ويسحب مخالبه التي لطختها بعض الدماء..

شهقت المرأة وسعلت للحظات بعد أن استعادت قدرتها على التنفس، ولما نهض إيار من فوقها وأخلى سبيل ذراعيها، رفعت يداً ترتجف وضغطت بها على موضع الجرح الذي سال خيط من الدماء منه.. ثم نظرت لإيار بعينين محمرتين من السعال وغمغمت بصوت أجش "ما الذي أوقفك عمّا كنت تفعله؟"

قال بشيء من الجفاء "هل كنت تريدين مني الاستمرار؟.."

قالت وهي تعتدل جالسة "لا.. لكني كنت سأتفهم لو أصررت على قتلي.."

أشاح إيار بوجهه وهو يمسح الدماء عن مخالبه، ثم قال بصوت عبق بضيقه الشديد "أنا لم أعتد على القتل.. عدا عن قتل الحيوانات التي نتغذى عليها أنا وأخي، فأنا لم يسبق لي أن قتلت رجلاً قط، ناهيك عن قتل

امرأة.."

ابتسمت المرأة ابتسامة جانبية وقالت "لكنك قد تضطر لذلك يوماً ما.. لذا كانت هذه فرصتك لتتدرب على هذا.."

نظر لها بحنق وكأنها تسخر منه ومن مشاعره، ثم ثنى ذراعه خلفه محاولاً التخلص من القيود التي تقيد جناحيه.. عليه الفرار بسرعة قبل أن تتمالك المرأة نفسها وتحاول إيقافه.. وهذه المرة، عليه العودة بأسرع ما يستطيعه لأخيه قبل أن تتفاقم الأمور هناك.. وقبل أن يفلح في التخلص من القيود بشكل كامل، فوجئ بجسد يرتطم به بقوة ويسقطه أرضاً على وجهه، فيما جثم صاحب ذلك الجسد فوقه وهو يصيح بظفر "إنه أخو التنين بالفعل.. كيف تمكنت فاشلة مثلك من اصطياده؟"

حاول إيار المقاومة بشدة ورمي الرجل الذي يجثم فوقه دون أن يتمكن من ذلك.. فالتخلص من المرأة أكثر سهولة من التخلص من الرجل الذي كان يفوقها وزناً بمراحل، فيما شدّت يداه العضليتان على كتفي إيار وثبتته أرضاً..

نهضت المرأة قائلة بحنق "من هي الفاشلة؟"

أجاب الرجل وهو يقبض على إيار بإحكام ويجذبه واقفاً "فاشلة أنت إن تمكن صيدٌ كهذا من التخلص منك عند حدود المدينة.."

ثم شدّ قيود إيار بشكل أكثر إيلاماً وهو يقول ضاحكاً "من يضع يده على هذا الصيد هو صاحبه.. لذا فهو ملكي الآن.."

اقتربت المرأة منه وجذبته بشدة من ملابسه قائلة بغيظ "من أين لك الحق بذلك؟.. لقد أمضيت شهراً كاملاً ألاحقه، ولا يمكنك أن تسلبه مني الآن.."

علق الرجل بسخرية "لكنه كاد يفلت منك الآن.. لحسن الحظ كنت قريباً من الموقع، وقد استمتعت برؤية محاولته قتلك، وللأسف فإنه لم يكمل عمله.. لكن لو لم أتدخل، لفقدنا صيداً هاماً كهذا.."

حاول إيار الإفلات وهو يصيح بحنق "أنا لستُ بضاعة تتبادلونها.. أطلقوني.."

أجبره الرجل على الثبات بقوة وهو يقول "بل أنت كذلك.. ألم تدرك ذلك قط؟.."

قالت المرأة بغضب "اتركه يا هذا.. إنه صيدي.."

دفعها بذراعه وقال رافعاً حاجباً واحداً "سنرى بشأن ذلك.. سآخذه للمدينة، وسنرى ما سيحكم به الزعيم.."

ورغم اعتراضها، فإنه دفع إيار أمامه وهو يسوقه مرغماً ليكمل ذلك الطريق.. حاول إيار المقاومة ورفْض ما يساق له، لكن قوة الرجل الكبيرة مقارنة به كانت تجبره على الانسياق في هذا الطريق رغم كل محاولاته..

لم تكن عودة أوس وساما للمخبأ سلسة كما كانا يأملان.. وكما توقع أوس الذي لحق بساما خشية أن تتعرض لهجوم من بعض الكائنات التي تسعى خلف ما يمنحه جسدها البشري لها من قوة.. وكما كان سهلاً عليه أن يشمّ رائحتها البشرية، والتي تراها بعض الكائنات رائحة لذيذة تكاد تفقدها صوابها، فإن هذه الرائحة بالذات قد جذبت جماعة ظهرت عند الأفق الغربي وهي تسعى راكضة نحوهما..

توتر أوس بشكل ملحوظ، فلاحظت ساما ذلك من يده وهو يشدّ قبضته على يدها.. وبالنظر لما استوقفه، أدركت ساما أن تلك الجماعة التي تسعى إليهم لم تكن تنوي خيراً.. فنظرت لأوس وهي تتمتم بصوت مرتجف "من هؤلاء؟.. أهم آتون لأجلي؟"

تحرك أوس بسرعة وهو يحملها قائلاً "إنهم كائنات شرسة تدعى (البيزون).. وجودها هنا ليس في صالحنا، لكني لن أتركهم يفعلون ما يشاؤون.."

أسرع نحو بعض الأشجار القريبة حيث رأى تجويفاً في إحداها يمنح ساما بعض الحماية، فدسّها في قلب ذلك التجويف الذي كان يواجه النهر القريب، وقال لها "إياك وإياك الخروج من هذا المكان حتى آتي إليك.."

قالت بقلق أشد "لكن كيف لهذه الشجرة أن تحميني من هذا الهجوم؟"

أجاب بتأكيد "هي لن تفعل، بل أنا من سيفعل ذلك.. لكن ابقي هنا بعيداً عن أعين هؤلاء (البيزون) لكي لا يستثير وجودك أحدهم فيحاول الوصول إليك متجاوزاً إياي.. ومن الأفضل لك ألا تري ما سيجري في اللحظات القادمة.."

كان لقوله تأثير عكسي على ساما التي تزايد الرعب في قلبها وهي تنظر لعينيه، ثم وجدته يدفع رأسها لتندسّ أكثر في ذلك التجويف، قبل أن يستدير مغادراً بخطوات سريعة..

لم تمضِ لحظات معدودة حتى وصلت تلك الفرقة من (البيزون) إلى أوس ووقفت في نصف دائرة تواجهه.. كانت تلك الكائنات عبارة عن شكل شبه بشري لرجال قصيري القامة عريضي الأكتاف، بوجوه قبيحة ذات عينين سوداوين صغيرتين، وحاجبين كثين، ولها فم وأنف بارزين بوضوح بحيث أعطاها منظراً حيوانياً، والأذنان عريضتان عاليتان، وشعر قصير يمتد من مقدمة الرأس وحتى أسفل العنق، ليمتزج مع فرو كثيف يغطي الظهر حتى ينتهي بذيل طويل يبدو من إزارٍ يغطي النصف السفلي من تلك الأجساد.. أما الذراعان الطويلتان الممتدتان من تلك الأجساد فقد كانت تفوق طول الأذرع العادية، وتنتهي بمخالب دقيقة سوداء اللون.. فيما كانت الساقان تشبهان ساقي الحيوانات الضارية بانحناءة للأمام وأظفار طويلة وفرو كثيف مبقع..

لم يكن لمنظر تلك الكائنات المرعبة أي أثر على أوس حيث وقف شاداً جسده الذي يفوق تلك الكائنات القصيرة طولاً، ومباعداً بين ذراعيه وساقيه ليمنح نفسه حجماً أكبر وهو يضغط على أسنانه بقوة.. لكن تلك الكائنات لم تتردد لمرآه وهي تقف في مواجهته بتحدٍ صارخ، وبعضها يصدر صوتاً هو مزيج من الفحيح والحشرجة الحلقية التي تنذر ببدء هجومٍ عاتٍ لا يبقي ولا يذر.. وبعد لحظات، تحولت تلك الحشرجة إلى زعيق وحشي تردد صداه في المكان وطارت له بعض الطيور من الأشجار القريبة وقد أفزعها الصوت العالي..

اختبأت ساما مرعوبة وسط التجويف وهي تستمع للأصوات التي تصدرها تلك الكائنات.. كانت كثيرة العدد، ربما عشرون فرداً منها، وزادها شكلها الغريب وحشية وإرعاباً لساما التي لمحتها بشكل وجيز قبل أن يرغمها أوس على الاختباء.. تناهى لسمعها صوت الزعيق الوحشي والصيحات الغاضبة من أفواه تلك الكائنات، فانتفضت ساما وهي منكمشة على نفسها وكأنها تخشى أن يعثر عليها أحدها بغفلة من أوس.. فظلت منكفئة على نفسها حتى سمعت صوت صياح متألمٍ بأحد تلك الحناجر الخشنة صاحبته

زمجرة غاضبة لم تسمعها قبلاً في هذا المكان..

بشيء من التردد، أطلت ساما برأسها من مكانها لرؤية ما يجري، وقد خامرها شعورٌ أنها يجب أن تفر بجلدها لو ساءت الأمور حقاً.. ومن مخبئها، رأت ساما بعض تلك الكائنات تتراجع بتوتر ظاهر.. ووسطها، جثا أوس على أطرافه الأربع وهو يحدجها بنظرة غاضبة تحمل تهديداً عارماً، وترددت الزمجرة من جديد في المكان دون أن تعثر ساما على صاحبها.. مدت ساما عنقها لتتمكن من الرؤية بشكل أفضل، فرأت في تلك اللحظة أوس يقفز على إحدى تلك الكائنات ولا يتردد في قضم عنقه بقوة والكائن يتخبط متألماً محاولاً دفعه من فوقه.. لكن أوس الغاضب كان يزداد تشبثاً به، بأسنانه الحادة التي انغرزت عميقاً في عنق الكائن وسالت الدماء تحتها بغزارة، وبمخالبه التي استطالت بسرعة وهي تغوص في جسد الكائن..

اتسعت عينا ساما وهي تراقب ما يجري مذهولة.. خلال لحظات، رأت تبدلات كبيرة ومفاجئة تحدث لأوس بحيث فركت عينيها ظناً منها أن الخلل فيهما.. فقد لاحظت أن جسده يبدو منتشياً أكثر من المعتاد، أنيابه استطالت واكتست بدماء ذلك الكائن، عيناه بدتا متوحشتين تلتمعان بوضوح، ومخالبه استطالت واكتست حدة وقسوة، فيما بدأ شعر فضي لامع يكسو جسده ويمنحه منظراً وحشياً مخيفاً..

كتمت ساما شهقة وهي تضع يدها على فمها، وظلت تراقب ما يجري بعينين متسعتين مذهولتين.. لم تصدق التحوّل الكبير الذي حدث لأوس وهي ترى هيئته الجديدة التي تشبه ذئباً فضياً ضخم الحجم..

كانت تلك الكائنات قد تراجعت بتوتر كبير لمرأى ذلك الذئب وسطها، فيما زمجر الذئب وملامحه تكشر راسمة لوحة مفزعة.. قفز الذئب على كائن آخر متجاوزاً ضربة حاول إصابته بها، وبلطمة قوية على صدر الكائن انبثقت الدماء من الجرح الذي سببته له مخالبه وهو يسقط على ظهره صارخاً بألم، فيمَ قفز الذئب بلا تردد على آخر وناور بخفة قبل الهجوم بعنف ودون وجل..

تخبطت الكائنات بين أفراد يحاولون الهجوم والتخلص من الذئب، وآخرون يتراجعون ساحبين معهم الجرحى منهم بعيداً.. فيما لم يتردد الذئب في الإجهاز على كل من يعترض طريقه من تلك الكائنات تاركاً الأجساد تتساقط خلفه دون أن يلقي عليها نظرة أخرى.. وخلال وقت وجدته ساما قصيراً جداً، بدأ المهاجمون يتراجعون بسرعة وتخبط وهم يلملمون جراحهم ويحملون من بقي حياً منهم والأشجار القريبة تغيّبهم في ثناياها..

ظل الذئب يراقب انسحابهم ليتأكد أنهم لن يعاودوا الهجوم من جديد.. ثم مسح وجهه بيده ونفض فروه عن الدماء التي أغرقته، واستدار عائداً للمخبأ الذي ترك ساما فيه.. وهناك، رآها على وضعها منكمشة بعينين متسعتين وتغطي فمها بيدها لئلا تصدر صوتاً.. ظلت تحدق في وجهه بصمت وهو يبادلها الصمت دون أن يعود لهيئته العادية.. رغم أنه حاول منذ رآها ألا تراه بصورته هذه، لكن في هذه المرة لم يستطع تجاوز ذلك.. لذا، بعد أن جرى ما جرى وانكشف ما كان يخفيه عنها، كان يريد أن يرى رد فعلها على هيئته تلك، رغم اقتناعه بأنها لن تتغير عن رد فعل أي بشري يراه عادة..

طال الصمت وساما لا تكف عن النظر إليه بصدمة ظاهره، فغمغم أوس "هل يرعبك مظهري هذا؟"

كانت ساما في تلك اللحظة تحاول استعادة بعض الذكريات من عقلها الذي غلفه الضباب.. تحاول ربط الماضي بما يجري أمامها، وتحاول أن تتأكد أن ما تراه هو حقيقة لا خيالاً ولّده عقلها المرهق.. ولما رأته يجلس على قائمتيه الخلفيتين وهو ينظر لها بصمت وشيء من الخيبة، تخلّت ساما عن صدمتها وخرجت من مخبئها قبل أن ترمي نفسها على الذئب وتعانقه بقوة قائلة بلهجة سعيدة "أهذا أنت؟.. إنه أنت.. أليس كذلك؟.. لِمَ لَمْ تخبرني بذلك منذ البدء؟"

كانت الصدمة من نصيب أوس الذي لم يتوقع انفعالها هذا.. هل تذكرته؟.. ألا تراه مرعباً مع كل تلك الدماء التي تغطيه؟.. عاد لهيئته تدريجياً وساما تتشبث به، ثم أحاطها بذراعيه متسائلاً "هل تعرفين من أنا؟"

قالت بحماس وهي تواجهه بعينيها المتلألئتين "أنت الذئب الذي قابلته قبل سنة في الغابة.. أليس كذلك؟"

ورفعت القلادة التي تحيط عنقها مضيفة "أنت صاحب هذا الناب.. أليس كذلك؟"

ابتسم أوس وربت على رأسها قائلاً "أجل.. أنا ذلك الذئب الذي أنقذت حياته منذ سنة.. ولذلك، عندما وجدتك في عالمنا هذا لم أستطع التخلي عنك قبل أن أرد جميلك هذا.."

وعبث بذلك الناب مضيفاً "لكني لم أتوقع منك الاحتفاظ بهذا الناب طوال هذه الوقت.. لذا شعرت بسعادة بالغة لرؤيته معلقاً في عنقك، فهو دلّني على هويتك بسهولة.."

قالت ساما بانفعال "لقد صنعت هذه القلادة بنفسي.. أردت ألا أنساك بسرعة.."

ثم تأملت ابتسامته مغمغمة "لكني لا أرى أنياباً مفقودة من فمك.."

أطلق أوس ضحكة صغيرة وقال "كان ذلك الناب على وشك السقوط بالفعل بسبب ما أصابني، لكن يمكن لجسدي تعويضه بسهولة بعد بعض الوقت.. لا يمكن أن يبقى فمي خالياً من الأسنان بعد سقوطها.."

ابتسمت ساما بدورها بتعجب لقوله، ثم نهضت واقفة وهي تقول بشيء من الحماس "هل تعرف تيما هويتك الحقيقية هذه؟.. أم أنني وحدي من يعلم ذلك؟"

سمعا صوت تيما تقول هازئة من موقعها المعتاد فوق الشجرة "بالطبع أعرف ما هو.. أنتِ الحمقاء الوحيدة التي لا تعرف فرداً من (الرّيبال) عندما تراه.."

قلبت ساما بصرها بين تيما وأوس الذي نهض بدوره، ثم سألته "هل هم جميعاً مثلك؟"

أجاب أوس "بلى.. الريابلة هم عشيرة من المذؤوبين.. وأنا فرد منهم، لكني انفصلت عنهم منذ فترة.."

تساءلت ساما "لماذا؟.. ألن تعود إليهم؟"

لم يجبها أوس وتيما تقول ساخرة "لن يعود لأنهم طردوه.. فلا مكان له بينهم بتاتاً.."

قال أوس بشيء من الحنق "هلاّ كففت عن تعليقاتك الساخرة هذه؟.."

ضحكت تيما معلقة "هل تخجل من ماضيك؟.. أم تخشى أن تعرف ساما ما فعلته؟.. ألا تظن أنها قد تخشاك لو عرفت كل شيء؟"

كان فضول ساما يتزايد مع كلمات تيما، فيما بدا أن الضيق يزداد في صدر أوس ويبدو بوضوح على وجهه مع كل كلمة تنطقها.. لم تكن تلك ذكرى محببة له.. ولم يكن يريد تذكرها بأي حال من الأحوال....

لم يكُن هذا ما سعيتُ إليه.. عندما وجدت أنيابي تغوص عميقاً في العنق الغضّ لذلك الصبي الذي بالكاد يمكن أن يعدّه المرء قد جاوز الطفولة استعدتُ إحساسي فجأة وتنبهت حواسي بعد أن تغلب عليّ غضبي الشديد.. أفلتُّ العنق الذي تشحّط في دمه ووقفت للحظة أحدق فيه بصدمة.. لكن الزمجرة الغاضبة القريبة قد أعادت لي حواسي وضربة جديدة تصيب عنقي والمخالب ترسم خطوطاً عميقة فيه قبل أن أسقط جانباً بعنف..

تضافرت الضربة مع صدمتي وأنا أستطعم دماء الصبي في حلقي، عندما فوجئت بتلك الأنياب التي غاصت في عنقي وصاحبها يرفعني بقسوة محاولاً نهش عنقي.. لكن صيحة من كبير الريابلة أوقفه قبل أن يسترسل فيما يفعله.. ووجدتني أسقط أرضاً من جديد والدماء الدافئة تبلل عنقي فيما الألم ينبض عميقاً مصيباً عقلي بشلل مؤقت أعجزه عن التفكير.. تقدم كبير الريابلة مني ونظر لي بنظرة حازمة خانقة لا لمحة فيها لأي شفقة أو تعاطف.. لكن، من أكون أنا لأستحق أي تعاطف؟..

نظرت للصبي القريب الذي بدا ينازع الروح، فيما حاول أحد الرجال تدارك جرحه وإيقاف النزيف.. لكن كان ذلك بلا فائدة.. بدا واضحاً أن الصبي سيموت، وبدا واضحاً أنني أصبحت قاتله.. ولن يفيدني أن أكون فعلت هذا دفاعاً عن نفسي.. لن يفيدني في شيء حتى أمام ضميري..

وقف كبير الريابلة أمامي وقال بلهجة قاسية "ارحل.. ارحل ولا تعُد لهذه الأنحاء أبداً.. أنت لم تعُد من الريابلة.. وليس لك مكان بينهم بعد أن خالفت قوانينهم.."

لم يكن لي الاعتراض على ذلك.. أقصى ما قد أستفيده هو أن أفرّ بحياتي منهم.. نهضت متخبطاً بينما دمائي تنزف دون توقف، فيما صاح الرجل الذي هاجمني آخر مرة غاضباً "فلنقتله.. يجب أن يموت على ما اقترفته يداه.."

تعالت الصيحات المساندة من بقية الرجال حولي، فيما بدأ بعضهم بالتقدم نحوي رغم أمر الكبير لهم بالتوقف.. فقال كبير الريابلة بصرامة "لا.. لا يمكننا أن نقتله لهجومه على الصبي.. هذا الصبي قد اندسّ بين الرجال وخالف أمرنا، لذا لم يقدر أوس على تمييزه من بين المهاجمين ليرتدع عن ضربه بقسوة.. لذا ليس الخطأ خطؤه تماماً.."

لكن لماذا أشعر بالذنب على ما جرى للصبي أكثر مما يتهمونني به؟.. تراجعت راكضاً بعيداً عن هذا المكان الذي غصّ بدمائي ودماء مهاجميّ.. كنت أخشى أن يلحقوني لقتلي رغم كل شيء.. ولم يكن لي سبيل للهرب حتى أستعيد قواي إلا أن أعود من حيث أتيت.. أن أعبر طريق الأطياف عائداً لذلك العالم حيث لا يجرؤ الريابلة على الذهاب أبداً..

ولا أدري إن كنت سأتمكن من العودة لهذا العالم بعدها أم تكون نهايتي كما انتهى عمْرد..

استيقظ أوس من أفكاره مع شعوره بيد ساما الصغيرة تمسك يده الملطخة بالدماء دون أن تظهر فزعاً من ذلك.. نظر لها أوس بصمت وشيء من الحيرة، ملاحظاً أنها عزفت عن سؤاله عما جرى رغم فضول الأطفال الطبيعي.. لكن بدا أنها لم تكن تريد أن تزيده هماً وضيقاً فوق ما بدا على وجهه.. زفر أوس أخيراً وقال "لنذهب.. لا أريد أن يفاجئنا (البيزون) بهجوم جديد.."

أطاعته ساما هذه المرة دون جدال.. كانت واثقة أن أوس لا يريد لها شراً.. مهما كان ما جرى في السابق، فهي تشعر أنه لا ينوي إيذاءها بأي صورة كانت.. ولن يسعى لرميها بين أناس يهددون حياتها.. رغم معرفتها القصيرة به، لكنها تشعر أنها تعرفه منذ وقت طويل.. تعرفه منذ خرج من تلك الأجمة وسط الغابة وارتمى أمامها يئن متألماً.. وما دام يرى أن عودتها لعالم البشر خيرٌ لها من هذا العالم، فلا يمكنها الاعتراض على ذلك بأي حال..

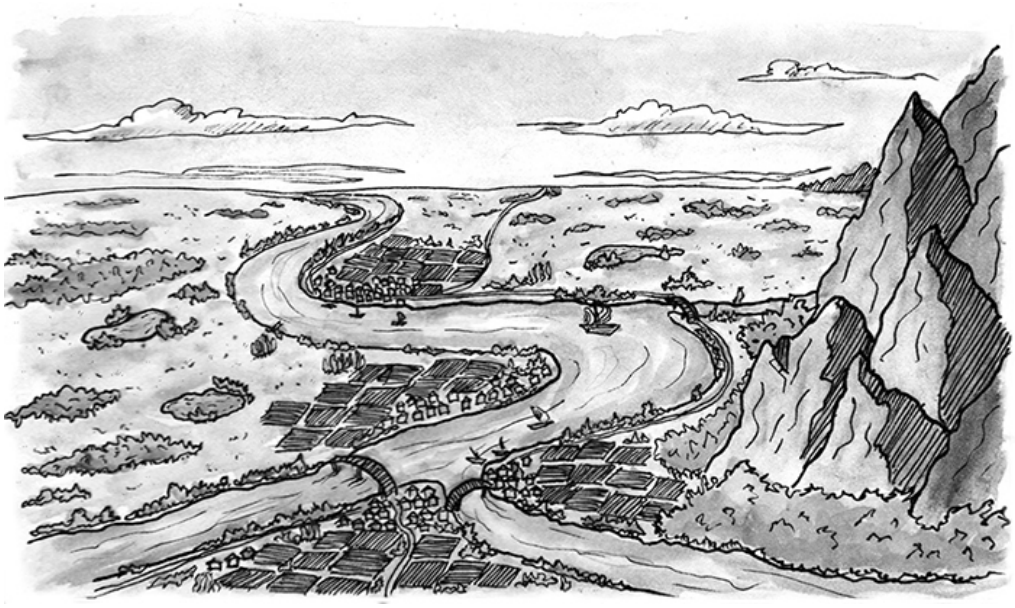

الفصل السادس: أصفال الشرّ

بعد سير ساعة واحدة على الأقدام وسط هذه السهول، وجد إيار ملامح مدينة متوسطة الحجم تبدو أمامه والطريق يقود لقلبها ويخترق جوانبها النابضة بحركة لا تهدأ.. لم يكن هذا الفريق الصغير المكون من إيار واثنين من الصيادين هم الوحيدون على هذا الطريق، فقد عجّ برجال ونساء وبعضهم يشكل فِرَقاً صغيرة، منهم من هو قادم للمدينة حاملاً صيده، ومنهم من هو مغادر بكل عدته وعتاده.. وأغلب من رآهم إيار رجال مفتولي العضلات، ونساء ينافسنهم في ذلك.. تغلب السمرة على وجوههم، ربما لطول مكثهم في العراء ولحياتهم الخشنة هذه، وتتشابه ملابسهم التي تعج بالكثير من الجيوب والأحزمة لحمل أسلحتهم وعدتهم التي لا يتخلون عنها.. وفي المدينة، كانت الحركة أكثر ضجيجاً.. رغم أن إيار زار العديد من قرى المزارعين، لكنه لم يرَ لهذه المدينة مثيلاً.. كانت كبيرة الحجم، تقع أعلى تلٍ صخري يرتفع قرب النهر مانحاً المدينة وأصحابها شيئاً من المناعة ضد الهجوم.. وتتكون المدينة في أغلبها من سوق كبير يمتد على طول المدينة وعرضها، حيث يقف رجالها ونساؤها يعرضون بضائعهم أو يفاصلون في الأسعار بحماس شديد، فيما احتل ميناء حيوي الجانب الملاصق للنهر حيث تنشط عمليات البيع والشراء أكثر ما تنشط.. كانت مدينة الصيادين كما سمع عنها تتكون من جماعات امتهنت صيد الحيوانات والكائنات المطلوبة في هذا العالم لغرض أو لآخر، ولا يهم الغرض الذي لأجله يتم صيد الكائن، بل الأهم هو سعره.. فيبيع الصيادون صيدهم على الغرباء، ويبيعون آلات ومعدات الصيد ومختلف الأسلحة على بعضهم البعض..

وكانت المنازل تدلّ على هوية ساكنيها بشدة، فهي منازل عملية مربعة الشكل لا تحوي أي زينة، بلون ترابي متشابه، ونوافذ ضيقة ينفذ النور منها بصعوبة.. متراصة تراصّاً عجيباً، ورغم ضيق طرقاتها لكن لا يمكن رؤية أي اتساع في تلك المنازل أو في المسافات الفاصلة بينها.. وطبعاً لا أثر لأي مساحات مزروعة قربها فالصيادون لا يمتهنون الزراعة، ولا يكاد المرء يرى حتى أي شجرة أو شجيرة في طرقات المدينة.. فيما كان المنظر الأكثر ألفة في هذه المدينة هو منظر الأقفاص متفاوتة الأحجام والأنواع، سواء أكانت تحوي صيداً حياً في قلبها أو تحوي مخلفات صيد سابق..

شعر إيار بضيق شديد في صدره وهو يسير مرغماً في طرقات المدينة تلك، والتي أشعرته بكآبة شديدة وتوتر كبير عجز عن فهمه.. لم يتمهل الرجل في دفعه نحو جانب من جوانب المكان، فيما تبعتهما المرأة عابسة بشدة رغم أنها تعود لموطنها بعد تغرّب طال شهراً كاملاً.. سارت الفرقة الصغيرة عابرة الطرقات الضيقة ولافتة الأنظار إليها، وأكثر ما لفت الأنظار هو هيئة إيار بالجناحين الكبيرين النابتينْ من منكبيه..

وصلت الفرقة الصغيرة محاطة بنظرات السكان إلى جانب المدينة، حيث رأى إيار جمعاً من الرجال يحيطون بجثة على شيء من الضخامة لكائن يدعى (تورّي) بجسد أقرب للغوريلا وشعر طويل أسود اللون فيما ينتصب قرنان ضخمان على رأسه، فاجتمع الرجال يتناقشون حولها وحول كيفية بيعها لمن يدفع أكثر.. وباقترابهم، تحولت الأبصار من ذلك الجسد إلى إيار متفحصة شكله غير المألوف، فيما تعالى صفير من أحدهم وهو يقول "مرحى.. أهذا هو أخو التنين؟.. هذه غنيمة نادرة دون شك.."

ابتسم الرجل المصاحب لهما بفخر وكأنه صاحب تلك الغنيمة بالفعل، فيما تقدمت سولينا منهم قائلة بحنق "ولقد استلب كاتاب مني هذه الغنيمة دون وجه حق.. فأنا الأحق بها منه.."

تقدم أحد الرجال من إيار متفحصاً، فيما راقبه إيار بدوره بقلق وتوتر.. كان الرجل طويلاً عريضاً بشكل يبزّ الجميع، عضلاته نافرة وبشرته شديدة السمرة.. يكاد رأسه يخلو من الشعر فاستعاض عنه بحلقه تماماً، وقد شق جرح قديم وجهه طولياً مخفياً ملامح عينه اليسرى مع الحاجب الذي يعلوها.. شفتاه غليظتان وفكه عريض، فيما أطبقت أصابعه بقوة وقسوة على جناح إيار وهو يتفحصه..

انبرى كاتاب يقول للرجل "لقد أمسكت به بنفسي يا زعيم.. لا يمكن لهذه الفاشلة أن تتمكن من اصطياد هذه الطريدة وحدها دون شك.."

قالت المرأة محنقة "لكن أنا من اصطاده بالفعل وجلبه حتى مشارف المدينة.. كل ما فعلته أنت أن تمكنت من منعه من الهرب.."

أشار لها كاتاب بظفر قائلاً "أجل.. كان سيهرب لولاي.. أنا من منعه وأحضره إلى المدينة.. لذا لا يحق لك المطالبة به.."

فقالت المرأة بضيق "تيدار.. قل شيئاً.."

التفت إليها الرجل الذي بدا أنه رئيس المدينة، وقال بصوت خشن جدير بشكله المرعب "العبرة بمن يحضر

الطريدة للمدينة.. ومما يبدو فإن كاتاب هو من جلبها.."

صاحت المرأة بغيظ "هذا ليس عدلاً.. أنا من اصطاده، وأنا من يجب أن يجني الأرباح من بيعه.. لقد أمضيت الشهر الماضي ألاحقه دون هوادة.. إسأله لو لم تصدقني.."

لكن إيار أشاح بوجهه جانباً رافضاً المشاركة.. أكانت تظنه سيقف في صفها لتتمكن من بيعه بهذه السهولة؟..

قال تيدار عاقداً ذراعيه على صدره "لا يمكنني أن أنحاز لصفّكِ وأبخس كاتاب حقه.. ما الذي كان سيجري لو لم يتدخل كاتاب ويمنع صيدك من الهرب؟.. كنا سنخسر غنيمة هامة مثل هذه دون فائدة.."

قالت بغيظ "كنت سأمنعه وألاحقه حتى أعيده من جديد.. كيف يمكن أن تظلمني بهذه الصورة؟.."

فقال تيدار بعد تفكير "لا بأس.. يمكنك الحصول على ثُمن المبلغ الذي سيُدفع في هذه الطريدة.. هذا كل ما يمكنني فعله.."

صاحت المرأة على الفور "هذا ليس عدلاً.. هذا المبلغ لن يكفي لتسديد ديوني.. فما الذي سأفعله عندها؟.. والمهلة التي منحتني إياها قد قاربت على الانتهاء.."

قال تيدار بحزم "إذن أنصحك بالشروع في مطاردة طريدة جديدة.. الوقت يمضي بسرعة يا امرأة.."

قلبت المرأة بصرها بينه وبين كاتاب، فرأت بوضوح أن اعتراضاتها وغضبها لن يجديا نفعاً أمامهما.. ظلت واقفة للحظة وهي تتميّز غيظاً وتشدّ قبضتيها بقوة، ثم استدارت وغادرت غاضبة حتى اختفت في طرقات المدينة الضيقة.. لو خُيرّت، لاختارت أن تدفن قبضتها في وجه كاتاب البغيض.. ولربما كان من الخير لها أن تنال شيئاً من تيدار المتجبر كذلك.. لكنها لا تجرؤ على ذلك.. فلن يتردد أحدهما في تقييدها وترحيلها على ظهر إحدى السفن لبيعها في موضع آخر مع بقية العبيد الذين يُساقون عبر الميناء كل يوم..

بعد رحيل المرأة، التفت تيدار إلى كاتاب قائلاً "هذه المرة، يكون نصيبي من هذا البيع الثلث.."

قال كاتاب بصدمة "لكنك عادة لا تأخذ أكثر من عُشر أي بيعة يا زعيم.. فلمَ الآن؟.."

قال تيدار بصرامة "حالة أخي التنين تختلف عن غيرها بالتأكيد.. ولا تنسَ أنني عاونتك على استلاب صيدٍ ليس لك.. أم أن لك اعتراضاً على ذلك؟.."

خفض الرجل رأسه مغمغماً "لا.. لا يمكنني الاعتراض أبداً.."

ثم ساق إيار لمكان قريب من هذا المنزل، وجرّه نحو قفص كبير شيئاً ما، بعوارض معدنية لا يمكن الخلاص منها، فحشر إيار فيه بغير ترفق ثم أغلق الباب وتأكد من إقفاله قبل أن يتركه ويغادر بصمت.. زفر إيار وهو يلاحظ أن الرجل لم يفك قيد يديه وقدميه، ولم يعبأ بإطعامه أو تزويده ببعض الماء.. يبدو أنه لا يُعامل إلا كحيوان يدرّ عليهم ذهباً.. ولكنه لن يسمح لهم بذلك.. لكن كيف الخلاص من هذا القفص المتين؟..

في الليلة تلك، فوجئ أهل إحدى القرى الزراعية بتردد صيحات التنين من جديد.. كانت أصداء ما جرى للقرية التي تعرضت لهجوم التنين في الليلة السابقة قد وصلت لجميع القرى الزراعية القريبة في المنطقة.. خاصة أن بعض تلك القرى اضطرت لاستضافة أصحاب القرية المنكوبة بعد أن أصبحت قريتهم رماداً محترقاً..

وفي هذه الليلة، لم يتمهل أهل القرية وهم يسمعون الصياح العالي يقترب من قريتهم مع حلول الظلام بتهديد واضح لا يمكن إغفاله.. فأسرع الأهالي بنسائهم وأطفالهم وما غلى من متاعهم هاربين من القرية دون هوادة.. فيما وقف عمدة هذه القرية يراقب نزوح سكانها وهو يقول مقطباً "ما الذي جرى؟.. لم نشهد وحشية هذا التنين لسنوات طويلة.. فما الذي جدّ ليثور ليلتين متتاليتين؟"

قالت عجوز تقف قربه وهي تحدق في السماء السوداء "ربما حدث شيء لأخي التنين.. فهو الوحيد القادر على تهدئة ثورة التنين، وهو من يمنعه من ارتكاب هذه المجازر كما فعل رفاقه في السنوات الماضية.."

قال العمدة بحنق "ألا يمكننا الخلاص من هذا التنين؟.. ربما أصبح لا يطيع ذلك الفتى، لذا وجوده خطرٌ علينا ولن يزول إلا بالخلاص منه.."

غمغمت العجوز "وربما لم يعد الفتى موجوداً للقيام بما يقوم به عادة.."

لم يعلق العمدة وهو يراقب هروب أهالي القرية والاضطراب الذي ساد أركانها، فيما لاحظت العجوز ذلك الجسد الأسود الذي حلق في السماء في مسار متذبذب.. ولما اقترب الجسد بسرعته الكبيرة، تراجعت العجوز خطوات وهي تقول بانفعال "إنه قادم إلينا بالفعل.."

دارت الرؤوس نحو الموقع الذي تشير إليه العجوز، وبالفعل لم يكن من الممكن إغفال ذلك الجسد الضخم الذي حلق بسرعة كبيرة نحو القرية.. فتزايد هلع القرويين وهم يتراكضون هاربين، عندما فوجئت جماعة منهم بهبوط التنين وسط ساحة القرية قاطعاً عليهم طريق الفرار..

تجمّد القرويون في مواقعهم برعب واضح وهم يشعرون بأن الهواء ذاته قد سكن في مكانه.. أصدر التنين فحيحاً وهو يدور برأسه في المكان وعيناه المضيئتان تحدق في الوجوه أمامه.. شعر القرويون أنهم لو قاموا بأي حركة، فهذا كفيل بأن يستثير التنين بشكل مفاجئ، وقد ينقضّ عليهم ويلتهم من يلتهمه منهم.. كان أغلبهم يرى التنين لأول مرة، وقد أذهلتهم ضخامته وشراسة مظهره وهو يضرب بقدمه الأرض مرة بعد مرة ويدير عنقه بتوتر عصبي..

حاول أحد الرجال دفع رفاقه للانسحاب بهدوء دون إثارة التنين، فيما بقي التنين يقلب بصره في القرية بعصبية واضحة قبل أن يطلق صيحة أثارت رعباً عارماً في المكان.. بدا بوضوح أنه يبحث عن شيء ما، وأنه يزداد عصبية كلما فشل في العثور عليه.. ومع صيحته، وتراكض بعض القرويين في جانب القرية، استغلت تلك الجماعة التي تقف في وجه التنين انشغاله بالتلفّت جانباً ومراقبة الأجساد المتحركة بتوتر.. عندها حاولت هذه الجماعة أن تفر قبل أن يبادرها التنين بالهجوم، لكن فرارها هذا قد جذب انتباه التنين الذي أطلق صيحة غاضبة من جديد.. وقبل أن يتمكن أفراد هذه الجماعة من الاختباء بين المنازل القريبة، فوجئوا بالتنين ينفث النار من حلقه نحوهم بقوة.. كانت النيران التي ينفثها يتجاوز مداها عشرة أمتار، لذا وجد بعض الهاربين أن النيران قد لحقتهم وشبّت في ملابسهم مما جعل صياحهم يعلو وهم يرتمون أرضاً محاولين إطفاءها.. اندفع بضع رجال نحو رفاقهم وساعدوهم على إطفاء النيران قبل أن تتفحم أجسادهم، فيما حوّل التنين نيرانه نحو المنازل القريبة والأشجار السامقة وسط القرية.. وسرعان ما بدأت النيران تلقي بضوئها على جوانب القرية وتنيرها بشكل لم يسبق للقرويين رؤيته..

تعالى الصياح في جوانب عديدة من القرية، فيما رفرف التنين بجناحيه بقوة قبل أن يرتفع في السماء بدورة واسعة.. وسرعان ما تطاول هجومه ليصل للحقول المجاورة والغابة القريبة.. بدأت النيران تلتهم المحاصيل بشراهة، وبدأت تشتعل في أشجار الغابة التي قدمت لها مورداً لن ينضب بسرعة.. بدا أن النيران لن تنطفئ قبل أن تقضي على الحقول القريبة وتتفحم لها الغابة بشكل كامل، فيما استمر التنين في هجومه

العصبي دون أن تتوقف الجبال القريبة عن ترديد صيحاته الغاضبة..

ووسط النهر، وقف العمدة مع عدد من رجاله في بعض القوارب التي حاولوا الفرار بواسطتها عن هذا الهجوم.. كان البكاء يتردد من عدد من نساء وأطفال القرية مع ما يرونه من دمار يطال كل ما يملكونه..

فيما دمدم العمدة بغضب شديد "يجب أن نتخلص من هذا التنين.. هذا ما يجب أن نفعله حتى لو قدّمنا كل ما بقي لدينا.."

مضت المهلة التي منحها أوس لساما بهدوء غريب وهي تلتزم بكل ما يطلبه منها حرفياً.. بقيت في ذلك المخبأ الذي اتخذه أوس سكناً له للشهور الماضية، وقضت الساعات التالية إما في انتظاره، أو في الحديث معه عن أي شيء.. وبينما انشغل بشواء بعض الأرانب لغدائهما، غمغمت ساما معلقة "لم آكل لحماً بهذه الصورة منذ سنوات عديدة.."

علق أوس قائلاً "ألا يحب البشر أكل اللحم؟.. أم أن هناك بدائل أخرى؟"

قالت ساما "بلى.. يحب البشر اللحم.. لكني عشت السنوات الماضية مع عجوز بخيل لا يأكل إلا الخضار، ولم يمنحني يوماً لحم حيوان أو دجاج لآكله.."

صمت أوس دون تعليق وهو لا يدري كيف قضت الفتاة سنواتها الماضية تلك.. فهي عندما رآها لأول مرة في الغابة كانت هزيلة وبائسة الحال بشكل واضح حتى لغريب مثله.. ولا تبدو الآن أفضل حالاً مما كانت عليه قبل سنة..

قطعت ساما الصمت وهي تسأله بشيء من التردد "ما معنى أن يكون الطفل مستبدلاً؟"

نظر لها أوس بدهشة واهتمام وتساءل "من أين سمعت بهذا؟"

قالت خافضة وجهها "لقد تحدث بعض الرجال في قريتي عن هذا الأمر.. قالوا للعجوز الذي عشت معه أنني طفلة مستبدلة، وأن والداي قد ماتا بسبب ذلك.. قالوا إنني سبب الكثير من الخراب الذي حلّ على القرية، ولاحقوني بسبب ذلك.. فهل أنا كذلك بالفعل؟"

قال أوس بابتسامة تعجب "قطعاً لستِ كذلك.. أنت بشرية.. لكن البشر الحمقى لا يدركون الفارق بين

الإثنين.."

ثم شرح لها الأمر وهو يقوم بتقليب الأرانب المشوية على النار المحدودة التي أشعلها قرب المدخل "يردد البشر أحياناً إشاعة أن كائنات عالم الأطياف تقوم باستبدال أطفالها بأطفال البشر.. فتختطف أطفال البشر لتلتهمهم فيما تضع أطفالها عند البشر ليتربوا بينهم.. لكني أرى أن ذلك سخف لا معقول.. لا يمكن لبشري ألا يلاحظ استبدال طفله في يوم وليلة.. كما أن كائنات عالمنا لا تستفيد شيئاً مما قد يقدمه البشر لأطفالها.. بالإضافة لصعوبة خروج هذه الكائنات وانتقالها لعالم البشر في الأساس.. لذا هذه تهمة باطلة لا أساس لها من الصحة.."

غمغمت ساما "وماذا عن والداي؟.."

قال أوس "لا أدري ما جرى لهما، لكن هناك تفسير أكثر إقناعاً لموتهما بالتأكيد.. لو أنك سألت رئيس القرية أو أحد رجالها لحصلت على جواب مقنع أكثر من مجرد التخمين.."

صمتت ساما دون تعليق، وضمّت ذراعيها لجسدها وهي تطرق بوجهها متأملة الأرض الصخرية تحت قدميها.. كان موت والديها مبهماً، وتلك الليلة مغلفة بضباب شديد جعل تذكرها أكثر صعوبة.. لطالما عزت ساما ذلك لصغر سنها.. لكن أكان ذلك هو السبب الوحيد؟.. أم أن عقلها فضّل الاحتفاظ بتلك الذكرى سراً وغيّبها عامداً عن وعيها؟..

سمعت أوس يقول لها وهو يضع أحد الأرانب أمامها على ورقة شجر عريضة الحجم "كفي عن التفكير فيما سبق وفكري فيما سيحدث لك منذ الآن.. عليك اتخاذ قرار هذه الليلة بشأن عودتك لعالم البشر.. ونصيحتي لك بالتفكير في هذا الأمر بجدية.. حياتك لن تكون بتلك الصعوبة لو بدأتها في موضع بعيد عن قريتك السابقة وبين أناس لا يعرفون ما جرى لك مع تلك القرية.."

تساءلت ساما بقلق "حقاً؟"

أجاب أوس "بالطبع.. عالم البشر واسع وأكثر أمناً من عالمنا هذا، خاصة لفتاة في عمرك.. لابد أن تعثري على من يعتني بك دون أن يسيء لك لسنوات قادمة.. ربما لو بحثنا عن عائلة لا أطفال لها، وتتوق لتبنّي طفلة مثلك، قد يحالفك الحظ في عيشك معها عندئذ.."

صمتت ساما وهي تتناول الأرنب وتذوق لحمه دون اعتراض.. رغم أنه عديم المذاق، لكن ساما شعرت

بتقدير لما فعله أوس لها ولاعتنائه بطعامها ولرعايتها اليومين الماضيين.. ربما عليها فعلاً أن ترحل لعالم البشر وتبحث لها عن بداية جديدة.. ربما ستجد شخصاً بمثل لطف أوس واهتمامه، أو بطيبة مالو والحكيم.. وربما تقدر عندها أن تعيش حياة طبيعية كأي طفلة في عمرها..

قضى إيار ليلته تلك كأسوأ ما يكون.. مقيد اليدين والقدمين بقيد محكم لا يمكن الفكاك منه مهما حاول، ومنحشراً في قفص حديدي ضيق يكاد يكفي جناحيه بالكاد.. لذا كانت حركته صعبة وقضى تلك الساعات جالساً بوضعية غير مريحة.. وزاد الأمر سوءاً تلك الأمطار التي هطلت لبعض الوقت وجعلت ليلته غير مريحة البتة.. سمع في وقت مبكر من تلك الليلة شجاراً حاداً في المنزل القريب، وتعرّف في أحد الأطراف المتشاجرة على المرأة التي علا صوتها بحدة وغضب.. بدا أن الأمور لن تصبح أفضل بالنسبة لها، وكان واضحاً أن رئيس مدينة الصيادين قد تعاون مع ذلك الرجل على استلاب هذه الغنيمة منها دون أن تحصل على أي فائدة من كل الجهد الذي بذلته في الأسابيع الماضية.. وبعد أن خفتت الأصوات العالية، خرجت المرأة من المنزل وهي تصفق الباب خلفها بعنف قبل أن تبتعد بخطوات غاضبة وسباب متلاحق..

ضحك إيار بهزء على ملامح الحنق الواضحة في وجهها، فقالت باستياء "أيسعدك ما جرى؟.."

علق إيار قائلاً "يسعدني أن تنالي جزاء اختطافك لي وجلبي لهذا المكان بالقوة.."

فقالت بصرامة "من قال إنني سأستسلم لهذا؟.. ثم إن هذا الأمر لا يجعل مصيرك ألطف بالضرورة.."

هز إيار كتفيه معلقاً "ورغم ذلك، تسعدني رؤية الفشل على وجهك.."

رمقته مقطبة قبل أن تستدير وتغادر بصمت.. فبقي إيار وحيداً لوقت طويل بعد أن هدأت المدينة وأوى أصحابها لمنازلهم لتغرق الطرقات في ظلام شبه تام.. ارتجف محاولاً نفض البرد عن جسده وهو يضع رأسه على ذراعيه محاولاً النوم ولو لوقت قصير، وقضى الساعات التالية بجوعه وبرده وتعبه دون أن يجد من يعبأ لأمره.. وبعد أن تطاولت ساعات تلك الليلة حتى ظنها لن تنتهي، سمع صوتاً قريباً من القفص ورأى قربة ماء من التي يحملها الصيادون عادة ترمى إلى جواره.. وجد نفسه مرغماً على تناول القربة بشيء من اللهفة وإطفاء عطشة وتهدئة جوعه بها، فيما اقتربت المرأة من القفص متلفتة حولها.. ولما اطمأنت لخلو

المكان من أي عين تراقبهما، أسرعت تفتح قفل القفص وتتقدم منه قائلة "علينا أن نسرع يا هذا.."

نظر لها إيار بارتياب قائلاً "ما الذي تنوين فعله؟"

لم تعلق وهي تسرع لقيود يديه وقدميه، وبخنجر صغير قطعتها هامسة "هيا بنا.."

قال إيار دون أن تزول ريبته وهو يتخلص من قيوده "أليست هذه خدعة ما؟"

أجابت المرأة وهي تجذبه من عنق ثوبه خارج القفص "ليس الوقت ملائماً للشرح.. إما أن تنتهز هذه الفرصة، أو تتشبث بسجنك حتى يتم تقطيعك أجزاءً صغيرة.."

نظر لها إيار بصدمة قائلاً باستنكار "تقطيعي؟"

تلفتت حولها مغمغمة "ماذا ظننت؟"

ثم أشارت له وهي تتسلل مبتعدة، فلم يجد إيار بداً من اللحاق بها لخطوات وهو يستشعر الألم في أعضائه بعد أن حُشر في ذلك القفص لساعات طوال.. ومع الحركة، شعر أن ذلك الألم يخفت شيئاً ما، فوقف فجأة وهو يرفرف بجناحيه باستعداد للطيران.. لم يكن ينوي اللحاق بها حيث تقوده، ولم يكن ينوي البقاء مدة أطول في هذه المدينة البغيضة..

التفتت إليه المرأة بعد أن لاحظت أنه استعد للطيران، فقالت بتوتر "مهلاً.. قد يجلب صوت جناحاك لنا الأنظار.. ربما من الأفضل لنا الابتعاد قليلاً قبل ذلك.."

لكن إيار لم يعبأ باعتراضها وهو يدفع نفسه عالياً بجناحيه بقوة مستشعراً الحرية التي نالها بعد طول سجن.. رغم أن سجنه لم يتعدّ أياماً معدودة منذ اختطفته المرأة من الغابة، لكنها كانت تطبق على روحه بأكثر مما يطيق.. وعندما سمع في لحظة طيرانه ذلك الدويّ المفاجئ في جانب من المنازل القريبة، أدرك أنه أخطأ بتجاهل قول المرأة.. فمن منزل قريب، انطلقت قذيفة سرعان ما انشقت في لمح البصر ليجد شباكاً قوية تنفرش في الهواء ثم تحيط به وبجناحيه وتمنعه من التحليق.. فوجد نفسه يسقط الأمتار المعدودة التي ارتفعها بسرعة البرق، ورغم سقوطه المؤلم على بضع صناديق خشبية والتي أوجعت جسده بالإضافة للصوت العالي الذي أصدرته مع تهشمها، لكن إيار حاول في اللحظة التالية الخلاص من الشباك والهرب بسرعة قبل أن يتم القبض عليه من جديد..

أسرعت المرأة إليه وهي تستلّ خنجراً من جرابٍ مربوطٍ في فخذها، وقبل أن تحاول قطع الشباك سمعت

صوتاً باسماً يقول "لقد كان الزعيم محقاً.. وها أنتِ ترتكبين حماقة جديدة بتهريب الطريدة.."

التفتت إلى الرجل الذي ظهر على سطح بناء صغير لا يرتفع أكثر من أربعة أمتار ويستخدم للتخزين، وتعرفت فيه كاتاب الذي وقف يراقبها بهزء.. وقال بابتسامة جانبية "لِمَ تأخرت كل هذه المدة قبل أن تنفذي مخططك؟.. لقد أصبتُ بملل شديد وأنا أنتظرك.."

لاحظ أنها حاولت تجاهله وتحرير إيار، لكنه رفع بندقية أخرى نحوها وهو يقول بتحذير "لا تتسرعي.. فما في يدي ليست بندقية شباك، كما لابد تعلمين تمام العلم.."

قطبت المرأة وهي تقف حاجزاً بين الرجل وبين إيار الذي حاول عاجزاً التخلص من الشباك، وقالت وهي تتحفز بالخنجر في يدها "هل ستقتلني؟.. أهذا ما أرسلك تيدار لفعله؟"

قال كاتاب بسخرية "ربما.."

غافلته المرأة برفع فوهة مسدس صغير تحمله قرب خصرها ومن تحت ملابسها، فأطلقت بسرعة ودون تدقيق نحو كاتاب الذي أدرك ما تنتويه بحركتها الخاطفة وزاد يقينه مع سماعه الصوت العالي.. فرمى نفسه جانباً متفادياً الطلقة التي ضربت جدار المخزن وارتدت عنه بقوة.. لم تتمهل سولينا وهي تستغل سقوط كاتاب جانباً، فطوّحت خنجرها وقطعت الشباك قائلة بحنق "اهرب بسرعة ولا تحاول الطيران قبل أن تبتعد عن هذا الموقع.."

تخلص إيار من الشباك التي قيّدت ساقيه، فيما وجدت المرأة رصاصة تصيب كتفها مسببة لها آلاماً قوية والدماء تسيل بسرعة على ملابسها.. لكنها لم تلتفت للإصابة وهي تصيح "اهرب الآن.."

وقفزت جانباً تحتمي بالصناديق التي سقطت مع سقوط إيار سابقاً، فيما ثنى إيار جسده وابتعد بخفة مستغلاً الظلام وبعض المنازل القريبة التي أخفته.. لكن كاتاب صاح وهو يقفز من سطح المخزن نحو الأرض "ليس بهذه السرعة.."

أظهرت المرأة نفسها في تلك اللحظة وأغرقت كاتاب بطلقات مسدسها لتجبره على عدم ملاحقة إيار، واضطرته للتراجع في زقاق قريب.. ولما ساد الصمت دون أن يبادلها الإطلاق، أدركت أنه قد بادر للابتعاد من الجانب الآخر سعياً وراء طريدته ومتجاهلاً أمرها.. عندها لم تتردد في مغادرة موقعها لاحقة بإيار وهي تدمدم "أتمنى أن تكون قد هربت بالسرعة الكافية يا فتى.."

بدأت بضع أنوار متفرقة تبدو في المنازل القريبة وقد جذبهم صوت الطلقات التي كسرت هدوء الحي.. فأسرعت المرأة أكثر خشية أن يتكالب الصيادون عليها وعلى إيار ويمنعونه من الهرب.. ركضت نحو الموضع الذي رأته يهرب إليه، وبعد لحظات استطاعت أن تلمحه على بعد عدة أمتار من مكانها وهو يحلق بسرعة مرتفعاً في السماء، وتناهى لسمعها في اللحظة ذاتها صوت الأقدام التي تسللت من موقع جانبي.. فاندفعت المرأة نحو ذلك الجانب وهجمت على صاحب تلك الخطوات دون تردد وهي توجه له ضربة قوية، لكن كاتاب الذي كان يتوقع اقترابها منه قد فاجأها بأن أطلق طلقة نحوها أصابها في خاصرتها إصابة عميقة، فلم تملك نفسها أن أطلقت صيحة متألمة وهي تتراجع خطوات، ثم ركلت صندوقاً قريباً نحو الرجل الذي حاول تفاديه ومواجهتها ببندقيته من جديد.. وفور تجاوزه ذلك الصندوق رأى المرأة تقفز نحوه رغم جرحها الذي بدأ ينزف بغزارة، ورأى خنجرها يلتمع في يدها وهي تسدد له ضربة جانبية نحو عنقه.. انزلق كاتاب أرضاً بأسرع ما يملك وهو يعترض طريق الخنجر ببندقيته، ثم ركل المرأة بقوة في بطنها قرب الجرح الذي أصيبت به، ورماها خلفاً حتى سقطت على بضع صناديق وهي تشهق بألم شديد..

حاولت المرأة الاعتدال بسرعة ومواجهة كاتاب، لكنها وجدت ضربة قوية قاسية تصيب رأسها، وظهر كاتاب من خلفها حاملاً بندقيته بالمقلوب وهو يقول بغلّ "تباً لك من فاشلة.."

تهاوت المرأة فاقدة للوعي رغم مقاومتها، فيما ابتسم كاتاب بتشفٍّ وهو يوجه البندقية نحو ساقها مضيفاً "عليّ التأكد أنك لن تحاولي الهرب أو معاونة الطريدة على الهرب من جديد.."

وقبل أن يضغط الزناد، فوجئ بمخالب حادة تنغرز في كتفيه، ووجد جسده يرتفع بسرعة عالياً فأطلق صيحة متألمة تحمل دهشته وهو يرى الأرض تتضاءل تحته.. رفع بصره ليجد إيار يحمله بيديه ذات المخالب عالياً وهو يضرب بجناحيه بقوة، وبدا له واضحاً أن الفتى يحاول إنقاذ المرأة كما أنقذته.. فقال كاتاب بابتسامة ظافرة وهو يصوّب بندقيته نحوه "ها قد عدت إليّ يا صغير.."

لكن إيار طوّحه بقوة ورماه من ذلك الارتفاع، فطاشت الرصاصة في الهواء فيما تعالى صياح كاتاب وهو يهوي الأمتار القليلة ثم يسقط على سطح أحد المنازل متدحرجاً للحظات.. أسرع إيار عائداً للمرأة التي سقطت فاقدة للوعي، فحاول إيقاظها بقلق وهو يسمع صياحاً من جوانب الحي وضوء مشاعل تقترب من مكانه.. عندها لم يجد إيار بداً من حمل المرأة بأن أحاط نصفها العلوي بذراعيه وحملها محاولاً الطيران

من جديد.. ظلت المرأة فاقدة الوعي وجسدها يتدلى جاعلاً مهمة إيار أسوأ، لكنه تشبث بها وهو يبذل جهده للتحليق والارتفاع عالياً.. سمع صيحة من منزل رئيس المدينة، وطاشت عدة طلقات قربه فيما تأرجح في طيرانه محاولاً الوصول للموقع الوحيد الذي سيحميه من الصيادين ولو مؤقتاً.. فوجّه وجهه نحو النهر القريب وصياح الصيادين يصله بوضوح، فلم يتمهل وهو يعبر المنازل القريبة ويتجاوز الضفة وميناء المدينة، ثم حلق بحمله الثقيل فوق مياه النهر التي تدفقت بقوة وسرعة تحته.. كان النهر عريضاً، وتجاوزه بهذا الحمل الثقيل ليس يسيراً على إيار، لكنه لم يتراجع وهو يتمنى أن يتأخر الصيادون في ملاحقته حتى يتمكن من الفرار..

في تلك الأثناء، وصل تيدار لضفة النهر ونظر لأخي التنين الذي ابتعد عن مرمى طلقات الصيادين بسرعة وقوة.. ثم غمغم بحنق "كيف تمكن من الهرب؟.. كيف لصبي صغير أن يهرب من قلب مدينة الصيادين؟"

سمع صوت كاتاب الذي أوكل له مهمة مراقبته وهو يقول متألماً "لقد بذلت تلك الحقيرة جهدها لتهريبه.. ولم أكن أتخيّل أن يقوم أخو التنين بمساعدتها وتهريبها بدوره.."

نظر تيدار لكاتاب الذي وقف مستنداً على بندقيته بألم، وقد بدا بوضوح أن ذراعه قد كسرت في سقوطه العنيف ذاك.. لكن تيدار لم يتعاطف معه وهو يركل ساقه قائلاً بضيق "يا لخيبتك.."

قال كاتاب وهو يتأوه ألماً "لكني حاولت قدر استطاعتي يا زعيم.. ليس خطئي أن بقية الرجال تأخروا في القدوم لمعاونتي.."

استدار تيدار عائداً لمنزله وقال متجاوزاً جماعة من الصيادين تحلقوا خلفه بعد أن جذبهم الصراع الدائر في جانب المدينة "استعدوا.. سنلحق بها بعد قليل.. لا يمكن أن نترك غنيمة مثل هذه تفلت من أيدينا.."

أسرع بقية الرجال لإطاعة أمره، فيما نظر تيدار للأفق الذي بدأ يكتسب نوراً خفيفاً مع بداية هذا النهار.. ثم عاد لمنزله مغمغماً "وها قد بدأت رحلة الصيد.."

لم يكن التعب الذي شعر به إيار ليعينه في ما يقوم به، وقد بدأت آثار ليلته القاسية تلك تبدو بوضوح في

رجفة ذراعيه وطيرانه المتذبذب عبر النهر الواسع.. ورغم الرجفة العنيفة التي اعترت ذراعيه، فإنه تشبث بالمرأة أكثر فأكثر وهو يطير بها عبر النهر نحو الضفة للهرب عبرها قبل أن تبدأ مطاردة الصيادين لهما.. ظل يقاوم إسقاط المرأة بكل قواه، وهو يدرك أنها ستغرق فور إفلاته إياها وسقوطها في النهر وهي فاقدة الوعي بهذه الصورة.. لكنه قاوم قدر استطاعته وهو يرى ضفة النهر تقترب منه ببطء.. كان أحياناً يغالب نفسه فيرتفع بها شيئاً ما وهو يرفرف بكل قواه، ولما يستبدّ به التعب يجد نفسه رغم مجهودة ينخفض في طيرانه حتى تلامس قدما المرأة سطح المياه.. ولم يجد ملجأً ملائماً وسط النهر يمكنه أن يقف عليه ليستريح قليلاً..

وبالنور الخفيف الذي بدأ يضيء النهار، تراءى له أن تلك الضفة تضمّ قرية صغيرة، فراوده قلق عارم من أن تكون امتداداً آخر لقرية الصيادين.. للأسف لم يتمكن من سؤال المرأة عن أفضل موضع يختبئان فيه في الوقت الحالي قبل أن تفقد وعيها، فهي أدرى بالأماكن القريبة من مدينتها وبأفضل السبل للهرب من ملاحقيهم والاختباء حتى تهدأ الأمور قليلاً..

هزّ المرأة قليلاً وهو يناديها قائلاً "استيقظي.. هل يمكنك سماعي؟"

ركل ساقها قليلاً بغية تنبيهها، لكنها ظلت فاقدة للوعي، وظلت الدماء تسيل من جرحها وتسقط في النهر فتصبغه لوهلة قبل أن يضيع أثرها وسط المياه الجارية.. نظر إيار للقرية بقلق وهو يتساءل إن كان عليه تفاديها واللجوء لموقع أبعد من الضفة.. أم أن الأفضل له التوجه لها مباشرة؟.. المرأة بحاجة للعلاج بشكل سريع، وهو لا يملك عدة ملائمة لذلك، ولا يمكنه حملها حتى الكهف الذي يأوي إليه هو وأخيه..

ظل متردداً للحظات طالت، ثم عزم أمره على المضيّ للقرية رغم كل المخاطر.. وربما ما طمأنه رؤية القرية الصغيرة التي تختلف عن مدينة الصيادين ذات الحجم الكبير والتي تضجّ بالحركة والضجيج، بالإضافة للمنازل التي كانت عملية وعلى شيء من القدم بلون أصفر متشابه وبملامح لا تختلف عن غيرها من المنازل.. فيما بدت له هذه القرية هادئة وصغيرة بمنازل من طابق واحد، لونها أبيض، وتتفاوت ألوان سقوفها بين الأحمر والأزرق وألوان أخرى هادئة تجعلها تبدو مميزة للناظر إليها.. وفي جانب منها مزارع محدودة الحجم، بينما انتشرت شجيرات الأزهار في طرقاتها المرصوفة وأمام أبواب منازلها وقرب النوافذ..

استنفر إيار قواه ليقطع المسافة الباقية وقد عوّل على حدسه باختلاف هذه القرية عن تلك التي تزخر

بالصيادين.. كادت المرأة تزلّ والدماء التي سالت من كتفها قد أغرقت يديه وجعلت إمساكه بها أشد صعوبة.. وأخيراً، مع اقترابه من الضفّة، خفض إيار ارتفاعه بأسرع ما يستطيع وهو يمسك المرأة من تحت إبطيها ويرفعها بالكاد، قبل أن تتهاوى من بين يديه وتسقط متجاوزة المترين الأخيرين، لكن لحسن حظها خففت الأرض الترابية سقوطها.. وسرعان ما تهاوى إيار قربها لاهثاً وقد شعر بآلام شديدة في جميع أجزاء جسده، وبدا غير قادرٍ على رفع جناحيه بوصة واحدة وهما يرتخيان جواره..

ظل إيار للحظات يلهث في مكانه محاولاً العثور على بعض الطاقة للنهوض والبحث عن مساعدة في القرية القريبة، ولكنه سمع تهامساً في جانب بعيد عند أقرب البيوت إليه.. وقبل أن يرفع بصره، استطاع أن يرى القدمان الدقيقتان بصندلين بسيطين زهريين تقفان على بعد أمتار منه.. رفع إيار بصره، فاستطاع أن يرى تلك الفتاة التي لا تتجاوز العاشرة من عمرها وهي تقف أمامه مقطبة.. ورغم صغر حجمها وعمرها المفترض، فإن ملامحها حملت جدية غريبة وتفاصيل لا تظهر على الأطفال عادة..

قال إيار بصوت متقطع متجاوزاً ملاحظته تلك "أرجوك ساعديني.. أريد من يساعدني على الاعتناء بهذه المرأة فهي جريحة.."

قالت الفتاة بصوتٍ جاف "أستطيع أن أرى ذلك.."

واقتربت من المرأة تتفحص جراحها الواضحة في خاصرتها وكتفها، فقال إيار بقلق "لا وقت لدينا لتضييعه.. هل تستطيعين استدعاء أي رجل يملك خبرة طبية في قريتكم؟.. إنها بحاجة لعلاج سريع.."

نظرت له مقطبة وقالت "أتظنني أعبث؟.. أنا أكثر سكان هذه القرية خبرة في هذه الأمور.."

نظر إيار بدهشة لملامحها ويديها الدقيقتين وهي تتفحص المرأة، وغمغم بصدمة "ولكن.. أنتِ...."

قالت بسرعة "أنا لست طفلة لو راودتك تلك الفكرة.. أنا مالو مساعدة الحكيم.. لديّ من الخبرة والعلوم ما لن تستطيع تحصيله في حياتك كلها يا هذا.."

ظل إيار ينظر إليها بصدمة واستنكار واضحين، فأضافت مالو مضيقة عينيها "وأنت أخو التنين.. ألست كذلك؟"

غمغم إيار بعد أن تجاوز صدمته "بلى.. أنا هو.."

كانت تلك هي المرة الأولى التي ترى فيها مالو الفتى الذي يطلق عليه أخا التنين.. ورغم الذعر الذي يثيره

التنين في هذا العالم، فإن الفتى بدا لعينيها عادياً جداً ولا يثير توجساً في نفس أحد.. بجسد طويل ونحيف وذراعين ناحلين جعلتها تدهش من مقدرته على حمل تلك المرأة لمسافة طويلة.. شعره القصير المبعثر بلون بني غامق، وعيناه طويلتان نحيفتان تبدوان عاديتين، لولا بياضهما الذي استحال سواداً قاتماً، بحدقة صفراء ذهبية اللمعة وشق طولي ذكرتها برسم لتنين في أحد الكتب التي يملكها الحكيم.. يرتدي ثياباً جلدية بائسة الحال، ومن ظهره يبرز جناحان يقاربانه في الطول ويشابهان جناحا خفاش.. فيما بدت يداه ذات أطراف مخلبية أشد حدة وقسوة من أطراف فتى عادي..

أما المرأة، والتي لم تعرف مالو هويتها بعد، فقد كانت تنتمي بوضوح لمدينة الصيادين.. فملابسها، والحزام الجلدي المتقاطع على صدرها ويلتف حول ظهرها، ومع الجيوب الكثيرة التي في ملابسها والقوس الخشبي المعلق في حزامها، كلها دلتها على هويتها دون أن يشير الفتى إلى ذلك.. بدت لها تتجاوز الثلاثين في العمر، بجسد عضلي طويل، فيما انتصبت أذناها بطرف مدبب على جانبي رأسها، وبشرتها سمراء لوحتها الشمس بشدة فيما شعرها الأسود الذي يتجاوز كتفيها قد ربط خلف عنقها.. وبرؤية آثار بعض الجروح السابقة في وجهها وما بدا من جسدها الطويل العريض، فقد أدركت مالو أي حياة عاشتها تلك المرأة في عمل خطر كالذي تمتهنه..

سمعت مالو إيار يقول "هل ستكون بخير؟"

لم تتساءل مالو عن الشيء الذي يجمع أخي التنين بصيادة، بل أنهت تفحصها السريع للمرأة، ثم قالت له بلهجة آمرة "انقلها إلى المنزل الذي سأدلك عليه.. ربما ببعض الحظ يمكنها أن تحتفظ بحياتها لو أنني أسرعت بعلاجها.."

بدا إيار منهكاً بشدة، وقال وهو يجثو أرضاً قرب جسد المرأة "هل يمكن استدعاء أحد الرجال لمعاونتي؟.. لا يمكنني حملها وحيداً أكثر مما فعلت.."

أجابت مالو "قطعاً لا يمكنني ذلك.. ألا تعلم أين أنت؟"

نظر لها إيار بدهشة وقد ظنها غاضبة لطلبه هذا، فأشارت مالو للقرية خلفها قائلة "ألا تدرك أنك قد وصلت لقرية (الشنّ) التي يطلق عليها الغرباء قرية الأطفال؟.. وكما ترى، لا يمكن لأحدنا معاونتك فيما يتجاوز قدراتنا.."

نظر إيار بدهشة لمالو التي لا يتجاوز طولها نصف طوله، ثم نظر للقرية خلفها.. وللمرة الأولى، تمكن من ملاحظة سكان القرية الذين تجمهروا خلف أقرب المنازل يراقبون ما يجري بحذر.. وعندها، أدرك إيار سبب رفض الفتاة لطلبه.. فأمامه، تجمهر عدد غير قليل من الأطفال الذين لا يتجاوز عمر أكبرهم العاشرة.. بينما تراكض عند أقدامهم صبية وفتيات يبدو أصغرهم لا يتجاوز سنتان من عمره.. فيما تعالى صياح بعض الأطفال من جوانب أخرى من القرية..

ظل إيار مذهولاً يراقب سكان هذه القرية الغريبة، والتي لا يرى بينهم من يماثله أو يتجاوزه في العمر.. فكيف تعيش هذه الجماعة من الأطفال وحيدة وبمنأى عن أي غرباء قد يعيثون في القرية فساداً؟.. وإزاء نظراته المتسائلة، قالت مالو مقطبة "لا داعي لهذه الدهشة.. أين كنت تعيش يا هذا؟.. احمل المرأة سريعاً قبل أن تفقد المزيد من دمائها ويغدو عسيراً علينا إنقاذها.."

نهض إيار متجاوزاً ذهوله وهو يرى أحد الفتية يقترب منه ساحباً خلفه محفة محدودة الحجم.. ورغم صغر المحفة، لكن يغدو نقل المرأة باستخدامها أسهل وأقل صعوبة.. قلب إيار المرأة فوق المحفة بمعاونة مالو وصبي القرية.. ثم وجد نفسه مجبراً على سحب المحفة بمفرده بعد أن تقدمه الآخران بصمت ودون أن يعرضا عليه مساعدته..

قاوم إيار رجفة ذراعيه بعد المجهود الذي بذله لوقت طويل في حمل المرأة، وسحب المحفة التي لم تكفِ إلا لرفع نصف جسدها فيما تدلت قدماها أرضاً.. فسار بها بشيء من البطء نحو المنزل الذي أشارت إليه مالو.. بدأ الصبية والفتيات يتراكضون أمامه، ورغم العبث الذي بدا ظاهراً في وجوه الأطفال الأصغر سناً، لكن وجوه الصبية الذين يقاربون العاشرة كانت تحمل جدية غريبة عليهم وتبدو أكبر من عمرهم بعقود، وبشكل يماثل الجدية في وجه وحديث الفتاة التي استقبلته..

أرجأ إيار تساؤلاته تلك وهو يسحب المحفة داخلاً لأحد المنازل البسيطة في جانب تلك القرية، واقترب

بها من أحد الأسرة في غرفة من غرف المنزل.. عندها وبجهد كبير استطاع نقل المرأة إلى السرير الذي كان لحسن حظه منخفضاً يناسب الأطفال الأقصر طولاً..

ارتمى إيار على كرسي جانبي وهو يلهث بتعب، بينما أسرعت مالو تحضر عدة ملائمة لمعالجة جرح المرأة، وبدأت عملها بصمت.. ومن النافذة القريبة، كان إيار يستطيع رؤية النظرات الفضولية لبعض الصبية والفتيات وهم يراقبون ما يجري.. ولما بدأت مالو برفع قميص المرأة والتهيؤ لعلاج جرح خاصرتها، نهض إيار مرغماً وقام بإسدال الستائر على النافذة ليكف الأعين التي لا تخفي فضولها.. ثم نظر لعمل مالو التي ضغطت على موضع الجرح بقوة بقطعة قماشية لتوقف نزف الدماء ولتنظيف موضع الجرح منها.. فلم يملك نفسه من التساؤل "أأنت واثقة أنك تعرفين ما تفعلينه؟"

قالت مالو بحنق "أنا لست طفلة حتى لو كان شكلي يوحي لك بذلك.."

غمغم إيار بغير اقتناع "كيف يمكنني تصديق ذلك؟"

تنهدت مالو وهي تقوم بتنظيف الجرح بعناية، ثم قالت "ألم تسمع قط عن (الشنّ)؟.."

فكر إيار للحظات ثم قال "لا.. لم أسمع عنهم قط.."

قالت مالو بضيق "أين كنت تعيش طوال عمرك؟"

غمغم إيار "في كهف منعزل وسط جبال غير مأهولة.. أنت تدركين أن التنين معزول عن بقية العالم بسبب وحشيته وخطورته على سكان القرى.. ولأني أخاه الوحيد، كان عليّ البقاء معه وضمان سلامته وسلامة أهالي القرى منه.."

تمتمت مالو "أجل.. لقد سمعت عن ذلك من الحكيم.."

ثم قالت وهي مستمرة بعملها "شعبنا يعيش حياة عادية منذ الولادة وحتى بلوغ العاشرة من العمر.. وبعدها، يتجمد جسده في ذلك العمر لسنوات وعقود طويلة.. قد يقضي أحدنا ثلاثين أو أربعين سنة بهذا الشكل والصورة ما شاء له أن يبقى.. ولكن، عندما يتجاوز أحدنا هذا العمر ويبلغ سن الرشد بإرادته، فهو مجبر على مغادرة القرية دون عودة.. لذا ترى هذه القرية تخلو من البالغين.. ولا يسكنها إلا من يبدون بهيئة أطفال ليقوموا بالعناية بالأصغر سناً منهم عندما يجلبهم أحد البالغين للقرية.."

تساءل إيار بدهشة "وما الذي يجبر من يبلغ سن الرشد منكم على مغادرة القرية؟"

قالت مالو "تلك قوانيننا.. وهو أمر نلتزم به حرفياً ولا نخالفه.."

ثم نظرت له بنظرة حادة مضيفة "وهكذا، يمكنك أن تتأكد أنني أكبرك سناً بعشرات السنين على الأقل.. لذا عليك معاملتي بالاحترام الواجب.."

ابتسم إيار بشيء من العجب دون أن يعلق.. من الصعب مطالبته بفرض الاحترام وهي لا تكاد تتجاوز نصف طوله.. لكنه رغم ذلك ممتن لها لما تفعله.. وممتن لأنها لم تتساءل عما أصابهما وما دفعهما للجوء لهذه القرية هاربين..

زفر بشدة وهو يسترخي في كرسيه بتعب.. هل بقاؤهما هنا آمن بما فيه الكفاية؟.. هل عليه الرحيل فور استيقاظ المرأة؟.. لا يدري حتى متى سيستمر أولئك الصيادون في مطاردتهم لهما، ولا يدري ما جرى لأخيه في الأيام الماضية.. عليه أن يرحل بأسرع ما يمكن، عسى أن تكون الأمور على ما يرام هناك حتى عودته.. ورغم ترديده لهذه الفكرة بتكرار، لكن لم يسعه إلا أن يغلق عينيه بتعب بالغ وهو يرجئ تنفيذها لوقت آخر.. بعد أن يحظى براحة قصيرة فقط..

وقف رئيس مدينة الصيادين بطوله الفارع وجسده الضخم وعضلاته البارزة وهو يتأكد من محتويات حزامه وحقيبته ويزيد مؤونته من الطلقات والسهام.. ثم نظر لرجل اقترب منه حيث وقف قرب منزله وبادر بسؤاله "هل قمتم بتجهيز القوارب؟"

هز الرجل رأسه إيجاباً وتيدار يلاحظ أن الرجل بكامل عتاده واستعداده، فقال تيدار بحزم "هذا جيد.. لا بد أن تلك الحقيرة قد هربت مع أخي التنين لإحدى القرى القريبة على الجانب المقابل من النهر.. سننقسم لفريقين، فريق يتوجه للشرق والآخر يتجه للغرب بمحاذاة ضفة النهر.. سنطاردهما حتى نعثر عليهما، فبجراحٍ كالتي حصلت عليها سولينا لن يمكنها الابتعاد عنا كثيراً.."

قال الرجل "أمر الطريدة مفهوم، فماذا عن سولينا؟.. ما الذي نفعله بها؟"

أجاب تيدار بسرعة "اقتلوها طبعاً.. وهل هذا بحاجة لسؤال؟"

فقال الرجل بتردد "ألا يجب أن نعيدها للمدينة لتلقى جزاءً يناسب خيانتها؟"

علق تيدار مقطباً "وهل هناك جزاء يناسبها أكثر من القتل؟.. لا أحب تكرار أوامري يا هذا، فلا تدفعني لذلك.."

لم يعلق الرجل وهو ينتحي جانباً، فسار تيدار عابراً المنازل القريبة نحو النهر والميناء المزدحم التابع للمدينة، عندما استوقفه أحد رجاله الذي اقترب منه صائحاً "مهلاً يا زعيم.. لدي بعض الأخبار لك.."

توقف تيدار مقطباً، فيما اقترب منه الرجل قائلاً بانفعال "هناك رجلٌ قدم إلينا منذ قليل، حاملاً عرضاً لا يمكن تفويته.."

قال تيدار بسرعة "أوكل أمره لأحد الرجال، فلا حاجة بي لإيقاف البحث عن أخي التنين لأجل أي أمر.."

أجاب الرجل بحماس "لكن العرض يخص التنين ذاته.."

توقف تيدار مفكراً للحظات بدهشة، فيما أشار الرجل لآخر خلفه وهو يضيف "سيزداد حماسك لهذا العرض عندما تسمعه يا زعيم.."

رأى تيدار رجلاً غريباً يتقدم منه بطلب الرجل الآخر، فبدا ظاهراً على هذا الغريب وضاعة الحال بملابس بسيطة تبدو خاصة بالمزارعين، وبقبعة بالية يمسكها بيديه بتوتر عارم، وهو ينتعل صندلاً من القش بالي الحال.. نظر تيدار بشيء من الاستياء وكأنه يستنكر أن يأتي رجل مثله بعرضٍ يغريه ويقنعه بالكف عن مطاردة أخي التنين.. وتساءل بشيء من الضيق "حسناً.. ما عندك يا هذا؟"

قال الغريب بتوتر أكبر مع مرأى تيدار بضخامته وبجرح وجهه الذي يغطي عينه اليسرى دون أن يعبأ بتغطيتها، وبصوته الخشن الذي زاده قلقاً "أنا من قرية تابا، وهي قرية مزارعين كما تعلم.. وقد أرسلني عمدة القرية إليك بطلب وعرض مهم لا يحتمل التأجيل.."

وإزاء نظرات تيدار نافذة الصبر، أضاف الغريب بسرعة وتوتر أكبر "لقد ثار التنين وخرج من وكره وسط الجبال، وبدأ يعيث فساداً في القرى القريبة منا وفي قريتنا منذ بضع ليالٍ.. وقد دأب على فعل ذلك كل ليلة دون توقف مسبباً الكثير من القتلى والجرحى، وحرق المزارع والبيوت دون تمييز.. وقد....."

قاطعه تيدار بصبر معدوم "وتريدون منا الخلاص منه.. أدرك ذلك بالطبع.. فاختصر.. ما هي المكافأة؟.."

ازدادت حركات الرجل عصبية وهو يفرك قبعته مراراً وتكراراً وقال "عمدة قريتنا قد اجتمع مع زعماء القرى القريبة، وقد قرروا اللجوء إليكم.. والمكافأة ستكون جوالاً مملوءاً من العملات الذهبية.. وآخر

مثله من العملات الفضية.."

كان عرضاً مغرياً بشدة، خاصة أن القضاء على التنين سيمنح الصيادين الفرصة لبيع أعضائه وأجزاء جسده بأضعاف ذلك المبلغ دون اعتراض من أحد.. لكن تيدار الذي اعتاد على الحصول على أكثر مما يقدِّم قال بحزم "ومعها عشرة أجولة من القمح وعشرة أجولة من الأرز.."

اتسعت عينا الغريب باستنكار واضح.. لا بد أن رئيس الصيادين يدرك أن حرق حقول المزارعين يعني تقلص مواردهم بشكل رهيب، ويعني أن ما معهم لا يكفي لملء أفواه أطفالهم، ولا يكفي قطعاً لمنحه مكافأة لأحد.. لكن تيدار قال بسرعة "إما هذا، وإما أن تقوموا بالخلاص من التنين بأنفسكم.."

واستدار مغادراً دون المفاصلة في الأمر.. وكما توقع، هتف الغريب بسرعة "هذا محالٌ يا سيدي.. كيف يتأتى لمزارعين الخلاص من تنين بوحشية هذا التنين.. أرجوك أن تعاوننا.."

ابتسم تيدار ابتسامة ظافرة وقال له "ونحن جاهزون للانطلاق فوراً.."

بدت الراحة على ملامح الغريب، فيما قال أحد الصيادين "وماذا عن سولينا يا زعيم؟"

أجاب تيدار وهو يغيرّ وجهته تابعاً الرجل الغريب "سيأتي أوانها لاحقاً.. الآن، أمامنا مهمة أكبر لن تتكرر مرة أخرى.."

وأضاف ضاحكاً "فهذا هو التنين الأخير بالفعل.."

الفصل السابع : التنين الأخير

لم يستغرق الصيادون بقيادة رئيسهم وقتاً طويلاً في الوصول للقرى المنكوبة بثورات التنين.. فمع انتصاف ذلك اليوم، وصلت ستة قوارب متوسطة الحجم تحمل على ظهرها عدداً من الصيادين لا يقل عن خمسة عشر بعدتهم وعتادهم.. وفور رسوّ قواربهم لضفة النهر قرب إحدى القرى، سارع تيدار للقفز من القارب والسير على الأرض الطينية التي لطخت حذاءه الجلدي، فيما أسرع الرجل الغريب يتبعه متقدماً إياه بعدة خطوات وهو يقوده لمنزل عمدة تلك القرية.. كان الخراب واضحاً في جوانب تلك القرية، بينما بدا عند الأفق دخان أسود دليل على حريق لم يتم إطفاؤه بعد..

هرع الغريب بقلق كبير وهو يقول "عليكم أن تسرعوا يا سيدي.. مع مغيب شمس كل يوم، فإن التنين يبدأ هجومه على القرى متخيراً قرية جديدة كل يوم.. ولا ندري إن كان سيهجم علينا هذه الليلة أم لا.."

قال تيدار بثقة "لا عليك يا هذا.. لن يحدث ذلك هذه المرة.."

زرعت ثقة رئيس الصيادين بعض التفاؤل في الرجل الغريب، فتقدم وهو يقود تلك الجماعة عبر طرقات القرية.. فعلق رئيس الصيادين وهو يتأمل جوانب القرية بابتسامة "يا لها من قرية جميلة وهادئة.. لقد أعجبني هدوؤها واتساع طرقاتها فيما يخالف ما نراه في مدينة الصيادين.."

لم يعلق الرجل الذي يقودهم لمنزل عمدة القرية، لكنه لم يملك التوتر الذي غزاه لهذا القول.. لم يكن الصيادون يتحلّون بطباع حسنة.. بل كانوا يثيرون الرعب والتوتر في كل موقع يحلون فيه.. كان إحضارهم سهلاً، لكن التخلص منهم بالغ الصعوبة.. فوجود مدينة كاملة تمتهن الصيد وتتقن فنوناً لا يتقنها غيرها من القتال يجعلها أشبه بكتيبة حربية تخيف كل من يفكر في مقاومتها.. فما الذي سيجري لو استطاب الرئيس البقاء في هذه القرية وقرر السيطرة عليها؟.. لن يتمكن رجال القرية كلهم من طرده منها، ولن يجدوا عوناً لهم من القرى الأخرى..

مشى تيدار بخطوات واسعة مهيمنة وسط طريق القرية وهو يجذب الأنظار إليه بشدة بضخامته وشكله الغريب، فيما دار تيدار ببصره حوله بثقة بالغة وهو يغمز بعينه لإحدى الفتيات التي كانت تراقبه

مدهوشة.. فارتاعت الفتاة وهي تسرع للاختباء في منزلها، فيما علق أقرب رجال تيدار على ما جرى "لا يمكنك أن تتوقع ألا تفزع الفتيات لمرآك عندما تغمز لهن وأنت لا تملك إلا عيناً واحدة.."

قال تيدار بابتسامة "أتظن أنني أعبأ لخوفهن مني؟.."

استدار القروي إليهم في تلك اللحظة قائلاً "هذا هو منزل عمدة القرية.. وهو سيستقبل رئيس الصيادين فيه.."

لم يعترض بقية الصيادين وهم يتوزعون في الساحة القريبة من ذلك المنزل، فيما دلف تيدار خلف القروي وهو يحني رأسه ليتجاوز الباب المنخفض شيئاً ما مقارنة بطوله الفارع.. ثم وقف وسط المنزل يتأمله بشيء من الامتعاض الواضح.. كان المنزل رغم وضاعته، يبدو واسعاً ومريحاً بأثاث بسيط وغير مزدحم بالمعدات وآلات الصيد كما تكون منازل الصيادين.. ولم يتمكن تيدار من كبح نفسه عن إجراء مقارنة بين هذه القرية وتلك المدينة، وبين هذا المنزل وذاك..

ولما ظهر أمامه عمدة القرية، نظر له رئيس الصيادين وهو يقول بصلافة "إذن؟.. ما هو الاتفاق بيننا؟"

نظر له العمدة بتوتر واضح، وقال "لقد أخبرني الرجل الذي أرسلته إليكم عن العرض الذي عرضته عليه.. هذا العرض جائر لنا، فأغلب ما نزرعه يسدّ أفواه أهل القرية بالكاد، ولا نكاد نجد ما نبيعه لنترزق مما نحصل عليه.."

قال تيدار بجفاء "لقد كان هذا عرضي.. لو لم تقبلوه فلمَ جعلتموني أضيّع وقتي بالقدوم هنا؟.. قدومي مع رجالي ليس مجانياً يا هذا.."

زفر العمدة وقال "أدرك ذلك.. لكن لا يسعني إلا أن أقبل بشرطك هذا.. فما نواجهه أشد خطورة بالتأكيد.."

ابتسم تيدار بظفر، ثم قال "أخبرني بكل ما جرى من هجوم التنين في الليلتين الماضيتين.. أريد أن أعرف كل التفاصيل صغيرة أم كبيرة.. والليلة.. سنخلصكم من هذا التنين للأبد بكل تأكيد.."

واتسعت ابتسامته بظفر وثقة شديدين..

لم يدرك إيار أنه غرق في نوم عميق مع التعب الشديد الذي أنهكه، ولم يدرِ أنه بقي غارقاً في النوم يوماً كاملاً حتى سمع صوتاً خافتاً قريباً منه.. انتبه إيار بشيء من السرعة، فهو يملك أذنين حساستين، وجلس في الكرسي الذي كان نائماً عليه متلفتاً حوله بحثاً عن مصدر ذلك الصوت.. لاحظ الظلام الذي كان يغلف الغرفة بشكل دامس، فأدرك أن ساعاتٍ عدة قد مرت منذ غربت شمس ذلك اليوم.. رأى دثاراً وضع على جسده لبعث بعض الدفء في أوصاله، فيما سكن كل شيء حوله..

تلفت حوله بعد أن اعتادت عيناه على الظلام، وهو الذي يملك قدرة على الرؤية بشكل واضح مهما كان المكان مظلماً بفضل عينيه اللتان تملكان قدرات التنانين ذاتها.. وعلى السرير القريب، رأى المرأة التي كانت مستلقية عليه وهي تنثني جانباً وتئن ببعض الألم.. كانت بطولها تتجاوز طول ذلك السرير الصغير، وظلت قدماها متدليتان منه مما اضطر الفتاة التي باشرت جراحها لوضع كرسي قرب نهاية السرير لمنحه طولاً يناسب المرأة..

نهض إيار من موقعه واقترب من المرأة متسائلاً "أأنت بخير؟.. هل تؤلمك جراحك؟"

نظرت له المرأة بطرف عينها عابسة ودمدمت وهي تضغط على الجرح في خاصرتها "أين أنا؟.. ما الذي فعلته بي؟.."

أجاب إيار "لقد هربت بك من تلك المدينة ولجأت للقرية على ضفة النهر المقابلة لعلاج جراحك.."

قالت بتقطيبة أشد "هل قمت بعلاج جرحي أم أنك أغرقته بالسمّ؟"

قطب إيار مجيباً "بل عالجته بالفعل.. في الواقع ليس أنا من فعل ذلك، لكن قامت بذلك طفلة من هذه القرية.."

عضّت المرأة شفتها السفلى بقوة، ثم قالت بحنق "طفلة؟.. أتمزح يا هذا؟"

سمعا صوتاً غاضباً من خلفهما يقول "أنا لست طفلة.."

نظرا خلفهما إلى مالو التي تقدمت من المرأة حاملة سراجاً أضاء الغرفة شيئاً ما.. فقالت الصيادة باستياء "هل تعرفين ما تفعلينه حقاً؟"

لم تجبها مالو وهي تضع السراج جانباً وتتقدم لتتفحص الجرح بصمت، فيما أضافت الصيادة دون أن يخفت استياؤها "ربما لو ناديتِ شخصاً بالغاً سيكون ذلك أفضل لي.."

فقال إيار "لا يوجد بالغون في هذه القرية.. هذه قرية الأطفال.."

علقت مالو بحياد "بالأحرى، هذه قرية (الشنّ).. وجرحك ملتهب.. عليّ معالجة الالتهاب قبل أن يسوء كثيراً.."

لم يبدُ على الصيادة أي اندهاش وهي تسمع اسم هذه القرية، بل علقت بتقطيبة "لو أنكِ عالجت جرحي بطريقة أفضل، لما التهب بهذه السرعة.."

قالت مالو "ليس الخطأ في علاجي.. ربما تلوث الجرح قبل أن تصلي إليّ، وهذا سبب لك التهاباً حاداً لا يمكن أن يحدث بتلك السرعة بجرح عادي.. انتظري، سأعود لتنظيف جرحك بشكل صحيح.."

غادرت تاركة الصيادة التي لا تخفي ألمها الشديد، فيما علق إيار "كان عليك شكرها على الأقل.. فهي لم تكن مجبرة على استضافتنا وعلاجك بتاتاً.."

أغمضت المرأة عينيها بقوة وهي تقول بصوت ينضح ألماً "ألا ترى أي ألمٍ أقاسيه؟.. أهذا وقتٌ ملائمٌ لتقديم آيات الشكر والامتنان؟"

غمغم إيار وهو يجلس جانباً "ورغم ذلك، يمكنك التذمر بكل سهولة بلسانك السليط هذا.."

صمت للحظات وهو يسمع تأوه المرأة، ثم وجد نفسه يتساءل بتردد "لماذا غامرتِ بكل ما تملكينه لإنقاذي؟"

قالت المرأة متألمة "لم أكن أملك شيئاً بالفعل.. فهم قد جردوني من كل ما كنت أملكه.."

قال إيار وهو يعتدل جالساً "لكن ما الذي ستستفيدينه من إنقاذي؟.. أنتِ حتى لا تقدرين على العودة لمدينتك دون أن يتم قتلك.."

أجابت بسخرية "ومن قال إنني أعبأ لأمر هذه المدينة التي تفضّل بيعي مع العبيد عن إعادة ما هو حقٌ لي؟.. لقد قررت بالفعل أنني أريد الانفصال عن مدينة الصيادين وعن قوانينهم، وتهريبك هذا سيشعل تيدار غيظاً بعد أن فقد هذه الغنيمة، وهذا من أكثر الأمور إسعاداً لي في الوقت الحالي.."

ظل إيار يستمع لها بحيرة.. هل تتناسى الشهر الماضي الذي قضته في العراء تلاحقه لأجل السخرية من رئيس قريتها؟.. هل تفعل هذا لأن الكيل قد فاض بها فعلاً؟.. أليس لها هدفٌ آخر من هذا؟..

عادت مالو بعد وقت قصير وباشرت علاج المرأة بصمت، فيما استلقت المرأة وهي تحاول كتم أنينها مع

الألم الشديد الذي تشعر به.. أما إيار، فقد استلقى على الكرسي الجانبي وهو يحدق في السماء السوداء التي تبدو بوضوح من النافذة القريبة.. كان قد استعاد شيئاً من نشاطه، وهو معتاد على النشاط الليلي بحيث يشعر بالراحة للطيران ليلاً أكثر منه نهاراً.. فهل يرحل الآن عائداً لبيته؟.. لقد أمضى عدة أيام غائباً، ولا يدري ما حلّ بأخيه في تلك الأيام.. لكنه رغم ذلك يأمل خيراً..

زفر للحظة، ثم التفت إلى مالو التي كانت تلف الجرح بإحكام، وقال "هل يمكنها أن تبقى معكم لعدة أيام حتى يبرأ الجرح بشكل جيد؟.."

أجابت مالو "لا أظن أننا نمانع ذلك، لو لم يجلب لنا وجودها المشاكل.."

ونظرت للمرأة مضيفة "مهما كان ما سبب لك هذا الجرح، فلو كان سيؤثر بقريتنا الهادئة، فأنا أفضل أن ترحلي عنها مع طلوع صباح الغد.."

اعترض إيار بضيق "كيف يمكنك طردها بهذه الصورة وبجرح كهذا؟"

كان دور المرأة لترد قائلة "لا شأن لك بما يجري لي يا فتى.. هل تنوي الرحيل؟.. إذن ارحل ولا تلتفت للوراء.."

نهض قائلاً بشيء من الحدة "اسمي إيار.. أخبرتك ألا تطلقي عليّ ألقاباً لا أحبها.."

نهضت المرأة جالسة وتأملت الجرح بصمت، قبل أن تغطيه بملابسها وتقول "لا بأس.. هذا أفضل.."

تأفف إيار من جديد وهو مدركٌ أن تلك المرأة لا تستطيع التلطف بأي كلمات، فيما لمّت مالو أغراضها وقالت وهي تغادر "أتمنى أن تكوني أفضل حالاً في الصباح لتتمكني من المغادرة دون مشقة.."

لم يستطع إيار الاعتراض هذه المرة، فاستدار بدوره مغادراً وقد عقد عزمه على تناسي ما يجري لهذه المرأة، عندما سمعها تقول "لا تسقط مرة أخرى في أيدي الصيادين يا إيار.."

التفت إليها بدهشة لأنها نادته باسمه هذه المرة، وعلق قائلاً "أنتِ الوحيدة التي تملك الحماسة الكافية لملاحقتي شهراً كاملاً.. من الخسارة أن جهودك تلك باءت بالفشل، لكني أتمنى ألا أراك مرة أخرى.."

ابتسمت المرأة ابتسامة باهتة وقالت "هذا ما أرجوه أنا أيضاً.. لكني لا أستطيع إلا أن أشكرك على إنقاذ حياتي.. وبالمناسبة، اسمي سولينا.."

ابتسم إيار بدوره قائلاً "أهذا يعني أنك لم تعودي تعتبرينني طريدتك؟"

أجابت سولينا "لا.. لا يمكنني اعتبارك كذلك بعد الآن.."

هز إيار رأسه معلقاً "هذا جيد.."

ثم استدار مغادراً وهو يضيف "عليّ الرحيل.. فقد تأخرت بما فيه الكفاية.."

لم تعلق سولينا وهي تتلمس موضع الجرح الذي لم يبرح يؤلمها، ثم عادت تستلقي في سريرها وهي تغمغم "علي الحصول على بعض الراحة قبل أن تطردني تلك المأفونة الصغيرة.."

في تلك الأثناء، كان إيار يقف عند باب المنزل يتأمل القرية الصغيرة الغافية، ثم فتح جناحيه ورفرف بهما مستشعراً بعض الألم فيهما لما سبق من أحداث في اليوم السابق.. ثم ارتفع دون إبطاء ودار دورة في السماء ملاحظاً مالو التي وقفت قرب إحدى النوافذ تراقب ابتعاده، قبل أن يوجه نفسه نحو الشرق ونحو الجبال الشاهقة التي تشكل جداراً عالياً عند الأفق.. لقد طال غيابه عن بيته، وحان أوان عودته أخيراً.. فهل ستنتهي هذه المغامرة التي جرت له دون عواقب؟..

ولم يدرك إيار أنه، في تلك اللحظات بالذات، كانت تتم أكبر عملية صيد قام بها الصيادون في السنوات الخمس الأخيرة..

عملية صيد التنين الأخير..

بعد أن تكرر الصياح للّيلة الثالثة على التوالي، ارتجف سكان القرى الزراعية من جديد وهم يتوجسون شراً بشكل لم يتمكنوا من السيطرة عليه.. لكن في هذه المرة، أنصت السكان للصياح من مكان آخر بعيد تماماً عن القرى التي أمست خواءً لا روح فيها.. ظهر التنين في تلك الليلة المظلمة وهو يحلق في السماء قريباً من النهر وصياحه يتكرر عدة مرات بتتابع وانزعاج تام.. كان في كل ليلة يبدو أكثر عصبية وغضباً، ويُظهر وحشية أكبر مما سبق.. وفي كل مرة يدور في بعض القرى وكأنه يبحث عن أثر أو استجابة لصياحه من إيار الذي اختفى تماماً دون سبب مفهوم..

لكن رغم الرعب الذي شعر به سكان القرى، فإن ذرة من ذلك الذعر لم تتسلل لقلوب الصيادين الذين توزعوا في مواقع استراتيجية من هذه القرية.. فبالنظر لمواقع القرى والقريتين اللتين تعرضتا للهجوم

سابقاً، كان قرار تيدار أن هذه القرية هي التالية على الأغلب.. ولو خاب ظنه فسيضطر للانتظار ليلة أخرى، أو الركض دون هوادة نحو موضع الهجوم الجديد، وهو أمرٌ مستحيل تقريباً.. لكن التنين لم يخيّب ظنه بتاتاً، وها هو يطير بشكل منخفض فوق هذه القرية وصيحاته تهزّ المكان بقوة..

لم ينتبه التنين للهدوء الشديد الذي ساد القرية تحته، لكنه انتبه عندما بدأت السهام تتطاير بغزارة نحوه رغم أنها أطلقت بصمت تام.. رفرف التنين وهو يلطم بعض تلك السهام بجناحه ونفث النيران حارقاً ما بقي منها قبل أن يمتد باللهب حتى الموضع الذي أطلقت منه النيران.. لكن الصيادين الذين كانوا يقبعون في جوانب أسطح المنازل بتحفز قد سارعوا للقفز دون تردد متخذين سبلاً للفرار تم التخطيط لها من قبل.. فالصياد لا يترك شيئاً للمصادفة، وقبل الهجوم فإنه يمسح المنطقة حوله ويخطط لهجومه وهروبه كذلك بأسهل وأسرع الطرق..

وجد التنين الذي لا حق الرجال بنيرانه أن هجوماً آخر قد استهدفه من جانب آخر من القرية.. إذ سمع صوت طلقات متتالية من ذلك الجانب، ولما استدار برأسه إليها فوجئ بعدد كبير من الشباك تندفع نحوه فترتطم به وتحيط جسده وجناحيه بحيث عجز للحظات عن الطيران.. فهوى التنين بسرعة إلى الأرض التي لم تكن بعيدة عنه، وسقط زاحفاً وسط الساحة قبل أن يرتطم بمنزل من منازلها أوقف اندفاعه.. أطلق التنين صيحة غاضبة وهو يتخبط في موقعه محاولاً الإفلات من الشباك، فيما سُمع تصايح الصيادين الذين هرعوا لذلك الجانب لإتمام ما بدؤوه.. لكن التنين الذي اشتعل غضبه أطلق النيران بقوة من فمه فذابت الشباك التي تحيط به لقوة اللهب واشتعل ما بقي منها وهو يتهاوى.. فنفض التنين الشباك المحترقة عن جسده وخطا خطوتين بقدميه الكبيرتين وهو يصرخ بغضب شديد..

وقبل أن يصل الصيادون إليه كان التنين قد ارتفع عالياً من جديد وهو يدور دورة حول الموقع متأهباً لهجوم جديد.. فقال أحد الصيادين بسخط "كان علينا أن نحضر شباكاً حديدية لا يتمكن هذا التنين من تذويبها.."

علق تيدار بحزم وهو يربت على كتفه "لم نكن نملك الوقت الكافي لتجهيز عددٍ كافٍ من تلك الشباك.. والآن، لننفذ الجزء التالي من الخطة.."

تراكض الرجال نحو جهة من الجهات وتوزعوا حسب الخطة، فيما صاح بهم تيدار "أطلقوا السهام المخدرة

بغزارة.. لو أصابه سهم واحد منها، فقد تنقلب الأمور لصالحنا عندها.."

وقف ستة رجال على سطح ثلاث منازل في تلك الجهة القريبة من الغابة، وبدؤوا بإطلاق السهام نحو التنين بأسرع ما يمكنهم، فلم يتوانَ التنين عن الخلاص من ذلك الهجوم بنيرانه التي اندلعت من حلقه وتجاوزت الأمتار الفاصلة بينه وبين المهاجمين.. عندها تراكض الرجال قافزين من أسطح المنزل عبر الأجزاء البارزة من النوافذ والمظلات في حركات بهلوانية سريعة.. وفي الآن ذاته، تكرر الهجوم عبر البنادق هذه المرة من الحقول القريبة من الغابة، فتفادى التنين الطلقات بالارتفاع عالياً قبل أن يهبط هبوطاً حاداً نحو الحقول ويحرقها بنيرانه.. كان غضب التنين يزداد مع هذا الهجوم الذي لم يشهد مثله قط، فعلق تيدار وهو يتراجع مع رجاله عن الحقول ونحو الغابة "هذا رائع.. دع طبيعتك الحيوانية تسوقك، وهاجمنا دون تفكير كما يجب بحيوانٍ مغيّب العقل أن يفعل.."

قال أحد رجاله بقلق "هل يمكننا التغاضي عن الدمار الذي حل بهذه الحقول؟.."

أجاب تيدار بسرعة "لقد استأجرنا المزارعون للخلاص من التنين، لا لحماية حقولهم.."

تراجع نصف الرجال نحو الموقع الجديد، بينما انشغل النصف الآخر بمناوشة التنين بأسلحتهم وسهامهم، وكلما هربت فرقة من هجوم التنين العاتي، بدأت الفرقة التالية هجومها وهم يقودونه عبر الغابة كثيفة الأشجار، فيما التنين يلاحقهم من فوق غطاء الأشجار محاولاً الوصول إليهم بكل وسيلة ممكنة.. كان الهجوم المتعاقب قد بدأ ينهك التنين، فبدأ يقلل من نفث نيرانه وازدادت صرخاته حنقاً وغضباً مع فشله في الخلاص من هذه الشرذمة..

وفي لحظة ما، توقف التنين عن نفث نيرانه وهو يكتفي بالهجوم العنيف بجسده وجناحيه ولطم ما يمكن لطمه بذيله.. عندها صاح تيدار "يبدو أنه لا يقدر على نفث النيران.. قفوا في مواقعكم ولا تهربوا.."

كانوا قد وصلوا لموقع مدروس في الغابة في جزءٍ تنكشف الأشجار عنده مكونة ساحة محدودة، فوقف الرجال طاعة لأمر زعيمهم، وبدؤوا في إطلاق سهامهم المخدرة نحو التنين الذي ضرب الأشجار القريبة بذيله محاولاً إسقاطها على رؤوس الرجال.. ظل يطير في موضع منخفض وهو يضرب الأشجار بين فينة وأخرى، لكن الصيادين تفادوا سقوطها على رؤوسهم بخفة وهم يتراجعون نحو الغابة التي سرعان ما ظللتهم تحت أشجارها الكثيفة من جديد..

لم يجد التنين بداً من الانخفاض وسط الساحة وهو يحاول الوصول إلى الرجال المتسللين بين الأشجار، وضرب بذيله ذلك المكان محاولاً الإطاحة بهم.. لكن الرجال تراجعوا تراجعاً مدروساً دون أن يحاولوا إصابة التنين الذي اقترب منهم وجهاً لوجه.. وعوضاً عن ذلك، جاء الهجوم من الجهة الجانبية حيث وقف عدد أكبر من الرجال يحملون ما يشبه الأقواس كبيرة الحجم، وإن كانت سهامها مختلفة بعض الشيء.. فتلك السهام كانت أكبر من المعتاد، ورؤوسها الحديدية عريضة وتنقسم لثلاث أقسام في المقدمة بأطراف حادة كالكُلاّب، وكل سهم مربوط بحبل متين يصعب قطعه.. وقبل أن ينتبه التنين لوجود الرجال في ذلك الجانب، كانوا قد أطلقوا سهامهم بتزامن واحد، فبينما حاول بعضهم إصابة التنين بهذه السهام، قام بعضهم بتصويب السهام لموقعٍ يعلو موقع التنين بحيث سقطت في الجانب الآخر منه.. بدأت الحبال تحيط بالتنين بتتابع، فيما سقطت بعض تلك السهام على ظهره الحرشفي، ورغم أنها لم تتمكن من الغوص في جلده لكنها انطوت بسرعة فائقة حول جناحيه وبعض البروز في ظهره ليشتبك رأسها الحديدي بالحبل مع انطوائها بشكل محكم يصعب فكه..

بدأ التنين يجد نفسه مجبراً على الانخفاض رغم محاولته التخلص من تلك الحبال، فيما شدّت جماعة أخرى من الرجال تلك الحبال التي سقطت في الجانب الآخر، وسارعوا لتثبيتها في أكبر الأشجار القريبة منهم.. وفعل الرجال في الجانب الأول الأمر ذاته بالطرف الآخر من الحبال.. وهكذا وجد التنين نفسه محاطاً بعدد كبير من الحبال المتينة التي تضافرت معاً بحيث غدا قطعها عليه مستحيلاً.. نفض التنين جسده بقوة محاولاً التحليق أو التخلص من تلك الحبال، لكن محاولاته باءت بالفشل وهو يجد نفسه مرغماً على السقوط بعد أن شدّ الرجال الحبال التي تقيّد جناحيه بحيث عجز عن تحريكهما.. فكانت سقطته قوية وسط تلك الساحة والصوت يعلو كدويّ عشرات المدافع، فيما ثار الغبار في المكان مغطياً الساحة لعدة لحظات.. وبعد أن اتضحت الرؤية شيئاً ما، تعالت صيحات الصيادين الظافرة لرؤية التنين المقيّد بعشرات الحبال وقد سقط في أيديهم أخيراً..

اقترب تيدار من التنين الذي انتفض بشيء من التعب محاولاً الخلاص من قيوده، وقال بظفر وفخر "حتى كائن بعظمتك، لا يمكن ألا يركع عند قدميّ.."

ورفع بندقيته مصوباً إياها لجبهة التنين الذي خفتت حركته لاهثاً والهواء الساخن يخرج من منخريه بقوة،

لكن أحد معاوني تيدار قال باعتراض "لا ندري ما تأثير الرصاصة على رأسه، قد تتفجر لها عيناه.. أنت تعلم أن حدقتي التنين مطلوبتان بسعرٍ غالٍ في بعض الأوساط.."

غمغم تيدار وهو يضع البندقية على كتفه "معك حق.."

استخرج خنجره ورفعه بقبضته القوية، ثم أهوى به على مقدمة رأس التنين، لكن الخنجر انكسر مع الضغط الشديد دون أن يتمكن من اختراق جلد التنين بحراشفه السميكة.. وفي المقابل، ثار التنين وانتفض بقوة لاطماً تيدار برأسه ورماه أمتاراً عدة للوراء.. تكالب الرجال على الحبال التي تربط التنين لئلا يتمكن من الفكاك منها، بينما صاح تيدار بغلّ "اقتلوه بأي طريقة كانت.."

فصاح معاونه بدوره "لا تستخدموا الرصاص، اضربوه بالخناجر في مواضع مختلفة وتجنبوا أي موضع ذا أهمية لنا.."

انشغل خمسة رجال بتثبيت التنين، بينما قام البقية باستخراج خناجر وسكاكين وبعض السيوف وهم يتوزعون في عدة جوانب قرب التنين الذي هدأ قليلاً دون أن تخفت حركته المضطربة.. وبإشارة واحدة، قام الرجال بضرب التنين ضربة رجل واحد في أجزاء متفرقة من جسده وكل فرد يودِع ضربته أقوى ما يملك.. ارتدت معظم الضربات دون فائدة تذكر، والتنين يطلق صرخة غاضبة صمّت آذان الرجال، وينتفض بعنف حتى كاد يفلت من قيوده.. تعالى السباب من الرجال وهم يحاولون تثبيت التنين من جديد، رغم أنه لم يستسلم لهم هذه المرة وزادت مقاومته، عندما صاح أحد الرجال بانفعال "لقد تمكنت من إصابة التنين في بطنه.."

دارت الرؤوس إليه وهم يلاحظون الدماء التي ثارت من موضع الإصابة في جانب بطن التنين الظاهر لهم، حيث تنحسر الحراشف عن جلدٍ سميك لكن لا يمتلك المناعة ذاتها.. ورغم مقاومة التنين الضارية، صاح تيدار بالرجال "اضربوا بطنه حتى لا يتمكن من الفرار.."

بادر الرجال بإطاعته وهم يضربون ما يمكن أن يصلوا إليه من بطن التنين، فزادت انتفاضة التنين ضراوة وهو يصيح صياحاً غاضباً ومتألماً بشدة، وبدأت دماءة تغمر عدداً من الرجال فيما تقطعت الحبال التي تحيط بجناحيه وبدأ يرفرف بهما بقوة..

حاول الرجال إعاقته عن الهرب وذيل التنين يضرب عدداً منهم، بينما قبض التنين بأسنانه الحادة على رأس

أحدهم ورماه جانباً جثة هامدة ومخالبه تضرب ثلاثة آخرين.. استغل تيدار فجوة بين الرجال وتسلل بينهم لينقض على التنين بقوة ويغمد سيفاً حاداً يملكه في عنق التنين من الأسفل.. غاص السيف شيئاً ما في العنق العريض، لكن لم يبدُ أنه قادرٌ على قتل التنين الذي ضرب تيدار في صدره بمخلبه ورماه خلفاً.. ثم رفرف بجناحيه بكل ما يملك وارتفع عالياً رغم من تشبث به من الرجال محاولين منعه من الفرار..

تساقط الرجال من على ظهر التنين الذي حلق بأسرع ما يقدر رغم تذبذبه في الطيران، ورغم الدماء التي سالت من جراحه المختلفة ومن تحت السيف الذي لم يزل معلقاً في عنقه، وتساقطت قطراتها نحو الأرض كمطرٍ أحمر كثيف.. سقط بعض الرجال أرضاً ومنهم من كسرت ذراعه أو ساقه أو أصيب بكسور بالغة السوء في ظهره، ومنهم من سقط على الأشجار القريبة ليكون سقوطهم أهون وأقل إصابات عن غيرهم..

نهض تيدار واقفاً دون أن تبدو على ملامحه ذرة ألم، رغم الدماء التي سالت من جرح صدره العميق، ونظر حوله للرجال المصابين وبينهم بعض القتلى، ثم رفع بصره للسماء التي لم يخفت سوادها ولو شيئاً قليلاً، قبل أن يشتم بغضب وهو يحاول تحليل الموقف وإحصاء الخسائر.. بالإضافة لتقدير الخطوة القادمة التي يجب أن يتخذوها للحاق بالتنين وقتله قبل أن يستعيد قواه ويعودوا لنقطة الصفر من جديد..

عندما استيقظت سولينا فجر اليوم التالي، نهضت من فورها ومطّت جسدها محاولة استعادة بعض النشاط، رغم أن جرحها حديث وقد فقدت الكثير من دمائها، لكن هذا ليس غريباً على فرد من الصيادين الذين يتجاوزون جراحهم بأسرع من البرق في أحلك الأوقات وأصعبها، تجبرهم على ذلك حياتهم الصعبة في الأوقات التي يكونون فيها بعيدين عن المدينة.. وضعت يدها تتحسس الجرح المؤلم، ثم شرعت في ارتداء الأحزمة التي تخففت منها وتعليق كل أسلحتها وما تحمله معها عادة.. وبينما ارتدت حذاءها الذي نزعته عنها مالو في اليوم السابق، رأت الأخيرة تدلف الغرفة حاملة فطوراً بسيطاً وقالت فور رؤيتها "يبدو أنك ممن يحتفظون بكلمتهم رغم كل شيء.."

علقت سولينا وهي تتناول شطيرة محشوة بالجبن وبعض الخضار الطازجة "وهل يسوؤك ذلك؟"

ابتسمت مالو ابتسامة لا تحمل أي ألفة وقالت "لا.. لكني ظننت أنني سأضطر لجرّك وإجبارك على مغادرة

القرية رغم كل شيء.. كما قلت لك، وجودك غير مرحّب به البتة في هذه القرية.."

قالت سولينا بهزء "أنتم تكنّون كراهية غير عادية للصيادين.. رغم أننا لم نستهدفكم قط في كل السنوات الماضية.."

قطبت مالو مجيبة "ليست كراهية، رغم أن الود مفقود بالفعل بيننا.. لكن ما جرى البارحة قد جعلني موقنة من خطورة وجودك معنا.."

سألتها سولينا بريبة "وما الذي جرى؟"

أجابت مالو "لقد رأينا عدداً من قوارب الصيادين تسير في النهر نحو الشرق.. عليها ما لا يقل عن عشرة صيادين بعتادهم الكامل، وهدفهم مجهول حتى الآن.. رغم أنهم لم يقتربوا منا، لكني أخشى أن يحاولوا اللحاق بك بحثاً عن أخي التنين.."

صمتت سولينا وهي تمضغ الطعام ببطء مفكرة.. من النادر قيام رحلة صيد بهذا الحجم وهذا العدد من الصيادين.. فما هدفها؟.. ولِمَ الرحيل للشرق الذي لا يحوي إلا قرى المزارعين؟.. أيمكن أن يكونوا قد رحلوا بحثاً عن إيار محاولين القبض عليه من جديد؟.. لكنهم كفّوا عن مطاردتهم عبر النهر، وإيار كان في هذه القرية حتى الساعات الماضية.. فلماذا لم يقوموا بتفتيش القرى والمناطق القريبة بحثاً عنهما حتى الآن؟..

أكملت سولينا طعامها بسرعة، ثم نهضت وحملت أمتعتها قائلة "شاكرة لك ما فعلته لي يا صغيرة.."

غمغمت مالو بحنق "لستُ صغيرة.."

فقالت سولينا بابتسامة "إذن لِمَ لا تتجاوزين هذه المرحلة مادمتِ كارهة لها؟.. ألا يمكنك التحول لبالغة في غمضة عين؟"

قطبت مالو شيئاً ما دون أن تحاول التعليق على مثل هذا السؤال، فيما لوّحت سولينا بيدها وهي تغادر المنزل دون إبطاء.. تنفست الهواء النقي للحظات، ثم سارت عابرة القرية الصغيرة حتى وصلت لضفة النهر.. تأملت عبر الضفة مدينتها التي تبدو صغيرة وبلا ملامح واضحة.. ربما تكون هذه هي المرة الأخيرة التي ترى فيها ملامح هذه المدينة.. لكنها ليست آسفة على رحيلها.. لا يمكنها أن تكون آسفة، فلم تعُد تملك ما تخشى خسارته.. ولا يمكنها أن تأسف على مدينة زعيمها شخص مثل تيدار..

قلّبت بصرها في النهر شرقاً وغرباً متسائلة أين يمكنها الذهاب بعد أن أصبحت حرّة دون قيود.. لكن هذه الحرية ليست هينة بتاتاً دون أن يكون لها ظهر تستند إليه.. فهل تبقى هائمة على وجهها لما بقي لها من العمر؟..

ظلت مترددة للحظات، ثم ثبتت بصرها نحو الشرق حيث تقع الجبال الشرقية التي تبدو لها كجدار عند الأفق، قبل أن تحمل حقيبتها على كتفها وتشرع في السير بأسرع ما يمكنها متجاهلة ما تشعر به من آلام..

لم تكن المسافة الفاصلة بين قرية الأطفال وبين جبال (وكر التنين) موطن إيار طويلة، لكن إيار رغم لهفته للعودة قد اضطر للطيران بسرعة عادية لئلا ينهك نفسه أكثر مما فعل.. فهو لم يعتَدْ الطيران لهذه المسافات الطويلة، ولم يبتعد عن موطنه في تلك الجبال قط.. وبعد وقت طويل قضاه في طريق العودة، استطاع أن يلمح سلسلة الجبال تلك بشكل أكثر وضوحاً مع اقترابه منها..

في الواقع، كانت أكثر وضوحاً مع تلك النيران العظيمة التي التهمت جانباً من الغابة الكثيفة التي تقع عند سفح الجبل قريبة من بعض القرى الزراعية، والتي بدا لهيبها واضحاً مع هذه الليلة المظلمة التي لم تنقضِ بعد.. اتسعت عينا إيار بقلق واضح ورائحة الحريق الكريهة تصل لأنفه وتكاد تخنقه، لكنه حوّل اتجاهه نحوه وقد راوده شعورٌ قوي أن لهذا الحريق علاقة بالتنين على اليقين.. زاد إيار من سرعة طيرانه، حتى وصل لتلك القرية ولاحظ النيران التي اشتعلت في جانب من حقولها.. ولاحظ في الآن ذاته الدمار الذي طال الأشجار القريبة والتي سقطت أرضاً..

كان الدمار كبيراً أثار صدمة إيار وهو يدور في المكان للحظات.. هل جرى ما جرى بفعل فاعل؟.. هل للتنين يدٌ في هذا؟.. أم أن المتسبب بهذا جماعة من المرتزقة الذين يثيرون الفساد في هذه النواحي بين وقت وآخر؟..

انتبه إيار لأمرٍ ما في مكان قريب من الغابة المجاورة للحقول، فهبط أرضاً ملاحظاً عدداً من السهام وبعض الشباك وقد أهملت أرضاً.. لا يستخدم هذا النوع من السهام ولا هذه الشباك أي شخص من القرى الزراعية، فلو كان الأمر متعلقاً بفؤوس ورفوش وغيرها من الأدوات، لكان ذلك مفهوماً.. لكن هذه

السهام أشعرته بتوجسٍ لم يستطع تفسيره بشكل صحيح..

كانت حواس إيار في تلك اللحظات شبه مخدرة مع رائحة النيران القوية، وقد تعطل أنفه بشكل شبه تام بحيث لم ينتبه لتلك الأقدام التي تسللت خلفه حتى فوجئ بشيء يرتطم به فيبطحه أرضاً بعنف على وجهه.. استدار إيار مقاوماً ذلك الشخص، أو الشيء، فرأى عدداً من رجال القرية قد ظهروا خلفه والأعين تلتمع بنيران غضب وحقد لا يهدآن..

كان هذا آخر ما يبغيه في تلك الأوقات، فحاول المقاومة والابتعاد وقد أدرك أن أي حديث مع هؤلاء الرجال لن يجدي نفعاً.. لكنهم تكالبوا عليه بالفعل وربطوه بحبال غليظة خشنة، وهم يتصايحون "إنه أخو التنين.. اقبضوا عليه.."

لم يدرك إيار سبب هذا الغضب الموجه نحوه وهو قد وصل للقرية للتو.. فحاول مقاومتهم وهو يصيح "ما الذي تبغونه مني؟"

لم يجبه أحد الرجال وبعضهم يصيح "فلنقتله.. إنه يستحق الموت.."

ارتعب إيار للصياح الغاضب الأعمى من الجموع حوله، وأدرك أنه مقضيٌّ عليه في تلك اللحظات.. لكن رجلاً آخر قال بصوت جهوري أسكت البقية "لا.. فلنوكل أمره للعمدة.. ولنهتم بأمر هذه الحقول في هذه اللحظة.."

تنهد إيار بشيء من الراحة، لكن راحته لم تدُم طويلاً وهم يجذبونه بقسوة، ثم رموه في مخزنٍ صغير معتم وأحدهم يقول "لنتركه حتى يأتي العمدة ويفصل في أمره.."

صاح إيار "لِمَ تفعلون بي هذا؟.. ما الذي ارتكبته بحقكم؟"

جاءته ضربة قوية على رأسه من أحد الرجال وهو يقول بغضب "ألا تعرف بعد؟.. أم تدّعي البراءة؟"

غادروا تاركينه في سجنه الجديد، ورغم كل محاولاته لم يتمكن إيار من الفرار هذه المرة أيضاً.. ظل يستمع للصياح والصراخ خارجاً، ورائحة الحريق الذي لم يكن بعيداً عنه تكاد تخنقه، فيما تكاد الشمس تطلع على تلك القرية التي لم يهدأ ليلها أبداً في الساعات الماضية..

وبعد عدة ساعات على بدء ذلك النهار، وجد إيار أن الكثير من القرويين قد عادوا بعد أن أتمّوا إطفاء النيران في حقولهم، فيما بقيت أطراف الغابة تشتعل دون أن يقدر أحدٌ على إطفائها.. ومع عودتهم، وجد

إيار أحدهم يخرجه من سجنه بغير ترفق ويقتاده حتى ألقاه عند قدمي رجل منهم وقف مقطباً قبل أن يسأل من حوله "ما الذي يفعله هذا هنا؟"

لم يكن هذا الرجل ممن أمسكوا بإيار في الليلة الماضية، وقد بدا أن بقية الرجال يعاملونه باحترام مما أوحى لإيار أنه عمدة هذه القرية ورئيسها.. انبرى أحد الرجال قائلاً "لقد وجدناه قرب حقولنا في الليلة الماضية.. فأمسكنا به قبل أن يتمكن من الهرب.."

عاد العمدة يتساءل "لماذا؟"

قال آخر رامقاً إيار بغضب ظاهر "لننتقم منه لكل ما أصابنا.. لن يهدأ لنا بالٌ قبل أن ننتقم منه.."

قطب العمدة قائلاً بشدة "وهل رأيتموه ينفث النيران من فمه الليلة الماضية؟.. هل مد يده إلى أحدكم أو هدم بيتاً على رؤوسكم؟"

قال الرجل بشيء من التوتر "لكنه أخو التنين.. والتنين هو من دمّر قريتنا بهذه الصورة.."

ظل إيار يدير بصره بينهم بتوتر واضح.. إذن بالفعل كان كل هذا الخراب من صنع أخيه، لكن ما الذي جرى للتنين بعد ذلك؟.. سمع العمدة يقول بغضب "وما الذي ستفعلونه إذاً؟.. ستقتلونه هو ما دمتم غير قادرين على قتل التنين؟.. وماذا لو عاد التنين وعاث فساداً في القرية من جديد؟.."

قال رجل آخر بسرعة "الصيادون سيوقفونه دون شك.."

نظر لهم إيار بقلق لتلك الفكرة، فيما قال العمدة "وماذا لو فشلوا؟.. ماذا لو قضى التنين عليهم وعاد لينتقم؟.. من سيوقفه عندها؟"

وتقدم من إيار فجثا قربه وقام بحلّ قيوده، فيما صاح أحد الرجال بحنق "لكن من سيعوضنا عن كل ما فقدناه؟.. من سيتحمل إثم ما جرى لنا؟"

أجاب العمدة "كلنا في هذا الأمر سواء.. وسنعوضه معاً بمزيد من الجهد بإذن الله.."

ثم نظر لإيار الذي نهض واقفاً متخلصاً من الحبال وأضاف "وربما يفقد هذا الفتى ما يفوق ما خسرناه جميعاً.."

انتاب التوتر إيار أكثر فأكثر وهو يقول "أين ذهب التنين؟.. ما الذي جرى هنا الليلة الماضية؟"

قال أحد الرجال بحنق "الذي جرى أن التنين قد عاث الفساد في قرانا منذ ثلاث ليالٍ.. فأين كنت أنت؟"

أجاب إيار بانفعال "لقد اختطفني الصيادون واقتادوني لقريتهم لبيعي.. وقد أفلتّ منهم بصعوبة.."

نظروا له بدهشة تامة، فيما علق العمدة مقطباً "إذن سبب ما نحن فيه هم الصيادون بالفعل.. أرأيتم أن الفتى لا ذنب له؟"

غمغم أحدهم بغلّ "كيف حاولوا خداعنا بهذه الصورة؟.. ونحن من استقدمهم للخلاص من التنين ومنحناهم أموالاً جزاءً على ما أفسدوه بأنفسهم.."

هبّ إيار هاتفاً "الصيادون حاولوا الخلاص من التنين؟.. ما الذي فعلوا به؟"

أشار العمدة للغابة خلف القرية قائلاً "لا ندري ما جرى حتى الآن.. لقد هاجم الصيادون التنين ليلة البارحة واقتادوه لموقع ما من الغابة.. لكننا شغلنا بعدها بإطفاء الحريق ولا نعلم ما جرى هناك، ولم يعُد أحدهم قط.."

استدار إيار مغادراً بسرعة ودون تمهل.. لقد كاد النهار ينتصف وقد ضيّع وقتاً طويلاً في جدالٍ مع القرويين، ولا يعلم ما آل إليه حال أخيه في تلك الأوقات.. وبعد بعض الطيران، وصل لموضعٍ في الغابة جذبه برائحة الدماء، والتي لمحها بخفوت من بين رائحة الحريق القوية.. كان المكان يتوسط الغابة، في موضع قلّت فيه الأشجار كاشفة عن ساحة متوسطة الاتساع.. رأى بوضوح الدماء التي أغرقت جزءاً من الأرض العشبية وكومة من الحبال التي كانت مهملة أرضاً، وفي جوانب المكان استطاع أن يلمح بعض الأجساد التي سكنت عن أي حركة.. تزايد اضطراب إيار وقلقه مع مرأى الدماء التي كانت أمامه، وبعد أن اقترب منها وشمّها استطاع أن يدرك أنها دماء بعض الرجال، لكن الأغلب منها كان خاصّاً بالتنين.. فما الذي جرى بعد ذلك؟.. وأين هو التنين؟.. قطع أفكاره مع حركة في جانب المكان، فاستدار بسرعة وتوتر خشية أن يواجه هجوماً جديداً.. لكنه رأى سولينا التي كانت تتفحص أجساد أحد الصيادين وقد نهضت مع مرآه وصاحت "أين كنت يا هذا؟.. ألم ترَ المجزرة التي حدثت هنا؟"

لم يجبها إيار رغم تعجبه لوجودها في هذا المكان ولحاقها به، لكنه تجاهل أمرها وهو يراقب خيط الدماء الغزيرة التي سالت على جانب تلك الأرض وغمرت جزءاً من الأشجار القريبة في طريقها نحو السلسلة الجبلية القريبة.. إن أخاه جريح بشكل بالغ.. فما الذي جرى له؟.. هل عاد للكهف بهذه الصورة؟..

شعر بسولينا تضع يدها على كتفه وهي تقول مقطبة "لقد أتيت فور ورود الأنباء إليّ، واستهلك هذا مني

أموالاً جمّة لأقنع إحدى السفن بنقلي لهذه القرى بأسرع ما يمكن.. ولم يكن صعباً رؤية ما حلّ بهذا المكان وإدراك ما جرى.. هل رأيت ما جرى هنا الليلة الماضية؟.. أين اختفيت منذ غادرت تلك القرية؟"

قال إيار باضطراب "لقد سقطت أسيراً بيد القرويين الغاضبين، وحاولوا الانتقام مني لولا أن تخلصت منهم بمعجزة.."

علقت سولينا بضيق "أنت تهوى السقوط في الأسر كما يبدو.."

التفت إليها إيار قائلاً بانفعال "هل يمكنك علاج الجروح بشكل فاعل؟"

رغم غرابة السؤال، ورغم أنه يخلو من أي جروح ظاهره، لكن سولينا أدركت ما يعنيه فقالت بحزم "يمكنني ذلك.. وإن كنت أشك أن يكفي ما لديّ من العدة للقيام بهذا الأمر.. لكن، أين هو؟"

نظر إيار للجبال أمامهما مجيباً "أغلب الظن أنه قد عاد للوكر.. وهو يقع في موقع مرتفع من هذه الجبال.."

ونظر لسولينا مضيفاً "يجب أن آخذك إلى هناك لتساعديني على علاجه.. ربما كان بحالة حرجة الآن.."

تلفتت سولينا حولها للحظة، ثم قالت وهي تتجه لموضع قريب "لا بأس.. لكن يجب أن نتخذ احتياطاتنا.."

رآها تفتش في بقايا الصيادين وأمتعتهم التي تركوها في مكان قريب، ثم حملت حقيبة متوسطة الحجم ودسّت فيها عدداً من الكرات المصنوعة يدوياً قبل أن تعلقها على كتفها بحرص.. استولت كذلك على إحدى البنادق وبعض الرصاص الاحتياطي وعددٌ من السهام.. ثم حملت حبلاً طويلاً وعادت لإيار الذي وقف بتوتر كبير وقالت "بهذا، يمكننا أن نجعل رحلتنا هذه أكثر أمناً.. ففتىً ضعيف مثلك لن يقدر على حملي بذراعيه لمسافة طويلة.."

لم يتمكن إيار من إنكار ذلك، ورآها تحيط خصره وكتفيه بطرف هذا الحبل وتعقده عقدة محكمة، ثم تفعل الأمر ذاته بالطرف الآخر وتشدّه حول جسدها بإحكام.. لم يكن إيار واثقاً من هذه الطريقة، لكنه عازم بشدة على العودة بها إلى التنين الجريح.. فهو رغم عمره هذا لا يملك أي خبرة في علاج الجروح بشكل سليم، ولا يتعدى ما مارسه سابقاً تنظيفها وربطها بأي وسيلة كانت لإيقاف الدماء..

ارتفع إيار بشيء من البطء، ثم بذل جهداً كبيراً في رفع سولينا عن الأرض والتحليق بها ببطء قبل أن يسرّع طيرانه بضربات من جناحيه القويين.. كان منهكاً، وكانت سولينا ثقيلة عليه، لكنه ارتفع بإصرار كبير

متجاوزاً الغابة الشاسعة تحتها ونحو السلسلة الجبلية التي تنتصب سادة الأفق الشرقي بشكل كامل..

حاولت سولينا الحفاظ على ثبات جسدها وعدم التأرجح لئلا تزيد من صعوبة الأمر على إيار، وبحثت ببصرها في الأسفل عن أي آثار من فرقة الصيادين التي انطلقت تبحث عن التنين، ولحسن الحظ لم ترَ أحداً منهم طوال الرحلة..

دام الأمر وقتاً رآه إيار طويلاً أكثر من المتعاد، وهو الذي اعتاد قطع هذه المسافة في وقت قصير وبسرعته الفائقة.. وبعد كل ذلك التأخير، بدا له مدخل الكهف الذي يعتبره منزلاً له من مبعدة، وتراءى له خيط الدماء الذي يغمر المدخل بوضوح، فحاول زيادة سرعته حتى وصل للمدخل وهبط بسولينا قبل أن يهبط إلى جوارها.. سارع للتخلص من الحبل الذي يقيده، وركض نحو عمق الكهف بلهفة فيما تبعته سولينا بشيء من الحذر خشية غضب التنين لو رآها.. ولم تستطع منع نفسها من التفكير بكمية الدماء التي أغرقت الأرض تحت قدميها.. هل من الطبيعي أن يفقد التنين هذا القدر من الدماء ويبقى حياً؟..

وصل إيار لعمق الكهف في تلك اللحظة ورأى جسد التنين أمامه بوضوح.. كان حذاؤه قد تلطخ بالدماء الحمراء بالكامل، ولم يكن المنظر أمامه أخف وطأة من كل الأفكار التي دارت في عقله منذ رأى تلك الدماء في الغابة.. تقدم إيار خطوات ترتجف من الجسد الساكن، واستطاع أن يرى ذلك السيف الذي برز من عنق التنين والدماء لا تزال تنزف من ذلك الموضع، ناهيك عن عدة جراح متفرقة في بطنه وهي أضعف منطقة في جسده الصلب..

تهاوى إيار قرب جسد أخيه وبدأ يهزه ويطلق صيحات متفرقة لم تفهم لها سولينا أي معنى، لكنها أدركت أنها لغة يتفاهم بها إيار مع التنين دون استخدام الكلمات.. ظل إيار يحاول إيقاظ التنين الساكن، لكن بدا لسولينا بوضوح أن هذا التنين قد مات قبل مدة متأثراً بجراحه وبالدماء التي فقدها طوال تحليقه عائداً لهذا الموقع.. وبعد بعض التردد، وهي ترى الأسى والهلع في عيني إيار، تقدمت منه وأمسكت كتفه قائلة "لا داعي لكل هذا الانفعال.. لقد انتهى كل شيء.."

لطم إيار يدها بعيداً وهو يكرر ما يقوم به دون يأس، لكن سولينا هزت كتفه وقالت بحدة وقد ضايقتها استماتة إيار وتجاهله لما هو واضح "كفى يا إيار.. لقد مات التنين.. ألا يمكنك أن ترى ذلك؟.."

فوجئت به يضربها بقوة ويرميها خلفاً رغم تباين حجميهما، واقترب منها قائلاً بغضب عارم " أنت

السبب.. أنت من أفقدني أخي الوحيد.. أنت من جردني من كل ما أملك.."

تفادت سولينا ضربة جديدة من مخالبه وقالت بحزم "وهل قتلي هو ما سيهدئ غضبك؟.. هل سيغيرّ ذلك من الواقع شيئاً.."

خفتت محاولات إيار بسرعة وهو الذي لا يتحلى بطباع عصبية وشرسة عادة.. تهاوى أرضاً على ركبتيه، وبدت صدمته عصيّة على الوصف وجسده يبدأ بالارتجاف فيما شدّ قبضتيه بقوة.. وبعد لحظات، أطرق بوجهه وبدأت دموعه تتساقط على يديه وكتفاه يهتزان ببكاء صامت.. لم تحاول سولينا التدخل وهي تراقبه بصمت، محاولة تخيل ما يشعر به من أسى لما جرى لأخيه في غيابه وبسببه هو.. نوعاً ما، كانت سولينا تشعر بالذنب لما جرى له، خاصة أن إيار حذرها من هذا الأمر عند اختطافها له.. لكن عقلها وقتها كان منشغلاً بأمور تخصها وبما ينتظرها في مدينتها لو لم تعد به إليها، ولم تفكر بالأمر بشكل جدي عندها.. ورغم ذلك، لم تستطع مواساة إيار بأي كلمة لتهدئة حزنه العميق..

ولما رأت أن بكاءه لا يهدأ مع مرور الوقت، علقت أخيراً قائلة "عليك أن تحسم أمرك يا فتى.. علينا التحرك بسرعة قبل أن تنقلب الأمور ضدنا.. الصيادون قادمون لهذا المكان، ولن يهدأ لهم بال قبل الحصول على جسد التنين.."

قال إيار بحنق من بين دموعه "يمكنك الرحيل متى ما شئت لو تخشين على حياتك.. لا شأن لك بي.."

فقالت "بل شأنك يهمني في الوقت الحالي.. فلا ترفض اقتراحي دون سبب معقول.."

أشاح إيار بوجهه جانباً وهو يقول بغضب مكتوم "دون سبب معقول؟.. وهل فقدان أخي بهذه الصورة البشعة غير مقبول؟.. هل بقائي وحيداً بعد مقتل كل من أعتبرهم عائلة لي غير مقبول عندك؟.. كيف لك أن تفهمي ما أشعر به في هذه اللحظة؟.."

أدارت سولينا وجهها متطلعة للسماء خارج الكهف بصمت، ثم قالت أخيراً "ربما تراني لا أعبأ بك.. لكني أفكر بما يجب أن نفعله بدل البقاء والبكاء بهذه الصورة.. الصيادون لن يكتفوا بقتل التنين، فيما يمكنهم ربح أضعاف ما حصلوا عليه من القرويين ببيع أجزاء من عظام وجلد التنين.. وكونه التنين الأخير يرفع سعره أضعافاً مضاعفة.."

لم يكن ذلك ليهدئ إيار أكثر وهو يمد يده ويلمس مقدمة رأس التنين بأسى ودموعه تنحدر بغزارة على

خديه.. لم يكن يظن أن غيابه لليالٍ قليلة كفيل بقلب الأمور كلها بهذه الصورة.. ورغم أن هذا الخطأ بسبب اختطاف هذه المرأة له، لكنه لا يستطيع لومها الآن.. لا يجد وسيلة لتفريغ حزنه وغضبه لما جرى.. وما كان لهذا الغضب أن يعيد شيئاً مما فقده..

شعر بسولينا تجلس في موقع قريب، وقالت بعد بعض الصمت "دعني أخبرك شيئاً عن مدينة الصيادين.. الصيادون عموماً عمرهم قصير جداً، وأغلبهم لا يتجاوز الأربعين من عمره إلا بشق الأنفس.. حياتنا الخطرة وغير المستقرة سببٌ لفقدان الكثير من رجالنا ونسائنا على حد سواء.. ولقد واجهتُ مثل ذلك المصير عدة مرات ونجوت بأعجوبة قبل أن أبلغ السابعة عشر من عمري.. وبعدها، أصرّ أحد الرجال ممن عرفتهم طوال عمري أن أكف عن هذا العمل.. عبرّ عن رغبته الزواج بي، وطلب مني أن أبقى لرعاية منزلي وتنشئة الأطفال الذين قد أنجبهم له.. وطبعاً كان ذلك عرضاً لا يمكنني رفضه.. فالمرأة لا تعتزل هذه المهنة إلا عندما تنجب الأطفال وتتفرغ لتربيتهم.. وبالفعل، أنجبت صبياً خلال عام واحد.. كان صبياً نشطاً بحيوية تتفوق على أقرانه وبذكاء وقاد.. يحمل ملامح أبيه وعصبية أمه، وقد شغف منذ صغره بمهنة أبيه التي لا يعرف أهل هذه المدينة غيرها.."

لم يلتفت إيار وإن استمع لها بصمت، دون أن يدري ما هدفها من هذه الحكاية.. فيما أضافت سولينا زافرة "مضت السنوات بسرعة لا أكاد أصدقها، وبلغ الصبي الرابعة عشر من عمره.. وهو العمر الذي يبدأ الفتية والفتيات فيه القيام برحلة الصيد الأولى لهم.. ولثقة أبيه الكبيرة بقدراته ومهاراته، قرر اصطحابه في مهمة أخطر مما قد يمر بها الصبية في عمره.. كان ينوي الرحيل لجزيرة (رؤوس الشياطين) واصطياد أحد حيوانات (الياوي).. رغم رفضي المتكرر لهذه الرحلة، لكن زوجي كان يضحك وينعتني بالجبن والركون للراحة بحيث نسيت طعم حياة الصيادين.. ورغم كل اعتراضاتي اصطحب ابني في تلك الرحلة، وآخر ما رأيته منهما هي ابتسامة زوجي الواسعة، وعينا ابني الملتمعتين شغفاً ولهفة.. ولم يعودا بعدها أبداً.."

رمق إيار سولينا للحظة ليراها تخفض رأسها بشيء من المرارة وهي تقول "لو أنني كنت أكثر حدة في رفض تلك المهمة.. لو أنني أصررت عليهما بعدم الذهاب.. لو أنني منعتهما بالقوة.. كلها أسئلة أطرحها على نفسي كل ليلة وأفشل في تهدئة حزني لفقدهما رغم مرور وقت طويل على تلك الحادثة.. كل ما بقي من تلك الحادثة مرارة دائمة في حلقي، ودينٌ كبير على زوجي ألقي على كاهليّ.. فقدت منزلي بالتبعية، وقد

هددني تيدار بأنني لو لم أقدر على تسديد الدين خلال شهرين فقط، فسيقوم ببيعي في سوق الصيادين مع بعض العبيد.. لذا كان إصراري على صيدك طوال الشهر الماضي.. كنت أسعى للخلاص من هذا المصير، وأسعى لاستعادة منزلي، وهو آخر ما بقي لي من الحياة الوادعة التي عشتها لستة عشر عاماً فقط.."

ثم نظرت لإيار مضيفة "ربما تراني لا أفهم ما تشعر به، لكني أدرك ما تعانيه تماماً.. فأنا قد خسرت كل ما أملكه في وقت واحد.. وأدرك أن حزنك هذا سيتضاعف مئات المرات لو أنك شهدت ما سيفعله الصيادون بالتنين لو وضعوا أيديهم عليه.. أنا وأنت لن نقدر على صدّهم، لذا من الأفضل لنا التحرك الآن قبل أن يصلوا إليه.."

لم يكن إيار يستنكر ما تقوله، لكن حزنه العارم وهو يرى جسد أخيه الهامد أمامه يعجزه عن الحراك.. لذا لم يستجب لها وهو يرمق الجسد الذي لم يفارقه إلا قليلاً في سنوات عمره كلها.. عندها احترمت سولينا صمته وهي تنهض لتلقي نظرة على ما يجري خارج الكهف.. كانت واثقة أن تيدار لن يصمت الآن بعد أن تحقق له هذا الهدف.. القضاء على التنين كان من أكبر طموحاته، لكنه لم يسعَ إليه قط لانشغاله بأمورٍ أخرى، بالإضافة لاستحالة البحث عن التنين في هذه السلسلة الجبلية العصيّة على الأشخاص العاديين.. والآن، فقد جاء للخلاص من التنين بطلب ومكافأة من قرى المزارعين، وفوق ذلك يمكنه الإفادة من جسد التنين مما قد يُكسبه كنزاً سيكفيه ويكفي المدينة لسنوات قادمة.. فكيف يتخلى عن هذا الأمر الآن؟.. رجلٌ يعشق الذهب ويفخر بانتصاراته لن يتراجع بعد أن كاد يقبض على هذه الغنيمة بيديه..

بعد دقائق طويلة من الصمت، زفر إيار زفرة حارة، ثم نهض مغمغماً "ما الذي يمكننا فعله لكي لا يصل الصيادون إليه؟"

أجابت سولينا وهي تتوجه للحقيبة التي حملتها معها "لدينا كل ما نحتاج إليه.. والوسيلة الوحيدة التي نملكها هو أن نجعل هذا الكهف قبره الدائم.. ونأمل ألا يكون تيدار بالحماس الكافي لنبش الجبل كله للوصول لجسد التنين.."

لم يعارض إيار بكلمة وهو يقف جانباً فيما أسرعت سولينا تقوم بعملها بحذر وسرعة.. كانت قد استولت على بعض القنابل المصنوعة يدوياً والتي تركها الصيادون خلفهم، وقد خمّنت أنها قد تحتاجها فيما لو حاول تيدار الهجوم عليهما، عندها يكون القتال بسلاح طويل المدى كهذا أفضل من المواجهة المباشرة التي لن

تكون في صالحها بكل تأكيد.. أما الآن، فقد ارتأت أن استخدامها في تمويه هذا الكهف ودفن التنين أفضل، فوزّعت القنابل محدودة التأثير في جوانب الكهف، ووضعت بعضها قريبة من سقفه ومدخله.. ثم حملت القنبلة الأخيرة وربطتها برباط محكم في أحد الأسهم التي تملكها، قبل أن تلتفت إلى إيار قائلة "علينا الآن أن نبتعد ثم نلقي القنبلة الأخيرة نحو مدخل الكهف.. وهي ستقوم باللازم.."

رمق إيار جسد التنين للحظات طويلة، ثم استدار محني الكتفين وغمغم "هيا بنا.."

خرجا من مدخل الكهف، ولأن المدخل يعلو كثيراً عن بقية المناطق حوله، لم يجد إيار بداً من حمل سولينا مرة أخرى حتى تتمكن من رمي القنبلة الأخيرة.. وبعد أن تأكد من ربط الحبل إلى جسده، ارتفع بشيء من البطء بعيداً عن الكهف وسولينا تتدلى من الطرف الآخر للحبل وهي تحمل قوسها والسهم بالقنبلة في مقدمته.. حلق إيار بعيداً بشكل موازٍ لفتحة الكهف، ولما أعطته سولينا الإشارة، توقف وواجه الكهف الذي عاش فيه سنوات عمره كلها.. كان ذلك المكان هو الوحيد الذي يطلق عليه لقب (منزل).. والآن، ما عاد يملك منزلاً ولا عائلة.. فقد كل شيء في غمضة عين.. ولا يقدر حتى على الاختلاء بنفسه والحزن على ما آل إليه، ليس قبل أن يؤمن جسد أخيه من عبث الصيادين وطمعهم..

رأى سولينا ترفع قوسها وتصوّب السهم نحو فتحة الكهف، وغمغمت وهي تدقق في مسار السهم "لا تتحرك كثيراً لكيلا أخطئ في إصابة هدفي.."

حاول إيار الثبات في طيرانه وعدم القيام بحركات مفاجئة، وكان بحاجة لجهود مضاعفة لتحقيق ذلك مع وزنيهما.. ولما تأكدت سولينا من تصويبها وشدّت القوس لآخر مدى، أطلقت السهم بأقوى ما تملك.. فرآه إيار يشق الهواء نحو فتحة الكهف التي لم تكن بعيدة عنهم كثيراً، وحال سقوطه وسطها اندلع انفجار محدود تبعته انفجارات متتالية هزّت الجبل للحظات..

تراجع إيار في طيرانه فور حدوث الانفجار، ورغم ذلك فوجئ بتأثيره يصل إليهما فيلقيه للخلف بقوة حتى كاد يختل توازنه ويفلت سولينا التي تشبثت بالحبل صائحة "كن حذراً يا هذا.."

استعاد إيار ثباته وهو يضرب بجناحيه بقوة، وراقبا تأثير تلك الانفجارات وذلك الجانب من الجبل يبدأ انهياراً حاداً وصخوره تتهاوى بصوتٍ رددته الجبال كصوت الرعد.. ولما هدأ كل شيء وسحابة من الغبار تعلو في السماء، لاحظا أن ذلك الكهف قد طُمس بشكل كامل وما عاد يمكن الاستدلال عليه بسهولة..

اختفى ذلك الكهف، واختفى جسد التنين في قلبه.. وأصبح للجبل ملامح جديدة لم يعُد إيار يتعرف عليها كما كان يفعل سابقاً.. حاول إيار تمالك رجفة شفتيه وهو يرى ما جرى، ثم استدار هابطاً في تحليقه حتى هبط بسولينا في قلب أحد الوديان أسفل الجبل.. وفور هبوطها، تخلى عنها إيار وطار مسرعاً نحو جزءٍ عالٍ من الجبل القريب وسولينا تصيح "لا تتركني هنا وحيدة يا أحمق.."

لكنه لم يستدر إليها مطلقاً وهو يغيب عن عينيها، فصمتت وهي تتأمل المكان حولها، والآلام تعود إليها بعد كل ذلك المجهود الذي بذلته.. كانت تدرك أن إيار يريد الاختلاء بنفسه وربما البكاء على ما جرى.. لا يمكنها لومه، ولا يمكنها أن تقدم له أكثر مما فعلت.. لكن هل سيعود بعدها إليها؟.. عليها ألا تتفاءل بهذا الأمر.. يجب أن تسعى للعودة بنفسها، ويجب أن تنسى أمر إيار بعدها تماماً.. لقد فعلت ما يمكنها فعله كنوعٍ من الاعتذار لما ساقته إليه.. ولا تقدر على إقحام نفسها في شأنه أكثر من ذلك..

لكن ما الذي ستفعله بعد أن تحدّت مدينتها وزعيم الصيادين دفعة واحدة؟.. كيف لها أن تهرب من انتقامهم لو عنّ لهم الانتقام منها بالفعل؟..

لم يكن الوقت ملائماً لهذه الأفكار السوداوية.. عندما يحين وقت ذلك، ستندب حظها قدر ما تشاء.. أما الآن، فلا قدرة لها على ذلك مطلقاً..

الفصل الثامن: أنصاف الرجال

قضى إيار الساعات التالية في جانبٍ مرتفعٍ من تلك الجبال يذرف الدموع غزيرة دون أن يعبأ ببرودة الجو القارسة.. اختلطت مشاعر الحزن لمرأى التنين مقتولاً وقد نزف دماءه بغزارة في ذلك الكهف وحيداً، بمشاعر الأسى لما وصل إليه حاله هو.. كان التنين ينتظره.. وهو متأكد أنه قضى الليالي السابقة يبحث عنه بإلحاح، لكن طبيعته الشرسة لم تجعل له أي عقل للبحث بهدوء ودون إثارة الفوضى والدمار في كل مكان.. هل يمكنه أن يلومه؟.. لا.. قطعاً لا يستطيع ذلك..

والمشاعر الأخرى التي انتابت إيار بشدة هي مشاعر الحسرة لما آل إليه حاله.. لقد أضحى وحيداً في عالم لا يعيش فيه أي كائن منفرداً.. عالم لا يكاد يعرف عنه شيئاً، بسبب عزلته السابقة وبسبب صغر سنه، وأضافت ملاحقة الصيادين الشرسة له توجساً وخوفاً من هذا العالم.. فما الذي سيفعله بعدها؟.. هل يبقى هنا وحيداً لما بقي له من العمر؟.. كم سنة سيطول ذلك؟.. وكم تبلغ أعمار التنانين، لو كان بالإمكان تصنيفه منهم حقاً؟.. كلها أسئلة لم يجد لها أي إجابات، ونوعاً ما شعر بالسوء لتفكيره في حياته بعد ساعات قليلة من موت أخيه الذي يكنّ له حباً كبيراً لم يحبّ أحداً مثله قط.. لكن.... ما الذي بيده فعله بعد كل ما جرى؟..

مضت ساعات أخرى وإيار يجلس ساهماً يراقب الأفق والجبال القريبة، والضباب يتسلل بينها مدفوعاً بالرياح التي تتلاعب به.. وبعد أن شعر بضيق شديد لرؤية هذه الجبال التي تذكره جوانبها بأخيه وبالتنانين الذي عاش في حضنهم سني عمره كلها.. عندها عزم على مغادرة هذا المكان، وعندها تذكر سولينا التي تركها في بطن أحد الأودية وحيدة.. شعر بالذنب وهو يفكر بها.. لقد ساعدته للخلاص من ملاحقة الصيادين لجسد أخيه، وهي جريحة لم تكد تنال ما يكفي من الراحة لتستعيد قواها.. وهي فوق ذلك قد تخلّت عن مدينتها لإنقاذه سابقاً.. فما الذي قد تواجهه بهذه الحالة وسط هذه الجبال القاسية التي لا يدخلها إنسان عادة؟..

عندها، وجد نفسه مرغماً على العودة إلى الموضع الذي تركها فيه.. سيحملها حتى النهر القريب، والقرى

الزراعية الملاصقة للجبال.. وهناك، يمكنها أن تتدبر أمرها وحيدة.. وعندها، يمكن لإيار اتخاذ أي قرار بشأن حياته، سواء أقرر العودة للجبال والانزواء فيها، أو قرر الرحيل لموضع آخر من هذا العالم..

خلال لحظات، كان إيار يقترب من المكان الذي ترك عنده سولينا، وبدت له بوضوح من ذلك الارتفاع وهي تجلس على صخرة لا تبعد الكثير عن موقعها السابق والتعب واضح من انحناء كتفيها.. حلق إيار بصمت نحوها، عندما جذب انتباهه أمرٌ آخر في جانب آخر من ذلك الوادي.. ففي تلك البقعة، حيث تنكشف الأشجار الكثيفة عن طريق ضيق يعبر الوادي، استطاع إيار أن يلمح فرقة الصيادين بقيادة ذلك الزعيم شرس الطباع وهم يقتربون من سولينا بخطوات سريعة..

اشتعل إيار غضباً لرؤيتهم، وراودته للحظة فكرة الانتقام ممن قتلوا أخاه.. لكن هل يقدر على مواجهتهم؟.. حتى لو عاونته سولينا، فلا يظن أنه قادرٌ على التخلص من أحدهم ناهيك عن الخلاص من الفرقة كاملة بكامل عتادها.. لم يفُت بصره رؤية الإصابات في بعض الرجال، والإصابة الواضحة في صدر الزعيم الذي ربطها بإحكام دون أن يمنعه ذلك من السعي خلف التنين.. فقرر إيار أن يتنازل عن فكرة الانتقام، ويبادر بالابتعاد عنهم بأسرع ما يمكن.. يكفيهم ما حصلوا عليه من إصابات، وهذا أكثر مما قد يطمح لتحقيقه لو لجأ لمواجهتهم فعلاً..

لم يبدُ لإيار أن سولينا قد أدركت وجود فرقة الصيادين بعد، ولم يبدُ له أنهم قد رأوها بدورهم.. لكن اقترابهم منها وشيك وهم كما يعرف يتمتعون بحاسة سمع وشمّ قوية..

أسرع إيار في تحليقه محاولاً جعل جانب الجبل القريب بينه وبين الفرقة لئلا تلمحه وتهاجمه بالتالي، وفور اقترابه من سولينا التي كانت تزفر بحدة سارع للاندفاع نحوها وارتطم بها بقوة وهو يتشبث بها ويجذبها معه حتى سقطا في جزءٍ أعمق من الوادي..

انتبه تيدار للصوت الذي صدر من مبعدة رغم خفوته، فتساءل مقطباً "ما مصدر هذا الصوت؟"

تلفت الرجال حوله وهم يتشممون الهواء وأحدهم يقول "ربما كان حيواناً.. لا أرى شيئاً ولا أسمع أي صوت غريب.."

ظل تيدار متحفزاً بعد سماعه للصوت وهو يقبض على سلاحه بيده، لكنه لم يتوقف عن السير وهو يقود تلك الفرقة بحثاً عن أثر التنين واقتفاءً للدماء التي سالت ورائحتها تصل لأنوفهم بوضوح.. أما إيار، فقد

قبض على فم سولينا ليمنعها من الصياح وهو يهمس "لا تصدري صوتاً.. فرقة الصيادين قادمة نحونا.."

دفعته سولينا عنها وقالت بخفوت وغضب واضح "لقد بدأت الدماء تسيل من جرحي من جديد.. لمَ عليك أن تتصرف بهذا العنف؟.."

تفحصت الجرح من بين الأربطة التي تحيطه، فيما قال إيار "علينا الرحيل من هذا المكان بسرعة قبل أن يصلوا إلينا.."

لم تعارضه سولينا وهي تتشمم الهواء للحظة فتلا حظ رائحة الرجال واضحة من مكانها هذا، عندها همست وهي تنهض حاملة متاعها "لا يمكنني الاعتراض على ذلك.. هيا بنا.."

لم يلجأ إيار للطيران هذه المرة لئلا يلفت إليه الأنظار، بل سار بخفة في ذلك الجانب وهو يقود سولينا عبر بعض الطرقات الأكثر سهولة من هذا الوادي في الاتجاه المعاكس لاتجاه الصيادين.. وبعد أن قطعا مسافة طويلة سيراً على الأقدام، التفت إيار إلى سولينا المنهكة قائلاً "يمكننا الآن الرحيل دون قلق.. فلقد ابتعدنا بما فيه الكفاية.."

قالت سولينا ساخرة "هل تعرض عليّ حملي والطيران بي؟.. يا لك من رقيق القلب.."

لم يعلق إيار وقد اعتاد سخريتها نوعاً ما، بل استسلم لها وهي تحكم ربط الحبل حوله، ثم عاد لحملها والطيران بها نحو الجانب الغربي من الجبال.. كانت تلك أقرب منطقة مأهولة منهما، ورغم كل ما جرى في القرى القريبة، فيمكن لسولينا اللجوء إليها في الوقت الحالي والحصول على بعض العون في علاج جراحها..

وعندما وصلا لأقرب جانب من الجبل للقرى الزراعية، هبط إيار للراحة قليلاً في جزء بارز من الجبال يطل على النهر العريض والقرى الواقعة على ضفتيه.. وقف يتأمل الأفق والقرى القريبة من موقعه وهو منظر اعتاد على تأمله بشكل شبه يومي طوال سنوات حياته، خاصة بعد أن أصبح تواجده قربها غير مرغوب به.. وبعد بعض الصمت سأل سولينا التي كانت تحاول تضميد جرحها من جديد "ما الذي ستفعلينه الآن؟.. عودتك لمدينتك مستحيلة.. أليس كذلك؟"

غمغمت سولينا "عليّ نسيان أمرها في الوقت الحالي والابتعاد عن قبضة تيدار بكل ما يمكنني.."

ظلت مطرقة بتفكير طويل وإيار واقف قربها بصمت يتأمل النهر الملتوي نحو الأفق.. هو أيضاً قد أصبح

بلا هدف يسعى إليه ولا منزل يعود له.. بلا عائلة ولا شخص يألفه، أصبح يشعر بغربة تتفوق على ما كان يشعر به سابقاً وهو يستوطن هذه الجبال وحيداً وفي عزلة عن بقية البشر.. والآن، لم يعد هناك أي تنانين يأوي إليهم، ولا هو من البشر لينضمّ لقراهم بكل بساطة.. فما هو مصيره بعد كل هذا؟..

حاول تمالك الدموع التي احتشدت في عينيه، وصرف تفكيره عن هذه الأفكار التي لن تجلب له إلا التعاسة وهو يزفر بحرقة.. ثم وجد سولينا ترفع رأسها قائلة بابتسامة "أعرف ما يجب أن أفعله.. سأذهب لقلعة (أنصاف الرجال).."

قطب إيار معلقاً "أليسوا شعباً على شيء من الانغلاق والشراسة في هذه الأرجاء؟.. لقد سمعت أنهم يغيرون على بعض القرى ويسلبون ما يملكه أصحابها دون وجه حق.. ولم أسمع قط عن شخص انضمّ إليهم راضياً.."

قالت سولينا "لا أنكر كل ما تقوله.. لكني لا أعرف عملاً يمكن القيام به إلا مهنة الصيادين، وأملك بعض المهارات القتالية وأعرف استخدام الكثير من الأسلحة.. لو عرضت مهاراتي لقائد جيوش تلك القلعة، فربما يقبل بضمّي لبعض الفرق التي يملكها الجيش.. لا يمكن ألا يسيل لعاب امرئٍ لشخص بمهاراتي.."

نظر إليها إيار بغير اقتناع، فقالت بإصرار "لا بأس.. خذني للقرى الزراعية القريبة، ومنها سأستأجر سفينة تنقلني لأقرب موقع ممكن من القلعة.. سأتدبر أموري جيداً فلا تعبأ لأمري.."

غمغم إيار "لستُ أعبأ لأمرك حقاً.. ولكن....."

نظر للموضع أمامه وللنهر الذي يتلوى كثعبان طويل عريض قاطعاً الأرض نحو الغرب.. ثم قال "لم يسبق لي رؤية تلك القلعة، ولم يسبق لي مغادرة هذه الجبال لما يتجاوز القرى القريبة منه.. والآن، بعد أن أصبحت بلا مأوى، قد يكون من الأفضل لي سبر أغوار هذا العالم ورؤية ما يمكنه تقديمه لشخص مثلي.."

قالت سولينا وهي تربت على كتفه "إذن فلنرحل معاً.. يمكنك أن تحاول الانضمام إلى جيش (أنصاف الرجال) بدورك.. فقد يقبلون شخصاً غرّاً مثلك رغم كل شيء.."

نظر لها باستياء معلقاً "لا أريد الانضمام لأي جماعة.. ما الذي هيأ لك ذلك؟.."

ثم بدأ التحليق من جديد مضيفاً "ولِمَ سمّي ذلك الشعب باسم (أنصاف الرجال) على أي حال؟.. لا يبدو أنه اسمٌ يليق بهم بتاتاً.."

قالت سولينا وهي تتشبث بالحبل وترتفع معه "تلك حكاية طويلة.. وليس هذا الوقت الملائم لحكايات طويلة.."

صمت إيار دون اعتراض وهو يهبط من الجبل حاملاً سولينا ومحاذراً أن تصاب بأي نتوءات صخرية بارزة.. كان هذا العالم الواسع مبهماً وغامضاً بالنسبة له.. وقد آن الأوان للخروج من تلك الشرنقة التي أجبر على حبس نفسه فيها.. وهذه القلعة ستكون هي البداية، لكنها لن تكون النهاية بكل تأكيد..

فيما اشتعلت الأحداث في الجانب الشرقي من هذا العالم، قرب الجبال الشرقية، فإن حدثاً آخر لا يقل أهمية قد وقع في مكان بعيد نحو الغرب.. ففي قلعة تنتصب وسط بحيرة واسعة يصبّ عندها عدد من الأنهار التي تنبع من الجبال الغربية، وفي برجٍ عالٍ من أبراج تلك القلعة، تعالى صياحٌ متألم اشتد وارتفع بوضوح في جنبات المكان.. تكرر الصياح مرات ومرات، وجذب انتباه العديد من سكان تلك القلعة الذين تجمدوا في الساحة وهم يراقبون نافذة ذلك البرج بقلق كبير..

وفي قلب ذلك البرج، في غرفة فوضوية امتلأت جوانبها بأغراض وأثاث غريب الهيئة بالي الأطراف.. وعلى فراش فرش أرضاً، استلقت تلك المرأة التي لا تجاوز العشرين من عمرها وهي تتلوى ألماً وصياحها يتعالى في الغرفة بشكل دلّ على قسوة ما تعانيه.. وحولها، وقف ثلاث رجال يرتديون ملابس الجنود بدروع حديدية على الكتفين والرسغين والركبتين، وبحذائين جلديين وملابس سوداء.. وبينما قام أحدهم بتثبيتها من كتفيها، قام آخر بمد ذراعها اليمنى بعيداً عن جسدها وثبتها بإحكام.. أما يدها اليسرى، فقد كانت مقطوعة من أعلى الذراع والدماء قد لطخت الفراش والأرضية في بقعة واسعة تمددت باستمرار.. أما الثالث، فقد وقف قريباً متأهباً بفأس كبير حاد الطرف في يده.. وفي جانب آخر من الغرفة، وقفت امرأتان متوترتان وهما تراقبان ما يجري بصمت..

حاول الرجل الأول تثبيت المرأة بقوة والآخر يقول له بتوتر "أسرع قبل أن تفقد الوعي.."

أسرع الأول بدسّ خرقة في فم المرأة، فضغطت عليها بقوة بأسنانها وهي تغمض عينيها بشدة.. فكانت تلك العلامة للرجل الثالث الذي نظر لرفيقيه للحظة، ثم رفع الفأس عالياً قبل أن يهوي على ذراع المرأة بأقوى ما يملك، وبضربة قوية فصل ذراعها عن جسدها في موضع قريب من الكتف..

تعالى صياح المرأة البشع بقوة رغم الخرقة التي تغطي فمها، وتلوّت في فراشها والدماء تنبثق من الذراع بقوة مكونة بقعة كبيرة تحتها وملطخة الرجلين القريبين اللذان حاولا تثبيتها بكل ما يملكانه.. فيما أسرع الرجل الثالث لقدر صغير وضع جانباً يحوي بعض الزيت المغلي، فعاد به لموقع المرأة وقام بصبّ محتواه على موضع الجرح بحذر.. صرخت المرأة بقوة بعد أن رمت الخرقة جانباً، وهزت رأسها بعنف فيما امتزجت دموعها بالعرق الذي احتشد في جبينها وسال على عنقها المتشنج..

استمرت مقاومة المرأة وصياحها زمناً والجنديان يحكمان تثبيتها لئلا تتسبب بالمزيد من الأذى لنفسها، ولما بدأت تهدأ أخيراً وهي تئن أنيناً طويلاً، نهضا وأحدهما يلتفت للمرأتين القريبتين قائلاً "قوما بتضميد جراحها بسرعة.."

تراجع الجنود للخلف فيما أسرعت المرأتان نحو المرأة التي تكاد تفقد وعيها لشدة الألم.. وقامتا بالاعتناء بذراعيها المقطوعتين وتضميدهما بسرعة بعد أن تم كيّ موضع القطع جزئياً بالزيت المغلي..

وفي الآن ذاته، في موضع بعيد من تلك القلعة، تهاوت ساما فاقدة الوعي دون إنذار.. كانت تجلس على صخرة مسطحة وهي تتناول بعض الطعام الذي حضرّه أوس، وتراقب بصمت جدال أوس مع تيما التي

كانت تلحّ عليه إلحاحاً غريباً في أمر لم تفهمه بشكل كامل.. كانت ساما تختم بهذا الطعام يومها الذي ظنته الأخير في عالم الأطياف، وها هي الشمس تقترب من مغيبها معلنة نهاية هذا اليوم.. ومع شروق شمس الغد، سيأخذها أوس عائداً بها لعالم البشر.. لم تكن ساما تشعر في تلك اللحظات وبعد التفكير العميق الذي قضت به يومها ذاك بأي حسرة أو غضب، بل استسلمت لقرار أوس راجية حياة أفضل في عالم البشر.. وبينما كانت تتأمل جدالهما الحانق بصمت، ودون أن ينتبه أحدهما لما يجري، سمعا صوت سقوطها أرضاً وقد أفلتت الطعام وسقطت على الأرض الصخرية بصمت تام.. هبّ أوس إليها بشيء من القلق قائلاً "ما الأمر يا ساما؟"

قلَبَها ليرى ما حلّ بها، فوجدها غائبة عن الوعي، بينما اقتربت تيما معلقة "ما الذي حلّ بها؟"

غمغم أوس بحيرة "لا أدري.."

وهز كتف ساما محاولاً إيقاظها وهو يقول "ما الأمر يا فتاة؟.. ما الذي فعلته بنفسك؟"

بدا له أنها لن تستيقظ من غيبوبتها في وقت قريب، وإن بقي السبب مجهولاً له.. فزفر وهو يقلب بصره في وجهها بحيرة، بينما اقتربت تيما محدقة بساما التي استلقت على جانبها، وبالأصح تحدق بمؤخرة عنقها باهتمام.. فمدت يدها وأزاحت جزءاً من شعر ساما الأسود الذي يغطي عنقها وسط تعجب أوس، ثم ارتفع حاجباها بفضول كبير وهي تقول "أوس.. عليك أن ترى هذا.."

أدار أوس ساما وأزاح شعرها عن مؤخرة عنقها ليتأمل ذلك الوشم الذي يشكل دائرة صغيرة رسم فيها نصف شمس ونصف قمر، مع نقاط موزعة بين الاثنين وتحيط بكل هذا نجمة خماسية كبيرة.. كان الوشم أقرب لحرق في جلدها سبب علامة دائمة لا يمكن محوها، مما زاد دهشة أوس الذي غمغم "من الذي فعل بها هذا؟"

علقت تيما "الأهم من ذلك.. لمَ؟.. أهي مجرد علامة؟.."

غمغم أوس "لا أعهد البشر يصنعون علامات مثل هذا الوشم في هذا الجزء من أجسادهم.. لقد رأيت عدداً منهم بوشوم على وجوههم وأذرعهم، لكن لمْ أرَ ما يشبه هذا أبداً.. ولِمَ قد يكلف المرء نفسه اختيار موضع مخفيّ مثل هذا؟"

ظلت تيما تحدق بالوشم بصمت وتمعن، فيما استمر أوس في محاولاته إيقاظ الطفلة.. وبعد صمت قصير،

نهضت تيما واستدارت مغادرة المكان دون أن تلتفت خلفها.. هذا الوشم للغرابة يثير شيئاً من التوجس في نفسها.. شيءٌ لا تدرك كنهه ولا تستطيع الصمت وتجاهله.. من الذي وشم طفلة لم تتجاوز الثامنة من عمرها بهذا الوشم الغريب؟.. ولأي غرض؟..

لم ينتبه أوس لرحيل تيما وهو يحدق في الوشم بعد أن رفضت ساما الاستجابة لمحاولاته لإيقاظها.. فمد يده نحو الوشم وحاول لمسه بأصابعه وهو متعجب من كونه صنع بحرق الجلد بهذه الصورة التي تخلو من أي جمال.. وعند اقتراب أصابعه من ذلك الوشم، شعر بما يشبه الوخزات المؤلمة في أطراف أصابعه وبدأ شعر ساعده ينتصب بتوجس واضح.. قطب أوس بشدة وهو يبعد يده عن عنق ساما ويراقب الوشم الذي بدا بلون أكثر احمراراً مما سبق.. هذه تعويذة.. لا يمكنه أن يخطئ في هذا الشأن.. ورغم أن التعاويذ السحرية تبطل بسرعة ودون مقاومة معه عادة لكونه من الريابلة، لكن في هذا المرة وجد نفسه مدفوعاً للابتعاد عن هذا الوشم وتركه وشأنه.. شعر أن هذا الأمر أقوى منه هذه المرة.. وأنه لو أصرّ على ما يفعله فقد يسبب ضرراً ما لساما الصغيرة التي لا تدري من أمرها شيئاً..

زفر وهو يحمل الفتاة للفراش الذي هيأه لها جانباً، وتركها عليه وهو يجلس قريباً يراقبها بصمت..

كانت الأمور تزداد سوءاً في هذه اللحظة، وراوده بعض التردد لفكرة الرحيل بها عائدين لعالم البشر.. هناك هاجس غريب يلحّ عليه أن صاحب هذا الوشم لا ينتمي لعالم البشر.. صاحب هذا الوشم هو من عالم الأطياف، فهناك عدد من الأشخاص الذين يقدرون على القيام بمثل هذه التعاويذ السحرية.. لكن كيف وصل شخص كهذا لعالم البشر؟.. ولِمَ قد يستهدف طفلة بشرية؟..

هل يمكنه الرحيل بالطفلة لعالمها متناسياً أمر هذا الوشم؟.. ماذا لو أصاب ساما أي مكروه جراء ذلك؟.. أوقعه تفكيره في المزيد من الحيرة بحيث عجز عن اتخاذ قرار سليم إزاء ما عليه فعله..

مضت عدة أيام منذ عادت مالو لقريتها بانتظار استدعاء الحكيم لها.. شغلت نفسها في تلك الأيام بمراقبة أحوال القرية وتبادل الأخبار مع أهلها، وشاركت في بعض الأوقات بتعليم الصبية والفتيات الأصغر سناً العلوم الأساسية التي يتعلمها (الشنّ) في صغرهم.. وبخلاف حادثة إيار وسولينا التي كسرت شيئاً من

هدوء المكان، فإن حدثاً آخر لم يغيرّ مجرى الحياة الهادئة لقرية الأطفال.. حتى رأت في يوم من الأيام غراباً أسود يقف عند نافذتها حاملاً ورقة صغيرة في ساقه..

كان ذلك هو الاستدعاء الذي أرسله الحكيم، وهو دليلٌ على عودته من رحلته التي يقوم بها مرة كل شهر دون أن يكسر هذه العادة في أي مرة.. عندها رحلت مالو دون إبطاء عائدة لمنزل الحكيم وهي بشغف لمعرفة ما حصل عليه من معلومات ثمينة من الأطياف.. لكن في هذه المرة، وجدت مالو الحكيم في أسوأ حال ممكن، بشكل يزيد على ما يكون عليه في الرحلات السابقة كلها.. وربما كان هذا راجعاً لعمره الكبير، أو نتيجة لهجوم رجل (الريبال) الذي استهلك طاقة الحكيم في صدّه..

بذلت مالو جهدها في ذلك اليوم للعناية بالحكيم الذي قضى الساعات في سريره محاولاً استعادة طاقته.. وبسبب حالته تلك، فإنه قبِلَ أخيراً أن تحاول مالو تنفيذ التعويذة الخاصة بالمنزل لحمايته حتى يستعيد الحكيم قواه وينفذ الأمر بصورة أفضل.. كانت تلك اللحظات من أكثر اللحظات إثارة في حياة مالو، أن تقوم بعمل كهذا يعني أن الحكيم قد أصبح يثق بها وبقدراتها أكثر.. ورغم أن مثل هذا العمل تطلب منها جهداً وطاقة كبيرة، لكنها لم تتوانَ عن القيام به بكل إخلاص وحماسة، واستهلك هذا منها بضع ساعات من آخر ساعات ذلك النهار..

وفي تلك الليلة، تقدمت مالو حاملة كوباً من شاي الأعشاب الدافئة نحو السرير الخشبي الذي استلقى عليه الحكيم بإنهاك بالغ، فوضعت الكوب الفخاري على طاولة صغيرة قريبة احتشدت بالكثير من الكتب كعادة كل زاوية في هذا البيت الغريب، وقالت له وهي تراقب عيناه المتعبتان بشدة "أأنت أفضل حالاً الآن؟"

ابتسم الحكيم شيئاً ما قائلاً "لا تقلقي يا مالو.. لم يحِن وقتي بعد.. كيف حال قرية (الشنّ)؟"

تجاوزت سؤاله وهي تقول بقلق "لكنك تعود منهكاً فاقد الطاقة في كل مرة تغيب فيها مع الأطياف.. فلمَ عليك أن تكرر هذه المهمة القاسية في عمرك هذا؟"

قال الحكيم وهو يتناول الكوب مستشعراً دفئه بين يديه "أنت تعلمين يا مالو أن علاقتنا مع الأطياف مهمة جداً.. فأنا أستفيد الكثير من المعلومات التي يملكونها عن عالم البشر وعن عالمنا هذا، وهم ملتزمون بالحفاظ على حياتي طوال بقائي معهم مقابل بعض الخدمات التي أقدمها لهم مجاناً.."

قالت مالو بانفعال "كان عليك أن توكل إليّ هذه المهمة كما تفعل مع غيرها من المهمات.."

قال الحكيم بهدوء "وكيف يمكنني أن أوكل مهمة كهذه لفتاة ضعيفة وصغيرة مثلك؟.. لن يمكنك أن تعودي حية من مكان كذاك المكان بالتأكيد.. فالأطياف لا تستطيع كبح تلك القدرات التي تملكها في سحب قوىٰ أي كائن يقترب منها.. وهذا أمرٌ خطير علىٰ فتاة مثلك.."

قالت بضيق "ألستَ تعدّني لأتولىٰ مهامك هذه يا سيدي؟.. كما أنني لست صغيرة.."

ارتشف الحكيم بعض الشاي الدافئ بهدوء ومالو ترمقه بضيق وقلق.. ولما استبطأت جوابه قالت بحنق لم تملكه "أنا سأكون خليفتك.. أليس كذلك يا سيدي؟"

تنهد الحكيم وكأنه سئم ذلك الحوار الذي يتكرر بشكل دائم، ثم قال بصوته المنخفض دائماً "أنا لم أضع في ذهني يوماً اتخاذ خليفة لي.."

صاحت مالو بحدة لم تملكها "لماذا؟"

أتاها رد الحكيم بصرامة غير متوقعة "أنت تعلمين الجواب خيراً مني يا مالو.."

فأسرعت تقول باعتراض "لكن ما تخشاه لن يحدث.. أنا لن أكبر ولن أتغير.. لا شيء في هذا العالم يمكن أن يجبرني علىٰ أن أخوض ذلك برضاي.."

هز الحكيم رأسه مغمغماً "لا أحد يتنبأ بما قد يجري في المستقبل يا صغيرتي.. ولو تحقق ذلك، فستكونين مجبرة علىٰ مغادرة هذا المكان.."

هبت واقفة وقالت بإصرار "لكني لن أفعل.. حتىٰ متىٰ ستشكك في قولي؟"

جاوبها صمته من جديد وهو يحتسي رشفة أخرىٰ من الشاي، عندها انحنىٰ كتفاها بأسىٰ وهي تغمغم بصوت كسير "كنت أعلق آمالاً كثيرة علىٰ هذا.. كيف تخونني هكذا؟"

أتاها صوتٌ من خلفها يقول "هذا ليس مستغرباً، فقد خان هذا العجوز الكثيرين قبلك.."

شهقت مالو وهي تستدير فزعة لذلك الصوت الذي لم تتوقعه.. فهم في الغرفة التي تقع في أعلىٰ موقع من هذه الشجرة العالية، والباب أمامها بينما صدر الصوت من خلفها.. فكيف وصل صاحب الصوت لهذه الغرفة العالية؟.. لكن عجبها زال علي الفور وهي ترىٰ تيما تدخل من النافذة بعد أن ضمّت جناحيها خلفها بحيث لا يعوقان دخولها.. طبعاً، من يستطيع التحليق لن يعجزه بلوغ هذه الغرفة العالية..

لم يُظهر الحكيم أي دهشة أو استنكار لرؤية تيما، بينما استجمعت مالو شجاعتها وهي تقول باعتراض غاضب "كيف تجرؤين على العودة بعد كل ما فعلته؟.. بل كيف تمكنت من الدخول مع التعويذة التي تحميه؟"

قالت تيما بسخرية "أظن أن تلك التعويذة خاصة بك.. أليس كذلك؟.. أخبرتك أنك أضعف من أن تقومي بتحجيم شخص مثلي.."

ونظرت للحكيم مضيفة "وكما يبدو، فالعجوز غير قادر على حماية منزله بنفسه في هذه اللحظات.."

فقالت مالو بحنق "إذن ما الذي تريدينه؟.. ما الذي تبغين تدميره بعد في هذا المنزل؟"

أشارت تيما بإصبعها نحو الحكيم قائلة بدون أي انفعال "لي حديث مع هذا العجوز، وأملك أسئلة هامة أريد أجوبة عليها.."

ابتسم الحكيم وهو يضع الكوب جانباً، وقال "لم أتوقع عودتك إليّ بعد إخفاقك في المرة السابقة.. أي أسئلة تلك التي عادت بك إليّ وأنت ترجين عوني؟.."

كتفت تيما ذراعيها على صدرها وهي تقول "من قال إنني أرجو عونك؟.. يمكنني أن أجبرك بعدة طرق لتتجاوب معي.."

وقفت مالو في وجهها رغم قصرها البالغ وهي تقول بحنق "مهلاً.. كيف تحدثين الحكيم بكل هذه الصلافة؟.. لقد تسللت للبيت بدون إذن، واتهمت الحكيم باتهامات لا يمكن تصديقها، والآن تطالبينه بالحصول على أجوبة؟.. هذا لا يمكن السكوت عليه.."

قالت تيما ضاحكة "أيسوؤك وصفي لهذا العجوز بالخائن؟.."

قطبت مالو بحنق لتكرارها تلك الإهانة نحو شخص تعتبره قدوتها ومعلمها، بينما نظرت تيما إلى الحكيم مضيفة بسخرية "هل تجرؤ على إنكار هذه التهمة يا غراب البين؟"

صاحت مالو "كيف تجرؤين؟"

لكن الجواب أتاها من خلفها والحكيم يقول بهدوء "لا.. لا يمكنني إنكار ذلك بشكل تام.."

نظرت مالو إليه بصدمة ظاهرة، فعلق بابتسامة صغيرة "أنا لستُ ملاكاً يا فتاتي.."

اقتربت تيما دافعة مالو من طريقها وهي تقول بسخرية "بل أنت أقرب لشيطان وضيع.. والدليل ما جرى

لذلك الأحمق أوس الذي كاد يفقد حياته بسببك.."

فقال الحكيم بهدوء "وما شأنك أنت برجل من (الريبال) يا فتاة؟.."

توقفت تيما للحظة، ثم قالت عاقدة حاجبيها الدقيقين "لا شأن لك بهذا، فلكل منا دوافعه ومآربه الخاصة.. لكن أجبني، هل تعرف هذا؟"

جذبت كتاباً وضع على الطاولة الجانبية، وباستخدام ريشة كتابة قريبة رسمت شكل الوشم الذي حفظته على أول صفحة من الكتاب، دون أن تبالي باعتراضات مالو التي استهجنت استباحة كتاب ثمين كهذا.. ولما دفعت تيما الكتاب في وجه الحكيم، نظر له بصمت وهو يمسد لحيته الطويلة وقد غرق في تفكير عميق.. فقالت تيما بنفاذ صبر "يبدو من وجهك أنك تعرف هذا الوشم.. فما هو؟.. ولأي غرض يستخدم؟"

تساءل الحكيم بلا انفعال "أين رأيت هذا الوشم؟.. وعلى من؟"

قالت تيما مقطبة "لا شأن لك.. أجب سؤالي فقط.."

عندها قال الحكيم بصرامة "يعتمد هذا على الشخص الموشوم بهذا الوشم.. فإن كان هذا الوشم على (الريبال)، أم الأقزام، أم (أنصاف الرجال)، يعطي هذا فارقاً كبيراً.."

تراجعت تيما وهي تفكر بالأمر، بينما نظرت مالو لرسم الوشم بفضول واضح محاولة تذكر إن مرّ عليها يوماً في قراءاتها، دون أن تخرج بنتيجة.. ثم سمعت تيما تقول ببطء "وماذا لو كان الموشوم بشرياً؟"

رفعت مالو رأسها بدهشة، فالبشري الوحيد الموجود حالياً في عالم الأطياف هي ساما.. فهل هي صاحبة ذلك الوشم؟.. كيف لم تنتبه له هي قط رغم أن الفتاة قضت بعض الوقت في هذا المنزل؟..

اعتدل الحكيم باهتمام واضح وقال بتوتر "هل ساما هي صاحبة ذلك الوشم؟.. أين هي؟.. أحضريها إليّ حالاً.."

وانبرت مالو بدورها تسأل بلهفة "هل هي بخير؟.. ما الذي جرى لها؟"

ضربت تيما الطاولة بالكتاب لتقطع تساؤلاتهما وهي تقول بحزم "أنت لم تجب سؤالي يا هذا.. أريد معرفة معنى هذا الوشم حالاً.."

صمت الحكيم وهو يقلب الأمر في ذهنه، وسمعته مالو يغمغم بدهشة "إذن ربما كان هذا السبب الذي دفع

الأطياف للفرار ذعراً منها.. لم يكن الأمر خاصاً بناب الريابلة، بل بذلك الوشم المشؤوم.. كيف لم أدرك وجوده قط؟.."

دهشت مالو بشدة لتعليقه، لكنها لم تتفوه بكلمة فيما قالت تيما بانعدام صبر "ما الذي تتمتم به أيها العجوز؟.. هل تعرف صاحب هذا الوشم؟"

رفع الحكيم بصره لعيني تيما الحادتين قائلاً "في هذا العالم، هناك اثنان فقط ممن يقدرون على استخدام السحر على هيئة تعويذات أو دوائر سحرية كالتي رأيتها، ولكل دائرة علامات مختلفة، وكل علامة لها صفة وهوية محددة لا يعرفها إلا من يمتلك هذا العلم.. طبعاً أنا أعني السحر الذي يتعلمه المرء ويما رسه بطقوس معينة، لا القدرات السحرية التي تملكها بعض الكائنات مثل ما تفعلينه عادة بعينيك هاتين.. كما لابد قد سمعتِ، كانت حضارة (الكهّان) هي من امتهن هذا السحر منذ أزمانٍ قديمة.. وقد اندثرت هذه التعاليم باندثارها منذ قرون، ولم يبقَ على وجه الأرض من يعرف هذا العلم سواي وسوى شخص ثانٍ يدعى الكاهن يوريت.. وآخر ما وصلني عنه أنه قد مات مقتولاً منذ ما يقارب عشرين سنة.."

قالت تيما مقطبة "إذن أأنت من وشم هذه الدائرة في عنق ساما؟.. أم أنها هذه الفتاة؟.. فهي تقدر على استخدام تلك التعاويذ بشكل محدود كما رأيت.."

أشار لها لتصمت وهو يضيف "أنا لم أفعل ذلك قطعاً، ولا مأرب لي بذلك.. مالو ما تزال خبراتها محدودة جداً، ولم أعلمها إلا ما ينفعها لحماية نفسها من أي عدوان.. لكن، يوريت قبل مقتله قد اتخذ له تلميذاً في سنواته العشر الأخيرة.. أو بالأحرى، تلميذة.. رغم أنني عارضت ذلك بشدة، لكنه كان مصرّاً على ألا تضيع تلك العلوم مع موته أو موتي، واتخذ له فتاة لا تتجاوز الخامسة عشر من عمرها لتعليمها كل علومه.. ولما قتل الكاهن، لم يُعثر بعدها على أي أثر لتلك التلميذة، ولا أظن أنها قد ماتت بدورها.. هذه التلميذة هي الوحيدة التي تقدر على القيام بهذا العمل.."

تساءلت تيما "كيف تتأكد من ذلك إن لم تعرف أين ذهبت؟.."

قال الحكيم مفكراً "هناك إشاعات مختلفة تتردد في عالم الأطياف عن شخص استخدم بعض التعاويذ السحرية التي لا يتقنها إلا من تتلمذ على يد ساحر أو كاهن.. وكل تلك الإشاعات تقودني لامرأة تعيش في قلعة (أنصاف الرجال)، ويطلق عليها العامة لقب (الكاهنة).."

قالت تيما باهتمام "إذن أهي تلك التلميذة؟.."

هز الحكيم رأسه مجيباً "تلك المرأة التي تتلمذت على يد يوريت يجب أن تكون الآن في الأربعين من عمرها، بالنظر للسنوات التي مرت منذ اختفائها.. لكن مما سمعته أن تلك الكاهنة لا تتجاوز العشرين من عمرها.. هناك حلقة مفقودة بين الاثنتين، ولا أظنني سأقدر على حل هذا اللغز لو لم أذهب بنفسي لمقابلة تلك الكاهنة في قلعة أنصاف الرجال.."

غمغمت مالو معلقة "ألا يرفض أصحاب تلك القلعة استقبالك منذ مدة طويلة دون سبب مفهوم؟"

نظر الحكيم لتيما مجيباً "وهذا هو العائق الوحيد أمامي.. لذا تريني عاجزاً عن منحك جواباً أكيداً.."

شدت تيما جسدها قائلة "لا بأس.. سأبحث عن الجواب بنفسي.. شكراً على لا شيء.."

واستدارت مغادرة من حيث أتت، فقالت مالو بضيق "يا لها من فظة الطباع.. ألا تملك التهذيب الكافي لمعاملة شخص بمكانتك؟"

مسّد الحكيم لحيته من جديد مغمغماً بتقطيبة ظاهرة "ربما لم يكن قدوم ساما لهذا العالم صدفة كما كنا نعتقد.. وربما لتلك المسماّة بالكاهنة يدٌ في هذا.."

قالت مالو بقلق "ما الذي يعنيه هذا؟"

زفر الحكيم قائلاً "لا أدري.. ربما كان للتلميذة التي اتخذها يوريت يدٌ في هذا بالفعل.. عليّ العودة للقلعة وإجبار ملكها على استقبالي، فهو قد يحمل لي أجوبة لأسئلتنا هذه.."

هتفت مالو "لا تفعل هذا يا سيدي.. أنت لم تتعافَ بعد.. من يدري كيف سيعاملك أنصاف الرجال بخشونتهم المعهودة؟.."

ربت الحكيم على رأسها بابتسامة دون أن يهدئ مخاوفها.. فلم تزِدها ابتسامته هذه إلا قلقاً وتوجساً للأمر..

في تلك القلعة التي تحتل موقعاً متوسطاً من بحيرة واسعة شديدة الزرقة، وفي غرفة في أعلى أبراج تلك القلعة، فتحت الفتاة عينيها بعد ساعات قضتها في غيبوبة عميقة بحيث شك من حولها أنها قد لفظت أنفاسها.. وفور أن تمكنت من رؤية ما حولها، زفرت بضيق وخيبة محاولة تجاهل الآلام التي لا تطاق في

ذراعيها.. لاحظت ذلك الرجل الذي جلس على كرسي جانباً وهو يتأمل ما جرى لها دون أن يخفي استياءه من الرائحة النتنة التي عبقت في المكان..

رفعت الفتاة رأسها بشيء من الجهد ونظرت له نظرة طويلة، فقال وهو يقف مقترباً منها "ما الذي جرى؟.. لم تجرِ الخطة كما رسمت لها مطلقاً.."

عادت الفتاة تلقي رأسها على الفراش بتعب بالغ، وقالت بصوت بحّ لكثرة صراخها المتألم سابقاً "لم يكن ذلك كافياً.. ربما عاقني بُعد المسافة بيننا، أو أمرٌ آخر.. لا أدري.."

قال الرجل باستياء "لكن لا يمكننا الانتظار أكثر من ذلك.. جسدك قد بدأ يبلى بالفعل، ورائحته أضحت لا تطاق.. ربما كانت هذه المدة هي أقصى ما يمكنك تحقيقه.."

قالت الفتاة وهي تحدق بالسقف الخشبي فوقها "فعلاً.. مع كل تجاربي السابقة، فأنا متأكدة أنني قد بلغت أقصى طاقتي بالفعل.."

عندها قال الرجل وهو يدور في الغرفة "يجب علينا أن نتحرك بسرعة.. طريقتك هذه فشلت فشلاً ذريعاً.. والملك قد عيل صبره بالفعل.."

علقت الفتاة بسخرية "هل عيل صبره وهو جالس على كرسيه الوثير ذاك؟.. لو أنه شاطرني بعض آلامي، لربما كان أفضل.."

قطب الرجل وهو يقول بتحذير "لا أسمح لك بالتطاول على الملك.."

فقالت بضجر "هل يجب أن تثور لكل كلمة أقولها؟.. وهل ستشكوني للملك؟"

ثم أضافت بسخرية أكبر "أراهنك أن الملك سيطيح برأسك بإشارة من إصبعي دون هوادة.."

نظر لها الرجل بغيظ وكره عارمين، ثم قال "لنترك هذه الخلافات جانباً، فأنا وأنت لم نكن قط على وفاق.. المهم أن ننفذ هذه العملية بأسرع وأسهل الطرق.. لا مزيد من الأخطاء، ولا مزيد من التكهنات.."

زفرت الفتاة متطلعة من النافذة القريبة بتفكير، ثم قالت "الحل الوحيد هو أن نعيد التجربة من جديد.."

قال باستياء "ستقتلين نفسك بالتأكيد.. ما فائدة إعادة تجربة فاشلة؟"

نظرت له نظرة حادة وقالت بحزم "إذن أحضرها لي هنا.. غداً، قبل مغيب الشمس، يجب أن تكون أمامي.. وإلا....."

قاطعها قائلاً بحنق "لا داعي للتهديد.. لقد استبقتُ رأيك وأرسلت فرقة من رجالي بالفعل.."

قالت براحة "جيد.. لأول مرة تقوم بعملٍ صائب.."

فقال الرجل بضيق "كان يجب أن أفعل، لأنني لا أريد مواجهة غضب الملك بعد تجربتك الفاشلة هذه.."

ابتسمت ابتسامة هازئة، ثم قالت بنعومة "تخشى الملك؟.. أليس هذا قلقاً لشأني أنا؟.. ظننتك ترتعب لفكرة موتي يا بازِر.."

نظر لها باحتقار واضح وقال "لا.. قطعاً لا يعنيني أمرك قيد شعرة.. ظننتُ هذا مفهوماً منذ زمن.."

فغمغمت الفتاة بهزء "وكنتَ تدّعي أنك تحبني.."

ألقى عليها بازر نظرة صارمة وقال بامتعاض "من كنت أحبها قد ماتت قبل سبع سنوات.. وأنتِ أعلم مني بهذا الأمر بالتأكيد.."

ثم غادر تاركاً الفتاة تبتسم ابتسامة هازئة وهي تحدق بسقف الغرفة بصمت تام..

عندما غادرت تيما منزل الحكيم، وجّهت نفسها نحو مخبأ أوس وهي غارقة في التفكير.. تفكر بكل ما عناه الحكيم في حديثه.. وتفكر بأمر تلميذة الساحر تلك.. تحاول ربط الخيوط بعضها ببعض لتصل لمعنى الوشم الذي لم يفصح الحكيم عن مغزاه رغم كل شيء..

عندما اقتربت من مخبأ أوس، لاحظت بوضوح ذلك الرجل الذي كان قابعاً خلف إحدى الأشجار في الضفة الثانية للنهر.. بدا بوضوح أنه يختبئ خلف الشجرة لئلا يلفت له الأنظار، وأنه يراقب مخبأ أوس على ضوء الشمس التي بدأت تنير الأفق.. عقدت تيما حاجبيها وهي تراقب الرجل من موقعها المرتفع حيث حلقت بدون إصدار صوت، دون أن يلمحها الرجل بدوره.. وبعد بعض الوقت، رأت الرجل يتراجع ويجدّ الخطى محاذياً النهر ومحاذراً من إصدار صوت يجذب الأنظار إليه.. لكن أنظار تيما كانت معلقة به بالفعل، ومن موقعها فوق أحد الأفرع العالية فإنها راقبت ابتعاد الرجل بشك واضح، ثم سرعان ما لحقت به مستغلة جهله لوجودها.. فوجدته يسير لوقت طويل قبل أن تلمح سفينة متوسطة الحجم ترسو قرب ضفة النهر بما يسمح لها بإنزال رجالها دون أن تتوغل فتعلق في صخور ذلك الجانب من الضفة..

ركض الرجل نحو تلك السفينة، والتي بدا بوضوح أنها تنتظر عودته.. وبزورق احتفظ به على الضفة، عاد الرجل للسفينة وتيما تراقبه بشك وريبة شديدين.. وعلى ظهر السفينة، استطاعت أن ترى تلك الفرقة من الرجال بعتادهم ولباسهم وقد انتظموا على سطحها بتأهب..

لم يكن منظر تلك الفرقة من الجنود مألوفاً لتيما التي حاولت الاقتراب أكثر فأكثر لمعرفة سبب ذلك التجمع، فاختبأت خلف الصاري الخشبي الذي يتوسط السطح، وأنصتت لما يقال باهتمام.. مهما كانت هوية هذه السفينة وهوية أصحابها، ما سبب تجسسهم على مخبأ أوس؟..

راودها شك عميق جعلها تنصت لما يقال وهي ترى أحد الرجال يتقدم البقية، والذي بدا أنه قائد لتلك المجموعة.. سمعت الرجل الذي انضمّ للفرقة أخيراً يقول للقائد "لقد تأكدت من الموقع ومن فيه بالفعل يا سيدي.. والأمر كما أخبرتنا عيوننا سابقاً.."

هز القائد رأسه موافقاً، ثم التفت إلى البقية قائلاً بصوت حاد "أنتم تعلمون أهمية ما نحن مقدمون عليه، وأهمية هذه المهمة رغم سهولتها ويسرها.. يجب أن تحضروها إلينا دون المساس بها، ودون أن يصيبها مكروه.. أفهمتم؟.. هي مهمة لنا، ومهمة للملك وللكاهنة.."

بدت الدهشة على وجه تيما وهي تسمع القائد يضيف "العلامة التي ستجدونها عليها هي الوشم خلف العنق.. ولكن، من يمكنه ألا يعرف فتاة بشرية عندما يراها؟.. قوموا بهذه المهمة على أكمل وجه، والملك يعدكم بمكافآت قيمة لمن يعود بها سليمة من أي مكروه.."

تزايدت دهشة تيما وصدمتها لدى إدراكها أن الحديث كان عن ساما بالتحديد، فهي البشرية الوحيدة في هذا العالم، وهي تحمل الوشم الذي أشار إليه الرجل.. فما الذي جاء بهذه الفرقة لهذا المكان سعياً خلفها؟.. لا يبدو أن هدفهم هو جسد ساما بالتحديد، بل بدا أن اهتمامهم بالوشم في عنقها يفوق اهتمامهم بهويتها..

توترت تيما رغماً عنها، فتخلت عن مكانها وحلقت بعيداً عن السفينة قبل أن يلاحظها شخص ما.. لقد كانت محقة منذ البدء.. لو أن أوس تخلص من هذه الفتاة منذ البدء، لما واجه هذه المأساة التي توشك أن تحلّ به.. لكن منذ متى كان أوس يطيعها في أي أمر؟..

تأخر الحكيم في عزلته هذا اليوم!.. دارت مالو في غرفة الجلوس تؤدي أعمالها بشيء من القلق وهي تفكر بما يمكن أن يكون قد جرى.. لقد طلب منها ألا تزعجه في صباح هذا اليوم، وهي تدرك أنه يطلب منها هذا في بعض الأيام لينشغل في أعماله كلية دون مقاطعة.. لكن اليوم تأخر في الخروج من غرفته ولم يطلب طعاماً حتى مع انتصاف النهار.. عندها توجهت إلى باب غرفته وطرقته بشيء من الخفوت ضاربة عرض الحائط بأوامره، وهو أمرٌ نادراً ما تفعله..

دام الصمت ثواني ثقيلة ومالو تنصت لعلّها تسمع ما يدلها على ما يجري خلف الباب المغلق.. أعادت الطرق مرة ومرة، ثم ارتفع صوت طرق الباب حتى تحول لضربات قوية بيدها الدقيقة والقلق العارم يغزوها.. هل أصاب الحكيم أي مكروه؟.. هل هو في حالة حرجة بسبب تعبه البالغ أو لسبب آخر لا تدريه؟..

ظلت ترمق مقبض الباب للحظات، ثم دفعت نفسها لتديره وتفتح الباب دون حرج متناسية التأنيب الذي قد تحصل عليه لو كان الحكيم بكامل وعيه ورأى ما تفعله.. لكنه لم يكن بكامل وعيه.. أو بالأحرى، لم يكن الحكيم هناك لترى إن كان كذلك أم لا.. كانت غرفته فارغة، وفراشه مرتباً كما لو أنه لم يمسّه قط.. ما الذي جرى؟.. وأين اختفى في هذا الوقت؟..

انطلقت من فورها تبحث عنه في الغرف الأخرى بشيء من الارتباك.. كان واضحاً لها منذ البدء أنه غادر المنزل.. كانت في المعتاد تشعر بوجوده ولو خلف الأبواب المغلقة، فهي تقدر على الإحساس ببعض الطاقة النفسية التي يصدرها الحكيم عادة، وتطمئن لوجوده حتى لو لم ترَه.. لكنها لا تشعر بهذه الطاقة في المنزل.. لقد غادر الحكيم.. لكنه لم يخبرها بمغادرته كعادته، ولم يخبرها بموعد عودته.. فما معنى ذلك؟..

هبطت مالو لغرفة الجلوس بوجوم ظاهر.. هناك ما جرى للحكيم منذ أتت تلك المرأة وأرته ذلك الوشم الغريب الذي تحمله ساما.. ما معناه؟.. وما الذي يعرفه الحكيم ويرفض الإفصاح عنه؟..

صمتت مفكرة للحظات وهي تدور في غرفة الجلوس، ثم انطلقت من فورها لغرفة الحكيم واستعادت ذلك الكتاب الذي حمل رسماً مبسطاً للوشم بيد تيما.. نظرت له بتمعن، ثم أسرعت تتناول كتباً متفرقة من الأرفف القريبة..

مادام الحكيم يرفض الإجابة عن أسئلتها، فلا ضير من حصولها على الأجوبة بنفسها.. لديها اليوم بطوله

لتبحث في متون الكتب التي تملأ جدران الغرفة، وهي قد بدأت تشعر بشيء من الحماس لكشف هذا اللغز بنفسها..

هل سيغضب الحكيم؟.. لا تظن أنه سيفعل ذلك.. وهو ليس موجوداً ليحكم عليها على كل حال..

عندما استيقظت ساما، بعد ليلة كاملة فقدت فيها الوعي دون حراك، كان أول ما رأته هو وجه أوس القلق وهو يسألها "أأنت بخير؟"

حاولت ساما الجلوس وهي تشعر بالألم في بعض أعضائها دون سبب واضح.. نظرت لجسدها، فلم ترَ ما قد يوحي بسبب ذلك الألم الشديد.. لكنها اكتفت بالتأوه وهي تمسك موضع الألم ووجهها منقبض، ثم نظرت لوجه أوس القلق وهمست "ما الذي جرىٰ لي؟"

سألها أوس بدوره "بل أنا من يريد أن يعرف.. ما الذي جرىٰ لك؟.. لقد سقطت فجأة الليلة الماضية فاقدة للوعي ولم تفلح كل محاولاتي إيقاظك.. فما سبب فقدانك لوعيك بهذه الصورة؟"

قالت ساما بحيرة "لا أدري.. كنت أتناول عشائي، عندما شعرت بدوار خفيف.. أغمضت عينيّ ولم أفتحهما إلا الآن.. والآن، أشعر بألمٍ قوي في جسدي لا أدري سببه.. فما الذي جرىٰ لي؟"

لم يملك أوس أي إجابات لتهدئة قلقها وتساؤلاتها، فصمت محاولاً تقليب هذا الأمر في ذهنه.. هل ما جرىٰ له علاقة بالوشم في عنقها؟.. أم أنه مجرد فقدان للوعي أجبرها عليه جسدها الضعيف أو لاختلاف البيئة بين العالمين؟.. هل عليه أن يقلق لما جرىٰ؟..

سمع صياحاً يأتي من بعيد، ورغم ضعف الصوت لكنه أدرك أنه صوت تيما.. خرج أوس من مدخل المخبأ ورفع بصره للسماء فرآها قادمة نحوه بطيران سريع متذبذب وهو ما أدهشه.. للمرة الأولىٰ تتخلىٰ تيما عن ثباتها وتصرفاتها المدروسة بدقة.. للمرة الأولىٰ يسمعها تصيح بتلك النبرة العالية والقلق واضح في ملامحها المنقبضة، وسرعان ما انتقل قلقها إليه وهو يقول بصوته الجهوري "ما الأمر؟.. ما الذي أفزعك بهذه الصورة؟"

وصلت إليه فارتمت أرضاً وهي تكاد تلتقط أنفاسها بصعوبة، ثم رفعت بصرها لوجهه المتعجب وقالت

بسرعة وكلمات متلاحقة "لقد اكتشفت أمراً.. وللأسف اكتشفت ذلك متأخراً جداً.."

قال أوس دون أن يزول تعجبه "وهل هذا سبب اختفائك الليلة الماضية؟"

لم تعلق وهي ترفع إصبعاً يهتز تجاه ساما قائلة بصوت متوتر "هذه الفتاة.. لقد شككتُ أن تكون فتاة عادية مع وصولها لعالمنا هذا سليمة دون أن تمسّها الأطياف بأذىٰ.. وازداد شكي برؤية الوشم علىٰ عنقها والذي شكل معضلة جديدة في عقلي.."

تراجعت ساما خطوة بقلق تقلب بصرها بين الاثنين وهي لا تدري ما الذي يجري حولها، فيما قال أوس باهتمام "هل عرفت لهذا الوشم أي معنىٰ؟.."

نهضت تيما وارتفعت بجسدها لتوازي طول أوس وأمسكت كتفيه قائلة بتوتر أكبر "علينا الرحيل من هذا المكان يا أوس.. عليك تركها هنا، فهم آتون لأجلها.."

انقبض قلب ساما وهي تستمع لما يقال بصمت كعادتها، من هم أولئك الذين سيأتون إليها؟.. وما الذي يريدونه بها؟.. تقدمت خطوة وتمسكت بيد أوس بتلقائية محاولة استشعار بعض الأمان في قبضته الضخمة مقارنة بيدها الدقيقة، ولما التفت إليها أوس نظرت له بنظرة استعطاف بالغة ممتزجة بقلق لا محدود.. وصاحت دون أن تفتح شفتيها بكلمة "لا تتركني هنا.."

أدرك أوس مخاوف ساما دون أن تتحدث، فالتفت إلىٰ تيما قائلاً "لا يمكنني ترك ساما وحيدة، وخاصة بوجود من يلاحقها.. فمن هم أولئك الذين يستهدفونها؟"

قالت تيما بشيء من العصبية "ليس هذا وقت الاستفسارات.. إنهم آتون علىٰ إثري، وخلال لحظات سيكونون....."

قطعت حديثها مع تلك الضربة القوية التي أصابتها بشكل خاطف ورمتها أمتاراً عدة بعيداً عن أوس وساما.. شهقت تيما بألم وهي تجد تلك الشباك التي ارتطمت بجسدها وألقتها بعيداً حتىٰ ضربت رأسها في صخرة كبيرة في جانب ضفة النهر تلك، لكنها حاولت تدارك الأمر والوقوف رغم الدوار الذي ألمّ برأسها بشدة، بينما سمعت صيحة مرتعبة من ساما التي اختبأت خلف أوس بعد ما جرىٰ..

التفت أوس مزمجراً نحو الجهة التي صدر منها الهجوم، ليفاجأ بجماعة كبيرة من الرجال يرتدون الدروع المعدنية التي تلتمع بضوء الشمس، ومسلحين بمختلف أنواع الأسلحة منها المدافع التي تطلق الشباك

والسيوف وبعض البنادق طويلة العنق وهم يقتربون منهم على ظهر سفينة متوسطة الحجم شقت النهر قادمة من الغرب..

لم يكن ما أثار توتر أوس هي تلك الأسلحة والمدافع التي شهرها الرجال نحوهم، بل كان ما رآه على أولئك الرجال أنفسهم.. فالوجوه كانت سمراء بشدة، غزيرة الشعر على شكل شوارب ولحى طويلة، بينما برزت أنياب طويلة واضحة من بين الشفاه المغلقة، وبدت الأجساد تفوق الطول العادي بشيء واضح وعليها دروعٌ فضية لامعة وخوذات قصيرة لا تكاد تتجاوز الأذن..

تمتم أوس رغماً عنه وهو يتلفت حوله "أنصاف الرجال.."

ولم تتمالك ساما رجفة جسدها مع ذلك اللقب.. ومع مرأى أولئك الأشخاص الذين التمع الشر في أعينهم وعلى وجوههم القاتمة..

الفصل التاسع : غياهب السجن

لحظات فقط فصلت ما بين ظهور سفينة (أنصاف الرجال) وما بين اتخاذ أوس القرار بالتصرف السريع..

لحظات كانت أثمن مما يعتقد، وهو يمسك يد ساما بقوة هامساً "علينا أن نهرب.. تمسكي بي جيداً.."

لم تعرف ساما كيف سيفعل ذلك وما الذي عليها فعله، وقد ازداد رعبها مع اقتراب السفينة وتمكنها من رؤية من عليها بوضوح أكبر.. فيما بدأ الجنود على تلك السفينة بتوجيه أسلحتهم نحوهما بتهديد واضح والسفينة تقترب بيسر من الضفة القريبة.. لكن أوس لم يتمهل وهو يرى تيما تفلت من الشباك وتبدأ تسلق المنحدر مختبئة خلف الصخور الكبيرة، عندها استدار أوس بدوره وهو يحمل ساما ويضعها على كتفه متسلقاً المنحدر بشكل متعرج وخطوات خفيفة وواسعة..

فور ارتقائه ذلك المنحدر، فوجئ برؤية عدد آخر من الجنود يقتربون منه محاولين تطويقه، ويبدو أن السفينة قد أنزلتهم للضفة في وقت سابق ليتمكنوا من تطويقه ومنعه من الفرار بساما.. فلم يتمهل وهو يقول لساما بتوتر "تمسكي بي يا ساما ولا تفلتيني.."

نظرت له ساما بحيرة في كيفية الاستجابة لهذا الطلب، فهو يحملها على كتفه حملاً.. لكنها بعد ذلك وجدته ينحني أرضاً وجسده يتحول بسرعة كبيرة ليتشكل بهيئة ذئب الريبال.. ولما وجدت الفرو الكثيف يظهر بغزارة تحت يديها، سارعت ساما للتمسك به وهي تحاول البقاء على ظهره ما استطاعت.. وسرعان ما سمعت صوت طلقات نارية شقت الهواء وضربت الأرض عند قدمي أوس، لكنه لم يتمهل للحظة وهو يقفز قفزات متتابعة جانبية ويحاول الإفلات من هذا التطويق بسرعة ركضه وخفة جسده..

لم يبدُ الرجال مندهشين لرؤية ذئب من (الريبال) أمامهم، ولم يبدُ عليهم أي ذعر أو قلق وهم يقفون في وجهه في دائرة محكمة الإغلاق.. نظرت ساما للبنادق بقلق وهي تحاول أن تخفي رأسها بين كتفي أوس، فيما لم يتردد هو في الاندفاع نحو جانب الدائرة حيث واجهه أحد الجنود ببندقيته، فقفز أوس قفزة جانبية سريعة قبل أن يندفع نحو الجانب الآخر مشتتاً الجندي.. ثم بضربة قوية من قدميه الخلفيتين قفز نحو الجندي ومخالبه ترتطم بصدره، فأسقطه وسقط فوقه وهو لا يتردد في ضربه ضربة قوية على عنقه..

فور سقوط الجندي، انثنى أوس مستهدفاً جندياً آخر، لكن قبل أن يصِل إليه وجد طلقة من الشباك ترتطم به وتلقيه مع ساما خلفاً بعنف.. أطلقت ساما صيحة مع مفاجأة سقوطهما أرضاً، لكن أوس أسرع لتفادي الموقف بضرب الشباك بمخالبه وتقطيعها فيما صاح أحد الجنود لرفاقه "حاذروا من إصابة الفتاة.."

أثار هذا تساؤلات في نفس أوس للهدف الذي لأجله جاء الجنود بحثاً عن الطفلة وهم حريصون على حياتها.. ولكنها كانت فرصة كذلك للهجوم بكل قوة وهو مطمئن أن الجنود لن يقوموا بالرد عليه بتهور مادامت الطفلة معه.. لذا لم يتردد في القفز على أحد الجنود مطبقاً على عنقه بفكيه، عندما فوجئ بآخر يضربة بعقب البندقية بقوة في بطنه رمته خلفاً رمية عنيفة.. فكان من نتيجة سقوطه أن أفلتته ساما رغماً عنها وجسدها يتقلب عدة مرات قبل أن تستقر أرضاً.. ركض أوس نحوها لاستعادتها، لكن عدة طلقات استهدفت المنطقة بينهما قد جعلته يحجم لوهلة فيغيرّ طريقه ويقفز على جندي آخر محاولاً الخلاص منه.. قدّر في ذهنه أنه يستطيع الخلاص من هذه الفرقة بسرعة قبل قدوم فرقة أكبر من السفينة والقبض على ساما.. فصاح بساما وهو يضرب جندياً بمخالبه "اهربي.."

كانت ساما قد نهضت واقفة بالفعل، فاستدارت هاربة نحو مجموعة قريبة من الأشجار.. فيما ناور أوس بخفة قبل أن يرتطم بجسده بجندي آخر بقوة محاولاً استهداف عنقه.. وقبل أن يفعل، فوجئ بجندي قريب يصوب فوهة بندقيته نحو بطنه، فقفز أوس للخلف بسرعة هرباً من طلقة كادت تخترق جسده.. وفي الآن ذاته، وجد رصاصة تصيب فخذه إصابة حارقة جعلتها تتخاذل تحته للحظة، لكنه تمالك نفسه قبل أن يسقط وضغط على ألمه مناوراً قبل أن يقفز على كتفي أحد الجنود من الخلف ويطبق فكيه على عنقه.. لكن للدهشة، لم يتوانَ الجنود في تلك اللحظة عن إطلاق الرصاص بغزارة عليهما معاً، مقدرين أن خسارة جندي واحد خير من خسارة المهمة كلها.. صدّ جسد الجندي الصريع أغلب الطلقات، لكن بعضها أصاب أوس في عدد من المواضع والدماء تلطخ فروه الأبيض الناصع..

تعالت صرخات ساما المذعورة عندما لحق بها جنديين وقبضا عليها قبل أن تتمكن من الهرب، فيما قاوم أوس محاولاً الإفلات من جسد الجندي الصريع الذي سقط عليه.. ولما أفلح في ذلك، تغاضى عن آلامه وجراحه العديدة وهو يركض نحو ساما والجنديين يقتادانها بالقوة نحو الضفة.. لكنه وجد طلقة أخرى من البندقية تصيبه في بطنه فتلقيه أرضاً ليتدحرج جسده قبل أن يسكن تماماً دون حراك..

صرخت ساما وصرخت مذعورة لكل ما تراه.. للدماء التي كادت تغيّب لون فرو الذئب بحمرتها، ولقسوة الجنود الذين اقتادوها رغماً عنها نحو السفينة.. حاولت ساما الإفلات قدر استطاعتها، وقلّبت بصرها في الأشجار القريبة بحثاً عن تيما لتعينها على الهرب والعودة لأوس.. لكنها لم تجد من يعينها، ولم تلحظ أي حركة على جسد أوس الساكن، ولم تدرِ ما تساق له بهذه الصورة الفجة.. ورغم صراخها وبكائها، فإن الجنود لم يعبؤوا بها قيد شعرة مرغمينها على ركوب الزورق الذي سيقلّها للسفينة القريبة، حيث سترحل لمواجهة مصير لا تدري نهايته..

مع رحيل فرقة الجنود تلك، وخفوت صياح ساما الذي لم يتوقف طوال الوقت، هدأت المنطقة بشكل كبير إلا من أصوات الحيوانات القريبة التي أفزعها الضجيج المفاجئ.. ومن موقع أعلى إحدى الأشجار القريبة، تأملت تيما المكان بتوتر كبير.. عندما بدأت هذه الأحداث وفرّت هي من الهجوم، وقفت لوهلة فوق أعلى الأشجار تنظر لسير المعركة.. كانت عازمة على الرحيل ومتأكدة أن أوس لن ينجح في صدّ هذه الجماعة من الجنود، ناهيك عن البقاء حياً بعدها.. لكنها لا تدري ما الذي جمّدها في مكانها تراقب ما يجري بحاجبين معقودين وعينين قلقتين رغماً عنها.. راعها ما جرى في اللحظات التالية، لكنها لم تقدر على مدّ يد العون بأي وسيلة كانت.. وهي لم تعبأ لما يجري لساما قدر اهتمامها بالسبب الذي لأجله استُهدفت وسيقت لقلعة أنصاف الرجال.. ولم تعبأ لأمرها قدر اهتمامها بما جرى لأوس الذي ظل جسده ساكناً في موقعه بعد الرصاصة الأخيرة التي أصابته..

ولما تأكدت تيما من رحيل فرقة الجنود وخلوّ المنطقة من أي خطر عليها، وقفت في مكانها المرتفع وهي عازمة على الرحيل.. لقد انتهى الأمر، وما عاد بإمكانها فعل شيء الآن.. ارتفعت ووجّهت نفسها بعيداً عن ضفة النهر وعن المسار الذي اتخذته تلك السفينة، لكنها في لحظة استدارت وحلقت بسرعة حتى حلّت قرب جسد أوس الملقى على وجهه دون حراك بعد أن استعاد هيئته الأصلية.. تجمدت للحظة وهي ترى الدماء التي تسيل بغزارة من جسده، غير مدركة ما الذي دفعها للاقتراب منه!..

يبدو أنه لا يزال حياً، لكنه في غيبوبة وفرصته ضعيفة للنجاة مع جراحه هذه.. فما الذي يمكنها أن تفعله

لمعاونته؟.. ولِمَ قد تفعل ذلك؟.. لا تدري.. لم يعد جسدها ينصت لصوت عقلها وهي تسارع لقلبه على ظهره وهزته قائلة بتوتر "أوس.. استيقظ.. ما الذي جرى لك؟"

بدا أنه لن يستيقظ رغم كل محاولاتها.. كان هناك جرح عميق في بطنه من الرصاصة الأخيرة التي أصابته، وآخر في كتفه قريباً من موضع قلبه بشكل بادي الخطورة، بالإضافة لجراح متفرقة في ساقيه وذراعيه ورأسه لكنها كانت أقل حدة.. سارعت دون إبطاء لخلع قميصه الذي تمزق في أكثر من جانب، وضغطت به على جرح بطنه وهو الأعمق والأخطر على حياته.. لكن مع ضغطها المستمر، ظل الجرح ينزف دماً بغزارة من تحت القميص، وتلطخت يداها بالدماء وهي تهمس بقلق متزايد "لا لا لا.. لا تفعل هذا الآن.. قاوم ولا تكن متهاوناً.."

لكنها لم تجد استجابة لا منه ولا من جراحه التي ظلت تنزف بكل عناد.. عضّت تيما شفتها السفلى وهي تراقب ما تفعله بشيء من اليأس.. كيف لها أن تتوقع بقاءه حياً بعد كل هذا؟..

ظلت مصرة على ما تفعله دون أي فائدة تذكر.. لكن من أين لها برباط تربط به هذه الجروح حتى لو توقفت عن النزف؟.. كيف لها أن تعالجه وهو غائب عن الوعي في هذا المكان المنقطع؟.. هل ترحل بحثاً عن طبيب في قرية قريبة؟.. أم تلجأ للحكيم الأقرب إليهم من أي قرية؟.. وهل سيبقى حياً حتى تعود؟..

دمدمت بتوتر كبير "ما الذي أفعله الآن؟.. كيف لك أن توقعني في مثل هذه الورطة؟.. ألم أطلب منك التخلي عن الفتاة والهرب؟.."

تلفتت حولها بتوتر كبير وارتباك أكبر.. ثم نظرت لوجهه الصامت الذي غدا شاحباً بشدة مع كل لحظة تمضي.. فقالت بضيق وشيء من الحنق "ستموت أحمقاً كما عشت أحمقاً يا أوس.. ألم أحذرك من هذه النهاية؟.."

كانت لا تزال مصرة على الضغط على جرحه رغم الدماء التي سالت من تحت يديها، وبعد لحظات ثبتت تيما بصرها على يديها اللتين تلطختا بدمائه وهي ساهمة.. إن أوس يموت.. لحظات فقط وسيفقد حياته البائسة تلك دون أن تتمكن من منع ذلك.. هل تستطيع منع ذلك؟.. هل تستطيع تغيير ذلك؟.. بل لِمَ عليها حتى التفكير في ذلك؟.. ما الذي قد يعنيه لها موت أوس أو نجاته من هذا المصير؟..

عضّت تيما شفتها السفلى بقوة حتى أدمتها، وقالت بأنفاس ثائرة "لِمَ لِمْ تستمع لنصحي قط أيها العنيد؟.."

لكنها طبعاً لم تجد منه جواباً يذكر ودماءه تنزف بغزارة لم ترَ مثلها قط.. وبدا أن روحه معلقة بخيط رفيع يوشك على الانقطاع في أي لحظة.. وما كانت تيما تملك إلا مراقبة لحظاته الأخيرة بصمت وقلة حيلة..

سقط الكتاب الضخم من يدي مالو أرضاً وكادت صفحاته القديمة تتبعثر في المكان.. فيما تمالكت مالو رجفة يديها وهي تقول بصوت مبهوت "ما معنى هذا؟.."

كانت الصفحة البادية أمامها تحمل رسماً مقارباً لذلك الذي رسمته تيما على الكتاب الآخر.. كان هذا من أقدم الكتب الموجودة في حوزة الحكيم، وقد قضت مالو ساعات طويلة في بحث عسير حتى عثرت على ذكر لهذا الوشم الغريب.. ورغم اختلاف بسيط بين الاثنين، لكنها تأكدت أن هذا هو الوشم المعنيّ.. والشرح الذي رأته مكتوباً قربه كان مفصّلاً بحيث أزال عنها أي شبهة حول هويته.. ورغم ذلك، شعرت بصدمة وارتباك شديدين بحيث أفلتت الكتاب من يدها بشكل تلقائي..

هرعت جالسة أرضاً وهي تعيد ترتيب الكتاب قبل أن تتساقط وريقاته بسبب اهتراء أجزائها.. ثم نظرت للصفحة التي حملت الوشم من جديد وتأملته قارئة الشرح المفصل قربه مرة ومرة ومرات.. أخيراً، قالت بصوت متحشرج "كيف يمكن أن يصل هذا الوشم لطفلة بشرية؟.. من الذي جرؤ على ارتكاب هذه الجريمة بها؟"

شعرت بأسىً متزايد لمصير ساما الذي لا يزال مجهولاً بالنسبة لها.. إنها حية على الأقل حتى الآن.. لكن ما الذي سيجري لها بعد الآن؟.. ما الذي يجعل شخصاً يتكبد عناء الرحيل لعالم البشر واختيار طفلة بشرية لوشمها بهذا الوشم؟.. كيف له أن يتجاوز طريق الأطياف بسهولة؟.. ومن أين حصل هذا الشخص على هذه المعرفة؟.. هذا من التعاويذ النادرة جداً، ويبدو أن أحداً بخلاف الحكيم لا يعلم عنه شيئاً.. هي نفسها لم تعرف عنها شيئاً رغم كل السنوات التي قضتها تلميذة للحكيم.. فكيف حصل شخص على هذه التعويذة؟.. هل صاحبتها هي تلميذة الكاهن يوريت الذي ذكره الحكيم؟.. وما هدفها من اختيار طفلة بشرية بالذات؟..

نهضت مالو ودارت في المنزل للحظات بتوتر كبير.. كانت بحاجة للوصول للحكيم.. لا بد أنه عرف

مغزى الوشم.. وعرف سبب استهداف طفلة بشرية بالتحديد.. أهذا سبب اختفائه المفاجئ؟.. هل رحل بحثاً عن ساما، أم عن صاحبة الوشم؟..

هل ينوي التدخل أخيراً في أمر ساما؟.. وهل سينقذها من المصير الذي قد تواجهه في هذا العالم؟..

لم تكد الرجفة التي اعترت ساما تخفت وهي موثقة بصحبة أولئك الرجال غريبي الهيئة شرسي الطباع في السفينة المنسابة مع مجرى النهر العريض.. فيما تلوى النهر قاطعاً جزءاً كبيراً من السهول الواسعة التي تحدّها الغابات في بعض جوانبها.. كانت ساما مقيدة العنق بقيد حديدي يتصل بسلسلة إلى يد قائد تلك الفرقة من الرجال طوال وقت الرحلة، وكأنهم يخشون هربها بأي وسيلة كانت.. وعدا عن ذلك، لم يكن أحدهم يبادلها الحديث أو يفسر لها السبب الذي لأجله يصطحبونها معهم طوال هذه المسافة.. ما الذي يبغونه من طفلة بشرية بهذا الإصرار؟..

لطالما حذرها الجميع من سكان هذا العالم.. حذروها ممن يهوى التهام البشر أو شرب دمائهم (مثلما كان حال تيما).. لكن لا يبدو أن أحد هؤلاء الرجال ينوي التهامها في أي وقت قريب.. فلأي أمرٍ تُساق هذه المسافة كلها؟.. لم تغادر هذه الفكرة ذهنها وهي تزداد ارتجافاً في كل ساعة تمضي عليها وهي بينهم صامتة لا تكاد تجرؤ حتى على طلب شربة ماء..

سارت السفينة حتى وصلت للنهر العريض الذي تجري مياهه نحو الشمال دون انقطاع، ثم وصلوا بعد مسير عدة ساعات إلى موضع يلتقي فيه النهر مع نهرٍ آخر أضيق منه ينبع من الغرب ويصبّ في قلب النهر الرئيسي دون انقطاع.. فسلكت السفينة ذلك النهر الضيق متخلية عن طريقها السابق، وبعد ساعات أخرى انكشف ذلك النهر عن بحيرة عميقة واسعة بشكل لم تره ساما قط.. والشيء الوحيد الذي أكد لها أنها بحيرة وليس بحراً هو في رؤيتها للجانب الآخر بشكل باهت على مسافة كبيرة من موقعها هذا.. ووسط البحيرة، على جزيرة متوسطة الحجم صخرية الأطراف، انتصبت قلعة عمودية رمادية اللون.. كانت القلعة الحجرية تحوي أبراجاً لا يقل عددها عن عشر، وبسور عالٍ يكاد يغطي جوانبها كلها، مع بعض النوافذ التي دعمّت بعوارض حديدية تمنع التسلل عبرها، رغم استحالة ذلك مع ارتفاع سورها

وانسيابيته بحيث يستحيل تسلقه بأي شكل كان.. والأعجب أن تلك القلعة الواقعة وسط البحيرة كانت تبدو لعيني ساما منعزلة لا يصلها أي جسر أو طريق بأي جهة من ضفاف البحيرة التي يقفون عندها.. وبدا أن الوسيلة الوحيدة للوصول إليها هو عبر السفن والقوارب التي تقطع مياه البحيرة بسلاسة تامة..

عند اقتراب السفينة من القلعة، تبدّت لها جوانبها بوضوح، وأدركت بعينيها الطفوليتين أنها تتفوق على أي بنيان قد رأته أو قد تراه في حياتها.. كانت القلعة بأبراجها شامخة تكاد تعانق السماء، وبدت أسوارها متينة لا يمكن اختراقها بسهولة.. ومع اقتراب السفينة، لم ترَ ساما أي ميناء يمكن الرسوّ قربه، بل استمرت السفينة في طريقها حتى اقتربت من جانب من جوانب القلعة.. عندها، استطاعت أن ترى ذلك النفق الذي يمتد عميقاً في قلب القلعة ويمكن للسفينة أن تعبر تحته بسهولة مهتدية بنور مشاعل أشعلت على جوانب ذلك النفق..

سارت السفينة بحذر وبطء حتى وصلت لمرسىً صغير في قلب النفق.. ولما ارتطم جانب السفينة الخشبي بالمرسى الصغير، بدأ الجنود القريبون عملهم بنشاط وهمة.. تم إنزال منصة خشبية من السفينة للمرسى، وبدأ القائد بالنزول عبره مصطحباً ساما دون أن يفك قيدها الحديدي..

لم يهدأ قلق ساما مع كل خطوة تخطوها في جنبات تلك القلعة.. قادتهم سلالم حجرية قديمة إلى السطح، ومنها تجاوزوا عدداً من الساحات حتى وصلوا لقلب المكان حيث انتصب قصرٌ عظيم الهيئة.. ورغم الفخامة البادية على المكان، لكن الأسوار العالية للقلعة تلقي ظلالاً داكنة على جوانبها وتخفي نور الشمس عن قاعاتها أغلب ساعات النهار، مما يمنحها كآبة واضحة وجموداً وحشياً.. اقتيدت ساما وسط الممرات ومختلف القاعات وجميع من في القصر يبتعدون عن طريق تلك الفرقة وهم يرمقون ساما بينهم بمزيج الفضول ومشاعر أخرى مبهمة لا تفهمها..

وأخيراً بدأت الفرقة ترتقي درجات أحد الأبراج العالية حتى وصلوا لغرفة في أعلاه.. ورغم الشمس الواضحة من خلف الستائر التي تغطي النوافذ، إلا أن الغرفة كانت معتمة شيئاً ما إلا من نور بعض المصابيح الموزعة في جوانبها.. ووسطها، بسط فراش أرضاً وعليه جسد لا يبدو واضحاً لعينيها من مكانها حيث أوقفها الرجال بصمت تام.. وبعد محادثة هامسة بين قائد الفرقة وذلك الشخص، اقتربت خادمتان ممن كن يقفن جانباً، فساعدتا صاحب ذلك الجسد على الاعتدال جالساً بصعوبة واضحة.. وفي الوقت

ذاته، اقتاد القائد ساما قريباً بحيث تمكنت من رؤية ذلك الشخص بوضوح زاد ذعرها أضعافاً مضاعفة وزاد رجفة جسدها بشكل بادٍ للناظر إليها.. فأمامها، جلست فتاة لا تكاد تتجاوز الخامسة والعشرين من عمرها، بملامح عادية، وشعر قصير ثائر غير معتنىً به، وجسدها ملفوف بضمادات كثيرة تلطخت بالدماء بكثافة مرعبة.. أما ذراعيها، فقد بدتا مقطوعتان من الزند والضماد السميك يغطي الطرف المقطوع وقد تلطخ بدوره بالدماء..

ارتجفت ساما بشدة وهي ترىٰ الفتاة تراقبها بابتسامة جانبية.. ورغم ملامح الفتاة العادية وشحوب وجهها الواضح، لكنها تملك نظرة ثاقبة وعينان ذات جاذبية هائلة، ولم يكن ذلك شعوراً محبباً للنفس.. وللمرة الثانية، شعرت ساما أنها لا تكاد ترىٰ تلك العينان بوضوح، ولا تعرف لونهما الأصلي.. تشعر أنها كلما نظرت فيهما رأت مئات الأعين وعشرات الألوان والهيئات المختلفة.. متىٰ كانت المرة الأولىٰ التي رأت فيهما هاتين العينين؟.. لا تذكر.. ويؤلمها رأسها كلما حاولت التذكّر..

ابتسمت الفتاة لرجفة ساما الواضحة وقالت بصوت متعب "لا تخشي شيئاً يا صغيرة.. لقد أتيتِ لقدرك.. فأنا قدرك، وأنت لي.."

أصاب وخز حارق عنق ساما من الخلف، لكنها لم تجد في نفسها القدرة علىٰ رفع يدها وفرك موضع الألم، ولا في جسدها القدرة علىٰ الحراك من ذلك المكان الذي أورثها توجساً عارماً تكاد تفقد عقلها معه.. كل ما استطاعت فعله هو الثبات في مكانها وعدم تحويل عينيها عن تلك العينين اللتين بدأتا تتسعان وتتسعان حتىٰ غاب كل ما حولها في ظلام دامس.. وشعرت ساما أنها وحيدة في ذلك العالم مع تلك العينان..

لم تكد تلاحظ أن شفتي الفتاة تتحركان بتمتمة خافتة متلاحقة.. وإن شعرت في الوقت ذاته بعدة مشاعر تزاحمت في عقلها وشغلتها عن أي شيء آخر..

شعرت بدوار قوي وتعب بالغ..

وشعرت أن روحها تكاد تنسل منها بقوة..

حتىٰ سقطت فاقدة الوعي عند قدمي صاحبة العينان الثاقبتان..

وغاب عنها إحساسها بما حولها بشكل تام..

لم تكن هذه ليلة عادية.. لمَ؟.. لأنني لم أكن أنوي جعلها كذلك.. سرت في طرقات قصر الملك الواقع وسط القلعة التي يطلق عليها الغرباء اسم قلعة (أنصاف الرجال).. ورغم أنه لقبٌ يبدو مهيناً لنا، لكننا أصبحنا نفخر به ونفخر بهويتنا التي تختلف عن غيرنا، وبقوانا التي تميّزنا عن العامة في هذا العالم المشتت الذي لا يعرف قانوناً أو أعرافاً يسير عليها..

كالعادة، بدا الحراس في وقفة متأهبة وهم يرمقونني بصمت بانتظار أي أوامر مني.. فبمنصبي كقائد للجند في القلعة، كنتُ أحظى بمميزات لا ينالها غيري، وربما لا ينالها الملك ذاته دون العودة إليّ.. وهذا سهل عليّ الكثير من العوائق وأنا أمضي بخطوات حازمة وعزيمة لا تعرف التردد.. وأمام أحد الأبواب التي اكتسبت أهمية قوية في السنوات الماضية لأهمية من تضمّه في قلبها، طرقت الباب للحظات حتى أتاني الإذن بالدخول..

كان الوقت متأخراً، لكنني كنت متأكداً أنها مستيقظة.. كنت متأكداً أنها ستسمح لي بالدخول كما تفعل عادة، ولن تتحلّى بأي حذر تجاهي.. دخلت الغرفة الواسعة بأثاثها الوثير ورائحتها المميزة.. أصبح لهذه الغرفة رائحة تميزها عن غيرها، ولا يمكن التكهن بهذه الرائحة بشكل قاطع، فهي تبدو مزيجاً من رائحة بعض الأعشاب العطرية مختلطة برائحة دخان الشموع.. ووسط الغرفة، جلست تلك الفتاة التي لا يبدو أنها تتجاوز الثانية والعشرين من عمرها وهي منشغلة بقراءة كتاب كبير بالي الأطراف..

لم ترفع بصرها لي، وهي تعرف هويتي بكل تأكيد، وإن قالت "ما الأمر؟.. الوقت متأخر على مثل هذه الزيارات.."

تقدمت حتى أصبحت على بُعد خطوات منها، وقلت بصوت لا يحمل أي انفعال "متى ستعيدينها؟"

كان هذا السؤال كفيلاً بجذب انتباهها، فرفعت بصرها لي وهي تنحّي الكتاب بيدها جانباً.. نظرت لي بعينيها الزرقاوين الواسعتين وملامحها البريئة.. أو التي كانت بريئة قبل أربع سنوات.. تلك الملامح التي كانت تشعرني بحبٍ لا محدود ورغبة عارمة في حماية ورعاية صاحبته من كل أذى.. تلك الملامح التي أصبحت

تثير فيّ مقتاً وكرهاً عارماً رغماً عني..

ابتسمت ابتسامة حاولت إكسابها بعض اللطف وقالت "ولمَ هذا السؤال الآن؟.. ألم أعدك بأنها ستعود؟"

قلت بإلحاح "متى؟.. أنتِ تزعمين ذلك منذ أربع سنوات.. فمتى تنوين تحقيق هذا الوعد؟"

قالت بإصرار "قريباً.. قريباً جداً يا جاد.. ألا يمكنك الصبر؟"

قلت بشدة "لا.. فرغ الصبر مني منذ زمن.. لمَ اخترتِ فيت بالذات؟"

عقدت أصابعها مجيبة "هذا يستدعي شرحاً طويلاً ليس هذا مكانه.. هناك العديد من العوامل التي تؤثر في اختياري.. لكن هذا لا يعني أن الفتاة تعيسة الحظ باختياري لها.. ثق أنني سأعيدها، وسأعوضها عن كل ما جرى.."

قلت بغضب متنامٍ بشدة "تعوضينها؟.. عن انتهاكك جسدها بهذه الصورة؟.. هل تمزحين معي أم تحاولين مغافلتي؟.."

نهضت مقطبة وقالت "لكني لستُ كاذبة.. إياك أن تتجاوز حدودك معي يا هذا.. لن أتردد في قتلك بحركة من سبابتي.."

نظرت لها بصمت محاولاً تحجيم الغضب الذي احتشد في صدري، ثم قلت بلهجة عادية "أنا مصرٌّ على معرفة الوقت الذي ستفين بوعدك فيه.. متى سيكون ذلك؟"

بدا أن هدوئي المفاجئ قد أشعرها بانتصارها عليّ، فقد ابتسمت ابتسامة ظفر، ثم لوحت بيدها قائلة "سأخبرك بذلك قريباً.. غادر الآن قبل أن أبلغ الملك بتطاولك عليّ.."

وأدارت ظهرها لي وهي تتثاءب.. كانت تلك ثقة بالغة منها.. ألأنها واثقة أنها أقوى مني؟.. ألأنها واثقة أنني لن أؤذي هذا الجسد؟.. ألأنها واثقة أنني أخشى الملك ولن أقوم بأي فعل قد يغضبه؟.. هذه ثقة كبيرة من شخص أراه ضعيفاً برأيي..

وعندما اندفعت نحوها بلحظة خاطفة استدارت نحوي ونظرت إليّ بمفاجأة.. ورغم أنها نظرت لي بعينيها الزرقاوين اللتين كانتا أحب إليّ من الدنيا وما فيها، لكني لم أتردد من دفع الخنجر الصغير الذي أحمله

بيدي عميقاً في ذلك العنق الدقيق..

غاص الخنجر عميقاً في عنقها الهش، ونظرت لوجهها المصدوم هامساً بثورة "لن تخدعيني أكثر من هذا يا حقيرة.. قتل هذا الجسد خيرٌ عندي من تركه ألعوبة في يد امرأة مثلك.."

تدفقت الدماء من الجرح، وسالت من فمها وهي تصدر صوتاً متحشرجاً، قبل أن تسقط أرضاً دفعة واحدة بصمت.. وقفت في مكاني أنظر للجسد المتهاوي بهدوء يخفي انفعالاتي المحتشدة، ثم انحنيت وضممت الجسد إليّ وأنا أهمس "سامحيني يا فيت.. كان هذا كل ما أقدر على فعله لإنقاذك.. سامحيني.."

كنت أعرف أنني سألاقي أشد الجزاء على ما فعلته.. لكن لم يكن ذلك يهمني.. بعد أن فقدت فيت بخدعة من تلك المرأة التي تلقب نفسها بالكاهنة أصبحت الدنيا بالنسبة لي لا معنى ولا أهمية لها.. أصبحت حياتي وموتي سواء.. كل ما كان يهمني أن أقضي على هذه الكاهنة.. أن تلاقي الجزاء ذاته على ما فعلته بفتاة بريئة لا تعرف من هذه الدنيا إلا الجانب السعيد المثالي الذي يخلو من أي شر أو كراهية..

في زنزانة ضيقة تقع أسفل القلعة، في موقع ينخفض شيئاً ما عن مستوى سطح البحيرة، كانت الرطوبة هي أكثر ما يمكن ملاحظته في هذا المكان الأشبه بقبو واسع.. لم يكن هناك أكثر من عشر زنازين في المكان، فلم تكن هناك حاجة لها في الحقيقة.. هل لأن الجرائم شبه مختفية في هذه القلعة؟ أم لأن أغلب العقوبات تكون القتل دون تردد؟ لا أحد يعلم.. ولم يحتل شخص ما أي زنزانة في السنوات السبع الماضية إلا شخص واحد.. شخص عاش الأمرّين في سنوات سجنه دون أن يجد وسيلة للخلاص..

بعد سجنه بأسبوع واحد، جاءه بازر الذي استلم منصب قيادة الجيش من بعده، وأخبره أن الكاهنة لا تزال حيّة.. أخبره أنها عادت من جديد دون أن يصيبها أي سوء، وهي الآن في قصر الملك.. كانت صدمة جاد بهذا الخبر لا تقل عن دهشته لقرار الملك الاكتفاء بسجنه دون قتله على الجريمة التي ارتكبها..

ثار جاد بشدة لهذا الخبر، وصرخ بغضب شديد مطالباً إطلاق سراحه.. كان يريد رؤيتها من جديد.. والهدف واضح طبعاً.. يريد قتلها، والخلاص منها من جديد.. لا يمكنه أن يصمت على ما يجري.. لا

يمكن أن تكون فيت هي الوحيدة التي تموت نتيجة هجومه ذاك.. كان على الكاهنة أن تموت بدورها وتختفي من الوجود..

لكنها عادت.. عادت بكل سهولة ويسر، وعادت لقصر الملك وكأن شيئاً لم يحدث.. عادت كحكاية خرافية تصرّ على أن تهزأ به وبمحاولته البائسة تلك للخلاص منها..

لم يعلق بازر على ثورته العارمة، بل قال بلهجة مريرة ولوم واضح "لو أنك صبرت قليلاً فقط.. لو أنك لم تقُم بهذا التصرف البشع.. لم نكن عندها سنفقد فيت بهذه الصورة.."

صاح جاد بغضب "لم تكن ستعود.. ألا تفهم ذلك؟.. تلك الكاذبة كانت تخدعك.. كانت تخدعنا جميعاً طوال السنوات الماضية.. حتى متى سنصبر على كذبها وخداعها ونعاملها كشيء مقدس لا يمكن مسّه؟"

لم يجب بازر واللوم لا يختفي من عينيه.. بعدها، غادر تاركاً جاد في سجنه، ولم يقم بزيارته طوال السنوات التالية بتاتاً..

سبع سنوات قضاها جاد في سجنه دون أمل في الخروج أو حتى الموت للخلاص من هذا السجن.. وبعد تلك السنوات، جاءه مبعوث من الملك يعرض عليه الصفح وإخراجه من السجن.. كان عرضاً غريباً من الملك الذي اعتاد قتل كل من يرفع صوته بمعارضة صغيرة لأي أمر من أوامره.. لكن قبل أن تزول دهشة جاد، أخبره المبعوث أن ذلك العرض مشروط بشرط مهم..

وذلك الشرط، والذي سيمنحه حريته بعد سنوات السجن البغيضة، هو أن يصبح حارساً شخصياً للكاهنة ويطيع أي أمر منها..

ثار جاد من جديد لهذا الطلب الذي يستخفّ به بشدة، ويستخف بالكره الذي يحمله للكاهنة.. غادر المبعوث ذلك اليوم محمّلاً برفض جاد ولعناته.. لكن بعد عدة أيام من التفكير وبعد أن هدأ غضبه الأولي، وبعد أن عاد المبعوث عارضاً عليه الأمر من جديد في إصرار غريب، أعلن جاد موافقته.. سيفعل كل ما تطلبه للخلاص من سجنه هذا.. كانت هذه موافقته الظاهرية، وقد وجدها جاد فرصة لرؤية الكاهنة والاقتراب منها من جديد..

ذلك اليوم، دار في سجنه وثورة شديدة تشتعل في صدره مفكراً في اللقاء القادم.. كانت تلك فرصة من الفرص النادرة التي قد لا تتكرر من جديد.. فهو رغم كل السنوات الماضية، لم يخفت غضبه ولم تنطفئ

النيران المستعرّة في صدره ولو للحظة..

سيقتلها من جديد..

مهما كانت، وبأي صورة ستقف أمامه، فسيغرز الخنجر في عنقها مرة ومرة ومرات أخرى حتى لا يبقى لها أي وجود.. فمثلما جاءت من حيث لا يعلم أحد، ستذهب لحيث لا يعلم أحد..

وسيكون هذا بيده هو دون أدنى تردد..

وعندما جاءت فرقة من الجنود تحيط بالملك الذي حضر هذا اللقاء، كان الأمر مدعاة للضحك للأهمية التي صبغت هذا الحدث.. كان جاد مقيد اليدين والقدمين في الحائط استعداداً لهذه المقابلة لئلا يحاول التطاول على الكاهنة أو على الملك، فيما وقف الملك الذي أصرّ على مرافقة الكاهنة في هذا اللقاء قريباً من الباب وقال "عليك أن تكون شاكراً يا هذا للكاهنة ولي لتعطّفنا على شخص مثلك وغفراننا لجريمتك السابقة.."

ندّت من جاد ضحكة هازئة لهذا القول، فقطب الملك وراودته نفسه بقتل هذا الوقح، لكن تشديد الكاهنة على ألا يتم قتله بأي شكل من الأشكال جعلته يحجم عن هذا الأمر.. فاستدار خلفاً ونظر للكاهنة التي وقفت خلفه بصمت.. أدار جاد بصره بدوره إليها وعيناه تلتمعان كعيني نسر لمحتا طريدة تحاول الفرار هاربة.. وفي لحظة، لحظة لا تتجاوز انبعاث نَفَس أو ارتداده، لحظة واحدة سقط فيها بصره على الكاهنة التي رمقته بهدوء، انطفأت نيرانه المشتعلة التي حرص على تأجيجها زمناً طويلاً..

تباً لهم.. لابد أنهم يخدعونه.. لابد أنهم يريدون بهذه المسرحية حمايتها من انتقامه..

لكن.. ماذا لو كانت هي؟.. إنه لا يعرف بأي صورة ستعود، ولا بأي هيئة سيراها.. فما الذي سيفعله لو كانت هي بالفعل؟.. من كان يصدق أن يتهاوى كل شيء في لحظة بعد كل هذه العمر؟..

فمن بين الجنود الذين وقفوا أمامه، ظهرت أمامه بجسد قصير وضئيل لفتاة لا تتجاوز الثامنة أو التاسعة من عمرها بأي حال من الأحوال.. تأمل ما بدا من شعرها الأملس الذي بلون عينيها من تحت معطفها الأسود بغطاء الرأس الملحق به.. بشرتها الذهبية.. وقامتها الضئيلة القصيرة.. والأدهى من ذلك، تلك الرائحة البشرية الخافتة التي تنبعث منها بوضوح.. ثم تمتم بصوت أجش "إنها طفلة...!"

نظر له الملك بنظرة لم تعجبه وهو يقول بجفاء "ألديك اعتراض على ذلك؟"

فقال بهياج وهو يحاول خلع قيوده "إنها طفلة.. أتستهزؤون بي؟.. هذه مجرد طفلة.."

لم يجبه أحد وهم ينتظرون تعليقها، بينما قال بغضب "لا يمكن أن تكون هي.. لا يمكن أن تخدعوني بإحضار هذه الطفلة بدلاً عنها.. أين هي؟.."

لكنها قالت بصوت هادئ طفولي "لكني هي.. وأنت أكثر من يدرك ذلك.."

نظر لها بصمت بحثاً عن أي لمحة لتكذيب ما رآه.. لكنها كانت هي بالفعل.. لا يدري لمَ، لكنه كان واثقاً أنها هي بالفعل.. ربما كانت تحمل النظرات الحازمة الجامدة ذاتها.. أو ربما رأى روحها تطل بوضوح من هاتين العينين الصافيتين.. لكنه أدرك في لحظة أن من تقف أمامه هي غريمه بالفعل..

اقتربت خطوة منه وقالت بحزم يكبر ها بسنوات وسنوات "والآن، ما هو قرارك؟.. السجن مدى الحياة؟.. أم أن تكون معي؟"

قال بزمجرة حانقة "ولم لا تعدموني لأتخلص من كل هذا الذل؟"

قالت بهدوء "الخلاص ليس لأمثالك.. لو كان مصيرك الإعدام، لحدث ذلك منذ سبع سنوات.. لكنهم استبْقَوك انتظاراً لهذه اللحظة.. اللحظة التي ستحدد مصيرك ومصيري لما بقي لنا من حياة.. أأنت معي أم لا؟"

فعلاً.. مصيره يتحدد هذه اللحظة.. ولكن، أيمكنه حقاً اتخاذه بضمير مستريح؟.. أن يخون نفسه وشقيقته وعشيرته ليضمن حياة مذلة؟.. أم يرفض الخيانة ويبقى في سجن مذلٍ لما بقي له من حياة؟..

بقي خافض الرأس بصمت، فيما ساد التوتر البقية وهم ينتظرون جوابه.. وفي هذه المرة، لو رفض سيكون مصيره هو الموت دون تردد..

أما جاد، فقد شعر بضياع شديد في تلك اللحظات.. لقد انطفأت النيران التي أبقته حياً طوال تلك السنين.. الشعلة التي ظنّ أنها لن تنطفئ، قضت عليها هذه الطفلة بجسدها الضعيف الضئيل.. قضت عليها بعينيها البريئتين، رغم حزمهما الواضح.. دمرت بجسدها الضئيل وأطرافها الهشة كل رغبة لديه بالانتقام..

فما هو فاعل الآن؟..

بحق السماء ما هو فاعل؟..

بعد تفكير بدا له طويلاً وعسيراً، قرر أن ينتهز تلك الفرصة التي لن تتكرر.. لم يعبأ لحياته أو موته، لكنه لم يكن ليرضى بالموت قبل أن يقتلها هي.. قبل أن يتأكد أنها لن تعود من جديد.. لذا، رفع بصره للآخرين، وثبته على وجهها قائلاً بصوت حازم "أنا موافق.."

كان لرده أثر عكسي في الجميع، فقد ساد التوتر والقلق من حوله.. كانوا واثقين أنه سيرفض، وعندها لن يكون هناك أي تردد في قتله والخلاص منه.. أما الآن، فهم أمام قرار حاسم.. إما التسليم بما قررته الكاهنة ووافق عليه هو، والاحتفاظ بهذا القلق والتوتر الذي يعكر صفو أيامهم بالتأكيد.. أو تجاهل ما قيل ورفضه مخاطرين بذلك بمعاونة الكاهنة لهم غير المشروطة..

وفي هذه الحالة الخسارة لن تكون إلا لهم هم..

بعد تردد كبير، وزفرات قلق واضحة، قال الملك لجنوده "أطلقوه.."

قام الجنود بما أمرهم الملك، وفكوا قيوده الحديدية التي تركت آثاراً تكاد لا تمحى على رسغيه وكاحليه.. عندها انتصب واقفاً بسرعة وحدة أثارت قلق الجنود فرفعوا بنادقهم في وجهه بتحفز.. ولكم كان ذلك المنظر مضحكاً..!

ما يقارب السبعة جنود بأسلحتهم وعدتهم يقفون بتحفز ورجفة واضحة أمام رجل أعزل هدّه السجن سنوات طوال.. ومن يمكنه لومهم؟.. وهو الذي كان قائداً لهم معروفاً بحزمه وقوته وشدّته.. وفور وقوفه، تقدم خطوة نحو الكاهنة التي راقبت ما يجري بصمت، ليجد الأسلحة ترتفع في وجهه والملك يقول بأمر "انحنِ أمام الكاهنة وردد ما ستقوله.."

نظر للكاهنة بحدة لما ينطوي عليه هذا الفعل من إهانة، لكن الملك قال بلهجة حازمة "إن لم تفعل، سيدفن الجنود رصاصاتهم في صدرك في هذه اللحظة.."

عندها لم يجد بداً من التسليم بالأمر.. انحنى أمامها واضعاً ركبة واحدة على الأرض، ومستنداً بقبضته المشدودة قربها.. تجنب النظر إليها بصمت بانتظار أن يسمع الكلمات التي عليه ترديدهن.. عندها قالت الكاهنة "أتعهد أنا، جاد الداشوي، أن أكون تابعاً للكاهنة وحارساً لها ما بقي لي، ولها، من العمر.."

ظل صامتاً للحظات، حتى ساد الشك بأنه لن ينبس بكلمة مما قالته، لكن بعد تلك اللحظات سمعوا صوته الحازم يردد ما قيل دون ذرة تردد "أتعهد أنا، جاد الداشوي، أن أكون تابعاً للكاهنة العظمى

وحارساً لها ما بقي لي، ولها، من العمر.."

"وأن أحميها بحياتي.."

"وأن أحميها بحياتي.."

"وأن أعتبر كل ما تقوله هو أمر مقدس لا يقبل النقاش.."

"وأن أعتبر كل ما تقوله هو أمر مقدس لا يقبل النقاش.."

"وأقسم على ذلك بحياتي.."

"وأقسم على ذلك بحياتي.."

ولما انتهى من ترديد الكلمات، دون أن يرفع رأسه، قال الملك بلهجة متوترة "منذ الآن الكاهنة هي مولاتك وولية أمرك ومصيرك.. لو أمَرَت بقتلك، فلن يتردد شخص في تنفيذ ذلك.. ولو طلبت منك أمراً، فالموت لك لو ترددت في تنفيذه.."

لم يعلق جاد وهو يحدجها بنظرة حادة.. ثم أشاح ببصره ونهض واقفاً حيث لا تكاد تطاله ببصرها.. عندها استدارت مغادرة بصمت، وسرعان ما غادر الملك مع جنوده خلفها تاركين جاد في الزنزانة المفتوحة..

الآن، بدأت صفحة جديدة من انتقامه.. صفحة لن تُكتب فيها الخاتمة إلا بدمائها هي..

انعكست صورة غريبة على المرآة لأول مرة منذ سبع سنوات.. كان ذلك الرجل الذي يضجّ بالحيوية والنشاط، وبقمة هيبته ووقاره الذي يفرضه منصبه العالي، قد أصبح بليد الهيئة خشنها، يفرّ الآخرون من

أمامه خوفاً بدل أن ينحنوا لهيبته.. بشعر أسود أشعث طويل، زاده وحشية وشراسة.. وبلحية وشارب بعيدان عن أي تهذيب.. بشرته سمراء بلمحة رمادية لطول سجنه الذي دام سنوات لم يرَ فيها نوراً عدا عن سراج هزيل معلق فوق رأسه.. عيناه السوداوان قاسيتان بلا أي لمحة عطف، وفم لا يقل قسوة عن عيناه.. كان التحول الكبير الذي رآه جاد في ملامحه بعد أن تمكن من رؤية وجهه بعد سبع سنوات أكبر من أن يستطيع ابتلاعه.. لكنه في تلك اللحظات لم يعبأ لملامحه ولا لكل ما فقده طوال سنوات سجنه الكئيبة.. إنه لم يعبأ لكل ذلك في تلك الليلة، فكيف له أن يفعل ذلك الآن؟..

غادر الغرفة التي مُنح إياها، ولم تكن أكثر من جحر صغير في زاوية حديقة الملك، قريبة من مأوى الخدم والساسة وكل من يعمل عملاً مهيناً في قصر الملك.. بعد أن كان جاد يسكن أحد أفخم أجنحة القصر وعاش مرفهاً في جوانبه، أصبح الآن يرى أول ما يرى أقبح جوانب هذا القصر وأكثره نتانة.. لكنه لم يعبأ بذلك.. فالنار في صدره لا تمنحه لحظة راحة للاستمتاع بمنظر، أو للتطلع للحصول على حظوة في هذه الحياة.. كل ما يبغيه أن لا يعود لذاك السجن، وأن يصل لعنق الكاهنة دون معوقات..

ولدى خروجه من الغرفة وتجاوزه الساحة الضيقة القريبة منها قابل، أول من قابل، بازر الذي كان واقفاً قرب غرفته الصغيرة.. حاول جاد تفادي الحديث معه، لكنه نوعاً ما كان يشعر بمزيج السخط والنرفزة منذ خرج من السجن.. فلم يملك نفسه أن قال بلهجة هازئة "معالي قائد الجند بنفسه ينتظرني؟.. يا للشرف الذي حظيت به اليوم.."

قال بازر باستياء "لا داعي لهذه السخرية.. أظننت أنني سأتجاهل وجودك في القصر بعد خروجك من السجن؟.."

قال جاد "أتمنى أن أغرب عن وجهك في التو واللحظة، لكني لا أضمن ألا نلتقي مجدداً.. فأنا تابعٌ لمعالي قداستها وأوجد حيث توجد.."

قال بازر بحنق "وهذا ما يغيظني.. ما الذي تفعله معها؟.. كيف تقبل بأمر كهذا وأنت من أنت؟.. أنسيت الماضي أم تناسيته؟.."

علق جاد ببرود "أكنت تريدني أن أرفض وأقبع في السجن سنين أخرى؟.."

صاح بازر بحنق "وهل قبلت طمعاً في الخروج من السجن؟.. لو أنك لم تفعل ما فعلته.. لو أنك لم تتجاهل

مكانتك السابقة وتعاليم الملك التي لا تقبل العصيان.. لو أنك صمتّ وغضضت بصرك عما يجري....."

فقال جاد بصوت يعلو على صوت بازر وهو يضغط على كلماته "أكان الأفضل لي أن أتجاهل كل ما يجري لأحتفظ بمنصب قائد الجند؟.. لولا تضحيتي هذه، لما وصلتَ أنت لهذا المنصب.."

بدا غمٌ واضح على ملامح بازر وهو يقول "وتقتل شقيقتك دون أن تطرف عيناك لذلك؟.. هل كان هذا ما يسعدك؟.."

قال جاد بغل "لم تكن تلك شقيقتي، وأنت أكثر من يعلم ذلك.."

قال بازر بانفعال "لكنها كانت ستعود.. الكاهنة وعدتني بذلك.. أقسمت بقبور آبائنا أنها ستعيدها لنا.. ستعيدها لي.."

تقدم جاد خطوة وأمسك عنق بازر وهو يقول من بين أسنانه وثورته "أنت الأحمق الوحيد هنا.. انتظرتَ أربع سنوات أملاً في أن توفي الكاهنة بوعدها، دون فائدة.. ومازلتَ تصدق أنها كانت ستفعل؟.. أظننت أنها ستعيد لك خطيبتك عن طيب خاطر؟.. أتصدق أن الكاهنة تولي أي أهمية لقسم تافه لا يتجاوز حنجرتها في قداسته؟.."

دفعه بازر وهو يصيح بغضب "وهل الحل هو قتلها؟.. في قتل شقيقتك التي لا تملك سواها؟.. ما الذي استفدته من كل ذلك؟.. خسرت مكانتك، وخسرت شقيقتك، وخسرت عمرك بلا طائل.. وها هي الكاهنة أمامك لا تشكو بأساً.. بل إنها تمكنت من تجنيدك أنت أيضاً لخدمتها.. أهذا ما سعيت إليه؟.."

رد جاد بجمود "أتظنها كسبت ولائي حقاً بعد كل ما حدث؟.. هي أكثر من يدرك أنني لم أخرج إلا لأسعى خلف عنقها من جديد.."

واستدار مبتعداً تاركاً بازر ينظر له بحيرة حانقة.. كيف يسعى خلف عنقها وهو حارسها؟.. كيف يريد إنهاء ما بدأتْه وهو يعينها على إتمامه؟.. بل كيف له أن يعصي الملك مجدداً وهو قد ذاق وبال عصيانه السابق؟.. ما الذي يهدف إليه جاد حقاً بهذا التصرف المتناقض، والذي يخالف شخصيته بشكل واضح؟..

لم تكن ساما بحاجة لفتح عينيها لتدرك أنها في مكان مظلم دامس.. لكنها رغم ذلك فتحت عينيها ونظرت

حولها دون أن ترى شيئاً بطبيعة الحال..

لا تدري كم ساعة أو يوماً قضتها نائمة، لكن راودها شعور أن ذلك طال زمناً طويلاً جداً..

هل هي ميتة؟..

تذكرت تلك الفتاة ذات العينين الغريبتين، وكيف أنها لا تدري ما جرى لها بعد أن طال تحديقها بتلك العينان.. ما الذي جرى لها في تلك اللحظة؟..

تذكرت الألم الحارق في مؤخرة عنقها، وتذكرت الوهن الذي ساد جسدها ولا تدري له سبباً..

فما الذي جرى حقاً؟..

ما الذي فعلوه بها في تلك القلعة؟..

من هي تلك الفتاة؟..

ما الذي تريده منها؟..

ما الذي جرى لأوس بعد رحيلها؟..

انطوت على نفسها وهي تفكر بكل ما جرى..

لقد فقد أوس الكثير من دمائه أثناء قتاله بأولئك الرجال.. وأصيب إصابات عنيفة..

هل مات؟.. هل مات؟..

ظلت تلك الفكرة تتردد في عقلها طويلاً.. ورغم الذعر الذي قد تسببه فكرة مثل ذلك، لكنها شعرت أنها عاجزة عن التعبير عن ذلك الذعر بأي طريقة كانت..

ورغم ذلك، ظلت الرجفة في أعماقها تزيدها بؤساً وتعاسة..

لم تحظَ قط في حياتها القصيرة برعاية واهتمام كما غمرها به أوس في اليومين الماضيين.. منذ وفاة والديها في تلك الليلة المظلمة وهي تعيش على هامش المشاعر البشرية.. حتى الحكيم ومالو، رغم عنايتهما بها، لكن لم يبدُ أن أحداً منهما بذل جهداً للبحث عنها بعد اختفائها.. في الواقع لم يهتم بها أحد قط، ولم يمنحها أحدهم حباً ولا شفقة.. بل إنها تكاد تجزم أن أحداً لم يرها قط..

فما الذي دفع أوس ليكون مختلفاً ويغمرها بطيبته وحنانه بتلك الصورة؟..

تذكرت يده الضخمة التي أمسكت يدها ومنحتها شعوراً قوياً بالأمان في هذا العالم الغريب الموحش..

تذكرت ابتسامته الدافئة التي منحتها دفئاً عارماً وأضاءت لها الدنيا في تلك اللحظة..

لم تشعر قط بمثل تلك القبضة القاسية التي اعتصرت قلبها بعنف وهي ترى الدماء تسيل على وجهه وأجزاء متفرقة من جسده.. عاد الألم يعتصر صدرها لتلك الذكرى وهي تشعر بدموعها تسيل على خديها بغزارة.. لم تكن دموعاً فعليه، فهي رغم لمسها لوجهها لم تجد لها أثراً البتة.. بل إنها لم تكد تشعر بلمسات يدها بتاتاً، وهذا زادها حزناً فوق حزنها القوي.. فشهقت باكية، رغم أنها لم تسمع صوتها أبداً، وغرقت في بكاء مرير..

تريد العودة لأوس.. تريد رؤيته ولو للحظة لتتأكد أنه بخير.. تريد سماع صوته وهو يؤكد لها أنها بأمان..

فكيف لها أن تعود؟..

الفصل العاشر: الصفلة الكاهنة

استرخى جاد في غرفته البائسة بصمت غارقاً في أفكاره.. رغم استيقاظه مبكراً كما اعتاد، قبل وأثناء سجنه، فإن عمله لم يكن يبدأ فعلياً إلا بعد بعض الوقت.. لذا فضّل البقاء في غرفته والهواجس تدور في عقله دون هوادة، ويراوده تأنيب الضمير وتقريعٌ شديد اللهجة عن صحة القرار الذي اتخذه بإطاعة الكاهنة والانصياع لأوامرها.. أليست هي سبب دماره وخراب عالمه؟.. ألم يصبح منبوذاً مكروهاً يبغضه الجميع لأنه حاول أن يقيّم اعوجاجاً رآه في وجودها وسط هذه القلعة؟.. ما الذي يبغيه بعد كل هذا؟.. وكيف له أن يتناسى كل ما جرى لأجل حرية مزعومة؟..

قضى جاد اليومين الماضيين بهذه الحالة بين هواجسه وهو وحيد وبين شعوره العارم بالبغض والنار المستعرة في صدره كلما كان برفقة الكاهنة.. وبعد يومين فقط من حصوله على حريته، في وقت اشتدت هواجسه وتزايدت حتى ضاق صدره بها، وجد من يطرق بابه ويطلبه للمثول أمام الكاهنة.. كان الظلام مهيمناً بشدة، ولم ينبلج الصبح بعد.. لذا كان هذا الطلب غريباً وإن لم يتمكن جاد من رفضه.. فنهض بشيء من التثاقل وسار نحو موقع اللقاء المعتاد، وهو إحدى الغرف التي خصصها لها الملك في قصره.. وحالما دلف الغرفة، مكتفياً بطرقة سريعة ودخول بغير انتظار الإذن، وجدها تحدق من النافذة بتقطيبة رسمت على جبينها الصغير خطوطاً عميقة.. ولما وقف وسط الغرفة التفتت إليه وتأملته بصمت للحظات، ثم قالت أخيراً "يسعدني أن أرى الولاء الذي حظيتُ به منك في الأيام السابقة.. هذا شيء أدهشني وأثار إعجابي بشدة.."

لم يعلق جاد على قولها وهو يقف في مكانه ويرمقها بنظرة صامتة.. لم يكن يملك مزاجاً كافياً للرد عليها، وقد أعجزه الكره والحقد في صدره عن السخرية من قولها ففضّل التزام الصمت في الوقت الحالي..

دارت الكاهنة في الغرفة للحظات وهي تقرض أظافرها، ثم قالت وهي تجلس جانباً على كرسي وثير "أنا وأنت نعلم أننا لسنا بحاجة لأي مجاملات ومداهنات مما يمارسها أفراد هذه القلعة وهذا القصر عادة.. أنت تكرهني وتودّ قتلي، وأنا أدرك ذلك تمام الإدراك.."

ورفعت بصرها لجاد الذي اضطرها لمدّ عنقها لتقابل عيناه القاتمتان بكراهية واضحة، ثم أضافت "وأنا أريد استغلال كراهيتك هذه.. أريد استغلالها لما فيه صالحنا نحن الإثنان، وأرجو ألا تخالفني في ذلك.."

قال جاد أخيراً بصوت جامد "وما المصلحة المشتركة بيننا وأنا أتمنى قتلك فيما أنت لا ترغبين ذلك؟"

نظرت له بحزم قائلة "لن أرفض ذلك، لو كان الوقت ملائماً لتنفيذه.."

عقد جاد حاجبيه متطلعاً إليها باستياء، ثم قال "كلماتك الملتوية التي تنجح في خداع الآخرين عادة لن تفيد في خداعي.. ما هدفك من استدعائي والحديث معي على انفراد هذه المرة؟"

قالت بإصرار "كما قلت لك، أريد الوصول لاتفاق مشترك.. أنت تنفذ أوامر الملك، ولولا أمره لك بإطاعتي لما ترددت في قتلي منذ اللحظة الأولى.. أليس كذلك؟"

لم يعلق جاد على ذلك عازفاً عن إخبارها أن هيئتها الجديدة هي أكثر عاملٍ منعها عنه وكسر رغبته تلك في لحظات قليلة.. فلو أدركت ذلك، لربما تمكنت من السيطرة عليه بثقة أكبر.. وإزاء صمته، قالت الكاهنة "ليس هذا ما أريد الوصول إليه.. أريدك أن تطيعني حتى لو عارض الملك ذلك.. أريد ولائك غير المشروط، أو في الحقيقة بشرط واحد تتلهف أنتَ عليه منذ أمد بعيد.."

ظل ينظر لها بحدة بانتظار انتهاء حديثها الذي لم يتمكن من جمع أطرافه بشكل واضح.. فقالت ببطء ووضوح "سأمكّنك من قتلي.. سأمنحك هذه الفرصة النادرة للخلاص مني بشكل كامل دون أن تنال عقاباً على ذلك.. فقط، إن وعدتني بالحصول على ولائك لمدة محدودة حتى تحين الفرصة لنيل انتقامك هذا.."

قال جاد بسخرية "أنت تمزحين.. ألم أقتلك سابقاً؟.. وها أنت أمامي.."

أسرعت تقول "هناك طقسٌ معين عليك ممارسته قبل قتلي فعلياً.. وعندها، تنقطع هذه الدورة ولا أستطيع العودة بأي شكل من الأشكال.. لكني لن أخبرك به قبل أن تعاونني على ما أريده، بغضّ النظر عن وجودنا تحت سلطة الملك من عدمها.."

ظل الارتياب يغزو وجهه وهو يحاول البحث عن الخدعة التي تحاول مواراتها في كلماتها المنمقة تلك.. ثم تساءل "ما الذي يهمّك في معاونتي وأنت لم تحتاجيها سابقاً قط؟.. ولمَ أنا وليس شخصاً آخر؟.. هذا لا يقنعني البتة.."

قالت بإلحاح " بل أنت مهم الآن، لأنني لا أنوي البقاء في قلعة (أنصاف الرجال) أكثر من هذا.. وبمغادرتي، سأخرج من حماية الملك وحماية جنوده.. ولا يمكن لطفلة في حجمي أن تحمي نفسها في هذا العالم.."

ارتفع حاجبا جاد دهشة وتساءل "ولِمَ تريدين المغادرة؟"

قالت "هذا شأنٌ خاص بي.. لكن ما يهمني أنني أستطيع الثقة بك لأن كل ما يهمك هو قتلي، ولا تملك مأرباً آخر يمكن أن تخونني به.. وكل ما يهمك أنت أنك ستكون معي ولن تفارقني من الآن فصاعداً.. ستكون معي حتى تكون نهايتي بيديك.. وأنا أعدك بذلك.."

فقال ساخراً "كما وعدتِ بازر بعودة فيت إليه.."

نظرت للهيب الحقد في عينيه، ثم قالت ببطء "أنت من تسرّع وحاول الخلاص مني قبل الأوان.. كنتُ أنوي إعادتها.. ألم أقسم على ذلك بقبور الآباء؟"

فقال جاد بغضب "قبور مَن تلك التي أقسمت عليها؟.. هل نسيتِ أنك لا تنتمين إلى شعبنا هذا، لذا قسمك هذا لا معنى له؟.. هل تريدين خداعي بعد أن خدعت بازر لعدة سنوات، وما زال الرجل مخدوعاً بكلماتك تلك؟"

تراجعت للوراء بظهرها أمام غضبه العارم، ثم قالت محاولة إطفاء غضبه ودفعه للإنصات إليها "لكني أعدك جادة هذه المرة أنني سأمكّنك من قتلي.. وإن لم تصدقني، وحاولت قتلي مجدداً، فسأعود من جديد.. وهذه المرة، سأنتقم لا منك فقط، لكن من كل سكان هذه القلعة على حد سواء.."

لم يكن تهديدها ناجحاً في تخويفه، لكنه دفعه للصمت مفكراً في حقيقة وعدها هذا.. ما الذي سيخسره لو انتظر قليلاً؟.. فقال بجفاء "ليكن في علمك أنني لن أنتظر طويلاً.. لا تتوقعي مني أن أقبع جوارك صامتاً لسنوات قادمة.."

قالت "بل سينقضي الأمر خلال وقت قصير، أقصر مما تتخيل قط.. كل ما يهمني أن تعدني بأن تنفذ كل ما أقوله.. وأن تعدني بأن لا يصل خبر ما جرى بيننا للملك أو لأي من حاشيته.."

ظل جاد صامتاً يقلب الفكرة في ذهنه، فأضافت "لا يجب أن يعلم بوعدك لي، ولا بنيّتي الرحيل عن هذه القلعة.. هل تقسم على هذا؟.."

ضيّق جاد عينيه قائلاً "ما الذي تسعين إليه بالتحديد؟.. ما تفعلينه لا يمكن أن يكون عن عبثٍ لا معنىٰ له.. ومخاطرتك بكل من حولك، وبحياتك ذاتها، بهذه الصورة لا بد أن يكون لهدف كبير.. فما الذي تريدينه حقاً؟"

ابتسم ابتسامة صغيرة وقالت بصوت خافت "أريد أن أعود.. وأن أنتقم.."

نظر لها بدهشة بالغة، فواجهته بعينين حازمتين وهي تقول "لو حاولت خداعي، فسأستغني عنك بسهولة.. فما هو قرارك إذاً؟"

قال أخيراً "أعدك أن ألبّي ما تطلبينه مني بشرط أن تمكنينني من قتلك في النهاية.."

ابتسمت ابتسامة راضية وكأنها لم تتفق علىٰ موعد قتلها قبل قليل، ثم صرفته بيدها وهي تقول "انتظر أي أمرٍ آخر مني.. ولا داعي لمرافقتي مادمنا في هذه القلعة.. بل انتظر حتىٰ أبلغك بموعد رحيلنا أخيراً.."

استدار جاد مغادراً دون كلمة أخرىٰ.. لقد صبر سبع سنوات.. فما الذي سيضيره لو انتظر مدة أطول بعد؟.. ولو حاولت هي بدورها خداعه أو الهرب منه، فسيقتلها دون تردد.. سيقتلها مرة ومرتان وعشراً لو تطلب الأمر منه ذلك، وبأي هيئة كانت عليها..

ساد الصمت شبه التام ذلك الجزء من السهول القريب من النهر الذي يشق جزءاً منه.. لم يكن صمتاً تاماً إن أخذنا بالاعتبار زقزقة العصافير علىٰ الأشجار القريبة وصوت جريان النهر القريب.. بالإضافة لصوت نشيج خفيف صدر من جانب المكان..

كان الصداع الذي ألمّ بأوس عنيفاً، صاحبه غثيان شديد لم يشعر به قط.. أما زال بين الأحياء؟.. كان النور الذي يتغلغل جفنيه المغلقين أكبر دليل علىٰ ذلك.. صوت زقزقة العصافير حوله، مصاحبة لنشيج خفيف

يجهل مصدره، كان دليلاً آخر أبعد عنه ذلك التساؤل كلية.. فتح عينيه ببطء مواجهاً النور الخفيف للصبح الذي بدأ يزيل الظلمة شيئاً ما.. كم ساعة مرت عليه منذ فقد الوعي؟..

تأوه وهو يحاول الجلوس متحاملاً على نفسه، وبنظرة ألقاها على جسده أدرك أنه حيٌ بمعجزة.. فالضمادات تغطي أغلب جسده، وقد أدرك أنها أجزاء من قميصه الذي فقده لسبب ما، والدماء التي لطخت جسده والضمادات الملفوفة حوله أوضحت له كم كانت جراحه سيئة.. فكيف بقي حياً حتى الآن؟.. وما الذي جرى لساما؟..

تلفت حوله بقلق، ملاحظاً اختفاء تلك الفرقة من الرجال واختفاء ساما معهم.. زفر بشدة ويأس وقد أدرك أن جهوده لإنقاذها من قبضتهم قد باءت بالفشل.. فما هو فاعل؟.. إنه لا يعلم حتى ما الذي يريده أنصاف الرجال ببشرية مثلها..

تردد النشيج من جديد قربه، فالتفت إلى تيما التي كانت قريبة منه، ونظر لها بحيرة وهي منطوية على نفسها مخفية وجهها بين راحتي يديها.. كانت تبكي بحرقة، لكن علام؟.. لا يظنها تبكي لفقد ساما، وقطعاً هي لا تبكي خوفاً عليه.. وبلمحة سريعة أدرك أنها ليست مصابة بأي جرح واضح.. فلمَ البكاء؟..

كانت الآلام المتفرقة تجتاح جسده، ورجفة عنيفة تعتري أطرافه مع الدماء التي فقدها، لكنه حاول تجاهل ذلك وهو يستدير إلى تيما متسائلاً بصوت متعب "ما الأمر يا تيما؟.. هل أنت مصابة؟.."

لم تستدر تيما نحوه واكتفت بأن ألقت عليه نظرة من بين أصابعها، ثم قالت بصوت مهتز " هل استيقظت؟.. أنت مدين لي بحياتك يا هذا.."

قال أوس بدهشة "هل أنت من عالج جراحي؟.. لكن كيف فعلت ذلك؟.. بجراح كتلك، كانت نجاتي مستحيلة.."

ارتجفت يداها وهي تقول من بين دموعها "بالفعل.. كانت نجاتك مستحيلة تماماً.. كنت ستموت خلال لحظات، لو لم أتدخل.."

وتهدج صوتها وهي تضيف "ولقد دفعتُ ثمناً غالياً لذلك.."

وعادت تبكي بحرقة، فاقترب أوس منها متسائلاً بشيء من القلق "ما الذي جرى؟.. أأنت بخير؟.."

صاحت بحدة "لا تقترب مني.. وأنا لست بخير.."

ظل أوس جاثياً قربها بحيرة من أمره.. لم تكن تيما ممن يعبأ لأحد.. لم يرها قط قلقة لشأن أحد ولم تظهر سعادة بوجود شخص غير نفسها.. ولولا الهدف الذي تسعى إليه، لكانت قد تخلت عنه وعن ساما دون ذرة تردد واحدة..

غلبته حيرته لوقت قصير عندما لاحظ يدا تيما اللتان تغطيان ملامحها، ورأى بوضوح أنهما فقدتا النعومة والليونة اللتان تمتازان بها عادة.. كانت تبدو كيدي امرأة أكبر عمراً، ومن بين أصابعها التي تغطي وجهها كان يستطيع رؤية جزء من وجهها الذي بدا متهدلاً شيئاً ما.. اقترب منها وحاول جذب إحدى يديها ليرى ما حل بها، لكنها صاحت بذعر وانحنت مخفية وجهها بين ركبتيها في رفض واضح لرؤيتها بهذا الحال..

قال أوس بإلحاح وصدمة "ما الذي جرى لك يا تيما؟.. ما الذي سبب لك هذا التغيير؟.."

قالت باكية "وماذا ظننت؟.. هذه الضريبة التي جنيتها لإنقاذ حياتك.. وأنا نادمة بشدة لذلك.."

تساءل بحيرة "كيف حدث ذلك؟.."

قالت بشيء من العصبية "أتدّعي الغباء؟.. أنت تعلم تمام العلم أن دماءنا تحمل خواص علاجية يمكنها أن تنقذ شخصاً ولو كان على حافة الموت.. ولولا وجودي قربك عند سقوطك، لكنت قد مت دون أن يتمكن أحد من إنقاذك.."

غمغم أوس "لكني لم أعلم عن هذا قط.. وهل ما أصبحت عليه الآن جراء الدماء التي فقدتها لعلاجي؟"

دمدمت بصوت متهدج "طبعاً.. نحن لا نفقد دماءنا دون ثمن.."

عندها تنهد أوس وهمس "ربما كنت محظوظاً بالفعل.."

رأى جسدها يهتز بالبكاء من جديد، وهو يعلم تمام العلم ما الذي يمثله جمال تيما لها.. ربما كان جمالها يعني لها أكثر من حياتها ذاتها، وأن تفقده بهذه الصورة قد يجعلها تشعر بالسوء أكثر مما لو فقدت يداً أو قدماً..

مد أوس يده ومسح على شعرها المتموج الذي تلطخ بدمائه كما يبدو، وغمغم "أنا مدين لك بالفعل يا تيما.."

قالت بحنق "يجب أن تكون كذلك.."

لم يعلق وابتسامة ترتسم على شفتيه وهو يمسح على شعرها بصمت، وبدا له أنها قد تمالكت نفسها قليلاً وخفت بكاؤها.. ثم قالت بعد بعض الصمت بلهجة آمرة "عليك أن تساعدني لاستعادة ما فقدته.."

تساءل دون أن يعترض على لهجتها التي تغضبه عادة "وهل هذا بممكن؟.."

قالت دون أن ترفع رأسها "أنا أشعر بضعف بالغ ولا أقدر على الطيران.. عليك أنت أن تصطاد لي بعض الطرائد وتحضرها لي لتعويض ما فقدته من دماء.."

قال بحيرة "وهل هذا يكفي لاستعادة شكلك القديم؟.."

قالت بحزم "أغلب الظن أنه كذلك.. كلما طال بي الوقت وأنا بهذا الشكل، كلما كان من الصعب العودة كما كنت.. لقد رأيت بعضاً من أفراد شعبي ممن فشلوا في ذلك بعد أن تطاول بهم الوقت دون أن يتمكنوا من تعويض ما فقدوه.."

وارتجفت شفتاها وهي تضيف "وأنا لا أريد أن أنتهي مثلهم أبداً.."

فقال "لا بأس.. هذا أقل ما يمكنني فعله لرد جميلك هذا.."

سارعت تقول "عليك أن تحضرها لي حية.."

فقال "لا بأس.. لكن قبل ذلك...."

وأمسك ذراعها ليوقفها رغماً عنها، فشهقت وهي تصيح مبعدة وجهها بعيداً "ما الذي تفعله أيها المأفون؟.. اتركني.."

قال بحزم "بقاؤك هنا يجعلك طريدة سهلة بدورك.. سآخذك لموقع أكثر أمناً وبعدها سأنفذ ما طلبته.."

شعر بها تتهاوى وهي غير قادرة على الوقوف لضعفها، وصاحت بغضب وهي تحاول التخلص من قبضته، لكنه لم يطاوعها وهو يسارع بحملها بذراعيه رغم التعب الذي يجعل وجهه شاحباً.. سارعت تيما لإخفاء وجهها بيديها وهي تستسلم له أخيراً، فسار بها أوس قاطعاً تلك المساحة المفتوحة وهو يشعر براحة لأنها خفيفة الوزن بحيث لم ينهكه حملها بصورة كبيرة.. من الطبيعي أن تكون خفيفة الوزن بتلك الصورة، وإلا ما تمكن جناحها الرقيق من حملها بتاتاً.. وهو رغم الرجفة التي اعترت أطرافه، شعر أنه يستعيد قواه بشكل مذهل مع كل لحظة تمضي.. أهذا راجع لدماء تيما التي أنقذت حياته؟..

سار عائداً بها إلى مخبئه الذي يقع في جانب منخفض من ضفة النهر القريبة، حيث يمكنها أن تختبئ عن الأعين في الوقت الحالي.. وهناك، أنزلها أوس أرضاً وساعدها لتندس في ذلك المخبأ مستترة بظلامه قائلاً "سأعود بأسرع ما يمكنني.. كوني حذرة أثناء غيابي.."

لم تعلق تيما على قوله البديهي، فيما استعاض أوس عن قميصه الممزق بقميص آخر، وغادر مسرعاً دون تردد تاركاً تيما تزفر وهي تنظر ليديها المرتجفتين.. كانت التجاعيد البشعة تنتشر على بشرتها الجميلة عادة، ورغم أنها لم تتمكن من رؤية وجهها بعد، لكنها واثقة أنها ستفقد وعيها لو رأته فعلاً.. كان جمالها مصدر فخرها، وهي تحب تأمل ملامحها أكثر من شيء آخر في هذا العالم.. فكيف راودتها فكرة أن ترمي ذلك خلف ظهرها وتساعد أوس قبل أن يفقد حياته؟.. هل يستحق أوس منها تلك التضحية؟.. بل كيف جرؤت على فعل ذلك رغم كل المخاطر التي تحيق بمثل هذا التصرف؟.. ما هي تلك المشاعر المتخبطة التي شعرت بها وهي تراه غارقاً في دمائه فاقداً الوعي؟.. ربما كان ذلك الارتباك والتخبط الذي شعرت به هما سبب اندفاعها لمثل ذلك التصرف الذي لا يصدقه عقل..

زفرت وهي تتلمس وجهها بتردد.. هل هي نادمة حقاً كما ادّعت أمامه؟.. زفرت من جديد وهي تغمغم "ستندم يا أوس لو لم أستعِد ما فقدته.."

انشغلت تيما بشرب دماء ضحيتها السابعة وأوس يراقبها من مبعدة.. كانت، مما بدا له، أفضل حالاً شيئاً ما، وإن رفضت أن تواجهه أو تسمح له برؤية ما حل بها.. تساءل أوس من مكانه حيث جلس قرب مدخل التجويف "كيف تمكنت من علاجي بدمائك؟.. لا تزال جروحي تنزف دماً، ولم تلتئم بعد.."

قالت بضيق "هل تتذمر بعد كل ما فعلته لك؟.. ستلتئم جروحك بشكل عادي، المهم أنني استطعت بدمائي تعويض ما فقدته وإخراجك من الحالة الحرجة التي كنت فيها.."

استمع إليها بشيء من الحيرة وهي تضيف "لقد سقيتك كمية لا بأس بها من دمائي، ورغم أن شرب دماء عادية لا يعني أنك ستعوض ما فقدته من دماء مطلقاً، لكن دماء شعبي تختلف.. فهي قادرة على علاج الكثير من كائنات عالمنا ومنحها القوة.."

قال أوس "لو كانت دماؤكم تحمل خواص مثل هذه، فلمَ لا أرى أحداً يسعى للحصول عليها؟.. دماءٌ مثل هذه قد تكون مطلوبة في نواحي عديدة من عالمنا، وقد لا تقدر بثمن.."

قالت هازة رأسها "لا يحدث ذلك.. لقد حاول بعض الصيادين استغلال ذلك بالفعل، لكن الدماء التي

حصلوا عليها من أجساد بعض أفراد شعبي قد اسودت بلمح البصر وأصدرت رائحة منتنة بحيث عجزوا عن استخدامها.."

تساءل بدهشة "إذاً كيف فعلت ذلك؟.."

أجابت وهي تمسح شفتيها من الدماء "هناك وسيلة خاصة لذلك، ولو أخبرتك بها فلن آمن على نفسي معك بعدها.."

قال أوس مقطباً "أتظنين أنني قد أحاول سلب دمائك بعد إنقاذك لحياتي؟.."

قالت وهي تقف "وهل هناك ما يمنع ذلك؟.."

وسارت بشيء من الضعف عائدة لعمق التجويف فانطوت فيه بصمت.. كان الظلام قد خيم عليهم، وغدا من المستحيل على أوس إحضار المزيد من الطرائد لتيما.. كما أنها لم تطلب المزيد بعد الطريدة الأخيرة التي أحضرها.. تخلص أوس من الطريدة الخالية من الدماء بعيداً كما فعل بغيرها لئلا تجلب لهم أي حيوان مفترس برائحتها، ثم جلس مستنداً على الجدار الصخري للمدخل وهو يستمع للصمت المخيم على المكان.. ما يزال يستشعر آلاماً جمّة من جراحه، لكنه للدهشة لا يشعر بأكثر من ذلك.. مع مرور الوقت، فإنه يشعر بشيء من الطاقة والنشاط الغريبان على مثله في هذه الحالة.. وأخيراً تساءل بخفوت "لمَ أنقذت حياتي يا تيما؟.. من الصعب عليّ تصديق أن يأتي هذا التصرف من شخص مثلك.."

سمعها تقول بعد بعض الصمت "أنا نفسي أجهل الجواب.."

ارتضى أوس منها هذا الجواب وهو يصمت متطلعاً للسماء الزاهية بعدد لا يحصى من النجوم.. أي عذر قد تسوقه تيما لن يكون مقنعاً مهما حاولت، لذا اقتنع بأنها لا تملك أي عذر بالفعل.. والآن، بعد أن اطمأن جزئياً على تيما، يمكنه أن يفكر بما حل بساما.. تلك الطفلة البريئة التي توسلت إليه ألا يتخلى عنها قط.. والتي لا تدري ما سيقت إليه بأيدي أولئك الجنود الأجلاف الذين لا يعبؤون لأمرها ولو للحظة..

ما الذي يريده أنصاف الرجال بفتاة بشرية؟.. لقد بدا واضحاً أنهم يسعون خلفها هي بالذات.. فهل لهذا علاقة بالوشم الذي في عنقها؟.. ذلك الوشم الغريب الذي توجس لدى رؤيته لأول مرة.. ما معناه؟.. وما المغزى من وجوده؟.. بل كيف حصلت ساما عليه في هذا العمر الصغير دون أن تذكر ذلك؟..

أسئلة كثيرة تدور في ذهنه دون أن يجد لها جواباً..

في اليوم التالي، وبعد ليلة غرق فيها أوس في نوم عميق لم يحظَ جسده به قط، استيقظ على هزة خفيفة لكتفه.. فانتفض بشيء من السرعة من النوم العميق الذي أجبره جسده عليه، ليرى تيما تقف منحنية نحوه وهي تقول بابتسامة جانبية "شخيرك أوقض السهول بأكملها.. ألن تنهض بعد؟.. لقد انتصف النهار.."

ظل للحظة صامتاً وهو يحاول استيعاب ما جرى ، ثم قال باهتمام "تيما.. أأنت....؟"

قابلته بنظراتها المتحدية، وسمعها تقول وهي ترمي بخصلة من شعرها للوراء "أنا ماذا؟.."

عندها انتبه إلى أنه يراها بملامحها التي اعتادها زمناً طويلاً.. كانت ملامحها قد استعادت جمالها السابق، وعادت لبشرتها صفاءها ونضارتها السابقة.. ومن نظراتها الحادة، كانت تتحداه أن يلقي تعليقاً على ما جرى لها في اليوم السابق.. لكنه لم يعلق بأمر وهو يقول بابتسامة "سعيدٌ لأنك بخير يا فتاة.."

أشاحت تيما بوجهها رافضة تعاطفه ذاك.. هل شعرت ببعض الانفعال لجملته البسيطة تلك؟.. محال.. من المفترض أن يكون سعيداً لأنها بخير، فهو سبب كل ما جرى لها..

لاحظت أنه نهض من جلوسه نافضاً ثيابه، وقال متطلعاً حوله "أمامي طريق طويل.. يحسن بي أن أبدأ سيري حالاً.."

تساءلت بشك "ما الذي تنوي فعله؟.."

قال بحزم "سألحق بساما.."

فصاحت على الفور "أنت مجنون.."

قال بسرعة "لا أنكر ذلك.. لكنني لن أكون أكثر تعقلاً عندما أتناسى أمر طفلة صغيرة رجتني ألا أتخلى عنها.."

قالت بشيء من الغضب "لو أنني كنت أعلم أنك سترمي حياتك بهذا الغباء فور استيقاظك، لما أنقذتك.."

فقال أوس "أنا شاكرٌ لك حقاً لإنقاذك حياتي يا تيما.. لكن لا يمكنني ألا أسعى خلف ساما.. ولا يمكنني أن أتجاهل ما سيجري لها.."

ظلت تنظر له بغضب وضيق، فيما استدار أوس وبدأ سيره بمحاذاة النهر نحو التفرع الذي سيقوده

للبحيرة الواقعة غرباً.. فلحقته وهي تقول بحنق "لماذا تفعل هذا لهذه الطفلة؟.. لم تمضِ أيام معدودة منذ رأيتها.. فما الذي يجعلك تسعى خلفها بكل إصرار؟"

أجاب أوس "أخبرتك أنني مدين لها سابقاً.. ولا يمكنني أن أتناسى ما فعلته لي وأتجاهل ما قد يجري لها في هذا العالم.. سأعيدها لعالمها، وعندها سأكون قد رددت جميلها عليّ.."

علقت بهزء "أتظن أن إعادتها الآن ستكون بالسهولة كما كنت تنوي فعله قبلاً؟.. استعادتها من القلعة ومن بين الجنود شيء مختلف تماماً، ولن تخرج من تجربة كهذه سليماً بالتأكيد.."

لم يعلق أوس بكلمة ولم يبدُ أن لتهديد تيما أي أثر على عزمه وهو يسعى تابعاً النهر بصمت.. فظلت تنظر له بغيظ شديد وحنق أشد.. ألم يقل إنه مدين لها بحياته كذلك؟.. لمَ لا يطيعها هذه المرة؟.. منذ رأته لأول مرة، ومنذ حادثته لأول مرة، وهو يصرّ على تجاهل نصائحها بشكل سافر.. فما الذي يدفعه لتجاهلها في كل مرة؟..

زفرت وهي تقف في مكانها لوقت طويل تراقب ابتعاده بصمت، ثم نظرت للأفق الشمالي وهي تعبس بشدة.. ما هي فاعلته الآن؟.. هل تعود؟.. هل تغامر بالعودة لقرى (الفيي) فتحصد عاقبة فشلها الذريع؟..

نظرت لأوس الذي بدا متجاهلاً أمرها بشدة، فحلقت وهي تتبعه قائلة بإلحاح "لو سارت الأمور كما تخطط لها، هل ستعاونني بعد أن تستعيد الفتاة؟.."

صمت أوس للحظات قبل أن يقول "ربما.. لا أرفض ذلك بشكل كليّ.."

فقالت بإصرار "يجب أن تفعل.. أنت مدينٌ لي بذلك.."

لم يعلق وهو مستمر بسيره بكل جديّة، فتبعته محلقة وهي تغمغم "سنرى ما الذي ستجنيه من تجاهلي كما تفعل في كل مرة أيها العنيد.."

عندما وقف الحكيم أمام الكاهنة، بعد إلحاح كبير من جانبه، ظل ينظر لها مبهوتاً وصدمة واضحة أعجزته حتى عن التقدم والجلوس على الكرسي المقابل لكرسيها.. لقد وصل في اليوم السابق لباب قلعة (أنصاف

الرجال) وطالب بإلحاح مقابلة ملكها.. وبعد بعض المماطلة والتي طالت لساعات، فوجئ الحكيم بباب القلعة يفتح أمامه، وبأحد الجنود يقتاده لمقابلة الملك.. رغم إلحاحه، لكن الحكيم وطّن نفسه أنه لن يقابل إلا بالرفض كالعادة.. لذا كانت دهشته كبيرة للسلاسة التي تمّ بها الأمر.. بالإضافة إلى الصمت الذي قابله به الملك دون أن يظهر اعتراضاً على قدوم الحكيم لمقابلة الكاهنة..

والآن، بعد أن اقتيد لمقابلتها وأدخل إحدى الغرف الواسعة التي تتخذها لها مكتباً تحتفظ فيها بعدد هائل من الكتب، فإن الذهول الواضح على ملامحه وهو يرمق الكاهنة ضئيلة الجسد صغيرة القامة وبملامح طفولية كانت أكبر من أن يقوم بتفسيرها..

ابتسمت الكاهنة وهي تقول بهزء "هل يصدمك مظهري لهذه الدرجة؟"

قال الحكيم متلفتاً حوله "أين الكاهنة؟"

قالت باعتداد "أنا هي.. فما الذي تريده لتلحّ لمقابلتي بهذه الصورة؟.."

تقدم الحكيم متخلياً عن صدمته وتساءل "كيف تكونين هي؟.. هذا مستحيل.."

قالت مقطبة "لمَ؟.. لأنني صغيرة الجسد؟.. كان عليك أن تدرك أن صغر الجسد لا يعني صغر العمر وقلة الخبرات.. ومساعدتك هي أفضل مثال على ذلك.."

تجاوز الحكيم أمر معرفتها بهالو، وقال عاقداً حاجبيه الكثين بصرامة "بل ما يدهشني هو رؤية فتاة بشرية تدّعي بأنها كاهنة.. أنت ساما، ولم يكن لك وجود قبل بضع أيام في عالم الأطياف.."

بهتت الكاهنة للحظة، ثم أسرعت تقول "أنت تكذب، وتدّعي علماً لا تملكه.. بل الأصح أن أقول إنك قد خرفت أخيراً.."

ازدادت لهجة الحكيم صرامة وحدة وهو يقول "لا.. بل أنا أكثر سكان هذا العالم معرفة بساما.. فأنا من أحضرها من طريق الأطياف عندما تسللتْ إليه وكادت تفقد حياتها فيه.. بينما الكاهنة موجودة في هذه القلعة منذ ما لا يقل عن عشر سنوات.. فأي خدعة تحيكينها أمامي؟.."

نظرت له الكاهنة بحنق وبغض واضحين، فيما حدق الحكيم في عينيها للحظات، قبل أن يغمغم "أو أن يكون الجسد فقط هو جسد ساما بالفعل.. لكن.. من أنت؟.. ما الذي فعلته بساما؟"

نهضت الكاهنة فجأة واقفة وهي تقول بصرامة "إن لم تخبرني ما تريده من مقابلتي فسأطردك من هنا فوراً..

لا أحب من يتدخل في شؤوني.."

ظل الحكيم يحدق فيها بصمت للحظات محاولاً تفسير هذا اللغز الذي ظهر أمامه من حيث لا يحتسب.. كانت تلك ساما بالفعل، الطفلة البشرية التي آواها في منزله لليلتين واختفت بعدها دون أن يسمع عنها شيئاً.. فهل كان هؤلاء هم مختطفوها؟.. ولأي أمر؟.. ولما قابلته الكاهنة بنفاذ صبر وبعينيها المهددتين، قال أخيراً "أريد أن أعرف ما جرى ليوريت.. أنا موقن أنك الأكثر علماً بما جرى له.. وأريد أن أعرف الحقيقة منك.."

انقلبت صرامة الكاهنة توحشاً وهي تصيح "ومن هو يوريت هذا؟.. أتحاول جرّي للحديث بشيء لا يخصني؟.. أتظنني حمقاء كبعض الحمقى الذين تتعامل معهم في هذا العالم؟.."

تساءل الحكيم "ولِمَ أثار هذا غضبك بشدة؟.."

صاحت بغضب "يا حراس.."

تدافع اثنان منهم في تلك اللحظة مع ندائها وكأنهما كانا بانتظاره، فأشارت للحكيم بإصبع يرتجف غضباً "أخرجاه من هنا.. ارمياه خارج القلعة حتى لو غرق في البحيرة.."

تراجع الحكيم بهدوء غير عابئ بالحارسين اللذين اقتربا منه، وقال وهو يغادر الغرفة "كان عليك أن تتحلي بالهدوء لو أردتِ خداعي فعلاً.."

وغادر تاركاً الكاهنة تقف في مكانها وهي تتميّز غيظاً.. ثم قالت بثورة "كنتُ محقة في رفض مقابلة هذا العجوز طوال تلك السنين.. فما الذي دهاني لأقبل هذه المرة؟"

دلف الملك في تلك اللحظة بتوتر واضح ومن خلفه بازر، فقال بشيء من الانفعال "هل علم شيئاً؟.. كان عليك رفضه كما رفضته سابقاً.. أليس كذلك؟"

قالت بشيء من الجفاء دون أن تعبأ بمكانة الملك "لا يهم هذا.. عجوز خرف مثله لا يمكنه فعل شيء لي حقاً؟"

لم يعلق الملك على لهجتها الجافة، فلو أخذنا بالمكانة العامة في القلعة، لكانت الكاهنة في تلك الأوقات أعلى مكانة من الملك الذي يضطر لتغطية ضعف شخصيته بالكثير من القتل لكل من يحاول معارضته.. لكنه لم يجرؤ قط على معارضة الكاهنة لعدة أسباب..

علق بازر في تلك اللحظة "هذا العجوز الخرف يملك من الخبرات والعلوم ما يفوق ما تعرفينه أنت.. وهناك الكثير مما يمكنه فعله لإعاقة ما تخططين له.."

نظرت لبازر بحنق وقالت "هل أصبحت من مشجعيه؟.. لم لا تصمت وتؤدي ما عليك من مهام دون تدخل في أموري؟.."

تقدم بازر منها قائلاً بصرامة وحدة "احفظي لسانك يا هذه.. فلا شيء يجبرني على الصمت لوقاحتك هذه.."

وجد يداً قوية تمسك كتفه وتمنعه من التقدم، ولما التفت خلفه رأى جاد ينظر له بجمود وإن لم تخلُ نظراته من تهديد واضح.. فيما قلب الملك بصره بين الثلاثة وقد ازداد توتره أكثر فأكثر.. وأخيراً، كسر بازر هذا الصمت وهو يقول بسخرية "يبدو أنك كسبتِ حليفاً قوياً هذه المرة.. هنيئاً لكِ أيتها المسخ.."

وغادر الغرفة بخطوات واسعة لم تخفت قوتها للحظة، فيما لم يتحرج الملك من اللحاق به بعدها وهو يتمتم بما لم يسمعه أحد.. نظر جاد إلى الكاهنة التي أخذت تزفر بغضب شديد، وقال "حتى متى سنبقى في هذه المهزلة؟.."

قالت بضيق "قليلاً بعد.. ألا تملك الصبر الكافي؟"

غمغم وهو يغادر بدوره "لقد انتظرت سبع سنوات.. لن يضيرني الانتظار بضع أسابيع أخرى بالتأكيد.."

نظرت الكاهنة لظهره زامة شفتيها بحنق، ثم دمدمت وهي تجلس جانباً "لن أهتم لأمرك الآن.. ما يهمني هو ذلك العجوز المتذاكي.. كيف لي أن أدرك أنه يعرف هذه الطفلة قبل قدومها إليّ؟.. هذه غلطة ستزيد من شكوكه بشدة.. كان عليّ رفضه كما أفعل كل مرة.. تباً لي.."

مضت عدة أيام منذ غادر إيار موطنه في السلسة الجبلية المسماة (وكر التنين)، والتي ما عادت تستحق هذا الاسم بعد أن قتل آخر تنين كان يستوطنها.. ومع كل يوم يمضي، كان يبتلع حزنه وغضبه لما جرى لأخيه، ويحاول أن يتناسى الألم الذي شعر به لرؤية جسده هامداً لا روح فيه.. بعد نزوله مع سولينا الصيادة من الجبال، اضطرت سولينا للذهاب لأقرب قرية وحيدة بدونه.. كان إيار يخشى غضبة أهل تلك القرى من

جديد.. فآخر عهدهم بالتنين كانت تلك المحارق والمجازر التي قام بها في ثورته الأخيرة قبل أن يقتله الصيادون بطلب من المزارعين.. وآخر عهده بهم عندما قاموا بسجنه ومحاولة الانتقام منه لكل ما جرى.. لذا، فضّل إيار الاختباء في موقع قريب من تلك القرية بينما انطلقت سولينا بحثاً عن سفينة يمكنها أن تقلّها مقابل بعض المال..

وبعد مفاوضات طويلة، تمكنت سولينا من استئجار موضع لها في تلك السفينة، والتي كانت تحمل بعض موارد القرية من الحبوب والثمار وبعض المشغولات اليدوية التي تبرُع فيها النسوة.. ومع انتصاف ذلك النهار، بدأت السفينة رحلتها والتي ستقلّ بضائعها ومسافريها حتى مدينة كبيرة تقع في الشمال تسمى (ركام الملح).. فيما كان اتفاق سولينا مع ربّان تلك السفينة على أن ينقلها عند تفرع النهر الذي يجري من الجبال الغربية ويصبّ في المجرى الكبير الذي يسكب مياهه في البحر الشمالي..

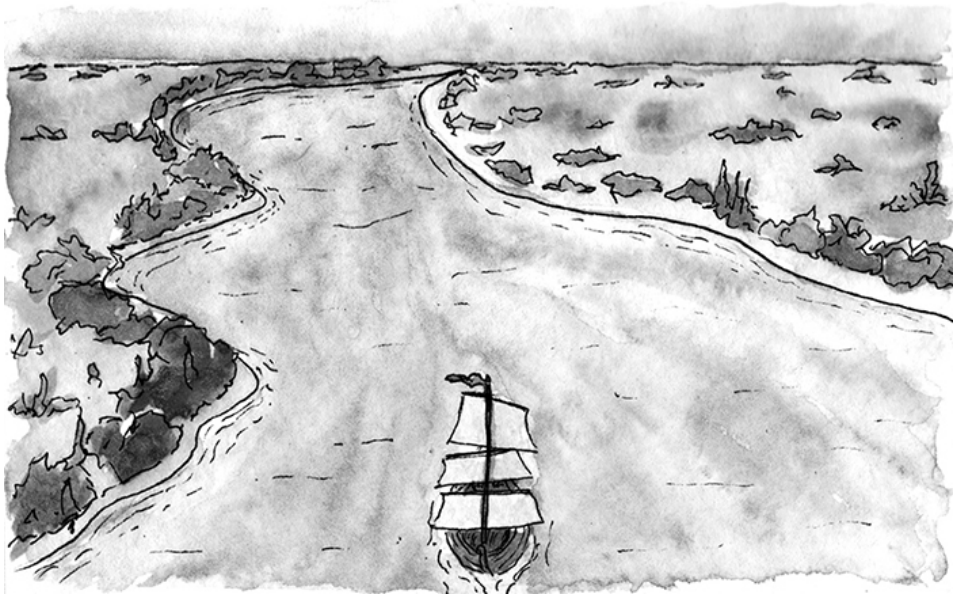

ومع بدء تحرك السفينة، وانشغال بحارتها بأعمالهم، سارعت سولينا لترتقي الصاري الأكبر في وسطها بسهولة حتى وصلت لأعلى نقطة منه حيث يرفرف علمٌ أخضر دالاً على كونها سفينة بضائع.. وبعد لحظات قصيرة، سمعت رفرفة الأجنحة، ورأت إيار يقترب منها حتى هبط على الصاري الجانبي متأملاً السفينة وجوانبها باهتمام شديد.. ثم التفت إلى سولينا قائلاً " ألن يعترض أصحاب السفينة على وجودي؟"

هزت سولينا كتفيها باستخفاف مجيبة " وحتى لو اعترضوا، يمكنك التحليق ومغادرة السفينة في أي

وقت.."

ثم شرعت بالهبوط مضيفة "لا تحاول لفت الأنظار في الوقت الحالي.. عندما أحصل على بعض الطعام سأجلب لك بعضه.."

قال إيار "لا داعي لذلك.. يمكنني الحصول على طعامي بنفسي.."

غمغمت سولينا "هذا أفضل بكل تأكيد.."

وعادت لسطح السفينة، فيما بقي إيار جالساً على الصاري بصمت يتأمل جوانب النهر والقرى الزراعية التي تمر بها.. لم يخفت شغفه لما يراه حتى مع مرور الأيام بهما وهما في هذه الرحلة، وحتى بعد أن وصلت سولينا للموقع الذي اتفقت مع الربّان على نزولها عنده.. وبينما أكملت السفينة طريقها للشمال، حملت سولينا أغراضها القليلة وشرعت في السير الحثيث نحو الغرب وإيار يتبعها محلقاً وهو يسأل "أتظنين أنك على الطريق الصحيح؟"

أجابت "طبعاً أعرف الطريق إلى القلعة.. لقد مررت بها عدة مرات سابقاً، وإن لم يُسمح لي بدخولها قط.."

عاد إيار يتساءل "وهل رأيت (أنصاف الرجال) قط؟.. كيف يبدون؟.. هل هم أقصر من الرجال العاديين؟.. أم أن الأمر يتعلق بشكلهم؟"

قالت سولينا باستياء "من أخبرك أنني أصطحبك في رحلة تثقيفية؟.. هلا كففت عن الأسئلة؟.."

صمت إيار مرغماً وهو يطير مبتعداً للأعلى متفحصاً المناطق القريبة، ثم يعود إليها مرة أخرى بفضول ظاهر.. لم يكن مجبراً على مصاحبة سولينا في رحلتها هذه، لكن غلبه بعض الفضول بما يخصّ هذه القلعة وأصحابها.. لذا، رافقها طوال الساعات التالية حتى رآها تنهار متعبة على صخرة قريبة وهي تزفر قائلة "تباً له من جهد.. لا يزال جسدي مجهداً من جراحه وأصبح السير أصعب فأصعب.."

ثم نظرت لإيار مضيفة باستياء "لِمَ لا تحملني المسافة الباقية؟"

قال إيار بسرعة "قطعاً لن أفعل.."

زفرت بحدة، ثم نظرت للنهر القريب مضيفة "لم أعُد أملك أي نقود لاستئجار قارب، وهي أسهل وسيلة للترحال عبر النهر بكل تأكيد.."

تناهى لسمعها في تلك اللحظة أصوات حديث خافت في موقع بعيد.. لكنها التقطته بسمعها المرهف

بسهولة وهي تنظر لتلك الجهة باهتمام قبل أن تتسلل إليه بحذر.. تساءل إيار وهو يتبعها بريبة "ما الذي تنوين فعله؟"

أشارت له ليصمت، وهمست وهي تقترب من مجموعة شجيرات تخفيهما عما وراءها "يمكننا الحصول على بعض النقود بوسيلة سهلة لاستئجار قارب.. فقد سئمت من السير.."

نظرت من خلف الشجيرات لموقع الحديث الذي لم تسمعه بشكل واضح، وتبيّنت في ذلك المكان رجلاً وامرأة جالسان حول نارٍ أشعلاها مع اقتراب مغيب الشمس.. ربض إيار قربها وهو لا يفهم ما تعنيه سولينا بجملتها تلك، فيما صفّرت سولينا صفيراً خافتاً وهي تغمغم "هذه المرأة من (الفيي).. يا لحظي.. لم أرَ أحداً منهم قط.."

قال إيار باستياء "ما الذي تنوين فعله؟.. هل ستسعين لاصطيادها هي أيضاً؟"

أمسكت سولينا ذراعه مقطبة، وقد لاحظت أن الرجل قد نهض واقفاً بحدة وأدار وجهه جهتهما بعبوس واضح.. عندها نهضت سولينا من مخبئها وغمغمت "وهذا الرجل من (الريبال).. ما الذي يفعله هنا؟"

خرجت من خلف الشجيرات دون وجل ملاحظة التوتر الذي بدا على المرأة، فيما قال الرجل الذي لم يكن إلا أوس "من أنتِ؟.. وما الذي تريدينه منا؟"

وقفت سولينا على مبعدة فيما فضّل إيار الاختباء في مكانه، وقالت بلهجة مرحة "مرحباً.. من الغريب رؤية امرأة من (الفيي) ورجلاً من (الريبال) معاً.. فما الذي جمع طرفي النقيض؟.."

كرر أوس بصرامة "ما الذي تريدينه يا امرأة؟.."

قالت عاقدة ذراعيها على صدرها "أريد بعض المال.. فأنا بحاجة لاستئجار قارب لإكمال رحلتي، ولا أستطيع إكمالها سيراً على الأقدام.."

أطلقت تيما ضحكة ساخرة، فيما قال أوس مقطباً "ما هذا الطلب الغريب؟"

أخرجت سولينا مسدساً من جيبها الداخلي ووجهته نحو أوس قائلة "هل يبدو كلامي الآن أكثر إقناعاً؟"

أجاب أوس دون أن يُبدي ذرة خوف "ما تطلبينه لا أملكه.. (الريبال) لا يتعاملون بالنقود.. ولا أظن (الفيي) يفعلون ذلك.. كل ما يمكنك أن تكسبيه من سرقتنا هو هذا الطعام الذي نشويه.."

اقتربت سولينا منهما قائلة دون أن تخفض مسدسها "لا بأس.. هذا على الأقل سيملأ معدتي الخالية.."

قفزت فجأة للخلف عندما مدّ أوس ذراعه نحوها بسرعة خاطفة، فتجاوزت مخالبه التي كادت تطالها بجراح جديدة، وصاحت "لمَ تهاجمني بحق السماء؟!.."

قال بحدة "من الأفضل لك أن تغربي عن وجهي.. لا أملك المزاج الرائق للعبث مع أمثالك.."

توتر الموقف بينهما وسولينا ترفض التراجع بعناد شديد، فيما ربض إيار مختبئاً وغمغم بقلق "ما الذي تفعلينه يا حمقاء؟.. لا يبدو أن الأمور ستسير على هواك هذه المرة.."

سمع صوتاً من فوقه يقول "مرحباً أيها الفأر الصغير.."

نظر للأعلى بسرعة، فوجد تيما التي لم ينتبه لغيابها وقد حلقت فوقه تنظر له بابتسامة جانبيه.. تراجع إيار خطوات قائلاً بتوتر "كيف عرفتِ بوجودي؟"

قالت بابتسامة شغوفة "رائحة دمائك الشهية وصلت لأنفي بوضوح.. فهل تمنحني بعضاً منها؟"

تجمد إيار في موقعه وهو يحدق في عيني تيما الواسعتين الجميلتين.. بدا لونهما الأخضر جذاباً وجميلاً جعله لا يحوّل بصره عنهما.. وحتى لو حاول، فإنه اكتشف أن إرادته قد سلبت منه تماماً.. هبطت تيما بابتسامة واثقة نحوه، عندما فوجئت بصخرة متوسطة الحجم تطير وتكاد تضربها على رأسها.. انتبهت للأمر في اللحظة الأخيرة وهي تقفز في الهواء للخلف بعيداً عن مرمى الصخرة، فانقطعت الصلة التي تجمع بينها وبين إيار، ووجد الأخير نفسه متحرراً من سيطرتها دون أن يفهم ما يجري.. كل ما أدركه أن جسده يستجيب له بشكل عادي، فتراجع خطوات للخلف وهو يسمع صياح سولينا التي رمت الصخرة لتنقذه من أسر تيما "أيها الأحمق.. لو سيطرت عليك فستمتص دمك دون هوادة.."

نظرت لها تيما مقطبة، فيما قال أوس "يبدو أنك تعرفين الكثير بالفعل.."

أجابت بابتسامة واثقة "لا أحد يعرف عن هذا العالم وكائناته أكثر من صيادة مثلي.. هذا هو عملنا، ولحسن الحظ أن (الفيي) غير مطلوبين في مدينة الصيادين.. وإلا لجررتُ فتاتك الجميلة هذه معي وبعتها بلا أدنى شفقة.."

نقل أوس بصره بينها وبين إيار الذي اقترب محلقاً بجناحيه باستعداد للهرب، أو الهجوم، عند أدنى بادرة.. فتساءل أوس رافعاً حاجبيه بعجب واضح "أليس هذا هو الفتى التنين؟.. ما الذي يفعله هنا، وبرفقة صيادة لا غير؟"

قالت سولينا "أجل.. وأنا من اصطاده، لذا هو ملكي ولا أسمح لأحد بوضع يده عليه.."

قال إيار بضيق حانق "حقاً؟!.."

عندها قال أوس "ما المطلوب منا بالضبط؟.. لِمَ تعترض صيادة طريقي دون سبب ولأجل شيء لا أملكه؟"

قلبت سولينا بصرها بينه وبين تيما التي اقتربت محلقة وإن بقيت على مسافة آمنة "أخبرتك، أنا بحاجة لوسيلة تعينني على الوصول لوجهتي بشكل أسرع.. وقد ظننت أنكما تقدران على مساعدتي عن طيب خاطر.."

أطلقت تيما ضحكة هازئة، فيما قال أوس مقطباً "ونحن لا نقدر على شيء من هذا.. والآن، غادري قبل أن يتطور الوضع لما قد لا يعجبك.."

علق إيار في تلك اللحظة "ربما من الأفضل لنا الرحيل يا سولينا.. لا داعي لجرّ هذا الجدال أكثر من هذا.."

احتفظت سولينا بعنادها لمدة أطول وهي تعقد ذراعيها على صدرها متسائلة "وما الذي جاء بكما إلى هذه المنطقة؟.. (الريبال) يسكنون في الجنوب، فيما يسكن (الفييّ) في الشمال الغربي.. هذا مكان غريب للقاء إن أردت رأيي.."

قال أوس بغلظة "لا شأن لك في هذا الأمر.. هل تريدين العراك؟"

مطت شفتيها قائلة "ولِمَ أنت عصبي هكذا؟.. هل ولدت هكذا؟"

واستدارت مغادرة فيما تقدمها إيار محلقاً بعيداً عن هذا الموقع.. وعندما اطمأن لابتعادهما، انخفض قليلاً وهو يتساءل "ما كانت هذه الحماقة؟.. أنت لم تجنِ شيئاً من كل ما فعلته هناك.."

هزت كتفيها معلقة "كان الأمر يستحق المحاولة.."

رأت قارباً يمرّ في النهر متجهاً نحو الغرب.. فسارعت سولينا للصياح والتلويح لصاحبه أملاً في نقلها عبر النهر لقلعة (أنصاف الرجال).. بينما ابتعد عنها إيار مقترباً من إحدى قرى الصيد الصغيرة التي رآها تظهر على ضفة النهر، والتي تعيش على صيد السمك وبيعه.. بالإضافة لمهنة صنع القوارب وبعض السفن متوسطة الحجم والإتجار بها بين القرى الواقعة على ضفاف النهر الذي يقطع هذا الجانب من عالم الأطياف من الجنوب والشرق والغرب حتى يصبّ في بحر الشمال..

جلست الكاهنة باسترخاء لا يخلو من ملل على كرسي لا تكاد تشغل إلا حيزاً صغيراً منه.. فيما وقف الملك أمامها يدور بتوتر واضح وقلق شديد لم يغِب عن عينيها.. لكنها فضّلت تجاهله في تلك اللحظة، فهي تدري ما يسبب له القلق، وتساؤلاته المتكررة قد أصابتها بالجنون.. لكنها مضطرة للاعتماد عليه، لذا هي مضطرة للتغاضي عما يسببه لها من ضيق وحنق بشكل دائم..

عقد الملك عزمه في تلك اللحظة، فاستدار إليها وقال "متى سيحين الحين يا قداسة الكاهنة؟.. لقد مضت عدة سنوات منذ أعطيتني وعداً بتحقيق طموحي، وحتى الآن لم أرَ شيئاً من هذا.."

قالت الكاهنة بضجر "قريباً يا هذا.. قريباً جداً.."

قال الملك بإلحاح متغاضياً عن سوء حديثها معه "متى سيكون هذا القريب؟.. أنا لا أريد جواباً عائماً.."

ثم عاد للدوران في مكانه وهو يقول دون أن يلاحظ انشغالها بأفكارها عن الاستماع إليه "لقد تنازلت عن الكثير حتى الآن.. آويتك في قلعتي طوال تلك السنوات، ورفعت مكانتك بين رجالي وبين سكان القلعة.. وفرت لك كل ما تطلبينه، حتى إنني قد سمحت لك باستغلال بعض فتيات القلعة لتنفيذ مآربك واستخدام أجسادهن رغم إرادتهن.. والآن، طاوعتك على إخراج رجل كان من المفترض أن يتم إعدامه منذ سنوات.. فما التالي؟.. متى سأقطف ثمار صبري هذا؟"

ولما لم يجد منها جواباً على قوله وهي تقضم طرف إصبعها بصمت، قال بشيء من العصبية "متى ستفِين بوعدك لي حقاً؟.. لقد سئمت من الانتظار.."

انتبهت من أفكارها مع صياحه العصبي، فقالت مقطبة بصرامة "أخبرتك أن الوقت قريب.. أنت تعلم تمام العلم أن الأمر يتطلب تسع سنوات لكي تتعامد النجوم مع الموقع المختار.. ألم أقم بتجربتي السابقة قبل عدة سنوات قبل الأوان متجاهلة أهمية هذه النقطة؟.. ولم أجنِ منها إلا الفشل، وكدت أموت دون تحقيق أي نتيجة.."

علق الملك باعتراض "لم تكوني لتموتي من تجربة كتلك.."

نظرت له بصرامة وقالت بحدة "فقدت ذاك الجسد على الأقل.. أتعتبر انتقالي من جسد لآخر هيناً عليّ؟..

لا يمكنك أن تشعر بالعذاب الذي أمر به في كل مرة.."

أجفل الملك لصياحها، ثم قال وهو يتراجع ويجلس على عرشه المذهب "وما الحل إذاً؟.. هل عليّ الانتظار زمناً طويلاً أكثر مما انتظرته؟"

أجابت الكاهنة ببرود "أخبرتك أن الوقت قد أزف.. لهذا السبب فضّلت الانتقال لجسد الطفلة البشرية استعداداً للحظة الموعودة.. بقي القليل فقط، ويتحقق ما نريده نحن الإثنان.."

غمغم الملك بلهفة لم يملكها "أخيراً.. سأصل لما أريده.. سأسود وأفرض سلطتي على الجميع.. سأصبح صاحب أكبر قوة في العالم، وصاحب الكلمة العليا دون جدال.."

نهضت الكاهنة واستدارت مغادرة تاركة الملك في هذيانه، وغمغمت وهي تغادر "احلم كما تشاء يا صغير العقل.. وسنرى من منا من سينال هدفه أخيراً.."

وابتسمت بثقة تامة وهي تغادر غرفة عرش الملك، لترى جاد يقف خارجها بصمت بانتظارها.. فازدادت ابتسامتها الواثقة وهي تجدّ الخطى في أروقة القلعة دون أن يقف في وجهها مخلوق..

الفصل الحادي عشر: قلعة الغيلان

بعد بحث طويل ورجاء شديد اللهجة، تمكنت سولينا من إقناع أحد الرجال في قرية الصيد بنقلها على أحد القوارب نحو الغرب، حيث ينبع النهر من بحيرة عميقة قريبة من سلسلة جبلية تسمى (جبال الغيلان).. وهي موطن للغيلان التي انزوت فيها لا تغادرها ولا تلتقي بأحد فيها إلا فيما ندر..

في البدء، أخبرت الرجل برغبتها الوصول للبحيرة، ولم تفصح عن هدفها وهي تلك القلعة الواقعة وسطها.. وعندما تبدّت لهم القلعة من مبعدة، رفض الرجل طلبها رفضاً شديداً خشية هجوم الجنود على من يقترب من القلعة لدى أدنى شك، لكن سولينا حاولت رشوته ببعض ما تملكه من مجموعة خناجر في حقيبتها، وفي النهاية لجأت لتهديده بشدة حتى رضخ لها أخيراً بخوف واضح، منها ومن المصير الذي قد يلاقيانه على أيدي جنود القلعة الحصينة..

قبل اقترابهم من تلك الجزيرة الصخرية التي تحتلّ القلعة أغلب أجزائها، قال إيار وهو يقترب من القارب في تحليقه "سأقوم بجولة سريعة فوق القلعة.. ولو تمكنتِ من دخولها، فقد ألجأ للرحيل عن هذا المكان فلا حاجة لي للبقاء فيه.."

هزت سولينا رأسها موافقة وهي تتطلع لأسوار القلعة بمزيج اللهفة لمستقبل ترجو أن يكون خيراً مما مضى، وشيء من التوجس لرؤية هذه الأسوار العالية كئيبة المنظر.. وعندما وصلت بالقارب قريباً من النفق الذي يخترق قلب القلعة، أوقف الرجل تجديفه وهو يقول بتوتر واضح "هذا كل ما يمكنني فعله.. عليك التقدم وحدك بعد هذا.."

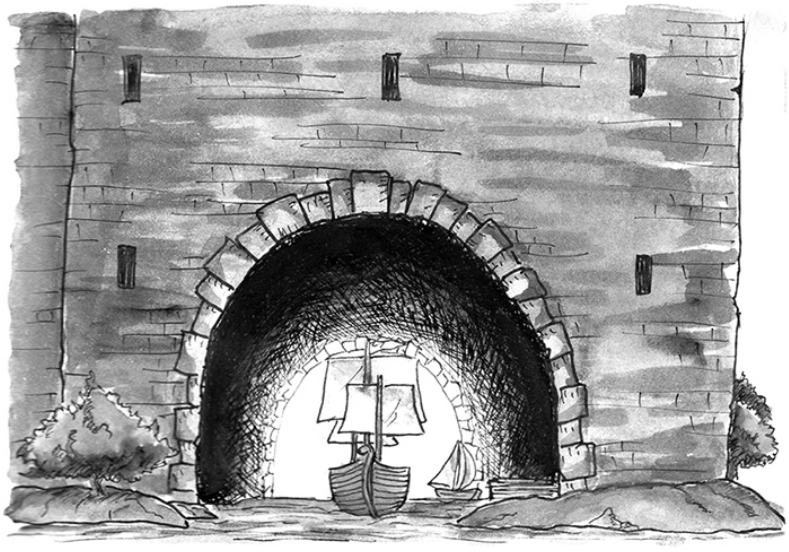

نظرت سولينا للفجوة أسفل القلعة والتي تشكل ميناءً محدوداً للسفن الصغيرة والقوارب القادمة إليها.. وحيث امتد رصيف من هذا الميناء حتى جانب القلعة وعليه عدد كافٍ من الجنود لحماية المكان.. لم تعترض وهي تقفز نحو الرصيف الحجري لتجد أحد الجنود يقترب منها بسلاحه قائلاً "من أنتِ؟.. وما الذي تبغينه بقدومك إلى هنا؟"

لاحظت تراجع الرجل بالقارب بعيداً عن القلعة ونحو ضفة البحيرة، فلم تعلق وهي تحمل حقيبتها على كتفها قائلة "أريد مقابلة قائد الجند لأمر ضروري.."

قطب الجندي قائلاً "لا يستقبل قائد الجند أي عابر سبيل لا أهمية له.. من أنت يا هذه؟"

قالت بحزم "لستُ شخصاً لا أهمية له.. أريد مقابلة القائد لأمر مهم.. خذني إليه حالاً.."

فقال الجندي بحنق "أنت بالصفاقة الكافية لتعرضي هذا الطلب مرتين.. أفصحي عن هويتك بسرعة وإلا رميتك خارجاً.."

جذبت سولينا نَفَساً لتبدأ وصلة من الجدال الحامي لإقناع الجندي بطلبها، عندما سمعا صوتاً آمراً يقول من خلفهما "ما الذي يجري هنا؟"

استدار الجندي على الفور متفاجئاً وهتف "سيدي القائد!.."

أدركت سولينا أن هذا هو قائد الجيش، فابتسمت نصف ابتسامة وهي تغمغم لنفسها " أنا محظوظة بالفعل.."

بدا أن ذلك الرجل الذي ناداه الجندي بالقائد كان ينوي مغادرة القلعة في إحدى السفن، لغرض لا تعلمه، لكن وجوده في هذا الوقت كان يصبّ في صالحها بالتأكيد.. شرح الجندي ما يجري بكلمات معدودة، فأسرعت سولينا تقول قبل أن يلقي القائد حكمه عليها "أنا سولينا، من مدينة الصيادين.. جئت أعرض خدماتي عليكم وأطلب ضمّي لجيشك.. فأنا أملك من المهارات والقدرات ما يفوق الكثير....."

قاطعها بازر بلهجة استياء والجندي القريب يلقي عليها نظرة هازئة " ما الذي دعاك لمغادرة مدينة الصيادين؟.. لا أذكر أن أحدهم قد انضمّ لأي جيش أو جهة مخالفاً أمر زعيمه.."

كانت سولينا تتوقع هذا السؤال، فقالت بسرعة "حدث سوء خلاف بيني وبين بعض الرجال في المدينة،

فغادرتها لأن زعيمها لم ينصفني بالشكل اللازم.."

لم يتريث بازر للحظة وقال وهو يستدير مبتعداً "ارموها خارج القلعة.."

صاحت سولينا "مهلاً.. ما الذي لا يعجبك في قولي؟"

وجدت اثنين من الجنود يجذبانها بعيداً، فيما قال بازر بضيق "لدينا ما يكفي من الجنود للقيام بكل ما نريده.. لا حاجة بنا لصيادة مارقة.."

صرخت والجنديان يدفعانها بعيداً "لكن هذا لا يعني أن تعاملني بهذه الاستهانة.. مهلاً.."

وجدت الجنديان يقتادانها عنوة لنهاية ذلك الطريق الضيق الذي يمتد تحت القلعة، وفي نهايته رمياها بكل قوة حتى وجدت نفسها تسقط في مياه البحيرة..

فور عودتها للسطح بعد غطستها تلك، صاحت ملوحة بيدها "ماذا لو كنت لا أعرف السباحة؟.. يا لكم من...."

رفع أحد الجنود بندقية في يده وهو يقول لها بصرامة "عودي من حيث أتيت قبل أن نجبر جثتك على أن تغوص في عمق هذه البحيرة.."

زمّت حاجبيها بضيق وحنق، ثم استدارت وسبحت عائدة لضفة البحيرة البعيدة.. لم تكن تتوقع فشلاً سريعاً كالذي مُنيت به، رغم أنها توقعت بعض الرفض من جانبهم.. لكن معاملتهم غاظتها أكثر من أي شيء آخر.. رأت إيار يعود من جولته التي قام بها في الموقع، وقد علق فور اقترابه "كان هذا سريعاً جداً.."

قالت بغلّ "اصمت.."

ضحك للغضب الواضح على ملامحها، فيما وصلت سولينا بعد جهد للضفة فارتمت على رمالها لاهثة وجرح كتفها يؤلمها بقوة للمجهود الذي بذلته.. فهبط إيار قريباً مغمغماً "لا أدري سبب تسمية هذا الشعب باسم (أنصاف الرجال).. فأشكالهم عادية ولا تحمل من اسمهم شيئاً.."

قالت سولينا وهي تجلس وتتفحص جراحها التي لم تلتئم بشكل كامل بعد "أنت مصرّ على معرفة هذه الحكاية؟"

جلس قريباً وقال باهتمام "هل تعرفينها؟.."

تفحصت سولينا محتوى حقيبتها التي تبللت بالكامل بضيق واضح، ثم قالت "هي أسطورة أكثر من أن

تكون حكاية.. فلا أحد يعرف بصحتها أو يجزم بحقيقتها بعد كل هذا الوقت.. يقال إن غولاً من قبيلة الغيلان كان يتردد على عالم البشر.. لم يكن طريق الأطياف موجوداً كما هو الآن، ولم يكن هناك حاجز بين عالمي البشر والأطياف.. كان ذلك الغول يتردد على عالم البشر يتملكه فضول ورغبة شديدة في معرفته.. ورغم ما يثيره من فزع بهيئته المرعبة، لكنه لم يكفّ يوماً عن ذلك.. وفي يوم ما، رأى الغول فتاة بشرية في الغابة يهاجمها بضع لصوص.. كانت أجمل فتاة تقع عليها عيناه، وقد هبّ لمساعدتها دون تردد مطيحاً بجماعة من اللصوص يتجاوز عددهم العشر.. شكرته تلك الفتاة بحرارة وعاملته بلطف رغم هيئته التي تثير فزع البشر عادة.. وقد وقع الغول في حبها وهام في عشقها على الفور.."

غمغم إيار معلقاً "وما الفائدة من ذلك الحب؟"

قالت سولينا "لم يكن الغول يفكر بهذا الأمر، ولم يتردد لذهنه أن الفتاة قد ترفضه لهيئته القبيحة.. حاول التودد إليها عدة مرات، ولما عجز عن فراقها وخشي أن يبعدها أهل قريتها عنه، قام باختطافها واصطحبها معه عنوة لعالم الأطياف.. وبالطبع، انتاب الفتاة فزع قوي منه لما فعله، وقضت أيامها باكية خائفة بحيث ندم الغول على ما فعله.. لكنه لم يتراجع رغم ذلك.. تركها في مخبئه وسط جبال عالية، حيث لا يصل إليها أحد ولا تقدر على الهرب من هذا المكان، وانطلق بحثاً عن ساحر قوي مشهور بسحره.. وهناك، قدم الغول كل ما يملكه، وهو لم يكن كثيراً، لذلك الساحر وهو يرجوه أن يجد حلاً لهذه المشكلة.. يريد أن يحتفظ بفتاته، ويريدها أن تكف عن الخوف منه وتأنس له.. ولم يتردد الساحر في منحه ما يطلبه.. مقابل شيء لم تذكره الخرافة بالتحديد، منحه الساحر تعويذة تحوله في كل ليلة لهيئة بشري، لكنه يعود لهيئة الغول مع مطلع كل صباح.. عاد الغول لفتاته، ودخل المخبأ مع حلول الليل بهيئته البشرية التي لم تستنكرها.. رغم خوفها الجزئي منه، لكنها أحست بالراحة لكونه بشرياً.. أوهمها الغول أنه بشري مثلها، وأنه مصاب بلعنة من ساحر تحوله لغول مع مطلع كل نهار.. وبتعاطفها معه، فإنه حصل على كل ما يبغيه.. تزوجها، وعاش معها في هذا العالم سنوات طوال.. ولكي ينال رضاها، فقد انتقل بها من تلك الجبال القاسية إلى ضفة هذه البحيرة وبنى لها بيتاً أجمل مما قد تحصل عليه في عالمها.. أنجب منها العديد من الأبناء والبنات، ولأنهم نصف غيلان ونصف بشر، فقد أطلق عليهم بقية الغيلان اسم (أنصاف الرجال).. لم يقبلهم الغيلان بينهم قط، فاضطروا للعيش منعزلين في هذا الموقع.. وبعد عقود طويلة، وبعد أن تكاثروا

وأصبحوا قبيلة كبيرة، ابتنوا لأنفسهم هذه القلعة، وفضلوا البقاء بعيداً عن بقية الغيلان الذين يعيشون حياة بهيمية.. أما (أنصاف الرجال) فقد تمكنوا من تطوير أنفسهم وحياتهم وتكوين جيش منظم يحفظهم من كل من يحاول الإساءة إليهم في هذا العالم.."

تساءل إيار "هل هذه الحكاية حقيقية؟"

أجابت سولينا "كما قلت لك، لا أحد يجزم بصحتها.. لكن لا يمكن نفيها بشكل كامل أيضاً.."

تأمل القلعة التي تبدو أمامه بصمت مفكراً في هذه الأسطورة التي أنجبت شعباً بهذه القوة.. لو حاول (أنصاف الرجال) السيطرة على هذا العالم، فلن يعجزهم ذلك.. لكن لا يبدو أنهم يملكون أي نوايا توسعية في المنطقة، عدا عن بعض الغارات التي يقومون بها في القرى والمدن القريبة لغرض أو لآخر..

التفت إلى سولينا متسائلاً "ما الذي تنوين فعله الآن؟"

زفرت سولينا بحنق وهي تنفض شعرها المبلل مغمغمة "علي أولاً ربط جراحي من جديد قبل التفكير في أي أمر آخر.."

سمعا خطوات تقترب منهما في تلك اللحظة، وصوتاً يقول "يبدو أن هدفنا واحد كما يبدو.."

استدارا ليجدا أوس يتقدم منهما وتيما تتبعه، والتي علقت هازئة "هل حاولت دخول القلعة؟.. يبدو أنهم قد عاملوكِ باللطف الذي تستحقينه.."

قالت سولينا "وما الذي أتى بكما إلى هذه القلعة؟.. هل تريدان الانضمام لجنودها أيضاً؟"

أجاب أوس مقطباً "قطعاً لا.. أريد استعادة الطفلة التي اختطفها الجنود مني قبل عدة أيام.."

نظرت له سولينا باهتمام متسائلة "طفلة؟.. هل هي قريبتك؟.. لا يمكن أن تكون ابنتك، أليس كذلك؟"

قال أوس "بل هي طفلة بشرية.."

نظرت له سولينا مصعوقة بينما تساءل إيار "كيف يمكن ذلك ولا أحد يستطيع تجاوز طريق الأطياف؟"

هتفت سولينا "بالضبط.. لا أحد يستطيع الوصول لهذا العالم من البشر.. فكيف وصلت تلك الطفلة؟.."

ثم نظرت لأوس بريبة مضيفة "لكن مع شخص من الريابلة لا يغدو ذلك صعباً.. هل أنت من اختطفها من عالم البشر؟"

قال أوس بحنق "قطعاً لا.. لقد وصلت بطريقة ما لهذا العالم.. وقد سعى جنود القلعة خلفها واختطفوها

مني قبل أن أتمكن من إعادتها لعالمها.."

تساءل إيار بحيرة "لماذا؟.. هل يسعى الملك خلف لحم البشر ودمائهم؟"

توتر أوس لقوله رغم أنه لم يكن مستبعداً، ثم قال بضيق "لا أظن ذلك، فقد لاحظت أنهم حاولوا الحفاظ على حياتها وتجنّب إصابتها بأي سوء قدر الإمكان.. ربما لم يكن هذا هدفهم حقاً، ومازلت أعجز عن تفسير الأمر.."

تساءلت سولينا وهي ترمق القلعة وسط البحيرة "وما الذي تنوي فعله بالطفلة حقاً؟.. لا تقل لي إنك تنوي التهامها أو تقديمها لفتاتك الجميلة.."

علقت تيما بحنق واضح "كفي عن السخرية مني.. وأنا لست فتاته لو لاحظت هذا.."

قالت سولينا "وما الذي جمعك به إذاً؟"

قاطع أوس جدالهما قائلاً "لا أنوي فعل شيء من هذا.. كما أخبرتك، سأعيدها لعالمها، ولن أسمح لشخص بإيذائها.."

نظرت له سولينا متعجبة، ثم صمتت وهي تحدق في القلعة الصامتة للحظات وإيار يقول "ربما عليك أن تنساها.. القلعة حصينة، وتعج بالجنود كما رأيت عند تحليقي فوقها.. هذا عمل صعب على رجل وحيد.."

قال أوس باستياء "لن أتراجع لهذا السبب فقط.."

بعد أن طال صمتها، التفتت سولينا إليه قائلة "لديّ عرض لك.. ما رأيك بأن أعينك على ما تنوي القيام به؟.. أملك من الأسلحة والخبرات ما يكفي لغارة سريعة وخاطفة لقلب القلعة.. فما رأيك؟"

نظر لها أوس مقطباً وإيار يقول باستنكار "أأنت جادة؟.. ألم تأتِ عازمة على الانضمام لجند القلعة؟"

أجابت سولينا "وهم قد طردوني شر طردة.. لذا يحق لي الانتقام منهم هذا الانتقام البسيط.. أليس كذلك؟"

تساءل أوس "وما المقابل؟.. لا تقولي لي إن الانتقام فقط هو ما تهدفين إليه.."

علقت سولينا قائلة "لا، ليس هذا هدفي الحقيقي.. أريدك أن تأخذني معك لعالم البشر عندما تعيد الفتاة.."

تطلع الثلاثة إليها مصعوقين، وإيار يهتف "أنت تمزحين.."

نظرت لأوس بتصميم قائلة "لا يمكنني المرور عبر طريق الأطياف وحدي، لكن وجودي معك سيحميني

من الأطياف بكل تأكيد.. وأنا قد عقدت عزمي على الذهاب لعالم البشر.."

تساءل أوس بريبة "لماذا؟.. ما الذي ستفعلينه هناك؟"

هزت كتفيها مجيبة "لا شيء.. سأجرب حظي في العيش هناك.. هيئتي لا تختلف كثيراً عن هيئة البشر، بخلاف أذناي التي يمكن إخفاؤها عن الأعين.. وأنا قد سئمت هذا العالم ولا أملك ما يجعلني أتشبث بالبقاء فيه.."

ضحكت تيما بسخرية واضحة، وإيار ينظر لها باستنكار واضح لهذه الفكرة المجنونة التي طرأت لها.. فيما قطب أوس وهو يحدق في عيني سولينا اللتين التمعتا بتصميم واضح.. ثم غمغم وهو يدير بصره للقلعة "سنرى بشأن ذلك.."

فيما علق إيار "أنت مجنونة يا سولينا.."

ابتسمت سولينا قائلة "وهذا الجنون يعجبني حالياً.."

بعد حديثهم السابق على ضفة البحيرة، انتقلت الجماعة الصغيرة المكونة من أربعة أفراد، أوس وتيما وسولينا وإيار، لجزء آخر من الموقع وسط غابة كثيفة الأشجار ضاجة بالحيوانات المتنوعة بعيداً عن أعين القلعة وجنودها.. لم يرغب أوس بكشف نفسه قبل الأوان، ولا يريد الاحتكاك بالجنود قبل بدء مهمته الأصلية بإنقاذ ساما.. وفيما رحل إيار بحثاً عن طريدة لهم في الغابة، رحلت تيما بدورها بحثاً عن طريدتها الخاصة.. فيما بقي أوس وسولينا في ذلك المكان والأخيرة تقول بابتسامة "من المفيد وجود كائن بجناحين معك.. فهو يوفر عليك مهمة البحث عن طريدة وملاحقتها على قدميك.."

تساءل أوس وهو يجلس جانباً "ما هدف الفتى التنين من ملاحقتك؟.. ظننت أنه لا يغادر الجبال الشرقية مطلقاً.."

علقت سولينا قائلة "لقد قتل الصيادون التنين الأخير، لذا وجد إيار نفسه وحيداً لا ملجأ يلجأ إليه.. وهو حالياً يتسلى بملاحقتي والشماتة لما يجري لي.. لكنه سيكون مفيداً مادام موجوداً، فهو فتىً طيب.."

لم يعلق أوس على ذلك وهو ينظر للسماء التي تلونت بحمرة الغروب فوقهما، محاولاً معرفة كم يوماً مرّ منذ

فقد ساما.. ما الذي جرى لها في هذه الأيام؟.. وهل أبقاها الجنود حية أم قتلوها كما يتوقع الجميع؟..

قطعت سولينا أفكاره وهي تجلس جانباً مبعثرة محتوى حقيبتها التي تبللت سابقاً "لم أستطع ألا ألاحظ الأربطة التي تلفّ أجزاء كبيرة من جسدك.. هل أنت على ما يرام؟.. من الدماء الواضحة على تلك الأربطة يبدو لي أنك مصابٌ بجراحٍ بليغة.. ألا تحتاج أي عون لتنظيفها وعلاجها؟"

غمغم أوس "لا أظن ذلك.."

رفع قميصه وكشف عن أكثر جراحه عمقاً وخطورة، فاستطاعت سولينا أن ترى أن الجرح شبه ملتئم ولم يعُد ينزف الدماء.. فعلقت قائلة "إذن جراحك ليست حديثة.. لقد ظننت ذلك عندما رأيت الأربطة ملطخة بدمائك.."

قال أوس بابتسامة باهتة "بل عمر هذا الجرح لا يتجاوز عدة أيام.. لكنه قد التأم بمعجزة ما.."

تدلىّ فك سولينا بصدمة، وصاحت "أيام فقط؟.. أنت تمزح....!.."

ثم انتبهت لأمر ما، فقالت باستنكار وهي تشير للجهة التي اختفت عندها تيما "لا تقل لي....."

وإزاء صمت أوس بغير اعتراض على ما قالته، قالت بدهشة وصدمة كبيرين "هذا أمرٌ لم أتوقع حدوثه قط.. يبدو أن تواجدكما معاً ليس أمراً عادياً كما تراءى لي للوهلة الأولى.."

لم يعلق أوس على ذلك.. في الواقع لم يكن أوس يملك تفسيراً لما فعلته تيما له، ولم يملك دهشته وهو يرى جرحه يتعافى بتلك السرعة وعافيته تعود بأسرع مما كانت.. بل إنه يكاد يجزم أن جسده أقوى وأكثر صحة من السابق.. أكل هذا تأثير دماء (الفيي)؟.. لا عجب أن يسعى خلفهم بعض كائنات هذا العالم.. ولو كانت فائدة دمهم متاحة لكل من حصل عليه، لما بقي منهم أحد خلال وقت وجيز..

في تلك الليلة، تحلق الأربعة وسط النار التي أشعلوها، وهم يقومون بشيّ حيوانٍ صغير اصطاده إيار في السابق.. ظلت سولينا تجادل أوس في الوسيلة المناسبة لاقتحام القلعة، وقد بدا الحماس في كلماتها المتسارعة وفي تلويح يديها بانفعال واضح.. فقالت تيما معلقة على ذلك "تبدين مستمتعة كثيراً بهذه الفكرة.. هل يمتعك ما سيجري عند اقتحامكم القلعة؟"

قالت سولينا بابتسامة "لقد قضيت حياتي كلها أصطاد الكائنات البرية، ولم يسبق لي اقتحام مدينة ولا قلعة، أو اختطاف إنسان قط.."

غمغم إيار ببعض الحنق "ألا تعدّينني إنساناً؟"

قالت ضاحكة "لا يمكنني ذلك بضمير هانئ.. لكن ألا تشعران بالحماس أنتما أيضاً لهذه الفكرة؟"

أسرعت تيما تقول "ما الذي هيأ لك أنني سأشارك في الأمر؟"

وقال إيار بعدها "أنا أيضاً أرفض ذلك.. هذا أكبر من قدراتي، وأنا لا أحب فكرة الالتحام مع الجنود بأسلحتهم التي لا أملك ما يماثلها.. ثم إنني غير مقتنع بجدوى ما تخططون له.."

قال أوس بصرامة "ولِمَ لا يقنعك ذلك؟.. أتظن حقاً أنني أركض وراء سراب؟"

لم يستطع إيار قول ذلك، فهو يعلم أن هذا القول سيثير غضب أوس مما بدا في عينيه.. فقال مغيراً وجهة الحديث "ثم إن اقتحام القلعة أمر مستحيل.. لقد رأيت جوانبها أثناء طيراني فوقها اليوم.. هي قلعة حصينة جداً.. واقترابكم عبر البحيرة لن يغيب عن أنظار الجنود مطلقاً.. فكيف تنوون اقتحامها دون مواجهة الجنود؟"

قال أوس "لا أجزم بأننا لن نضطر لمواجهتهم، لكنني أتمنى إرجاء ذلك حتى أعثر على الطفلة.. بعدها، سأشق طريقي بالقوة وأهرب بها قبل أن يوقفوني.."

علقت تيما باستنكار "هذه خطة عائمة كثيراً.. كيف ستصل للقلعة في البدء؟.. فكر بعقلك وسترى أن ذلك مستحيل.."

ضربت سولينا ركبتها براحة يدها وهي تقول بلهجة انتصار "عندي حلٌ سهل لهذه المعضلة.."

نظروا إليها بدهشة وصمت، فمالت نحو أوس قائلة "قلعة كهذه من المستحيل اختراقها دون أن ينتبه الجنود لذلك الاختراق.. لكن ما رأيك باختراق جوي؟.."

قال أوس بضيق "لا يمكنني أن أوكل هذه المهمة إلى شخص آخر.. يجب أن أفعل ذلك بنفسي ولا أطيق الانتظار.. وأنا لا أطير كما لك أن تتوقعي.."

قالت سولينا بابتسامة "يمكنك أن تطير ببعض المعاونة.. أليس كذلك؟"

صاحت تيما على الفور بحدة "لا يمكن.. أتتوقعين مني أن أحمل شخصاً بضخامة هذا الرجل؟.. محال.."

علقت سولينا بسرعة "بالطبع لا يمكن لفتاة مرفهة مثلك أن تكون ذات فائدة لنا.. لذا لم أكن أعنيكِ بحديثي هذا.."

نهض إيار وغادر مغمغماً "هذا الحديث يسير في اتجاه لا يعجبني.."

أمسكت سولينا ذراعه قبل أن يفرّ هارباً وقالت "استمع إليّ.. هذه هي الوسيلة الوحيدة لنقل أوس للقلعة دون إثارة الشبهات، على الأقل حتى نصل للفتاة.."

قال إيار باعتراض وهو يجذب ذراعه "لكني قد اكتفيت من حمل أشخاص أكبر مني حجماً، وتجربتي السابقة كانت مريعة كما لكِ أن تتخيلي.. كما أنني عارضت الاشتراك في هذا الجنون منذ البدء.. لا يمكن أن تكون الفتاة حية ترزق بعد كل هذا الوقت.."

لكن سولينا تمسكت به بقبضتها القوية، فيما قال أوس بصوت غاضب "لا يمكن أن تكون ساما قد ماتت.. لا يمكن أن أقتنع بذلك مطلقاً.."

أسرعت سولينا تقول "وأنا أوافق ذلك.. لمَ قد يأخذها أنصاف الرجال معهم للقلعة رغم بعد المسافة؟.. ثم إنهم لم يكونوا رجالاً عاديين، كانوا جنوداً من جنود الملك.. أتتوقعون أن الملك قد أرسل جنوده للقبض على طفلة بشرية فقط ليحصل على بعض القوة من التهامها؟.."

عبثت تيما بخصلات شعرها وهي تقول ببسمة هازئة "يبدو أنها ستكون ليلة حافلة.. أظنني سأستمتع بمراقبة محاولاتكم تلك وسأضحك من كل قلبي على هزيمتكم المرّة.."

قالت سولينا بسرعة "من قال إنك ستكتفين بالمراقبة؟.. كما لك أن تخمني، فأنا لا أطير أيضاً.."

نظرت لها تيما باستنكار وصاحت "محال.."

فقالت سولينا بابتسامة واثقة "بل ستفعلين ذلك يا فتاتي.."

قالت تيما بسخرية "وكيف ستجبرينني على ذلك؟"

لم تعلق سولينا وهي تواجه تيما بعينيها، فأظهرت الأخيرة امتعاضها وهي تبتعد عنهم وتنعزل وحيدة رافضة الاشتراك في ذلك النقاش.. فيما قال أوس "مجرد التسلل لا يكفي يا سولينا.. يجب علينا أن نحبك خطة محكمة لتجاوز الجنود والبحث عن الطفلة بأسرع وسيلة ممكنة.."

قالت سولينا بثقة "سنفعل ذلك.. نحن بحاجة لبعض المعلومات عن القلعة.. وإيار يمكنه أن يمدّنا بهذه المعلومات بسهولة دون المخاطرة بنفسه.. وبعدها، سيبدأ المرح الفعلي.."

صمت أوس مفكراً بالأمر بعمق وشيء من القلق لما قد يجري لساما حتى وصوله إليها، فيما قلب إيار بصره

بينهما وهو مندهش للحماس والإصرار الذي يتحلى به هذان الإثنان.. ولمن؟.. لأجل طفلة بشرية؟..

بقيت تيما منعزلة عن البقية وهي تجلس جانباً تحدق في السماء كعادتها.. كان موقعها متطرفاً، ولم يصلها أي كلمة مما يتبادلها أوس مع سولينا.. وبعد بعض الوقت، لاحظت أن فتى التنين قد ابتعد عنهما بعد أن تناول عشاءه، وانزوى جانباً ليغرق في نوم عميق.. لكن لم يبدُ أن أوس وتلك المرأة عازمان على إنهاء جلستهما تلك..

تأففت تيما وهي تقلب بصرها بينهما وبين الغابة حولهم.. لا تدري إلام تهدف باللحاق بأوس كل هذه المسافة.. هي لا تعبأ لأمر ساما حقاً.. لم تعبأ لأمرها قط.. ولو لم يكن أوس موجوداً، لربما شربت دماءها منذ اللحظة الأولى دون تردد.. إذن ما الذي تفعله هنا؟.. أما زالت تأمل أن يوفي أوس بوعده لها وينفذ مهمتها التي فشلت فيها فشلاً ذريعاً؟..

بعد فشلها البيّن، الأحرى بها العودة لموطن قومها.. لم يكن موطنها بعيداً عن هذا المكان، بل كان إلى الشمال من هذه البحيرة التي تحتل القلعة منتصفها.. لكنها ترجئ ذلك في كل يوم.. تخشى العودة، وتخشى مواجهة قومها بفشلها الذريع.. كانت تدرك أن العواقب ستكون وخيمة عليها، وهذا جعلها تتردد أكثر فأكثر في ذلك.. لكن حتى متى سترجئ هذه المواجهة؟..

بعد بعض الوقت، رأت تيما سولينا تقترب منها حيث جلست جانباً بعيداً عن البقية، فأشاحت بوجهها بصمت وهي تدير خصلة من شعرها كعادتها الدائمة.. ولما جلست سولينا قربها قالت تيما بجفاء "ما الذي جاء بك إليّ؟.. لابد أن يبدو لك واضحاً أنني لا أطيق وجودك قربي.."

قالت سولينا بابتسامة "ألا يمكن لامرأتين أن تتبادلا الحديث بعيداً عن الرجال؟.. هناك الكثير من الأمور النسائية التي يمكننا الحديث عنها وحيدتين.."

قالت تيما بحدة "أنت واهمة.. لاشيء يجمعني بك لأتبادل معك أي حديث.."

ونهضت استعداداً للطيران بعيداً، لكن سولينا استوقفتها قائلة "ألا تعبئين لأمر أوس؟"

سارعت تيما لتقول نافية تلك التهمة "طبعاً لا أعبأ لأمره.. أظننت أنك تستطيعين استمالتي بالحديث عنه؟"

ارتسمت ابتسامة جانبية على شفتي سولينا وهي تقول "حقاً؟.. يمكنني تخيل ما سيجري في تلك الليلة.. سيحمل إيار أوس وينزل به في القلعة عند انتصاف الليل.. هناك فرصة كبيرة لأن يكتشفهما الجنود قبل هبوطهما بالفعل، وعندها سيتم إمطارهما بالسهام والرصاص بكثافة لا يمكن تصديقها ولن ينجوا من الإصابة بأي شكل كان.. ولو تمكنا من التسلل للقلعة بنجاح، فبحثهما عن الطفلة سيطول كثيراً.. ما الذي سيفعله أوس عندما يجد نفسه محاطاً بعدد لا يحصى من الجنود؟.. إيار يمكنه الطيران في أي لحظة والنفاذ بجلده.. فماذا عن أوس؟.. لا بد أن أحمقاً مثله سيرفض الهرب وسيبحث عن الطفلة باستماتة تامة.. فكم جندياً سيسعى خلف حياته؟.. كم ضربة سيصاب بها؟.. وكم سهماً سينغرز في جسده؟.."

قالت تيما بحدة "هل تحاولين إثارة تعاطفي مع قضيتكم التافهة هذه؟.. كما قلت لك، لا أعبأ لأمره، ولا يهمني ما سيجري لأي أحد منكم.."

علقت سولينا قائلة "لكنك لازلت هنا.."

نظرت لها تيما بعدم فهم، فقالت سولينا "لِمَ لا زلت هنا يا تيما؟.. لِمَ تلاحقين أوس في كل مكان بهذا الإصرار؟"

أسرعت تيما تقول "كل ما أسعى إليه هو....."

قاطعتها سولينا قائلة "أعلم ما تسعين إليه بالضبط، فقد أخبرني به أوس.. لكن هل هذا ما يدفعك لأن تسقيه دماءك لتنقذي حياته؟"

نظرت لها تيما بشيء من الدهشة، فأضافت سولينا "لقد أخبرني أوس عما جرى منك عندما سألته عن سبب وجودك معه.. ربما كان أوس جاهلاً لخاصية دماء شعبك، ولأهميته بالنسبة لكم.. إنه لا يقدر بثمن، ولطالما حاول الصيادون الاستفادة منه بأي شكل ممكن.. ورغم أنه أخبرني عما جرى لك بعد أن فقدت جزءاً من دمائك، لكن ما لا يعلمه أوس أن لهذا التصرف الخطير أثرٌ آخر لن يبدو واضحاً للوهلة الأولى.."

قالت تيما بتوتر "ماذا تعنين؟.. ما الذي يمكن أن تعرفيه عن دماء شعبنا؟"

أجابت سولينا "أعرف الكثير.. مثلاً أعرف السبب الذي لأجله لا يتبرع شعبك بدمائهم طواعية إلا في حالات نادرة.. وليس الجمال أو الشباب هو السبب الأهم.. بل حياتكم ذاتها هي السبب.."

نظرت لها تيما مصعوقة، قبل أن تتلفت بحثاً عن أوس، ولتطمئن أنه لم يسمع كلمة مما تقال.. ولم تكن رؤيته وقد خلد للنوم لتريح بالها فيما أكملت سولينا "فقدان دمك بتلك الصورة يؤثر تأثيراً واضحاً في سنوات عمرك، ويفقدك عدداً منها رغم أنكم تحظون بعمرٍ طويلٍ بالفعل.. والآن، ما الذي يدفع فتاة أنانية تدور في فلك ذاتها، كما أدركت من اللحظة التي وقعت فيها عيناي عليك، لأن تفقد سنوات عمرها مع دمائها في سبيل رجل لا تعبأ لأمره؟.. هذا يثير دهشتي وتعجبي بشدة.."

قالت تيما بحنق "يكفي هذا.."

فقالت سولينا بابتسامة "ما الذي قد يقوله أوس لو علم بذلك؟.. لابد أن خبراً كهذا سيصعقه بشدة.."

صاحت تيما بغضب "يكفي أيتها الحقيرة.."

واندفعت محلقة في السماء بسرعة كبيرة تاركة سولينا تراقبها بصمت.. كانت ثورة قوية تعتمل في صدر تيما وهي تطير بلا هدىً بعيداً عن النار التي التمعت في ظلام تلك الليلة.. كيف تجرؤ هذه الوقحة لاتهامها بذلك الاتهام؟.. كيف تسوّل لها نفسها ابتزازها بصورة بغيضة كهذه؟.. أتظن أنها ستستسلم خوفاً على أوس؟.. ولِمَ عليها أن تعبأ لأمره؟.. إنه أحمق بالفعل، فلا يمكن لعاقل أن يرمي نفسه وسط أنصاف الرجال بتلك الصورة لأجل طفلة.. لِمَ عليه أن يفعل ذلك لأجل تلك الطفلة؟.. إنه أحمق وعنيد..

زفرت بشدة وهي تقرض أظافر يدها بغضب شديد.. ماذا لو أن تلك التافهة نقلت كل ما دار بينهما إلى أوس؟.. ما الذي سيظنه أوس لو علم أنها قد خاطرت بحياتها وبعمرها لأجل إنقاذه؟.. هل سيظنها فعلت ذلك لأنها غارقة في حبه؟.. يمكنها أن تنكر ذلك بشدة، لكن هل سيصدقها أحد؟.. تباً لتلك المرأة.. إنها تحاول بالفعل ابتزازها بصورة لا تصدق..

سارت الكاهنة وسط الحديقة المحدودة المحيطة بقصر الملك الواقع وسط القلعة، ملاحظة عدداً قليلاً من الحرس الذين يناوبون على حراستها طوال الليل والنهار.. كان الفجر وشيكاً، والليل يكاد يرحل مودّعاً، فيما انتشر ضباب خفيف في المكان مصدره البحيرة القريبة المحيطة بالقلعة.. تجاوزت الكاهنة عدداً من السلالم وبعض الممرات التي قادتها للزاوية الغربية من القصر، وتفحصت الموقع بتمعن مراقبة الحراس

المعدودين في جوانب المكان، والذين أخفتهم بعض الأشجار عن موقعها.. ثم مدت إصبعين من أصابع يدها اليمنى نحو الأرض عند قدميها وبدأت تتمتم بصوت خافت لا يكاد يسمع.. استغرق الأمر منها وقتاً طويلاً قبل أن تتحرك من مكانها وهي تشير نحو الأرض في حركات سلسة.. وعلى الأرض المرصوفة، استطاعت أن ترى ذلك الخط الأسود الذي تكوّن عليها بفعل حرارة قوية اندلعت في المكان ومصدرها طرف إصبعيها.. فبدأت الكاهنة في توجيه ذلك الخط بتشكيل معينّ تحفظه عن ظهر قلب..

سارت الكاهنة في خطوات مدروسة وهي تكمل الرسم على هيئة دائرة تحمل في وسطها مثلثاً عريضاً.. وفي كل زاوية من زوايا المثلث رسمت عدة نقوش غريبة الهيئة مع نقاط موزعة بعناية.. وبدأت بعدها بكتابة بعض الكلمات بلغة غير معروفة لسكان القلعة خارج الدائرة ومحيطة بها.. استغرق منها هذا العمل وقتاً طويلاً جداً وجهداً كبيراً بحيث بدأت يدها تنتفض بتعب مع إتمامها لآخر تفاصيل تلك الدائرة..

بعد أن تأكدت من تمام عملها، ومن اكتمال الرسم بشكل مطابق لما في ذهنها، ضمّت إصبعيها لتتوقف الحرارة القوية التي كانت تنبعث منه.. فاستخرجت خنجراً من ملابسها، ومدّت يدها اليمنى فوق ذلك الرسم.. وبجرحٍ شبه عميق في راحة يدها، نثرت بعضاً من قطرات الدم على ذلك الرسم في وسط الدائرة وفي قلب المثلث..

لما انتهت من عملها، ابتسمت ابتسامة راضية وهي تضمّ جرحها بيدها الثانية للحظات، ثم توجهت نحو حوض للزهور قربها.. فحملت بعض التراب ونثرته على الرسم لتمويهه وجعل الأعين تغفل عنه.. حتى لو اكتشفه شخص ما، فقد يظنه جزءاً من الزخارف التي يحمله القصر في جوانبه ولن يعبأ لأمره..

نفضت يدها من التراب وغادرت بصمت عائدة لقلب القصر وهي تدندن بشيء من الراحة.. ذلك الملك الأحمق لا يدري أن الأوان قد حان بأقرب مما يتصور.. وأن أياماً قليلة تفصلهم عن اليوم الموعود.. طبقاً لتحليلها واستنتاجاتها بما يخص حركة النجوم، فإن عليها البدء بتجهيزاتها لذلك اليوم منذ الآن.. كل ما يهمها أنها نجحت في الاستيلاء على جسد الطفلة البشرية، وهي مهمة لإتمام هذه العملية دون فشل.. فلم يعد بها أي طاقة للفشل من جديد..

وبعد أن تتمّ العملية التي خططت لها منذ أمدٍ بعيد، سيكتمل انتقامها، وستقدر على أن تهنأ بالاً بعد سنوات وسنوات من العذاب..

عندما استيقظت سولينا في اليوم التالي، لاحظت أن النار قد خمدت فيما بقي رفيقاها غارقان في نومهما والشمس لم تشرق بعد، وبدا لها أن تيما لم تعد منذ هربت في الليلة الماضية.. تثاءبت وهي تسير نحو جدول قريب يقطع هذا الجانب من الغابة لغسل وجهها ولإحضار بعض الماء لإعداد شرابها الصباحي.. كانت الغابة قد استيقظت للتو، والضباب الخفيف يجعلها أكثر وحشة وعمقاً للناظر إليها.. لكن سولينا التي عاشت أغلب سني عمرها في العراء لم تكن تهتم بهذه الأمور وهي تتخذ طريقها نحو النهر، عندما فوجئت بشيء يرتطم بظهرها ويسقطها على وجهها بعنف.. تأوهت سولينا بألم وهي تشعر بثقل على ظهرها، ولما التفتت محاولة رؤية ما أصابها، كان ما رأته هو وجه تيما وملامحها الغاضبة وهي تجثم على جسدها بغيظ.. وقبل أن تتفوه سولينا بكلمة قالت تيما بحنق "لو حاولت أن توسوسي لأوس بما جرى بيننا من حوار فسأقتلك.. أتفهمين؟.. لا تحاولي دسّ أفكارك الحمقاء عني في عقله، فأنا أكاد أتحمل حمق ذلك الرجل بالكاد.."

نهضت سولينا رامية تيما من على ظهرها، ونفضت ملابسها قائلة "لاشيء يجعلني أخشى كلماتك.. إن كنت رافضة التعاون معنا، فلا حديث لي معك.."

قالت تيما بغضب وهي تواجهها "لا تجرؤين...."

تجاهلتها سولينا وهي تتجه للجدول ببسمة صغيرة على شفتيها.. كما خمّنت سابقاً، لقد علقت تيما بالطعم الذي رمته لها سولينا.. تلك الفتاة تعبأ لأمر أوس أكثر مما تدّعي، وبالمقابل تخشى أن يدرك هو ذلك.. يرعبها أن يعرف مقدار اهتمامها به، وهذه هي الوسيلة التي تملكها سولينا لدفع تيما للمشاركة في هذا الهجوم..

بعد صمت قصير وسولينا تتجاهل وجود تيما كلية منشغلة بغسل وجهها بالمياه الباردة وتعبئة بعضاً منها في حاوية خاصة، سمعتها تقول بجفاء "يبدو أنك مصرّة على قتل نفسك بكل الطرق.. لا بأس.. يسعدني أن آخذك للقلعة لتلقي حتفك بأبشع وسيلة ممكنة، لكني لن أشارك بأي طريقة كانت.."

عادت سولينا أدراجها حاملة الحاوية في يدها، وربتت على كتف تيما وهي تمر بها قائلة "سأعتمد عليك في

هذا يا فتاتي.."

قالت تيما بحنق "كفي عن مناداتي بهذا اللقب.."

ثم قالت بعد تردد "وإياك من التفوه لأوس بكلمة في أمر يخصني.. أفهمت؟"

نظرت لها سولينا قائلة "أنت بالفعل تهتمين لأمره.. أليس كذلك؟"

أدارت تيما رأسها بعيداً وطارت لتستقر على شجرة عالية قريبة.. فضحكت سولينا لتصرفاتها الطفولية الواضحة.. لقد بدأت الأطراف المشاركة في الخطة تتخذ مواقعها كما خططت لها.. بقي القليل فقط، ويبدأ العمل الحقيقي.. ولا يعلم أحدهم إن كانت ستكلل مهمتهم هذه بالنجاح أم بالفشل الذريع..

عندما رأت مالو الحكيم عند الباب، بعد بضع أيام من غيابه، هبّت بانفعال وتوتر شديدين قائلة "لقد كنت أنتظرك يا سيدي.. أين اختفيت دون إنذار؟.. لقد ظننت أن مكروهاً قد أصابك في غيابك المفاجئ هذا.."

قال الحكيم بهدوء وهو يدلف المنزل مغلقاً الباب خلفه "أنا بخير حال يا مالو.. ما كان عليك القلق بهذه الصورة.."

فركت يديها بتوتر أشد، ثم قالت وهي تراه يقترب من أحد الكراسي فيجلس عليه مريحاً جسده بعد رحلة شاقة "في الواقع، ما أقلقني أمرٌ آخر يا سيدي.."

نظر لها الحكيم معلقاً "أهو يخص ساما والوشم على عنقها؟"

هزت رأسها بلهفة، فقال الحكيم بابتسامة "كنت أتوقع أن تقومي بنبش كتبي بحثاً عن معنى هذا الوشم.."

فقالت مالو باندفاع وقلق "ما الذي سيجري الآن للطفلة يا سيدي؟.. ماذا لو قام صاحب ذلك الوشم باستغلال جسدها كما هو مكتوب في الكتب؟.. كيف يمكننا أن نمنع ذلك؟"

أطلق الحكيم زفرة وغمغم "فات الأوان على ذلك.."

نظرت له بدهشة واضحة، فأضاف "لقد ذهبت لمقابلة الكاهنة في قلعة (أنصاف الرجال).. والكاهنة التي قابلتني لم تكن إلا ساما ذاتها.."

شهقت مالو للمفاجأة، ثم صاحت "أكانت تلك الكاهنة هي من يسعى خلف ساما؟"

هز الحكيم رأسه مجيباً "وربما هي من سعى لإحضارها لهذا العالم بوسيلة ما.."

غطت مالو فمها بيدها وهي تهمس "يا للطفلة المسكينة.. وما عاقبة ما جرى لها؟.. كيف يمكننا أن ننقذها مما هي فيه؟"

هز الحكيم رأسه بصمت تاركاً مالو تبتلع قلقها وخوفها على ساما.. ثم قال مغيراً الموضوع "أمر هذه الكاهنة يثير حيرتي وفضولي بشدة.. مع احتلالها جسد ساما، صار من الصعب عليّ معرفة من تكون حقاً قبل أن تفعل ذلك.. لكن ما أدركته أنها تعرف الكاهن المقتول يوريت.. فثورتها لدى ذكر اسمه ليس مصادفة بالتأكيد.."

تساءلت مالو "إذن أهي تلميذته التي تعلمت على يديه؟"

قال الحكيم مقطباً "أغلب الظن أنها كذلك.. لكني لا أملك وسيلة لإثبات ذلك.."

صمتت مالو وهي تنظر لقدميها بصمت وقلق واضح.. كانت تريد معرفة ما سيجري لساما.. تريد الاطمئنان عليها، لكن الحكيم لا يُبدي أي اهتمام يذكر بها في الوقت الحالي.. هو في الواقع يلتزم الحياد فيما يخص أي أمر يدور في هذا العالم، مكتفياً بمهمة المراقب دون التدخل إلا عندما تستلزم الضرورة ذلك..

ورغم ذلك، شعرت مالو بشيء يدفعها لتسأله برجاء "أما من وسيلة لاستعادة ساما يا سيدي؟"

نظر لها الحكيم بنظرة حازمة أدركت معناها على الفور، فكفّت عن الإلحاح في هذه المسألة وهو يعلق "الأهم من ذلك هو معرفة ما تنوي الكاهنة فعله.. اختيارها لبشري لم يكن اعتباطاً منها، هناك هدف كبير يدفعها للسعي خلف ساما.. لكني أجهل ما هو حتى الآن.."

قالت مالو بتردد "ربما لو حاولت استجوابها من جديد....."

قال الحكيم على الفور "هذا محال.. إنها لم تتردد في طردي فور أن سمعت اسم يوريت.. لا يمكنني أن آمن ألا تقوم هذه الكاهنة بمحاولة إخراسي لو حاولت الإلحاح عليها للحصول على أجوبة.."

ثم نظر لمالو مجيباً عن سؤال لم تطرحه بعد "لكني أملك وسيلة أخرى أكثر ملائمة.. كل ما عليّ فعله الآن هو مراقبتها والإحاطة بكل تحركاتها قبل أن ترتكب أمراً نندم على تجاهله.. عندها قد أضطر للتدخل في الأمر بنفسي.."

ونهض مغادراً غرفة الجلوس تاركاً مالو لأفكارها فيما يخص ساما والكاهنة الغامضة.. لكنه توقف فجأة عندما مر بها ونظر إليها مضيفاً "قد أحتاج لعونك عندها يا مالو.. فهل ستعاونينني؟"

هتفت مالو بإخلاص ودون تردد "طبعاً سأفعل ذلك.."

ابتسم الحكيم وربت على رأسها، ثم غادر تاركاً مالو تتساءل عن هوية العون الذي يحتاجه منها.. بشخص يملك مهاراته في استخدام التعاويذ السحرية، ويملك من الطاقة النفسية ما يمكنه من دحر أقوى خصومة شراسة، ما الذي يمكن أن يحتاجه من فتاة مثلها؟..

الفصل الثاني عشر: الحارس الأمين

غابت شمس ذلك النهار والليل يزحف حثيثاً على البحيرة الواسعة ذات المياه شديدة الزرقة حتى بدت سوداء مدلهمة، بينما أضيئت مشاعل متفرقة على رؤوس الأبراج الموزعة في سور القلعة الخاصة بـ (أنصاف الرجال).. وعلى الشاطئ، وقفت سولينا تراقب القلعة وهي تقول لأوس "سننتظر عودة إيار ليبلغنا بتحركات وتجمع الجنود هذه الليلة.. نحن بحاجة لكل معلومة ولو صغيرة لتيسير هذه المهمة.. وعند انتصاف الليل، سنبدأ هجومنا دون تأخير.."

قال أوس "ألن يخاطر إيار بكشف أمرنا قبل البدء بالفعل؟.. لو رآه الجنود، فسيلتزمون جانب الحذر، مما يفسد علينا مباغتتنا لهم.."

قالت سولينا "أنا واثقة أنه سيكون حذراً.. ولا أظن الجنود سينتبهون لمن يحلق فوق رؤوسهم.. خاصة أن هذه القلعة من النادر أن يستهدفها شخص بأي هجوم أو حتى تسلل.. من قد يرغب بالتسلل لقلعة (أنصاف الرجال) إلا مجنون مثلك؟.."

لم يعلق أوس وهو يرمق القلعة صامتاً.. ترى، ما الذي جرى لساما منذ اختطافها؟.. ما الذي واجهته في ثنايا هذه القلعة الكئيبة؟.. ألا زالت حية؟.. لا بد أن تكون كذلك.. لا يجب أن يدع هذه الأفكار تفسد عليه عزمه على اللحاق بها.. لا بد أن يعثر عليها ويستعيدها مهما كان الثمن.. هذا كل ما حصر تفكيره في اللحظات التي تسبق هجومهم الذي لم يسبق لأحد القيام بمثله قط..

وعند انتصاف الليل بوقت وجيز، كان إيار يحلق عالياً حاملاً أوس بواسطة شرائط جلدية متينة هيأتها لهما سولينا سابقاً.. لم يكن أوس أثقل من سولينا بكثير، وهي التي تتميز بطولها وعظامها العريضة، لكن إيار بذل جهده للارتفاع أعلى من المعتاد لتفادي أعين الجنود المتمركزين فوق أسوار القلعة يراقبون كل من يقترب منها.. كان عملهم ينطوي على الرتابة التي لا يكاد أن يكسرها حدث، لذا ساعد هذا في تهاونهم في المراقبة، وتمكن إيار من الاقتراب من القلعة بصمت دون أن يكشفه أحد.. وفي الآن ذاته، كانت تيما قد فشلت في التحليق حاملة سولينا بجناحيها الضعيفين، فقالت حانقة وهي تقف معها على ضفة البحيرة

"أخبرتك أنني لا أستطيع رفع امرأة ضخمة مثلك.."

قالت سولينا وهي تتخفف مما تحمله "كفي عن التذمر.. سنغيّر الخطة.."

نظرت تيما للبحيرة قائلة "عليك فعل ذلك بسرعة.. لقد كاد الإثنان يصلان للقلعة.."

لم تعلق سولينا وهي تناول تيما مسدسها وحقيبة الذخائر قائلة "إياك أن تسببي تبللها بالماء.. سأكتفي بهذا القوس والسهم لاستعمالهما عند نفاذ الذخائر.."

وشرحت لتيما الخطة البديلة الخاصة بهما، ثم لم تتردد في خوض مياه البحيرة متغاضية عن برودتها في مثل هذا الوقت.. سارعت تيما للحاق بأوس وإيار وهي تراقب القلعة والجنود المكلفين بحراستها، دون أن تغفل عن سولينا التي تبعتهم سباحة وأغلب وجهها مغمور في المياه.. وبعد بعض الوقت، غاصت سولينا عميقاً في البحيرة للوصول للجزيرة التي تقع عليها القلعة، والتي تحتلها كاملة إلا شريطاً ضيقاً يفصل جدارها عن المياه.. وبعد أن تمكنت من مغافلة الجنود، وبتفحص دقيق لجدران القلعة العالية وما عليها من حراسة، ارتفعت بخفة على تلك الأرض الصخرية وتلفتت حولها لترى تيما تدور حول القلعة محلقة بخفة متجنبة نقاط المراقبة على الأبراج ومقتربة من سور القلعة الخارجي.. تناولت سولينا مسدسها والذخيرة من تيما، وقامت بإعداده بسرعة وخفة.. ثم قامت تيما بحمل سولينا بشيء من المشقة ورفعتها محاذية جدران القلعة العالية بأقوى ما يستطيعه جناحاها الضعيفان..

فور أن ارتفعت سولينا، وقبل أن يلمحها الجنود بالفعل، سارعت لإمطارهم برصاص مسدسها بتتابع سريع دون تدقيق لإرهابهم ولو لوقت قصير.. كانت تأمل أن تشعل هذه المنطقة، وتجذب انتباه الجنود لهذا الاتجاه ظناً منهم أنهم يواجهون هجوماً منظماً.. وببعض الحظ، سيتمكن أوس من التسلل من الاتجاه الآخر دون أن يلحظه أحد..

لم يطُل ارتباك الجنود لأكثر من لحظة قبل أن يرفع القريبون منهم بنادقهم نحو سولينا وتيما.. تطايرت الطلقات من عدة اتجاهات وتيما تصيح "سيصيبوننا.."

قالت سولينا بحزم "ناوري قدر استطاعتك وأنا سأتكفل بالباقي.."

الآن، بعد أن أشاعت بلبلة قصيرة المدى بين الجنود بطلقاتها المتفرقة، سحبت سولينا نَفَساً عميقاً وبدأت التصويب على الجنود بدقة أكبر.. ورغم مناورات تيما المرتبكة وهي تحاول ألا تفلت حملها الثقيل، فإن

سولينا نجحت في إصابة عدد من الجنود بإصابات متفرقة دون أن تتمكن من الخلاص من أحدهم..

ارتفعت تيما عالياً جداً بحيث يصعب على الجنود إصابتها، فصاحت سولينا "أنت تجعلين الأمر أصعب عليّ أنا أيضاً.."

قالت تيما بغيظ "وهل هذا ما يهم؟.. أنت تكادين تتسببين بقتلي.. ولحسن الحظ، فإن موتي سيعني موتك أنت أيضاً بعد أن يتهشم جسدك على سور هذه القلعة.."

ورغم اعتراضها، فإنها دارت دورة بسيطة قبل أن تعود لتمكّن سولينا من إكمال هجومها الذي يلفت الانتباه في هذه الليلة الهادئة..ورغم تطاير الرصاص في أكثر من جانب، حاولت الاثنتان الثبات قدر استطاعتهما في مواجهة هذا العديد الكبير من الجنود المتأهبين لصدّ أي هجوم..

بعيداً عن هذه المعركة المحدودة، وفي الجانب الآخر من القلعة، اقترب إيار بأوس من السور ملاحظاً انشغال أغلب الجنود بالجانب الآخر منها وما يجري فيها.. فقال بخفوت "يبدو أننا سنتمكن من التسلل إليها بالفعل.."

قال أوس وهو ينظر للقلعة متفحصاً ما يراه منها "المهم أن نعثر على الطفلة قبل أن ينتبه الجنود لنا.. وقبل أن تفشل سولينا فيما تفعله ويتعرضا للخطر.."

كانت المشاعل الموزعة في أرجاء القلعة تتيح لهما رؤية محدودة لهذا الجزء منها.. فبدت خلف السور بيوت متوسطة الحجم تراصّت تراصّاً كبيراً لضيق مساحة القلعة.. ومن بين تلك البيوت امتدت شوارع وأزقة ضيقة تقود نحو قصرٍ مهيب يقبع في الوسط في أعلى نقطة من القلعة.. فيما ارتفعت الأسوار حول المكان مانحة إياها حماية كبيرة ضد أي مهاجمين..

دار أوس ببصره في المكان، ثم استقر على القصر البادي أمامهما قائلاً "لا أظنها موجودة هنا.. ربما هي في القصر.. علينا أن نهبط بين البيوت هذه ونتسلل للقصر بأي وسيلة.."

قال إيار في تلك اللحظة "هناك شخص ما في هذا الجانب يتجه نحو السور.. تبدو طفلة صغيرة.. أتظن أنها هي؟"

التفت أوس بلهفة لذاك الموضع، فرأى جسد طفلة بثياب سوداء تجعل تبيّنها صعباً في ظلام هذه الليلة.. ولاحظ جنديين يتبعانها بصمت وطاعة واضحة.. عندها غمغم أوس "لا أدري.. لا أظن أن أصحاب

القلعة سيتيحون لساما حرية التجوال في مثل هذا الوقت.. أظنها مسجونة في أحد سجون القلعة.."

علق إيار "لا ضير من التأكد.."

وبدأ الهبوط بخفة متفادياً أن يلمحه أي جندي على السور القريب.. وقبل أن يصل الأرض، مرقت تلك الطلقة قرب جسد أوس المتدلي في اللحظة التي سمعا فيها صوت البندقية.. فهتف إيار بقلق "لقد رأونا.."

كان تصايح الجنود القريبين قد علا بوضوح دليلاً على كشف أمرهما، فسارع أوس لضرب الأحزمة الجلدية بمخلب يده اليمنى ليقطعها صائحاً "ابتعد قدر استطاعتك.."

هوى أوس ما بقي من مسافة حتى هبط على الأرض متدحرجاً، فيما بدأ إطلاق الرصاص بشكل أكثف نحو إيار الذي ارتفع مسرعاً بعيداً عن مجالها.. أما أوس، فقد انطلق راكضاً فور هبوطه نحو الطفلة التي غابت خلف بعض الجدران القريبة، فيما تعالى وقع أقدام الجنود من عدد من المواقع محاولين اللحاق به.. كان يريد اللحاق بها والتأكد من هويتها قبل وصول الجنود إليه، ولو كانت هي بالفعل عندها سيغدو هربها أكثر سهولة قبل أن يتكاثر الجنود عليهما ويمنعوا هربها من القلعة..

في تلك الأثناء، سارت الكاهنة في الجانب الشرقي من القلعة يتبعها حارسان من حراس القصر.. لم ترغب باصطحاب جاد معها، لأنها بغنىً عن فضوله وتساؤلاته التي لن تصمت إزاء ما تفعله.. ذاك الرجل لن يتجاوز عمّا تفعله بطيب نفس، وقد تجرّ نفسها بمشاكل عدة لو أفصحت له عما تنتويه حقاً..

كانت تحاول اختيار موقع ملائم لتعويذتها التالية، وهي بحاجة لعدد لا يقل عن خمس مواقع يمكنها بها أن تحقق هدفها دون أن تخشى عبث العابثين بما ستخطه يداها.. وهي قد أنجزت الجانب الذي يتوسط القلعة، بالإضافة لجانبين في الشمال والغرب.. والآن، تحاول إنجاز الجانب الشرقي قبل أن تتجه جنوب القلعة لتنهي مهمتها هذه..

قطع انشغالها صوت طلقات رصاص تعالت في الجانب البعيد من القلعة.. توقفت لوهلة وهي تستدير ناظرة لذلك المكان دون أن ترى سبب هذه الطلقات، فغمغمت بتعجب "هل تواجه القلعة هجوماً؟"

أجاب أحد الحارسين "محال.. لا يجرؤ كائن على الاقتراب من القلعة دون إذن، ناهيك عن التفكير بالهجوم عليها ومواجهة جنودنا.."

قالت الكاهنة "إذن، أهناك من يتسلىّ بإطلاق هذه الطلقات في هذا الوقت؟"

طال الوقت بها وهي تستمع لتبادل إطلاق النيران بين جانبين أحدهما جنود القلعة، والجانب الآخر مجهول حتى الآن.. وهذا ما لم يشعرها بأي راحة.. فالتفتت لأحد الحارسين قائلة "اذهب واستطلع الأمر.. لا يبدو أن الأمر يمكن التغاضي عنه.."

انطلق الحارس مطيعاً أمرها، فيما تأملت الكاهنة المكان الذي تصلها الأصوات منه لبرهة، قبل أن تستدير لتعاود سيرها نحو الموقع المختار.. مهما يحدث في ذلك الجانب، عليها أن تتجاهله حتى تنجز خطتها هذه.. هي لا تهتم لأمر هذه القلعة.. كل ما يهمها ألا يتعلق هذا الهجوم بها شخصياً..

في تلك اللحظة سمعت صوتاً بدا لوهلة خافتاً من مكان ما خلفها، وقد غاب بين الدويّ الذي يعلو من بنادق الجنود.. ولما ساد الصمت للحظات، سمعت الصوت يتكرر من جديد وهو ينادي بإلحاح "ساما.."

تعجبت الكاهنة لهذا النداء الذي يقترب منها، وإن حاولت تجاهله وهي تجدّ السير دون تعب.. ولما تكرر النداء للمرة التالية فوجئت في اللحظة ذاتها بصداع قوي يندلع في رأسها وغشاوة تغطي عينيها للحظة لم تدُم إلا قليلاً.. تجمدت الكاهنة في مكانها وهي بصدمة لما جرى لها، وللشعور الذي اعتراها في تلك اللحظات.. تكرر النداء مرة أخرى، وتكررت ردة فعل جسدها على ذلك النداء بشكل أقوى وأشد تأثيراً حتى وجدت نفسها تسقط على ركبتيها بألم شديد..

اقترب منها الحارس الثاني متسائلاً بدهشة "هل أنت بخير يا سيدتي؟"

تمالكت الكاهنة نفسها وصاحت به "اذهب وتخلص من هذا الشخص مهما كانت هويته.."

نظر لها الحارس بدهشة، فصاحت فيه بغلظة "اذهب وافعل ما أمرتك به.. وليستدعِ لي أحد ما جاد.."

سارع الحارس لتنفيذ قولها، فيما تمالكت الكاهنة نفسها وهرعت عبر سلم قريب لتصل لجانب مرتفع يشرف على هذا الجزء من القلعة ويمنحها مجالاً أوسع للرؤية.. وهناك، في موضع لا يبعد الكثير عن المكان الذي كانت فيه منذ لحظات، رأت رجلاً أدركت منذ الوهلة الأولى أنه دخيل على القلعة.. كان يركض محاولاً تجاوز جماعة من الجنود، ومتجاهلاً صياحهم له ليتوقف عن الهرب.. بدا الرجل يناور بخفة فيما طلقات الرصاص تلاحقه بإصرار، وقبل أن يفلح أحدهم بإصابته فوجئت برؤية شبح أسود بجناحين ينقض على الجنود فيرتطم بهم ويبعثرهم بقوة قبل أن يحلق عالياً بعيداً عن مجال طلقات بنادقهم..

راقبت الكاهنة ما يجري وقد بدأ الصداع يخفت قليلاً، وعضت شفتها السفلى بغيظ ممزوج بالقلق.. لقد شعرت بشيء غريب منذ لحظات.. شعرت أن وعيها يتسرب منها لجزء بسيط، وكأنها تفقد سيطرتها على هذا الجسد.. ما الذي يجري؟.. لم يحدث هذا سابقاً، ولم تشعر بهذا الشعور قط.. هل لهذا الأمر علاقة بكون الطفلة بشرية؟.. من هذا الغريب الذي تجرأ على التسلل لقلعة (أنصاف الرجال) التي يهابها الجميع؟.. وهل له علاقة بما شعرت به في تلك اللحظات؟..

لم تكن ساما تدري بكل ذلك الصراع الذي يدور لأجلها.. لا يزال الظلام قاتماً حولها، ولا تزال معزولة عن العالم كله.. ظلت ساكنة في مكانها كعادتها، وهي تفكر بعمق بكل ما يجري.. غاب عنها إدراكها بالزمن، وللعجب لم تشعر قط بالتعب ولا بالجوع ولا حتى برغبة في النوم.. ظلت صامتة تفكر بما يجري لها وتتساءل عن المدة التي ستقضيها بهذه الصورة، عندما تراءى لها أنها ترى نوراً خفيفاً في مكان ما..

رفعت رأسها بلهفة وهي ترى تلك الرقعة الخفيفة من النور الباهت تضيء جانباً من المكان دون أن تتبين ما حولها فعلاً.. حاولت النهوض والركض نحو ذلك النور، دون حظ يذكر.. فهو يظل بعيداً عنها، وهي لا تكاد تبارح مكانها رغم ركضها بأقوى ما تستطيع..

عادت للوقوف من جديد وهي ترىٰ العالم حولها يظلم من جديد، فزفرت بكآبة شديدة وهي تطرق مسندة وجهها لراحتي يديها.. دام صمتها وقتاً طويلاً دون أن تتحرك من مكانها عندما تكرر ما جرىٰ مرة أخرىٰ.. رأت جانباً آخر من الظلام ينقشع عن نور باهت لا يكاد يكفي لإضاءة ما حولها.. ورغم سعيها نحوه مرة أخرىٰ، لكن لم يلبث أن اختفىٰ ذلك النور معيداً لها اليأس والكآبة من جديد دون أن تدرك ما يجري حولها..

في تلك الأثناء، كانت الكاهنة في موقعها تراقب ما يجري في الأسفل، وتتأمل محاولة الجنود الخلاص من ذلك الدخيل، عندما رفع بصره إليها ورآها من موقعها المرتفع.. اتسعت عيناه علىٰ الفور عندما أدرك هويتها، وصاح "ساما.."

وصلها صوته بوضوح رغم جلبة الجنود، فشعرت بنبض قوي في رأسها أعاد لها الصداع مضاعفاً.. أمسكت رأسها من جديد وهي بحيرة وضيق من هذا الأمر.. بينما عاد أوس يصيح بإلحاح "ســامــا.. هل تسمعينني؟.."

فتحت ساما عينيها فجأة بعد طول سكون وترقّب.. لا يزال الظلام يحيط بها، لكنها تكاد تقسم أنها سمعت الصوت يدوي بوضوح وسط السكون والصمت الذي يغلف المكان..

"ســامـــــا.."

لا يمكنها أن تخطئ وهي تسمع الصوت مرة أخرىٰ.. انتفضت واقفة وهمست "أوس؟.."

غمرتها لهفة شديدة، وسمعت صوتاً مغايراً يقول بشيء من الألم "تباً.. ما الذي يَصِل بينك وبين ذلك المأفون؟.."

لم تفهم ساما ما قيل لها ولا هوية صاحبه، لكن النداء تردد مرات ومرات وفي كل مرة تزداد لهفتها للخروج من هذا المكان وهي تدور حول نفسها.. ثم صاحت بقوة "أوس....."

أضاءت الدنيا فجأة أمامها، وتبدىٰ لعينيها معالم ما حولها.. كانت تقف فوق جزء مرتفع من تلك القلعة عالية الأسوار، وأمامها جمعٌ من الجنود يحيطون أوس الذي حاول الوصول إليها مدافعاً من حوله..

سمعت صوتاً غاضباً يتردد في عقلها "ما الذي فعلته يا حمقاء؟.. كيف تجرؤين؟.."

لكنها لم تعبأ لذلك الصوت ولم تتساءل عن هويته وهي تمد يدها وتحاول الاندفاع نحو أوس صائحة بلهفة

"أوس.. أخرجني من هنا.."

رأته يزداد ضراوة وهو يقفز على جندي قريب فيغمد أنيابه في عنقه، وعندما بدأ جسده يتحول والفرو يكسوه بغزارة وسرعة، تراجع الجنود من حوله بشيء من الذعر وقد فوجئوا بهويته التي لم يتوقعوها.. بينما ركضت ساما نحوه بلهفة شديدة وسعادة أشد برؤيته حياً.. عندما تعالى الصياح الغاضب من جديد في عقلها "تباً لك.. لا يمكنك فعل ذلك الآن.."

لم تدرك ساما ما جرى لها والظلام يشتد حولها مرة أخرى، ووجدت جسدها يتهاوى فتسقط أرضاً على وجهها.. ولما فتحت عينيها من جديد، فوجئت بالظلام الدامس يحيط بها من جديد، وكأنها ألقيت في غياهب جبّ عميق مظلم..

دارت ساما حول نفسها بذهول وهي لا تدري ما الذي جرى.. كيف خرجت من هذا المكان بلمحة واحدة؟.. وكيف عادت إليه بعد لحظات قصيرة فقط؟..

كيف لها أن تعود لأوس قبل أن يقتله الرجال من جديد؟..

انطلقت تركض في كل الاتجاهات، وتصيح منادية أوس بكل ما تملك من قوة.. لكن في هذه المرة لم يجاوبها إلا الصمت التام والظلام الدامس..

في تلك اللحظة، كان أوس قد تخلص من بعض الجنود الذين يسدّون عليه الطريق بمعاونة إيار الذي تدخل في كل مرة واجهه الجنود ببنادقهم، عندما سمع صوت الارتطام في موقع ساما ورآها ساقطة على وجهها بصمت.. تملص أوس ممن حوله وهو يركض نحو ساما مستغلاً سرعته وخفته في جسد الذئب، ولما اقترب منها عاد بسرعة لهيئته وهو ينحني عليها وناداها محاولاً حملها قبل وصول بقية الجنود إليه..

لكن قبل أن يلمسها، فوجئ بيدها تمتد فتمسك عنقه بقوة تفوق قوتها كطفلة صغيرة أضعافاً.. فوجئ أوس بما فعلته الطفلة وهو يحاول التملص من قبضتها دون إيذائها، فرآها ترفع رأسها وتنظر له بغلٍّ وغضب شديدين.. وسمعها تقول بصوتٍ حانق "لن يهدم شخص مثلك كل ما بنيته لسنوات طوال.."

صدم أوس للحظات وهو يراها بتلك الصورة.. لم تكن تلك ساما.. الوجه هو وجهها ذاته، والعينان هما عيناها ذاتهما.. ولكن ذلك كان ظاهرياً فقط.. من ترمقه بنظراتها النارية لم تكن ساما قط..

سمع أوس الخطوات تقترب منه بسرعة، وأدرك أن الجنود سيلحقون به في لحظات معدودة.. كان سور

القلعة قريباً منه، لا يفصله عنه إلا أمتاراً معدودة، لذا شدّ أوس عزمه وهو يتخلص من قبضة ساما ويكتف ذراعيها بقوة رغم ثورتها، وانطلق راكضاً بها متجاوزاً أحد الجنود بأن لطمه بكتفه بقوة ألقته جانباً، ووجّه نفسه نحو السور أملاً في أن يتمكن من الهرب عبره بأي وسيلة كانت.. ورغم صياح الجنود والرصاصات تتطاير من حوله، لكنه كان واثقاً أنهم لن يجرؤوا على إصابته خوفاً على ساما.. فكما لاحظ كانت الطفلة تحظى بأهمية كبيرة لديهم لا يفهم سببها حتى الآن..

تجاوز الأمتار القليلة التي تفصله عن السور مناوراً من يقترب منه من الجنود، ومحكماً قبضته حول ساما التي قاومته بعنف.. ولما اقترب من السور، الذي يرتفع عشرين متراً على الأقل فوق تلك الجزيرة وسط البحيرة، همس لنفسه متطلعاً للسماء "بقي القليل فقط.."

كان ينوي القفز بساما من فوق السور ونحو البحيرة، لكن لوهلة اعتراه القلق من خطورة مثل هذا التصرف المتهور خشية أن يفاجأ بوجود صخور أو لضحالة البحيرة في ذلك الجانب.. فهو في تلك اللحظات لم يكن يملك ترف الوقوف ودراسة الموقع الذي هم فيه بشكل وافٍ.. لحظة فقط تفصل بين هربه عبر القفز من السور وبين القبض عليه وربما قتله..

تزايد صياح الجنود وقد أدركوا ما يسعى إليه، فيما قفز أوس بخطواته الواسعة متجاوزاً المسافة القصيرة والكاهنة تصيح بوحشية "توقف أيها المجنون.."

اقتربت الحافة منه بشكل سريع، فيما صاح أوس وهو يرفع رأسه للأعلى "إيـــــــار.."

كان يدرك أن الفتى ولا بد قريب، وربما يعينه على هذا الهروب المجنون الذي يخطط له، لكن في تلك اللحظة وجد أوس تلك القبضة التي ارتطمت بفكه بقوة وألقته للخلف بعنف.. سقط أوس خلفاً سقطة عنيفة، لكنه استعاد توازنه بسرعة وهو يقفز واقفاً على قدميه دون أن يتخلى عن ساما، ورأى أمامه رجلاً يختلف بلباسه عن لباس الجنود المعتاد، لكنه يبزّهم طولاً وضخامة وبوجه قاتم ينظر له بجمود..

كان الجنود على وشك الإمساك بأوس، وساما تجاهد للتخلص من قبضته، فيما وقف ذلك الرجل مواجهاً إياه بتحدٍ واضح.. لم يتردد أوس للحظة وهو يقفز نحو الرجل، فبينما كانت يده مشغولة بتأمين ساما، كانت يده الأخرى خالية وهو يتحرق للخلاص من هذه العقبة والخروج من القلعة دون عودة.. لكن هجومه لم يكن يوازي قدرات ذلك الرجل الذي تفادى مخالبه بسهولة ثم قبض على عنقه بقبضة قوية

ليوقف اندفاعه.. حاول أوس المقاومة، لكن ضربة خنجر أصابت ذراعه الأخرى وأجبرته على إفلات ساما التي سقطت أرضاً وركضت على الفور مبتعدة عنه وهي تصيح بغضب "اقتله يا جاد.."

حاول أوس لكم جاد للتخلص منه، لكن ازدياد ضغط أصابع الأخير على عنقه أجبره على التمسك بيده ومحاولة الإفلات من قبضته القوية.. تعالى صياح ساما الغاضب، فيما وقف الجنود حولهما بانتظار نتيجة هذه المعركة.. وبينما كادت أنفاس أوس تنقطع، سمع جاد يقول بصوت خافت وصرامة هائلة "من المفترض حقاً أن أقتلك بيدي، لكني لن أفعل.. فلا أملك المزاج الرائق لذلك.."

ودفعه بقوة من فوق السور وسط صياح ساما الغاضب باعتراض واضح.. لم يحاول أوس المقاومة وهو يرى الوجوه التي تنظر إليه تبتعد بتسارع كبير، فيما تهاوى جسده بسرعة دون أن يملك من أمره شيئاً.. وفي الأسفل، استطاع أوس رؤية ذلك الجانب الصخري الملاصق للقلعة ويفصل بينها وبين مياه البحيرة العميقة، والذي كان يقترب منه بتسارع كبير وتهديد واضح..

جزء من الثانية كان يفصله عن الموت، ولم تكن تلك المرة الأولى التي يقترب فيها أوس من الموت بهذه الصورة.. لذا لم يشعر بأي جزع وهو يراقب الصخور الحادة التي تقترب منه بسرعة كبيرة.. ولم ينتبه لما يجري حوله عندما شعر بشيء يتشبث بملابسه وجسده يميل في سقوطه بشكل حاد، قبل أن يجد نفسه مرمياً نحو مياه البحيرة العميقة على بعد عدة أمتار عن ذلك الجانب الصخري للقلعة.. وخلال لحظة غمرته مياه البحيرة الباردة وهو يغوص في أعماقها للحظات قبل أن يدفع جسده نحو الأعلى بسرعة.. خرج رأسه من الماء في اللحظة التي تعالى فيها صوت تيما قائلة بحنق "سارع بالهرب قبل أن يصيبوك برصاصاتهم.."

رآها من مكانها القريب فوق رأسه تطير نحو ضفة البحيرة بسرعة، فيما وصله تصايح جنود القلعة الذين استعدوا لإمطاره برصاصاتهم محاولين التخلص منه من جديد.. فغاص أوس عميقاً في البحيرة وابتعد بأسرع ما يمكنه عن القلعة وعن أعين جنودها مستغلاً ظلام تلك الليلة، قبل أن يعود لسطح المياه ويسبح نحو الضفة.. كانت لا تزال أصابع ذلك الرجل تؤلم عنقه، وكأنها قبضة معدنية لا أصابع رجل عادي.. لكن ما آلمه أكثر وسبب له ضيقاً شديداً هو ما رأى من ساما في اللحظات القصيرة التي التقى فيها بها.. هل حاولت تسليمه للجنود؟.. هل طالبت ذلك الرجل وبقية الجنود بقتله حقاً؟.. لماذا فعلت ذلك؟.. لمَ باتت

تكرهه دون سبب مفهوم؟.. ولماذا شعر في اللحظة التي التقت عيناه بعينيها أنها ليست تلك الطفلة التي عرفها سابقاً؟.. لم تكن تلك ساما، رغم تشابههما في الشكل، ولم تكن تلك طفلة لا تتجاوز الثامنة من العمر.. فما الذي جرى لها في الأيام القليلة التي انفصلت فيها عنه؟..

عندما وصل أوس لضفة البحيرة البعيدة، استلقى على الرمال لاهثاً بتعب شديد، فيما وقفت تيما التي سبقته بالوصول قائلة بحنق "أكنت تنوي حقاً القفز بالطفلة من فوق السور؟.. كنت ستقتل نفسك وتقتلها.. أهذه فكرتك عن إنقاذها؟"

غمغم أوس متعباً "كنت آمل أن يكون إيار قريباً فيساعدنا على تجاوز ذلك الموقع.."

قالت بسخرية "ولسوء حظك لم يكن إيار قريباً، فقد بادره الجنود بهجوم شرس وأجبروه على الابتعاد.. لولا أنني تفاديت موتك برميك في مياه البحيرة لكنت تسقي تلك الأرض الصخرية بدمائك في هذه اللحظة.."

قال أوس وهو يجلس "يبدو أنني سأظل مديناً لك بعنقي.."

علقت تيما بحزم "كن متأهباً لسداد ذلك الدين في أي لحظة.. فأنا لا أتنازل عن حقوقي بتاتاً.."

سمع خطوات راكضة تقترب منهما، ثم ظهرت سولينا وهي تقول باستياء "ما الذي جرى؟.. هل فشلت في المهمة؟"

هز أوس رأسه بشيء من الضيق، فقالت سولينا بحنق "لو لم تبعدني تيما عن القلعة، لعاونتك على صدّ هجوم الجنود حتى تهرب بالطفلة.. لقد بادرتُ بالفرار بي فور أن أمطرنا الجنود برصاصاتهم.."

قالت تيما باستياء "لأنني خشيت ألا أتمكن من المناورة والهرب وأنا أحمل امرأة ثقيلة مثلك.. ألا تدركين كم عانيت لأبقى سليمة طوال ذلك الوقت؟"

قالت سولينا غاضبة "لكنك خاطرتِ بحياة أوس بذلك.. ألا تكفين عن الأنانية قليلاً؟"

أشاحت تيما بوجهها قائلة "وقد أنقذت حياته في النهاية.. أليس ذلك كافياً؟"

لم يعلق أوس وهما مستمرتان بجدال حانق، فيما هبط إيار قريباً مغمغماً "أنا آسف.. لقد اضطرني الجنود للهرب، ولم أتوقع قط أن تحاول القفز من فوق سور القلعة.. حاولت العودة إليك بأسرع ما أستطيع، لكني كنت بعيداً بالفعل عندما سقطتَ من الأعلى.."

قال أوس زافراً "لم يكن ذلك خطؤك يا إيار.. فلا داعي للاعتذار.."

تساءلت سولينا "إذن ما الذي تنوي فعله؟"

صمت متطلعاً للقلعة التي بدت له من هذا المكان ساكنة هادئة، ثم قال بحيرة "لم تكن تلك ساما.."

نظروا إليه بدهشة، فقال وهو يخفض بصره بحيرة شديدة "كانت ملامحها هي ذاتها، لكنها لم تكن هي.. وكأن شخصاً ما قد استبدلها ووضع فتاة أخرى في جسدها.."

قالت سولينا "ما تقوله لا يمكن الاقتناع به يا أوس.. ألا تظن أنها كانت تخدعك منذ البدء؟"

هتف "لا يمكن ذلك.. أتظنين أنني يمكن أن أُخدع بهذا الأمر بسهولة؟"

ثم أضاف وهو يقطب "والأغرب من ذلك، أنني لم أستشعر أي لمحة من بشريتها في ذلك الجسد.. وكأنها لم تعُد تنتمي لعالم البشر مطلقاً.."

علقت سولينا "هذا مستحيل.. ربما كنتَ طيباً فوق الحد ونجحت هي في خداعك سابقاً.."

فقالت تيما "لكني واثقة أن تلك لم تكن أكثر من طفلة بشرية عادية.. لم تكن تخدعنا بأي صورة كانت، ولذا أستغرب ما قاله أوس.."

قال أوس غارقاً في حيرته "لقد كانت تصرخ وتأمر ذلك الرجل بقتلي عندما قبض عليّ.. كانت تبدو كأنها تكرهني.. رغم أنها يمكن أن تكتفي بطردي أو بسجني في القلعة للخلاص مني.. لكنها كانت مصرة على قتلي لسبب ما.. كما أنها بدت ذات أهمية بين الجنود.. كانوا يطيعونها بشكل غريب.."

ثم رفع بصره إليهم مضيفاً "يجب أن أعود.. يجب أن أواجه تلك..... ذلك الشيء وأعرف ما جرى لساما.. لا يمكن أن أتجاوز عن هذا الأمر بسهولة.."

قالت تيما بسخرية "بعد هزيمتك الكبيرة هذا اليوم، كيف تنوي فعل ذلك؟.. ربما لو حاولت طرق الأبواب والحصول على الإذن بمقابلتها ستحقق مطلبك هذا أكثر من محاولا تك الخرقاء لتسلل قلعة حصينة كهذه.."

غمغم أوس "سأرى ما سأفعله.. لكني لن أستسلم الآن.."

زفرت سولينا وهي تجلس جانباً معلقة "لم يعُد هذا الأمر بالسهولة التي تتوقعها يا رجل.."

لم يعلق أوس وهو يرمق القلعة السوداء إلا من مشاعل متفرقة على أسوارها.. لا يمكنه أن يصمت بعد كل

ما جرى.. ما الذي دها تلك الطفلة المذعورة التي كانت تخشى كل ما حولها؟.. كيف استطاعت أن تتغير بهذه الصورة الكبيرة في أيام قليلة؟.. وكأنها أصبحت شخصاً آخر مختلفاً تمام الاختلاف..

"من ذاك المأفون؟"

هبطت الكاهنة درجات السلم الذي يؤدي بها لساحة القلعة وهي تصيح بغضب شديد "من هو ذلك الوقح الذي حاول اختطافي؟.. والأ دهى أنه لم يهتم لأ مر مئات وآلاف الجنود الذين تعجّ بهم هذه القلعة.."

قال جاد بهدوء وهو يهبط خلفها "صياحك هذا لن يجيب على أي أسئلة.. ما الداعي لهذا الغضب بعد أن تخلصنا منه؟"

قالت بحنق "ماذا لو حاول اختطافي من جديد؟"

قال جاد "سأقتله بالتأكيد في المرة القادمة.."

شعرت الكاهنة برجفة في أعماقها لهذا القول، وهو أمرٌ صدمها بشدة.. ما مشاعر الذعر التي انتابتها لفكرة مقتل ذلك الرجل؟.. تلك لم تكن مشاعرها.. تلك مشاعر هذه الطفلة البشرية التي كادت تطيح بها وتستعيد جسدها من جديد.. ويبدو أنها لم تتوارَ في غياهب النسيان كما يفترض بها.. لا تزال واعية، ولا تزال قادرة على سماع ما يدور حولها.. فما الذي جرى وسبّب هذا التغيير الكبير؟..

قطبت الكاهنة بشدة ووجها يعبس بشكل مخيف وهي تفكر بما جرى.. لقد خاضت هذه التجربة مرات عدة في حياتها هذه، لكن هذه هي المرة الأولى التي تفشل فيها في السيطرة على وعي صاحبة الجسد وتغييبها بشكل تام كما تفعل عادة.. أهذا لأنها بشرية؟.. أهذا يجعل سطوتها أضعف وأقل فعالية من المعتاد؟.. إنها بالفعل تشهد تغييراً لم تره قط في المحاولات السابقة.. فعندما حاول ذاك الرجل اختطافها، ورغم كل جهودها، لم تتمكن من استخدام الطاقة اللازمة للقيام بتعاويذها السحرية لتبعده عنها كما تفعل عادة.. تضاءلت قدراتها السحرية لأدنى درجة لبعض الوقت، وكأن الطفلة البشرية قد استلبت منها تلك الطاقة ومنعتها من استخدامها.. فكيف أمكنها فعل ذلك؟!..

ماذا لو استطاعت تلك الطفلة في مرحلة من المراحل استعادة السيطرة على هذا الجسد؟..

انتفضت لتلك الفكرة، فاستدارت بسرعة إلى جاد الذي يراقبها بصمت وقالت بحزم "كن متأهباً.. قد أطلب منك الرحيل في أي لحظة.."

لم يعلق جاد في موافقة صامتة، فيما عادت الكاهنة تستدير مغادرة نحو غرفتها.. لا بد أن تسارع بالرحيل قبل أن يعود ذلك الرجل ويحاول اختطافها.. لا تدري لمَ تربط بينه وبين استعادة الطفلة وعيها.. أهناك علاقة ما؟.. يبدو بوضوح أنه يعرفها.. فهل هذا هو السبب؟.. لا يجب أن تنتظر لتعرف الإجابة..

سترحل، وتبدأ الجزء التالي من خطتها قبل أن تفلت الأمور من بين يديها.. بقي أن تقوم بتنفيذ ذلك الرسم الذي تحمله كما خططت سابقاً، في الجانب الشرقي والجنوبي من القلعة.. وبعدها، ستغادر هذا المكان بغير رجعة..

أمضى أوس اليوم التالي لهجومه على القلعة جالساً قرب ضفة البحيرة بصمت.. ظل يراقب القلعة البادية أمامه، ويفكر بما جرى لساما لتتغير بهذه الطريقة.. حاول شغل عقله بالبحث عن وسيلة ملائمة لإخراج الطفلة من ذاك المكان، لكن عقله يعود في كل مرة للنظرة المتوحشة التي قابلته بها وهي تصيح بالرجل ليقتله دون هوادة.. من هي تلك التي صاحت مطالبة بقتله؟.. ليست هذه ساما اللطيفة التي اعتنت بجراحه رغم أنها كانت تظنه ذئباً شرساً لا يؤتمن.. ليست هذه هي الطفلة التي كانت ترجوه ألا يتخلى عنها.. لم يبدُ عليها أنها بشرية حتى.. فكيف حدث ذلك؟.. ما الذي فعله بها أصحاب هذه القلعة؟..

ظل على صمته غارقاً في أفكاره رغم محاولات سولينا والبقية دفعه لتناسيها والرحيل.. لكنه ظل صامتاً صامداً في موقعه دون حراك.. حتى سألته سولينا بعجب ظاهر لإصراره وعناده الغريبين "ما الذي يدفعك للاستماتة في اللحاق بالطفلة وإعادتها لعالمها؟.. أدرك أنك مدين لها بحياتك، لكنك فعلت ما بوسعك حتى الآن بالفعل، ولم يعد بيدك تحقيق المزيد.. إنها لم تعد تلك الطفلة التي كانت.. ولم يعد لجهودك أي معنى.. فما السبب؟"

ظل أوس صامتاً يراقب القلعة ويقلب أفكاره، عندما تعالى صوت تيما من موقعها المرتفع المعتاد قائلة

"عمُرد.. أليس كذلك؟"

قلبت سولينا بصرها بينهما بدهشة وعدم فهم، فقال أوس "أجل.. ربما كان السبب هو ما جرى لعمرد.."

تساءلت سولينا "وما حكاية عمرد هذا؟.. أهو من (الريبال)؟.."

علقت تيما بسخريتها المعتادة "هذا هو الذي تسبب بطرد أوس من قبائل (الريبال) قبل سنة.."

تزايد فضول سولينا إزاء الموضوع، فقال أوس "عمرد كان صديقي الذي تربيت معه منذ الطفولة في القرية ولم أفارقه يوماً.. منذ ما يقارب السنتين، بدأ عمرد يظهر لي شغفه وفضوله الواضح إزاء عالم البشر.. بدأ يجوب القرى بأسئلته الكثيرة عن ذاك العالم الذي غدا محرّماً علينا رغم قدرتنا على الوصول إليه، وبعدها بدأ في زيارة مواقع أخرى من عالم الأطياف رغم العزلة التي فرضها (الريبال) على أنفسهم.. حذرته عدة مرات من الانغماس في هذا الموضوع، وحاولت شغله عنه بكل الطرق.. لكن كلما تزايدت تحذيراتي، كلما خفتت تساؤلات عمرد وحديثه عن هذا الموضوع.. ظننت أن حديثي معه قد آتى نتائجه، ولم أظن قط أنه كف عن الخوض في هذا الموضوع خشية لومي له وتحذيراتي المتكررة.. ولم يدر في خلدي أنه بدأ بالتسلل لذلك العالم بعيداً عن مسمع ومرأى القرية وكبيرها.."

تساءلت سولينا "وهل عوقب لأجل ما فعله؟"

هز أوس رأسه مجيباً "لم يجدوا الوقت لذلك.. اختفى عمرد دون سبب مفهوم، وبلغنا أمره وما دأب على فعله لأشهر طوال.. كان التفسير الوحيد لاختفائه أنه فضّل العيش في عالم البشر، أو قتل فيه.. شعرت أنني أخطأت بتهاوني في ملاحظة عمرد، وغمرني ذنبه لوقت طويل لأنني لم أتمكن من تفادي تلك الكارثة.. وكما فعل هو، دأبت أنا أيضاً على التسلل لعالم البشر بحثاً عنه ومحاولاً االتقاط أي خيط قد يدلني عليه.. حتى اكتشف كبير القرية أمري، وحكم عليّ بالطرد من قرى (الريابلة).. لم أستطع حل مشكلتي ولم أجد حلاً لمأساة عمرد.."

ونظر للقلعة أمامه معقباً "ربما لو تدخلت في البدء.. ربما لو أوليته بعض الاهتمام وأنصتّ لما أراد قوله.. لربما ما كانت هذه نهايته.. لذا عندما شعرت أن ساما قد تواجه ذات المصير، وأنها بحاجة لي، لم أتردد في التدخل أبداً.. فبهذا، قد يغفر لي عمرد تهاوني في قصته التي انتهت قبل أن أدرك ذلك.."

ربتت سولينا على كتفه معلقة "أظنك تقسو على نفسك.. لكن لا يمكنني أن ألومك أو أمنعك مما تفعله..

سنحاول معاً، وعسى أن تنتهي هذه الحكاية نهاية أفضل.."

في فجر اليوم التالي، استيقظ أوس من نومه بعد أن قضى ليلته مسهداً على هزات من يد إيار الذي قال "استيقظ يا أوس.. استيقظ واستمع لما جرى اليوم.."

اعتدل أوس بسرعة متسائلاً "ما الأمر؟.."

أجاب إيار "أثناء بحثي عن طريدة في الجانب الآخر من البحيرة، في تلك الغابة التي تمتد مسافة كبيرة، لاحظت قارباً صغيراً يغادر القلعة متجهاً للضفة القريبة من الغابة.. لم تكن الشمس قد أشرقت، لكني استطعت أن أتبين رجلاً وحيداً في قلب ذلك القارب.."

تخلل أوس شعره بأصابعه وهو يغمغم "وما الأهمية فيما رأيته لتوقظني بهذه الصورة؟"

قال إيار بانفعال "لأن الطفلة كانت معه.. لم أرها في البدء بسبب صغر حجمها، لكن مع اقتراب القارب من الضفة تمكنت من رؤيتها معه بوضوح.."

اعتدل أوس بانتباه وصاح "لماذا لم تقل ذلك منذ البدء؟"

وهبّ واقفاً متسائلاً بانفعال "لماذا لم تختطف الطفلة وتطير بها إلينا؟.. كان الأمر أسهل عليك في تلك اللحظات.."

قال إيار بتردد "لم أتمكن من ذلك.. لقد خشيت من مواجهة ذاك الرجل وحيداً، ولم أعرف ما عليّ فعله.. لذا بادرت بالعودة إليك لإخبارك بما حدث.."

استدار أوس مغادراً مكانه قرب النار التي لم يبق منها إلا رماد وخشب متفحم، وقال بلهفة "في أي موقع رأيتها بالضبط؟.. خذني إليها حالاً.."

أجاب إيار "في الجانب المقابل لنا من البحيرة.. لقد وصلا للضفة المحاذية لتلك الغابة.. ولا أعلم بعدها أي طريق سيسلكان.."

استيقظت سولينا على صياح أوس، فتساءلت "ما الذي جرى؟.."

شرح لها إيار الموقف بكلمات مقتضبة، فقالت فور أن فرغ من حديثه "ما هذه المصادفة؟!"

والتفتت إلى أوس مضيفة "هذه فرصة مثالية لنا لاختطاف الطفلة والهرب بها.. شخص واحد لن يكون نداً لنا ولو كان من أنصاف الرجال.."

علقت تيما "أتظنون أن ذلك الشخص قد غامر بالمغادرة بها مع علمه باستهدافنا لها؟.. لابد أنه يملك من الثقة الكافية لحمايتها منا ومن أمثالنا ليغادر بها بعد الهجوم الذي لم يمضِ عليه يوم واحد.."

قال أوس بتوتر "لا يهمني كل ذلك.. أنا ذاهب للحاق بها.. ولكم الخيار في اللحاق بي أم الرحيل.."

واستدار مغادراً دون إبطاء، فيما لحقه إيار ليدلّه على موقع ساما في الجانب الآخر من البحيرة.. نظرت سولينا لتيما وهما تقفان بصمت للحظات في مكانيهما.. ثم علقت سولينا "هل ستتبعين أوس؟"

مطّت تيما شفتيها مجيبة "لا شيء يجبرني على ذلك.. لكني لا أملك شيئاً أفضل لأفعله بعد أن فشلتُ في المهمة التي أنيطت بي.."

قالت سولينا "ألا يجدر بك العودة لقرى (الفيي)؟.."

نظرت لها تيما باستياء قائلة "هل تنوين طردي؟.. ما الذي يدفعك أنت للاهتمام بأمر هذه الطفلة البشرية؟"

هزت سولينا كتفيها مجيبة "كما أخبرتك وأخبرت البقية، قد أرحل معها لعالم البشر عندما يتمكن أوس من استعادتها.. أنا لا أملك أي جذورٍ ممتدة في هذا العالم، ولا أعبأ لما قد يجري له قيد شعرة.. لذا الرحيل عنه ليس بالصعوبة التي قد تتخيلينها.."

ارتفعت تيما قائلة "هذا غباءٌ برأيي.."

وغادرت متجاهلة أمر سولينا، التي سارعت لحمل حقيبتها ولملمة متاعها قبل أن ترحل خلف البقية.. بدا لها أن اجتماعهم الذي حدث بمصادفة بحتة، سيطول أكثر مما توقعت.. ولا يدري أحدٌ ما ستتمخض عنه هذه الأحداث..

في الجانب الآخر من البحيرة، قفزت الكاهنة من القارب وسارت على الضفة الرطبة وهي تتلفت حولها في الغابة المحيطة بها.. راودها شعورٌ غريب لم تستطع الخلاص منه منذ غادرت القلعة.. يخيّل إليها في كل مرة تنشغل فيها أن شخصاً ما يراقبها.. ورغم أنها بحثت عن ذلك الشخص، لكنها لم تتمكن من الاهتداء له

رغم كل بحثها، ولم تلمح أي شخص قريب في البحيرة الساكنة.. سمعت صوت جاد من خلفها يقول "أنتِ لم تخبريني بالسبب الذي دفعنا للتسلل من القلعة دون علم الملك.. لا أظنه سيعارض مغادرتنا مع المكانة التي كانت لك عنده.."

أجابت بهدوء "بل سيعارض.. الملك استضافني عنده ولبّى كل رغباتي على أمل أن أحقق حلمه بما أنوي القيام به.. ولو أدرك أنه لن يحصل على أي فائدة تذكر مما أفعله، فلا أظنه سيتردد في طردي أو قتلي حتى.."

علق جاد بسخرية "إذن حتى الملك لم يسلم من خيانتك هذه.. هذا نوعاً ما يرضيني.."

لم تعلق الكاهنة وهي تسير مجتازة طريقاً ضيقاً يقطع الغابة، فتبعها جاد متسائلاً "إلى أين سنذهب من هنا؟"

قالت باقتضاب "إلى الشمال.."

قال جاد بتقطيبة "هذه كلمة عائمة لتحديد وجهتنا.. هل غادرنا القلعة دون أن تقرري وجهتنا بعد؟"

نظرت له بحدة وقالت بلهجة صارمة "أنا أعرف طريقي جيداً.. وأعرف ما أرغب بتحقيقه.. فهل تعرف أنت ما تهدف إليه؟.. لو كنت تعرف، فأنصحك بأن تتبعني بصمت ودون جدال.. لست بحاجة لتوضيح أي أمر لك بعد.."

غمغم جاد وهو يتأمل قامتها القصيرة مقارنة به "لا أدري ما يجبرني على إطاعة قزمة تافهة مثلك.."

قالت بثقة وهي تستدير "لأنك تحتاجني لتنفيذ انتقامك في الوقت الحالي.."

وغادرت بصمت دون أن تلتفت إليه من جديد، فلم يملك إلا أن يتبعها في الوقت الحالي دون اعتراض..

وفي الآن ذاته، كان أوس يركض بأسرع ما يمكنه محاذياً الضفة نحو الجانب الآخر من البحيرة الواسعة، تلحقه تيما وإيار محلقينِ، فيما لحقته سولينا بخفة إنما بشيء من البطء وهي تهتف "خفف سرعتك قليلاً.. ما الداعي لكل هذا الجري؟"

أجاب أوس "لا أريد أن يضيع أثر الطفلة مني.."

استوقفته سولينا بقبضتها القوية عندما تمكنت من اللحاق به، ثم قالت وهي تلهث بقوة "لِمَ لا نتروى في اللحاق بهما؟.. أنا لم أعُد قادرة على بذل المزيد من الجهد.."

قال أوس باعتراض "نحن لم نقطع نصف المسافة بعد.. لا يمكن أن تكوني قد أنهكتِ من جهد بسيط كهذا؟!.. لا تنسيَ أننا يجب أن نجتاز النهر كذلك لنصل للجانب الآخر.."

قالت سولينا وهي تشير للأربطة التي تحيط ببطنها وقد بدأت تكتسب بعض اللون الأحمر الطفيف "للأسف لا أملك أجنحة تعينني على الطيران بسلاسة، ولم أحظَ بدماء (الفيي) التي تعينني على علاج جروحي.. لذا ترى أنها في وضعٍ بالغ السوء في هذه اللحظة.."

قال أوس بسرعة "إذن سأسبقكم في اللحاق بالطفلة، ويمكنك اللحاق بي متى ما أصبحتِ أفضل حالاً.."

استوقفته سولينا من جديد قائلة "لا داعي لتشتيت أنفسنا بهذه الصورة.. لا يجب أن يعرف الرجل أننا نلاحقهما لكيلا يتخذ احتياطاته.. فلنرسل إيار لاستطلاع الأمر، فيما نتقدم نحن منهما بحذر وتروي.."

كان الاعتراض صارخاً على وجه أوس، لكن إيار قال ليقطع عليه ذلك "سأذهب لرؤية ما جرى لهما، ثم أعود لكم بالخبر اليقين.."

وغادر مسرعاً قاطعاً المسافة الباقية نحو الموضع الذي رأى القارب يرسو فيه.. في تلك الأثناء، كانت الكاهنة تتوغل في أرجاء الغابة مع جاد الذي احتفظ ببندقية في يده تأهباً لأي طارئ.. وبعد لحظات لاحظ أن الكاهنة تكثر من التلفت حولها بين وقت وآخر.. فتساءل "ما الأمر؟.. هل ضللت الطريق؟"

عزفت عن إجابته وهي تكف عن التلفّت وتكمل سيرها متجاوزة هذا الجزء من الغابة.. فيما أضاف جاد بعد لحظة صمت "لو كانت وجهتنا هي الشمال، لماذا لم نكمل سيرنا بالقارب؟.. سيكون هذا أسرع من السير على الأقدام بالتأكيد.."

أجابت باقتضاب "الملك سيفتش مجرى النهر أول ما يفعل، قبل أن يكتشف هذا القارب على ضفة النهر.."

علق جاد قائلاً "لكن بسيرنا على الأقدام فنحن نعرّض أنفسنا لمخاطر أكثر.."

استدارت الكاهنة في تلك اللحظة مقطبة، وتأملت المكان حولها بتدقيق.. فتساءل جاد "ما الأمر؟"

غمغمت الكاهنة بحيرة شديدة "هناك من يراقبني منذ غادرت القلعة.. لكني لا أعرف هويته حتى الآن.."

تلفت جاد حولها متفحصاً، ثم وجدته يرفع بندقيته قائلاً وهو يشير للأعلى "ها هو أمامنا.."

انتبهت الكاهنة لذلك الفتى بجناحين عريضين والذي كان يتبعهما من مبعدة مستغلاً الأشجار الكثيفة حولها لإخفائه.. أطلق جاد طلقة من سلاحه، لكن إيار الذي كان يتبعهما بصمت سارع للتحليق من فرجة بين الأشجار متجاوزاً هذا الهجوم، وارتفع في السماء الرحبة قبل أن يبتعد بسرعة..

قطبت الكاهنة وهي تراقب ابتعاد إيار.. كانت في تلك اللحظة تشعر بالشعور ذاته أن شخصاً ما يراقبها، لكن للدهشة شعرت به من جانبٍ ما خلفها.. فما معنى هذا؟.. هل كان هذا الفتى بالجناحين وحيداً أم معه آخرون؟.. وهل اختبأ الآخرون في مواقع أخرى من الغابة حولهما في هذه اللحظة؟..

نقلت هواجسها هذه لجاد، فقال وهو يدير بندقيته لعدة اتجاهات متفحصاً الأشجار وما تخفيه خلفها بتدقيق "لابد أن يكون كذلك.. فما هدفه إذاً من ملاحقتنا لو كان سيتراجع بهذه السرعة؟"

ثم قال وهو يتقدمها "فلنذهب.. كلما خرجنا من هذه الغابة أسرع كلما كان أفضل.. لا تنسيَ أننا لا زلنا قريبان من القلعة، ومن الملك الذي لن يصمت على ما حدث بكل تأكيد.."

استدارت الكاهنة وتبعته وهي تحك عنقها من الخلف بصمت.. لا تزال تشعر بتلك العينان اللتان تلاحقانها لسبب مجهول.. وكأنها بعوضة لزجة تلحقها بإلحاح دون أن تتمكن من رؤيتها حقاً..

الفصل الثالث عشر: الصفلة التي كانت..

بعد عدة أيام من عودة الحكيم، وقد عزف عن الحديث تماماً عن لقائه بالكاهنة وتخمينه بشأنها، خرجت مالو في فجر أحد الأيام من غرفتها نحو غرفة الجلوس، لترى الحكيم قد استيقظ من نومه أبكر من المعتاد.. رأته فور نزولها يقف قرب النافذة المفتوحة فيما وقف غراب أسود كبير الحجم عند إطار النافذة وهو ينعق نعيقاً متقطعاً والحكيم يحدق به بصمت.. كانت مالو تعرف أن للحكيم علاقة قوية بالغربان، فهو يستخدمها عادة لإرسال رسائله في أرجاء عالم الأطياف، وله مآرب أخرى بها لكنها لا تعلم عنها شيئاً.. كل ما أدركته أنه يتلقى زيارة بين وقت وآخر من أحد الغربان دون أن يحمل ذلك الغراب أي رسالة له.. وهذه المرة كانت مشابهة، فهي لا ترى أي ورقة معلقة في ساق الغراب أو يد الحكيم الذي اكتفى بالنظر للغراب.. فيما دار الغراب في موقعه ورفرف بجناحيه العريضين ناعقاً للحظات قصيرة.. ثم مد الحكيم يده ببعض الخبز، فاختطفه الغراب قبل أن يحلق مبتعداً عن النافذة..

أغلق الحكيم النافذة، فيما اقتربت مالو التي لم تجرؤ على مقاطعته سابقاً، وقالت "عمت صباحاً يا سيدي.. لم أتوقع نهوضك في هذا الوقت.. سأقوم بتحضير الفطور في الحال.."

سمعت الحكيم يقول قبل أن تبتعد "لقد أزِف الوقت يا مالو.."

شُدِهَت مالو للحظة قبل أن تتذكر ما أخبرها به عن الكاهنة الغامضة وحاجته لمعاونتها في ذلك الأمر.. فقالت بانفعال "هل جدّ جديد؟"

هز الحكيم رأسه إيجاباً وقال "أجل.. لقد حدثت تطورات مهمة، وبدأت الكاهنة تحركاتها.. لذا ليس لنا أن ننتظر أكثر من ذلك قبل أن نتدخل.. هيئي ما نحتاجه لرحلة طويلة.. سنرحل مع انتصاف هذا النهار.."

تساءلت مالو بدهشة عظيمة "كيف عرفت بما جرى وأنت لم تغادر غرفتك منذ البارحة؟"

ثم عقّبت بفضول "هل للغراب علاقة بهذا الخبر يا سيدي؟"

ابتسم الحكيم مجيباً "أنت فتاة لمّاحة يا مالو.. وأنا أهنئ نفسي على وجودك كمساعدة لي.."

شعرت مالو بالسعادة لقوله هذا، ثم تساءلت "لكن... هل تعرف إلام تهدف الكاهنة من كل ما تفعله؟..

كيف ستوقفها وأنت لا تدري ما تنوي فعله بالتحديد؟"

أجاب الحكيم "لستُ بحاجة لمعرفة ما تنوي فعله بالتحديد.. لكني أدرك أنه أمرٌ سيضرّ بنا، وربما بالكثير من كائنات عالمنا هذا، وهذا يكفيني للتدخل وإيقافها عما تعتزم القيام به.."

ثم أضاف "يكفي أن تعرفي أنها خانت ثقة ملك (أنصاف الرجال) بوضع بعض التعاويذ الخاصة في جوانب قلعته.."

علقت مالو بدهشة "هل أخبرك الغراب بكل هذا؟.. وهل تفهم لغتهم حقاً؟"

قال الحكيم "لم يخبرني.. بل أراني بعينيه.."

وأشار لعينيه مضيفاً "لي وسائلي الخاصة لرؤية ما يجري، والتي لن تعرفيها ولو بعد عشرة أعوام.."

وغادر بصمت بعد إجابته المبهمة هذه، تاركاً مالو تبلع دهشتها وتسارع لتنفيذ ما طلبه منها دون جدال..

بعد أن مضى عليهم نصف يوم في ملاحقة الكاهنة وجاد من مبعدة دون أن يكشفوا أنفسهم، استوقف أوس فريقه قائلاً "لقد اكتفيت من هذه الملاحقة العقيمة.. سأتدخل فوراً.."

اعترضت سولينا قائلة "لقد اتفقنا على المراقبة دون تدخل حتى نكشف حقيقة هذه الطفلة ونعرف هدفها من هذا كله.."

قال أوس بضيق "وحتى متى سيدوم ذلك؟.. أتظنين أننا سنعرف شيئاً ونحن نراقبها من مبعدة بهذه

الصورة؟"

تساءلت تيما "ألديك حلٌ أفضل؟.. أليس ذلك الرجل الذي يلاحقها هو ذاته الذي حاول قتلك من على سور القلعة؟.. أتظن أنك قادرٌ على هزيمته هذه المرة؟"

قال أوس محتداً "لقد تكالب عليّ هو وجنوده في القلعة.. أما الآن، فنحن أكثر عدداً منه، وهو وحيد.."

والتفت إلى سولينا مضيفاً "سنحاول مشاغلته فيما يختطفها إيار ويطير بها بعيداً لموقع نتفق عليه.."

قالت سولينا بهدوء لم يخلُ من حدة "أمجنونٌ أنت؟.."

أجاب أوس "هذا الجنون هو كل ما أفكر فيه.. لمَ لا يقنعك طلبي هذا؟.."

اعترضت بحدة "ذاك المتوحش لن يسمح لك بالهرب بها.. سيقتلك دون أدنى تردد عندما ينجح باللحاق بك، وهو لابد سيفعل.."

قال بتوتر "لا بأس.. كل ما أريده حالياً هو بضع دقائق فقط.. بضع دقائق لأعرف الحقيقة، ولأتأكد إن كنت قادراً على استعادتها.. ألن تعاونيني على هذا؟.."

قالت سولينا باعتراض "أتظن أن الطفلة بهيئتها الغريبة هذه ستطاوعك على ما تفعله؟.."

قال أوس بحزم "ستفعل ذلك شاءت أم أبَت.."

قطبت سولينا بصمت وإن بدا الاعتراض واضحاً في عينيها، فتركها أوس وتقدم من إيار قائلاً "هل ستساعدني في ذلك؟.. لو أنك حملتها لموقعٍ مرتفع يصعب الوصول إليه، فسيعجز ذاك الرجل من اللحاق بها.. وببعض المعاونة من سولينا لتأخيره، سأكون قد كسبت وقتاً هاماً لأصل لما أريده.."

قال إيار بغير اعتراض "يمكنني أن أفعل ذلك، لكني لن أتدخل عند وصول حارسها إلينا.. لستُ من هواة القتال ولا قدرة لي على مواجهة شخص مثله.."

أسرع أوس يقول "لا أريد منك ذلك.. يكفي ما ستفعله في البدء، وبعد ذلك سأتولى الأمور بنفسي.."

هز إيار رأسه موافقاً، فيما قالت سولينا بضيق "ما الذي ستحققه بهذه الخطة الساذجة؟.. ألم ترها؟.. ألم تدرك حقيقة ما أصبحت عليه؟.. لم تعُد تلك الطفلة التي كنت تعرفها.."

قال أوس بانفعال "لكن جرى أمرٌ ما في اللحظة التي رأيتها فيها في القلعة.. في البدء، كانت تنظر لي بجمود، وبنظرة تفوق عمرها أعواماً عديدة.. ثم بلحظة تغيرت واستعادت نفسها.. نادتني باسمي،

وحاولت الوصول إليّ.. لكنها فقدت الوعي للحظات معدودة، ثم عادت شخصاً آخر.. شخص لا يمت لها بصلة.."

بدا عدم الاقتناع على الوجوه من حوله، فقال شاداً قبضتي يديه "أريد أن أفهم ما جرى.. ربما لو واجهتها لعرفت كيف يمكنني أن أعيدها كما كانت.. أن تتخلص من تلك التي أصبحت تسكنها.."

تساءلت سولينا باستياء "ومن هي تلك التي تسكنها؟.. كيف تدرك أمراً كهذا دون معرفة سابقة؟.."

أتى صوت تيما وهي تحلّ خلفهما قائلة "أظنني أملك فكرة بسيطة عن الأمر.."

التفتوا إليها بدهشة، فلخصت لهم ما سمعته من الحكيم عندما استجوبته بشأن ذلك الوشم، والحديث عن الصلة بين تلك التلميذة التي اتخذها أحد الكهنة وبين الكاهنة التي تعيش وسط جدران تلك القلعة.. فقال أوس بشيء من الضيق "ولماذا لم تخبريني بهذا الأمر قبلاً؟.."

هزت تيما كتفيها باستخفاف معلقة "لقد فوجئت بهجوم فرقة الجنود علينا وما تبعه من أمور.. ولم أكن أتخيل أن تكون بالحماس الكافي للحاق بالطفلة هذه المسافة كلها.."

قطب أوس وهو يفكر بالأمر بعمق بينما قال إيار بدهشة "أتظنون أنها المرأة ذاتها؟.. كيف للمرء أن يفعل ذلك بسهولة؟!.."

علقت سولينا "صعبٌ علينا تأكيد ذلك ونحن لا نعرف إحداهما قبلاً.. لكن ما الغرض من هذا كله؟.. لا يمكن أن يقوم شخص ما بهذا دون هدف حقيقي.. فما الذي تبغيه تلك المرأة؟.."

علق أوس أخيراً "لا يهمني ما تبغيه.. كل ما يهمني أن تترك ساما وشأنها ولا تسبب لها أي أذى.. يفترض أن تكون تلك الطفلة قد عادت لعالمها منذ زمن بعيد، لولا تدخل هذه المرأة واختطافها لها.."

زفرت سولينا للحظة، ثم قالت "إذن.. أأنت مصرٌّ حقاً على هذه المخاطرة؟"

قال أوس بتصميم "بالطبع.. لن أتخلى عن هذه الطفلة حتى أعرف ما جرى لها.."

فقالت سولينا بحزم "هيا بنا إذاً.. الوقت يداهمنا.."

بدت الراحة على ملامح أوس لاقتناعها بمعاونته، فيما أنزلت سولينا حقيبتها أرضاً وبدأت بتفحص مسدسها مغمغمة "أتمنى أن يكفي ما معي من الطلقات.. لو نفذت فسأضطر لاستخدام السهام والقوس كحلٍ أخير.."

التفت أوس إلى إيار محذراً "حاول ألا تؤذي الطفلة مهما قاومتك يا إيار.. فور أن تتمكن من الإمساك بها سارع للابتعاد دون أن تلتفت للوراء.. وسنلتقي في موقع سأحدده لك بالتحديد.."

غمغم إيار "القول أسهل من الفعل.."

استدار أوس إلى تيما التي ظلت صامتة طوال الوقت، وقد فضّلت الجلوس على فرع شجرة عالية تمكّنها من النظر للأفق فوق قمم أشجار تلك الغابة.. فقال أوس "هل تنوين العزوف عن معاونتنا هذه المرة يا تيما؟"

قالت بجفاء دون أن تلتفت إليه "طبعاً.. لا أجد ما يجبرني على ذلك.."

لم يعلق أوس على ذلك وهو ينشغل بخطته البسيطة مع سولينا، دون أن يلاحظ الهمّ والقلق البادي في عيني تيما.. والتي زفرت مدمدمة لنفسها بقلق "ما الذي سأفعله الآن؟.."

ظلت الكاهنة جالسة في الموضع الذي اختاره جاد لأخذ قسط من الراحة، وظل وجهها موجّهاً جهة أحد المواقع القريبة وهي تقطب بصمت.. تساءل جاد وهو يرمي لها ببعض الماء "ما بالك؟.. أما زلتِ تفكرين بأمر من يراقبك؟"

قالت عابسة "أجل.. إنني لازلت أشعر بالشعور ذاته منذ غادرت القلعة.. لكني لا أرى حولنا إلا بعض الحيوانات والطيور.. فمن هو صاحب هذه المراقبة اللصيقة؟.. وكيف يمكنني أن أغفل عن مكانه؟"

علق جاد "ربما كان شعورك ذاك بسبب الفتى الطائر الذي وجدناه يتبعنا.. ربما كان ذاك الفتى ينتظر فرصة سانحة لاختطافك، وربما أدرك أنك بشرية.."

قالت الكاهنة بجفاء "محال.. من تظنني؟.. لن ينجذب أي كائن لهذا الجسد لكونه بشرياً، فقد تأكدت من طمس رائحته وتمويهه بحيث يبدو للناظر إليه أنه كائن من كائنات هذا العالم.. فأنا بغنىً عن مطاردات لا داعي لها في هذا الوقت المهم.."

فقال جاد بابتسامة ساخرة "يبدو أنك قادرة على تحقيق كل شيء بمفردك.. فما حاجتك لشخص مثلي؟.."

صمتت للحظات وهي تحدق بوجهه، ثم أدارت بصرها مجيبة "لا أدري حقاً.. أحياناً تراودني بعض الرؤى، وأغلب تلك الرؤى تتحقق بطريقة أو بأخرى.. وفي السنوات التي قضيتَها مسجوناً، رأيت الكثير

من الرؤى المتعلقة بهذه الرحلة التي نقوم بها.. وأغلبها كنت أراك فيها معي.. لا أفهم سبب وجودك، لكن الرؤى تخبرني أن وجودك ضروري لمعاونتي فيما أسعى إليه.."

علق جاد بهزء "وربما كان وجودي ضرورياً لأنهي هذه الدورة الشيطانية من حياتك البائسة.."

هزت كتفيها قائلة "ربما.. من يدري؟"

ساد الصمت للحظات بينهما قبل أن يقول "فور أن نخرج من هذه الغابة، سنتوجه لأقرب قرية منا.. ومن هناك، سنشتري عربة وحصاناً للتنقل بصورة أسرع.."

لم تجد الكاهنة فرصة للتعليق وهما يسمعان صوتاً واضحاً من أجمة قريبة.. نهض جاد واقفاً بتحفز، فيما ظلت الكاهنة في مكانها مقطبة دون أن يبدو أي توتر على وجهها.. تكرر الصوت مرة أخرى، فتأهب جاد ببندقيته وهو يتقدم خطوات ليتفحص سبب هذه الضجة.. احتمالية كونها من فعل أحد حيوانات الغابة كبير، لكن وجود شخص وسط الأشجار قد يسعى للهجوم عليهما واردٌ أيضاً..

بعد بضع خطوات، وجد جاد صوتاً مدوياً يندلع من مكان بين الأشجار الكثيفة، في اللحظة ذاتها التي أصابت فيها رصاصة بندقيته فأجبرته على إفلاتها لتسقط بعيداً عنه..

صاح جاد بالكاهنة "اختبئي.."

وقفز نحو بندقيته التي كانت على بعد أمتار قليلة منه، فالتقطها وتدحرج جانباً فيما أصابت رصاصة الموضع الذي وقف فيه منذ لحظات.. لكنه لم يتردد وهو يخترق الغابة من أقرب الأشجار إليه محاولاً الوصول لصاحب تلك الطلقات قبل أن يصيبه في مقتل.. هل كانوا جنوداً من القلعة؟.. إذن لواجهوه ولما لجؤوا للهجوم من مبعدة بكل خسّة.. وبعد مسافة قصيرة تمكن من رؤية تلك المرأة التي اختبأت خلف جذع شجرة وهي توجه مسدسها نحوه قبل أن تطلق طلقة جديدة..

تفادى جاد الإصابة بالاختباء خلف إحدى الأشجار، وتأهب لمبادلتها إطلاق النيران عندما فوجئ بصياح الكاهنة الغاضب.. التفت إليها جاد مدهوشاً ليراها محمولة بذراعي فتى التنين الذي اختطفها وحلق بها بأسرع ما يمكن.. حاول جاد إيقاف هذا الاختطاف وهو يصوّب بندقيته نحو إيار، لكنه فوجئ برصاصة تغوص عميقاً في ذراعه.. رصّ جاد على أسنانه متجاهلاً الألم وهو يدير فوهة بندقيته نحو موضع إطلاق الرصاصة، وأطلق طلقات متتابعة أجبرت سولينا على الابتعاد عن مرماه.. اختبأت خلف بعض الأشجار

رافعة بصرها نحو إيار لرؤية إن كان قد ابتعد عن الخطر أم لا.. أما جاد، فقد حوّل بندقيته نحو إيار وأطلق عدة طلقات استهدف بها ساقيه أو جناحيه، لكن رصاصاته كلها لم تصب الهدف الذي ابتعد بطيران سريع وصياح الكاهنة يخفت كثيراً لبعدها عنه.. فيما تعالى صوت سولينا وهي تقول "لا تبدو لي حريصاً على حياة من تخدمها.. أأنت حارسها حقاً؟.."

نظر جاد للموضع الذي اختبأت عنده سولينا خلف الأشجار القريبة، ثم راقب ابتعاد إيار بالكاهنة من هذا الموقع نحو موقع أبعد وسط الغابة.. عندها تجاهل جاد أمر سولينا وهو يركض محاولاً اللحاق بالمختطفين عبر الغابة.. فصاحت سولينا وهي تقفز من موقعها مصوبة مسدسها نحوه "لن أسمح لك بهذا أيها الغول.."

لم تتمكن من إصابته بسبب الأشجار التي حالت بينها وبينه، فسارعت للركض خلفه لمنعه من اللحاق بالكاهنة بأي وسيلة كانت.. رأى جاد أن إيار قد حمل الكاهنة التي قاومته بشدة حتى وصل بها لمنطقة مرتفعة تتوسط الغابة، وتنحدر انحداراً حاداً بحيث يصعب تسلقها إلا بمشقة مع علوها الكبير.. أما الدوران حولها فيستغرق وقتاً أطول من اللازم.. لم يلبث بعدها أن رأى جسداً لذئب فضي يقفز فوق الصخور الناتئة تابعاً الفتى والكاهنة بخفة وسرعة لا يقدر عليها الشخص العادي.. لم يتوانَ جاد عن اللحاق بهم، وعند ذلك المرتفع الصخري لم يتردد في ارتقائه بشيء من السرعة رغم خطورة ذلك لوجود الصخور المدببة في الأسفل.. لم تتأخر سولينا في اللحاق به وتصويب سلاحها نحوه، ولكن عوضاً عن إصابته فإنها استهدفت موقعاً يعلوه بقليل، مما تسبب في انهيار بعض الصخور متوسطة الحجم مع تأثرها بالرصاصة التي ارتطمت بها بعنف..

خفض جاد رأسه بين ذراعيه بسرعة ليحميه من ضربات تلك الصخور المتهاوية، ولم يلبث بعدها أن استمر في تسلقه بنشاط متجاهلاً أمر سولينا تماماً.. فيما أسرعت سولينا للاقتراب أكثر والتسلق لاحقة به بعد أن أخفته بعض الصخور البارزة عن عينيها.. وتمتمت بغيظ وهي تعلق مسدسها في الجراب المخصص له "ألا يوقفك أي شيء؟"

فوجئت بأن جاد الذي تجاوز مسافة كبيرة من ذلك المرتفع قد ركل صخرة كبيرة بعض الشيء سقطت نحوها بتسارع كبير.. تجاوزت سولينا هذه الصخرة بشيء من العسر وكادت تتعثر فتسقط من ذلك

الارتفاع نحو الصخور المدببة.. لكنها سرعان ما تمالكت نفسها وأسرعت بدورها لاحقة بجاد لإتمام المهمة المناطة بها قبل أن تنتهي هذه العملية قبل أن تبدأ..

في ذلك الوقت، تسلق جاد المرتفع بأسرع ما يمكنه محاولاً الوصول للكاهنة قبل أن يحدث لها شيء.. ما الذي قد يفعله بها هذا الرجل؟.. لابد أنه يحاول الخلاص من الكاهنة.. لكنه لا يفهم.. إنه لا يقدر.. لن يقدر على الخلاص منها لأن من ستموت هي الطفلة، وستظهر الكاهنة في مكان آخر في جسد آخر بعيد كل البعد.. وعندها ستفلت من يديه.. ولن يقدر على تنفيذ انتقامه قط..

لكنه لن يسمح بذلك.. لا يمكنه أن يسمح بأن تضيع سنوات عمره السبع سدىً.. لا يمكنه أن يسمح بأن يفقد شقيقته فيت دون أن ينتقم لمن تسببت بموتها.. هو من أغمد الخنجر في عنقها الدقيق بالفعل، لكنها لم تكن هناك.. شقيقته الوحيدة التي لا يقدر على إيذاء شعرة من رأسها، كانت قد رحلت عن ذلك الجسد دون عودة.. ومن بقي في ذلك الجسد كانت الكاهنة التي رمقته بعينيها الثاقبتين والخنجر يغوص عميقاً في عنقها.. تباً له لو تركها تفلت هذه المرة أيضاً..

في الوقت ذاته، كان أوس قد وصل لأعلى موقع في هذا المرتفع، حيث رأى إيار يحمل الكاهنة التي ظلت تطلق صيحاتها الغاضبة وتتمايل بعنف محاولة الإفلات.. ولدى رؤية أوس، هبط إيار مخلياً سبيل الكاهنة.. لكن قبل أن تتمكن من الابتعاد وجدت أوس يمسك ذراعيها مقيّداً حريتها من جديد ومثبتاً إياها على صخرة سدّت سبيلها للهرب، فيما حاولت هي التملص منه بكل ما تملك.. وهو رغم خوفه على ساما، لم يترك لها مجالاً للإفلات منه ومن الأسئلة التي احتشدت في رأسه.. فقال بحدة "من أنتِ يا هذه؟.. أنت لست ساما.. كيف سيطرتِ عليها وتحكمت بجسدها بهذه الصورة؟.."

حاولت الإفلات منه وهي تصيح "لا شأن لك بما يجري.. من الذي جعلك وصياً على الطفلة البشرية؟.."

تشمّم أوس الهواء حولها للحظة مضيفاً بعجب "أنت حتى لا تحملين رائحة البشر مطلقاً.. كيف فعلت ذلك بها؟"

قالت بجفاء "طبعاً سأزيل رائحتها البشرية.. لا يمكنني أن آمن ملاحقة كائن شرس مثلك طمعاً في هذا الجسد.."

قال بغلظة "من الذي مكّنك من التحكم بها؟.. ولأي غرض؟.. هل أنتِ من يطلق عليها لقب الكاهنة؟..

لماذا يستهدف شخص مثلك طفلة بشرية؟.."

أشاحت الكاهنة وجهها قائلة "كلها أسئلة لن تجد إجابة لها.. أتظنني سأجيبك بنفسٍ راضية؟"

فنفخ أوس بغيظ وقال محتداً "عليك أن تفعلي.. أجيبي قبل أن أفقد أعصابي.."

فقالت هازئة "وما الذي ستفعله عندها؟.. كل ما قد يطاله غضبك هو جسد هذه الطفلة.. لن تستطيع الوصول إلي ولن تقدر على إيذائي.."

لم يكن هذا ما عناه أوس مطلقاً، فيما تعالت ضحكات الكاهنة وهي تضيف "يمكنك أن تحاول قتلها، ولن يضرني ذلك قدر شعرة قط.. ما رأيك بأن تحاول؟.."

صاح أوس بغضب "اصمتي.."

سمع صوت إيار المتوتر وهو يقول "ذلك المتوحش يقترب منا يا أوس وسولينا عاجزة عن إيقافه.. عليك أن تسرع.."

ضحكت الكاهنة ساخرة لتأزم موقف أوس أكثر فأكثر، لكنه قال لها بغلظة "على الأقل أجيبيني.. هل أنت من أحضر ساما لهذا العالم؟.."

قالت بابتسامة جانبية "كانت تلك ضربة حظ.. كنت أنوي جلبها بنفسي بعد بعض الوقت، لكني فوجئت بأنها قد سبقتني وتسللت لعالم الأطياف دون أن تقضي نحبها في طريق الأطياف.. كانت تلك معجزة، وقد صبّت في صالحي بكل تأكيد.."

تساءل بشك "كيف علمت بذلك؟.. ولماذا اختطفتها لقلعة (أنصاف الرجال) بالذات؟.."

هزت كتفيها مجيبة "هناك صلة عميقة بيني وبينها منبعه ذلك الوشم الذي تحمله في عنقها.. هذا كل ما لك أن تعرفه.."

سمع أوس صيحة سولينا وهي تحاول التخلص من جاد، لكنه تجاهل ما يسمعه وهو يقطب بشدة متسائلاً "هل أنت من وشمها بهذا الوشم؟.. كيف فعلت ذلك وهي في عالم البشر؟.. وهل أنت من قتل والديها وهي في الخامسة؟.."

ابتسمت الكاهنة ابتسامة خبيثة مجيبة "أمر الوشم ليس صعباً، فببعض الحيلة يمكنني أن أهيئ للأطياف أنني شخص من الريابلة، فيفرون فزعاً من رؤيتي.. أما بما يخص والدي هذه الطفلة، فمن المبالغة لو ظننت

أنني قتلتها بيدي.. لا أجني شيئاً من فعل ذلك.. ولكن....."

وتطلعت في عينيه بضحكة مضيفة "ربما كنتُ السبب في ذلك بالفعل.."

ضرب أوس الصخرة خلفها صائحاً "ماذا تعنين بذلك؟.. هل أنت من فعلها أم لا؟"

تعالت ضحكتها وهي تجيب "من يدري حقاً؟.. لم أكن موجودة لأشهد ذلك.."

قال أوس بغضب "إذن كيف.....؟"

فوجئ في تلك اللحظة باتساع عينيها المرتاعتين، وسرعان ما تحدرت دموعها بتتابع وهي تنظر له بنظرة مختلفة.. ثم بدأت تقول بصوت مرتجف "لقد تذكرت ما جرىٰ.. تذكرت ما جرىٰ تلك الليلة.."

فوجئ أوس بما جرىٰ لها، وبكلماتها تلك وهي تضيف باكية "لقد نسيت ما جرىٰ لأنني كنت صغيرة جداً.. لكن الآن تذكرت كل شيء.."

قال أوس بانفعال وقد أدرك ما تغيرّ فيها "ساما؟.. أهذه أنت؟"

نظرت له ساما بعينين زلئغتين دون أن تجيبه، فيما كرر أوس بإلحاح " أهذه أنت يا ساما؟.. هل تسمعينني؟.. هل تعرفينني؟"

لكن بدا أن ساما قد رحلت لزمن آخر، لوقت آخر، ولمكان آخر، حيث الذكريات أمرّ وأقسىٰ مما قد يتخيله أوس..

كنت نائمة في تلك الليلة أحلم بإحدى مغامراتي التي أقوم بها مع الصبية والفتيات كل يوم في جنبات الغابة القريبة من قريتنا الصغيرة.. كانت ليلة من ليالي الصيف، والقمر يضيء غرفتي بنوره الأزرق الهادئ.. استيقظت من نومي فجأة دون سبب مفهوم، وأنا أشعر بإحساس غريب لم أقدر على تفسيره.. شعرت أنني لست وحيدة، وأن شخصا ما يحتل الغرفة معي..

تلفت حولي بحثا عن أبي أو أمي، وهو التفسير الوحيد الذي فكرت به لهذا الشعور، عندما رأيت امرأة تقف قرب النافذة المغلقة بالستائر ذات الزهور الزرقاء الصغيرة.. لم تكن تلك أمي.. هذا ما أدركته منذ اللحظة

الأولى وأنا أرى تلك الفتاة التي كانت على شيء من القِصَر وترتدي معطفا طويلا بجزء يغطي رأسها بحيث بدت ملامحها مبهمة لي.. كل ما رأيته في تلك اللحظة هما عيناها الثاقبتان بلمحة أرعبتني وهي تحدق في بصمت لوقت طويل..

انتفضت بشيء من الرعب وأنا أفتح فمي لأنادي أبي بحثا عن شيء من الأمان بوجوده لكني عجزت عن إصدار صوت.. ابتسمت المرأة في تلك اللحظة عندما رأت عجزي عن استدعاء والدي أو حتى الحراك من فراشي.. واقتربت من سريري وهي تبتسم ابتسامة مخيفة.. حاولت الصراخ من جديد، لكنني لم أستطِع، وظننت أنه مجرد حلم مرعب.. رأيتها ترفع يدها نحوي، وهي تتمتم بكلمات غير مفهومة وبنبرة أرعبتني.. وفي الآن ذاته اشتعل الألم في مؤخرة عنقي بشكل لم أقدر على تحمله.. بدأت البكاء رغما عني بسبب الألم القوي الذي اعترى عنقي، وسالت دموعي غزيرة بحيث تموهت الرؤى وغامت أمامي وأنا عاجزة عن الحراك.. طال الأمر لحظات معدودة قبل أن أفقد الوعي لشدة الألم الذي شعرت به..

وعندما عدت لوعيي في الصباح، كان كل شيء غريبا حولي.. كان البيت صامتا، وهو أمر غير معتاد في هذه الأوقات.. لم أسمع صوت أمي وهي تناديني، ولم أسمع صوت أبي وهو يعمل خارج البيت كما يفعل كل يوم.. رغم أن القرية ضاجّة بالحيوية كعادتها، لكن الهدوء والصمت كانا من نصيب منزلنا فقط دون غيره..

نهضت من سريري وحاولت الخروج من غرفتي، وقد دهشت من عودة القدرة على الحركة لي.. بدا لي بالفعل أن ما مررت به في الليلة السابقة كان كابوسا، رغم بعض الوخزات المؤلمة التي أشعر بها في موضع الألم السابق..

أمسكت مقبض باب الغرفة وحاولت دفعه لفتحه، لكنه كان ثقيلا جدا ولم أقدر على فتحه أو تحريكه إلا بصعوبة وجهد شديد.. وعندما تمكنت من ذلك، فوجئت بجسد ثقيل يسقط جانباً من موقعه أمام الباب.. تراجعت بدهشة، ودقّقت النظر في ذلك الجسد، لأكتشف أنه لم يكن إلا جسد أبي الذي بدا أنه قضى الليلة الماضية جالسا أمام الباب ومستندا عليه بظهره.. كان شكله مفزعا، شاحب الوجه بعينين زائغتين وفم مفتوح.. حاولت إيقاظه وهززته بقوة دون أن أفلح بذلك، فهربت إلى أمي بحثا عن تفسير لما جرى.. ولكني لم أجدها في حال أفضل وهي في سريرها تنظر للسقف دون أن ترمش بعينيها..

انتابني ذعر بشع وأنا أحاول إيقاظها من نومها الغريب الذي جعل عينيها لا ترمشان ولا تنظران إليّ.. لكني بعد بعض الوقت أدركت أنها لن تراني.. لن تحدثني.. وقد لا تعود كما كانت قط.. لم أفهم معنى الموت، لكني أدركته بحاسّتي في تلك اللحظات وأنا أشعر بذلك الخوف الشديد من مرأى ما جرى لوالدي اللذان منحاني الحب والحماية طوال سني عمري..

اجتذب عويلي وصياحي بعض أهالي القرية ممن مروا قرب منزلنا في تلك اللحظات، فلم يتمكنوا من فتح أبواب المنزل إلا باستخدام العنف بسبب الأقفال عليها، وعندها وقفوا مشدوهين لمرأى ما جري دون أن يجدوا تفسيرا لهذا الأمر.. في النهاية سمعتهم يتهامسون أن الفاعل لابد أن يكون مجرما هاربا أو سارقا أراد سرقة أثمن ما نملك.. ولم يفسر أحدهم كيفية دخول القاتل إلى منزل محكم الإغلاق قط..

بعدها غادرت ذلك المنزل ولم أعُد إليه قط، وقد نسيت كل ما يتعلق بتلك الليلة وبتلك المرأة بعدها تماماً..

ظل أوس يستمع لما تقوله ساما بصدمة وشيء من الحيرة، وقد عجز عن تفسير جوانب ذلك اللغز المحير.. ظل يحدق في ساما الباكية وهي تتذكر تلك الليلة المرعبة التي عادت لها بكل تفاصيلها، فيما تعالى صياح إيار محذراً إياه في اللحظة ذاتها التي وجد فيها أوس لكمة قوية ترتطم بفكه وتلقيه جانباً بعنف.. سقط أوس على مبعدة، فيما سقطت الطفلة أرضاً وهي تطلق صيحة ألم، قبل أن تعتدل قائلة بغضب "ما الذي تفعله أيها الأحمق؟.."

لم يعلق جاد وهو يقترب من أوس لاهثاً بغضب، فيما سارعت هي لمسح دموعها مدمدمة بغيظ "كيف يقدر شخصٌ تافه مثل هذا الرجل على التغلب عليّ بهذه الصورة؟.. ما الذي أخطأت فيه هذه المرة؟"

قبل أن يعتدل أوس، وجد أن جاد قد أمسك مجمع ثيابه ورفعه قليلاً قبل أن يلكمه من جديد على وجهه قائلاً بصرامة "لقد نجوت مني بأعجوبة في المرة السابقة، لكن ها أنت أمامي بإصرار يثير الغيظ.. فهل تريد أن تموت؟"

قال أوس بتقطيبة ألم "لماذا تحاول منعي من الإقتراب منها؟.. أنا لن أؤذيها.. لن تكون أحرص على حياتها مني أنا.."

فعلق جاد ساخراً "ومن قال إنني حريص عليها؟.."

ورماه خلفاً مضيفاً " غادر ولا تدعني أراك مرة أخرى.. لن أسمح لك بإفساد خططي بعد كل هذا الوقت.."

نهض أوس ماسحاً الدماء التي سالت من فمه، ثم قال للكاهنة التي استعادت السيطرة على جسد ساما وهي تنفض ملابسها من التراب "ما الذي جرى حقاً لوالدي ساما؟.. كيف ماتا بوجودك وأنت تدّعين أنك لم تشهدي ذلك؟"

قالت الكاهنة بجفاء "لم أكن موجودة.. لقد أنهيت عملي بوشم الطفلة بالوشم الذي سيجمعها بي حتى الممات، ثم غادرت مثلما دخلت، فأنا لا تستعصي عليّ الأبواب المغلقة.. لكن ما أعرفه أن مثل هذا الوشم، وهو تعويذة قوية لا يتقنها غيري في الوقت الحالي، تجتذب الكثير من الكائنات غير المرئية في عالم البشر.. تلك الكائنات تسبب الأذى لمن تقترب منه، ورغم أن الوشم يحمي صاحبها من هذا الأذى، لكن ذلك لا ينطبق على أقاربه ومن يتواجد معه أثناءها.. لا بد أن مقتل والدي الطفلة كان بفعل تلك الكائنات العدوانية، والتي بقيت ملاحقة للطفلة طوال وجودها في عالم البشر حاملة هذه التعويذة.."

فقال أوس بحنق "ولم اخترتها هي دوناً عن الأخريات؟.. لم هي بالذات؟"

هزت كتفيها بغير اهتمام مجيبة "لا يمكنني اختيار أي فتاة عبثاً.. لا بد من مستوى من التطابق الروحي والجسدي بيننا ليتم الانتقال بسلاسة.. وهذا ما وجدته في هذه الطفلة البشرية.."

واستدارت مغادرة بهدوء، فصاح أوس عندها بغضب "كيف تجرؤين على العبث بحياة طفلة بهذه الصورة؟.. ما مأربك من هذا كله؟.."

نظرت له من فوق كتفها وهي تقول بجمود "أما اكتفيت من كل هذه الأسئلة؟.."

صاح أوس "لكني لن أصمت حتى أعرف هدفك مما تفعلينه.."

التفتت إليه وابتسمت ابتسامة قاسية قائلة "سأفتح أبواب الجحيم.."

نظر لها أوس بصدمة ودهشة لهذا الجواب.. ما معنى هذا حقاً؟.. وجد جاد يقف في وجهه في تلك اللحظة

قائلاً بتحذير شديد اللهجة "لا أريد أن أراك مرة أخرى يا هذا.. أطِع ما يقال لك وارحل بصمت.."

لم تهدأ ثورة أوس مع كل ما سمعه، لكنه وجد قبضة سولينا تمسك كتفه وهي تقول بتوتر "يكفي هذا.. لا نريد المزيد من الدماء والإصابات بلا معنى.."

صاح أوس بثورة "بلا معنى؟.. أيمكنك قول هذا بعد كل ما جرى؟"

ضغطت على كتفه لتهدئته وهي تراقب ابتعاد الكاهنة وجاد والأخير يلقي عليهم بنظرة تحذيرية شديدة.. عندها قالت سولينا بصوت خفيض "استسلامك الآن لا يعني أن كل شيء انتهى.. يجب أن نحاول استجماع أفكارنا وترتيبها لمعرفة ما جرى حقاً.. سنتبعهما، ولكن دون تهور هذه المرة.. يجب أن نعرف من هي، وما هدفها من كل ما فعلته.."

ظل أوس مقطباً يراقب ابتعاد الكاهنة بجسد ساما، وشدّ على قبضتيه بضيق عارم، فيما أضافت سولينا "كل ما جرى ليس عبثاً.. اختباؤها في القلعة طوال الفترة السابقة، وتسللها منها مع هذا الرجل الآن.. اتجاههما شمالاً دون توقف.. واستيلاؤها على جسد طفلة بشرية.. كلها أمور يجب أن يكون لها تفسير مقنع يقودنا للهدف الذي تسعى إليه.."

غمغم أوس عابساً "وماذا لو كان اكتشافنا لهدفها متأخراً أكثر من اللازم؟.. ماذا لو جنَت ساما مغبّة ترددنا هذا؟"

ربتت سولينا على كتفه مجيبة "لن يحدث ذلك.. لن نسمح لها بذلك بأي شكل من الأشكال.. فتحلّ بالصبر قليلاً بعد.."

تعالى صوت تيما التي ظلت صامتة طوال تلك الأحداث وهي تقول ساخرة "الصيادة البارعة واثقة من قدراتها تمام الثقة.. ألن تندم على ثقتك بها يا أوس؟"

نظرت سولينا لها حيث جلست على شجرة عالية، وكأنها تنأى بمكانها المرتفع عما يحدث بينهم ولهم، فعلقت قائلة بتقطيبة "ما الذي يبقيك معنا حتى الآن يا تيما؟.. أنت لا تكادين تشاركين في أي أمرٍ مما نفعله إلا بالتعليقات الهازئة والسخرية.. لا أظن أن وجودك معنا قد يحقق أي هدف من أهدافك، وقرى (الفيي) ليست بعيدة عن هنا.. فما الذي يمنعك من الرحيل؟"

أدارت تيما وجهها عابسة وقالت "كنت سأرحل لو كان الأمر بيدي.. فلا يستهويني أي شيء للبقاء مع

جماعة مجنونة كهذه.."

فقالت سولينا "إذن ارحلي.. وابحثي لنفسك عن جماعة أكثر تعقلاً وأقل جنوناً.."

قالت تيما بحدة "لا شأن لك بما أفعله أيتها الحمقاء.. أتجرؤين على طردي؟.."

غمغم إيار من موقعه "هل يجب أن تتشاجرا كل لحظة؟"

ونظر إلى أوس فرآه ينظر للموضع الذي اختفت عنده ساما وهو غارق في التفكير.. لا يزال غير مصدقٍ لما يشهده من أحداث.. لم يسبق له أن سمع عن شخصٍ تلبّس جسد آخر بهذه البساطة.. فهل لقدراتها ككاهنة يدٌ في نجاح أمر لا يمكن تصديقه كهذا؟.. وفوق ذلك، ألن يكون لمرور الوقت أثرٌ على الطفلة؟.. هل يمكن أن يكون التأثير أكثر قوة ووضوحاً كلما طال احتلال الكاهنة لجسدها؟.. هل ستغدو استعادتها أصعب مع مرور الأيام؟..

لا يملك أجوبة هذه الأسئلة.. ولا يملك إلا الصبر والانتظار.. والمحاولة من جديد عندما تسنح الفرصة..

من بين الظلام المحيط بها، فتحت ساما عينيها للمرة الـــ.... لا تدري عدد المرات التي وجدت فيها نفسها تستيقظ بعد غيبوبة عميقة لا تدري لها سبباً.. كان الظلام لا يزال دامساً حولها، وقد عجزت عيناها عن التقاط لمحة من أي نور ولو كان باهتاً.. ظلت صامتة في مكانها وهي تتذكر آخر ما جرى قبل أن تفقد وعيها المرة السابقة.. كان ذلك الموقف من أكثر المواقف التي سببت لها الألم والحزن الشديد.. تَذَكّر ما جرى لوالديها كان أكبر صدمة لها، رغم أنها تعرف بموتهما منذ أمد بعيد.. لكن تذكر ما جرى نكأ ذلك الجرح الذي لم يندمل، ولن يندمل، ما بقي لها من عمر..

سادها شعورٌ قوي بالحزن، ورغم كل المشاعر التي احتشدت في صدرها، لكن للعجب لم تتمكن من البكاء بشكل فعلي أبداً.. كالعادة ظلت مشاعرها حبيسة صدرها ولا تشعر بها في أي من أجزاء جسدها.. وكأن جسدها منفصل عن عقلها ولا يستجيب لما تشعر به في الوقت الحالي..

بعد وقت طويل قضته صامتة، سمعت بعض الأصوات الخافتة التي تبدو وكأنها تصدر من بعيد.. حاولت

تركيز انتباهها على تلك الأصوات، لعلّها تعرف حلاً لهذه الحالة التي تجد نفسها فيها، فبدأت الأصوات بالتالي تتوضح أكثر فأكثر حتى تمكنت من التقاط بعض الكلمات المتفرقة هنا وهناك..

استطاعت في البدء أن تسمع صوت ذلك الرجل ذو اللهجة الغريبة والصوت الخشن وهو يتحدث بما لم تفهمه.. ثم استطاعت أن تسمع صوت تلك المرأة التي عرفت أنها هي ذاتها من زارها في غرفتها عندما كانت في الخامسة.. مع تكرار استعادتها وعيها، واستعادة القدرة على السمع ولو بشكل باهت، بدأت ساما تدرك أن صوت المرأة ليس بعيداً عنها.. الصوت يصدر من داخلها، وكأنه ينبع من حلقها ذاته..

بعد تلك المرات، بدأت تدرك أنها هي والمرأة تعيشان في هذا الجسد ذاته، وتستخدمان الحلق ذاته للتكلم، وتتشاركان أحياناً بعض المشاعر.. عندما يستبد الغيظ بتلك المرأة، تشعر ساما بشعورها ذاته والغضب يحتشد في صدرها ويكاد يفقدها طاقتها على الصبر.. وعندما تكون المرأة واثقة من أمرٍ تفعله، فإن السكينة تحلّ بساما بحيث يغيب عنها ذعرها وخوفها السابق..

ما الذي يجري حقاً؟.. كيف تمكنت هذه المرأة من التسلل لجسدها؟.. وما الذي تنوي فعله بها؟..

كيف لها أن تعرف أجوبة كل الأسئلة التي تحتشد في عقلها؟.. وكيف لها أن تفهم ما يراد لها؟..

سارت مالو تابعة الحكيم وهي تضمّ يديها في قبضة واحدة تدل على توترها.. كانا يتوغلان وسط غابة كثيفة الأوراق لا يطال أرضها نور الشمس إلا قليلاً، بأشجار مدببة وجذوع ضخمة تدل على تأصّلها في هذه الأرض منذ أزمان قديمة.. لم تكن تلك الغابة ضاجة بالحياة كما الغابات العادية، بل كانت ساكنة صامتة بحيث أثارت توجس مالو أكثر وهي تغمغم "أأنت واثق أننا سنكون بخير يا سيدي هنا؟.. هذه الغابة تقلقني بشدة.."

أجاب الحكيم بهدوء "لا داعي للقلق.. سنكون بأمان.."

تعجبت مالو من ثقة الحكيم الكبيرة، فيما لم تنعكس تلك الثقة عليها ولو قليلاً.. لقد اضطرا للتخلي عن العربة التي استخدماها للتنقل خارج الغابة، بسبب استحالة مرورها بين الأشجار الكثيفة المتراصّة.. ورغم توغّلهم كثيراً في المكان لكن لم يبدُ على الحكيم أي تعب أو إنهاك لهذا المجهود.. قالت مالو أخيراً

بتوتر "أليست هذه غابة الـ....."

قاطعها صوت مغاير يقول "مرحباً بكما أيها الغريبان.."

التفتت مالو شاهقة بدهشة، لترى رجلاً تظلله أشجار الغابة فلا تبدو ملامحه واضحة، فيما التمعت عيناه بوضوح بوهج غريب.. فيما أضاف الرجل "ما الذي جاء بكما لعمق هذه الغابة التي لا يطأ أرضها غريب؟!.."

نظرت مالو للحكيم بقلق، فرأته يتقدم خطوة قائلاً "أتينا لرؤية كبيركم.. فهل تأخذنا إليه؟.."

ظل الرجل ينظر لهما متفحصاً، ثم استدار دون كلمة مبتعداً.. فتبعه الحكيم دون تعليق فيما غمغمت مالو بقلق "ألن يحاول هذا الرجل إيذاءنا؟.. قد يقودنا لهلاكنا.."

علق الحكيم "لا تقلقي.. أنا واثق أنه لن يفعل.."

دام سيرهم بعض الوقت قبل أن تبدأ الأشجار بالانحسار تدريجياً وضوء الشمس يتغلغلها بقوة، حتى تبدت أمام أعينهم مساحة خالية من الأشجار في موقع يتوسط الغابة الشاسعة هذه.. وفي تلك الساحة الواسعة، تناثرت عدة بيوت طينية بسيطة المظهر، بعضها يعلو بعضاً، بحيث تكدست على هيئة مرتفع متوسط الحجم في الوسط، فيما افترشت بعض الحقول جانباً من المكان بأشجار وشجيرات متنوعة الأشكال وبعضها يزهو بالأزهار فيما ناءت أخرى بثمارها..

لاحظت مالو تراكض بعض الفتية في جانب المكان وقربهم تقافزت جراء صغيرة بمتعة واضحة، فيما بدا أن سكان هذه المدينة المختبئة في عمق الغابة قد تجمدوا وهم يراقبون الغريبين اللذين ظهرا فجأة.. بدا أنهم غير معتادين على الغرباء وعابري سبيل، لذا كان فضولهم كبيراً وهم يراقبون الحكيم الذي سار بهدوء ومالو تتبعه بقلق متلفتة حولها.. قادهم الرجل لموقع قريب من منازل تلك القرية، فيما تساءلت مالو بدهشة "أهذه هي القرية الوحيدة الذي تضمّ هذه القبائل؟"

أجاب الحكيم "بل هناك عدة قرى موزعة في جوانب هذه الغابة الهائلة.. ولكن هذه هي ما نسعى إليه.."

وصلوا لساحة صغيرة في وسط القرية، يطل عليها بيت يبزّ بقية البيوت حجماً، وقد هيئت الساحة الصغيرة هذه كمجلس للقرية ولكبارها حول دائرة يتم استخدامها كموضع للنيران التي يتم إشعالها كل ليلة..

تقدم الحكيم دون تردد، ورأى رجلاً يخرج من ذلك البيت يتبعه بضع رجال آخرين.. اقترب دليلهم من

الرجل الأول وقال "عثرت عليهم في الغابة يا كبير، وقد طلبوا رؤيتك.."

تقدم كبير القرية منهم قائلاً "مرحباً بك في قريتنا أيها الحكيم.. لأي أمر نتشرف بزيارتك النادرة هذه؟"

ابتسم الحكيم قائلاً بهدوء "لديّ أمرٌ مهم أريد الحديث معك فيه.."

لم يتساءل الكبير أكثر عن هذا الأمر وهو يشير للحكيم ليتبعه، فالتفت الحكيم لمالو قائلاً "هل ستكونين بخير هنا؟"

غمغمت مالو وهي تتلفت حولها بتوتر "أظن ذلك.."

استدار الحكيم مغادراً تاركاً مالو تقف وحدها وسط الساحة وقد تعاظم توترها للأعين المحدقة بها..

كانت هذه هي المرة الأولى التي تزور فيها هذه القرى، وقد دهشت لمكانها الغريب وشكلها الأغرب.. بعد لحظات من الصمت والتوتر، شعرت بشيء يلمس ساقها بشكل أفزعها وهي تقفز في مكانها.. التفتت للأسف لترى ذلك الجرو الذي اقترب منها متشمماً ساقها بفضول ظاهر، فيما اقترب صبيٌ منها متسائلاً "من أنت؟"

أجابت مالو وهي تركع مادة يدها بحذر نحو الجرو "أنا مالو.. مساعدة الحكيم.."

تساءل الصبي من جديد "ومن هو الحكيم؟"

لم تجد ممانعة من الجرو وهي تمسح على فرائه برفق قائلة "الحكيم هو رجلٌ يمتلك علماً غزيراً ويتقن السحر، كما أنه يلمّ بأمور هذا العالم كله دون أن يغادر منزله.."

تتالت أسئلة الصبي عليها عن الحكيم.. وكيف يفعل كل هذا.. وهل كانت قادرة على فعل الأمر ذاته.. لكنها لم تقدر على إجابته وهي ترى عدة جراء تركض نحوها وتقترب منها تتشممها بحذر..

استمتعت مالو بوقتها مع الجراء وهي تمسح على فرائها وتحك بطنها برفق، ولم تلبث الجراء أن تكالبت عليها بحماس ونشاط وعبث خشن بعض الشيء.. لكن مالو لم تمانع ذلك وهي تضحك بسرور وتشاركها العبث لبعض الوقت.. ولم تدرك كم طال بها الوقت وهي مع الصبية والجراء حتى سمعت صوت الحكيم يقول لها "هيا بنا يا مالو.."

استقامت مالو واقفة على الفور، وسرعان ما تبعت الحكيم الذي غادر هذه القرية البسيطة كما جاء.. تراكضت الجراء خلف مالو لبعض الوقت حتى حدود الغابة، عندها كفت عن اللحاق بها وهي تراقب

غيابها ومالو تلوح لها بابتسامة.. علق الحكيم قائلاً "يبدو أنك استمتعت بوقتك هنا يا مالو.."

قالت مالو بابتسامة "إنها جراءٌ لطيفة.. والصبية رغم كثرة تساؤلاتهم إلا أنهم لطفاء ومرحون كثيراً.."

فقال الحكيم وهو يتوغل بين أشجار الغابة "هذا جيد.."

سارت مالو خلفه للحظات بصمت، ثم تساءلت "هل انتهينا مما جئنا لأجله؟"

أجاب الحكيم بابتسامة "أجل.. لقد حصلت على الموافقة للعرض الذي عرضته.. وهذا يلقي نصف الهمّ عن كاهلي.. والآن، سنذهب لوجهتنا الأصلية دون إبطاء.."

لم تعلق مالو على قوله.. فقد اعتادت على إجابات الحكيم التي لا تشبع فضولها، وعلى كرهه للاستفاضة في الأسئلة والحديث.. لذا تبعته بصمت متوغلة في الغابة المظلمة دون وجل هذه المرة..

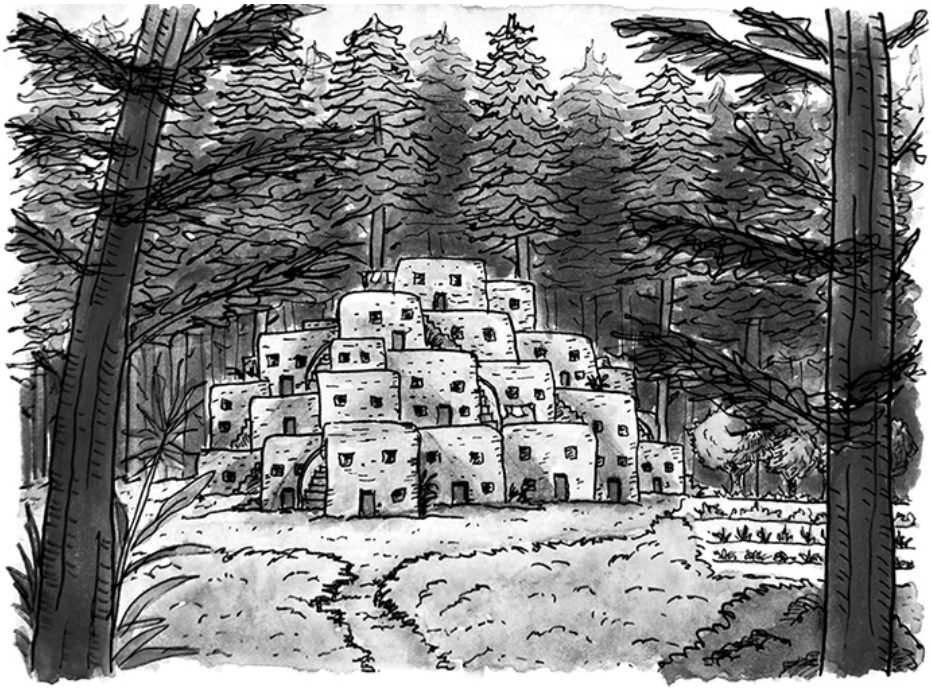

الفصل الرابع عشر: ضوء وظلمة

تلك الليلة، غادرت سولينا للصيد تاركة البقية يعسكرون في المكان تأهباً لقضاء الليلة في العراء.. كانوا قد وصلوا لنهاية الغابة، حيث عسكر جاد مع الكاهنة قريباً منها بانتظار صباح اليوم التالي.. فيما فضّل أوس ورفاقه قضاء الليلة وسط الأشجار التي قد تخفيهم عن عيني الكاهنة وعن إحساس جاد المرهف بوجودهم.. وللسبب ذاته، اضطروا للاكتفاء بقضاء الليلة دون إشعال النيران لئلا يجذب ضوؤها أو رائحة دخان الأخشاب الانتباه إليهم..

وبعد مرور بعض الوقت، كانت تيما تتذمر بالفعل وهي تفرك ذراعيها بحثاً عن بعض الدفء "ما فائدة ما نفعله هذا كله؟.. البرد شديد هنا، وفوق هذا نحن مضطرون للبقاء دون نيران تدفئنا.. أتنوي قتلنا جميعاً؟"

قال أوس "لا أريد جذب انتباه ذلك الرجل.. سيحاول الهرب بها فور إدراكه لوجودنا، وأنا أريد تفادي هذه اللحظة قدر استطاعتي.."

فقالت تيما بحنق "لِمَ لا تبقَ أنت لمراقبتها طوال الليل ونعسكر نحن في موقع أبعد؟.. أكاد أتجمد من البرد يا هذا.."

علق إيار في تلك اللحظة "هذه فكرة جيدة.. لو تعمقنا في الغابة، فلن يلتقط الغول رائحة النيران بسهولة.. ويبقى شخص واحد لمراقبة الطفلة حتى الصباح.."

سمعوا صوت جسد يرتطم بالأرض، ولاحظوا سولينا التي اقتربت رامية صيدها قربهم وهي تقول "هذه فكرة جيدة.. لكن من سيقدر على مراقبتها طوال الليل؟.. هذا عسير خاصة مع ذلك المجهود الذي بذلناه طوال النهار في ملاحقتها.."

قال إيار معلقاً "أنا معتاد على قضاء الليل مستيقظاً، لذا يمكنني مراقبتها من فوق الأشجار القريبة حتى مطلع النهار.. لكني سأكون عاجزاً بعدها عن اللحاق بها معكم حتى آخذ كفايتي من النوم.."

هز أوس رأسه موافقاً وقال "هذا جيد.. يمكنك أن تلحق بنا غداً بعد أن تنال قسطاً وافياً من النوم،

وستدلك رائحتنا على الطريق الذي سلكناه.. ستسدي لنا خدمة كبيرة بهذا يا إيار.."

اعترضت تيما بشيء من العصبية "أأنت أحمق؟.. لقد قمت بملاحقتها طوال اليوم، وحاولت اختطافها لتفشل فشلاً ذريعاً.. وأدركت من لقائك بها أنها ما عادت تلك الطفلة التي كنت ترجو إعادتها لعالمها.. فما الذي يدفعك للاستمرار في هذا الطريق؟.. متى ستيأس من هذا الجهد المبذول عبثاً؟"

قال أوس بضيق "أنت لا تعاونينني في أمر.. فلمَ التذمر؟.."

قالت بحدة "لستُ هنا لأعاونك على هذا الجنون.. أنت وعدتني أن تعاونني، وقد أخلفت وعدك فور أن لمحت ظل الطفلة يغادر القلعة.. فمتى ستيأس وتعود معي لذلك العجوز؟"

صاح أوس محتداً رغماً عنه "لقد سئمت من محاولتك تسييري كيفما تشائين.. منذ اللحظة التي رأيتك فيها، وأنت تحاولين جرّي لما يخدم مصالحك أنت.. ومازلت تحاولين ذلك بكافة السبل.."

صاحت تيما بدورها "مصالحي؟.. وما مصلحتي في جرّك بعيداً عن الخطر؟.. ما مصلحتي في منع بضع مجانين من قتل أنفسهم دون داعٍ؟.. مصلحتي هي على بعد مئات الأميال من هذا المكان.. فما الذي جاء بي هنا برأيك؟"

قال أوس بحنق "وما أدراني؟.. لو كنت ترفضين المعاونة، فأقل ما تفعلينه هو الصمت بدل الهزء بكل ما نفعله.."

شدّت تيما قبضتي يديها بقوة وهي تقول بغيظ "ليتني صمتّ منذ اللحظة الأولى.. ليتني لم أتدخل في أمور رجل أحمق مثلك.. لا أندم على شيء قدر ندمي لمنح أمورك بعض الاهتمام من جهتي.."

وحلقت مبتعدة نحو أعلى شجرة في المكان، فرمت جسدها على أعلى فروعها عاقدة ذراعيها وحاجبيها وهي تدير رأسها بعيداً عنهم.. زفر أوس بحدة وهو يجلس جانباً، فعلقت سولينا أخيراً "ألم تكن قاسياً بعض الشيء؟"

قال أوس بحدة "أنت تتشاجرين معها في كل لحظة وحين.. فلمَ تتهمينني بالقسوة الآن؟"

هزت سولينا كتفيها قائلة "كلماتي لا تؤثر في تيما، فهي تكرهني بالفعل وتكره كل ما يبدر مني.. أما أنت، فأظن كلماتك قد أثّرت بها أكثر مما يجب.. ربما كان عليك الاعتذار عن ذلك في وقت لاحق.."

علق أوس بجفاء "ستعود من تلقاء نفسها كما يحدث في كل مرة.."

غمغمت سولينا "ربما.. وربما تسوء الأمور فوق ما تتصور.."

ثم نظرت إليه متسائلة بفضول "لكن حقاً.. ما الذي جرى بينكما في أول لقاء لك بها؟.."

لم يكن ذلك يوماً عادياً.. أدركت ذلك منذ اللحظة التي وطأت فيها قدماي الغابة الكثيفة التي تسكنها قبائل (الريبال)، والتي هي موطني منذ وعيتُ الدنيا.. فمنذ الخطوات الأولى، شممتُ رائحة دماء قوية وصلت لأنفي الحساس.. كنتُ عائداً من إحدى رحلاتي السرية التي لا يعرف عنها أي أحد من الريابلة ولا حتى أبي وهو زعيمهم.. كان النور قد شق الأفق، ورائحة الهواء المحملة برحيق الحياة التي بدأت تنبض من حولي كانت تنعش حواسي كلها.. ولم يعكر صفوها إلا رائحة الدماء الثقيلة على أعصابي، وللدهشة كان مصدر الرائحة موقعاً فوق رأسي..

رفعت رأسي للشجرة السامقة القريبة متوقعاً رؤية طائر من الجوارح يلتهم صيده لكني بهتّ وأنا أرى ذلك الكائن الذي حلّ على الشجرة ينظر لي بابتسامة.. ظللت أنظر له دون أن أملك دهشتي وانبهاري بما أراه فقد كانت تلك هي المرة الأولى التي أرى فيها كائناً من شعب (الفيي). كانت بهيئة امرأة جميلة ولا يزيدها جناحا اليعسوب بلونهما الأخضر اللامع إلا جمالاً.. عيناها الواسعتان الخضراوان تجذباني بشدة وأنا أحدق فيها متجمداً في موقعي.. فيما خلبت تلك الابتسامة لبي وأطارت عقلي للحظات طوال.. ولم أفطن في تلك اللحظات لأي أمر سواها..

بعد أن لاحظت افتتاني بها، اتسعت ابتسامتها الواثقة وهي تهبط نحوي طائرة بنعومة لتحلّ أمامي بكل هدوء.. بدا أنها معتادة على هذا الافتتان، وقد ابتسمت بثقة وغرور وهي تسأل بنعومة "أنت أوس.. أليس كذلك؟"

وكأن صوتها قد أيقظني من غيبوبتي المؤقتة وأعاد لي النطق، فقلت بانبهار "أأنت ساحرة؟"

ضحكت تلك الفاتنة ضحكة ذكرتني بتغريد عصفور عذب، ثم قالت وهي تعبث بخصلات شعرها "لا.. لكني أوشك أن أكون كذلك.."

ظللت منبهراً بها، فأنا لم أرَ من يماثلها جمالاً، لا في عالم الأطياف ولا في عالم البشر.. لكن لم تكن لي خبرة بشعب (الفيي) لذا لا أدري إن كانوا جميعاً بهيئة مماثلة، أم أن هذه الفتاة مميزة بينهم.. ثم وجدتها تتقدم مني خطوة وهي تقول "الأهم من ذلك.. أريد الحديث معك.. أنت لن تمانع.. أليس كذلك؟"

ظللت أنظر لها بصمت وأنا مغيّب في ما أراه، فيما أضافت هي بابتسامة واثقة "ما رأيك بقتل رجلٍ عجوز؟"

رغم أن جملتها تلك وصلت لأذنيّ باهتة في البدء، لكني في لحظة استوعبتُ ما سمعته، وأفقت من كل ما شعرت به وبدأت أنظر لها بجدية.. لقد لاحظت أول ما لاحظت فيها رائحة الدماء التي تفوح منها بشكل واضح.. هي ليست كائناً خيالياً جميلاً كما بدا لي لأول مرة.. وهي ليست بالبراءة والعذوبة التي تدّعيها.. هذا كائن يتغذى على الدم.. وإن أضفنا لذلك الاستنتاج عرضها الغريب بقتل رجل عجوز، فإن هذا قد أزال الغشاوة التي غطت عينيّ في اللحظات السابقة، فنظرت لها مقطباً قائلاً "من أنتِ؟.."

منحتني ابتسامة فتانة وهي تقول "وما أهمية هذا السؤال؟"

قلت بصرامة وقد استشعرت خطورة وجودي مع امرأة مثلها "من أنت يا هذه؟.. أجيبي حالاً.."

مطت المرأة شفتيها وقد أدركت أن افتتاني بها قد زال، ولن تقدر على استغلالي أكثر من هذا.. فقالت بشكل مباشر "أنت أتيت من عالم البشر.. أليس كذلك؟"

عندما رأيته يسير بين الأشجار بخطوات خافتة ليس لها صوت، كنت واثقة أنه هو من انتظرته.. رغم أني لا أعرفه لكني كنت أعرف أنني سأعثر عليه في هذا المكان، وفي هذا الوقت بالذات..

كان افتتانه بي معتاداً وأمراً أَلِفته في ملامح كل من وقعت عيناه عليّ.. ورغم تكرر ذلك، لكن لم يقلل ذلك من استمتاعي برؤية ذهوله ودهشته.. صحيح أن عيناي تعيناني على سحر كل من يراني بقوى أجهلها أنا نفسي.. لكنني أدرك أن هذه الحالة لا تنطبق على هذا الرجل.. فمّما جمعته من معلومات تخص الريابلة، تأكدت أنهم قبائل منيعة على أي سحر أو قوى سحرية تستلب إرادتهم.. إذن افتتان هذا الرجل

بي كان خالصاً لجمالي، وليس لقدراتي أي دخل فيه.. لكن هذا لم يقلل من ثقتي، ولم يحجمني عن التحدث معه بشكل مباشر وصريح دون أي لف أو دوران..

كانت صدمته عنيفة لمعرفتي بخبر تسلله عبر طريق الأطياف، وهو الذي افترض أن هذا الأمر سيبقى سراً لوقت طويل.. نظر لي أوس بصدمة كبيرة، فيما قلتُ متممة على سؤالي الذي لا يحتاج إجابة لتأكيده "لقد سمعتُ أنك دائم الانتقال لعالم البشر بين وقت و آخر.. هذا أثار حفيظة رجل عجوز يسمّي نفسه الحكيم.. ومما يبدو لي، أنه ينتوي الوشاية بأمرك لأفراد قبيلتك.."

قال أوس باستياء عارم متجاوزاً صدمته الأولى "كيف علمتِ بكل هذا؟.. ومن هو ذاك الحكيم؟"

قلت بابتسامة "لقد وصلني حديثه مع مساعدته بالصدفة منذ أيام قليلة.. لذا جئت إليك لتحذيرك.. ولإجراء صفقة صغيرة معك.."

ومِلت نحوه لتأكيد فكرتي مضيفة "ما رأيك بقتل الحكيم؟.. هذا يريحك من تدخله في أمورك، ويحقق لي غرضاً صغيراً في نفسي.."

كانت الكلمات التي يسمعها مني تصدمه بشدة، وبدا أنه غارقٌ في التفكير عن إجابتي.. فقلت لإخراجه من دوامة أفكاره "إذن.. ما رأيك؟.. هل اتفقنا على هذا الأمر؟"

قال أوس بصرامة مفاجئة "لستُ أحمقاً لأطيعك بدون تفكير.. وما قد يفعله الحكيم من إثارة للفتنة بيني وبين قبيلتي لا يستدعي القتل بالضرورة.."

قطبت شيئاً ما قائلة "إذن هل ستصمت على ما يجري؟.. لم لا تضرب ضربتك الآن قبل أن يصل الحكيم لقبيلتك ويحشد صدورهم ضدك.. ما الذي يدفعك للاستسلام بهذه الصورة؟"

صمت أوس مقطباً، فقلت بإلحاح وأنا أقترب منه خطوة "صدقني هذه أسرع وسيلة لإيقاف هذه الفتنة قبل أن تشتعل.. أنت تعلم أن أفراد قبيلتك لن يعاملوك باللطف الكافي عند معرفتهم أنك تكسر أحد أقدس قوانينهم.. أليس كذلك؟.."

وتقدمت خطوة أخرى وأنا أثبت عيني في عينيه في محاولة للتأثير عليه مغمغمة "لن يكون الأمر عسيراً حقاً.. ألا تظن ذلك؟.. إنه رجل كبير في العمر وقد عاش عمراً طويلاً على هذه الأرض، ولا همّ له إلا إثارة

الفتن في عالمنا هذا.. قتله سيحقن الكثير من الدماء.. ألستَ معي في هذا؟"

كان ما أسمعه أكثر من طاقتي على الصبر.. ما الذي دها تلك المرأة الغريبة؟.. صحت بها بغضب بعد جملتها الأخيرة "كفى.."

تطايرت بضع عصافير من المكان مرتعبة للصوت العالي المفاجئ، فيما لم تبرح المرأة موقعها وهي تنظر لي بنظرة تحدٍ واضحة.. لكن كل ما أردته في تلك اللحظات هو بعض الصمت لأنشغل بأفكاري التي احتشدت كدخان أسود في رأسي.. من هو ذاك الحكيم؟.. وكيف علم بتسللي لعالم البشر مرة كل بضع أيام؟.. بل ما الذي يهدف له من إبلاغ الربابلة بما أفعله؟.. إنني لم أتسبب لأحد بأي ضرر، وليس هدفي إثارة الفساد في عالم البشر.. فما الذي يدفع ذلك الحكيم لاعتراض طريقي بهذه الصورة العدائية؟.. ثم ما الذي تهدف له هذه الفتاة بقتل هذا العجوز؟..

لم تعلق المرأة على غضبي المفاجئ، بل قالت بابتسامة جانبية تحمل سخرية واضحة "قد تندم على هذا بأسرع مما تتوقع أيها العنيد.."

لم أجبها وأنا ألتفت خلفي ببطء.. لم أكن بحاجة لتتبع نظرتها لأرى ما تراه بل وصلتني الرائحة التي أعرفها تمام المعرفة بوضوح، وأنبأتني باقتراب تلك المجموعة من الرجال ووقوفهم خلفي.. وهناك، في صف طويل خلفي تخللته أشجار الغابة الكثيفة وقف عدد من الرجال لا يقل عن عشر، ينظرون لي بنظرة حادة يلتمع الغضب فيها بوضوح.. تجاهلت المرأة التي تسللت مبتعدة قبل أن تساق لفوضى لا دخل لها بها، فيما قلت بلهجة حاول جعلها عادية "ما الأمر؟.. ما سبب اجتماعكم هنا لانتظاري في مثل هذا الوقت؟.. أهناك ما جرى في القرية؟.."

تقدم أكبر الرجال عمراً عن البقية وهو يقول "أين كنت؟"

كانت لهجة منذرة بتهديد واضح، رغم أنه بدا كمجرد سؤال عادي.. استدرت مواجهاً محدثي وأنا أقول "وما المهم في رحيلي أو عودتي لتواجهوني بهذه الطريقة بعيداً عن القرية يا أبي؟"

ظل أبي ينظر لي بنظرة صارمة دون أن يبدو عليه أي سرور بهذا الرد الذي لا يجيب على سؤاله، فيما اندفع شاب من بين الجموع يقول بحنق واضح "أتحاول السخرية منا؟.. أهذه وسيلة لمخاطبة كبيرنا بهذه الصورة التي تخلو من أي تهذيب؟"

قلت باعتراض فاتحاً ذراعي على اتساعهما "كيف أجيب على سؤال لا معنى له؟"

قال أبي بصرامة مكرراً سؤاله "أين كنت يا هذا؟.."

لم يكن أبي يحدثني بهذه اللهجة إلا عندما يكون الأمر يتجاوز كل الحدود، وهذا يعني أن غضبه أكبر من أن أتجاوزه بسهولة.. ورغم ذلك حاولت تفادي هذا الجدال وأنا أتقدم منه وأضع يدي على كتفه قائلاً "لنعُد للقرية يا أبي.. وهناك ستعرف كل ما تريد معرفته مني.."

لكن بدا أنني قد قلّلت من حجم الغضب الذي يشعر به إذ وجدته يدفعني دفعة قوية وهو يقول بشدة "أتستهين بي وبالرجال وتستغفلنا فيما تتسلل كل ليلة دون علمنا؟.. أظننت أننا سنجهل ما يجري لوقت طويل؟.. أم ظننت أننا سنعاملك بلطف وتفهم بعد أن نعرف بالفعل؟.."

قلت بشيء من الانفعال "وما الذي تتهمونني به؟.. أنا لا أفهم شيئاً.."

قال الشاب الذي تحدث سابقاً بصرامة "ألست تجتاز طريق الأطياف متسللاً للعالم الآخر بين يوم و آخر؟.."

صمتُّ بصدمة وشيء من الاعتراف الضمني لهذا الاتهام.. لم تكن مفاجأتي بمعرفة المرأة لهذا الأمر أكبر من مفاجأتي بمعرفة أبي وبقية الرجال له.. عندها قال أبي بغضب وشدة "كيف تفعل ذلك؟.. كيف تتجاوز أقدس قوانيننا بهذه السهولة؟.. كيف تستغفلنا وأنت ابن كبير القرية؟.. أأنت من يفعل ذلك؟!.. هذا ما لم أصدقه عندما سمعته بالفعل.."

صدرت مني ضحكة خافتة وصلت لسمع أوس بوضوح.. بدا أن ذلك المدعوّ بالحكيم قد سبقني بخطوة واستطاع تأليب رجال القبيلة على هذا الرجل.. لكنه يستحق.. لو أنه صمت قليلاً واستمع لي، لربما

استطعنا الوصول لحلّ أكثر فاعليه من هذه المواجهة المحتومة بينه وبين أفراد قبيلته.. بقيت أراقب الموقف فيما عاد أوس للحديث بهدوء محاولاً تهدئة غضب الرجال "ومن أخبركم بهذا الكلام؟"

أجاب رجل آخر بصرامة "لا شأن لك في الوقت الحالي.. أنت لا تنكر هذا الاتهام، وهذا أكبر دليل على صحته.. رغم أننا لسنا بحاجة لدليل بالفعل.."

عقد أوس ذراعيه على صدره وهو يقول مقطباً "هل من جاءكم بهذا الخبر هو الحكيم؟.."

قال الكبير بغضب "لا تحاول استجوابنا وأجبني.. ما الذي تفعله في العالم الآخر؟.. لماذا كسرت الحظر المقام على قبيلتنا لتجاوز ذلك الطريق والاختلاط بسكان ذلك العالم لقرون طويلة؟.."

رفع أوس بصره لي باتهام ضمني.. هل يتهمني لأنني لم أنذره في وقت أبكر؟.. لكنه يستحق ما سيواجهه بسبب معاملته الجافة لي رغم سعيي لتحذيره.. وفي تلك اللحظة فوجئ أوس بضربة قوية تصيب رأسه وصياح أحد الرجال يقول غاضباً "لا تتجاهلنا أيها الوغد.."

سالت بعض الدماء من جرح أصاب رأس أوس، فأغرق جانباً من شعره الأبيض القصير، وبدا اللونان متباينان بشدة ووضوح، فيما نظر أوس إلى مهاجمه وهو يقول بحنق امتزج ببعض الغضب "هل تصدقون بضع كلمات مدسوسة على كلامي أنا؟.. أكلمات ذلك الرجل تبيح لكم معاملتي بهذه الطريقة الدونية واتهامي كأي مجرم وضيع؟"

قال الرجل الذي هاجمه بصلافة "بل أدنى من ذلك.. أنت تدرك عاقبة كسرك لقوانيننا، وكونك ابن كبيرنا يجعل جرمك أكبر وأكثر تأثيراً.. لذا الحكم الذي صدر بحقك لا يمكن الرجوع عنه.."

قال أوس بغضب "هل جرمي هذا يستدعي منكم مهاجمتي بعيداً عن القرية دون محاكمة ودون قوانين؟"

قال الكبير في تلك اللحظة بقوة وحزم "أنا القانون.. وما أقرره يسري في أي مكان من هذا العالم.."

ساد صمتٌ ثقيل الوقع حولي.. بدا التحفز جليّاً على وجوه الرجال الذين كنتُ أعتبرهم أهلي وعزوتي.. بدا استعدادهم للانقضاض عليّ واضحاً، وبدأ بعضهم يخطو خطوات منذرة نحوي توحي بأن عاقبتي لن تكون

كما أرجو.. تداركت الأمر قبل أن يندلع القتال بالفعل، وصحت وأنا أحاول إيقاف الدماء المتصببة من رأسي "أنتم لا تريدون أن تسمعوا إنكاري للأمر.. فقد صدر حكمكم بالفعل.. هذا صحيح.. لقد دأبتُ على الرحيل لعالم البشر منذ شهر ونصف تقريباً.."

صدرت زمجرة من أحد الرجال القريبين بغضب واضح، وبدأ بعضهم يتحول لذئابٍ بالفعل.. لكنني تراجعت مجدداً وأنا أصيح لافتاً انتباه البقية "لكني لا أرى سوءاً فيما أفعله.. ولستُ أفعل ذلك عابثاً.."

قال الكبير بغضب شديد "كيف تجد أنك لا ترتكب سوءاً بكسر قوانيننا؟.."

قلت بحدة "ماذا عن عمْرد؟.. هل نسيتموه بهذه السرعة؟"

تبادل الرجال النظرات، بينما قلت بحنق لم أملكه "لم يمضِ على اختفائه أكثر من شهرين.. لكن لم يكلف أحدكم نفسه البحث عنه طوال هذه المدة.. هل تم شطبه من قبائل (الريبال) بهذه السرعة؟.. هل أصبح اسمه منسيّاً بسهولة؟"

قال رجل بغضب "أنت تعلم السبب الذي دعانا للكفّ عن البحث عنه.. إنه خائن، وجرمه لا يقل عن الجرم الذي ارتكبته أنت.."

بينما اكتمل تحوّل العديد من الرجال حولي، فإنني بقيت بهيئتي العادية صامداً أمامهم.. رغم أن هذا سيجعلني في موقف الأضعف عندما يندلع القتال بالفعل، لكنها كانت علامة على عزوفي عن الاشتباك معهم، في محاولة أخيرة لكسب تعاطفهم.. ثم قلت وأنا أحاول إيقاف الدماء التي سالت على وجهي "إنه ليس خائناً.. لن يكون كذلك قبل أن نعرف السبب الذي دفعه للرحيل لعالم البشر سراً.. لا يمكن أن يفعل ذلك ويكسر قوانيننا دون سبب معقول.. كما كان السبب الذي دعاني لفعل الأمر ذاته مهماً بالنسبة لي وهو البحث عن صديقي ومحاولة معرفة سبب اختفائه المفاجئ طوال الشهرين الماضيين.."

قال أحد الرجال وهو يتقدم مني بسخرية "ربما قتله صياد من البشر ولاقى الجزاء الذي يستحقه.."

قلت بغضب "كيف يمكنكم قول ذلك؟.. لماذا تشمتون بما حدث له عوض القلق لأمره؟.."

صاح أحد الرجال "أنت تكثر الحديث.."

وقفز نحوي مطوّحاً مخالبــه الحادة، لكني تفاديت الضربة بسرعة وأنا أجد آخر يندفع نحوي بحماس واضح..

سارعت لركل الذئب الذي اقترب مني قبل أن أستدير راكضاً لمسافة محدودة.. كنت أريد اكتساب بعض الوقت بهربي هذا حتى أستطيع التحول دون أن أواجه هجومهم.. فلم يعد هناك أي مجال للحديث والوصول لتفاهم معقول معهم.. وفور أن اكتمل تحولي، استدرت لملاحقيّ وأنشبت أنيابي في جسد أحدهم وأنا أدفعه بعيداً.. واستدرت لآخر متفادياً ضربة منه بشق الأنفس فيما نالني آخر بنهش ساقي بغفلة مني..

استعرّ القتال بيننا وتلاحم الجميع متآزرين عليّ دون أن أمكنهم من نيلي والقضاء عليّ.. ومن مبعدة، وقف كبير الريابلة.. وقف أبي.. يراقب ما يجري بصمت ودون انفعال.. لم أتوقع قط أن يسعى لإصدار حكمٍ قاسٍ عليّ وهو أدرى من الجميع بما يعنيه عمرد لي.. ظننت وأنا أتسلل لعالم البشر أن ذعري لما جرى لعمرد، وقلقي عليه قد يغفران لي عند أبي ما فعلته.. لكني كنت واهماً..

ويبدو أنني سأظل واهماً لوقت طويل قبل أن توقظني أنيابهم ومخالبهم على الحقيقة المؤلمة..

لم تكن الأمور أيسر على هذا الرجل مع كل لحظة تمضي.. بقيتُ في موقعي أراقب المعركة بشغف بالغ واستثارة مع رائحة الدماء التي وصلتني بوضوح.. ما طعم دماء الريابلة؟.. هل له ميزة تختلف عن دماء باقي الكائنات؟.. ربما تمكنت من امتلاك خاصية حصينة ضد التعاويذ السحرية مثلما يمتلك الريابلة لو أنني شربت دماء أحدهم..

انتبهت في تلك اللحظة لذلك الفتى، أو في الواقع لا يمكن إطلاق عليه أكثر من وصف طفل، وهو يقترب من المعركة الضارية القريبة.. بدا متحمساً للمشاركة، واستغل انشغال الرجال عنه وعن ردعه عما ينتوي فعله.. بدأ يتحول لذئب كالبقية واندفع كالصاروخ بخفة نحو أوس مشاركاً في الهجوم عليه.. رغم أن أحد الرجال انتبه إليه وصاح به أن يبتعد، لكن كان ذلك متأخراً جداً.. لم يدرك الطفل أنه أخطأ بهذا التصرف، وأنه ليس ندّاً لما يجري حتى وجد أنياب أوس تغوص عميقاً في عنقه الصغير..

صدرت شهقة صغيرة من الطفل، فانتبه أوس لما يفعله وبدا أن الغشاوة التي غطّت عينيه وجعلته يهاجم من حوله دون تمييز قد زالت بسرعة.. هدأ غضبه وانطفأت حماسته للقتال، وهو ينظر للجسد الذي سقط

يتخبط في دمه.. حاول الطفل الوقوف على أقدامه التي استحالت ألين من عجين قبل أن يسقط من جديد أرضاً..

وقف أوس ينظر بصدمة للطفل المصاب والدماء تسيل من شدقيه لكن وقوفه ذاك كلفه غالياً، وكان أكبر خطأ ارتكبه في هذه المعركة.. اندفع أحد الذئاب نحوه من جانب المكان، ويبدو أن إصابة الطفل قد أشعلت غضبه مضاعفاً، فضرب أوس ضربة قوية في عنقه جعلت دماءه تطيش ملطخة الذئب القريب وأوس يسقط جانباً.. لم يكد أوس يتعافى من سقطته تلك والدماء تلون بقعة واسعة على فروه الأبيض اللامع، والذئب الذي هاجمه يكمل هجمته بعضّ عنق أوس بأنيابه وهو يحاول رميه جانباً مضاعفاً آلامه أضعافاً مضاعفة.. لكن صيحة من كبيرهم قد أوقفت الذئب وبقية الذئاب، وساد الصمت في المكان متناقضاً مع الأصوات المتوحشة التي تعالت قبلها بلحظات معدودة.. وبدا أن ذلك الرجل في أسوأ حالة ممكنة.. لذا تراجعت مبتعدة بعد أن أيقنت ألا فائدة تذكر من وجودي هنا..

لم يعُد لهذا الرجل أي فائدة لي.. وعليّ الآن التفكير في وسيلة أخرى للحصول على مرادي..

كانت تلك المرأة نائمة.. هذا ما أدركته ساما في تلك اللحظات وسط الظلمة التي تعيش فيها.. فهي لا تقدر على سماع صوت رغم كل محاولاتها، ولا تشعر بتلك القيود التي تقيدها في المعتاد.. ربما كانت هذه هي فرصتها الوحيدة، خاصة أنها في هذا العالم المظلم لا تشعر بالنعاس ولا يراودها النوم مهما طال الوقت..

استجمعت ساما قواها وركزت تفكيرها في رغبتها برؤية ما حولها.. برغبتها في استعادة سيطرتها على جسدها وعودة وعيها لها كالسابق.. في البدء، بدا أن ذلك صعبٌ وغير يسير بحيث كادت تفقد الأمل سريعاً.. لكنها لم تكن تملك ما تفعله خيراً من هذا، فكررت المحاولة من جديد بإصرار أشد وتركيز أكبر، وهي تغمض عينيها بقوة مدمدمة "سأعود كما كنت.. سأعود كما كنت.. لابد أن أعود.."

فتحت عينيها فجأة، فرأت السهول المظلمة حولها والأشجار العالية القريبة منها والقمر ينير صفحة

السماء.. ندّت عنها صيحة فرح لتحقيقها هذا الإنجاز، دون أن تتأكد إن كان نجاحها هذا سيدوم أم أنه مؤقت.. لاحظت ذلك الرجل طويل القامة مخيف الملامح قريباً منها، وانعكاس النار على ملامحه لا يجعلها أكثر لطفاً أو سماحة.. نظر لها الرجل بنظرة ثاقبة متسائلاً "أأنت بخير؟"

تراجعت للوراء بظهرها بقلق واضح، عندما تذكرت أنها سمعت صوته سابقاً.. كان هذا هو الرجل الذي تسمع صوته منذ عدة أيام، والذي يبدو أنه يرافق تلك المرأة كحارس شخصي منذ غادرا تلك القلعة.. أهذا يعني أنه لا ينوي بها شراً؟..

صمتت ساما للحظة متأملة ما حولها.. ما الذي عليها فعله الآن؟.. كيف تتخلص من المرأة التي تسكن أعماقها وتسيطر عليها؟..

رمشت بعينيها للحظة، ولما فتحتهما فوجئت بالسواد يغلف المكان من حولها مرة أخرى.. صاحت ساما بهلع، ودارت حول نفسها مرات وهي تصيح "لا.. لا.. ليس بعد.. لا أريد أن أعود لهذا العالم بعد.."

لكن لم يكن لرجائها أي فائدة وهي تسمع تذمر المرأة الحانقة.. فتهاوت ساما أرضاً وانطوت على نفسها دافنة وجهها بين ركبتيها بصمت.. لقد هزمت بسرعة كبيرة، أسرع مما توقعت عندما بدأت محاولتها هذه.. ما الذي أخطأت به؟.. وكيف لها أن تستعيد نفسها وجسدها بشكل دائم؟..

في تلك الأثناء، لاحظ جاد دمدمة الكاهنة الحانقة وهي تمسك رأسها بيدها، فتساءل "ما بالك؟.. كان وجهك يشعّ سروراً منذ لحظة فقط.."

قالت بحنق "لا شأن لك.."

وعادت تستلقي على جنبها دون أن تجرؤ على النوم من جديد لبعض الوقت.. لقد بدأ الأمر يخرج عن السيطرة، واستعادت الفتاة جسدها للحظات قبل أن تنحّيها جانباً وتعاود هي الظهور من جديد.. إنها لم تجد حلاً لهذه المعضلة التي لم تواجهها سابقاً، وتخشى أن تتدخل في عملها عندما يحين اليوم الموعود الذي انتظرته سنواتٍ طوال.. فكيف لها أن تتدارك هذا الأمر قبل أن يستفحل؟..

استيقظت سولينا مع أولى ساعات النهار كعادتها.. فكان أول ما لاحظته هو جلوس تيما قرب النار وهي

تغذّيها بالأخشاب بين وقت وآخر متدفئة بدفئها.. كانت مطرقة تحدق في النار بصمت غريب عليها، ووجوم أغرب من كل ما سبق.. فاعتدلت سولينا جالسة وتساءلت بخفوت "هل عاد إيار؟"

هزت تيما رأسها نفياً بصمت، عندها قالت سولينا "إذن لا بد أن ذلك الغول لم يتحرك من موقعه.. علينا إيقاظ أوس والعودة لإيار قبل أن يفقد أثرهما.."

نظرت لها تيما بصمت وشيء من الاضطراب الواضح، مما أدهش سولينا التي لم ترها في مثل هذه الحالة قط.. وقبل أن تسألها عما بها، فوجئت بها تقف مطرقة للحظة، قبل أن تستدير مغادرة بصمت.. استوقفتها سولينا لسبب لا تدريه، وربما ساعد اضطراب تيما لإشعارها أنها ليست مغادرة للبحث عن الطعام.. فسألتها بقلق "ما الأمر يا تيما؟.. إلى أين أنت ذاهبة؟"

أجابت تيما دون أن تتوقف أو تستدير إليها "وما الذي يهمك في الأمر؟"

عقدت سولينا حاجبيها مجيبة "وهل رؤيتك بهذا الاضطراب تدفعني لعدم الاهتمام بالأمر؟.. ما الذي جرى لك؟.. وإلى أين تنوين الذهاب؟"

صمتت تيما وهي واقفة في مكانها لوقت طويل، وقبل أن تطرح سولينا سؤالها مجدداً سمعتها تقول بصوت مرير "سأذهب لحيث لا أعود أبداً.."

اتسعت عينا سولينا بدهشة، فيما أضافت تيما وهي تنظر لها بطرف عينها "لا أظن أوس سيعبأ لغيابي، لكن لو فعل، فأخبريه ألا يبحث عني.. فأنا مغادرة بلا عودة.."

هتفت سولينا بها "مهلاً.. ما الذي جرى حقاً؟"

لكنها كانت قد حلقت مبتعدة بأسرع ما تستطيع.. وسمعت سولينا صوت إيار يقول "ما الذي جرى؟.. صياحك سيلفت انتباه ذلك الغول.."

غمغمت سولينا بحيرة "لا أدري ما دها تلك الفتاة.. إنها تتصرف بغرابة تامة.."

استيقظ أوس في تلك اللحظة بهزة من يد إيار، فنهض متسائلاً بقلق "هل رحلا؟"

قال إيار "يكادان يفعلان ذلك.. عليكم أن تتبعوهما حالاً قبل أن يغيبا عن ناظريكما.."

وتثاءب بتعب واضح مضيفاً "سألحق بكم بعد أن أنال بعض الراحة.."

نفض أوس النعاس من عينيه وهو يهبّ بنشاط ويسرع لإطفاء النار المشتعلة، قبل أن ينتبه لسولينا التي

وقفت في جانب المكان ترمق الجانب المظلم من الغابة مقطبة.. فتساءل أوس "ما الذي جرى؟.. أين اختفت تيما؟.. هل تشاجرت معها أنت أيضاً؟"

قالت سولينا "لا.. لقد شاهدتها قبل وقت قصير وهي تتسلل مبتعدة.."

لم يكن ذلك غريباً.. لقد اعتاد أوس على اختفاء تيما بين وقت وآخر دون سبب معين.. أو لأقلّ شجار يحصل بينهما فيدفعها للرحيل غاضبة حتى يهدأ غضبها فتعود طواعية ودون أي تردد.. لذا لم يحمّل الأمر أكثر مما يحتمل وهو يقول "لا بأس.. لابد أنها غاضبة بعد ما جرى البارحة.. ستعود عندما يحلو لها ذلك.."

قالت سولينا "لا أظن ذلك.. لقد ذكرت بوضوح أنها لا تنوي العودة.. أتظنها عادت لقرى (الفيي)؟"

دهش أوس من رغبة تيما على الرحيل فجأة، وتسللها سراً دون إعلام أحد، لكنه لم يتعجب لذلك كثيراً كون تيما فضّلت طوال الأيام الماضية الانعزال عن البقية أغلب الأوقات.. فعلق قائلاً "ربما تكون كذلك.. وربما كان هذا أفضل للجميع.."

رمقته سولينا مقطبة، ثم قالت "أتقول هذا جاداً يا أوس؟"

تساءل بضيق "ماذا تعنين؟"

قالت وهي تعقد ذراعيها على صدرها "منذ رأيتك لأول مرة، لاحظت أنك لا تحيد بعينيك عن وجهتك مطلقاً مهما كان السبب، ولا ترى إلا تلك الطفلة.. ورغم أن الودّ مفقود بيني وبين تلك الفتاة الحمقاء، لكن لم يسعني ألا ألاحظ بضع أمور غفلت عنها أنت.."

نظر لها أوس بصمت ودهشة، وسولينا تضيف "ألم تلاحظ أنها بعد مغادرتنا البحيرة ولحاقنا بالطفلة، بدأت تيما تتوتر بوضوح؟.. لم تعد تسخر مما نفعله، وأصبحت أكثر عصبية وحدة في التعامل معنا.. ألم تربط هذا قط باقترابنا من قرى (الفيي)؟"

تساءل أوس بدهشة "أتظنين أنها شعرت بتلك العصبية بسبب قربها من موطنها؟.. المفترض أن تكون أكثر سعادة بعودتها.."

زفرت سولينا مجيبة "في الأحوال الطبيعية ربما.. لكن من يدري ما الذي أخرج تيما من قريتها؟!.. (الفيي) لا يغادرون موطنهم أبداً، وهم في عزلة شبه دائمة بحيث يكون رؤية فرد منهم شيئاً نادراً حتى لشخص اعتاد الترحال مثلي.. ربما كانت عزلة (الريبال) اختيارية، لكن عزلة (الفيي) جبرية فرضتها عليهم طبيعة

دمائهم وخشيتهم من تسلّط الشعوب الأخرى عليهم.."

صمت أوس مطرقاً يتذكر شجار تيما معه في الليلة السابقة.. يتذكر إصرارها على عودتها لمنزل الحكيم لتنهي مهمتها التي غادرت قريتها الآمنة لأجلها.. في هذه اللحظة انتبه أن عصبية تيما راجعه لارتباكها غير المعتاد والمخالف لطبيعتها.. لم تكن استماتتها في تلك اللحظات بالذات مجرد أنانية، بل ربما كانت محاولة يائسة منها لإتمام ما فشلت فيه قبل عودتها لقريتها، وقبل أن تواجه مصيراً لا يعلمان عنه شيئاً.. لماذا رفضت تيما التحدث عن نفسها وعن سبب قيامها بهذه المهمة بنفسها، رغم أن قيام رجل من (الفيي) بها قد يكون أكثر فعالية ونجاحاً منها؟..

تساءلت سولينا في تلك اللحظة بإصرار "ما الذي ستفعله الآن يا أوس؟.. هل ستتابع طريقك متجاهلاً أمر تيما ببساطة؟.."

"فشلت؟!.."

لم يكن ذلك تساؤلاً، بل تعليقاً بنبرة هازئة.. نظرت تيما لذلك الرجل الذي رغم نحول جسده إلا أن الخبث الذي ينبع من عينيه يمنحه حجماً أكبر من حجمه.. كانت تيما تقف على المنصة المنصوبة وسط القرية، حيث يجتمع فيها أحياناً بعض كبارها لمناقشة أمور القرية والإعلان عن قراراتهم لباقي الأهالي الذين يتجمعون عادة على أفرع الأشجار القريبة.. وكالعادة، كانت القرية كلها قد تجمعت حول تلك المنصة تراقب ما يجري..

التزمت تيما الصمت فيما قال الرجل "بعد هذه الغيبة الطويلة، جئت تبشرينا بفشلك؟.. وليست هذه المرة الأولى التي تفشلين فيها.. هذا يثير الخيبة حقاً.."

قالت تيما باستياء "لِمَ لا ترسل شخصاً أكثر قدرة مني على تحقيق ما تطلبه يا سامار؟.."

قال سامار بصرامة "لا يحق لك الاعتراض.. أليس كذلك؟"

أدارت تيما وجهها جانباً متأففة، فيما استطرد سامار "هذه كانت وسيلتك لنيل الغفران على ما فعلته.. ولكنك فشلت، فما الذي يمكنني قوله لأهالي القرية؟"

ونظر لمن حوله من الرجال والنساء مضيفاً "ما الذي يمكنك فعله للاعتذار عن تلك الفعلة الشنعاء التي ارتكبتها بحق الجميع؟"

قالت تيما حانقة "أنا لم أرتكب ذلك.. حتى متى عليّ ترديد هذا القول؟"

قال سامار هازئاً "لكنك مذنبة.. أتنكرين ذلك؟.. أم أنك تقترحين أن نوقع القصاص على تلك الفتاة البلهاء؟.."

ارتجفت تيما لقوله مصعوقة، فابتسم قائلاً بطيبة تمثيلية "لا تقلقي.. لسنا قساة القلب لهذا الحد.."

فقالت تيما بارتجافة "إذن أطلقني.. وابعث شخصاً أكثر قدرة على إنجاز هذه المهمة.."

استوقفها سامار وقال وهو يميل نحوها "مهلاً.. هناك أمرٌ آخر وجبت عليّ محاكمتك عليه.."

نظرت له تيما بصمت وضيق متوقعة أن يحاول جرّها بأكاذيب جديدة، فيما نظر سامار لها نظرة حادة وقال "علمت أنك سقيتِ شخصاً غريباً بعض دمائك.. أليس كذلك؟.."

غارت الدماء من وجه تيما بصدمة فيما تعالت شهقات الارتياع من البعض ونظر لها الآخرون بصدمة.. لم يكن ما فعلته يعدّ جريمة بالمعنى الحرفي، لكنه أمرٌ مستهجن وعُرفٌ من أعراف (الفييّ) لم يكسره أحدهم قط إلا فيما ندر.. همست تيما بضعف "كيف علمت بذلك؟"

قال بحزم "لي وسائلي.. أظننت أن أمرك سيظل خافياً علينا؟"

خفضت تيما بصرها باضطراب وسامار يقول بحدة "بمَ كنت تفكرين عندما قمت بذاك الفعل؟.. نحن نرفض منح دمائنا للكائنات الأخرى لسبب قوي.. ماذا لو قام ذلك الشخص، بعد أن رأى قوة تأثير دمائنا عليه، بمحاولة الحصول على المزيد منه؟.."

سارعت تيما لتقول "لن يفعل ذلك.. إنه يدرك أن الحصول على دمائنا ليس بتلك السهولة، والحصول عليها عنوة لن يفيده في شيء.."

قال سامار بصرامة "لكن هذا لا يعني أنه لن يحاول ذلك قط.. قد يعتقد أنه يستطيع إجبارنا بوسيلة من الوسائل.. وربما حشد بعض رفاقه وحاول الهجوم علينا في هذه القرية.."

تعالت همسات وتمتمات استياء من أفراد القرية وهم يرمقون تيما باستنكار، فيما نظر سامار لمن حوله مضيفاً بصوت واضح "وفي الحقيقة، فإن الشخص الذي قمت بمساعدته كان فرداً من (الريبال).. لمَ اخترت

ذلك الشخص بالذات يا تيما؟.. لماذا اخترت (الريابلة) الذين لا نستطيع السيطرة عليهم وتجميدهم كما نفعل بالكائنات الأخرى؟"

تزايد الاستهجان في عيون أهل القرية، فيما قالت تيما بارتباك "إنه لن يحاول إيذاءنا بأي صورة كانت.. أنا واثقة من ذلك.."

قال سامار محتداً "واثقة؟.. أهذا كل ما تملكينه لتبرير ما فعلته؟"

قالت تيما باضطراب أكبر "أجل واثقة.. إنه مدين لي لإنقاذي حياته.. ولن يسعى لإيذائي، أو إيذاء شعبي، بأي وسيلة كانت.."

ظل سامار ينظر لها بنظرة استهجان واضحة، فيما قالت امرأة عجوز من موقعها القريب من تلك المنصة التي أقيمت عليها المحاكمة "لِمَ يا تيما؟.. ما الذي دفعك لهذا الفعل الذي نستنكره ونستهجنه؟.. هل أجبرك على ذلك بوسيلة أو بأخرى؟.."

كان الإقرار بذلك يرفع عنها ملامة شعبها، وقد يمنحها البراءة بشكل سهل ويسير.. لكن تيما أبَت أن تكذب وتدّعي ذلك رغم الإغراء القوي، فقالت باندفاع "لا.. لم يجبرني على ذلك.."

تزايد استنكار العجوز وهي تقول "ما الذي دفعك لفعل ذلك إذاً؟.."

خفضت تيما بصرها بصمت للحظات، ثم استجمعت أنفاسها وقالت باضطراب "في تلك الساعة، رأيت لحظاته الأخيرة أمام عيني.. كانت حياته تتسرّب منه، وللدهشة لم يفقدها أثناء محاولته تحقيق غرض لنفسه.. كان يدافع عن طفلة لا حول لها ولا قوة.. وقد شهدت قبل سنة كيف طرد من قبيلته بعد أن سعى للبحث عن صديقه مخالفاً أوامر كبيرهم.. كل ما لاقاه ذلك الرجل كان نتيجة سعيه خلف أمر لن يجني منه أي مكسب.. بدا لي كل ما فعله حمقاً، وكأنه لم يعش تلك الحياة قط، ولن يذكره أحد بعد موته قط.."

وترقرقت عيناها الواسعتان بالدموع وهي ترفع بصرها للعجوز مضيفة بارتجافة "تذكرت نفسي، وما أنا عليه الآن بسبب اتهامات سامار لي وبغضكم لي.. رأيت أنني قد ألاقي النهاية ذاتها في يوم ما، وأن قومي لن يذكروننني إلا باللعنات بعد أن أقضي نحبي بالفعل.. لذا سعيت لتغيير نهايته مادمت أملك ذلك.. عسى أن يؤثر ذلك في تغيير واقعي.. وعسى أن يذكرني شخص بعد موتي ولو للحظة.."

مع حديث تيما وانفعالها، بدا بعض التعاطف في وجوه أهالي القرية من حولهم.. عندها اندفع سامار ليقول

بصرامة عابساً "أنت ارتكبت خيانة كبيرة يا تيما.. خيانة لن تمر مرور الكرام.. ولن يشفع لك كل ما ذكرته من حجج لا يصدقها عقل.."

كانت تيما تدرك مع كل لحظة تمضي ما يسوقها سامار إليه، وأدركت أنه ينوي توريطها بأي وسيلة كانت.. فصاحت محاولة كسب اهتمام الجمهور حولها "أنت تحاول إتهامي عنوة يا سامار.. تحاول أن تغطي على جريمتك أنت باتهامي.. أنت....."

فوجئت بتلك اللطمة التي أصابت وجهها ورمتها خلفاً بعنف حتى آلمها ظهرها من الارتطام، فيما قال سامار بغضب "لا تحاولي التنصّل من هذه الاتهامات بزجّي في هذا الأمر.. أنت مذنبة، ومن سيستمع لقول مذنبة ويصدق اتهاماتها؟.."

رفعت تيما بصرها فيمن حولها، فرأت بوضوح نظرات الغضب والاستياء العارم تحلّ محل التعاطف الذي لم يدُم إلا وهلة.. لقد تعمّد سامار فضحها أمام الجميع، لكيلا يصدّق أحدهم قولها لو حاولت اتهامه.. بخبثه أوقعها في المصيدة، وبغبائها فإنها انساقت له منذ البدء دون أن تكشف خديعته للآخرين.. والآن، فات الوقت على فعل ذلك، ولن يصغي أهل القرية الغاضبين لها مطلقاً مهما حاولت..

لم تكن قرى (الفيي) المزعومة تبعد الكثير عن موقعهم السابق.. بعد ركض متواصل لعدة ساعات بهيئة الذئب التي تمنحه خفة وسرعة غير عادية، تمكن أوس من رؤية تلك الغابة ذات الأشجار المدببة الضخمة من مبعدة.. فلم يتردد لحظة وهو يقترب منها بسرعة مدركاً أن النهار لم يبقَ منه إلا ساعات معدودات.. وهو أكثر من يدرك أن اجتياز الغابات الكثيفة مثل هذه أخطر في الليل منه في النهار بمراحل عدّة..

عندما أعلن أوس بعد تفكير طويل رغبته بالسعي خلف تيما والاطمئنان لما جرى لها، انفرجت ملامح سولينا عن راحة عميقة وهي تقول "كنت أعلم أنك لن تتخلى عنها الآن.."

وربتت على كتفه مضيفة "سألحق أنا وإيار بتلك الفتاة، وسننتظر عودتك، بها أو بدونها.. لو كانت بخير، فهذا جيد.. أما لو كانت بغير ذلك....."

أكمل أوس "لا تقلقي.. لن أتركها لو كانوا ينوون إيذاءها.. لكن أرجو أن تكون هواجسنا هذه بلا أساس

من الصحة.."

ورغم استيائه من فكرة تخليه عن ملاحقة الطفلة واستعادتها، لكنه لم يستطع تجاهل أمر تيما بضميرٍ خالٍ من الذنب.. إنه مدين لها بحياته، وربما بأكثر من ذلك.. لا يمكنه تجاهل أمرها، ولا يمكنه إلا السعي خلفها..

كانت الغابة الماثلة أمامه تختلف عن الغابات العادية في هذا العالم.. تتكون من أشجار ضخمة ذات جذوع سميكة لا يقل عمرها عن مئات السنين.. ورؤوسها المدببة ذات أوراق إبرية دقيقة بلون أخضر قريب من السواد، وقد ارتفعت تلك الأشجار لما لا يقل عن مائة متر وتراصّت تراصّاً كبيراً مكونة غابة شاسعة لا يكاد النور يتغلغل بينها إلا قليلاً..

وقف أوس لاهثاً للحظة عند مدخل الغابة، وهو يستعيد شكله العادي، قبل أن يتهيأ لا اختراق ذلك الحاجز الكثيف من الأشجار.. وفور أن فعل، بدا أن النور يتضاءل بسرعة كبيرة حتى بات شبه معدوم كلما سار في تلك الغابة.. لكن ذلك لم يشكل أي عائق أمامه وهو الذي يتمتع بقدرة كبيرة على الرؤية في الظلام.. سار بخطوات سريعة لا تخلو من حذر محاولاً الوصول لقلب الغابة، حيث قرى شعب (الفييّ) المندسّة.. لم يكن قد رآها قط، وكل ما يعرفه عنها أن الغرباء غير مرحب بهم فيها..

لم يكن استيطان الغابات بحثاً عن العزلة غريباً في هذا العالم، فالكثير من الكائنات تمارسه بشكل اعتيادي.. ومنهم الريابلة الذين استوطنوا غابات الجنوب بشكل دائم لا يكادون يغادرونها.. ولم يكن ذلك خوفاً من هجوم الكائنات الأخرى كما هو الحال مع (الفييّ)، لكنه انعزال عن هذا العالم ومشاكله وما قد يُزج بالريابلة فيه دون ذنب منهم..

سار أوس مخترقاً الغابة ملاحظاً أن الصمت قد عمّ المكان بشكل كامل مانحاً سكان الغابة عزلة تامة عما يجري خارجها.. ساد الصمت بشكل تام، إلا من بعض الهمسات التي ترددت بعدة حناجر "دخيل.. دخيل.. هناك دخيل....."

بدا أن وجود دخلاء في هذه الغابة ليس أمراً معتاداً أو مرحّباً به، لذا بدا التوتر والتوجس واضحاً في تلك الأصوات التي ترددت بهمس من حوله.. لكنه لم يتمكن من رؤية أصحاب تلك الأصوات، فاستمر في سيره لبعض الوقت بحثاً عن قرية من قرى (الفييّ) التي تتوزع في أرجاء هذه الغابة..

وبعد سير قصير وهو يشعر بعشرات الأعين تراقبه من موضع خفيّ، فوجئ بهبوط رجلين من رجال

(الفييّ) أمامه وكل منهما يحمل قوساً وكنانة سهام على ظهره.. بدا تحفزهما واضحاً لوجوده، وابتدره أحدهما قائلاً "ما الذي يفعله غريب مثلك في هذه الغابة؟.. أنت غير مرحّب بك فعُد من حيث أتيت.."

لم يتراجع أوس قائلاً "أنا أبحث عن فتاة من (الفييّ) اسمها تيما.. فهل تنتمي لقريتكم أم أنها من قرية أخرى؟"

نظرا له بتقطيبة والأول يقول "لا نعرف فتاة بهذا الاسم.. غادر قبل أن نتخذ تصرفاً آخر معك.."

لم يبدُ لأوس أنهما كاذبين، فلم يمانع من الرحيل متجنباً ذلك المكان الذي تقع فيه تلك القرية بحثاً عن قرى أخرى من قرى (الفييّ).. وبعد بعض السير محاولاً تبينّ طريقه في هذه الغابة المظلمة الصامتة، وجد قرية أخرى واعترض طريقه بعض رجالها حاملين الأسئلة ذاتها ومجيبينه بالإجابات ذاتها.. لم يتمكن أوس في كلا المرتين من رؤية أي أثر من القرية، ولم يتمكن من البحث عن تيما بنفسه فيها مكتفياً بالإجابة التي يحصل عليها من الرجال المتحفزين الذين يدفعونه دفعاً للرحيل في كل مرة..

وفي المرة الثالثة، بعد أن شعر أوس أنه يدور في دوائر لا انقطاع لها دون أن يعثر على هدفه، وقد حلّ الليل وازدادت الظلمة من حوله، وجد رجلين من رجال (الفييّ) يقفون بوجهه بتحفز وأحدهم يقول "من أنت؟.. وما الذي جاء بك لهذه الغابة؟"

كان قد سئم هذا السؤال وتكراره المثير للغيظ، لكنه قال "لا شأن لكم بمن أكون.. أنا أبحث عن فتاة اسمها تيما.. هل هي من قريتكم؟"

تبادل الرجلين النظرات بصمت، ثم تقدم أحدهما ودار حوله متشمماً للحظة قبل أن يقول لرفيقه "هذا من (الريابلة).."

لم يدرِ أوس ما العجيب في هذا الأمر، لكن الثاني أطلق ضحكة هازئة وهو يقول "حقاً؟!.. ما هذه الصدفة؟.. يبدو أن تخمين سامار لم يجانب الصواب مطلقاً.."

نظر لهما أوس بصمت وقد أدرك من ردة فعلهما أنهما يعرفان تيما.. لابد أن يعرفاها، وربما لهذا السبب عرفاه وأدركا أنها كانت بصحبته في الأيام الماضية.. لكن ما العيب في ذلك؟..

قال لهما مقاطعاً حديثهما "أريد رؤيتها.."

أجابه أحدهم بسرعة "محال.."

قطب أوس قائلاً "ما السبب؟.. خذوني للقرية.. سأتحدث مع رئيسها لو لزم الأمر ليسمح لي برؤية تيما ولو للحظات.. لم آت هنا سعياً وراء الشر.."

تبادل الرجلين النظرات، ثم قال أحدهما بابتسامة "لا بأس.. يمكننا منحك هذه الفرصة.."

ثم تقدما منه والثاني يضيف "لكن في البدء، علينا أن نحملك حملاً.. بدون جناحين، لا يمكنك الوصول للقرية مطلقاً.."

لم يعارض أوس ذلك وهو يجد الرجلين يقبضان على ذراعيه بإحكام من كل جانب، ثم ارتفعا بجناحيهما بشيء من المشقة والبطء ليرتفع أوس معهما متجاوزين عدداً من الأشجار ومتجهين للأعلى باستمرار.. ومن بين الأشجار القريبة، استطاع أن يرى عدداً أكبر من الرجال لحقوا بهم وتبعوهم في رحلتهم التي تبدو بلا نهاية نحو القمم الشاهقة لتلك الأشجار المعمّرة..

الفصل الخامس عشر: القرية المعلّقة

تهاوى رأسي على صدري بتعب وإنهاك بالغين.. لم يمضِ على وصولي للقرية إلا عدة ساعات، وكانت عودتي أسوأ مما توقعت بمراحل.. وها أنا سجينة لا أملك من نفسي شيئاً، وقد صدر الحكم عليّ دون أن يجادل عني أحد أفراد القرية ولو من قبيل الاعتراض..

سمعت صياحاً ملحّاً بدا لي خافتاً لبعده.. أو ربما لشدة إنهاكي لم تستقبله أذناي بالصورة المعتادة.. كان الصوت ينادي اسمي بنبرة عذبة تحمل شوقاً عارماً في ثناياها.. وتهاوت مشاعري مع ذلك الصوت الذي اشتقت لسماعه منذ أمد طويل.. الوغد سامار لم يمنحني الفرصة لرؤية شقيقتي الصغيرة والاطمئنان عليها قبل أن يقيم لي تلك المحاكمة التي كتبت نهايتها قبل أن تبدأ بالفعل..

"ألست حانقة لما جرى لك؟.. يحق لك أن تبغضي تلك الفتاة البلهاء، فهي من زجّ بك في هذه الورطة.. يمكن القول أنها كتبت نهايتك ببلاهتها المعتادة تلك.."

لكن كيف لي أن أبغض شقيقتي الوحيدة؟.. لقد بلغت الفتاة الخامسة عشر من عمرها دون أن يتجاوز عقلها عقل فتاة في الخامسة.. وفقدت والديها في سن صغيرة جداً فلم تكد تعرف أحداً منهما.. لا تعرف من هذه الدنيا إلا شقيقتها الوحيدة التي تناديها أحياناً ببراءة تامة "ماما...."

ولم ألمها قط على مناداتها لي بهذا اللقب الذي يفوقني حجماً، بل رضيت بهذا الدور الذي رُسم لي في سن مبكرة.. ولولا وجود عمة عجوز لي تعهدتها بالرعاية أثناء غيابي، لربما اضطررت لاصطحابها معي في رحلتي الإجبارية هذه وعرضتها لأخطار لا تحصى..

تتالى نداء شقيقتي لي والتي منعت من الاقتراب مني بالطبع.. كما أنها قد أجبرت على ملازمة الكوخ الذي نسكنه منذ تلك الليلة بحجة أنها ببلاهتها تعرض القرية كلها لمصاعب أكبر من أن يتحملوها.. وما الذي قد تجرّه فتاة بطيبتها وبراءتها لقرية كهذه؟..

لم أستطع معارضتهم في كثير من الأحيان بعد ما جرى منذ سنة تقريباً، قبل أن يزجّ بي سامار في هذه

المهمة العسيرة.. في ذلك اليوم، اختفت شقيقتي كامون من الكوخ منذ طلوع الشمس.. لكني وعمتي لم نحمّل غيابها أكثر من أهميته فهي معتادة على التجوال في القرية واللعب مع بعض الأطفال بحرية تامة.. لكن مع انتصاف النهار دون أن يبدو لها أثر، انطلقت بحثاً عنها في أرجاء المكان.. وبعد بحث طويل في أرجاء القرية عثرت عليها في ذلك الجزء السفلي من الغابة حيث تحتفظ القرية بالماشية التي يقوم أفرادها بتربيتها والحفاظ عليها.. كانت تلك الماشية من أغلى ما نملك، مكونة من قطيع حيوانات (كوشو) النادرة، التي لا تتواجد إلا في هذه الغابة.. هذه الحيوانات التي تمتلك ثلاث أعين، بعين في منتصف جبهتها، تشع نوراً في الليالي المظلمة وهي مصدرٌ ثري لنا بالدماء الغزيرة التي تمدّنا ببعض قوانا السحرية وتعيننا على اكتساب تفوقنا وسيطرتنا على الكثير من الكائنات.. كان الاقتراب من هذه القطعان محرّماً، مع حراسة شديدة حوله عادة.. ولذا كان ارتياعي كبيراً وأنا أرى كامون تقف وسط القطعان تضحك بسعادة بالغة فيما غابت الحراسة من المكان للغرابة.. صرعت لرؤية عدد كبير من تلك الحيوانات مرميّة عند قدميها ميتة وقد سالت دماؤها الغالية أرضاً ليشربها التراب بسرعة وشراهة.. بدا أن كامون لم تقاوم رغبتها في شرب دماء تلك الحيوانات، ولكنها للأسف لم تكتفِ بواحد، بل تنقلت بين عدد منها وهي تترك الحيوان صريعاً بعد أن تشرب بعض دمائه..

حاولت تفادي الأمر بإخراج كامون من موقعها والتستر على الأمر، على أمل أن يلقي رجال القرية اللوم على بعض القرى الأخرى (للفيي) والتي تناصبنا العداء في بعض الأحيان.. لكن كان الأوان قد فات بالفعل وأنا أسمع تصايح الرجال خلفي فور وصولي للمكان.. وسرعان ما قبضوا عليّ وعلى كامون التي لم تفتأ تضحك والدماء تسيل من فكها مؤكدة ذنبها الواضح..

ورغم كل اعتراضاتي، لاقت كامون عقاباً سريعاً على ما اقترفته يداها، وبعض الرجال ينتقمون منها لما جرى لحيواناتهم الثمينة بركلات وصفعات انقلبت لها ضحكات كامون بكاءً وصياحاً متوسلاً.. ولم تفِد توسلاتي في إيقافهم، أو إيقاف المحاكمة التي نصبها لنا، أو لي بالأحرى، سامار وسط القرية المفجوعة بما جرى..

عندما حمُل أوس حملاً لتلك القرية، اتسعت عيناه بدهشة وهو يتأمل ما حوله على ضوء السرُج التي أنارت جنبات القرية.. ارتفع الرجلان به ارتفاعاً كبيراً حتى شك أوس للحظة أنهم ينوون الخلاص منه برميه من ذلك العلو.. لكنه تمكن بعد بعض الوقت من رؤية ملامح تلك القرية الغريبة التي لم يرَ مثلها قط.. فعلى جذوع الأشجار الضخمة التي ارتفعت ارتفاعاً شاهقاً وتأصّلت جذورها بشكل راسخ في الأرض تحتها، استطاع أن يرى تلك القرية التي استحقت لقبها التي عرفها الآخرون بها.. القرى المعلقة.. هذا أفضل وصف لتلك القرية التي تكونت من عدد كبير من الأكواخ الخشبية ذات الأسقف المغطاة بالقش المرصوص بالحبال.. فقد بنيت تلك الأكواخ على الأفرع المتينة للأشجار، أو علق بعضها في جوانب تلك الجذوع الضخمة بدعائم خشبية توثّقها وتؤمنها من السقوط.. امتدت القرية على مساحة معقولة من تلك الغابة ذات الأشجار المتراصّة، ومدّت الجسور الخشبية المعلقة بين بعض الأكواخ، رغم أن الحاجة لوجودها ضعيفة بالنسبة لكائنات ذات جناحين مثل (الفيي).. ووسط القرية، انتصبت منصة خشبية محيطة بجذع إحدى الأشجار، حيث يجتمع كبار القرية وبعض رجالاتها وحيث تدور بعض أهم الفعاليات التي تمسّ أمور (الفيي)..

كان منظر تلك القرية التي اختفت في عتمة الغابة وسكونها غريباً لعيني أوس.. وبدا واضحاً أن (الفيي) يستفيدون من ارتفاع القرية الشاهق لحمايتهم من هجوم الكائنات الأخرى ممن يجرؤ على اقتحام تلك الغابة الشاسعة.. وعند المنصة المقامة وسط القرية، أنزله الرجلان ليجد رجلاً آخر يواجهه بنظرات صامتة.. تفرق الرجال الذين أحضروه على الأفرع القريبة، فيما قال الرجل الذي يواجهه "من أنت؟.. وما الذي جاء بك إلينا؟"

كان الرجل نحيل الجسد بعينين حادتين خبيثتين، ورغم أن هيئته لا تدلّ على مكانة عالية بين أفراد القرية، لكن بدا واضحاً من تعامل الآخرين معه أنه رئيسها..

دار أوس ببصره حوله قائلاً "جئت أبحث عن فتاة من (الفيي) تدعى تيما.."

بدت نظرات الفهم واضحة على عيني سامار الذي قال بسخرية "ومن تكون أنت؟.. أظننت أنك تملك

الحق بالوصول لقرىٰ (الفيي) بهذا الطلب الغريب؟"

قطب أوس معلقاً "وما الذي يمنع؟"

قال سامار بحدة "أمورٌ كثيرة تمنع ذلك بالذات.. ما الذي جاء بك؟.. هل اتفقت معك الفتاة علىٰ أن تلحق بها وتنقذها متجاهلاً قوانين القرية؟.. هل سقتك دماءها في مقابل أن تحميها من غضب رجال قبيلتها؟"

قال أوس بحدة وقلق "ما الذي فعلتموه بها؟.. أي جرم ارتكبته لتعاقب بهذه الصورة؟"

دار سامار حوله خطوات قائلاً "تلك الفتاة لا تفتأ ترتكب الأخطاء الواحد تلو الآخر.. لكن الآن، أنت خطؤها الأعظم الذي لا يمكن غفرانه لها مطلقاً.."

ثم وقف في وجهه مضيفاً بصرامة "والآن ارحل.. ولا تعُد لهذه الغابة مرة أخرىٰ.."

قال أوس بحزم "لن أغادر قبل أن أرىٰ تيما.. وأطمئن أنها بخير.."

تساءل سامار بسخرية " أنت عنيد بشكل لا يمكن ابتلاعه.. لكن حقاً، ما شأنك بهذه الفتاة؟.. هل أصبحت شيئاً يخصّك لتطمئن عليه؟"

قال أوس "لقد أنقذت حياتي، وأنا لن أكون ناكراً للجميل.. لو كانت تيما بحاجتي، فأنا سأعينها بكل عون تحتاجه.."

ضحك سامار وقال معلقاً "أتعني تلك الدماء التي سقتك إياها؟.. هل أعجبك مذاقها وما تمنحه لك؟.. وهل هذا السبب الحقيقي للحاقك بها؟"

صاح أوس بغضب "لا.. لستُ أسعىٰ خلف دمائكم، ولا أريد إلا الاطمئنان عليها.. فما الغريب في هذا لتستنكره؟"

كان صياحه قد جذب العديدين من أفراد القرية الذين حلقوا قريباً من المنصة واكتفوا بالفرجة من فوق أفرع الأشجار القريبة.. فيما مال سامار نحوه وقال ساخراً "كذبتك لن تنطلي علىٰ أصغر طفل منا.. فأتِ بغيرها لو كنت ذكياً.."

فقال أوس حانقاً "دعني أرَها ولو لوقت قصير.. وبعدها أعدك أن أعود من حيث أتيت.."

هز سامار رأسه وقال "محال.. لن أسمح لدخيل مثل بالتدخل في القرية وأفرادها.."

تقدم أوس خطوة من ذلك الرجل النحيل، فأمسك بمجمع ثيابه قائلاً بغضب "لا يحق لك منعي من ذلك.."

لم يجفل سامار لهجوم أوس، فيما فوجئ الأخير بضربة قوية تصيب صدره من أحد الرجال القريبين والذي هبّ للدفاع عن رئيس القرية.. تفادى أوس ضربة أخرى كادت تصيبه، ليفاجأ بضربة أخرى أشد قوة تصيب ظهره وترميه من فوق المنصة العالية دون أن يتمكن من التشبث بها..

وجد أوس نفسه يهوي من ذلك الارتفاع الشاهق، لكنه لم يستسلم لسقوطه وهو يمد ذراعيه ويتشبث بأقرب فرع مرّ قربه.. فتوقف عن السقوط بشيء من العنف، وسارع للتشبث بالفرع بقوة والوقوف عليه محاذراً من السقوط من جديد.. كان أفراد القرية يراقبون ما يجري بصمت وسلبية اعتادوها، ولم يبدُ على أحدهم الرغبة بمعاونته حتى لو تهشم جسده أثناء سقوطه.. فهل يلوم تيما على سلبيتها الواضحة في بعض الأحيان؟..

التفت أوس حوله صائحاً "أتسمعينني يا تيما؟.. أين أنت؟.. أظهري نفسك ولا تخشي شيئاً.."

ضحك سامار قائلاً "حتى لو سمعتك، فلن تقدر على تلبية طلبك مهما رغبت بذلك.."

تأكد أوس عندها أن شكوك سولينا كانت على حق، فقال بقلق "لمَ؟.. ما الذي جرى لها؟"

قال سامار بصرامة "لا شأن لك بها.. تلك الخائنة قد حكم عليها بالموت بيد الضواري وكل كائن يسعى خلف أجساد (الفيي)ّ.. ولن تقدر على الفرار أبداً حتى لو أفلتت منا.."

ثم أضاف بابتسامة ساخرة "لكنك مرحّب بك لو أردت نيل نصيبك منها.."

تزايدت صدمة أوس لما يسمعه.. أيمكن أن يعاقب أفراد القرية تيما بهذه الصورة؟.. ما هو الجرم العظيم الذي اقترفته؟.. ألهذا السبب بدت العصبية والحدة على تيما قبل رحيلها؟.. ألهذا السبب بدا الاضطراب عليها عند مغادرتها؟.. أكان هذا ما تخشى حدوثه؟..

لاحظ في تلك اللحظة إحدى النساء العجائز التي وقفت أمام أحد الأكواخ ضامّة بذراعيها فتاة تغني وهي تتأمل بعض الفراشات بانسجام تام.. كانت تلك المرأة تشير له بطرف خفي نحو الأرض أسفل القرية حيث تضرب الأشجار المعمّرة جذورها بعمق.. من تكون تلك المرأة؟.. لا يدري.. وكيف يمكنه أن يصدقها مع كل السلبية والجمود الذي يبدو عليه رجال ونساء القرية؟.. ربما كانت نظرة الاستعطاف في

عينيها.. أو ربما كانت الدموع التي تغرق وجهها.. كل هذه الأمور أثبتت له أن المرأة قد سلّمت أمر تيما إليه.. عندها قال أوس بحزم "إذن لا تتدخل فيما سيجري لها.."

بدأ يتحول لهيئة الذئب وسط نظرات القرية الفضولية، ثم استدار هابطاً من تلك الأشجار بخفة من غصن لآخر محاذراً السقوط من هذا الارتفاع الشاهق.. فيما قالت إحدى النساء وهي تهبط قرب سامار "أيمكننا فعل ذلك حقاً؟.. ماذا لو حاول إنقاذها؟"

قال سامار بسخرية "لقد ذاق طعم دماء (الفيي) سابقاً وأدرك ما يمكن أن يحصل عليه منها.. لن يقدر على مقاومة جشعه عندما يشم رائحة دماء تلك الخائنة، ولن يدرك الأحمق أنه لن يستفيد أمراً من التهامها وشرب دمائها.. لن يدرك ذلك إلا بعد فوات الأوان بالطبع.."

عادت المرأة تتساءل "وماذا لو حاول إنقاذها بالفعل؟"

اتسعت ابتسامة سامار مجيباً "سنقتله بالطبع.."

بدا أنني غفوت لبعض الوقت.. لكن كيف لي أن أحتفظ بوعيي بعد ما نلته على أيدي رجال القرية؟.. التزمت بالصمت منصتة للسكون من حولي.. لكن صوت سامار الوغد ما لبث يتردد في أذناي بتكرار بغيض.. متى سأرتاح من صوته البغيض ذاك؟..

" متى تدركين أن فتاة تافهة مثلك لا تقدر على الوقوف بوجهي؟.. لقد أخطئت بتحديّ، وبالتدخل في شؤوني.. وهذه عاقبة من يفعل ذلك.."

ربما كنت حمقاء بالفعل لأنني لم أبادر لفضحه منذ البدء.. لأنني استسلمت لعبثه بي ولمحاكمته المجحفة التي لم يكن هدفها تعويض القرويين عما فقدوه أكثر من التخلص من تهديدي له بشكل دائم..

عندما عدت حاملة فشلي الذريع، همس في أذني بعيداً عن مسامع أهل القرية "ما الذي عاد بك؟.. ظننت أن ذلك الرجل سيتخلص منك بشكل نهائي.."

صدمني قوله بشدة وأنا أحدق في وجهه فقال بخفوت وابتسامة ساخرة "أظننت حقاً أنني أسعى لاستعادة

حجر الكهّان؟.. وحتى لو أردت ذلك، لم قد أستعين بفتاة ضعيفة مثلك؟"

قلتُ بصدمة "إذن لمَ كلفتني بهذا الأمر؟.. لمَ أرسلتني للمجهول وأنت تعلم أنني قد أقضي نحبي بيد الكائنات الأخرى؟.."

قال رافعاً حاجباً وبابتسامة جانبية "أأنت حمقاء؟.. أرسلتك لهذا الأمر بالتحديد.."

لم يكن لأي أمرٍ أقوله أي فائدة بعدها.. لقد أرسلني هذا الرجل لأموت، وقد خاب أمله بعودتي سليمة دون أن أصاب بسوء.. عدتُ وعاد تهديدي له مما دفعه لمحاكمتي بفشلي والحكم عليّ قبل أن يتسنى لي إفشاء سره لأحد رجال القرية.. ومازلت حمقاء لأنني لم أحاول فضحه قبل أن أسقط في فخه هذا.. متى حدث ذلك؟.. عندما اكتشفت أن الحجر المفقود في الواقع قد تم بيعه لذلك العجوز الذي يطلق على نفسه اسم الحكيم.. لا أدري غرض ذلك الرجل من الحصول على شيء مثله لكني أدرك أن من باعه ذلك الأثر الثمين الخاص بقريتنا لم يكن إلا سامار رئيس القرية.. اكتشفت الأمر بالصدفة عندما شهدتُ بيع الحجر للحكيم أثناء إحدى لقائاته النادرة بسامار عند أطراف القرية والتي تمت بغفلة عن جميع الأهالي وقتها..

صدمني ما رأيته وسمعته وأعجزتني الصدمة عن التصرف بشكل سليم وأنا أطوي صمتي على ذلك السر الذي عرفته.. حجر الكهان هو حجر تقترب مكانته في قريتنا من التقديس.. كان بحوزة زعماء القرية المتتابعين منذ أمدٍ بعيد، ورغم أنني لا أعرف أهميته الحقيقية ولا الهدف من تقديسه لكني موقنة أن عملاً مثل الذي قام به سامار لن يمر مرور الكرام مطلقاً.. واجهت سامار وحيدة بهذا الأمر، وطالبته باستعادة الحجر مقابل التستر على ما فعله وعدم إفشاء سره أمام القرويين.. بدا سامار مصدوماً، وقد أشفقت عليه قليلاً لرؤية ارتباكه وتوسلاته لي بالتستر عليه.. ولم أدرك أن ذلك الخبيث قد دبّر لي أمراً آخر..

في اليوم التالي مباشرة فوجئت بارتكاب كامون لذلك الفعل الذي لم يسبق لها تكراره قط طوال حياتها.. والآن، عندما أفكر بهذه الأمور مليّاً في وحدتي هذه أدرك أن لسامار يداً في ما فعلته كامون بالتأكيد.. لابد أن يكون كذلك، فهذا التزامن غريب ولا يمكن تصديقه.. وبهذه الجريمة التي أشركني فيها رغماً عني لأنني شقيقة كامون والمسؤولة عن مراقبتها ومنعها من ارتكاب أي تصرف قد يضرّ بالآخرين، أصبحت بعدها

مجرمة في أعين الجميع.. وفي غضبهم الأعمى، لم يكن أحدهم عندها ليستمع لي وينصت لاتهاماتي تجاه سامار الذي له مكانته كرئيس للقرية..

بعدها، مدّ سامار يده لي بعفوه الزائف واعداً إياي بأن يتناسى الجميع ما جرى لو أحضرت له حجر الكهان بأي وسيلة كانت.. ولم أدرك قط أن مهمتي تلك لم تكن استعادة الحجر من الحكيم.. مهمتي كانت أن أموت.. وقد فشلت في ذلك طوال السنة الماضية.. كما فشلت في إدراك خداع سامار لي طوال الوقت.. ألا أستحق العقاب الذي نلته بعد كل هذا؟..

لم يكن هبوط أوس سهلاً نحو الأرض التي بدت له بعيدة بعداً لا يمكن تصديقه لو لم يشهده بنفسه.. حاول الهبوط بسرعة قبل أن يحاول أحد أفراد القرية اعتراض طريقه، وفي الآن ذاته التزم بالحذر لئلا يسقط فيدق عنقه أو يكسر ساقه لتنتهي مهمته بالفشل قبل أن يحقق ما جاء لأجله..

لم يعرف أوس طريقاً لتيما عدا عن الإشارة الخفية التي أشارت بها العجوز، ولم يلتقط خيطاً من رائحتها.. لكن مع اقترابه من الأرض التي غصّت بالسواد مع حلول الليل التقط أنفه رائحة الدماء القوية التي انبعثت من أحد الجوانب حيث لا يكاد يسمع صوتاً غريباً على أصوات هذه الغابة.. لا يمكن تمييز رائحة دماء كائن عن آخر عادة، لكن أوس كان نوعاً ما واثق أن هذه رائحة دماء تيما، لسبب يجهله هو نفسه..

وعندما اقترب من موقعها، استطاع أن يلمحها بشكل باهت حيث قيّدت إلى جذع شجرة ضخمة وتركت وحيدة لتكون فريسة سهلة للضواري.. لاحظت تيما اقترابه ورأت ذلك الذئب الذي تقدم منها بخفة.. في البدء دهشت لرؤيته، لكنها أدركت هويته قبل أن ينطق بحرف.. فهمست بضعف "لماذا؟.. لماذا أتيت بحثاً عني؟"

عاد أوس إلى هيئته فور وصوله إليها وعلق "أكان من المفترض بي ألا أفعل؟"

رغم حدة بصره، لكنه عجز عن رؤية ملامحها بشكل واضح.. كل ما أدركه أنها مصابة إصابات بالغة، وذلك من رائحة الدماء التي لم تجف بعد.. رفعت تيما بصرها إليه هامسة بارتجافة "ألن تسعى للحصول

على دمي؟.. ألهذا السبب أنت هنا؟"

قال أوس بضيق "ماذا ظننتني؟.. أنا هنا لإنقاذك، ولإخراجك من هذا المأزق الذي رميت نفسك فيه.."

وسارع لتمزيق قيودها بمخالبه وهو يضيف باستياء واضح "لماذا تسللت هاربة دون علم أحدنا؟.. ما الذي منعك من التحدث معنا عما ينتظرك في هذه القرية؟.. لربما استطعنا إيجاد حل أفضل مما انتهيت إليه الآن.."

خفضت تيما بصرها مجيبة "أنا لم أعبأ قط لأمر أحد منكم.. فكيف لي أن أتوقع اهتماماً منكم؟.. لم أظن للحظة أن أحدكم قد يهتم لما سيجري لي.."

فقال أوس معلقاً على ذلك "وقد خاب ظنك.. لولا قلق الآخرين لأمرك، لما كنت هنا الآن.. ولولا قلقي لأمرك، لغادرت فور أن منعني رجال قبيلتك عنك.."

تمكن من تحريرها من قيودها، فعاونها لتقف بقدمين ترتجفان وقال متلفتاً حوله "علينا الرحيل بسرعة.."

سمعا صوتاً من فوقهما يقول "لقد كان سامار محقاً.. أنت تحاول تهريبها بالفعل.."

التفتا للأعلى وارتجافة خفيفة تعتري تيما.. ومن بين الأفرع السميكة للأشجار، بدا لهم ما لا يقل عن خمس رجال من (الفيي) يهبطون نحوهما وقد تسلحوا بما يملكونه من سهام وخناجر ورماح.. فقال أوس دافعاً تيما خلفه "وما شأنكم؟.. لقد نبذتموها من القرية، فلا يحق لكم التدخل فيما يجري لها بعد ذلك.."

قال الرجل بحدة "لا يهمنا ما يجري لها، إلا إن حاولت الهرب بها.. فهذا ما لا نقبله.."

كان إصرارهم على اعتراض طريق تيما واضحاً، فهمس أوس بها وهو يراقب هبوط الرجال أمامهما "استغلي انشغالهم بي وبادري بالهرب.. سألحق بك فور أن أتخلص منهم.."

تمسكت تيما بكم قميصه قائلة بارتياع "ما الذي تنوي فعله أيها المجنون؟"

قال أوس بابتسامة "تهريبك.. أليس هذا ما أتيت لأجله؟"

تقدم الرجال منهما وأحدهم يهبط أرضاً وهو يصيح "استسلم يا هذا وابتعد عنها.. جزاؤك لن يكون أكثر رحمة مما سيجري لها لو خالفت أمرنا.."

لم يتمهل أوس ليستمع لما يقال له، بل قفز نحو أقربهم إليه وارتطم به ليلقيه أرضاً ويجثم على صدره.. رغم طول رجال (الفيي) الواضح، لكنهم كانوا أخف وزناً من أوس بمراحل لتتمكن أجنحتهم من حملهم ولا

تنوء بثقلهم.. وهذا ساعده على الإطاحة بمن اقترب منه مسبباً قلقلة بين صفوفهم، فيما استغلت تيما تلك اللحظات لتتسلل مبتعدة بخطوات متعثرة.. لم يمضِ أكثر من يوم واحد منذ عادت للقرية، وها هي تفرّ منها بأسوأ حال ممكن..

بعد عدة خطوات، وجدت تيما إحدى الفتيات تقف في وجهها وهي تقول بغضب "إلى أين أنت ذاهبة أيتها الخائنة؟"

تراجعت تيما خطوة بقلق وأصوات العراك تعلو خلفها بوضوح.. لم تكن بالقوة الكافية للتصدي لأضعف طفل في القرية.. ولو تأخرت في مكانها لدقيقة واحدة ستفقد فرصتها الوحيدة للفرار، ناهيك عن تعريضها حياة أوس للخطر بقتاله مع رجال القرية..

تقدمت الفتاة منها بسرعة وقبضت عليها، فلوت ذراعها خلف ظهرها وهي تقول "لا يحق لأمثالك أن يطلبوا الرحمة.. أنت عارٌ على هذه القرية وعارٌ علينا جميعاً.."

قالت تيما بحنق وهي تحاول مقاومتها "وما أدراك أنت عن هذه القرية وما يجري فيها؟.."

أطلقت الفتاة ضحكة هازئة، أتبعتها بصيحة ألم قصيرة قبل أن تتهاوى أرضاً فتهوي تيما معها.. استدارت تيما خلفاً، لترى شقيقتها كامون تندفع إليها فتعانقها بفرح لا يشوبه شائبة.. ومن خلف الفتاة، ظهرت العمة العجوز حاملة فرعاً ثقيلاً وهي تلهث بشدة للمجهود الذي بذلته.. ثم رمت الفرع جانباً وجذبت تيما قائلة بهمس "لنرحل بسرعة يا فتاتي.. لا أريدهم أن يعثروا عليك الآن.."

نهضت تيما متخبطة وهي عاجزة عن الهرب بالسرعة الكافية مع الضعف الذي تشعر به، فوجدت العمة تستعين بكامون وتقومان برفعها من ذراعيها والتحليق بها مبتعدين عن المعركة المحدودة الدائرة خلفهما.. وبعد بعض التحليق، أنزلتا تيما أرضاً في موضع قريب من نهاية الغابة تلك، عندها سارعت العمة لإخراج بعض الضمادات التي أحضرتها معها، وضمّدت جراح تيما الأسوأ حالاً بسرعة وهي تغمغم "هذا سيوقف الدماء ولو قليلاً.. وبعد أن تهربي، اعتني بجرحيك هذين بشكل أفضل.."

غمغمت تيما بصوت متهدج "أرأيت ما فعلوه بي يا عمتي؟"

نظرت لها العمة بأسى، ومسحت على وجهها بلطف مغمغمة "أنت أقوى من هذا بكثير يا تيما.. ولن يهزمك هذا بعد.."

ودفعتها لتختبئ في تجويف أحد جذوع الأشجار الضخمة قائلة وهي تتلفت حولها "كوني بخير يا فتاتي.. ولا تفكري بالعودة للقرية أو لقرى (الفيي) الأخرى مطلقاً.."

تمسكت تيما بيد العمة قائلة برجاء "ماذا عن كامون؟.. ما الذي سيجري لها؟"

قالت العمة مهدئة قلقها "لن يجرؤ سامار على ارتكاب أي جرم بحقها.. عدد من رجال القرية قد استاؤوا لتهديده المتكرر للفتاة التي لا تدري من أمرها شيئاً، ووعدوني أن يقوموا بحمايتها ضد ظلمه.. لذا لا تخشي شيئاً وارحلي يا عزيزتي.."

تمالكت تيما دموعها وهي ترى كامون التي جلست عند قدميها تغني بفرح ظاهر.. فجذبتها العمة هامسة "سأرحل بها الآن قبل أن يجذب غناؤها الآخرين.. لكني سأظل قريبة حتى أطمئن أنك رحلت بخير.."

اندفعت تيما تعانق العمة بقوة وامتنان واضحين، فربتت العمة على كتفها وهي تهمس "كوني بخير يا فتاتي.. شكراً للسماء التي أرسلت لك هذا الرجل لإنقاذك من ذاك المصير.."

استدارت تيما لتعانق كامون بقوة للمرة الأخيرة، ثم مسحت على وجهها قائلة "اعتني بنفسك يا كامون.. وأطيعي العمة في كل ما تقوله.."

هزت كامون رأسها موافقة بسعادة واضحة، ثم وجدت العمة تجذبها لتبتعدان عن هذا المكان تاركتين تيما وحيدة.. قاومت كامون للحظات وهي تمد يدها نحو تيما، لكنها في النهاية وبعد إلحاح من العمة استسلمت للأمر ورحلت محلقة والعمة تشد بيدها على ذراعها لئلا تفلت منها، دون أن تكف كامون عن إلقاء النظرات المتضرعة نحو تيما حتى غيّبهما الظلام بشكل تام..

بقيت تيما في تلك اللحظات وحيدة تنصت للغابة الصامتة من حولها، والتي لا يكسر صمتها إلا أصوات المعركة المحدودة الدائرة من مبعدة.. لقد يئست من النجاة من هذا المصير، وفقدت الرغبة بتغيير واقعها بعد أن صدمت بسلبية قريتها وتعاملهم معها بحيادية وكأنها ليست فرداً من أفرادها.. رغم أنها تحلّت بالسلبية ذاتها سابقاً، لكنها الآن تدرك مقدار الجرم الذي يرتكبه أفراد القرية بانتهاجهم هذا النهج.. وأدركت هذا متأخراً جداً بعد أن أصبحت هي الضحية لهذه السلبية.. والآن، مع عودة أوس غير المتوقعة واستماتته في إنقاذها، عاد لها هذا الأمل بالنجاة مما خططه لها سامار.. لكن ماذا لو فقدت هذا الأمل قبل أن تتلقفه بيديها بالفعل؟.. سيكون هذا أقسى من الواقع الذي صدمها في الساعات الماضية.. وهي لن تطيق

ذلك مطلقاً..

بعد عراك طال كثيراً وأنهك أوس، تراجع بخفة جاعلاً إحدى الأشجار خلفه لتأمين ظهره.. تتابع عليه رجال القرية، وطال عراكه معهم دون أي نتيجة حتى أدرك أنهم يحاولون استنزاف قواه قبل الإجهاز عليه.. كان استغلالهم لأجنحتهم واضحاً، ورغم أنه تفادى الإصابة بسهامهم لكن عجز كذلك عن التخلص منهم بشكل تام..

وقف أوس مزمجراً بتحذير واضح وهو يراقب تحركات الرجال الذين فضّلوا البقاء على فروع الأشجار الدنيا.. ولما رآهم يتأهبون لإمطاره بالسهام، سارع للاستدارة والمناورة وهو يركض بسرعة وخفة بين الأشجار مبتعداً عن هذا المكان.. المهم أن تكون تيما قد ابتعدت عن هذا المكان، ولو حاولوا اللحاق بهما فسيضطر لقتالهم مجدداً حتى يتمكنا من الهرب من هذه الغابة..

تصايح الرجال فور رؤيتهم لهروب أوس، وحلق بعضهم محاولاً اللحاق به عندما فوجؤوا بالعمة تقف في وجوههم ضامّة كامون إليها وهي تصيح "ألا يكفي هذا؟.. ما الذي تريدون تحقيقه بعد؟"

قال أحد الرجال بصرامة "أوامر سامار صريحة.. هذه الخائنة يجب أن تموت لتكون عبرة للبقية.. لا يمكننا أن نسمح بهربها بعد كل ما فعلته.."

صاحت العمة والدموع تسيل من عينيها "وأي نجاة تعتقدون أنها ستنال بهربها هذا؟.. بعد ما فعلتموه بها، وبعد ما ارتكبتموه بدم بارد، تتوقعون منها أن تنجو؟.. بعد أن تغادر هذه القرية الآمنة، أتظنون أنها ستشعر بالأمن في أي بقعة من هذا العالم؟"

تقدم أحد الرجال قائلاً "لا تعترضي طريقنا وإلا نالك ما نالها.."

وقفت العمة بإصرار، وإن ارتجف قلبها هلعاً لما يمكن أن يجري لكامون لو ثارت ثائرة الرجال عليها.. وفي تلك اللحظة، وجدت رجلاً آخر من رجال القرية يقف أمامها مواجهاً البقية، وقال بضيق "ألا يكفي كل هذا؟.. لقد عاقبنا الخائنة عقاباً يوازي جرمها، وطردناها من القرية شر طردة لتنال جزاء خيانتها لنا.. ألا يكفي ما فعلناه بالفعل؟"

قال الرجل الأول بحدة "أنت معها في ذلك؟.. سيغضب سامار بشدة.."

قال الرجل الثاني بتصميم "سأتحدث مع سامار بنفسي.. لا بد أن يقتنع بما أقوله، ولا بد أن يكف عن هذا

الانتقام الدموي.. نحن لا نقتل أفراد (الفيي) لأي ذنب فعلوه.. وهو يخالف هذه الأعراف بشكل صريح.."

وجدوا ثلاثة رجال آخرين ينضمّون للعمة وللرجل الثاني في اعتراضهم على ملاحقة تيما وأوس.. عندها تراجع البقية بشيء من التردد وقد داخلتهم ريبة من صحة قرار سامار.. ثم زفر الرجل الأول وقال "لا بأس.. لكني سأتنصل من مسؤولية ما جرى لو اعترض سامار على تركنا تلك الخائنة لتفر طليقة.."

تنهدت العمة بشيء من الراحة، ثم قالت للرجل الثاني بصوت مرتجف " شكراً لكم.. أنقذتم حياة صغيرتي.."

ربت الرجل على كتفها بترفق، وسرعان ما عاد الجميع للقرية الرابضة فوق الغابة الكثيفة تلك من الأشجار المعمّرة.. وعاد الصمت والسكون يسود الجزء السفلي من هذه الغابة بشكل تام..

عندما تبع أوس رائحة الدماء، وصل للجانب الغربي من الغابة عند أقرب نقطة من نهايتها.. وهناك، استطاع أن يلمح تيما التي قبعت في تجويف أحد الأشجار برجفة واضحة.. كان الظلام الذي يسود الغابة أخف وطأة في هذا الجانب، بحيث تمكن أوس من رؤية ما حلّ بها بشكل طفيف.. مما دفعه ليقول بصدمة مستنكرة "يا إلهي.. ما الذي فعلوه بك؟"

خفضت تيما وجهها وهي تضم ذراعيها لجسدها برجفة واضحة، ولم يبدُ له في تلك اللحظات أن سببها هو الخوف فقط.. بل ربما كان سببها تلك الدماء التي نزفتها بغزارة منذ بعض الوقت.. ورغم أن الظلام كان يغطي ملامحها بشكل كبير، لكن أوس تمكن من رؤية جرحين عميقين في ظهرها حيث ينبع جناحاها عادة.. والآن، ما عاد لجناحيها أي أثر، ولم يبقَ منهما إلا هذين الجرحين الغائرين والدماء التي لم تتمكن الضمادات من إيقافها عن النزف باستمرار..

غمغم أوس بصدمة "لمَ قد يفعل (الفيي) ذلك بفرد منهم؟"

قالت تيما بصوت ينتفض "لقد أرادوا تجريدي من وسيلتي الوحيدة للهرب من الكائنات الأخرى.. بلا جناحين، أنا عاجزة عن حماية نفسي تماماً.."

تفحص أوس جرحيها، وقال بحيرة "علينا تضميد جرحي ظهرك بسرعة، قبل أن تفقدي المزيد من الدماء بالفعل.."

لم تعلق تيما على قوله وهي منطوية على نفسها بضعف.. كانت معدومة الحيلة، ولو أراد أوس فعلاً الحصول على دمائها فلن تملك دفعه أو ردعه بأي وسيلة.. فكيف لها أن تردع بقية الكائنات بعد أن أصبحت مجردة من جناحيها؟..

سمعته يقول "علينا العودة بسرعة لسولينا وإيار.. قد تتمكن سولينا من تضميد جراحك بشكل أفضل.."

ترددت تيما للحظات وهي تشعر به يجذب يدها، ثم تبعته بشيء من التردد والضعف.. كانت مطمئنة لكون الظلام يغلف ملامحها بشكل كامل، وأوس رغم حدة بصره لن يتمكن من ملاحظة ما جرى لها بشكل واضح.. لكن ماذا بعد؟.. كيف لها أن تهرب منه ومن كل النظرات التي قد تحدق بها وتهزأ لبشاعة ملامحها؟.. كيف لها أن تخبئ وجهها الذي ما عاد يتصف بالجمال والكمال الذي كان عليه سابقاً؟..

لكن أوس لم يكن يدرك الأفكار التي تدور في عقلها وهو يجذبها خارجاً من ذلك المخبأ وعبر ما بقي من الغابة.. وعند اقترابهم من صف الأشجار الأخير في الغابة، لاحظ تردد تيما فور أن رأت نور القمر الذي أظهر تفاصيل ما حولهم بشكل واضح.. لكن أوس جذبها بإصرار دون لحظة تأخير.. ولما غادر ظلال الغابة سمعها تهمس بضعف "مهلاً.."

لكنه لم يتوانَ عن جذبها معه، غير مدركٍ لما يعتمل في نفسها من انفعالات وهواجس.. لكنه وجدها تنطوي من جديد على نفسها فور أن لامس النور الفضي وجهها وبدا واضحاً للناظر إليها.. استدار إليها متسائلاً بحيرة "ما الأمر؟"

ازدادت انطواءً على نفسها وهي تصيح "لا تنظر إليّ.."

يا لها من معضلة.. فكر أوس بذلك وهو يرى استماتتها لأن لا يراها شخص في أي حالة تعيسة تخص ملامحها وجمالها.. متى ستستسلم تلك الفتاة وتقتنع أن ما يهم الآخرين بها ليس شكلها فقط؟..

ركع أوس قربها قائلاً "علينا أن نرحل بسرعة يا تيما.."

لكنها لم تستجب له للحظة وهي عاجزة عن اتخاذ القرار.. كانت تكره أن يراها أحد بما أصبحت عليه، وتبغض النظرات التي يلقيها الآخرون عليها، سواء أكانت نظرات شفقة أم هزء..

وجدته يجذب إحدى يديها بعيداً، فأدارت وجهها جانباً وهي تضربه بيدها الأخرى صائحة "لا تفعل.."

لكنه جذب يدها الثانية حتى أبعدهما جانباً بعيداً عن وجهها، فخفضت رأسها ليغطي شعرها ملامحها ويخفيها عن عينيه وقالت متضرعة "أرجوك.. أنا أكره ذلك.."

فقال أوس "متى تدركين أنني، أو غيري، لا نهتم بمظهرك وبجمالك هذا الذي تفخرين به؟.. لا يعنيني ما أصبحت عليه، ولا يهمني جمالك هذا بأي قدر.."

قالت بغضب "أنت تكذب.. تريد النظر لوجهي لتسخر مني.. هذا ما أنا واثقة أنه سيحدث.."

قال أوس بحزم "إذن فأنت لا تعرفينني حق المعرفة.."

هزت رأسها بقوة وهي تحاول تحرير يديها، لكنه لم يفلتها وهو يضيف "لقد لاحظت جمالك منذ وقعت عيناي عليك لأول مرة.. لكن هل رأيتني مهتماً بك لأجل ذلك؟.. هل سخرت منك بعد أن فقدت كل ذلك الجمال لإنقاذ حياتي؟.. هل تخليت عنك لأنك بدوت بشعة كما كنت ترين نفسك في تلك اللحظات؟.."

صمتت تيما دون أن ترفع وجهها وهو يرى دموعها تتساقط أرضاً دون أن تملك مسحها بيديها.. حار أوس للحظة في كيفية شغلها عن هذه القضية التي يعتبرها تافهة ولا تستحق هذه الضجة التي تقيمها تيما عادة، عندما سمعها تقول بصوت متهدج "بدون هذا الجمال، ما الذي يتبقى لي؟.. من يريد مصاحبة فتاة يصفها الجميع بأنها متحجرة المشاعر، قاسية، وذات لسان سليط؟.. بدون جمالي هذا، من قد يلقي علي نظرة ثانية؟.. بدون هذا الجمال، أنا فتاة سيئة الطباع لا يطيق شخص البقاء معها لساعات معدودة.."

أرخى أوس قبضته على يديها دون أن يفلتها وهو يقول "حقاً.. أنت سليطة اللسان وتتحلين بقسوة يندر أن أراها في فتاة بعمرك.."

رغماً عنها، تزايدت الدموع التي تنهمر من عينيها وهي تعض شفتها السفلى لإيقاف ارتجافتها.. لمَ قالت كل ما قالته؟.. هل كانت تتوقع أن ينفي عنها تلك التهم التي يعرفها الجميع؟.. هل كانت تتمنى في ذاتها أن يدافع عنها أوس ويخالفها في كل ما قالته؟.. كيف لها أن تكون حمقاء وتظهر أمامه بتلك الصورة الضعيفة التي تكرهها؟..

حاولت جذب يديها من جديد، لكن أوس ضغط عليهما وهو يقول مشدداً على كلماته "ما أعلمه تمام

العلم، أن ذلك ما هو إلا واجهة ظاهرية تحتفظين بها لئلا تظهري بمظهر الضعيف أمام الآخرين.. أليس كذلك؟"

ارتفع حاجبا تيما بدهشة دون أن تواجهه بعينيها، فأضاف "ربما كانت تلك وسيلتك لحماية نفسك من الآخرين.. هذا ما خمنّته بعد الوقت الذي قضيناه معاً.. ورغم كل ذلك، أنت أبديتِ الكثير من الصفات التي لا أتخيل وجودها في شخصٍ متحجر المشاعر.."

قالت بشيء من الحدة وبصوت مهتز "لا تمزح معي.."

انحنى نحوها قائلاً بتأكيد "لا أمزح بتاتاً.. عندما هربت ساما مني للمرة الأولى، ساعدتني على إيجادها رغم أن ذلك لم يكن ليفيدك بشيء.. ساعدتني أيضاً على البحث عن مغزى ذلك الوشم الذي تحمله في عنقها، وأسرعتِ عائدة لتحذيري من فرقة الجنود رغم أن ذلك يعرضك للخطر.."

وشد ضغط يديه على يديها وهو يضيف "كيف لفتاة متحجرة المشاعر أن تخاطر بنفسها وبحياتها، بل وتخاطر بجمالها الذي تفخر به، لإنقاذ حياة رجل لا يعني لها شيئاً؟.. رغم أنك قد استعدت جمالك بمعجزة، لكن هذا لا يلغي أنك قد فقدت عدداً لا نعرفه من سنوات عمرك في سبيل إنقاذي.."

انتفضت تيما وهي تهمس "هل أخبرتك سولينا بذلك؟"

ابتسم أوس مجيباً "بلى.. أخبرتني به عندما علمتُ بما فعلتِه لي.. وكم كانت صدمتي كبيرة عندها.."

دمدمت تيما بغضب "تلك الحقيرة كذبت علي.."

لم يسألها أوس عن مغزى كلماتها وهو يستطرد "هناك الكثير من المواقف التي دلتني أنك على غير ما تدّعين.. معاونتك لنا في التسلل للقلعة.. إنقاذك حياتي مرة أخرى عند سقوطي من سور القلعة.. كلها أمور جعلتني أراك بنظرة جديدة في كل مرة.. وأدرك أن حكمي عليك في البدء كان خاطئاً تماماً.."

صمتت تيما عن التعليق وهي مضطربة بحيث عجزت عن تفسير ما يدور بعقل أوس.. هل يسخر منها؟.. أم أنه جاد؟.. هل سيهزأ بها؟.. هل سيعاملها بدونيّة لو رآها كما هي الآن قبيحة الهيئة؟..

سمعته يقول بخفوت "ألن ترفعي رأسك مطلقاً؟"

ظلت صامتة ونبض قوي يدوي في رأسها، وللغرابة كان منبعه صدرها الذي يواجه انفعالات غريبة كهذه لم يشعر بها قط.. ما الذي عليها فعله؟.. كيف تجيب تساؤله ذاك؟.. كيف تتخلص من هذا الموقف دون أن

تخسر كرامتها وثقتها بنفسها؟..

رأته يطلق إحدى يديها ويمد يده نحو وجهها.. ظلت تنظر ليده بشيء من الذعر، لكنها للدهشة تجمدت في موقعها ولم تحاول صدّه عما ينوي فعله.. وجدته يزيح خصلات شعرها التي تبللت بدمائها ودموعها، ويكشف جانب وجهها بشكل سمح له بأن يلمسه براحة يده فيما انتفضت تيما بشيء من الألم وهي تغمض عينيها بقوة.. رفع وجهها ليواجهه للمرة الأولى هذا اليوم دون أن يجد منها اعتراضاً يذكر..

نظرت له تيما دون أن تخفي عيناها خوفها الواضح من ردة فعله، لكن بالنسبة لأوس لم يكن ما يراه صادماً بالشكل الذي قد تتخيله تيما عن نفسها.. حقاً هناك تشوه واضح في ملامحها، مع كدمة كبيرة كادت تخفي إحدى عينيها، ودماء متجمدة في فتحة أنفها وجانب فمها الذي بدا جزء منه متورماً ومزرقاً، بالإضافة لكدمة احتلت جانب خدها الأيمن.. لكن هذا كل ما هنالك.. لم يكن يراها بعينيه مختلفة كثيراً عن هيئتها العادية، ولم يرَ ما يسبب لها الذعر بتلك الصورة.. ورغم ذلك، لم يملك إلا أن يغيظها قائلاً "بالفعل.. ملامحك لا بأس بها، لولا هذه الكدمة بالغة السوء على عينك.."

انتابت غصة شديدة حلق تيما وشفتيها ترتجفان وكأنها على وشك البكاء من جديد، وهمست بصوت متهدج "أيها الحقير.."

ضحك أوس للخيبة الواضحة في ملامحها، وقال وهو يسارع لمسح دموعها التي سالت من جديد "ألا تتقبلين المزاح مطلقاً؟.. أنت تبالغين بانفعالاتك هذه.. فأنا لا أراك بهذا السوء.."

نظرت في عينيه بصمت محاولة تمالك دموعها لئلا تبدو أسوأ مما هي عليه بالفعل.. هل هو جاد؟.. ألا يبغض رؤيتها بهذه الصورة؟.. ألا يراها قبيحة الشكل أبداً؟.. كيف لها أن تصدقه؟..

وجدته يبتسم ابتسامته الدافئة التي قلما تراها وهو يغمغم "هل تشككين بقولي؟.."

لم تعلق تيما وهي تدير بصرها جانباً، فقال أوس "علينا الرحيل والعودة للبقية.."

أدار لها ظهره وساعدها على التشبث به، ثم رفعها بخفة مغادراً ذلك الموقع دون إبطاء.. أحاطت تيما عنقه بذراعيها، وأسندت خدها لكتفه ودموعها تسيل من جديد.. ثم همست بضعف "لقد فقدت جناحيّ.."

رغم تعجب أوس لأنها لم تظهر اهتمامها بفقد جناحيها كما فعلت لتشوه ملامحها الجميلة، لكنه قال "تلك مأساة بالفعل.. لكن يمكنك تجاوزها ببعض الإصرار.."

تهدج صوتها وهي تضيف "لن أستطيع التحليق مطلقاً.. الأوغاد جردوني من جناحيّ.."

علق أوس قائلاً "وهل هذا مهم؟.. أنت لا زلت حية، وهذا كل ما يهم.. ربما من الخير لي أن تفقدي جناحيك لكيلا تتمكني من الفرار مني كما تفعلين عادة.."

لم تعلق تيما بكلمة وهي تدفن وجهها في كتفه ودموعها لا تكف عن الهطول.. سيمضي وقت طويل قبل أن تتجاوز هذه المصيبة التي حلت عليها.. (فييّ) مثلها لا يمكنه العيش طويلاً بدون جناحين.. وقد لا يعلم أوس عنها شيئاً، لكن الكثير من كائنات عالمهم تستهدف مخلوقاً مثلها لأسباب عديدة.. ولذلك السبب يعيش شعبها فوق تلك الأشجار الضخمة التي يصعب الوصول لأعلاها، ومن النادر أن يغادر أحدهم ذلك الموقع إلا لسبب قوي.. فكيف لفتاة مثلها، بدون جناحيها، أن تتجنب ذلك المصير؟.. هل تخبر أوس بهواجسها هذه؟.. هل سيقسم عندها على حمايتها كما يسعى لحماية تلك الطفلة؟.. أم أن هذا ما ترجوه؟.. ربما لن يتحمل أوس مسؤوليتها فهو ليس مجبراً على ذلك.. وبعد كل ما جرى، انقطعت صلة تيما بشعبها وعالمها، وأصبحت وحيدة منبوذة في هذا العالم.. فبمن يمكنها أن تثق ومن يمكنه أن يوفر لها حماية دائمة دون أن تملك ما تقدمه له حقاً؟..

مع نهاية اليوم التالي، تمكن أوس من العودة بتيما للموقع الذي اتخذته سولينا وإيار معسكراً لقضاء الليلة تلك.. لم يكن ذلك المكان يبعد الكثير عن المكان الذي تركهما فيه، وقد اهتدى إليهما برائحة إيار الواضحة التي أصبح يعرفها حق المعرفة ويتمكن من تمييزها ولو من بعد كبير.. وبالفعل، لدى اقترابهما، استطاع رؤية إيار الذي اتخذ له موقعاً فوق أعلى الأشجار يراقب ما حوله ويترقب عودتهما..

وعند وصولهما للمعسكر، كان تعليق سولينا لدى رؤيتها وجه تيما بكدماته هو أن صفّرت وقالت "يا إلهي.. تبدين قبيحة!.."

اشتعل الغضب في عيني تيما وهي تواجه صراحة سولينا الصادمة، فيما أضافت سولينا ماطة شفتيها "وفقدت جناحيك أيضاً..!.. لقد أصبحت عديمة الفائدة لنا.."

قفز إيار ليغطي فم سولينا بيده ويقول بابتسامة منفعلة "هل يجب أن تكوني قاسية لهذه الدرجة يا سولينا؟..

لقد عاد الاثنان أخيراً قطعة واحدة، ولذا نحن سعيدان بالتأكيد بذلك.."

أشاحت تيما بوجهها بغضب، فيما قال أوس "لا تستثيري غضب تيما يا سولينا بتعليقاتك.. لا أريدها أن تفرّ كعادتها.. لأني لا أملك الوقت الكافي للبحث عنها في كل مرة.."

خفت غضب تيما شيئاً ما لقوله، وقد أشعرها أنه يؤكد لها بطريقة غير مباشرة أنه سيتبعها في كل مرة تحاول فيها الهرب من الفريق لأي سبب كان.. وهذا نوعاً ما أرضى غرورها، أو هذا كان تفسيرها للدفء الذي شعرت به في صدرها لكلماته تلك..

فيما انشغل أوس بتبادل الأخبار مع إيار، ومعرفة ما جرى أثناء غيابه بحثاً عن تيما، وجدت تيما أن سولينا قد رمت حقيبتها الثقيلة عند قدميها وقالت آمرة "اجلسي أرضاً.."

نظرت لها تيما بحنق دون أن تستجيب لقولها، فقالت سولينا واضعة يديها على خصرها "كيف تتوقعين مني أن أقوم بعلاجك وأنت تتصرفين بهذا الغضب تجاهي؟.. أطيعي ما أقوله لك يا فتاة.."

كانت تيما كالعادة تبغض سولينا بجفافها وكلماتها الحادة وبتصرفاتها الخشنة التي أبعد ما تكون عن معنى الأنوثة، لكنها مع الألم الذي تشعر به والدماء التي لا تفتأ تسيل من جرحي كتفيها، اضطرت للاستجابة لها وهي تجلس أرضاً وتثني قدميها تحتها، فيما جلست سولينا على صخرة قريبة وعبثت بمحتويات حقيبتها مستخرجة بعض العدة لعلاج تلك الجراح.. وبتفحص سريع لوجه تيما، غمغمت بضيق "هناك جرح سطحي في رأسك وقرب أذنك بالإضافة للكدمة الكبيرة على عينك اليمنى، ولا ننسى الجرح الذي خلّفه قطع جناحيك.. أأنت واثقة أن من فعلوا ذلك بك هم أفراد من شعبك؟"

غمغمت تيما "ما عادوا يعتبرونني منهم.. لقد أصبحت منبوذة.."

ابتسمت سولينا معلقة "مرحباً بك في الفريق إذاً.. لو لاحظتِ، فكل شخص فينا منبوذ من شعبه.."

علق إيار الذي استمع لقولها "لستُ ضمن هذه الفئة لو لاحظتِ ذلك.."

قالت سولينا ضاحكة "وهل بقي هناك ممن تعتبرهم شعباً لك؟.. أنت حالة فريدة يا فتى.."

غمغم إيار بغيظ "تباً لك وللسانك السليط.."

صمتت تيما دون تعليق وهي تستسلم ليدي سولينا الماهرة بتضميد الجروح وعلاجها علاجاً مبدئياً، وهي خبرة اكتسبتها كصيادة واضطرارها للترحال وحيدة وممارسة عمل خطر كالذي كانت تمارسه.. وبعد

بعض الصمت، سمعتها تيما تقول "الانتماء لا يعني بالضرورة أن يكون خاصاً بنوع معين من الكائنات، أو بشعب معين، أو حتى برابط الدم.. في كثير من الأحيان، نجد أن الأذى قد يطالنا من أشخاص تربطنا بهم أواصر قوية ولا نتوقع منهم خيانةً قط.. فهل هذا هو الانتماء؟.. هل العائلة، أو الشعب، هو الذي يُقتل أفراده لخطأ أو لآخر دون قبول عذره؟.. لا أظن ذلك.."

خفضت تيما بصرها بصمت وسولينا تضيف "أن تنتمي لأشخاص غرباء لكن يهتمون لأمرك، ويقلقون لشأنك.. يحاولون الدفاع عنك، ويجنبونك الأذى قدر استطاعتهم، لهو خير من الانتماء لأفراد يشابهونك في الشكل والصفات، ولكن يبغضونك ويؤذونك لأدنى سبب.. ألا ترين هذا معي؟"

أدارت تيما وجهها جانباً معلقة بهزء "مثل هذا الفريق؟"

نظرت لها سولينا بابتسامة قائلة "ليس بالضرورة.. لكن، ما باله هذا الفريق؟.. أنا أرى أنك لن تجدي أفضل منه مهما بحثت.. أليس كذلك يا إيار؟"

تأفف إيار وهو يشيح بوجهه جانباً، عالماً أن سولينا دائماً تلجأ للسخرية منه كلما أشركته بحديث.. لكن تيما صمتت دون تعليق ودون أن تتمكن من ابتلاع ما أخبرتها به سولينا.. ربما كان ما تقوله صحيحاً، وربما بالفعل عليها ألا تحزن لفقدها انتماءها لشعب (الفيي).. لكن هل هذا البديل أفضل بالضرورة؟..

بعد انتهاء حديثه مع إيار، انزوى أوس جانباً لينال بعض الراحة بعد كل الوقت الذي قضاه مستيقظاً وللمجهود الذي بذله لإنقاذ تيما.. وبعد لحظات، قبل أن يهوي في النوم بالفعل، شعر بتيما تجلس في موضع قريب بصمت وهي تفرك يديها بشيء من القلق.. فنظر إليها أوس متسائلاً "ما الأمر؟.. أهناك ما يقلقك؟"

صمتت تيما بتردد للحظات، ثم سحبت نفساً عميقاً وأخبرته بالهواجس التي دارت في ذهنها منذ غادرا قريتها ومنذ فقدت جناحيها.. كانت تلك الأفكار تدور في عقلها في كل لحظة، وتورثها قلقاً عارماً لم تستطع محوه قط.. فما كان تعليق أوس على قولها إلا أن قال "وما المقلق في ذلك؟.. كل ما عليك فعله هو البقاء معنا، وهذا كفيل بمنحك الأمان الذي تنشدينه.. كما تعلمين، الكثير من كائنات عالمنا تخشى (الرّيبال)، ولا تطيق الاقتراب من أحدهم.. هذا سيكون في صالحك بكل تأكيد.."

غمغمت تيما ساهمة "حتى متى؟.. أنا لن أستعيد قدرتي على الطيران في أي وقت قريب.. ولن يمكنني

العودة لمدينتي مطلقاً.."

استلقى أوس جانباً مديراً لها ظهره وهو يغمغم بهدوء "حتى آخر الزمان.."

نظرت تيما لظهره بصمت وانفعالات متداعية، ثم دفنت وجهها بين ذراعيها وهمست "لماذا؟.. كيف لك أن تقولها بهذه البساطة؟"

ساد الصمت للحظات حتى شعرت أنه قد غاب في النوم فعلاً، وقبل أن تغرق في انفعالاتها سمعته يقول "لقد أعدتِ لي الحياة التي كدت أفقدها وخاطرتِ بحياتك لأجل ذلك.. لذا، لا أستطيع إلا أن أعتبر حياتي هذه ملكاً لك.. وإنقاذك، أو الدفاع عنك، هو أقل ما يمكنني فعله.."

لم تكن تيما تتخيل أن يكون أوس ممتناً لها لهذه الدرجة لإنقاذه.. هل يمكنها أن تكون نادمة الآن على ما فعلته له؟.. قطعاً لا.. فهي الرابحة في النهاية..

انحنت تيما نحوه مستندة على الأرض بيديها وقالت بلهفة مدفوعة بانفعالات غامرة شعرت بها في تلك اللحظة "مادمت مقتنعاً بذلك، فلمَ تحاول المخاطرة بحياتك للحاق بتلك الطفلة بعد كل ما جرى؟.. لنغادر معاً، أنا وأنت، ولنرحل بعيداً عن كل هذه المصائب.. نحن الإثنان أصبحنا نملك مصيراً واحداً، كلانا منبوذان ومطاردان.. فلمَ لا نرحل معاً؟"

أدار أوس رأسه نحوها فرأت التصميم في عينيه الفضيتين وهو يقول بحزم "ومن يعاون ساما لإخراجها مما هي فيه؟.. كيف لنا أن نتركها تقاسي بعد كل ما قاسته في حياتها القصيرة تلك؟.."

قالت باعتراض "كلما سعيت خلفها كلما خاطرت بحياتك هذه.. أهذا ما تسعى إليه؟"

وخفضت وجهها وهي تضيف "لو فقدت حياتك.. من سيبقى معي؟.. من سيحميني؟.. لن أعيش يوماً واحداً بعد أن تموت أنت.. فهل هذا ما تريده؟"

فقال أوس وهو يدير لها ظهره من جديد "هلاّ كففت عن الأنانية للحظة واحدة؟.. لا يمكنني تحقيق رغباتك على حساب طفلة مسكينة.."

نظرت له تيما بغيظ شديد، وشعرت أن كل ما اعتمل في صدرها من مشاعر تجاه أوس قد تبخر في لحظة واحدة.. فدمدمت بحنق "يا لك من غبي.."

وابتعدت بخطوات غاضبة، فيما غمغم أوس مغمضاً عينيه "هذا ما ترددينه دوماً.."

لم يكن لكلمات تيما ورجائها أي تأثير يذكر على ما عزم أوس عليه.. رغم التحول الكبير الذي اعترى ساما في آخر مرة رآها فيها، لكنه لا يزال مصراً على استعادة الطفلة التي اختُطفت من قبضته.. لا يزال يذكر عينيها الدامعتين، ولا يزال يذكر رجاءها له بألا يتخلى عنها مهما حدث.. فكيف له أن يخيّب رجاءها؟..

طال التفكير بأوس بشكل أعجزه عن النوم وإن لم يبرح موقعه.. لابد من وسيلة ما لاستعادتها أو لضمان سلامتها على الأقل.. لا يمكن أن يظل ملاحقاً لها من مبعدة، ولا يمكن أن يسمح لتلك التي استلبت جسد ساما بأن تفلت بها بعيداً عن عينيه.. فكيف يقدر أن يضمن سلامة الطفلة حتى يتوصل لطريقة ملائمة لاستعادتها من سيطرة من تحتل جسدها؟..

الفصل السادس عشر: الأرض العالية

مع بشائر الفجر الأولى، تعالت زقزقات العصافير وهديل الحمائم في الأشجار القريبة مختلطة بصياح بعض الحيوانات التي لا يمكن رؤيتها.. سار جاد بين تلك الأشجار بخطوات خافتة لا صوت لها، وحاول التخفي خلف شجرة قريبة لئلا يجذب الانتباه إليه وهو يهيء بندقيته ويحشوها ببعض الطلقات.. دار ببصره بحثاً عن طريدة دون أن يعثر على واحدة في مثل هذا الوقت، فحوّل بصره وبحثه لفروع الأشجار القريبة وهو يدقق النظر فيها بصمت..

صوّب جاد بندقيته بدقة وهو يكتم أنفاسه، وركز انتباهه على عدد من الحمائم التي حلّت على غصن شجرة غير بعيد عن موقعه.. ثم أطلق طلقة من بندقيته دوّى صوتها في المكان الهادئ نسبياً، فتطايرت العصافير والحمائم هاربة من الضجيج فيما سقطت إحداها أرضاً وهي تنتفض غارقة في دمائها.. لم يصبر جاد وهو يصوّب بندقيته على حمامة تحلق مبتعدة عنه، فأطلق قبل أن تبتعد عن مرمى رصاصاته لتنقلب الحمامة في طيرانها قبل أن تهوي أرضاً بصمت.. حمل جاد الحمامة الأولى قبل أن يتوجه للثانية التي لم تكن إصابتها قاتلة، فأمسك بها قبل أن تهرب منه، ولوى عنقها بقوة ليحطمه ويتأكد من موتها هذه المرة..

انتبه في تلك اللحظة لوجود شخص قريب بحاسته المرهفة، فنهض على الفور متخلياً عن صيده وهو يرمق أوس الذي ظهر أمامه فجأة من خلف بعض الأشجار.. نظر له أوس بتوتر ظاهر، ثم اقترب خطوة قائلاً "أريد الحديث معك.."

فوجئ بجاد يرفع بندقيته نحوه، فقفز أوس جانباً متفادياً الرصاصة وهو يهتف "ألن تنصت لما أقوله قبل الهجوم عليّ؟"

قال جاد وهو يلاحقه ببندقيته "وما الذي يجعلني أستمع إليك؟"

رمى أوس صخرة متوسطة الحجم على بندقية جاد ألقتها من يده جانباً.. فصاح أوس محاولاً جذب انتباه جاد قبل أن يستعيد بندقيته "ما الذي تعرفه عن تلك التي تطلق عليها الكاهنة؟"

توقف جاد للحظة عن الحركة عاقداً حاجبيه، فسارع أوس ليضيف وهو يقترب منه بحذر "ما الذي تعرفه

عن تلك التي تسكن جسد الطفلة؟.. ما الذي تسعى إليه؟.. وكيف تفعل كل ما فعلته؟.. كيف تتنقل من جسد لآخر بكل سهولة؟"

فوجئ بضربة تصيب بطنه عند اقترابه، فألقته خلفاً وجاد يقول ببرود "أتظن أنني سأجيبك؟.. لسوء حظك، لا أملك أياً من تلك الأجوبة.. وحتى لو امتلكتها، لم أكن لأجيب شخصاً مثلك.."

انتهز أوس الفرصة وهو يقول "إذن أنا من سيجيبك.."

قطب جاد بشدة وقد فوجئ بذلك.. كيف لرجل مثل هذا أن يعرف ما لا يعرفه غيره؟.. لقد كانت الكاهنة موجودة قبل أن يدخل هو السجن، وكانت موجودة لسنوات وسنوات قبلها.. وخلال السنوات التي تسبق تلك الليلة التي انتهى كل شيء فيها بالنسبة له، أجرى بحثاً دقيقاً وتقصّى هوية الكاهنة قدر استطاعته في القلعة.. لكن حتى الملك لم يكن يملك إجابات شافية بخصوصها.. فكيف لهذا الشخص أن يفعل ذلك؟..

لم يغيّر جاد وضعيته ولم يبدُ أكثر ترحيباً بأوس، لكنه قال رغم ذلك "وما الذي تعرفه؟"

قال أوس "أعرف ما يكفي لأن أدرك أن الأمر كبير بالفعل.. هل تعرف الحكيم؟"

أجاب جاد بسرعة "ذاك العجوز الذي سعى لمقابلة الكاهنة منذ أيام قليلة؟.. هذا لا يجيب أي سؤال من تلك الأسئلة.."

دهش أوس لهذا الخبر، لكنه قال متغاضياً عن ذلك "الحكيم يعرف فتاة تتلمذت على يد أحد الكهنة منذ سنوات طويلة.. ولقد اختفت منذ زمن بعيد دون أن يبقى لها أثر.. هذه الفتاة هي الوحيدة التي تعرف تعويذة كتلك التي نفذتها الكاهنة على جسد الطفلة البشرية.. وهي تنتقل من جسد لآخر باستخدام وشم وسمته في مؤخرة عنق ضحاياها.."

قطب جاد بصمت وهو يستمع إليه، فيما أضاف أوس "الحكيم، وذلك الكاهن الذي مات مقتولاً منذ سنوات، هما الوحيدان اللذان يملكان هذا العلم ويتقنانه.. ربما لو أخذت الطفلة للحكيم قد يتمكن من التصرف بشأنها ويستعيد الطفلة من براثنها.."

كانت تلك فكرة معقولة، وهي حلّ مثالي لجاد الذي يسعى للخلاص من الكاهنة.. لكن ما أدراه أنها قد تتعاون مع الحكيم رغم كل شيء؟.. إنه لا يعرف هدفها الحقيقي من كل ما تفعله.. ويبدو أن أوس لا يعلم

ذلك بدوره.. فقال جاد "ومن قال إنني سأطيعك في هذا الأمر؟.. أخبرتك أنني لا أهتم لأمر الطفلة.. سأبقى بجوار الكاهنة حتى تتمكن من إنجاز مهمتها.. هذا كل ما يهمني الآن.."

تساءل أوس بتوتر شديد " وما الذي تنوي فعله بعد أن تنجز الكاهنة مهمتها المجهولة هذه؟.. هل ستتركني أعيدها لعالمها؟"

قال جاد بهزء "أأنت أحمق؟.. من ستعيده هي تلك الكاهنة البغيضة، وهي لن تقبل بذلك على كل حال.."

قال أوس بقلق "ما الذي تنوي فعله إذاً؟"

أجاب بلهجة صارمة "سأقتلها وأتخلص منها بشكل نهائي.."

بهت أوس لهذا الرد، فصاح "لماذا تفعل ذلك؟.. ألستَ حارسها؟"

قال جاد بغضب "في الوقت الحالي فقط.. أنا لا أهدف لحمايتها بشكل كامل، بل هناك عهدٌ بيننا على أن أساعدها على تنفيذ هدفها، مقابل أن تسلّم عنقها لي بدون اعتراض.."

نظر له أوس مبهوتاً للحظة، ثم قال بوجه محتقن "هل تنوي التهامها؟.."

أطلق جاد ضحكة ساخرة، وأجاب "الغيلان لا يلتهمون البشر.. بل يلتهمون أحشاءهم فقط.. ونحن نصف غيلان فقط، وقد تحررنا من تلك العادة البذيئة منذ القِدَم.. كل ما أنتويه هو قتلها فقط ولا مأرب لي في جسدها بتاتاً.."

قال أوس باعتراض "كيف تفعل ذلك؟.. أنت ستؤذي هذه الطفلة.. كيف لك أن تتحلى بهذه القسوة؟"

أجاب جاد ساخراً "لقد قتلتُ شقيقتي الوحيدة حينما كانت الكاهنة تحتل جسدها، وكنت آمل أن تنتهي الكاهنة معها.. لذا ترى أنني قد لا أتحلى برهافة المشاعر كما قد تتخيل.."

صدم أوس لما يسمعه وهو ينظر لجاد بصمت.. أيمكن أن يفعل شخص ذلك بدون أدنى تردد؟.. ألم يندم على ما فعله قط؟.. كيف له أن يأمن على الطفلة وهي برفقة هذا الرجل؟.. قال أخيراً في محاولة لثنيه عن هذا الأمر "أليست الكاهنة تتنقل بين الأجساد؟.. ما يدريك أن تحاول خداعك وتنتقل لجسد جديد، بينما من يموت على يديك هي الطفلة البشرية؟"

أجاب جاد "هناك وسيلة خاصة لفعل ذلك، وهي قد وعدتني أن تخبرني بها في النهاية.. أنا قد أقسمتُ على قتل هذه الكاهنة مهما كلفني ذلك.. ولن يقف شخص في طريقي بتاتاً.."

كان هذا تهديداً واضحاً لأوس، لكنه لم يتردد وهو يقول بحزم "وأنا قطعاً لن أسمح لك بذلك عندها.."

نظر له جاد بنظرة حادة دون أن يُظهر أوس خوفاً منه وهو يضيف "لذا ترىٰ أنني لن أحاول اعتراضك في الوقت الحالي، ولن أحاول الوقوف في وجهك ما لم تحاول إيذاءها.. لذا لا يمكنك أن تمانع من وجودي معكما.. كي أضمن سلامة الطفلة في الوقت الحالي علىٰ الأقل.."

صمت جاد لوقت طويل مقلباً الأمر في عقله، ثم قال أخيراً "لو أنك وعدتني بألا تتدخل في أموري حتىٰ نصل لتلك اللحظة، فأنا لا أمانع من وجودك معنا.."

هز أوس رأسه قائلاً "لن أفعل ذلك لو لم تسبّب أي ضرر للطفلة.."

لم يعلق جاد وهو يستدير مغادراً بعد أن استعاد بندقيته، وكان هذا إذناً لأوس باللحاق به دون اعتراض..

وفور عودتهما للموضع الذي ترك فيه جاد الكاهنة، كانت ثورتها عارمة وهي ترىٰ أوس يتبعه دون ممانعة من حارسها الشخصي.. غاظها هذا بشدة لأنه يعرض وجودها وكيانها لخطر شديد، ونوبات فقدانها السيطرة علىٰ هذا الجسد أكبر دليل.. لكن كيف لها أن تشرح له الأمر دون أن تغريه باستغلال ذلك للخلاص منها؟..

تجاهلت أمر أوس تماماً وهي تصيح في وجه جاد "كيف تتجاهل أوامري بهذه الصورة؟.. تخلص من هذا الرجل.. كم مرة يجب أن أطلب منك قتله والخلاص منه بشكل نهائي؟"

قال أوس عاقداً حاجبيه "لِمَ أنت مصرّة علىٰ قتلي بالتحديد؟.."

قالت باستياء "لأنك تصرّ علىٰ ملاحقتي وتعطيلي بهذه الصورة.."

وعادت ببصرها لجاد قائلة بصرامة "لا أريد أن أرىٰ هذا الرجل من جديد.. ألا تفهم هذا؟"

قال جاد ببرود "ليس من مهامي الحفاظ علىٰ مزاجك رائقاً.. لقد وعد بألا يقف في طريقنا، فلا أرىٰ مانعاً من لحاقه بنا.."

صاحت الكاهنة بحنق "لكن كيف تقتنع بقوله بهذه البساطة؟.. هل هيأ لك عقلك الصغير هذا أنه سيلتزم بوعده لك بكل شرف؟"

قال جاد ساخراً "ليس لكِ أن تتحدثي عن الوعود يا هذه.."

أرغَت الكاهنة وأزبَدت محاولة التخلص من أوس أو إقناع جاد بذلك، لكن بعد أن أدركت أن صياحها

لن يأتي بالفائدة المرجوّة منه، اضطرت للاستسلام وهي تنفخ بغيظ.. ثم قالت محتدة "لو عاقني هذا الوغد من إتمام مهمتي، فلن تتمكن من الحصول على مرادك، ولن أمكّنك من القضاء علي كما ترجو.. لذا سيكون الذنب ذنبك أنت في النهاية.."

واستدارت رامية جسدها الصغير على فراش قرب النار الخامدة، تاركة جاد يقوم بتحضير طعامهما البسيط بنفسه.. وقف أوس صامتاً للحظة ينظر تجاه الكاهنة وقد راودته رغبة شديدة باستجوابها من جديد لمعرفة الوسيلة التي يمكن بها تخليص ساما منها.. لكنه لا يشك بأن ذلك الرجل سيمنعه من الاقتراب منها، ناهيك عن قيام الكاهنة بإجابته طواعية..

زفر أخيراً واستدار مبتعداً عائداً لرفاقه.. وبعد وقت قصير، عاد أوس بفريقه المكون من تيما وإيار وسولينا، والتي قالت بابتسامة مرحة فور اقترابها من النار "مرحى.. ها نحن نلتقي من جديد أيها الغول.."

ألقى جاد عليها نظرة جامدة دون انفعال، وهي تضيف "لكن لم أظن للحظة أن تكون رقيق القلب فتسمح لنا بمرافقتكما بدل اللحاق بكما سراً.."

لوّح جاد بخنجره وهو يقول منذراً "سأغضّ الطرف عن وجودكم، شرط ألا يحاول أحدكم خداعي بأي وسيلة كانت، وألا يقترب أحدكم من الكاهنة ولو لبضع خطوات.. عندها، لن أتردد في قتل من يخالف أمري هذا.."

علقت سولينا بسخرية "رقيق القلب حقاً.."

همست تيما في أذن أوس بشيء من الحنق "أأنت واثق أن هذا قرارٌ سليم؟.. ماذا لو حاول هذا الغول قتلنا أثناء نومنا؟.. من يأمن لشخص مثله؟"

علق أوس "هذا كان الخيار الوحيد.. ونحن قد توصلنا لاتفاق، فما من سبب لكسره مادمنا قد التزمنا بما قرره علينا.."

قالت سولينا في تلك اللحظة "إذن.. ما الخطة؟"

قالت الكاهنة بغضب واضح "الخطة أن تقفلي فمك وتصمتي.. لا أريد أن أشعر بوجود أحدكم حتى نهاية هذا الأمر.."

عقدت سولينا ذراعيها قائلة بتحدٍ "وما هي نهاية هذا الأمر؟.."

تجاهلتها الكاهنة بشكل تام بعدها.. فيما قال أوس "التزمي بما يطلب منك ولا داعي لإثارة المشاكل.. نحن بغنىً عن هذا في الوقت الحالي.."

دمدمت سولينا بحنق "ولِمَ كانت الانتقادات من نصيبي أنا فقط؟.."

تفرق الجميع في المكان بانتظار ما سيجري، وما ستقرره الكاهنة التي تقود هذه القافلة الغريبة في الساعات والأيام القادمة..

سار الفريق الغريب ليومين آخرين، قاطعاً جانباً من السهول باتجاه الشمال الشرقي دون أن يملك أفراده من أمرهم شيئاً.. ساروا تابعين أوامر الكاهنة، دون تردد وبلا كثير أسئلة حتى أشرفوا على جانب من النهر قرب إحدى القرى الصغيرة التي استقرت على ضفته مكونة ميناءً صغيراً للسفن العابرة.. وعندما أشرفوا على النهر، أصرّت الكاهنة على التخييم في ذلك المكان، على تلة تشرف على القرية، دون أن تمنحهم أي تفسير لذلك، ودون أن تخبرهم بالهدف الحقيقي لهذه الرحلة.. ورغم كل تذمرات سولينا، إلا أن الكاهنة التزمت الصمت التام ونأت عنهم بأفكارها طوال وجودهم في هذا المكان..

وفي اليوم التالي، ومع شروق الشمس، اكتشف الجميع أن جاد قد اختفى..!.. لم يكن له أثر في الموقع كله، وبالمقابل لم يبدُ على الكاهنة أي قلق أو انفعال لغيابه.. تجرأ أوس أخيراً للاقتراب منها متسائلاً بتقطيبه "أين ذلك الرجل؟.. هل رحل؟"

قالت الكاهنة بجفاء "سيعود.."

تعجب أوس لقولها.. لا يجد أثراً من رائحة ذلك الرجل، معنى ذلك أنه بعيد جداً عن موضعهم هذا.. فكيف غادر تاركاً الكاهنة قربهم دون أن يخشى عليها منهم؟.. أكان ذلك بتخطيط منها أم اتباعاً لأوامرها؟..

سمع سولينا تقول بحماس "هل رحل ذلك الغول حقاً؟"

نظرت لها الكاهنة بطرف عينها باستصغار، لكن سولينا لم تتردد في التقدم منها وإمساك مجمع ثيابها قائلة

بابتسامة "إذن لا يمنعنا شيء عنك الآن.. ستجيبين عن كل ما نسألك عنه، وستعيدين الطفلة التي استلبتها منا.."

حدجتها الكاهنة بنظرة حادة وقالت ساخرة "أظننت أنني سأترك حارسي يرحل دون أن أكون واثقة من قدرتي على حماية نفسي؟"

قطبت سولينا معلقة "وكيف ستفعلين ذلك؟"

اقترب أوس مضيفاً "لا يجب أن نلجأ للعنف يا سولينا، لا ندري ما قد يؤثر على الكاهنة وما قد يصيب الطفلة.."

علقت سولينا بضجر "أعرف ذلك يا أوس.. أنت تتصرف كأبٍ عجوز.."

لم تنتبه سولينا للكاهنة التي أخذت تتمتم بكلمات متلاحقة دون إصدار صوت، ولما فرغت من ترديد تلك الكلمات لمست بطن سولينا بأطراف أصابعها، ففوجئت سولينا بضربة قوية تصيب بطنها وتكاد تسقطها خلفاً.. تأوهت سولينا بألمٍ، فيما قالت الكاهنة بتشفٍ "لن أتردد في استخدام القوة يا هذه.. فالزمي مكانك ولا داعي لإحراج نفسك أكثر من هذا.."

تمالكت سولينا الألم الذي اندلع من جرحها الذي لم يلتئم بشكل تام بعد، وتقدمت من الكاهنة بغيظ لتجد أوس يقف في وجهها كالعادة مانعاً إياها من إيذاء الطفلة.. وقال محاولاً تهدئتها "لا داعي لإيلام نفسك أكثر من هذا.. لا ندري ما الذي تقدر عليه هذه الكاهنة وما الذي قد تفعله لو استثرنا غضبها.."

لكن ما لم يعلمه أحدهم أنها ليست قادرة على تنفيذ أي تعاويذ سريعة دون الإعداد لها مسبقاً بترديد كلمات معينة.. كانت تلك نقطة ضعفها منذ البدء، عندما غامرت برمي كل شيء خلف ظهرها قبل أن تمتلك القدرة على القيام بتعاويذ دون الإعداد لها مسبقاً بترديد بعض الكلمات المعينة.. لكنها تجاهلت هذه الحقيقة التي لم تقدر على تجاوزها، واكتفت بابتسامة واثقة ومتحدية لتوهمهم أنها قادرة على ما لا طاقة لهم به..

مضى اليوم بصمت وهدوء غريب والكاهنة ترفض التحرك من مكانها بانتظار عودة جاد، مما أكد للجميع أنها أرسلته في مهمة ترفض إخبارهم عنها.. ومع قرب مغيب الشمس، دون أن تبدو أي لمحة من جاد، قاموا بتهيئة المكان لقضاء الليلة فيه.. وفيما انشغلت سولينا كالعادة في إشعال النيران، موكلة أمر الطريدة هذا اليوم لأوس، اقترب إيار من الكاهنة بصمت وسكون.. حاول تشمم الهواء حولها بحثاً عن أي لمحة

بشرية فيها، وهو الذي يعلم أن تلك الرائحة تثير جنون بعض الكائنات وتدفعهم للهجوم على البشر دون هوادة.. لكن إيار لم يسبق له رؤية بشري، ولا تبدو له هذه الطفلة مختلفة في هيئتها عن أي طفل في القرى الزراعية.. فما هو السر في تلك الرائحة؟..

لم يكن قد تجاوز الأمتار القليلة الفاصلة بينهما عندما تعالى صوتها قائلة بصرامة "أتريد أن تموت؟"

فقال على الفور "وهل يموت المرء لفضوله؟"

لم تجبه الكاهنة أو تنظر إليه، فتشجع أكثر ليقول "لم يسبق لي أن رأيت بشرياً قط، لكني لا أرى في هذه الطفلة أمراً مختلفاً.. حتى تلك الرائحة التي قيل أنها تثير جنون كائنات عالمنا، لا أجد لها أثراً.."

قالت الكاهنة بحزم "طبعاً لن تجدها.. لقد طمستها.."

صمت إيار مفكراً في قولها بحيرة.. كيف يمكن للمرء طمس رائحة جسده عن الآخرين بهذه الصورة؟.. إنه لا يجد للكاهنة أي رائحة مميزة.. بل إنه موقن أنها بلا رائحة إطلاقاً.. وهذا كفيل بإثارة التوجس في نفسه بشكل لم يتوقعه..

تساءل إيار بتردد بعد بعض الصمت "أحقٌ أنك تقدرين على السيطرة على الآخرين؟"

مطّت الكاهنة شفتيها مجيبة "أستطيع تجميدهم.. لكن لا ينصاع كل شخص لي، لذا أحياناً تكون سيطرتي ضعيفة فأعجز عن إجبارهم، وأحياناً تكون سيطرتي من القوة بحيث يمكنني تنفيذ بعض الأعمال البسيطة بواسطة الشخص الذي أسيطر عليه.."

ونظرت لإيار مضيفة بسخرية "أتريد أن نجرّب مقدار سيطرتي عليك؟"

انتفض إيار واقفاً وقال "لن أسمح لك بذلك.."

ضحكت الكاهنة بسخرية للخوف الذي تبدى في عينيه للحظة، بينما بادر إيار بالابتعاد وكأنه يخشى أن تنفذ قولها ذاك بالفعل..

في جانب آخر من معسكرهم الصغير ذاك، ظلت تيما جالسة على صخرة قريبة تتأمل ما حولها وتراقب أوس بصمت ونفاذ صبر فيما انشغل هو بسنّ أحد خناجر سولينا وتثبيته في مقبضه بإحكام.. كانت تنتظر أن يحضر لها طريدة جديدة كما يفعل كل يوم، فهي غير قادرة على ملاحقة الطرائد دون أجنحة.. وأغلبها يفرّ هارباً قبل أن تصل إليها وتتمكن من جذبها بسحر عينيها التي لا يمكن الإفلات منها..

ظلت تيما تنتظر أوس حتى عيل صبرها وهي تهز قدمها بعصبية.. لكن صمت أوس طال أكثر من اللازم وبدا لها أنه يتجاهلها.. إنه حتى لم يرفع بصره لقدومها ولم يلقِ عليها نظرة واحدة رغم أنها واثقة أنه أدرك اقترابها منه قبل أن تصل برائحتها..

مع حركات تيما العصبية، علق أوس أخيراً دون أن يتخلى عما بيده "أدرك ما تنتظرينه يا تيما.. عليك أن تتحلي ببعض الصبر قليلاً.."

قالت تيما بشيء من الاعتراض "لقد انتظرتك وقتاً طويلاً.. كيف تترك فتاة مثلي تنتظرك طاوية جوعها؟.. ماذا لو تأثر جمالي بسبب هذا الجوع؟"

قال أوس بهدوء "لن تفقدي جمالك لو تحملتِ هذا الجوع قليلاً.."

مطت شفتيها مغمغمة "غير لطيف أبداً.. كنت أكثر استجابة لي وانبهاراً بهذا الجمال سابقاً.."

نظر لها أوس معلقاً "لو كنت تقصدين لقائنا الأول، فلم يكن انبهاري بك أنت، بل بهيئتك التي لم أرَ مثلها قط.. لا أظن ردة فعلي ستتغير حتى لو كان من رأيته من (الفيي) رجلاً.."

عادت تيما تقول حانقة "غير لطيف أبداً يا هذا.."

تساءلت سولينا التي كانت تراقب جدالهما من قرب بفضول واضح "هل رجال (الفيي) يتحلّون بالقدر ذاته من الجمال؟.."

طوّحت تيما خصلة خلف كتفها مجيبة بجفاء "ربما..."

عندها علقت سولينا "لو كان رجال ونساء (الفيي) يملكون القدر ذاته من الجمال، أهذا يعني أنك بينهم عادية المظهر؟.. إذن ما بالك فخورة بجمالك بهذا القدر؟"

قالت تيما بغيظ "هلاّ صمت وكففت عن تعليقاتك البغيضة هذه؟.. أيجب أن تسخري من كل أمر؟"

أجابت سولينا بابتسامة "أرد هذا القول لك أنت.."

نهض أوس رامياً ما بيده لسولينا قائلاً بضيق "ألا تكفان عن الجدال لحظة واحدة؟.."

وغادر بحثاً عن طريدة لتيما ولبقية الفريق، فيما اتسعت ابتسامة سولينا معلقة "ها قد بقينا وحدنا يا فتاتي.."

تأففت تيما مغادرة بدورها تاركة سولينا تغمغم "ما بال الجميع يهرب مني؟"

أمضت المجموعة يومان كاملان في هذا المكان دون حراك وقد رفضت الكاهنة بإصرار الرحيل والتزمت الصمت طوال وجودها بانتظار عودة جاد.. وهذا أثار جنون سولينا وهي تقول لأوس بعيداً عن سمعها "هذه فرصة ملائمة للهرب بها.. ما الذي تنتظره؟"

قال أوس مقطباً "إنها قادرة على حماية نفسها كما رأيت، ثم إننا لو أجبرناها على الرحيل فقد تعمد لإيذاء الطفلة.. كما علمت فإن هذه الكاهنة تستطيع الانتقال بين الأجساد بسهولة.. فماذا لو قامت بإيذاء الطفلة وقتلها؟.. إنها لن تخسر شيئاً، بينما نخسر نحن كل شيء.."

زفرت سولينا قائلة بغيظ "لكني لا أطيق هذه السلبية.. والأمور لن تكون أفضل بعد عودة ذلك الغول واعتراضه طريقنا كعادته.."

لم يكن لاعتراض سولينا أي أثر في البقية وهم صامتون بانتظار خطوة الكاهنة القادمة.. وفي عصر اليوم الثاني، وقفت الكاهنة على تلة مطلة على النهر القريب وهي تراقب القوارب والسفن التي تقطعه من جميع الاتجاهات.. بعد يومين من الانتظار، شعرت باقترابه قبل أن تراه حقاً.. وبالفعل، استطاعت أن ترى جاد بجسده الطويل يقترب منها من اتجاه ضفة النهر القريبة.. وعلى ظهره، رأت ذلك الشوال الذي بدا ثقيلاً ثقلاً ملحوظاً.. لكنها كانت واثقة أنه لم يحو أي ثمار أو حبوب في قلبه.. اقترب جاد بصمت دون أن يتلطف بأي تحية، ورمى الشوال عند قدميها قائلاً "ها هو المطلوب.. لم يكن صعباً علي الحصول على ستة من القائمة التي طلبتها مني، لكن السابع كان صعباً نوعاً ما.."

فتحت الكاهنة الشوال وتفحصته بشغف واضح، ثم قالت باستنكار "أنت فشلت في إحضار أهم واحد فيهم.."

علق جاد بهدوء "لا يهم، فالحصول على السابع لن يكون صعباً الآن.."

نظرت الكاهنة للفريق الذي بدا من مبعدة، وغمغمت "إذن وجودهم سيكون مفيداً رغم كل شيء.."

واستدارت مغادرة تاركة أمر الشوال لجاد، فحمله وسار خلفها بصمت حتى وصلا للمكان الذي قبعت فيه جماعة أوس.. تعلقت أبصار البقية بالشوال الغريب الذي يحمله جاد، لكنه لم يعبأ بتفسير وجوده،

وكذلك لم تهتم الكاهنة بإجابة أسئلتهم الصامتة وهي تقول باقتضاب "هيا.. سنرحل حالاً.."

تساءلت سولينا بدهشة "لمَ يبقَ الكثير على حلول الليل.. لمَ لا نعسكر هنا حتى الصباح؟"

قالت الكاهنة عابسة "أنا لست مقيدة بأحدكم.. سأرحل، ومن يشاء اللحاق بي فليفعل ذلك دون أن يكثر من الأسئلة.."

بدا الاستنكار على وجه سولينا، فيما تساءل جاد في تلك اللحظة "بعد كل هذه المسافة التي قطعناها.. ألن تخبريني عن وجهتنا حقاً؟"

مطّت الكاهنة شفتيها قائلة "لمَ أنت مصرّ على معرفة ذلك؟.. الوقت يداهمنا ونحن نتأخر في سيرنا ساحبين معنا هذا الفريق المجنون.."

قال جاد بحزم "لكنني لن أتحرك قبل أن أعرف متى ستنتهي بنا هذه الرحلة.. يبعد عنا شاطئ البحر الشمالي مسير يوم، فأي وجهة تلك التي تسعَينَ إليها؟.."

زفرت الكاهنة بحدة وقالت "طريقنا للشمال.. نحو مدينة (الأرض العالية) التي تقع على شاطئ البحر.."

نظر لها جاد والبقية باهتمام وتساؤل، وهي تضيف بابتسامة ساخرة "من هناك، سنرحل في إحدى السفن التي تقطع ذلك البحر الشاسع.. فوجهتنا تقع وسط البحر، لا في هذه الأرض.."

واتسعت ابتسامتها بثقة في مواجهة نظراتهم المدهوشة والتساؤل الواضح في أعينهم عن سبب هذه الرحلة التي ستقطع بهم هذه المسافات الشاسعة لأمر يجهلونه حتى هذه اللحظة..

فتحت ساما عينيها ورمشت قليلاً وهي تتلفت حولها.. كان نور الفجر قد شق الأفق، فيما تعالى صوت المياه ضاجة بالحركة من الشاطيء القريب.. مضت أيامٌ طويلة منذ بدأت هذه الرحلة برفقة جاد، وانضمّ إليهما الآخرون.. والآن، بعد كل تلك الأيام المضنية، وصلوا للشاطئ الذي يقع شمالاً ويطل على بحر واسع يمتد نحو الأفق.. كانت تلك هي المرة الأولى التي ترى فيها بحراً، وشغفها منظره وحركته الدؤوبة التي لا تعرف الهدوء.. وقريباً منهم، قبعت تلك المدينة ذات الأسوار الشاهقة بلونها الأحمر الجميل وبواباتها السوداء الضخمة.. كانت مدينة (الأرض العالية) قد سميّت بهذا الاسم لأنها تقع في أعلى نقطة

من هذه الأرض، ويعزو البعض اسمها لتلك الأسوار العالية التي لا تباريها أية أسوار في هذا العالم..

مع وصولهم لهذا المكان في آخر ساعات النهار السابق، اضطرت المجموعة لقضاء الليلة في العراء انتظاراً لطلوع شمس اليوم التالي.. فمدينة (الأرض العالية) لا تسمح للغرباء بدخولها ليلاً وتغلق أبوابها دونهم حتى الصباح.. لكن لم يكن ذلك عسيراً والمجموعة معتادة على قضاء الليل في العراء طوال الأيام الماضية..

كانت رائحة المكان منعشة ممتزجة برائحة البحر، فيما بدأ صوت خافت يتعالى من المدينة القريبة ومن مينائها الذي بدأ ينشط مع أولى تباشير الصباح..

تلفتت حولها لترى رفاقها، إن صح تسميتهم بذلك، غارقين في نوم عميق.. سولينا تنام وخنجرها تحت وسادتها، وهي تكتف ذراعيها على صدرها في وضعية تبدو لها متحفزة.. إيار استلقى جانباً منطوياً وجناحاه مضمومان حوله، وتيما انطوت بدورها قرب النار الخامدة ضامة ساقيها بذراعيها وكأنها في شرنقة.. جاد ينام جالساً، وهي وضعية غريبة وغير مريحة للنوم، لكن ربما كان ذلك راجعاً لسنوات السجن الطويلة التي سجن فيها في تلك الزنزانة الضيقة.. أما أوس فقد استلقى على جنبه واضعاً ذراعه تحت رأسه كوسادة، وهو يولي رفاقه ظهره مواجهاً العراء.. وكأنه يفضّل مواجهة المجهول الذي قد يتسلل إليهم من العراء عن أن يوليه ظهره..

اعتدلت ساما جالسة وزحفت على ركبتيها متجاوزة إيار القريب لتصل إلى أوس وهي تحاذر من إصدار صوت.. كانت تلك من اللحظات القليلة التي تستعيد فيها سيطرتها على جسدها، ولا تدري كيف ولا سبب حدوث ذلك.. لقد دأبت خلال الأيام الماضية على تركيز عقلها وتفكيرها في محاولة منها لاستعادة شيء من السيطرة على جسدها، أو على الأقل لرؤية ما يجري حولها.. كانت أحياناً تتمكن من الإنصات لبعض الأصوات حولها، وبعض الحوارات التي تدور قريباً منها.. وأحياناً أخرى تتمكن من رؤية المكان الذي تقف فيه، أو يقف فيه جسدها، لبرهة وجيزة سرعان ما تذوب في سواد عقلها الدائم.. لكنها لم تكف عن محاولاتها قط، ولم تتوانَ عن تركيز عقلها أكثر فأكثر في كل مرة..

وهذه المرة، وجدت أنها لم تستعد بصرها وسمعها فقط، بل استعادت قدرتها على تحريك ذراعيها وجسدها بشكل طبيعي.. لكن كان الأمر متذبذباً بحيث أدركت أن هذا الإنجاز لن يطول كثيراً.. ومع رؤية أوس قريباً، راودتها رغبة قوية في الحديث معه.. كانت تود لو يهرب بها أوس من هذا المكان، وكأنها بذلك

تستطيع الفرار من أسر الكاهنة التي تسيطر على عقلها وجسدها وتلقيها في غياهب الظلمة الكئيبة التي لا تملك الفكاك منها.. لكنها أدركت أنه لن يفعل ذلك، وأدركت أنه ينتظر اللحظة المناسبة لذلك مما التقطته من أحاديث في بعض الأوقات..

وفي الآن ذاته، شعر أوس وهو يستيقظ من نومه بشيء يضغط على ذراعه ويستند عليه بصمت.. فالتفت بحذر خشية أن يكون ذلك أحد الحيوانات البرية يسعى خلف عنقه، لكن ما رآه كان وجه ساما التي كانت راكعة خلفه، وتستند على ذراعه بيديها الصغيرتين وهي تحدق في وجهه بصمت وانفعال واضح.. قطب أوس لمرآها وقد حسبها الكاهنة، فما عاد يستطيع التفرقة بينهما، عندما سمعها تهمس بانفعال "لا ترحل يا أوس.. عدني أنك لن ترحل قط.."

أدرك أوس على الفور أن ساما قد استعادت السيطرة على جسدها، فهبّ جالساً وهو يمسك كتفيها متسائلاً بلهفة "هل أنت بخير يا ساما؟.. كيف تشعرين؟.. وما الذي حدث لتعودي؟"

قالت بحيرة واضحة "لا أعلم.. أحياناً أفتح عيناي فأجد نفسي في ظلام تام وعزلة تشعرني بالخوف، وأحياناً أفتحها لأرى النور وأجد نفسي في هذا العالم.. ولا أدري كيف يحدث ذلك.."

ثم نظرت له مضيفة "لكني في كل مرة أرى النور فيها، أكاد أسمع صوتك قريباً مني.. أحياناً أشعر بوجودك، لذا أستجمع قواي وأفكر بقوة برغبتي بالعودة.. وفجأة أجد نفسي هنا.."

فقال أوس بانفعال "إذن يمكنك الخلاص منها بوسيلة ما.. بإرادتك، يمكنك طرد تلك الدخيلة دون شك.."

هزت رأسها موافقة بشيء من القلق، فلم يكن الأمر بالسهولة التي يتصورها، ثم تمسكت بيده وهي تقول برجاء "لا تتركني يا أوس.. لا أعلم ما الذي سيحلّ بي عندما يحيطني الظلام.. وذاك الرجل المخيف لا يشعرني بالراحة.. فهل تعدني أنك ستبقى معي وتحميني؟.. هل ستنتظرني حتى أعود؟.."

قال أوس بإخلاص "طبعاً سأفعل ذلك يا صغيرتي.. كوني واثقة من....."

رآها ترمش بعينيها للحظات، ثم وجدها تنفض يدها من يده وتلطم يده بعيداً قائلة ببرود "يا للطف.. هل ستنذر حياتك لحماية طفلة حقاً؟.. يبدو أنك لا تملك ما تفعله سوى ذلك.."

ووقفت مديرة له ظهرها وهي تغادر، فقال أوس بضيق "كيف تفعلين ذلك؟"

التفتت إليه الكاهنة بهدوء وهو يضيف "كيف تستطيعين استلاب وعي ساما منها في لحظات معدودة؟.. كيف تسيطرين عليها بهذه الصورة؟"

قالت بتقطيبة ظاهرة "اهتم بشأنك ولا تتدخل في أموري.."

قال أوس بحنق "لكن شأن ساما يخصني.. وأنتِ الدخيلة عليها.. لذا لا يحق لك التصرف بهذا الاستعلاء والكِبرَ.."

كان صياحه قد جذب الانتباه إليهما من البقية، لكن الكاهنة لم تعبأ بالنظرات الموجهة نحوها وهي تبتعد بخطوات هادئة حتى وقفت أمام جاد الذي كان يراقبها صامتاً.. وقالت بجفاء "علينا الرحيل.. يجب أن نجد سفينة تنقلنا قبل أن ترحل أغلب السفن، لئلا نضطر للانتظار ليوم آخر.."

لم يعلق جاد باعتراض على أمرها، بل نهض حاملاً بندقيته وعلقها على كتفه، ثم طوى متاعه القليل ووضعه في حقيبة حملها على كتفه وهو يسير نحو المدينة القريبة والكاهنة تسير قربه بتقطيبة ظاهرة على جبينها.. قفز أوس على الفور وحمل متاعه بدوره وهو يركل إيار القريب الذي ما يزال غارقاً في النوم قائلاً "هيا بنا قبل أن يرحلوا عنا.."

نهض إيار مفزوعاً، بينما دمدمت سولينا وهي تغسل وجهها ببعض الماء الذي تملكه "إنهم لا يسمحون لنا ببعض الوقت لتناول شيء ما.. بودي لو أركل تلك الكاهنة الضئيلة بقسوة.."

قال أوس مقطباً وهو يبتعد "إياك.."

فزفرت بحدة معلقة "على الأقل لا تعترض لو قمت بركل جاد.. هذا أقل ما يجب فعله.."

غمغم إيار القريب متثائباً "بودي أن أرى نتيجة ذلك.."

سحبت سولينا فراشها من تحته حتى رمته أرضاً على الرمال بغيظ لاستهزائه بها، فيما أسرعت تيما بغسل وجهها وتمرير أصابعها على خصلات شعرها المتموجة لترتيبها، ثم نهضت بخفة ولحقت بأوس الذي تقدمهم تابعاً جاد والكاهنة بخطوات حثيثة..

بدأت الشمس تنير الأفق بوضوح، وبدا لهم ذلك الشاطئ برماله البيضاء الناعمة وهو يمتد أمامهم لمسافة طويلة، فيما تضربه المياه الزرقاء الشفافة بنعومة وتواتر.. وعلى مسافة محدودة من مكانهم، تبدت لهم تلك المدينة الصغيرة التي يحيطها سور مرتفع يكفي لمنع أي تسلل إليها ليلاً، فيما امتد ميناؤها شاقاً البحر وموفراً

مكاناً آمناً لمئات المراكب والسفن للرسو عنده والتزود قبل مواصلة الرحلة لميناء آخر أو جزيرة بعيدة ذات أهمية..

لم تلتفت الكاهنة أو جاد ولو لمرة لرؤية إن لحق بهما بقية أفراد الفريق أم لا، وبينما سارعت سولينا للحاق بأوس وتيما، حلق إيار بجناحيه متجاوزاً المجموعة ونحو المدينة لاستكشافها قبل وصولهم.. تجاوزت المجموعة سور المدينة دون عوائق، فالمدينة معتادة على القوافل وعلى أنواع مختلفة من الزائرين بحيث لا تتدخل في هوية من يصل إليها.. سار الفريق بأفراده المتباينين بشدة، عابرين طرقات المدينة المنظمة النظيفة والتي لا تشبه أي قرية من القرى التي مروا بها.. كانت تلك المدينة، ومدينة (ركام الملح) المشابهة لها، مزدهرتين بسبب حركة الملاحة الدؤوبة التي لا تكاد تخفت طوال أيام السنة، بالإضافة للقوافل التي تصل إليها من أرجاء ذلك العالم..

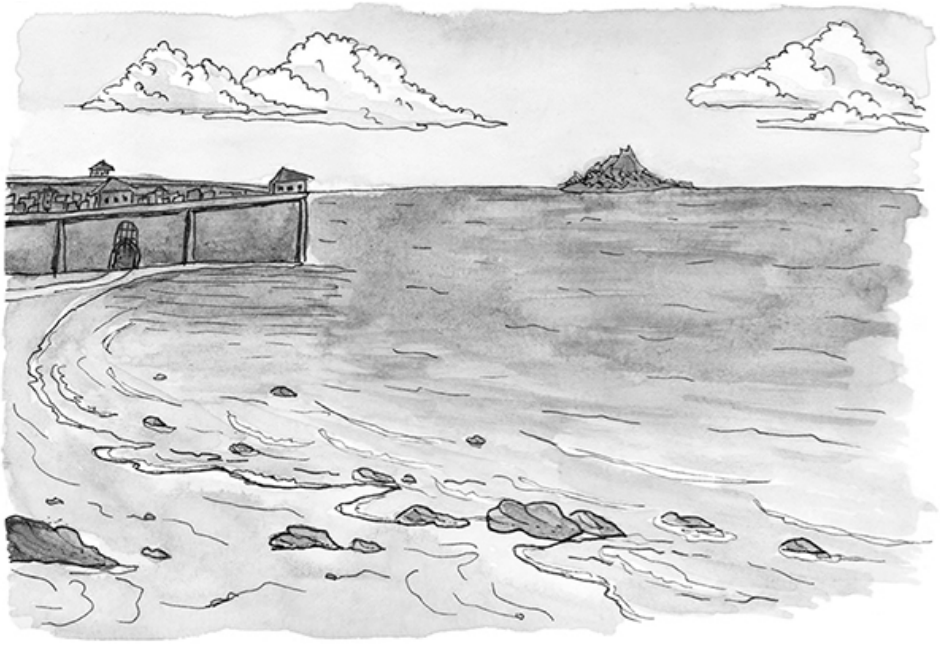

بعد بعض السير، وصلوا للميناء الذي يحتل الجانب الشمالي من المدينة بأكمله.. وقد بدأت بعض السفن بالاستعداد للإقلاع مع بداية هذا النهار بادئة رحلتها الطويلة نحو جوانب أخرى من هذا العالم.. بعد بعض الوقت، وبعد مفاوضات طويلة مع أصحاب السفن الصغيرة التي تمتهن مهنة صيد السمك أو نقل الركاب للجزر القريبة، استطاع جاد إقناع أحدهم بنقلهم على ظهر سفينته الصغيرة ذات اللون الأزرق، والتي لم تكن بأفضل حالٍ ممكن بين السفن.. لكن لم يعترض أحدهم وهم يصعدون للسفينة تابعين

الكاهنة التي تقدمتهم بثقة مطلقة.. دمدمت سولينا وهي تراقب تمايل السفينة مع المياه المتحركة "لا أثق بهذا الشيء.. أواثقون أنها قادرة على خوض هذا البحر بأمواجه العالية؟.."

قال أوس "لا نملك خياراً بهذا أبداً.."

بدأت السفينة بالحركة مستعينة بالشراع الذي تم إنزاله، فيما وقف صاحبها قرب المؤخرة يدير دفتها محاذراً من الارتطام بالسفن القريبة والتي تعترض طريقه.. وبعد محايلة قصيرة، تمكن الرجل من إخراج السفينة للبحر الواسع، وبدأت تمخر عبابه بسرعة وقوة رغم تمايلها الشديد الذي أثار بعض الغثيان في نفوس ركابها..

تساءل الرجل بعد أن استقرت السفينة في مسارها "أين ستكون وجهتنا؟.. أرخبيل الجزر الزرقاء؟.. أم جزيرة الجبل الأبيض الواقعة شرقاً؟.."

راقبت الكاهنة الميناء الذي ابتعد بسرعة كبيرة، ثم قالت باقتضاب "بل جزيرة رؤوس الشياطين.."

التفتت الرؤوس إليها بدهشة، فيما ندّت صيحة قصيرة من الرجل قبل أن يقول بصدمة "جزيرة ماذا؟.. أأنت حمقاء؟"

لم تعلق الكاهنة على قوله، بينما أدار الرجل دفة سفينته وهو يقول غاضباً "لو أنكم أفصحتم عن وجهتكم منذ البدء لما وافقت على نقلكم بتاتاً.."

دارت السفينة دورة واسعة والرجل يتخذ بها طريق العودة، عندما فوجئ ببندقية جاد تلمس عنقه وتضغط عليه والأخير يقول بصرامة "وهل لك رأيٌ الآن؟.. استمر في سيرك أو نستمر به بدونك.."

شحب وجه الرجل للحظة، قبل أن يعيد السفينة لمسارها الأصلي قائلاً بشحوب "أنتم مجانين.. لا أحد يذهب لتلك الجزيرة طواعية.. هل تريدون تحطيم سفينتي؟"

قالت الكاهنة باستخفاف "وما الذي تخشاه؟"

صاح الرجل "ما الذي أخشاه؟.. التيارات القوية المحيطة بها، والتي تجذب السفن القريبة وتحطمها على الصخور الضخمة المتناثرة بغزارة قربها.. والكائنات المخيفة التي تعيش فيها ومنها (الياوي) الذي عرف عنه شراسته وقوته.. وكذلك هناك المرض المخيف الذي أودى بحياة الآلاف من سكان هذه الجزيرة.. وبعد كل هذا تسألينني ما الذي أخشاه؟"

قالت الكاهنة بحزم "الآن، لم يعد لك رأي في الأمر.. السفن في الماضي كانت معتادة على الوصول للجزيرة قبل أن يباد شعب الجزيرة، لذا لابد من طريق آمن للاقتراب منها دون الوقوع في شراك تياراتها القوية.. أما بخصوص (الياوي) والأمراض التي يشاع أنها في الجزيرة، فهذا لا شأن لك به.. أنت ستكتفي بإنزالنا قرب شاطئ الجزيرة ولن تقترب منها فعلياً.."

صمت الرجل بمضض وهو مستمر بسيره.. ثم قال "لا بأس.. لا شأن لي بكم إن رغبتم بالذهاب لحتفكم.. المهم أن أعود بسفينتي سليمة للميناء.."

لم يعلق أحدهم بكلمة، فيما دمدمت سولينا بشيء من الضيق "لمَ هذه الجزيرة بالذات من بين كل الجزر؟"

لم يدُم سيرهم في عرض البحر طويلاً، فبعد يوم وليلة وجدوا ملامح الجزيرة تبدو بشيء من الوضوح عند الأفق.. ومع كل ساعة تمضي، كانت الكاهنة تزداد عصبية بشكل واضح وهي تقول لصاحب السفينة باستياء "ألا يمكنك بلوغ الجزيرة قبل انتهاء هذا النهار؟"

قال الرجل بضيق "أنا أشد رغبة منك بالوصول إليها بسرعة لأتخلص منكم وأعود للميناء.. لكن لن يمكننا بلوغها إلا في ساعات النهار الأخيرة.."

التفتت الكاهنة وهي تراقب الجزيرة التي تقترب منهم بشيء من البطء، ودمدمت "لا بأس.. لو لم يعطلنا شيء فسنصل في الوقت المحدد تماماً.."

سمعت صوت جاد يقول بهدوء من قربها "الوقت المحدد لماذا؟"

قالت بجفاء "لا شأن لك.. منذ متى بدأت تتدخل فيما أفعله؟"

اقترب جاد منها خطوة قائلاً بجدية "أنت لازلت عند وعدك لي.. أليس كذلك؟.."

واقترب خطوة أخرى مضيفاً "ستمكّنيني من الخلاص منك فور انقضاء ما تسعين لتحقيقه.. أليس كذلك؟"

قالت الكاهنة باستياء "لمَ تكرر هذا الأمر عليّ مراراً بهذا الشكل الممل؟.. طبعاً أنا عند وعدي، لو عاونتني حتى أحقق ما أريده تماماً.."

بدا أن ردها هدأه قليلاً وهو يتراجع خطوة، فغمغمت الكاهنة بابتسامة ساخرة "يا لك من أحمق.. وما الذي تقدر على فعله حقاً لو رفضت تحقيق طلبك؟.. لن تتسلط إلا على هذا الجسد، ولن تصيبني بأي سوء مهما حاولت.. لذا أطِع ما أطلبه منك بهدوء، فأنت لا تملك إلا كلمتي لك.."

فوجئت بجاد يمد يده ويقبض على مجمع ثيابها بقوة قائلاً بلهجة تحذيرية "حذار من خداعي يا هذه.. أنا لن أكتفي بقتلك الآن، بل سأقتل كل جسد تنتقلين إليه.. سأجوب هذا العالم وأنبش بيوتها بيتاً بيتاً.. سأقتل كل من يحمل هذ الوشم على عنقه، وسأمنعك من العودة مهما طال الزمن حتى لو كان هذا آخر ما أفعله في حياتي.."

تجاهلت الكاهنة تصرفه وقابلت عيناه بتحدٍ قائلة "إذن لِمَ تكرار هذه الأسئلة التي لا تشفّ إلا عن خوفك من الفشل؟.. كن واثقاً بنفسك للحظة واتركني أكمل مهمتي.. وغداً، سترى إن كنت سأفي بوعدي لك أم ستضطر لنذر حياتك كلها لملاحقتي في أرجاء هذا العالم.."

استاء جاد من سخريتها المبطنة به، فظل قابضاً على عنق ثوبها حتى وجد أوس يجذب يده بحدة ويدفعه بعيداً عنها وهو يقول بحنق "أما اكتفيت مما تفعله؟.."

ضحكت الكاهنة بسخرية واضحة وبدا أنها مستمتعة بالشد والجذب السائد بين جاد وأوس حولها.. لا يمكن لأوس إيذاءها لأن جاد سيسعى لحمايتها بانتظار استيفاء شروط الاتفاق بينهما.. ولن يقدر جاد على إيذائها لأن أوس لن يسمح له بلمس شعرة من هذه الطفلة البشرية.. وهي ستستفيد من هذا العراك بينهما لآخر لحظة..

بعد أن زالت الشمس من موقعها وسط السماء، وبدأت تصبغ البحر بأشعتها البرتقالية وقد خفتت حدة وهجها وحرارتها بشكل واضح، بدت جزيرة (رؤوس الشياطين) واضحة أمامهم بتفاصيلها المتباينة بين جبال شاهقة وغابات شاسعة وشطآن ناصعة البياض وانحدارات صخرية حادة تقود نحو البحر الثائر عند قدميها..

اقتربت الجزيرة الضخمة منهم أكثر فأكثر، وتبدّت لهم معالمها بشيء من الوضوح حيث وقفوا عند حاجز السفينة الخشبي يتأملونها.. انتبه إيار في تلك اللحظة لنظرة الحزن المتبدّية في عيني سولينا وهي تراقب ملامح الجزيرة.. فعلق قائلاً "أأنت حزينة لرؤيتها؟"

غمغمت سولينا بأسى "ليس حزناً بقدر الأسى وأنا أتخيّل فرحة ابني بوصوله لهذه الجزيرة وبدء تلك المغامرة التي سيعود منها رجلاً.. أو أن هذا ما ظنّه هو وأبوه، ولم يدرِ أحدهما أنهما لن يعودا من هذه الجزيرة قط.."

لم يعلق إيار محترماً مشاعر سولينا المتداعية، والتي هيجتها رؤية هذه الجزيرة التي صارت مثوى لاثنين من أقرب الناس إليها.. دار صاحب السفينة بها حول الجزيرة بحثاً عن شاطئ مناسب للاقتراب منها دون المخاطرة بالارتطام بالصخور المتناثرة قربها في عمق البحر.. كما كان خطر الانجراف بالتيارات القوية التي تجري قربها وارداً..

وفي أحد جوانب الجزيرة، تبدّى لهم ذلك الجرف الصخري الذي كان على شيء من الارتفاع والأمواج تضربه بقوة وعنف.. وعلى ذلك الجرف، رأوا عدة تشكيلات كبيرة الحجم بحيث تبدوا بوضوح لأصحاب السفن القريبة، والتي كانت على هيئة رؤوس ضخمة بهيئة مرعبة، بعضها فاغر فاه بشكل وحشي والآخر تقلصت ملامحه بغضب.. كانت هيئة تلك التماثيل الغريبة تثير الرجفة في صدر من يراها للمرة الأولى، وقد علقت سولينا عندما رأت الدهشة في عيني إيار وهو يحدق في ذلك المنظر "هذه التماثيل خاصة بشعبٍ عاش على هذه الجزيرة منذ قرون، يسمّون شعب (الكهّان).. كان شعباً قوياً أقام حضارة مزدهرة لزمن طويل، وقد صنعوا هذه التماثيل لتثير رعب القراصنة واللصوص بهذه الأشكال المرعبة.. ورغم أن حضارتهم التي سادت بقوة في ذلك الزمان قد بادت بالفعل، لكن هذه التماثيل قد بقيت مانحة الجزيرة اسمها المرعب.."

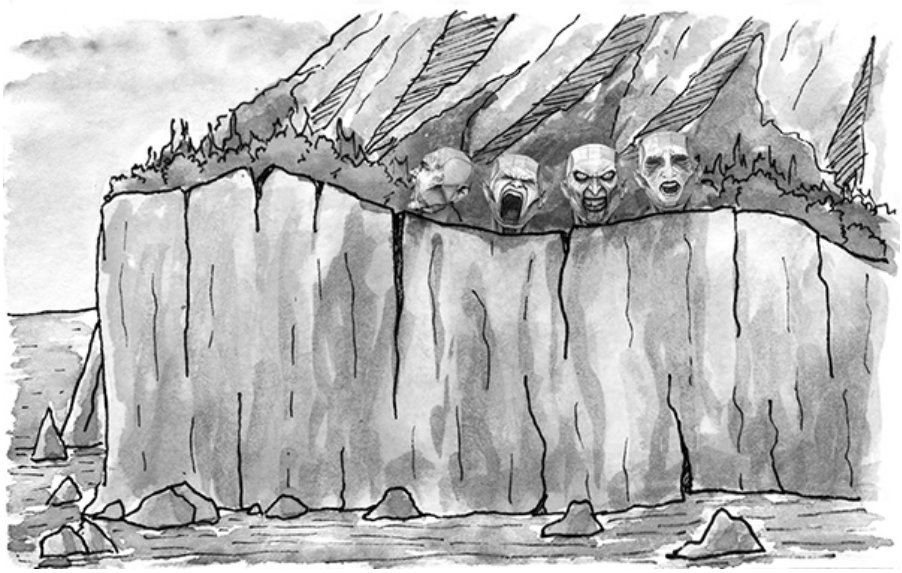

بلع إيار ريقه، والتفت إليها متسائلاً "وكيف بادت تلك الحضارة؟.. ألم تقولي إنها سادت عالمنا بقوة منذ زمن؟.. فكيف بادت رغم قوتها هذه؟"

أتاه صوت الكاهنة وهي تجيب "لأنهم حمقى.."

التفت إيار وسولينا إليها، وهي تضيف من موقعها قرب حاجز السفينة "مما سمعته، فإن هذه الحضارة قد بادت وهي في أوج قوتها وسيطرتها، بسبب مرض غريب انتشر بينهم لم تقدر قواهم وعلومهم على ردعه.. وهذه نهاية غبية برأيي.."

علقت سولينا قائلة "كل حضارة ستنتهي لسبب أو لآخر.. وليس هذا داعياً لوصفها بالغباء.."

ألقت علينا الكاهنة نظرة احتقار، فيما قاطع صاحب السفينة جدالهما قائلاً بتوتر "سنقترب من هذا الشاطئ، وهو كما يبدو لي أأمن بقعة للرسوّ قربه دون المخاطرة بالسفينة.. وبعد أن آخذكم بأحد القوارب للجزيرة، ستنتهي مهمتي وأغادر دون رجعة.."

لم يعلق أحدهم وهم يتأملون الشاطئ الضيق بلونه ناصع البياض، والمياه الزرقاء الشفافة تلمسه بخفوت وتردد، فيما شكّلت بعض الانحدارات الصخرية على جانبيه حماية له من الأمواج العالية ومن اندفاع البحر المعتاد..

تساءل صاحب السفينة وهو يدير دفتها نحو الشاطئ "ما الذي يدفعكم للقدوم لهذه الجزيرة المهجورة والموبوءة بالمشاكل؟.."

أجابت الكاهنة بهزء "أتينا لتقديم القرابين لأرواح الموتى من حضارة (الكهّان).."

والتزمت الصمت بعدها تماماً تاركة تساؤلات جمّة تدور في أذهان الجميع..

مع ابتعاد السفينة عن الجزيرة ابتعاداً حثيثاً، وقف الفريق الصغير على الرمال الدافئة لذلك الشاطئ الضيق.. وبينما استطالت الظلال وبهتت وبدأ النور يخفت رويداً رويداً، فإن الكاهنة لم تتمهل للحظة وهي تخترق الحاجز المحيط بالشاطئ والمكون من مجموعة أشجار وشجيرات كثيفة عزلته عن باقي الجزيرة.. وسرعان ما تبعها الآخرون وسولينا تقول مقطبة "ألم يكن من الأفضل لنا التخييم على الشاطئ لهذه

الليلة؟.. فهذا خيرٌ من قضاء الليلة في الغابة حيث لا نرى ما قد يقترب منا من الحيوانات الضارية.."

قالت الكاهنة بشكل قاطع "لا.. أريد اختصار المسافة قدر استطاعتي استعداداً ليوم الغد.."

غمغم جاد "إذن غداً هو الموعد الذي كنت بانتظاره؟"

لم تجبه الكاهنة كعادتها، فيما وقفت سولينا في موقعها قائلة بعناد "لا يمكنك إجبارنا على شيء.. أنا لن أترك هذا الشاطئ الآمن لأزج بنفسي في غابة غريبة لا أعرف معالمها في ليلة مظلمة كهذه.. سنخيّم على الشاطئ وغداً نرحل معك حيث تشائين.."

علقت الكاهنة ببرود "كما تشائين يا صغيرة.."

نظرت لها سولينا باستنكار، فيما لم تتمهل الكاهنة في سيرها ولو للحظة وهي تخترق الأشجار القريبة متوغلة في الغابة خلفها.. عندها علق إيار "يبدو أننا لا نملك خياراً في اللحاق بها حيثما ذهبت.. قد لا نعثر عليها غداً لو تفرقنا هنا.."

اضطرت سولينا للسير خلفهم وهي تدمدم "لابد أن أركل تلك البغيضة يوماً ما.."

طال سيرهم وسط الغابة الضاجة بكثير من الأصوات مع آخر ساعات ذلك النهار.. سلكوا دروباً متعرجة دون أن يعثروا على الهدف الذي تسعى إليه الكاهنة، لكن أحدهم لم يملك الاعتراض على ذلك وهو يتبعونها بصمت.. وبعد أن بلغ بهم التعب مبلغه، أعلنت الكاهنة عندها أنهم سيقضون الليلة هنا ويستأنفون سيرهم في الصباح.. لم يكن المكان مناسباً لقضاء الليلة مطلقاً، فاضطر أفراد المجموعة التغاضي عن إشعال النيران في ما بقي من ساعات الليلة، وفضلوا تسلق الأشجار القريبة للمبيت على أفرعها بعيداً عن أي خطر قد يفاجئهم وهم نيام..

تسلقت سولينا أقرب الأشجار بخبرة وسرعة، وتبعها أوس بخفة، فيما عاون إيار تيما على الوصول لأحد الأفرع ، وهي التي لم تضطر يوماً لتسلقها بنفسها بوجود جناحيها.. أما الكاهنة فقد حملها جاد على ظهره واستقر بها على شجرة مرتفعة كثيفة الأوراق.. وهناك، لم يكد أحدهم يتبادل حديثاً مع الآخرين وأغلبهم يستسلمون للنوم بعد وجبة بسيطة مكونة من بعض الطعام الذي اشتروه من مدينة (الأرض العالية).. لكن الكاهنة لم تنم لوقت طويل.. بقيت في مكانها المتفرد تراقب السماء، مستخدمة أداة بسيطة تحملها دائماً في جيب ثوبها.. ظلت تدقق البصر في النجوم وتراقب مواضعها لوقت طويل، ثم غمغمت بارتياح "كل

الأمور مهيأة بالفعل.."

ولما اطمأنت لاستقرار الأمور، استسلمت للنوم أخيراً وعينا جاد تراقبانها حتى غابت في النوم بالفعل..

ومع أولى طلائع الفجر، كانت الكاهنة تغادر ذلك الموضع الذي عسكروا فيه ساعات الليلة القليلة يتبعها البقية بصمت كعادتهم.. سارت نحو عمق الجزيرة وهي تتبع رسماً بسيطاً تحمله على ورقة في يدها، وإن لم يفهم أحدهم معنى العلامة الموضوعة في تلك الورقة والتي تبدو قرب سفح أقرب الجبال إليهم..

وكالعادة، عزفت الكاهنة عن إجابة أسئلتهم والتزمت الصمت ومزيج التوتر بالشغف يبدوان عليها..

وجدت المجموعة نفسها تتخذ طريقاً دائرياً يسير بها حول أقرب الجبال إليهم والذي انضمّ لمجموعة من الجبال استولت على قلب الجزيرة كاملة.. وعندما توقفت الكاهنة فجأة عن السير، توقف الفريق بدوره وهم يتأملون المكان حولهم والذي لم يختلف عن أي موضع مروا به منذ وصولهم للجزيرة.. لكن الكاهنة لم تعلق وهي ترفع بصرها متأملة ذلك التل الذي انتصب أمامهم مرتفعاً ارتفاعاً رأسياً حاداً.. كانت الظلال قد استطالت، والشمس قد خفت وهجها واكتسبت لوناً أصفر ذهبياً قبل أن يتحول للأحمر الزاهي عند اقترابها من الأفق.. لقد أمضى الفريق النهار بطوله في السير دون راحة إلا القليل منها، ورغم إنهاكهم، لكن ذلك لم يبدُ على الكاهنة التي تطلعت لذلك التل ورمقت الشمس التي لامست رؤوس الأشجار مدمدمة "بقي القليل فقط.."

ودون تبادل أي كلمة مع البقية، اتخذت طريقاً يدور بها حول التل وهي تبحث بعينيها وسط ذلك المنحدر وتقطيبة ترتسم على وجهها.. فتذمرت تيما بعد أن طال بهم الوقت وهم يتبعونها "أما من نهاية لكل هذا المجهود؟.. أم أنك تنوين قتلنا بإنهاكنا حتى الموت؟"

لم تعلق الكاهنة على سخريتها وهي تقول بارتياح "ها هو أخيراً.."

وقف البقية خلفها ليلاحظوا على الفور ذلك السلم الذي شق طريقه في جانب المنحدر الحاد دون انقطاع حتى يصل أعلاه.. كان ذلك السلم الحجري قديماً تهدمت بعض درجاته وغزت الأشجار المتسلقة جوانب منه، لكنه لا يزال مطروقاً لمن أراد أن يسلكه وإن كان بشيء من المشقة.. لم تتردد الكاهنة في صعود درجات ذلك السلم بخفة وسرعة، يتبعها جاد حاملاً ذلك الشوال بحرص شديد.. فيما تتابع البقية خلفهما بصمت وتحفز لم يملكوه.. لم يكن لذلك السلم الحجري أي حواجز تحجز من يركبه من السقوط، وقد اتسم بضيق

يجعل من الا ستحالة عليهم الصعود عليه إلا بتتابع وحذر.. أسرعت سولينا بخطوات واسعة للحاق بأوس وجذبت يده وهي تهمس بصوت خافت لئلا يصل لسمع جاد "لست مرتاحة لما يجري يا أوس.. ألا يجدر بنا أن نكف عن الانسياق خلف تلك الكاهنة غريبة الأطوار؟"

تساءل أوس "وما بيدنا أن نفعله؟.. لقد قاربنا الوصول للهدف الذي تسعى إليه.. وهناك، سنعرف ما يجب علينا فعله للخلاص منها.."

قالت بشيء من العصبية "أظننت أنها وافقت على قدومنا دون أن تضع في احتياطها محاولاتنا لإيقافها؟.. تلك الكاهنة واثقة أننا لن نفعل شيئاً من هذا، لذا لم تتخذ أي احتياطات ضدنا طوال الرحلة.."

وأضافت مشيرة لجاد "وهذا الشوال الغريب الذي أحضره الغول معه.. أنا لست مرتاحة له.. أشمّ رائحة قوية تنبعث منه.."

فقال أوس مقطباً "أظننت أنني لم أدرك ذلك؟.. أستطيع شم رائحة الدماء المتجمدة فيه.. هذه أجزاء من أجساد بعض الكائنات المقتولة.. لكني لا أفهم حتى الآن ما الغرض من هذا كله.."

قالت سولينا عابسة "عندما يحين أوان فهمنا للأمور، سيكون الوقت قد فات بالفعل.. هذا الشوال لا يحوي مؤونة طعامه بكل تأكيد.."

قاطعهما صوت الكاهنة وهي تهتف بارتياح شديد "لقد وصلنا.."

سارت الكاهنة عابرة الجزء الأخير من ذلك السلم بخطوات سريعة ملهوفة، يتبعها جاد بصمت كعادته والبقية بتوتر ازداد أكثر فأكثر مع اقترابهم من الهدف الذي يجهلونه حتى اللحظة.. وفي الأعلى، تمكنوا من رؤية تفاصيل المكان الذي يختلف تمام الاختلاف عما يحيط به من غابات كثيفة.. فأمامهم، وعند أقدامهم، امتدت مساحة واسعة من الأحجار المرصوفة بتشكيل معين مكونة ساحة كبيرة تحيط بها جدران قصيرة لا تتجاوز متراً واحداً.. ووسط تلك الساحة المرصوفة، تمكنوا من رؤية جزءٍ مخالفٍ من الأحجار التي كونت دائرة واسعة برسوم زاهية وإن تغير لونها مع مرور الزمن وفقدت بهاءها.. وعلى ذلك السور الذي يحيط بالساحة انتصبت أعمدة اسطوانية عالية تنتهي بزخارف جميلة في أعلاها، وإن تسربت النباتات المعترشة على أغلبها وكادت تغطيها وتخفيها عن الأبصار.. ومن بين الأعمدة الرخامية المحيطة بالساحة، بدت الشمس الذهبية وهي تغيب في بحر الأشجار مانحة تلك الساحة ظلالاً طويلة ومنظراً مذهلاً..

دار الآخرون ببصرهم في جوانب المكان وتيما تتساءل بدهشة "لِمَ أقيمت هذه الساحة؟.. لا أرىٰ أي أثر آخر لتلك الحضارة حولنا.. فما السبب لإقامة هذا المكان المنعزل بهذه الصورة؟"

قالت الكاهنة بشغف "يقال إن هذه الساحة خاصة باحتفالات أقامها أصحاب تلك الحضارة البائدة.. ويقال إن آلاف الأرواح أزهقت وسط هذه الساحة علىٰ مرّ السنين كقرابين لمختلف الأغراض.."

اتسعت عينا تيما وهي تنظر للكاهنة بدهشة، فيما أثار قولها هذا توجس سولينا أكثر فأكثر وهي تراها تتقدم بلهفة من وسط الساحة حيث تلك الدائرة التي تزيّن أرضيتها.. تأملت المكان حولها للحظات، ثم رفعت بصرها للسماء التي بدأت تكتسب السواد مع ساعات هذه الليلة.. ثم وجدت جاد يقترب منها ويضع الشوال قريباً متسائلاً "أهذا هو المكان الذي تسعين إليه؟"

أجابت بابتسامة "بلىٰ.. أخيراً أصبحت قاب قوسين أو أدنىٰ من تحقيق حلمي.."

تساءل أوس مقترباً منهما "وما هو ذاك الحلم الذي جاء بك لهذا المكان المنقطع من العالم؟"

تجاوزت عن سؤاله وهي تشمّر ذراعيها مدمدمة "لقد بدأ الوقت الموعود منذ ساعة، وبقي لي القليل قبل أن تزول النجوم من مواقعها.. لكن ما المهم؟.. إن هي إلا لحظات وأنجز كل ما أحتاج لإنجازه.."

قالت أوس باستنكار أكبر "ما الذي تحتاجين لإنجازه؟.. ما الذي تفعلينه هنا بحق السماء؟"

لم تجبه هذه المرة أيضاً وهي وتدفع الشوال بعيداً.. ثم وقفت وسط تلك الدائرة وأغمضت عينيها مشيرة بإصبعين من أصابع يدها اليمنىٰ للأسفل وهي تتمتم ببضع كلمات لم يسمعوا منها حرفاً..

اقتربت سولينا قائلة لأوس "ألم يحِن الوقت بعد يا أوس؟"

كان أوس مدركاً لشكوك سولينا، وقد راوده القلق بالفعل مما يجري أمامه ومن صمت الكاهنة وتجاهلها

لأسئلتهم رغم تكرارها.. لا يمكن، بعد كل ما رآه، أن يجزم بأن ما تسعى له الكاهنة يمكن أن يتقبله أي فرد من هذا الفريق.. لقد دأبت على السرية في كل ما تفعله، ولم يكن ذلك إلا لأنها واثقة أنهم سيعارضونها لو أدركوا ما تسعى إليه بالفعل..

قبل أن يعترض أوس بكلمة أو يتخذ قراراً بالتدخل، لاحظ الجميع وهجاً خفيفاً ينبع من إصبعيها.. وفي الآن ذاته، بدأ خط أسود سميك يظهر على الأرض الحجرية ملاحقاً حركة يدها وهي تدير أصابعها بكل عناية ودقة.. أُخِذ الجميع بما تفعله، وصمتوا للحظات يراقبون تلك الدائرة التي رسمتها أرضاً، وبدأت برسم دائرة أصغر في قلبها مكونة شكلاً للهلال وقربه نجمة وحيدة.. وفي قلب الهلال، رسمت ست دوائر صغيرة وأتبعت ذلك بعدة تشكيلات من الكلمات المبهمة التي لم يتمكن أحدهم من قراءتها، فوزعتها في جوانب التشكيل قبل أن تنفذ مجموعة أكبر من تلك الكلمات حول الدائرة الخارجية بدقة وتركيز..

تساءل إيار بقلق "ما الذي تفعله؟.. أشعر بتوجس شديد منبعه هذا التشكيل التي تقوم برسمه، وأكاد أتمالك نفسي بالكاد لكيلا أفر هارباً.. فما الذي يجري؟"

غمغمت تيما "أشعر بالأمر ذاته.. أليست هذه تعويذة؟.. إنها مشابهة لتلك التي تحملها ساما في عنقها، مع اختلاف بعض التفاصيل.."

قال أوس وهو يتقدم خطوات "إنها بالفعل تعويذة.. وهي ترفض إخبارنا عنها لسبب قوي دون شك.."

وجد جاد يقف في وجهه باعتراض واضح، فقال أوس باستياء "هل تعرف ما تنوي تلك الكاهنة فعله؟.."

قال جاد ببرود "لا أعلم ولا يهمني أن أعلم.."

تزايد استياء أوس وهو يقول "كيف تجاريها في هذا دون أن تعرف توابعه؟.."

وجدوا الكاهنة في تلك اللحظة قد أكملت التشكيل الذي تنفذه على الأرض، ووقفت قربه لاهثة ويدها ترتجف للتعب الذي يستنزف قواها عادة.. قبل أن تستدير إلى البقية قائلة "والآن.. آن أوان الحصول على القربان الأخير.."

وابتسمت ابتسامة واثقة لم تبعث في نفوسهم أي راحة مطلقاً..

الفصل السابع عشر: رؤوس الشياطين

بعد أن ألقت الكاهنة كلمتها الغريبة تلك، عمّ الصمت المكان بشكل تام وكأن الساحة قد استعادت عزلتها التي دامت مئات السنين.. وبعد تحديق طويل من أوس والبقية والدهشة تكسوهم، قالت تيما أخيراً بعصبية "ماذا تعنين؟"

لم تجبهم الكاهنة وهي تثبت بصرها على أوس مبتسمة بثقة، بينما لم يتردد جاد في التقدم من المجموعة وهو يستل خنجرين حادين طويلي النصل من حزامه، ويمسك واحداً في كل يد.. تراجعت سولينا دافعة تيما خلفها وهي ترفع مسدسها، وسارع إيار للتحليق مبتعداً بتوجس، فيما استطالت مخالب أوس وهو يهتف "ما الذي تعنينه بقولك هذا؟.. ما الذي خططتما له بغفلة منا؟"

ابتسمت الكاهنة بثقة مجيبة "ماذا؟!.. أظننت أنني وافقت على قدومكم معنا بطيبة قلب؟.. كنت أتحسب لهذه اللحظة، وأتحسب لاحتياجي لكم.. وقد ثبت لي أنني سأجني فائدة جمّة من شرذمة مثلكم بالفعل.."

ورفعت الشوال ناثرة ما بقلبه أرضاً.. فتناثرت بضع أجسام دائرية مختلفة الشكل واللون.. لكنها في الواقع لم تكن مجرد أجسام.. كانت رؤوساً لعدد من الكائنات المختلفة من هذا العالم.. ستة رؤوس نتنة الرائحة بدم اسودّ لونه وغطى كثيراً من معالم تلك الوجوه، فيما توحدت معالم وجوه الفريق الذي يشاهد ما يجري بصدمة واستنكار شديدين.. وبنظرة الكاهنة الساخرة نحوهم، أدركوا ما تريده الكاهنة منهم بالضبط.. فهي بحاجة لرأس آخر ينضمّ لهذه المجموعة.. الرأس السابع الذي فشل جاد في إحضاره المرة الماضية..

رغم أن جاد واجه الأربعة وحيداً، لكن سولينا وإيار وتيما لم يترددوا في التراجع بتوجس واضح أثاره مرأى الرؤوس المقطوعة أمامهم، فيما اعترض أوس طريقه قائلاً بحدة "إياك المساس بأحدهم.. لن أتوانى عن قتلك عندها.."

غمغم جاد وهو يهجم عليه "لا أحتاجهم.. أحتاج رأساً واحداً فقط.."

تفادى أوس ضربة من الخنجر قبل أن ينثني ويدفع مخلبه بقوة نحو ذراع جاد.. تفادى جاد الضربة وهو يوجه الخنجر الثاني نحو عنق خصمه، لتتلقاه مخالب أوس بضربة قوية أصابت يده ورمت سلاحه منها

بعيداً.. لم يتردد أوس في تكرار الضربة بقوة، فتراجع الأخير بحركة سريعة ودفع قدمه في بطن غريمه ليرميه خلفاً.. عندها عاود هجومه من جديد بشراسة أكبر بعد أن استعاد خنجره من جديد..

في تلك الأثناء، تقدمت سولينا بخطوات واسعة من الكاهنة رافعة مسدسها في محاولة لإنهاء الأمر كله وإجبار جاد على إيقاف هجومه.. لكن بعد عدة خطوات فقط فوجئت بضربة قوية تصيب صدرها فترميها خلفاً والمسدس ينزلق بعيداً عنها.. حاولت سولينا معاودة الهجوم لكن لطمة جديدة أصابتها وهي تلمح الكاهنة ترمقها بنظرة حادة وهي تتمتم بكلمات مبهمة.. عندها صاحت سولينا "إيار.."

كان إيار قد تسلل خلف الكاهنة بالفعل مستغلاً انشغالها بسولينا، وعندما سقطت سولينا للمرة الثانية وصاحت تناديه، لم يتردد إيار في الاندفاع نحو الكاهنة وحملها بذراعيه وهو يرتفع بها عالياً.. صاحت الكاهنة بغضب وهي تقاومه، دون أن تقدر على ضربة بتعويذة من تعاويذها خشية السقوط من هذا الارتفاع..

استدار جاد مع صياحها بعد أن ضرب أوس وأبعده عنه، فرفع أحد خنجريه ورماه دون تردد نحو إيار الذي أولاه ظهره.. ورغم بعد المسافة، استطاع أن يصيب بالخنجر ساق إيار إصابة مؤلمة جعلته يصيح وهو يتخبط في طيرانه، وصاح بحنق محاولاً استعادة السيطرة على الكاهنة "تباً.. لماذا تستهدفون ساقي في كل مرة.."

قال جاد وهو يستخرج بندقيته من الحقيبة التي رماها جانباً "أنت محظوظ، فقد كان بإمكاني إصابة رأسك إصابة مباشرة.."

رفع بندقيته نحو إيار، ليجد أوس يرتطم به من الخلف ويرميه أرضاً قبل أن يركل البندقية بعيداً.. ورغم محاولات جاد التخلص منه، لكن أوس حرص على شغل جاد أطول وقت ممكن حتى يتمكن إيار من الهرب بالكاهنة بعيداً عن هذا المكان وبعيداً عن جاد.. في تلك الأثناء، لاحظ إيار بعد أن استقام في طيرانه أن الكاهنة قد التزمت الصمت لوقت طويل دون أن تحاول التنصل من قبضته، فنظر لها بقلق متسائلاً "ما الأمر؟.. هل استسلمت بهذه السرعة؟"

وجدها ترفع وجهها له بابتسامة جانبية، ولما أكملت التعويذة التي كانت تتلوها نفخت في وجهه بقوة.. فوجئ إيار بما فعلته، وفوجئ في الآن ذاته بذلك الدوار الذي صاحبه نعاس شديد لم يعرف له سبباً.. عاد

للتخبط بقوة في طيرانه شاعراً أنه يفقد وعيه بسرعة، لكنه سارع للهبوط قبل أن يسقط بالكاهنة سقطة لن ينجو منها أحدهما.. وفور وصولهما أرضاً عند حافة الساحة، تنصلت الكاهنة من قبضته بسرعة عائدة للدائرة التي رسمتها وسط الساحة.. بينما تهاوى إيار في موقعه وهو يحاول فتح عينيه بعسر وقد فوجئ بالنوم الذي تسلّط على عينيه وأجبره على الاستسلام له رغم مقاومته..

ومع الخنجر الذي وضعه جاد على عنق أوس وهو يجثم فوقه، أصبحت سولينا وتيما عاجزتين عن التصرف والتدخل خشية أن يؤذيه بخنجره الحاد ذاك.. ولم تدرك إحداهما أنه انتوى ذلك بالفعل.. فيما استدارت الكاهنة إليهم بابتسامة متسعة وهي تقول "والآن، هل نعود لما كنا نفعله؟"

❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖

من بين الأشجار الكثيفة للغابة المحيطة بالتل الصخري، التمعت عينان صغيرتان وهما تراقبان ما يجري وصاحبها ينصت للأصوات العالية التي لم تشهد الجزيرة مثلها منذ زمن.. أدار صاحب العينان وجهه لأحد المواضع التي بدت فيها حركة واضحة، وتتبع أولئك الأشخاص بنظرة فضولية واهتمام لم يخلُ من بعض التوجس.. ندّت حركة مفاجئة من أحد الكائنات التي تحيط به، بعد أن تعالى صياحٌ مفاجئ من فوق ذلك التل الذي تبدو أعمدته الرخامية واضحة من هذا المكان.. ربت صاحب العينان على الكائن الذي يقبع قربه وغمغم "لنبتعد.. لا نعلم ما الذي يجري هنا ولا نريد الدخول فيه.."

وبخفة وبراعة تسلق ظهر ذلك الكائن الذي يفوقه حجماً بأربع مرات على الأقل، وسرعان ما تراجع ذلك الكائن تتبعه أخرى نحو عمق الغابة مستترة بظلامها وبكثافة أوراقها..

❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖

في اللحظة التي دفع فيها جاد الخنجر نحو عنق أوس، مثبتاً إياه بقوة لئلا يحاول المقاومة، وجد الخنجر يطير من يده بسبب الضربة التي أصابته بشكل مفاجئ.. لكن للدهشة لم يكن يرَ صاحب تلك الضربة، وأوس رغم مقاومته لم يتمكن من تخليص ذراعيه من ضغط قدمي جاد عليهما..

رفع جاد بصره للأعلى، في نفس اللحظة التي صاحت فيها الكاهنة بتوحش "أنت؟.. كنت أدرك أنني مراقبة منذ خروجي للقلعة.. كان عليّ أن أفطن أنه أنت منذ البدء.."

وفي جانب الساحة، حيث السلم الذي يقود لها من مستوى الأرض، رأى الفريقان المتنازعان ذلك الرجل طويل القامة الذي تقدم منهم بهدوء، وخلفه برزت فتاة صغيرة تلحقه بخطوات لاهثة.. دفع أوس جاد مستغلاً تشتت انتباهه في تلك اللحظة، ورماه من فوقه بأقوى ما يملك، ثم تراجع بدوره بعيداً عن الكاهنة وبعيداً عن جاد الذي وقف ببطء مغمغماً "ما الذي جاء بك وبطفلتك لهذا المكان؟.. أتنوي المشاركة في هذا الحفل أنت أيضاً؟"

قطبت مالو من مكانها خلف الحكيم، فيما ابتسم الحكيم معلقاً "ربما.. ما الذي يمنع؟"

نهض جاد بوجه صارم قائلاً "هل ستحاول منعي بسحرك؟.. فلنرَ ذلك.."

اتسعت ابتسامة الحكيم مجيباً "ربما.. من يدري؟"

بدت ثقة الحكيم غريبة وغير مفهومة للكاهنة، فهو رغم قدراته لكن لا تظنه يجرؤ على إيذاء الطفلة.. وجاد كفيل بتخليصها من البقية.. لكن ما لم تتوقعه قط، هو رؤية أولئك الرجال العشرة الذين ظهروا خلفه وهم يتوزعون في الساحة بحلقة كبيرة حولها.. نظرت الكاهنة حولها بتقطيبة، فيما انتبه أوس لهوية الرجال الذين ظهروا خلف الحكيم، وتعرف على بعض أفراد قبيلته بينهم.. دهش أوس لرؤية رجال قبيلته، ولمشاركتهم في ما يجري رغم العزلة التي اختاروها لأنفسهم منذ زمن قديم.. وقد علق أحدهم عند رؤية أوس قائلاً بابتسامة "مرحى.. ما الذي جاء بطريد الريابلة هنا؟.. هل انضممت لـ(أنصاف الرجال)؟.."

ثم أضاف بضحكة ساخرة "أم أن (الفيي) قد استأجروك حارساً شخصياً لأحدهم؟"

لم يعبأ أوس بالرد عليهم وسط ما يجري في هذا المكان، وانحصار اهتمامه فيما تفعله الكاهنة، بينما دار الحكيم ببصره في الساحة، ثم قال "مالو.. أيقظي فتى التنين.. فهو واقع تحت تأثير تعويذة أفقدته وعيه.."

لم تتردد مالو في تنفيذ أمره وهي تركض نحو إيار الذي لم يستفق من غيبوبته، بينما تقدم الحكيم موجهاً حديثه للكاهنة "هل أفسدت عملك يا قداسة الكاهنة؟"

نظرت له الكاهنة ببغض بينّ، فيما علق الحكيم وهو يتأمل الدائرة بالقرابين فوقها "أو ربما لا.. يبدو لي أنني لم أكن بحاجة للاستعجال في اللحاق بك.. فأنت لا تملكين القرابين الكافية.."

قالت سولينا محتدة "إنها تحاول قتل أحدنا للحصول على القربان الأخير.. لذا عليك أن تفعل شيئاً قبل أن تنجح في ذلك.."

قال الحكيم بهدوئه المعتاد "لا أظنكم بخطر من ذلك.. الوحيد الذي يخاطر بحياته هنا هو هذا (الريبال).. فهذا هو القربان الوحيد الضروري لهذه التعويذة.."

نظروا لأوس وللكاهنة بدهشة، بينما فتح إيار عينيه فجأة كما فقد وعيه فجأة.. عندها دهش لرؤية مالو تركع عند رأسه وتنظر له بصمت.. فتساءل بدهشة وهو يعتدل جالساً "أأنا أحلم؟.. ما الذي جاء بك هنا؟"

قالت مالو بسرعة "ليس حلماً، فأنا قد أيقظتك للتو بالفعل من التعويذة التي أسقطتك نائماً.."

رآها تستخرج منديلاً من قميصها، وتبدأ بربط جرح ساقه الذي لم يكن خطراً كفاية ليثير القلق.. انتبه إيار في تلك اللحظة لوجود الحكيم مواجهاً للكاهنة، فهتف بدهشة "ما الذي جاء بك لهذا المكان؟.. هل أتيت معه؟.."

عقدت مالو حاجبيها قائلة بصرامة "أنا مساعدة الحكيم.. أكون حيث يكون، وأعينه حينما يحتاج عوني.."

علق إيار رافعاً حاجبيه "أنت مساعدته بالفعل!.. ظننتك تمزحين عندما أخبرتني بذلك سابقاً.."

فقالت مالو بضيق "لا تستهِن بي.."

سمعا سولينا تقول في تلك اللحظة "وما هي هذه التعويذة؟.. ما هدفها؟.. وما الغرض من كل ما فعلته الكاهنة حتى الآن؟"

صاحت الكاهنة مقاطعة أسئلتها "ما الذي تبغيه بالتدخل في شؤوني؟.. لِمَ تكلفت القيام بهذه الرحلة العسيرة على رجل بعمرك لتعترض طريقي بهذه الصفاقة؟"

قال الحكيم بصرامة "هذا الشأن ليس خاصاً بك أنت فقط، وأنت خير من يدرك ذلك.."

قالت الكاهنة ساخرة "بالفعل ليس شأناً خاصاً بي فقط.."

رآها تستخرج من ثوبها خنجراً صغيراً، مما حدا بالحكيم ليعلق بهدوء "هل ستتغلبين عليّ بخنجرك هذا؟"

قالت الكاهنة بابتسامة وحشية "كان عليك أن تدرك أنني لن ألجأ لحلٍ ضعيف مثل هذا.."

وجرحت راحة يدها اليمنى بحركة سريعة بالخنجر، قبل أن تميل بها فوق ذلك التشكيل الذي رسمته

سابقاً على الأرض.. قطب الحكيم وهو يراقبها، وإن أدرك أنها لن تحقق تلك التعويذة بهذه الحركة البسيطة.. فبدون القرابين، لا يمكنها إكمال التعويذة مطلقاً بأي حال من الأحوال..

رمق الحكيم الدماء التي سالت على الدائرة الوسطى في التشكيل والتي حملت النجمة بقلبها، فيما قالت الكاهنة بتشفٍ "الآن، سيجد العديد من سكان هذا العالم أنفسهم قد جرّوا لهذا الأمر رغماً عنهم.."

قطب الحكيم متسائلاً "ماذا تعنين؟"

قالت الكاهنة ضاحكة بسخرية "ألم تعلم ما الذي جرى، أو سيجري، في هذه اللحظة؟.. ظننت أن الريح نفسها تهمس في أذنك بالأسرار.."

غمغم الحكيم وهو يغمض عينيه "ستفعل.."

وصمت بشكل تام متجمداً دون حراك، فيما لاحظت مالو نعيق الغربان فوق عدد من الأشجار حولهم والذي تعالى فجأة بشكل غير مفهوم..

وفي ذات الوقت، في موقع آخر بعيد عن هذه الجزيرة وعن الصراع فيها، كان بازر يقف أمام ملك قلعة (أنصاف الرجال) قائلاً "عليك اتخاذ القرار وعدم المماطلة أكثر من هذا.. لا يمكننا الصمت على ما يفعله الغيلان في الجبال الغربية.. وقد تكون هذه بداية حرب شاملة بيننا وبينهم لو لم نحسن التصرف.."

وضع الملك يديه على رأسه وهو يدمدم بانفعال "لا يمكنني التصرف إزاء هذا.. نحن أكثر عتاداً وأفضل تسليحاً.. لكنهم أقوى منا بمراحل.. وهم يكرهوننا، لذا لن يترددوا لحظة في....."

قاطعه بازر بإلحاح "عليك اتخاذ القرار يا مولاي.."

صاح الملك "كيف يمكنني ذلك؟.. كنت أنتظر معاونة الكاهنة لي، بعد وعدها لي بمنحي قوة مطلقة تفوق ما قد يحصل عليها أي ملك آخر.. لكنها خانتني.. اختفت دون أثر، وأخذت ذاك الخائن جاد معها.. فما الذي يمكنني فعله الآن؟"

قال بازر مقطباً "كان عليك أن تدرك أنها تخدعك منذ البدء.."

صاح الملك بانفعال أشد "هل بحثتم عنها؟.. أرسل فرقاً أكبر للبحث في جهات الأرض الأربعة.. لا تدع جنودك يحصلون على الراحة حتى يعثروا عليها.."

قال بازر باستياء "حتى متى؟.. لقد بحثنا عنها بالفعل، وعدا عن القارب الذي عثرنا عليه في شمال

البحيرة، لم نعثر لها على أي أثر.. لا فائدة من هذه الجهود العقيمة....."

قاطع حوارهما الحاد صوت انفجار قوي اندلع من وسط قصر الملك دون سبب مفهوم.. اهتزت الأرض للحظات وتمايلت الجدران بقوة عنيفة حتى كادت تهوي على رؤوسهم.. ومن بين تصايح الحرس والخدم في أرجاء القصر، استطاع بازر أن يسمع عدداً من الانفجارات التي تتالت في أرجاء القلعة بتزامن غريب.. تزايد اهتزاز الجدران بشدة، فاندفع بازر نحو الملك المرتعب صائحاً "يجب أن نهرب من القصر يا مولاي.."

وجذبه عنوة نحو أقرب نافذة تقود لحديقة القصر.. ففتح النافذة بضربة من قدمه وغادر مسرعاً جاذباً معه الملك بعيداً عن جدران القصر التي بدأت بالتهاوي بالفعل على رؤوس أصحابها.. وبعيداً عن الحجارة المتساقطة، استطاع بازر أن يرى من موقعهم العلوي ما يجري في عدد من جوانب القلعة.. حيث بدت النيران واضحة في عدد من الأماكن، أحدها في شمال القلعة، وآخر في الشرق، والثالث جنوباً، فيما بدا الرابع من خلف القصر نحو الغرب، بالإضافة للحريق الذي بدأ يندلع من وسط القصر مع تساقط بعض الجدران.. كان الصياح المتعالي من تلك الأماكن يبدو واضحاً لهما، وبدأت معالم القلعة تتغير تغيراً واضحاً دون أن يدرك أحدهما سبب ما جرى.. فصاح الملك بانفعال مذعور "إنه هجوم.. هجوم على القلعة.. أهم الغيلان؟.."

تركه بازر صائحاً "ابتعد عن القصر وابقَ وسط الحديقة لئلا نفاجأ بك مدفوناً تحت الحجارة.. سأذهب لتفقد ما جرى.."

وركض عابراً بعض جوانب تلك الحديقة المحيطة بالقصر ونازلاً بعض السلالم التي تؤدي به لجوانب أخرى من القلعة.. لا يمكن أن يكون هذا هجوماً، فجنوده لم ينذروه بأي تجمع للغيلان أو لغيرهم من الكائنات طوال ساعات هذه الليلة.. فمن الذي يقدر على مهاجمتهم دون أن يكشف نفسه؟.. بل من الذي يجرؤ على ذلك؟..

ولم يدرك بازر في تلك الليلة، أن تلك الحادثة قد تكررت بحذافيرها في عدد من مواقع هذا العالم.. منها في مدينة (ركام الملح) وفي إحدى قرى المزارعين الأكثر كثافة بالسكان، وفي بعض القرى والمدن الموزعة في هذا الجزء من عالم الأطياف..

وفي الوقت ذاته في جزيرة (رؤوس الشياطين)، فتح الحكيم عينيه بعد إغماضهما لبعض الوقت.. ورغم صمته السابق إلا أن الغضب بدا واضحاً في عينيه وهو يقول محتداً "ما الذي فعلته يا هذه؟.. ما الذي ارتكبته بحق السماء؟"

ضحكت الكاهنة بقوة وهي تنظر له بانتصار، ثم قالت "هل علمت بما يجري في هذه اللحظات في أرجاء هذا العالم؟.. ما رأيك بما حققته حتى الآن؟"

فوجئت بالحكيم يمد يده نحوها، فشعرت بضغط يده على عنقها بقوة رغم بعد المسافة بينهما، فيما قال الحكيم بغضب "كيف استطعت فعل ذلك؟.."

جحظت عينا الكاهنة بقوة، فيما هبّ أوس الذي أدرك ما جرى ليواجه الحكيم هاتفاً "تمالك غضبك.. إنك لا تؤذي إلا ساما بهذا التصرف.. ما الذي جرى لك؟.."

أفلتها الحكيم فجأة كما أمسكها فجأة، فارتمت أرضاً لاهثة، قبل أن تنظر إليه قائلة بسخرية "أأنت مشفق على هذا العالم مما يجري له، أم أنك مصدوم لأنني اتخذت هذا القرار؟"

قال الحكيم بحدة "لقد تسببت بموت العشرات والمئات في سبيل تحقيق هدفك هذا.. أهذا ما يسعدك؟"

قالت بحزم "كنت بحاجة لأضاحي أقدمها لتحقيق هذه التعويذة.. وكلما كانت الأضحية أكبر، كلما كان تأثيرها أفضل.."

وأضافت بابتسامة واثقة "ومع هذا الدمار، سيسارع أصحاب القرى والمدن المتضررة للوصول إلى موقعنا هذا بحثاً عن الانتقام.. وعندما يرون ما جرى هنا، لا أظن سيبقى لانتقامهم محلٌّ وهم يرون هذه الفرصة التي لم يسبق لهم الحصول عليها منذ مئات السنين.."

قال الحكيم بصرامة وشدة "أظننت أنني سأسمح لك بذلك؟.."

قالت بثقة أكبر "لن تقدر على منعي من ذلك.."

مع اقتراب الحكيم من الكاهنة، أصبح أكثر قرباً من جاد الذي قفز عليه قفزة خاطفة بغية الإطاحة به، لكن أوس الذي لاحظه سارع للارتطام به ورميه جانباً.. ظلت الكاهنة تراقب ما يجري بثقة بينما التفت الحكيم قائلاً لأوس "ابتعد يا هذا حتى أتمكن من تحجيم هذا الرجل.. يجب أن لا نسمح له بمعاونة الكاهنة بأي وسيلة كانت.."

حاول أوس التخلص من جاد الذي رماه جانباً، فيما اقترب بعض الريابلة منهما للتدخل في حال فشل أوس في الخلاص منه.. ووسط ذلك، جذب انتباه الحكيم صياح مالو في تلك اللحظة، ورأوا الكاهنة التي استغلت انشغالهم واندفعت نحو الفتاة القريبة فدفعتها أمامها بقوة حتى أوقفتها على الجدار الذي يحيط بالساحة، ولطمتها على وجهها قائلة بغلظة "كفي عن هذه التمتمات يا صغيرة فهي لا تجدي مع من هم أكثر منك خبرة.."

صمتت مالو رغماً عنها وهي ترمق الجانب الآخر من الجدار.. فرغم أن الجهة التي أتوا منها كانت منحدرة انحداراً طفيفاً، والساحة تقع على ارتفاع متوسط فوق تلة صخرية، لكن كان هذا الجانب المواجه للجبل الأقرب إليهم ينحدر انحداراً مخيفاً وعلى ارتفاع كبير، فيما جرى نهر صغير أسفله.. ولشدة ارتفاع موقعهم، بدا النهر بالغ الصغر والهواء المندفع من هذه الهاوية الضيقة يعبث بشعر مالو بقوة..

سمعت الكاهنة تقول "والآن، ما رأيك بأن تعود من حيث أتيت؟.. مساعدتك الصغيرة لا تقدر على الطيران، ولن تستطيع إنقاذها من سقوطها هذا مهما كنت خبيراً.."

ثم أضافت بسرعة فور أن فتح الحكيم فمه "ولا تحاول التهجم عليّ بأي تعويذة منك.. فأي أمر يصيبني لابد أن يجعلني أفلت يدي، وستكون متأخراً كثيراً عندها.."

وأتبعت قولها بدفع مالو خطوة أخرى، لتجد إحدى قدميها تفلت موضعها وتتدلى في الهواء.. لم تكن الكاهنة أكبر حجماً منها، ولذا راود مالو رعب شديد من ألا تستطيع تحمل ثقلها فتفلتها رغم كل شيء..

تقدمت سولينا قائلة بتقطيبة "قد تستطيعين إجبار الحكيم على التراجع، لكن هذا لا يعني أن نفعل نحن الأمر ذاته.. أفلتي الفتاة فتهديدك بلا طائل.."

ظلت الكاهنة ترمق الحكيم بتحدٍ بالغ قائلة "لكني سأنفذ تهديدي فعلاً لو لم تأخذ كلابك وترحل من هذا المكان.."

نظرت مالو مذعورة خلفها، فلاحظت أن الحكيم لم يتحرك من مكانه ولم يبدُ عليه أي توتر أو قلق لما هي فيه.. بل تقدم خطوة وهو يقول بهدوء "بالفعل، لن يمنعني شيء من الوقوف بوجهك اليوم.."

قالت الكاهنة بسخرية "يبدو أنك لا تعبأ بها بالفعل.."

ثم دفعت مالو بقوة نحو الهاوية دون أدنى تردد.. ورغم محاولات مالو التشبث بأي جزء بارز من الصخور

القريبة، لكنها فشلت في ذلك وجسدها يهوي من ذلك الجرف الشاهق وصياحها يتردد من الجبال القريبة مضخّماً عدة مرات.. كانت الكاهنة تأمل أن ينشغل الحكيم بإنقاذ مالو، مستخدماً إحدىٰ تعاويذه.. لكنه لسوء حظها لم يبارح موقعه ولم يبدُ عليه النية أن يفعل مطلقاً..

ومن بين الصدمة التي عمّت الجميع، لم يتردد إيار لحظة في الركض نحو الحافة والقفز من ذلك الارتفاع لاحقاً بمالو.. ضم جناحيه لجسده أثناء سقوطه ومال مندفعاً بسرعة محاولاً بلوغ مالو قبل أن تصل لقاع الهاوية بسقطة مميتة.. دام هبوطه المتسارع زمناً وهو يميل بجسده ليعدل اندفاعه، فيما استمرت مالو بإطلاق صيحاتها المرتعبة والرياح تعبث بجسدها الضئيل.. بدأت تفقد الأمل في نجاتها، والهاوية المظلمة تقترب منها بسرعة كبيرة، عندما فوجئت بجسد يرتطم بها ويوقف اندفاعها بشيء من العنف.. تشبثت مالو بذلك الجسد بشكل تلقائي وهي تشهق متلفتة حولها، ولما زالت الصدمة المفاجئة انتبهت لإيار الذي أمسك بها بإحكام وهو يقول "أأنت بخير؟.."

كانت قدماها متدليتان والهاوية المرعبة تتبدىٰ تحتها بينما فرد إيار جناحيه علىٰ اتساعهما ليوقف سقوطهما المتسارع، فقالت بصوت مرتجف وهي تتمسك بذراعه بقوة "أهذا وقت مناسب لهذا السؤال؟.. أبعدني عن هذه الهاوية.."

لم يعلق إيار علىٰ لهجتها وهو يرتفع بها بخفة متجاوزاً جدار الجبل العالي الموازي لهم، والذي يكاد يحجب نور الشمس عنهما، حتىٰ وصلا لأقرب جزء منبسط من الجبل حيث هبط بسلاسة قائلاً "ربما من الأفضل ألا نعود في الوقت الحالي.."

تلاحقت أنفاس مالو وشهقاتها وجسدها لا يكف عن ارتجافه حيث تهاوت أرضاً.. كان هذا أعنف ما شهدته في حياتها الهادئة، وقد تستغرق زمناً طويلاً لتنسىٰ ما شعرت به من ذعر إبّان سقوطها.. فيما ركع إيار قريباً متسائلاً "هل أستطيع أن أسألك الآن إن كنتِ بخير؟"

بدا لها أنه يهزأ بذعرها.. فشخص يملك جناحين لن يعبأ قط للمرتفعات ولا لسقوطه منها لأنه يستطيع التحكم بهذا الأمر ومنع جسده من الارتطام بالأرض بعنف قاتل.. لذا لم تكلف مالو نفسها إجابته وهي تغمغم "عليّ العودة للحكيم بأسرع ما يمكن.. علينا الخلاص من الكاهنة قبل أن يستفحل خطرها أكثر من هذا.."

نهض إيار متأملاً الموقع حولهما وهو يغمغم "أين وصلنا بالتحديد؟.."

دارت مالو ببصرها حيث ينظر، ثم نهضت واقفة بعينين متسعتين ودهشة واضحة، وقد أذهلها ما رأته بلا حدود..

بعد أن كاد جاد يسيطر على أوس بقوته التي تتفوق عليه، وجد أحد الريابلة يضربه ضربة قوية على ظهره ويلقيه بعيداً.. نهض جاد بسرعة، فوجد أن بعضاً من الريابلة قد حالوا بينه وبين الكاهنة التي وقفت جانباً تبادل الحكيم نظرات التحدي، فيما بدأ بعضهم يتسلل خلفه محاولين الهجوم عليه قبل أن يتدارك أمره.. لكن جاد لم يتمهل وهو يركض ويلطم أقرب الرجال إليه بكتفه، ثم أمسك آخر من عنقه بقبضته القوية ورماه جانباً بأقوى ما يملك حتى ارتطم بجدار الساحة.. كان جاد يفوق الرجال حجماً، وبدا أن غضبه قد جعله يبدو أضخم وأكبر حجماً من المعتاد.. عندها لجأ الريابلة للتحوّل كذئاب حيث يتمتعون بمخالب وأنياب حادة، بالإضافة لكون حركتهم أسرع وتملصهم أكبر من قبضة خصومهم..

وقف جاد للحظات يقيّم الموقف ويحدد أماكن الرجال من حوله، ثم اندفع بسرعة خاطفة نحو أحد الرجال الذي لم يكتمل تحوله.. قفز الرجل قفزة عالية للوراء بعيداً عن الهجوم، ليجد الفرصة لإكمال تحوله، لكنه رأى جاد عوض الهجوم عليه يندفع نحو بندقيته التي سقطت منه أرضاً في وقت سابق.. اندفع باقي الريابلة نحوه، فأسرع جاد يرفع البندقية نحو أحد الريابلة مطلقاً رصاصة نحوه ضربته في الصميم.. تدحرج الذئب خلفاً بعد الإصابة التي أصابته في مقتل، بينما استدار جاد بالبندقية فوراً نحو البقية مطلقاً رصاصاته بأدق ما يستطيع في هذا الهجوم السريع..

كانت خبرة جاد الكبيرة التي لم تضعفها سنوات السجن تتيح له قتل الرجال من حوله بضربات متقنة، لكن الريابلة بخفة أجسادهم قد ناوروا وأحدهم يصاب في ساقه إصابة أعجزته عن إكمال الهجوم مع البقية..

حاول الريابلة الإحاطة بجاد ومهاجمته في وقت واحد، فمهما كان ماهراً في القتال فلن يتمكن من صدّ ما لا يقل عن سبعة من الذئاب الشرسين.. لذا اضطر جاد ولو مؤقتاً للتراجع بظهره نحو جدار تلك الساحة،

لكي يضمن حماية ظهره على الأقل.. عندها أطلق رصاصات بندقيته بغزارة دون اهتمام بمن قد تصيب ومن قد تخطئ.. كان يريد إبعادهم عنه قليلاً، كي يتمكن من اقتناصهم واحداً تلو الآخر قبل أن يصلوا إليه.. فمن حماقة الريابلة، كما يرى جاد، نبذهم لاستخدام الأسلحة اليدوية منها وغير اليدوية.. فاعتمادهم على مخالبهم وأنيابهم كانت مصدر ضعفهم بالنسبة إليه..

وبالفعل، فور تفرق الريابلة من حوله، بدأ جاد بتصويب بندقيته بدقة أكبر وأطلق طلقتين أصابت اثنان من الريابلة أحدهم في مقتل والآخر إصابة خطيرة.. انشغل جاد بالريابلة انشغالاً كلياً، وهو يراقب تحركاتهم الخفيفة ومحاولاتهم الاقتراب منه دون أن تصيبهم رصاصاته.. ولم ينتبه للحكيم الذي استدار نحوه بعد أن أدرك أن الريابلة لن يتمكنوا من الخلاص منه في الوقت الحالي.. وبحركة سريعة، رفع راحتي يديه وجمعهما قبل أن يدفعهما مفتوحتان نحو جاد الذي بوغت بتلك اللطمة القوية التي أصابت صدره ووجهه.. وكأن يداً عملاقة قد ضربته ضربة أدارت رأسه.. ولعنف الضربة وقوتها، وموقعه الحساس قرب جدار الساحة، وجد جسده يطير للخلف ويسقط من فوق الجدار قبل أن يتمكن من التمسك بما يمنعه من السقوط.. فهوى جسده على ذلك التل الصخري، وارتطم ببعض الأحجار التي تزين المنحدر الذي يقود للهاوية العميقة.. تدحرج بعنف لمسافة غير قصيرة حتى كاد جسده يسقط عند الزاوية الحادة للمنحدر، لكن اعترضت طريقه صخرة متوسطة الحجم بعد عدة أمتار ومنعت جسده من السقوط عميقاً في الهاوية.. راقب الريابلة ما جرى لجسد جاد، وترقبوا حركة منه بعد سقوطه ذاك.. لكن سكون جسده التام دلّهم أنه قد فقد وعيه، أو على الأرجح قد مات بعد سقوطه من هذا المكان المرتفع.. ورغم أنهم لم يتمكنوا من رؤية الدماء في هذه الليلة التي لا ينيرها إلا ضوء القمر الشاحب، لكن رائحتها قد وصلتهم بوضوح ودلتهم أنه مصاب بأكثر من جرح ودماءه تنزف بغزارة.. عندها تراجع الريابلة وأحدهم يقول "لقد انتهى أمر ذاك الرجل.."

والتقت الأنظار عند الكاهنة وهو يضيف بغضب بينّ لما أصاب رفاقه "بقي أمر تلك الطفلة.."

رغم كثرة قراءات مالو في كتب الحكيم، ورغم شغفها الواضح بهذه الحضارة التي استعمرت هذه الجزيرة

البعيدة، لكنها لم تعثر لها إلا على بعض الرسوم المتفرقة في تلك الكتب.. أما الآن، في هذا الجانب من الجبل، حيث تنبسط الأرض انبساطاً طفيفاً مكونة جانباً مفتوحاً، استقرت أطلال هائلة أمامها محتلة الموقع كاملاً وجزء منها يمتد تحت فراغ واسع من ذلك الجانب للجبل.. ظلت مالو تتأمل جوانب هذه الأطلال التي رغم تهدمها وغزو الأشجار لعدد من جوانبها لم يكن ذلك كافياً لتغطية جمالها وبهائها القديم، وقد منحتها أشعة الشمس الغاربة سحراً يفوق الوصف..

قالت مالو بعد لحظة صمت وتأمل "لا بد أنها أطلال حضارة (الكهان) التي بادت منذ قرون.. فهي كما يقال كانت أعظم حضارة استوطنت عالمنا هذا، ومركزها كان هذه الجزيرة بالذات.."

لم يرَ إيار مكاناً كهذا قط، فكل خبراته كانت مع القرى البسيطة، بالإضافة لقلعة أنصاف الرجال.. ولو قارنا هذه الأطلال بتلك القلعة، لكانت هذه توازي تلك القلعة مرة ونصف في الحجم والبنيان.. ورغم الخراب الذي طالها، والأشجار التي غزت أغلب جوانبها متسلقة كل ما يمكن تسلقة، ومغطية كثيراً منها بأوراقها الزاهية وجذوعها الضخمة، فإن ما بدا منها بالفعل كان يوحي بعظمة لم يعد لها وجود..

اقترب إيار خطوات من تلك الأطلال، ووقف قرب أقرب جانب منها، فتبعته مالو قائلة باهتمام "لقد قرأت الكثير عن هذه الحضارة في الكتب القديمة.. لكن لا يزال نشوؤها وفناؤها لغزاً أمامنا.. ولا تزيدنا رؤيتها إلا غموضاً وحيرة.."

مد إيار يده نحو مجسم حجري من رخام أبيض تغير لونه مع تقلبات الجو وتكسرت بعض أطرافه لقسوة ما مر به.. فقال وهو يتأمل المجسم مبهوتاً "وهل قرأت عن هذا في الكتب أيضاً؟.."

التفتت مالو إلى التمثال متعجبة لدهشة إيار، فلم تزِدها رؤية التمثال إلا دهشة وذهولاً بدورها.. ولو قبع إيار قرب التمثال واتخذ وضعية جلوسه ذاتها، لما أمكن التفريق بينهما بشكل كلي.. فالتمثال كان لفتى لا يبدو يجاوز إيار في العمر، له ذات الصفات الجسدية وإن اختلف لباسه وامتلك شعراً أطول وأكثر تهذيباً.. فيما ارتفع من كتفاه جناحان مطابقان لجناحي إيار وبالحجم الطبيعي ذاته.. نظر لها إيار وهتف بدهشة "إنه يشبهني.. هل حاول شخص ما تجسيد هيئتي على شكل تمثال؟.. لكني لم أسمع عن هذا قط.."

قالت مالو بصدمة "لا أظن ذلك.. فعمر هذا التمثال من عمر هذه الأطلال، وعمرها يتجاوز عدة قرون بالفعل.."

فقال إيار بانفعال "أهذا يعني أنه ليس لي؟.. أهناك من كان يشبهني عاش في هذه المدينة قبل فنائها؟.."

نظرت له مالو مضيفة بدهشة تامة "وربما كنت أنت أيضاً من هذه المدينة أو تنتمي لهذا الشعب.. فرغم تشابه صفاتك مع بعض صفات التنانين، لكن لم يجد أحدٌ تفسيراً لوجودك بينها، وللغرابة لم يظهر شخص غيرك بين التنانين طوال الأعوام الماضية.. ألا يدلك هذا أنك لست تنيناً حقاً؟"

غمغم إيار بذهول وهو يتأمل التمثال القريب "ربما.. أيعني هذا أنني عشت خدعة طوال عمري؟"

نظرت مالو لانفعال إيار الواضح، بعد الصدمة العنيفة التي هدمت معتقداته كلها بلحظة واحدة.. ثم سألته "أأنت سعيد لأنك لست نصف تنين حقاً؟.."

ظل إيار صامتاً للحظات، ثم لانت عيناه وهو يقول "لا أظنني سعيد بقدر ما أنا متفاجئ.. لو أنني عثرت على بعض الأحياء من بني جنسي، لربما شعرت ببعض السعادة.. لكن لا يمكنني أن أنكر أنني عشت حياتي سعيداً في كنف التنانين، وعرفت معها طعم العائلة الذي لربما بقيت محروماً منه لولاها.."

صمتت مالو وهي تستمع إليه، ثم قالت "لربما كنت محظوظاً بالفعل.. أنا عشت في قرية ووسط أبناء (الشنّ) الذين يماثلونني في الهيئة وربما العمر لعقود طويلة، لكني لم أشعر بأنهم يعوضونني عن حنان الأم وعطف الأب.. كما تعرف، يتخلى (الشنّ) عن أطفالهم بعد أن يبلغو سنة من عمرهم، وتقع مسؤولية تربيتهم على سكان القرية.. لم يسبق لي أن رأيت أبويّ منذ تركاني في القرية، ووجدت نفسي في أغلب الأوقات ألعب دور الأب والأم للأطفال الأصغر سناً مني.. لذا أحسدك على ما تشعر به بالفعل.."

نظر لها إيار وابتسم معلقاً "لهذا بدوتِ قوية الشخصية عندما رأيتك لأول مرة.. حتى إنك لم ترتددي في طرد امرأة سليطة اللسان كسولينا.. عليك أن تفخري بهذا على الأقل.."

وربت على رأسها عابثاً بشعرها للحظة.. فقالت بحنق وهي تبعد يده "لا تعاملني كطفلة أبداً.."

أعادت ترتيب خصلات شعرها القصيرة، فيما ضحك إيار للغضب البادي على وجهها.. ربما كانت مالو قوية الشخصية فعلاً، وربما أمسكت بزمام حياتها وتمردت نوعاً على قريتها بانضمامها للحكيم كمساعدة له.. لكن في تلك اللحظة التي تحدثت فيها عن والديها وعن حياتها وحيدة، بدت تعاستها ووحدتها واضحة لعينيه في ملامحها.. وأطلّ من عينيها شوقها لحنان والديها ورفقتهما التي حرمت منها في سن صغيرة جداً..

تساءل إيار في تلك اللحظة "لماذا لا تتجاوزين هذا العمر؟.. يمكنك القيام بذلك، أليس كذلك؟.. ما الداعي للبقاء في هذا الجسد الصغير مع ما يسببه لك من معوقات؟"

قالت مالو بحزم "لا.. ليس بعد.. لقد أخذت عهداً على نفسي أنني لن أتجاوز هذه المرحلة مهما طال الوقت.. فأنا لا أريد أن أصبح منبوذة من قريتي، ولا أظن الحكيم سيقبل بوجودي في منزله بعدها مطلقاً.."

تساءل إيار بدهشة "ما السبب؟.. ما السيء في تحولك لشخص بالغ ليتم نبذك بهذه الطريقة؟"

قالت مالو "ليس هذا وقت الجدال والتفسير.. علينا العودة للبقية، فقد يحتاجنا الحكيم.."

تقدم إيار وحملها بذراعيه، ثم حلق بجناحيه عائداً للمكان الذي سقطا منه.. ولم يملك نفسه أن يسأل "ما الذي قد يستفيده الحكيم من وجودك معه في هذه اللحظات؟.. أنا لا أفهم سبب وجودك حقاً.."

أجابت مالو "سيتضح ذلك قريباً دون شك.."

لكنها كانت تشعر بشيء من التوجس لم تملك سببه.. إنها لا تقدر على تقديم العون للحكيم ولا لغيره وهي بهذه الحالة.. إنها لا تتقن تعاويذ كافية لمواجهة الكاهنة، ولا تملك أي قدرات أو مهارات بهذا الجسد.. فما الذي يمكنها أن تفعله حقاً ليصرّ الحكيم على اصطحابها معه في هذه الرحلة؟.. تراودها أفكارٌ غير مريحة عن هذا الأمر.. وجلّ ما ترجوه أن تكون هواجسها مخطئة رغم كل شيء..

فور أن لاحظت الكاهنة سقوط جاد، وأدركت أنها فقدت حاميها الذي قد يمنع عنها هجوم البقية، أدركت أنها يجب أن تتصرف بطريقة فردية تماماً.. رأت اقتراب الريابلة منها ومن البقية وأحدهم يقول للحكيم "لا أدري ما الداعي لإحضارنا لهذا المكان.. هل أنتم عاجزون عن التخلص من غول واحد؟"

كانت سخريته الواضحة موجهة تجاه أوس الذي فضّل تجاهله من جديد، لكن الحكيم رد عليهم قائلاً "ليس الغول من أريدكم الخلاص منه.. ولو كنا محظوظين، فقد لا نحتاج لعونكم في الساعات القادمة قبل رحيلنا من هذه الجزيرة.."

في تلك اللحظة، استشعر الحكيم خطراً جعله يلتفت للكاهنة بسرعة.. كانت في تلك اللحظة تضمّ قبضتي

يديها لفمها، وما لبثت أن نفخت بقوة وهي تمد أطراف أصابعها لجميع الاتجاهات.. شعر الريابلة في تلك اللحظة بدفقة قوية من هواءٍ عاتٍ أسقطهم للوراء، ولم يتمكن أحدهم من البقاء على قدميه عدا الحكيم الذي صمد بصعوبة.. أما الكاهنة، فقد استدارت وركضت مبتعدة مستغلة هذه الفرصة.. عادة لا تقدر على استخدام هذه التعويذة التي تسقط أعدائها وتجمدهم للحظات، لأنها تستنزف الكثير من قواها وتجعلها منهكة بشدة.. لكنها مجبرة على ذلك في هذه اللحظة..

شعرت فور ابتعادها بخطوات بتلك اليدان اللتان أمسكتا بها وثبتتاها أرضاً.. لم يكن أحدهم قربها، إنما أمسكها الحكيم بإحدى تعاويذه وحاول تجميد حركتها رغم ضراوتها في المقاومة..

وقبل أن تفلح في الإفلات بالفعل، وجدوها تسقط أرضاً بصمت بعد أن تلقت ضربة على مؤخرة عنقها من يد سولينا المفرودة.. وإزاء نظرات الا ستنكار من أوس لما فعلته، قالت "آسفة.. لم يكن هناك حل أفضل من هذا لإيقافها.."

لم يعارض أحدهم وأوس يقترب من الكاهنة ليتأكد أن جسد الطفلة بخير، فيما علقت تيما قائلة "لكن هل يكفي سقوطها لإنهاء هذا الأمر؟"

فقال الحكيم "بالفعل سيكفي لإنهائه.."

ورفع بصره للسماء مضيفاً "المهلة التي تملكها الكاهنة لتنفيذ تعويذتها تنتهي بعد ساعة أو أكثر قليلاً، ولم يبقَ عليها الكثير.."

نظر أوس للسماء مراقباً النجوم اللامعة دون أن يعرف ما يرمي إليه الحكيم، وعلق قائلاً "كيف تعرف كل ذلك؟"

ابتسم الحكيم مجيباً "أنا أعرف لأنني أعرف.."

نظر له أوس بدهشة لهذا الجواب العائم، فيما أشار الحكيم للكاهنة مكملاً "فليربطها أحدكم حتى ننتهي من استجوابها عندما تستيقظ.."

أسرعت سولينا تستخرج من حقيبتها البسيطة حبلاً وقامت بتقييد الكاهنة به بإحكام.. ثم حملتها لجانب الساحة وأسندتها للجدار دون أن تبدي الكاهنة حراكاً.. تلفتت بعدها حولها معلقة "ما الذي سنفعله بها الآن؟.. أهناك وسيلة ملائمة لإخراجها من جسد ساما؟"

اقترب الحكيم قائلاً "أظن أنني أملك وسيلة ملائمة.. لكن قبل ذلك أريد الحصول على أجوبة.."

قال أوس بضيق "ما الداعي لذلك؟.. لو استعادت الكاهنة وعيها، لربما تمكنت من الإفلات منا بصورة أو بأخرى.. الأفضل الخلاص منها الآن قبل أن تشكل خطراً حقيقياً.."

هز الحكيم رأسه مجيباً "لا.. أريد أن أعرف حقيقتها، وأريد أن أعرف ما جرى لليوريت.. لا يمكن أن نتخلص منها بعد كل ما فعلته دون أن نفهم حقيقتها وحقيقة ما تسعى إليه.."

قاطع جدالهم صوت رفّات جناحين بدت واضحة في صمت هذه الليلة، وما لبث إيار أن ظهر خلفهم حاملاً مالو، فأنزلها في جانب الساحة وهبط على قدميه قبل أن يهرع إلى البقية بانفعال واضح.. وعند اقترابهما من المجموعة، قال الحكيم لمالو "أأنت بخير يا فتاتي؟"

هزت رأسها إيجاباً بصمت، فابتسم قائلاً "أرجو ألا تكرهيني لما جرى.. كنت واثقاً نوعاً ما أنك ستتمكنين من النجاة، وقد حدث ذلك بالفعل.."

لم تعلق مالو على قوله.. كانت معتادة على سلوك الحكيم الذي يبدو بارداً وغير مبالٍ بمن حوله.. وسواء أكان ذلك حقيقياً أم ظاهرياً، فهي تتقبله دائماً بكل الأحوال..

قاطعهم إيار في تلك اللحظة قائلاً بانفعال "سولينا.. هل كنت تعلمين أنني لست من نسل التنانين؟"

قالت سولينا مشدوهة "أنت ماذا....؟.."

قال إيار بانفعال أكبر "أنا لست تنيناً، ولا حتى نصف تنين.. أنا أنتمي لجماعة عاشت في هذه الجزيرة، ويبدو أنها بادت مع انتهاء حضارة (الكهان) منذ مئات السنين.. لقد وجدت آثاراً ورسوماً لأشخاص يشبهونني، وهذا دليل على أنني لم أكن وحدي بهذه الهيئة.."

نظرت سولينا بدهشة لانفعال إيار، ثم علقت "إذن.. هل ضاعت كل جهودي لبيعك عبثاً وأنا أحسبك من نسل التنانين؟"

قال إيار مقطباً بغيظ "أهذا كل ما أهمّك؟"

ربتت سولينا على كتفه قائلة بابتسامة "هنيئاً لك يا فتى.. إذن لا علاقة لك بالتنانين الذين أبيدوا عن بكرة أبيهم.."

ثم غمغمت مفكرة "مهلاً.. الجماعة التي تنتمي إليها قد أبيدت عن بكرة أبيها أيضاً.. ما هذا النحس؟"

تزايد غيظ إيار لتعليقها الهازئ، فيما تعالى صوت الحكيم قائلاً "لم يكن ما قيل عنك خاطئاً بشكل كليّ.."

التفت إليه إيار بدهشة شاركه فيها البقية، فأضاف الحكيم "في الواقع، أنت تحمل بعض صفات التنانين بالفعل.. لكن لم تكن ابناً لأحدها قط.."

تساءلت سولينا "ما هذا اللغز؟"

أجاب الحكيم "ليس لغزاً.. في المدينة العظيمة التي نبعت منها حضارة (الكهان)، عُرِف أصحابها بممارسة السحر والكهانة وبراعتهم فيها.. كانوا هم من بدأ ممارسة السحر منذ قديم الزمان، وطوّروا تعاويذه وأفكاره وممارساته بشكل كامل في القرون الأخيرة.. ولكن خرج من بينهم رجل وحيد يؤمن أن السحر ليس هو الحل لكل شيء في هذا العالم.. كان الرجل بطاقة جسدية ضعيفة لا تمكنه من ممارسة السحر، لكنه امتلك عقلاً ذكياً يبزّ الآخرين.. بدأ هذا الرجل باتخاذ طريق العلم، وقام بالاستفادة من علوم البشر من عالمهم الذي دأب على زيارته.."

تساءل أوس "كيف كان يعبر طريق الأطياف؟"

قال الحكيم "لم يكن لطريق الأطياف وجود كما نعرفه الآن.. ولم تكن الأطياف تحتل ذلك الموقع الذي يصل بيننا وبين عالم البشر.. في الواقع، لم يتكون طريق الأطياف بهيئته الحالية إلا بعد دمار هذه الحضارة بعدد من السنين، وكان الطريق لعالم البشر مفتوحاً لمن شاء من كائنات هذا العالم.."

غمغمت سولينا "لابد أن البشر عاشوا سنوات مرعبة في تلك الأوقات.."

أكمل الحكيم حكايته الأصلية قائلاً "بدأ ذلك الرجل إجراء العديد من التجارب على بعض الكائنات، وبدأ تحقيق نتائج ملموسة وباهرة في بعض الأحيان.. أصبح معروفاً في المدينة، وأصبح يبزّ أكبر السحرة بعلمه وعقله.. ومن تجاربه، جاءت عشيرة (أبناء التنانين).."

تزايد اهتمام إيار بما يسمعه، والحكيم يضيف "كانت الجبال القريبة في هذه الجزيرة تؤوي بعض التنانين في قلبها، وقد استطاع الرجل الحصول على بعض بيضها.. قام بتجارب عديدة للحصول على كائنات تحمل صلابة وقوة التنانين، وتحمل في الآن ذاته عقلاً كعقل الإنسان.. وبعد عدة عقود من التجارب الفاشلة، تمكن من تحقيق أول نصرٍ له بخروج طفل بجناحين من بيضة للتنين في مختبره.. تكررت تجاربه، وتكرر نجاحه.. فكانت نتيجتها هذه العشيرة التي تحمل في أجسادها صفات التنانين وتحمل على ظهورها

أجنحتهم، والتي كانت بالفعل أقوى الكائنات في هذه المدينة.. ولكن أبيدت هذه العشيرة مع انتهاء هذه الحضارة، ولم يبق منها إلا هذا الفتى.."

دارت الأبصار لتستقر على إيار الذي غاب تفكيره فيما سمعه، فيما تساءلت مالو "كيف تمكن إيار من الوصول لجبال وكر التنين؟.. وكيف نجا من مصير عشيرته؟.."

علقت سولينا قائلة "وتلك الحضارة قد انتهت منذ ما لا يقل عن قرنين من الزمان.. فكيف بقي إيار طوال تلك المدة وهو لا يبدو يتجاوز السادسة عشر من عمره؟"

أجاب الحكيم "كما هو معلوم، بيضة التنين قد تبقى مئات السنين محفوظة دون أن يطرأ عليها تغيير.. لكن ما أن تحصل على الدفء اللازم وتتوفر لها البيئة الملائمة، فإنها تفقس ويخرج صغير التنين منها دون بأس.. لا أعلم ما الذي قاد البيضة التي خرج منها هذا الفتى من هذه الجزيرة لتلك الجبال الشرقية، لكن لابد أن إحدى إناث التنانين قد تعهدتها بالرعاية ظناً منها أنها بيضة تنين عادية.."

سمعوا أنين الكاهنة في تلك اللحظة، فاستقرت الأعين عليها حيث استلقت في جانب المكان.. فوجدوها تفتح عينيها للحظة قبل أن تتسعا وهي تعتدل جالسة وتتلفت حولها بصدمة وشيء من الذعر.. وصاحت "ما الذي تفعلونه بي؟.. ما الذي ستفعلونه؟.. هل ستقتلونني؟"

قال الحكيم بهدوء "ليس هدفنا قتلك.. ليس في الوقت الحالي على الأقل.. أريد أن أعرف من أنت، وما غرضك من كل ما تفعلينه.. كيف تعلمت السحر وعلى يد من؟.. هل أنت الفتاة التي تتلمذت على يد الكاهن يوريت؟.. وهل أنت من قتله؟"

أطلقت الكاهنة ضحكة عصبية وقالت "لديك الكثير من الأسئلة يا هذا.. أأنت واثق أننا نملك الوقت الكافي للإجابة عنها كلها؟"

قال الحكيم "لديّ كل الوقت للحصول على هذه الأجوبة.."

صاحت الكاهنة بتوحش "لكني لا أملك الوقت الكافي.. لقد ضاعت ساعة ثمينة مني عبثاً.. بقي القليل وينتهي كل شيء، وتزول فرصتي التي انتظرتها تسع سنوات.. أتظنني سأفوّت هذه الفرصة أيضاً؟"

أجاب الحكيم بصرامة "ستنسين كل ما كنت تحاولين فعله وتجيبين على أسئلتي بدقة.. أنا لا أتهاون مع أي شخص يعاملني باستخفاف.."

صاحت الكاهنة وهي تحاول الإفلات من قيودها "لن أسمح لك بذلك.. لا يمكن أن تدمر كل ما سعيت إليه لسنوات طوال.. جهودي لن تضيع عبثاً.."

تجاهل الحكيم صياحها الغاضب، فيما تساءل أوس "أنت لم تخبرنا بعد عن معنى كل ما فعلته الكاهنة هنا.. بدا لي أنك تعرف تلك النقوش التي رسمتها على الأرض، وتعرف هدفها من وضع هذه القرابين عليها، بل وتعرف الزمن المتاح لها لتنفيذ ما ترمي إليه.. فما معنى كل هذا؟"

التفت إليه الحكيم مجيباً "ظننت هدفها واضحاً.. ما الذي دفعكم لمعاونتها فيما تفعله إن لم تدركوا خطورته؟"

قطب أوس قائلاً بضيق "نحن لم نعاونها، ولا نعرف ما تسعى إليه.. فما الذي كانت تنوي تحقيقه بكل هذا؟"

أجاب الحكيم "كانت تنوي فتح ثغرة بين عالم الأطياف وعالم البشر.."

ساد الصمت للحظات وكأن الحكيم قد ألقى بقنبلة كتمت الأصوات نهائياً عن هذا الموقع.. واتسعت الأعين بصدمة لهذا الخبر الغريب وهي تتلاقى عن الكاهنة التي عبست بشكل مخيف.. وأخيراً صاحت سولينا بانفعال كعادتها "كانت ماذا؟.. ما هذا الهراء؟"

قال الحكيم "ليس هراءً إن كنت تعرفين ما كانت تفعله.. تلك التعويذة، مع القرابين المكونة من رؤوس بعض الكائنات، بالإضافة للضحايا من جميع مناطق هذا العالم.. كلها وسيلة لفتح ثغرة كبيرة بين العالمين، وتمكين كائنات هذا العالم من الانتقال بحرية لعالم البشر ليعيثوا فيه فساداً.."

قالت مالو مشفقة "لماذا؟.. ما الذي ستحققه الكاهنة بفعل شنيع كهذا؟.."

قال الحكيم وهو ينظر للكاهنة بصرامة "هذا ما ستجيبنا عنه.. شاءت أم أبت ذلك.."

قالت الكاهنة بصلافة "لا يهمني ما ترغب به.. أنا لن....."

قاطعها الحكيم قائلاً بنبرة مهددة "أنا قادر على إيذائك حقاً وحتى الخلاص منك لو أردت ذلك.. لكني لن أفعل ذلك قبل أن أحصل على الأجوبة التي أبحث عنها.."

تلاحقت أنفاس الكاهنة بتوتر وهي تدمدم "لن تقدر على إيذاء الطفلة.."

لكن نظرة الحكيم الحادة دلتها أنه قادر على ذلك.. لم يبدُ لها أنه مهتم لأمر الطفلة البشرية كما كان أوس، ولم

يبدُ أنه مهتم بأكثر من منعها مما تنوي فعله والحصول على الأجوبة التي يحتاجها..

رأته يقترب منها متسائلاً "في البدء، هل أنت من تتلمذ على يد الكاهن يوريت؟"

قالت بجفاء "أنت تعلم أنني هي، فلمَ تكثر السؤال عن هذا الأمر؟"

فتساءل عندها "وهل أنت من قتله؟.. ما الداعي لذلك؟"

قالت بسخرية "هل تريد أن أجيبك لتقتلني؟.. أجل، أنا من تخلص منه، لأنه أراد إيقافي كما تحاول أن تفعل أنت ذلك.."

قطب الحكيم بتفكير، وإن لم يبدُ على وجهه الغضب لاعترافها بذلك.. بل سألها "كيف تمكنت من الا ستيلاء على جسد الطفلة البشرية؟.. الانتقال بين الأجساد ليس سهلاً ويحتاج طاقة كبيرة.. لكن الاستيلاء على جسد بشري أصعب بمراحل إن لم يكن مستحيلاً.. لا أظن يوريت يملك معرفة كهذه فأنا وهو نتشارك في ما نملكه من معرفة بأمور السحر والكهانة.. فكيف تجاوزت عقبة كهذه؟"

أطلقت الكاهنة ضحكة عصبية، وقالت "ما الذي يجبرني على التقيّد بالقيود التي وضعتموها لما رسي السحر؟.. لديّ عقلٌ أفكر به، وقد أجريت بضع تجارب أثبتت لي أن ذلك ليس مستحيلاً بشكل تام.."

تساءل الحكيم مقطباً "أي تجارب؟.. هل أجريتها على بعض البشر؟"

قالت بابتسامة ساخرة "ليس بالضرورة.. لقد أجريت بضع تجارب أثناء تنقلاتي السابقة بين الأجساد في هذا العالم.. وأدركت من المما رسة أن تجاوز هذا العائق بين جسدٍ من هذا العالم وجسد بشري ليس مستحيلاً.. هو فقط يحتاج لبعض الإصرار والإرادة القوية.. وبتسليط بعض الألم على الجسد القديم، تتنبه مداركي أكثر وتصبح قدرتي على الانتقال بين الأجساد أكثر فعالية ونجاحاً.. وكلما كان الألم أقوى كلما كانت نسبة النجاح أكبر.. الفشل الوحيد الذي لاقيته كان في الانتقال لجسد الطفلة البشرية وهي بعيدة عني.. لذا اضطررت لاختطافها وإحضارها إليّ ومعاودة التجربة من جديد.."

أدرك أوس أن ما تحكي عنه كان عند فقدان ساما الوعي في مخبئه في تلك الليلة التي سبقت هجوم (أنصاف الرجال) عليه واختطافها من بين يديه.. فيما قالت تيما عابسة "أنت مريضة.. كيف يمكنك أن تسببي لنفسك الألم الشديد فقط لتحققي أهدافك العقيمة هذه؟"

قالت الكاهنة بحدة "ليست عقيمة.. وسترون ذلك.."

فقال الحكيم مقاطعاً صياحها "إذن قمت بممارسة التنقل بين الأجساد أكثر من مرة!.. ما الداعي لفعل ذلك؟.. ألا ينهكك ذلك؟.. ألم يتسبب في فقدانك لبعض قواك وطاقتك؟.. هذا سيؤثر في قدراتك على ممارسة السحر كثيراً.."

صمتت الكاهنة مشيحة بوجهها للحظة، ثم دمدمت "لم يكن لي بدٌ من ذلك.. فعلته مرغمة، وكان ذلك سبيلي الوحيد لئلا أفقد حياتي قبل الأوان.. لن أفقد حياتي قبل أن أنفذ كل ما أردت فعله.. لقد أقسمت على ذلك منذ زمن.."

وألقت نظرة على الحكيم مضيفة "ولن يقف شيء في طريقي.. لا الآن، ولا بعد هذا...."

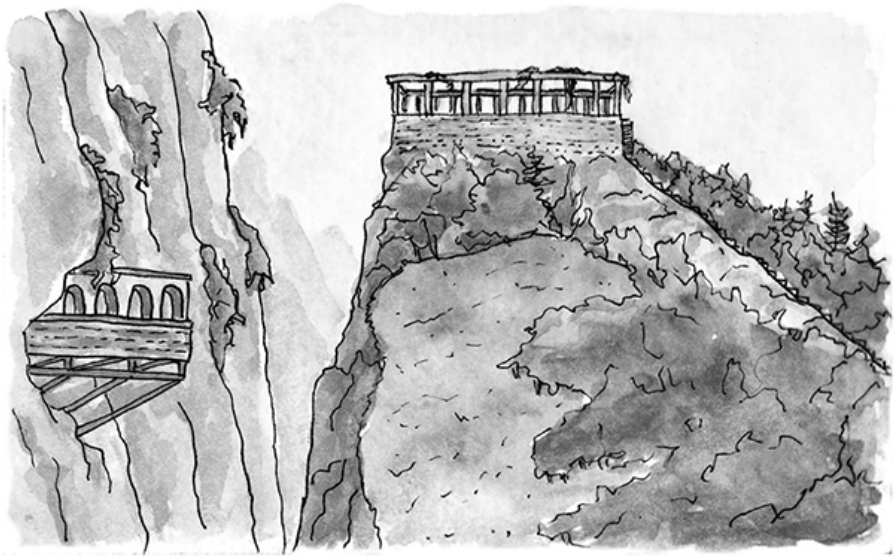

الفصل الثامن عشر: حكايا ألف حياة

لهثتُ بقوة وأنا أحاول تمالك أنفاسي المتسارعة بعد المغامرة غير محسوبة العواقب التي قمت بها.. من كان يتوقع أن أتواجه مع الكاهن يوريت، بل وأتغلب عليه بهذه البساطة؟!.. مذهولة أنا نفسي..

نظرت خلفي للجزيرة غريبة الشكل والتي تشبه الهلال، والتي اصطلح العامة على تسميتها بجزيرة (الكاهن) بعد أن أمضى فيها الكاهن يوريت زمناً طويلاً يسكنها وحده.. لقد أمضيت عشر سنوات على هذه الجزيرة، وقد بغضت كل يوم منها رغم أنها هي وسيلتي لتحقيق ما أردته..

لماذا قمت بما قمت به بعد عشر سنوات التزمت فيها بطاعة يوريت والتعلم منه؟.. لأنني، كما علمت مؤخراً، قد اكتشفت أن الموعد المحدد لتنفيذ الانتقام الذي سعيت إليه قد أصبح قريباً.. هذه السنة تتعامد النجوم على أحد المواقع في يوم معين سامحة لي باستخدام طاقة كبيرة لتنفيذ تعويذة خاصة لا أقدر على استخدامها في أي يوم آخر.. ولو انقضى ذلك اليوم، فلن يعود مرة أخرى إلا بعد تسع سنوات.. وليست لي طاقة للانتظار هذه المدة..

نظرت للفافة التي أمسكتها بيد ترتجف، ثم فتحتها بحذر وتأملت محتواها الذي كتب بلغة لا يقدر العامة على قراءتها.. فقط شخص تتلمذ على يد أحد الكهنة في هذا العالم، وعددهم لا يتجاوز اثنان بأي حال من الأحوال، شخص مثل هذا يغدو قادراً على قراءة محتوى اللفافة بكل سهولة.. لذا جرت عيناي على الكلمات بسرعة ولهفة وتأملت الرسم الذي نقش في جانبها وتمعنت فيه حتى نقشته في عقلي بكل تفاصيله..

لم يبقَ إلا وقت قصير قبل اليوم الموعود.. وعليّ فعل كل ما أقدر على فعله لأستغل هذه الفرصة النادرة

قبل أن تضيع هباءً..

هذا هو المكان المذكور في اللفافة.. احتشد صدري بانفعالات متباينة وأنا أرى الموقع الذي عثرت عليه بعد بحثٍ وتدقيق وكثيرٍ من التمحيص.. هناك عدة مواقع تصلح لتنفيذ التعويذة، بالاعتماد على عدد من النقاط المهمة وقد وافق هذا الموقع تلك النقاط بدقة تامة..

كنتُ وسط صحراء شاسعة والدابة التي حملتني قد هلكت قبل ساعات.. لم أهتم لمكاني ولكيفية خروجي من هذه الصحراء، فبهذه التعويذة، لن يهمني ما يجري في هذا العالم بعدها بتاتاً..

تمالكت لهفتي وقمت بتنفيذ التعويذة النادرة والتي كانت أشقّ علي من غيرها.. كنت قد اتخذت احتياطي بملء بعض الحاويات الفارغة التي جلبتها معي بدماء تلك الدابة.. إن ميتتها لم تكن أمراً غير متوقع في الحقيقة..

كان من المفترض أن أنقش التعويذة على الأرض، ولاستحالة تنفيذ ذلك على الرمال، استعضت عن ذلك بالدماء لما لها من أهمية في حشد الطاقة اللازمة لتعويذة بهذا الحجم..

رسمت دائرة ضخمة من الدماء، واعتنيت بتفاصيلها كما هو مرسوم في اللفافة.. والآن، حان دور القرابين.. حملت بضع رؤوس مقطوعة جلبتها معي، وكل رأس لكائن مختلف من كائنات عالمنا ومحنط تحنيطاً جيداً.. الإعداد لهذه التعويذة استغرقني شهوراً طويلة في صيد، أو شراء، تلك الرؤوس وتحنيطها بنفسي وإعدادها لهذه الرحلة..

وضعت الرؤوس في نقاط معينة.. ووضعت أكبر رأس، لفرد من (الريبال)، في وسط التعويذة.. الريابلة مهمين لهذه التعويذة، وبينما لم تحدد اللفافة هوية الرؤوس الباقية فإنها ذكرت بالتحديد أن الرأس في الوسط يجب أن يكون من (الريبال).. يبدو أن قدرتهم على كسر أي سحر مهمة في هذه التعويذة..

وقفت والرأس بين قدمي، وشكّلت حركة خفيفة بيديّ وأنا أتلو كلمات التعويذة التي لا تزيد على ست كلمات.. ذكرتها ست مرات على الأقل، وأنا أستشعر التغيير حولي في الطاقة الحسية التي تثيرها

التعويذة.. بعد لحظات، أصبح بمقدوري رؤية ذلك الخط من الرمال الذي دار حول الرسم وبدأ يرتفع رويداً رويداً بحركة متسارعة بفعل الهواء الذي تحرك بقوة حولها.. بدأت دوامة كبيرة تحيط بي، وللدهشة لم تمسّ التعويذة التي رسمتها بالدماء على الرمال..

بدأت أنفاسي تتلاحق بعد أن أنهيت الكلمات الست، وظللت أراقب نتيجة عملي بفرحة لم أستطع إخفاءها.. أخيراً، بعد تلك السنوات الطويلة التي مضت منذ انضممت للكاهن يوريت، سأتمكن من تحقيق حلمي.. وتحقيق انتقامي..

بدأت الدوامة تتحول لشيء أكبر وأقوى تأثيراً، وفي لحظة رأيت تلك الطاقة التي تحرك الرمال تندفع نحوي وترتطم بي فترميني أمتاراً للوراء.. أطلقت صيحة ألم عنيفة، ولم يكن ذلك بسبب سقوطي على الرمال الناعمة بل بسبب الألم الذي اشتعل في جسدي لحظة الارتطام.. شعرت أن عظامي تسحق، وأن روحي تزهق، وأن جسدي أصبح جسداً ميتاً لا حياة فيه.. فقدت الوعي لوقت لا أعلمه، ثم شهقت بعدها بقوة وكأن الحياة قد عادت لي، ونظرت حولي بعسر لأرى أن السكون قد ساد المكان بشكل تام، فيما تناثرت الرؤوس التي خلت من أي تعبير في المكان حولي، وربض رأس (الريبال) قريباً مني وكأنه يحدق بي.. وكأنه يلعنني.. شعرت بآلام لا تطاق، ولم أعرف ما الذي يؤلمني بالفعل.. كان رأسي ينبض من الألم، وذراعاي ترتجفان، فيما رفضت ساقاي الاستجابة لي بشكل تام.. كنت أموت، هذه هي الحقيقة التي أدركتها بعد لحظات من الألم الشنيع..

كنت أموت في هذا المكان الخالي من أي روح..

كنت أموت ولا أجد ما يمكنني فعله لمنع ذلك.. لكن من قال إنني سأستسلم لهذا المصير؟.. كيف أضيّع سنوات اجتهادي الماضية بسبب خطأ كهذا؟!..

انقلبت على بطني، وبدأت الزحف مبتعدة عن هذا المكان.. كان المكان الذي نفذت فيه التعويذة قد احتشد بطاقة سلبية شديدة، بحيث أشعر بها تطبق على أنفاسي.. قد لا يدرك المرء هذه الطاقة السلبية لو مرّ بها، وقد لا يشعر بأكثر من ضيق في أنفاسه أو سوء مزاجه عندها.. لكن من يعرفها، ومن يتعامل بالسحر ويتقن الكهانة، هذا الشخص فقط يمكنه أن يدرك السوء الذي قد يلحقه من البقاء في مثل هذا الموقع..

زحفت ببطء وألم شديد، مستخدمة ذراعاي وجسدي المتيبس عندما عجزت عن تحريك ساقاي.. كنت أزحف لمسافة بسيطة ثم أفقد الوعي بعدها لشدة الألم والتعب الذي يحلّ بي.. ولكني استمتّ في الابتعاد أكثر فأكثر وأنا أسمع عواء بعض الحيوانات الضارية التي تستوطن هذه الصحراء.. يبدو أنها أيضاً مستاءة من الطاقة السلبية التي يمكنها استشعارها بسهولة، وكنت واثقة أنها لن تجرؤ على الاقتراب من هذه المنطقة بغريزتها الطبيعية.. ولذا يمكنني أن آمن على نفسي ولو قليلاً من هجومها عليّ، خاصة لو فقدت وعيي في هذا القفر..

مضت ساعات وأنا بين زحف وغيبوبة، قطعت فيها ما يقطعه المرء عادة في أقل من ساعة واحدة.. أنفاسي تضيق.. ونبضي يتسارع.. ورجفة جسدي تزداد.. وعندما أوشكت على فقدان الوعي من جديد، كنت أدرك ساعتها أن هذه ستكون المرة الأخيرة.. لا شيء ينبئني أنني سأستيقظ بعدها.. وقد ندمت أشد الندم لأني لم أتخذ احتياطاتي قبل أن أصاب بهذه النكبة غير المتوقعة..

عندما فتحت عيناي، ورأيت السقف الخشبي الذي يعلو رأسي، أدركت أنني نجوت.. رغم أن ساقاي بقيتا جامدتين، لكني كنت بصحة أفضل مما سبق، وقد أدركت أنني في منزل وسط مدينة محدودة.. وكل ما دار بذهني وقتها، أن الحياة قد عادت لي من جديد لأتمّ ما بدأته.. هذا ما أراده القدر لي.. لقد كدت أموت عدة مرات منذ بدأت مشواري هذا، لكني في كل مرة أجد معجزة ما تعينني على إتمام ما انتويته.. ألا يدلّ هذا أنني على الطريق الصحيح؟.. ألا يدلّ هذا أن ما أفعله هو عين الصواب؟..

جاءني رجل وزوجته بعد وقت قصير ورحبا بي وأحتفيا بي أيما احتفاء.. أخبرني الرجل أنه عثر عليّ أثناء عودة قافلته من إحدى الواحات التي تتوزع في الصحراء، في رحلة تجارية تكاد لا تنقطع لبيع الملح الذي يمتهنه أغلب سكان هذه المدينة.. أدركت عندها أنني في المدينة المسماة (ركام الملح) وهي مدينة عتيقة اتخذت من استخراج الملح وبيعه مهنة لها بشكل حصري، خاصة مع المسطحات الملحية التي تقع المدينة في جانب منها، والتي تشبه الصحراء في جفافها وانقطاع الحياة فيها، والاختلاف الوحيد هو في لونها شاهق

البياض، واستوائها استواءً شبه تام وكون أغلب مكونات رمالها من الملح الخام..

بقيت عدة أيام في هذا المنزل، ترعاني فيه زوجة التاجر، وتراقبني من مبعدة ابنتهما التي لا تتجاوز في عمرها الثالثة عشر.. كنت عاجزة، وأدركت أنني لن أستعيد القدرة على السير مجدداً مهما كانت إرادتي قوية.. لقد فقدت الكثير في هذه التجربة، والشيء الوحيد الذي لم أفقده هو عزيمتي وإرادتي القوية..

ظللت أراقب الفتاة التي كانت تتوارى مني كلما التقت عيناناً.. كنت بحاجة لجسد جديد.. ما عاد هذا الجسد الذي أسكنه يوفر لي القدرات التي أحتاجها لتنفيذ مهمتي.. وقد وفّرت عليّ تلك الفتاة عناء البحث عن بديل مع عجزي التام عن الحركة..

لم تكن تلك الفكرة غريبة على من تعلّم السحر، بل هي تعويذة قديمة لكنها منبوذة بين السحرة والكهّان لآثارها السلبية، سواء على منفذ التعويذة أو على صاحب الجسد الذي سيستقبله.. لكن من قال إنني مجبرة على الالتزام بالأعراف التي وضعها ممارسوا السحر منذ قديم الزمن؟..

استغرق الأمر مني بضع أيام قبل أن أنال اهتمام الفتاة ويسقط حذرها التام تجاهي.. بدأت تستمع لحكاياتي الغريبة عن جولاتي في عالم الأطياف، وبدأت ألفق لها الحكايات التي تناسب خيالها الصغير وتشعل اهتمامها بي بحيث تستسلم لي تماماً عندما يحين الحين.. ولم يمضِ وقت طويل حتى جاءتني الفرصة الملائمة لمثل هذا العمل.. كان ذلك اليوم يوم احتفالات كبرى في المدينة، والتي تتواصل على مدى ثلاث أيام يتوقف فيها العمل توقفاً تاماً وتنتعش الحياة في المدينة الكئيبة التي لا تعرف إلا الجد والاجتهاد.. غاب والدا الفتاة في الاحتفال، بينما نكبت الفتاة بمرض شديد أقعدها عن المشاركة.. لم أكن أحبذ الانتقال لجسدٍ مريض، لكني لم أكن أملك خياراً مع العجز الذي حصل لي وأقعدني عن الحراك..

كانت أصوات الاحتفالات تصمّ الآذان، رغم بعدها عن هذا المنزل، وغطّى هذا على صوت صياح الفتاة التي جاءتني في وقت متأخر بحثاً عن بعض السلوى في حكاياتي.. سيطرت عليها بتعويذة بسيطة، وفيما استلقت الفتاة على السرير قربي دون حراك، فقد حملت خنجراً احتفظت به تحت وسادتي تحسباً لهذه اللحظة التي قد لا تتكرر مرة أخرى.. وبواسطته وبكثير من الجهد، رسمت عدداً من الوشوم المتماثلة في جسد الفتاة وفي جسدي.. تجاهلت الآلام التي شعرت بها، وتجاهلت بكاء الفتاة وآلامها رغم أنها كانت

مسلوبة الإرادة في تلك اللحظات بتعويذتي..

ومع رائحة الفتيل المحترق من بعض الشموع التي جعلت الفتاة توزعها في الغرفة في وقت سابق، ومع الدماء التي أغرقت المكان حولها وحولي حيث كنت أزفر بتعب، بدأت بترتيل جزء معقد من التعويذة.. كانت هذه تجربتي الأولى، لذا لم أكن أضمن النتائج فيما يخص الفتاة.. ولم يكن هذا يهمني بحال من الأحوال.. كل ما يهمني ألا أفشل من المحاولة الأولى مع كل توابعها عليّ..

بعد ساعة طويلة لم يرف لي فيها جفن وأنا أتلو التعويذة التي أحفظها عن ظهر قلب، وألمس في كل مرة جزءاً معيناً من جسد الفتاة زينتُه بالوشوم.. ولما انتهيت، وأنا أستشعر طاقة قوية تحيطني وتتغلغل في مسامات جسدي بقوة وعنف، سحبت نفَساً عميقاً ووضعت إصبعين من أصابعي على جبين الفتاة وتلوت الجزء الأخير من التعويذة.. وعلى الفور، أطفئت الشموع القريبة وعمّ الظلام التام في المكان.. شهقتُ شهقة قوية وأنا أشعر بقبضة قوية تحبس أنفاسي وتسحبها من صدري بدون ترفق.. وفي الآن ذاته، صدرت من الفتاة شهقة مختلطة بصيحة ألم قبل أن يغمرني ظلام تام وفقدت الوعي لوقت لا أعلمه..

وعندما استيقظت، ورأيت جسدي الساكن على مقربة مني غارقاً في دمائه، ندّت مني صيحة انتصار.. كان شعوراً مذهلاً.. جسدٌ جديد يختلف تمام الاختلاف عن جسدي بكل ما يملكه الوصف من معنى.. حلٌ مثالي خلصني من عجزي السابق ومن الوهن الذي أصابني بعد تجربتي الأولى مع تلك التعويذة التي نفذتها في الصحراء.. سادتني آلام قوية وغثيان شديد، لكن هذا لم يمنعني من الاحتفاء بنصري هذا..

نهضت واقفة بسرعة متجاهلة الجراح التي أحدثها الخنجر في هذا الجسد، والتي كانت لا تزال تتصبب دماً.. تأملت ذراعاي وساقاي ملاحظة تأخيراً بسيطاً في استجابة تلك الأعضاء لي.. كنتُ لازلت غير واثقة من مدى سيطرتي على هذا الجسد، لذا يستحق الأمر بعض التجارب.. لكني لم أكن أملك الكثير من الوقت، فعليّ الهرب بالفتاة قبل عودة أبويها ورؤية ما حدث لضيفتهما.. ولا أشك أنهما عندما يريان الفوضى والدماء التي تغرق الغرفة، سيعزوان هذا الأمر لمجرم اقتحم منزلهما فقتل ضيفتهما واختطف الفتاة بغير رجعة.. ولا أظنهما يلتفتان للوشم الذي أحدثته بجسدي بالخنجر مع كل ذلك التشويه الذي طال جسدي.. لذا، أنا واثقة أن ما فعلته لن يدركه أي امرئٍ في هذه المدينة.. ولا في هذا العالم كله..

لم تكن مغادرتي بالسهولة التي توقعتها.. في الواقع، لم أكد أقطع بضع شوارع حتى بدأت قدماي تنثني تحتي وبدأت أفقد السيطرة على هذا الجسد.. ما الذي جرى؟.. شعرت بالعرق يتصبب من جبيني، وبدأت أتهاوى غير قادرة على الاستمرار.. هل فشلت في الانتقال؟.. ما الخطأ الذي قمت به؟..

سقطت أرضاً في أحد الأزقة وبقيت هناك أرتجف محمومة بشكل بشع.. أهذا بسبب المرض الذي كان ينوء به جسد الفتاة؟.. ألهذا السبب صارت سيطرتي على هذا الجسد ضعيفة؟..

للأسف، الكتاب الذي يتحدث عن تعويذة النقل بين الأجساد كان مختصراً ولم يستفض في هذا الأمر بشكل واضح.. كنت أدرك أنني بحاجة لعدة طقوس.. لكني جهلت كيف أجعل سيطرتي على الجسد أقوى.. كيف أنتقل بدون هذه الطقوس الطويلة المعقدة، وكيف أتمكن من تجاوز هذه الأزمة التي مررت بها..

لسوء حظي، رآني أحد الرجال، ولاحظ النزيف الذي لا يكاد ينقطع من الوشوم تلك والرجفة التي ترجّ جسدي بقوة.. ولسوء حظي، تعرّفني وأدرك ابنة من أكون، أو أنه تعرف على الجسد الذي سيطرت عليه..

لم أكن قادرة على الهرب بحالتي هذه، لذا التزمت بالصمت وأظهرت خوفي الشديد تفادياً للأسئلة العديدة التي طرحها عليّ..

حملني رغماً عني وأعادني للمنزل الذي كان مقلوباً في تلك اللحظات.. تعالى صياح المرأة وبكاؤها وهي تحملني وتضمّني بقوة، فيما انزوى التاجر جانباً مع الرجل ودار بينهما حديث طويل لابد أنه لن يتجاوز الحديث عما جري لي، وعما جرى لضيفتهما التي ماتت مقتولة في منزلهما.. تماديت في إظهار ذعري وفزعي أمامهما، وظللت منزوية في حضن "أمي" متظاهرة بأنني فقدت القدرة على النطق.. وتجاوزت عن كل سؤال يطرح عليّ بهزة قوية من رأسي ودموع غزيرة من عينيّ..

انقضت بضع أيام منذ تلك الحادثة، استعدت فيها صحتي رويداً رويداً، وبدأت جروحي بالاندمال.. فيما اشتعل الحيّ بفوضى لا تصدق والرجال يبحثون عن مرتكب تلك الجريمة المروّعة بحق غريبة ضعيفة

ومسكينة وبحق طفلة صغيرة لا حول لها ولا قوة.. ولم يراود أحدهم الشك بي بتاتاً طوال تلك الأيام..

بعد أن استعدت ثقة والديّ الطفلة بدأت الخروج من المنزل متظاهرة باللعب مع أقراني، لكني كنت في الواقع أجوب المدينة وسوقها بحثاً عن جسد جديد.. مازال هذا الجسد عسيراً عليّ.. ومازلت أشعر أنني قد أفقد سيطرتي عليه في أي لحظة.. وكان عليّ معرفة الخطأ بمفردي ودون الاستعانة بأي مرجع كان..

وأخيراً، انتقيت فتاة صغيرة لا تكبر هذا الجسد بكثير.. والأجمل أنها كانت تابعة لإحدى القوافل التجارية التي ستنطلق راحلة في فجر اليوم التالي.. عندها تسللت من منزلي بعد نوم التاجر وزوجته، والتقيت بالفتاة بعد أن وعدتها بأن أريها جانباً من المدينة لا يصل إليه الغرباء.. وبعد أن تبعتني لموقع غير مأهول من أحد الأحياء، لم يكن صعباً علي السيطرة عليها وتقييدها.. ومع فمها المكمم، كان من الصعب عليها جذب الانتباه بأي شكل من الأشكال..

عندها، بدأت الطقوس من جديد.. لكن هذه المرة، أضفت له دم حيوان ذبيح اخترته خصيصاً لتنفيذ هذه التعويذة، وسرقته من حظيرة قريبة.. وبعد بعض الوقت، استفقت من غيبوبتي المؤقتة لأرى نفسي في الجسد الجديد.. لكن هذه المرة شعرت بشعور أفضل من التجربة السابقة، وبدأت أدرك الفرق في قواي وفي قدرتي على تنفيذ بعض التعاويذ البسيطة دون رادع..

وفيما استلقى جسد الفتاة ابنة التاجر وسط الموقع المهجور، فإنني هرعت عائدة للقافلة قبل انبلاج الفجر بغية الرحيل معها قبل أن يفطن امرؤ لما جرى.. حرصت على تضميد جراحي باستخدام بعض ملابس الفتاة التي تركتها خلفي، وعدت للقافلة لاستبدال ملابسي قبل أن يراها أحد أفراد عائلة هذه الفتاة..

ومع الشمس التي تبدّت عند الأفق، كنت أغادر المدينة على ظهر إحدى العربات برفقة القافلة.. تاركة خلفي المدينة التي استيقظت على صرخة جزعة مصدرها ذلك الموقع المهجور في الجانب البعيد منها..

لم تكن رحلتي طويلة ولا شاقة.. لكن شيئاً من الضيق استعمر نفسي عندما وطأت قدماي جزيرة (الكاهن) من جديد.. كنت قد هربت من تلك القافلة بغفلة من أصحابها، وسلكت طريقي نحو النهر الذي لم يكن

يبعد الكثير عن طريق القوافل.. وهناك، وجدت وسيلة للانتقال للجزيرة التي بقيت صامدة وسط النهر كما كانت لمئات السنين..

صرتُ أبغض هذا المكان، ولم أكن أنوي العودة لولا الموقف المحرج الذي وقعت فيه عندما كدت أموت في تلك الصحراء القاسية.. لا يمكن أن أسمح لأمر كهذا أن يحدث من جديد.. لابد من حلّ بديل لتفادي هذا الموقف لو حدث لي في أي وقت وأي مكان كان، دون الحاجة للبحث عن جسد بديل بسرعة.. لذا، كانت عودتي للجزيرة للبحث عن حل وسط أكوام الكتب التي يحتفظ بها الكاهن يوريت في كوخه..

مررت بجسده الذي استحال عظاماً، بعد أن جردته بعض الحيوانات الضارية من اللحم وتكفلت الطبيعة بالباقي في الأسابيع الماضية، فلم أعبأ به وأنا أجدّ السير نحو الكوخ.. قضيت فيه شهراً أبحث عن حلّ لهذا الخلل في خطتي، وبعد أن عثرت عليه بدأت رحلتي التي دامت عدة سنوات جُبْت فيها أرجاء هذا العالم، من جبال وكر التنين وحتى جبال الغيلان.. وفي كل مكان وقرية أمر بها، أنتقي فتاة صغيرة لا تتجاوز العاشرة، وربما أصغر، لأمارس عليها طقساً صغيراً لن يلفت أنظار أحد..

كان الحل السحري الذي وجدته هو في إعداد عدة فتيات لاستقبال روحي لو فنى الجسد الذي احتللته.. لم يكن ذلك أمراً صعباً، ويكفيني أن أستدرج إحدى الفتيات ببعض الحلوى أو الحيل التي أمارسها بسحري، فأستخدم تعويذة طورتها بنفسي لرسم وشم على مؤخرة عنقها غير آبهة لبكائها و آلامها وذهولها مما يجري.. بعدها أطلقها لتعود لأهلها وأغادر على الفور لئلا أقع تحت طائلة ما فعلت..

حتى لو أبلغت الفتاة والديها بما جرى لها، فلن يفهموا الغرض من هذا الوشم.. ولا أظن أحدهم سيجرؤ على العبث به وإزالته مع ما قد يسبب ذلك لطفلتهم من آلام جمّة.. ولا ننسى أن ذلك الوشم يحمل تعويذة قوية تشعر الآخرين بتوجس لا يفهموا سببه، ويبعدهم عن العبث به بشكل تلقائي..

كم جسداً هيأت لاستقبالي؟.. خمسة؟.. ستة.. أم كانوا خمسة عشر؟.. لم أعد أذكر.. كل ما هنالك أنني أصبحت واثقة أن نهايتي لن تكون قريبة بأي حال من الأحوال..

والآن، ستبدأ خطتي التالية التي ستستغرق وقتاً أطول مما مضى.. لم يعُد ذلك المكان الذي زرته وسط الصحراء متاحاً في السنوات القادمة، لأن تقاطع النجوم فوقه قد انتهى ولن يتكرر لمدة طويلة.. والآن عليّ

البحث عن موقع جديد.. لكن لديّ وسائل مضمونة لمعرفة الموقع بدقة تامة.. كل ما في الأمر أنني مضطرة للانتظار حتى مرور تسع سنوات على محاولتي الأولى، وهي أقصر مدة يمكن خلالها أن تتعامد النجوم المعنيّة على أرضنا بشكل يضمن لي نجاح التجربة..

بعد تجوالي في ربوع الأرض، أدركت أنني أحتاج القوة والحماية بشكل أساسي.. ما أملكه من تعاويذ كافية لحمايتي، لكن يظل هناك بعض القصور فيها.. فهي تحتاج لإعداد، وأقلها يحتاج لنصف دقيقة من ترتيل كلمات معينة بترتيب معين.. مَن العاقل الذي سينتظر كاهنة حتى تتمّ ترتيل تعاويذها؟..

لذا، بعد أن اطمأننت إلى وجود أجساد بديلة مهيأة لاستقبالي في حال وصلت بهذا الجسد لحالة حرجة وجهت وجهي نحو أكثر الأماكن حصانة في هذه الأرض.. وصلت لقلعة (أنصاف الرجال) وتمكنت بعد بعض العسر، ومع تسيير بعض الجنود لصالحي، من الوصول للملك.. وهناك، عرضت عرضي الذي لا يمكن مقاومته..

منذ اللحظة الأولى أدركت أن الملك ضعيف.. لولا ولاء جنوده له لتمّت إطاحته منذ زمن بعيد، ولجاء شخص أقوى وأكثر تأثيراً ليحل محله.. لذا قدمت عرضي مستغلة نقطة ضعفه هذه.. بعد أن تأكدت أن الملك يسعى فعلاً للحصول على القوة، لا على هذه القلعة فقط، بل يتوق ليسود هذا العالم كله.. لذا شرحت له ما أنتوي فعله ووعدته أنني فور أن أفتح الثغرة بين العالمين، سأمكّن جيشه من العبور لعالم البشر.. وبالحصول على القوة التي يمنحها لهم، وللملك، أجساد البشر، سيصبحون قوى عظمى في هذا العالم وذاك.. فما دام الملك يسعى لأن يسود، لمَ لا يسود على العالمين بدلاً من عالم واحد؟..

سال لعاب الملك بشكل واضح لعرضي هذا.. ومن يمكنه ألا يفعل؟..

هيأ لي مكاناً متميزاً في قلعته وفي قصره.. عرفني لشعب القلعة وأمرهم بمعاملتي بتقديس يليق بكاهنة مثلي.. أعجبني هذا.. لم أكن أسعى للحصول على مكانة في القلعة، لكن هذه المكانة ستفيدني في كثير من الأمور..

عرفني لقائد جنده المسمى جاد، والذي هيأ لي كل ما أطلبه بسرعة ودون تأخير أو مماطلة.. بدأت مع مرور الأيام أرى تأثيري على سكان هذه القلعة.. وبواسطة بعض التعاويذ البسيطة التي تعين على سرعة التعافي من بعض الأمراض، تمكنت من الحصول على ولاء وتقديس الكثيرين منهم.. وهذا راق لي بشدة..

لكن لم يكن هذا ما أسعى له في حياتي رغم أنه يغريني بشدة.. لكن مكوثي في هذه القلعة ما هو إلا وسيلة للهدف الأكبر.. لذا لم أدع هذا الأمر يملأ عقلي ويزهو به، واحتفظت بهدفي الرئيسي نصب عينيّ كل الأوقات..

يلحّ الملك عليّ إلحاحاً غريباً هذه الأيام.. أخبرني أنني يجب أن أنفذ وعدي له بأسرع ما يمكن.. أن العداوة بين (أنصاف الرجال) وبين الغيلان قد استفحلت حتى باتت الحرب بين الشعبين وشيكة، وأنه انتظرني ثلاث سنوات دون أن أحقق له ما وعدته به.. كنت قد بدأت أسأم بدوري من بقائي في هذه القلعة، ومن إلحاح الملك المثير للغيظ.. ما يزال عام كامل يفصلنا عن اليوم الموعود الذي تتعامد فيه النجوم وتتجمع فيه طاقة كبيرة كافية لتحقيق مرادي.. لكن مع مراقبتي لحركة النجوم رأيت أن بعضاً منها قد تعامد بالفعل، وإن لم يتجاوز الأمر ثلاث نجوم، من أصل تسعة، ذات أهمية وثقل بالنسبة لمن يمتلكون علماً كالذي أمتلكه..

استغرق مني مراقبة النجوم ومحاولة تحليل الطاقة التي أتمكن من الحصول عليها بضع أسابيع، ولما تيقنت من تحليلي تقدمت بعرضي الأخير للملك.. أرسل فرقة من جنوده أحضرت لي كل من أريده من القرابين دون تأخير.. وبعدها اصطحبتني فرقة أخرى من الجنود نحو الموقع الموعود.. وقد كان هذا الموقع شمالي جبال الغيلان في بقعة تتوسط تلك السهول.. اتخذت جميع احتياطاتي واستعداداتي لتلك اللحظة الموعودة.. وغادرت القلعة بابتسامة واثقة مصحوبة بآمال الملك الضعيف الذي يسعى خلف ما لا يملكه..

لكن بعد أيام قليلة أحضروني للقلعة شبه ميتة.. هذه الفائدة التي جنيتها من كوني كاهنة مقدسة تتبع ملك هذه القلعة بجنودها الأقوياء.. يمكنهم بلحظة إعادتي لبر الأمان وحمايتي من أي موقف حرج.. أشرف جاد بنفسه على حمايتي وتوفير الرعاية الطبية لي بعد عودتي، لكن الأطباء كلهم لم يكونوا قادرين على إعادة الحياة لهذا الجسد بعد أن استهلكت كل طاقته في تجربتي السابقة..

لكني لم أجزع لذلك.. منذ مجيئي لهذه القلعة فإنني قد اتخذت احتياطاتي للحصول على جسد جديد لو اضطررت للتخلي عن جسدي الحالي.. ولما أتت فيت الرقيقة الطيبة لزيارتي والعناية بي، رجوتها أن تساعدني على تنفيذ تعويذة سحرية ستعينني على استعادة صحتي بشكل أسرع.. كانت الفتاة الساذجة متفانية في معاونتي، وقد كانت من أشد الفتيات حماساً سابقاً للحصول على الوشم الخاص بي جاهلة معناه.. وعندما طلبت منها أن تصنع بعض العلامات في جسدها، لم تتردد في ذلك عندما أخبرتها أن ذلك سيعيد لي بعض الطاقة التي فقدتها.. ولم تكن الحمقاء تدرك أنها تحفر قبرها بيدها..

وعندما اقتحم جاد غرفتي بعد الصياح الذي صدر من الفتاة في وقت سابق، رآني أنهض واقفة في جسد شقيقته الحبيبة والدماء تغمرني بشكل شبه كامل.. فيما استلقى جسد الكاهنة فاقد الحياة عند قدميّ..

نظر لي جاد بصدمة ودهشة دون أن يدرك ما جرى.. ولما ابتسمت له ابتسامة جانبية هازئة بدا أنه أدرك أن أمراً ما قد جرى لشقيقته وإن لم يسمح له عقله القاصر على فهم الأمر كاملاً.. اقترب مني وأمسك كتفاي متسائلاً عما جري لي.. وللكاهنة.. لكني أبعدته عني وغادرت الغرفة متجهة لقاعة عرش الملك..

اعترضني جاد من جديد محاولاً فهم ما جري لي، لكني تجاهلته من جديد، فلا طاقة لي على التلطف بأي كلمات قد تشرح له ما جرى بألطف طريقة ممكنة..

وفي المرة الرابعة قبض عليّ جاد بيد حديدية ورفع شعري ليكشف مؤخرة عنقي.. ولما رأى ذلك الوشم عليه ساده ذهول تام أعجزه عن التحدث لوقت طويل.. فقلت وقد أيقنت أنه أدرك كل شيء "إياك أن تعترض طريقي مرة أخرى.. لن أتردد في الأمر بإعدامك في التو واللحظة.."

لكنه لم يفلتني ويده تورثني آلاماً جمة وهو يقول بصوت مرعب "ما الذي فعلته أيها المأفونة؟.. ما الذي فعلته بفيت؟"

قلت بابتسامة واثقة "منحتها شرفاً لن تحصل على مثله في حياتها كلها.."

وغادرت عائدة لقاعة عرش الملك تاركة إياه يبتلع صدمته.. عليّ أن أطلب من الملك أن يأمره بتركي وشأني.. شخص مثله لن يصمت على ما جرى لشقيقته الوحيدة التي يبدو أن لها مكانة كبيرة في قلبه.. لكني لا آبه لأمره.. فهو لن يجرؤ على مخالفة أمر الملك قط..

بعد تجربتي الفاشلة وبعد أن فاتني الموعد الحقيقي للقيام بهذه المهمة بسبب ضعفي وبطء استعادتي لقواي السحرية منذ انتقالي لهذا الجسد الجديد، كان عليّ الانتظار لتسع سنوات كاملة قبل أن أحاول مرة أخري.. وفوق هذا كان علي تحمل نظرات جاد الحادة وقتامة ملامحه كلما سقطت عيناه عليّ..

استفدت من هذه المهلة الإجبارية خير استفادة.. بواسطة جنود القلعة استعدت كتب يوريت التي تركها خلفه في الجزيرة، والتي لم يمسّها أحد طوال تلك السنوات.. عكفت على دراستها وقراءتها حرفاً حرفاً لإحكام خطة متقنة لن أفشل فيها.. فتجربتين فاشلتين كانتا أكثر مما أطيق، والعمر الذي قضيته في الإعداد لتلك اللحظة قد لا أملك مثله للمحاولة من جديد..

بعدها، وبعد أن أدركت أن تقديم قرابين للتعويذة نفسها ليس كافياً.. علمت أن تقديم قرابين أكثر عدداً قد يكون له فائدة جمّة غفلت عنها سابقاً.. لكن حتى بوجود هؤلاء الجنود معي، من الصعب عليّ تنفيذ هذا الشرط في اليوم الموعود مع كل المخاطر التي قد أواجهها والتي قد تتسبب بفشلي.. لذا اتخذت تصرفاً آخر.. قمت بزيارة عدد من المدن والقرى في أرجاء الأرض مصحوبة بفرقة من الجنود الأشداء، ووزعت خمسة تعاويذ في كل موقع مكونة بها دائرة كبيرة تضمّ ذلك المكان في قلبها.. بهذا، وفي اليوم الموعود، سأتمكن من الحصول على القرابين التي أحتاجها، وبأعداد أكبر من أن يصدقها أحد.. وبقي لي مكان واحد سأنفذ فيه التعويذة ذاتها.. وهي قلعة (أنصاف الرجال).. لا يمكنني مقاومة إغراء استخدامها هي أيضاً.. فأنا لم أضع يدي في يد الملك قط، ولم أفكر في يوم من الأيام في تنفيذ وعدي له وتنفيذ حلمه الأحمق بالحصول على القوة.. كيف لملك ضعيف مثله الاستفادة من أي تعاويذ أملكها للحصول على ما لا

يملكه بالفعل؟..

بعد ثلاث سنوات، كنت قد أنجزت الكثير مما خططت له.. بقيت أمامي نقطة أخيرة ذكرت في إحدى الكتب.. كانت تلك تخص تنفيذ التعويذة بواسطة بشري.. هذه وسيلة أكيدة لوصل العالمين ببعض، لكن من أين لي الحصول على بشري يتقن تنفيذ التعاويذ السحرية التي أتقنها؟.. لذا كان الحل الوحيد هو في الحصول على جسد فتاة بشرية، ففي هذه الحالة أكون قد حققت الشرط الأخير، وتم لي ما أريد..

لكنني غفلت عن خطأ وحيد في خطتي هذه.. غفلت عن الحقد الذي حمله أقرب الناس إليّ وهو يراقبني أتحرك في جسد شقيقته التي أدرك ببديهته أنها لن تعود مهما وعدتهم بغير ذلك.. وفي تلك الليلة، فوجئت بالخنجر الذي ظهر في يده وسدده نحوي بسرعة.. كان بالإمكان تفاديه لو أنني كنت حذرة ولو قليلاً.. لكنني في تلك اللحظات قد اكتسبت ثقة كبيرة بمكانتي في هذا المكان بحيث ظننت أن شخصاً مثله ومكانته لن يجرؤ على التطاول عليّ.. ولكم كنت مخطئة..

رجل مثله لا يمكن لأي أمر من الملك أو غيره أن يقوم بتحجيمه.. ولا حتى كون الوجه الذي أحمله هو وجه شقيقته التي يحبها ويتفانى في حمايتها..

غاص الخنجر سريعاً في عنقي.. وكالعادة، كانت الآلام حادة وأقسى من أن أستطيع تحملها دون أن أفقد وعيي..

سقطتُ على ظهري بصمت دون أن أنبس ببنت شفة إلا بعض الحشرجة الخافتة، فيما وقف قربي ينظر لي بعينين مشتعلتين غضباً وأنفاسٍ ثائرة..

تباً له من وغد..

ما يزال أمامي الكثير لأصل لهدفي..

ولم يكن لشخص مثله أن يقف في طريقي..

عندما فتحت عينيّ من جديد، في جسد جديد أكثر شباباً وعافية من ذاك الذي غادرته، لم أملك ضحكة

عالية انطلقت من حلقي.. ضحكت وضحكت في تلك الغرفة البائسة التي تشغلها تلك الفتاة في جانب قصر الملك، بحيث أثار ضحكي استغراب بعض الفتيات اللواتي أتين للاطمئنان عليها بعد أن فقدت الوعي فجأة دون سبب مفهوم..

غادرت دون لحظة تلكؤ ودون أن أقدم تفسيراً للفتيات اللواتي حاولن ثنيي عن الرحيل.. وفي قصر الملك، الذي كان في أوج توتره وذعره الدائمين، حصلت على إذن سريع لمقابلته فور أن رأى أحد الجنود الوشم الذي يزيّن عنقي من الخلف.. فقد حمل جنود القلعة كلهم أمراً من الملك على عدم منع أي فتاة عنه تحمل هذا الوشم على عنقها، واحتفظ الملك بسرّي هذا دون الآخرين لئلا يشيع الأمر بين سكان هذه القلعة..

لم يصدق الملك رؤيتي على قيد الحياة، وإن جلب ذلك له سعادة تامة.. أخبرني عندها أن ذلك الشرس يقبع في السجن بانتظار حكمي عليه.. لكني رفضت أن يتم الحكم عليه بأي عقوبة جراء فعلته التي فاقت في جرمها مجرد قتل نفس.. بل جمعتْ مع القتل مخالفة أوامر الملك الصريحة والتعدي على كاهنة القلعة المقدسة..

لماذا لم أقتله وأتخلص منه؟.. بسبب رؤيا رأيتها قبل أن أستيقظ من غيبوبتي.. رأيت فيها الموقع الذي كنت أخطط للقيام بمحاولتي الجديدة فيه.. ورأيتني أنفذ التعويذة التي بدا أنها ستكلل بالنجاح في تلك المرة.. وقربي، وقف ذلك الرجل وهو يذود عني من بعض الأشخاص الذين استهدفوا عنقي.. لماذا قد يفعل ذلك؟.. وكيف لي أن آمن نفسي أمامه؟.. لا أدري.. ولن أدري حتى أتأكد من رؤياي وأنها ليست أضغاث أحلام نتجت عن التجربة السابقة في ذلك الجسد قبل موته..

فليقبع في سجنه حتى أقرر في يوم من الأيام إن كنت سألجأ إليه حقاً، أم أنني أفضل أن أسوقه للإعدام للخلاص من تهديده لي..

ليتعفن في سجنه حتى أتعطف عليه وأقرر ما سأفعله بشأنه..

ما يهمني الآن أن أبحث عن بديل للأجساد التي تبلى فور أن أحاول تنفيذ تلك التعويذة القوية.. كان الأمر يتطلب جسداً بشرياً.. جسداً يعمل كحلقة وصل بين هذا العالم وذاك العالم.. جسداً سيمكنني

من تجاوز هذا العائق الذي أفسد مخططاتي سنواتٍ طوال..

سيستلزم الأمر مني الانتقال إلى ذلك العالم وعبور طريق الأطياف عدة مرات.. ورغم صعوبة الأمر إلا أنه لن يكون مستحيلاً عليّ بشكل تام.. عليّ البحث عن فتاة تناسب هذه المهمة الكبيرة.. وعليها أن تحمل تعويذتي على عنقها حتى تحين اللحظة المناسبة..

وعندها، سيكون الطريق مفتوحاً أمامي لتحقيق الانتقام الذي طالما تمنيته..

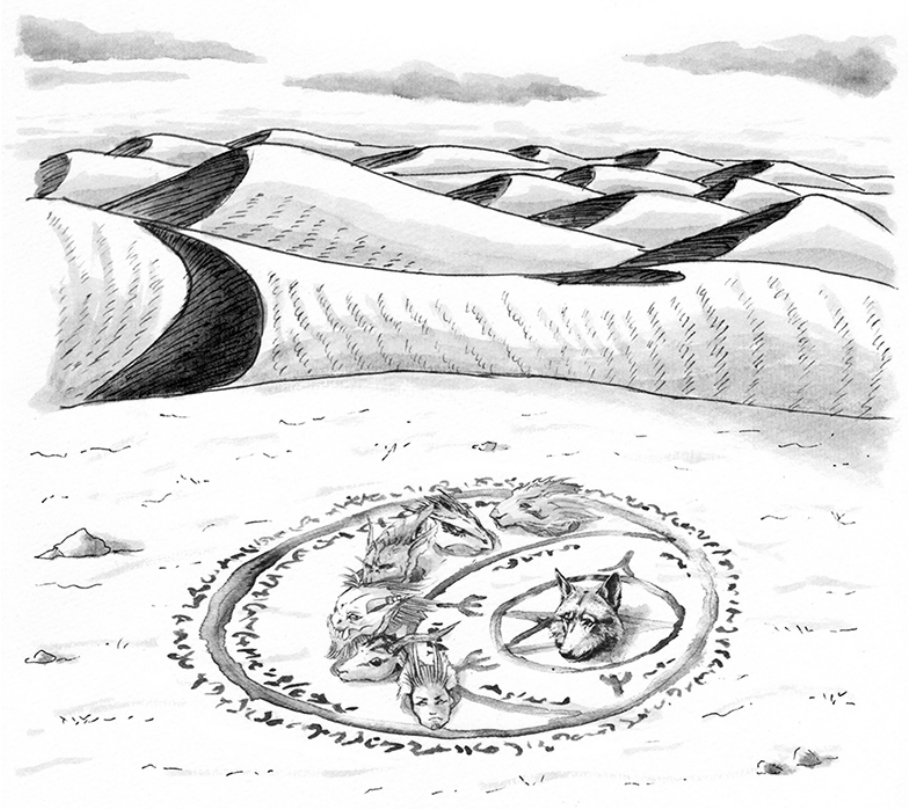

الفصل التاسع عشر: ساحة القرابين

في الليلة التي أنارها القمر بضوئه الباهت، وفي ذلك الجانب المنخفض من التل الصخري حيث نصبت ساحة القرابين، اعتدل جاد فجأة بعد غيبوبة طويلة وتلفت حوله محاولاً تذكر ما جرى.. ثم عادت له ذكرى ما حدث هذه الليلة وسقوطه من فوق التل الصخري ليتدحرج في هذا المنحدر دون السقوط في الهاوية بمعجزة.. كان يشعر بالدماء التي سالت من جرح صدره بغزارة، ويصل لسمعه بعض الأصوات الخافتة من تلك الساحة، مما دله على أن الأمور لم تنقضِ بشكل تام..

سارع لربط جرحه بقوة مستخدماً قميصه الخارجي، وتلفت حوله بحثاً عن وسيلة للعودة.. لإنقاذ الكاهنة وإعانتها على إكمال مهمتها، لو كان هناك متسعٌ لذلك.. بدون هذا، لن تستجيب لوعدها له ولن تخبره بالوسيلة التي يقدر بها على التخلص منها.. وهو لا يمكن أن يسمح للحكيم ولا لغيره بمنعه من الخلاص منها بأي صورة كانت.. لا تزال صورة فيت وهي غارقة في دمائها أمام عينيه ولا تكاد تفارق ذهنه.. ورغبته بالانتقام لم تهدأ ولو للحظة طوال السنوات الماضية..

شرع في تسلق المنحدر محاذراً من السقوط في تلك الهاوية، حيث لن ينجو من الإصابات المميتة.. دفعته عزيمته القوية لتجاوز إصاباته وتعب جسده للعودة للأعلى، ولم يوقفه إلا ذلك الشعور الذي اكتسحه فجأة دون إنذار.. تجمد في مكانه للحظات مستشعراً وجوداً غامضاً قريباً منه.. تلفت حوله بحثاً عنه، لكنه لم ير شيئاً غريباً إلا الهاوية المرعبة تحته.. لكنه موجود.. هناك شيء غريب يقترب منه دون أن يراه.. هناك شيء يقشعر له بدنه وينتصب له شعر ساعديه.. لم تكن الغيلان تخشى أحداً مطلقاً.. وهو كـ(نصف غول) قد ورث عنها هذه الثقة والجرأة عالماً أن كائناً عاقلاً لن يستهدفه دون عذر قوي.. وبالطبع لن يسعى أي كائن خلف جسده بأي حال من الأحوال..

لكن ما سر هذا الشعور الغريب الذي داهمه فجأة؟.. لمَ يشعر برغبة قوية في الفرار؟.. عاد يتلفت حوله شاحذاً حواسه بحثاً عن ذلك الشيء، مقاوماً رغبته العارمة للفرار ومتحدياً نفسه بالدرجة الأولى..

وفي الأعلى، لم ينتبه أحدهم لجاد الذي ظنوه قد قتل بسبب سقوطه العنيف سابقاً.. وبينما تجمع الريابلة في

جانب الساحة تاركين أمر الكاهنة للحكيم ومن معه.. فإن الحكيم ومن معه قد أصغوا لحكاية الكاهنة التي استغرقت جزءاً غير قصير من هذه الساعة.. ومن قلب الظلمة، أنصتت ساما لما يقال بدورها وهي تشحذ فكرها وتركيزها لتبقى على اتصال بهذا العالم.. كانت تريد أن تعرف.. وتريد أن تجد اللحظة الملائمة للعودة.. ربما عندها يتمكن الحكيم من طرد تلك المرأة التي تحتل جسدها بعلومه وخبرته الكبيرة.. وإزاء ما حكته الكاهنة عن تنقلاتها بين بعض الأجساد مقابل تنفيذ ما تخطط له، قال أوس عابساً بغضب "كيف لك أن تضحّي بكل هؤلاء الفتيات لتحقيق هدف واحد؟.. من الذي منحك الحق بالاستيلاء على أجسادهن وقتلهن كما تشائين؟"

قالت بجفاء "لا شيء يمنعني من ذلك مادمت أقدر عليه.. أنا أمتلك المعرفة اللازمة، لذا أملك الحق بتطبيق ما أعرف كيفما أشاء.. عليهنّ أن يكنّ شاكرات لأني صنعت شيئاً مفيداً من حيواتهن البائسة.."

كان جوابها بعيداً عن الواقع وعن أي قيم قد يتحلى بها المرء، حتى لو كان من عالم الأطياف.. وبدت في تلك اللحظة بالفعل كطفلة لا يهمها إلا نفسها وتدور في فلك ذاتها.. تحقيق رغباتها هو كل ما يهمها، وفي سبيل ذلك فليحترق العالم كله..

قال الحكيم بصرامة "من أنت حقاً؟.. لم يكن لك أي ذكر قبل أن يتخذك يوريت تلميذة له.. من أي قرية أنت؟.. وما الذي دفعك لتعلم السحر والكهانة من يوريت؟.."

قالت بابتسامة هازئة "يبدو أن علاقتك بيوريت كانت شبه معدومة.. ألم يخبرك من أين أحضرني؟"

رفع الحكيم حاجبيه بدهشة لتعبيرها، وتساءل "أحضرك؟!"

أجابت "بلى.. هو من أحضرني.. فأنا لست من هذا العالم.. لقد أتيت من عالم البشر.."

تلاقت الأعين المصعوقة عند الكاهنة التي ظلت تنظر لهم بابتسامة ساخرة لما أثارته كلماتها فيهم.. ثم قال الحكيم "هذا محال.. أنت لست بشرية.. مهما حاولت طمس رائحتك عن الآخرين، فأمرك لن يبقى خافياً عليّ.."

قالت الكاهنة بتأكيد "بل أنا لستُ بشرية بالفعل.. بل كنت طفلة مستبدلة.."

انتبهت ساما لذلك الوصف، فاشتعل اهتمامها أكثر وهي تنصت بكل تحفز لما يقال.. ألم يكن ذلك الاتهام الذي اتهمها به أفراد القرية البشرية التي عاشت فيها؟.. فيما قال الحكيم بشيء من الاستنكار "كيف

ذلك؟.. من الذي ارتكب هذا الفعل بك في صغرك؟.."

قالت بجمود "أنت لم تكن تعرف شيئاً بالفعل.. يوريت هو من فعل ذلك.."

تضاعف استنكار الحكيم لما يسمعه، فيما أضافت الكاهنة "هو من استبدلني بطفلة بشرية فور ولادتي.. فهو أبي الحقيقي.."

ساد الصمت المكان للحظات طوال والكل يحاول استيعاب ما قيل.. أكثرهم صدمة كان الحكيم، فهو رغم معرفته بيوريت، لم يكن يتوقع تصرفاً مثل هذا منه.. ثم تساءل "ولِمَ قد يفعل يوريت ذلك؟"

أجابت الكاهنة "لقد كان يسعى خلف علوم البشر، كما أخبرني لاحقاً عندما استعادني عند بلوغي الخامسة عشر من عمري.. كان ينوي تركي لأقوم بتحصيل علوم البشر التي لا يمكنه الحصول عليها، وكان ينوي استعادتي في وقت لاحق وتحصيل ما جمعته من ذلك العلم.."

ثم أضافت بابتسامة مريرة "لكن خططه تلك تهدمت قبل أن أتمكن من تحقيق أيها عندما اكتشف البشر أنني طفلة مستبدلة.."

قال الحكيم بنبرة بدت غاضبة رغم الهدوء الذي كان ظاهراً عليه "إذن أكلّ ما تحاولين فعله هو للانتقام من البشر؟.. أهذا انتقامٌ ممن رباك ورعاك في طفولتك؟.. يحق لهما أن يصدما عندما يدركا أنهما قاما بتربية كائن غير بشري.. ما الذي كنت ستفعلينه لو كنت في موقعهما؟"

قالت بلهجة غاضبة "لكنهما قتلا....."

وبدأت الدموع تتدافع من عينيها وهي تقول بغضب عارم "لقد ماتا قبل عودتي لهذا العالم.. كانا بشريين لطيفين، اهتما برعايتي والعناية بي طوال خمسة عشر عاماً.. لا بد أنهما أدركا أنني لست بشرية.. لا بد أنهما عرفا ذلك منذ زمن طويل، لكنهما لم يكفا عن رعايتي وحبي لحظة واحدة.. حتى أدرك سكان تلك المدينة أنني لست بشرية، وقرروا أنهم لا يمكن أن يسمحوا لكائن بشع مثلي بالعيش بينهم.."

وخفضت وجهها وهي تضيف بصوت مرتجف "بدؤوا بالتظاهر الحاشد أمام باب منزل والداي، وحاولوا بكل الطرق الوصول إليّ.. رفض أبي ذلك، وحاولت أمي حمايتي بكل ما تملك.. وهذا كان ذنبهما الوحيد.. اقتيدا بشكل مذل أمام الجموع حتى إحدى الساحات، وأحرقا حيين جزاءً على ما اقترفته يداهما، وكل ذنبهما أنهما أحبا طفلة ليست لهما.."

كان صوتها يصل لساما واضحاً وإن بدا بعيداً.. ورغم الدموع التي تتساقط من عينيها، لكنها لم تكن دموعها، بل كانت دموع الكاهنة.. ورغم ذلك، شعرت ساما بحزن قوي وبدأت دموعها تتساقط بدورها دون أن تجد لها أثراً على وجهها أو يديها.. ظلت تستمع لما قيل وهي تفكر بما جرى في ذلك الوقت.. كيف شعرت الكاهنة وهي ترى ما يجري بعينيها؟.. أي أسى قد تشعر به وهي مدركة أنها سبب موتهما بتلك الطريقة البشعة؟.. تعاظم حزنها لما تسمعه متناسية بطفوليتها ما جرّتها إليه الكاهنة بتصرفاتها هذه..

أضافت الكاهنة بعد لحظة صمت حاولت تمالك رجفة صوتها فيها "أيمكنكم أن تشعروا بمدى الحزن والهلع الذي شعرت به وأنا أسمع صياحهما المتألم؟.. أيمكنكم أن تعرفوا الغضب والحقد الذي ملأ صدري وأنا أرى جسديهما متفحمين؟.. لماذا يجب أن يقتلا؟.. لأنهما أحبا طفلة غير بشرية؟.. وما الذي فعلته تلك الطفلة غير البشرية لهم لتجد منهم هذا الكره والغضب الأعمى؟.. طبعاً لم يقتلني البشر في تلك اللحظة لأنهم أرادوا قتلي في احتفالية أكبر وأعظم بما يليق بجرائمي التي لم أرتكب شيئاً منها.. ولكنهم حرصوا على جعلي أشهد موت والداي لآخر لحظة.. لكنني تمكنت من الإفلات منهم، وقد سارع يوريت الذي كان يراقبني بوسيلة ما لاستعادتي وإعادتي لعالم الأطياف.."

ورفعت بصرها ببغضٍ بينّ مضيفة "في تلك اللحظات، وأنا أسمع صياح والديّ المتألم، أقسمت أن أذيق البشر جميعاً جزءاً مما عاشه والداي.. ماداما قد عوقبا لإيوائهما شخصاً غير مرغوب به في هذا العالم، فسأحضر ذلك العالم كله إليهم.. لن يستطيع البشر عندها الاعتراض على وجودي هناك، ولن يقدروا على الفكاك من ذلك المصير حتى لو تجمعوا في حشود غاضبة.."

قال الحكيم باعتراض "لن يبقى أحد من البشر عندما تغزو كائنات هذا العالم عالمهم.. أمدركة أنت حجم القتل وكمية الدماء التي ستسفك مقابل تحقيق هدفك هذا؟.."

قالت بغضب شديد "هذا ما أطمح إليه.. أظننت أنني أنوي إخافتهم فقط؟.. عليهم أن يروا هذا العالم بأم أعينهم، وعليهم أن يدركوا أنهم أضعف مما يظنون.. لقد استطاعوا قتل والديّ بتجمعهم في حشود كبيرة لم يقدر أحدنا على مقاومتها، لكن ما نفع حشودهم أمام كائنات عالم الأطياف؟.. لا شيء.. سيفرون عندها كالجرذان ويحاولون الاختباء.."

ثم أطلقت ضحكة عصبية مضيفة "وأنا سأستمتع بمراقبة كل ذلك لآخر لحظة.."

صاح أوس "لا يمكنك أن تعاقبي الجميع على ما فعلته جماعة منهم.. ماذا عن ساما؟.. ماذا عن البشر الذين لم يؤذوا أحداً قط؟.. كما أن في عالمنا هذا هناك السيء والجيد منهم، هذا ينطبق على عالم البشر كذلك.."

قالت بحدة "لا.. كلهم يستحق الموت.. وأنا لن أغيرّ رأيي لبضع كلمات منمقة من أحدكم.."

قال أوس بشدة "ماذا عن الرجل والمرأة اللذان عشت في رعايتهما سني عمرك؟.. هناك الكثير مثلهما في ذلك العالم.. وهناك الكثير ممن لا يستحق الموت.."

قالت بغل "وأنا أفعل هذا لأجلهما، ولأجل ما ارتُكب في حقهما.."

فصاح أوس "وأنا لن أسمح لك بذلك قط.. لن يسمح أيّنا لك بتحقيق ذلك.."

ابتسمت الكاهنة ابتسامة عصبية وقالت "وفّروا أنفاسكم.. لن أتراجع عن هدفي هذا مهما حاولتم.."

ورغم تظاهرها بالثقة، لم تتمالك الكاهنة عصبيتها وهي ترى الدقائق تمر بسرعة خاطفة، والوقت المحدد لتعامد النجوم على هذا الموقع يكاد ينقضي لتخسر فرصتها خسارة تامة..

أثناء انشغالهم بحديث الكاهنة، لم ينتبه أحدهم لذلك الجسد الذي غاص وسط الظلام وهو يسير بخطوات خافتة خلف الجدران المحيطة بالساحة في المساحة الضيقة الفاصلة بينه وبين نهاية تلك المنصة الواسعة.. ولم ينتبه أحدهم للصوت الخافت الذي صدر من أحد الجوانب حيث انزوى أحد الريابلة لقضاء حاجته.. وبعد بعض الوقت، رفع أحد الرجال الذين تجمعوا جانباً رأسه، وقال لرفاقه مقطباً "ألا تشمون ما أشمّه؟"

تلفت الرجال حولهم، والأول يقول وهو ينهض واقفاً "هذه رائحة دماء واضحة.. هناك دماء سالت حديثاً بغزارة في موضع قريب من هذه الساحة.."

نهض الرجال بسرعة وتحفز، جاذبين انتباه أوس والحكيم.. وأسرع بعضهم يقترب من الجدار الذي يحيط بالساحة ويمنع من عليها من السقوط نحو الهاوية خلفه.. وهناك، على إحدى الأشجار القريبة السامقة، وبنور القمر الباهت، استطاع الرجال رؤية ذلك الجسد الذي ألقي فوق أحد أفرعها.. أدركوا من النظرة الأولى أنه لأحد الريابلة الذي غاب منذ بعض الوقت، كما أدركوا على الفور أنه قد فقد بعض أطرافه، ودماءه تسيل بلا انقطاع ملطخة جوانب تلك الشجرة وأوراقها..

تجمدوا في مواقعهم بدهشة وشيء من التحفز.. من الذي ارتكب هذه الجريمة بصمت تام؟.. لا يسكن هذه الجزيرة إلا بعض الكائنات غير العاقلة، والتي لن تتسلل في ظلام الليل وتهاجم بخفة وسكون.. فمن هو المتسبب بهذه الجريمة، ولأي سبب؟..

فوجئوا في تلك اللحظة بصيحة أطلقها أحد رجالهم الذي يقف في النقطة الأبعد من موقعهم هذا، ورأوا ذلك الجسد الذي سقط فوقه وضربه ضربة مؤلمة لم تفقده الوعي لكنها كانت كافية لإيقاف مقاومته..

دهش الرجال لما رأوه وصوت أوس يصلهم صائحاً "ما الذي جرى؟"

لكن لم يملك أحدهم إجابة وهم يقتربون من ذلك الجسد ويدققون النظر به.. فتعرفوا فيه جاد الذي وقف فوق جسد رفيقهم بجسد مضمد كيفما اتفق، وملابس غارقة بالدماء.. ولم تكن تلك دماءه هو فقط.. بل تعرف الريابلة على دماء الفرد المقتول منهم على جسده.. تعالت عدة زمجرات من حناجر الريابلة بغضب لما حل برفاقهم، وجاد يرفع رأسه نحوهم ينظر لهم بنظرة حادة نافذة.. ثم قام بأغرب تصرف قد يصدر من شخص مثله..

في الجانب الآخر من الساحة، تقدم أوس عدة خطوات مراقباً ما يجري وهو يتساءل "أما زال ذلك الرجل حياً؟.. ظننته قد مات.."

قالت تيما بدهشة "لقد رأيناه يسقط نحو الهاوية.. لا أظن شخصاً يمكن أن يبقى حياً بعد هذا السقوط العنيف.."

تعالى صياح متألم من ذلك الجانب من الساحة، ووجدوا الريابلة يتراجعون بشيء من الذعر وهم يرون جاد

قد انحنى على رفيقهم ونهش عنقه بأسنانه بغير ترفق.. كان خنجر جاد يبدو بوضوح من موضعه على الأرض، ويبدو أنه سقط جانباً أثناء هبوطه، فيما استعاض جاد عن سلاحه بهجوم يدوي لم يكن أقل شراسة وعنفاً.. ورغم أن الريابلة معتادون على العنف في قتالهم، لكن ندر أن يقابلهم أحد بالعنف ذاته.. لذا كانت صدمتهم كبيرة وهم يحاولون التصدي لجاد وقد تخلى عن ذلك الذئب الذي سقط متخبطاً بدمائه، فقفز على آخر وأسقطه معه وهو يهوي على جسد ضحيته ويقضم قضمة كبيرة من معدته بأسنانه المجردة..

همست تيما بذعر "ما الذي يجري هنا؟.."

قالت سولينا وهي تبعدها وتتقدم خطوات رافعة مسدسها "ما عاد الأمر يتعلق بالتخلص من الريابلة وتخليص الكاهنة.. إنه يقتلهم ويستمتع بنهش لحمهم.. هل عادت للغول حواس أجداده وأصبح يتوق لتذوق لحم ضحاياه أحياء؟"

انتفضت تيما بذعر وهي تتراجع بعيداً، بينما رفعت سولينا مسدسها محاولة إصابة جاد، دون أن تتمكن من ذلك بسبب حركته المتوترة وتخبط الريابلة حوله.. فيما قال أوس بشيء من الحيرة "محاولته تلك لن تكون ذات فائدة.. لن يمكنه التغلب على الجميع.."

ظل الحكيم صامتاً وهو يراقب جاد بتقطيبة واضحة، ولما حانت منه التفاتة نحو الكاهنة، رآها ترمقه بغلّ وهي ترتل إحدى التعويذات بسرعة كبيرة.. رفع الحكيم يده ووجه لها إحدى تعاويذه الحركية، فوجدت الكاهنة لطمة قوية تصيبها وترميها خلفاً، لكنها كانت تتوقع ما فعله فلم تتوقف عن تلاوة الكلمات المعينة التي تحفظها، ثم واجهته بنظراتها وأطلقت دفعة قوية من الهواء بفمها.. حاول الحكيم تفادي هجومها ذاك، لكنه وجد تلك القبضة القوية التي أمسكت برأسه وضغطت عليه بقوة شديدة وعنف مريع..

وقع الحكيم أرضاً وهو يناضل للخلاص من هذه القبضة وهذا الألم وهو يعبس بألم شديد.. فهرعت مالو إليه محاولة إزالة تلك التعويذة عنه بخبرتها البسيطة، بينما هجمت سولينا على الكاهنة وسارعت لتكميم فمها بقطعة من القماش قائلة بتقطيبة "لن نتخلص منك إلا بهذه الوسيلة.. والآن، أرِني ما يمكنك فعله أيتها الشيطانة الصغيرة.."

قاومت الكاهنة بشدة، ثم نظرت تجاه جاد أملاً في أن يتمكن من تخليصها.. بقي وقت قصير على فوات

المدة المحددة، وهي لا يمكن أن تخسر الآن.. لا يمكن أن تضيع كل جهودها هدراً بسبب تدخل هذه الشرذمة في شؤونها..

وقف أوس يراقب ما يجري حوله في الساحة.. رغم عنف جاد، لكنه كان واثقاً أن الريابلة سيتمكنون من إيقافه ومنعه من قتلهم جميعاً.. لكن..... ما ذاك الشعور الذي يعتريه في هذه اللحظات؟.. ما الذي يجعل رجفة غريبة تصيب أعماقه؟.. وما ذلك التوجس الشديد الذي اعتراه فجأة؟..

تلفت حوله بدهشة شديدة شاعراً بوجود شيء مبهم معهم في هذه الساحة.. هناك طاقة سلبية قوية احتشدت في المكان، وسببها شيء، أو شخص، لم يكن موجوداً معهم قبلاً.. فمن الذي استجدّ على هذه الساحة؟..

تلفت حوله محاولاً العثور على سبب ما يشعر به في تلك اللحظات، عندما سمع صيحة متألمة صدرت قريباً منه.. لم يكن ذلك أحد الريابلة، أو حتى جاد الذي يهاجمهم بكل شراسة وعنف.. التفت خلفه بدهشة ليرى في تلك اللحظة إيار قد سقط أرضاً يتلوى ألماً ووجهه يعبس بشكل مخيف.. لم يكن مصاباً، ولم يبدُ أن أحدهم قد مسّه بسوء.. كان الكل ينظر له بدهشة، فيما كانت نظرات الكاهنة تدله أنها ليست خلف ما يجري له..

اقتربت سولينا من إيار متسائلة بدهشة "ما الذي جرى لك يا فتى؟"

خفتت حركة إيار للحظة، وانقلب صياحه المتألم إلى فحيح طويل وهو يرفع رأسه ويرمق من حوله.. بدا أنه يقيّم الواقفين قربه، وقبل أن يفهم أحدهم ما جرى وجدوه يقفز قفزة خاطفة فيسقط تيما ويسقط فوقها وعيناه تلتمعان بلمعة صفراء قبيحة.. وقد تبدت أسنانه بابتسامة وحشية وهو يقبض على عنقها..

تغلب أوس على دهشته مع صياح تيما المتألم وفزعها الكبير من مرأى إيار بهذه الصورة، فاقترب منه أوس بسرعة وحاول جذبه بعيداً عن تيما وهو يصيح "ما الذي جرى لك يا فتى؟.."

فوجئ بإيار يفتح فمه وينقض على تيما بغية نهش عنقها متجاهلاً وجوده، لكن أوس لطمه بقوة محاولاً إبعاده وهو يصيح "كف عن هذا.. ما الذي تفعله؟"

لكن بدا أن إيار لم يكن يستمع لصوت العقل في تلك اللحظات.. بل بدا أنه لم يكن إيار مطلقاً في هذه اللحظة، إذ تجاهل أوس بشكل كامل وعاد يكرر محاولته وهو يضغط بمخالبه على عنق تيما التي صاحت

متألمة.. عندها لم يجد أوس بداً من انتزاع قبضتي إيار من عنق تيما وإبعاد جسد الفتى عنها بكل ما يملك من قوة قبل أن يرميه جانباً..

سارعت تيما للنهوض والزحف مختبئة خلف أوس وهي تبكي بألم، بينما اعتدل إيار فور سقوطه وقفز نحوهما من جديد بشراسة أكبر.. عندها تلقاه أوس بضربة قوية على رأسه أسقطته أرضاً، فسارع عندها للي ذراعيه خلف ظهره وأحاطه بذراعه الأخرى وثبته جسده في الأرض بقوة.. قاوم إيار بكل شراسة بمزيج الزمجرة والعواء، وحاول إدارة رأسه ونهش أقرب جزء إليه من جسد أوس..

عانى أوس للحظات من السيطرة على إيار، فيما أسرعت سولينا إليه وهي ترفع مسدسها بالمقلوب تأهباً لإفقاد إيار وعيه بضربة قوية.. لكن أوس منعها من ذلك هاتفاً "لا تفعلي.. قد تؤذينه.."

قالت سولينا بقلق وحيرة "إفقاده وعيه خير من إيلامه بهذه الصورة.. لكن، ما الذي جرى له؟.. كان بخير منذ لحظات معدودة.. وهذه ليست طبيعته.."

غمغم أوس مقطباً وهو يضغط على وجه إيار ويثبته أرضاً "أدرك ذلك.. هناك شيء ما حولنا، وهو السبب الذي لأجله ثار الفتى بهذه الصورة.."

وبينما قاتل أوس للسيطرة على إيار الثائر، سمعت مالو الحكيم يقول لها بصوت متألم وهو يقاوم للخلاص من تعويذة الكاهنة "حاولي إنقاذ الفتى يا مالو.. إنه ممسوس.."

نظرت له مالو بدهشة، فقال بإلحاح "أسرعي قبل أن يحاول التهام أحدكم.. إنه (وينتيكو) ولا بد.. ذاك الغول قد أصابه المسّ أيضاً لذا بدأ ينهش لحم ضحاياه.."

تساءلت مالو بارتباك "كيف أفعل ذلك؟"

قال الحكيم بعبوس متألم "يمكنك التخلص من هذا الكائن بتعويذة بسيطة كالتي تمارسينها مراراً.."

هبّت مالو لتنفيذ قوله وهي تهرع لإيار، فاقتربت منه بحذر ومدت يدها نحو رأسه.. فتح إيار فمه محاولاً نهش يدها، لكن أوس ثبّت رأسه بأقوى ما يملك ووضع ثقل جسده على جسد الفتى وهو يدمدم من بين أسنانه "أسرعي.."

لم تتردد مالو في وضع يدها عند مؤخرة رأس إيار، وبدأت بتلاوة التعويذة التي تحفظها عن ظهر قلب.. وهي أول وأبسط تعويذة علمها إياها الحكيم للدفاع عن نفسها ضد أي كائن يحاول الوصول إليها..

ازدادت مقاومة إيار ضراوة، وكاد يفلح في رمي أوس من فوق ظهره، لكن مالو لم تتحرك من موقعها مثبتة يدها على رأسه وهي تتلو التعويذة مرة تلو الأخرى.. وبعد ثلاث مرات، أطلق إيار صيحة ألم قوية، ثم فتح فمه على اتساعه وبدأ دخان أسود يخرج منه بكثافة لا تصدق.. وأمام أعينهم، استطاع الجميع رؤية ذلك الكائن الذي تشكل بشكل مرئي على بعد أمتار قليلة.. كان في البدء يبدو ككائن بملامح آدمية، لكن الفرق بينه وبين الآخرين بدا بوضوح.. رأسٌ مفلطح قبيح خالٍ من الشعر، وعينان غائرتان صفراوان ووجه نحيف مخيف وجسد ناحل تبرز عظامه بوضوح.. بشرته رمادية، متآكلة، وكأنه خارج من قبره للتو، ومن فمه بدت أسنانه الحادة واضحة من شفتيه المتآكلتين.. وأفعمت رائحته المنتنة المكان حولهم..

تراجعت مالو مصعوقة لما تراه، فيما أنّ إيار متألماً وهو يحاول النهوض من مكانه.. فتح ذلك الكائن المسمّى (وينتيكو) فمه بفحيح طويل مهتز انتهى بضحكة أثارت قشعريرة في أجسادهم وهم يراقبون شكله الغريب.. نهض الحكيم واقفاً بعد أن تخلص من هجوم الكاهنة عليه، وقال بصوت متعب "سأحاول الخلاص من هذا الكائن بنفسي.. خلصوا ذلك الرجل من الآخر قبل أن يقتل من بقي من الريابلة.."

تقدم الكائن خطوات وصوت الفحيح يصدر من حلقه مراراً مصحوباً بتلك الضحكة المريبة.. فوقف الحكيم في وجهه مدمدماً "تمنيّت ألا نضطر لهذه المواجهة.."

ورفع يداه الاثنتان مديراً إياها للأعلى، وعلى الفور سقط الكائن أرضاً وكأن يدا الحكيم الخفيتين تقيدانه وتديرانه في موقعه.. لكن الكائن قاوم بضراوة محاولاً التنصل من تلك القبضة المؤلمة، بينما التفت أوس إلى مالو قائلاً "هل يمكنك تكرار ما فعلته مع جاد؟"

قالت بتوتر "سأحاول، إن تمكنت من تثبيته.."

اندفع أوس لموقع جاد الذي انشغل بالتهام أجزاء من جسد آخر ضحاياه من الريابلة، فوجد بقية الريابلة يبتعدون عنه بتوجس شديد.. صاح بهم أوس وهو يقترب "لمَ لم تحاولوا إيقافه ومنعه مما يفعله؟"

قال أحد الريابلة بقلق "إنه ممسوس.. ماذا لو أصابنا المس نحن أيضاً؟"

كان ذلك وارداً، لكنه لم يكن ليمنع أوس من التقدم من جاد الذي أولاه ظهره منشغلاً بضحيته.. ثم سمع الجميع قول الحكيم الذي صاح بهم "لا يمكن للـ(وينتيكو) الاستيلاء على أجساد الريابلة.. فلا تخشوه واقتلوه.."

وأضاف مغمغماً وهو يواجه الكائن أمامه "لهذا السبب بالذات أحضرتكم.."

مع قول الحكيم، تشجع بعضهم للتقدم خلف أوس، ولما قفز أوس على جاد وألقاه أرضاً، ووجد أن جاد بقوته الهائلة التي تضخمت بعد أن أصابه المس قد ألقاه من فوق ظهره بسهولة، عندها لم يتردد بقية الريابلة في الاندفاع نحو جاد بدورهم.. فتكالب عليه ثلاثة منهم وأسقطوه أرضاً، محاذرين من منحه الفرصة لنهش أحدهم رغم محاولاته.. عندها تقدمت مالو بحذر وركعت خلفه لامسة رأسه بخفة وهي تبدأ تلاوة التعويذة بسرعة وحرص.. لكن الكائن الذي مسّ جاد قاوم بضراوة، وبقوته الكبيرة انتفض رامياً الريابلة من فوقه بعنف.. نهض جاد زافراً بفحيح مخيف، والتفت إلى مالو المرتعبة.. حاول أوس اعتراض طريقه واندفع نحوه محاولاً إسقاطه.. لكن جاد قابله بضربة سريعة وعنيفة من يده رمته للخلف..

حاول الريابلة الخمس الباقون تثبيت جاد من جديد، لكنه قابلهم بعنف وهو يرميهم بعيداً بضربات سريعة من يده، ومالو التي سقطت خلفاً تراقب ما يجري مذعورة منقطعة الأنفاس دون أن تجد في ساقيها القدرة على حملها بعيداً عن الخطر.. التفت جاد إليها بعد أن تخلص من أوس الذي حال بينه وبين مالو من جديد، وحملت شفتاه ابتسامة أظهرت أنيابه والدماء تسيل من فمه مغرقة فكه وعنقه.. اتسعت عينا مالو بذعر لم تشهده من قبل، ولم تقدر حتى على تلاوة التعويذة التي تحميها عادة وجاد يقفز نحوها وعيناه تلتمعان بشغف واضح لنهش جسدها.. عندها أغمضت مالو عينيها وهي تصرخ بهلع "لا....."

فوجئ الريابلة الذين نهضوا محاولين اعتراض جاد من جديد، بتلك الطاقة القوية التي رمتهم خلفاً بقوة.. فتح أوس عينيه بعسر مع تلك الدفقات المتتالية من الطاقة التي غمرت المكان، فرأى جاد قد سقط أرضاً بدوره بعيداً عن مالو، بينما بدا وهج خفيف يحيط بالفتاة التي بقيت في موقعها تنظر لجاد بعينين متسعتين.. وتكررت كلمتها بهمس "لا.. لا.. لا.."

حاول جاد النهوض والهجوم عليها من جديد، لكنه وجد نفسه مرمياً أمتاراً عدة للوراء بدفقات الطاقة

التي لم تخفت قوتها بعد.. استغل أوس تلك الفرصة فرمى نفسه فوق جاد وثبت ذراعيه خلف ظهره ليمنعه من النهوض من جديد.. لم يكن يملك ما يربطه به، ولم يعرف ما يفعله لتخليصه من هذا المس بدون مساعدة مالو، وبدا أن الحكيم منشغل بالكائن الوحيد أمامه بحيث يعجز عن التدخل في أمر جاد في هذه اللحظة..

قاوم جاد بضراوة محاولاً رمي أوس من جديد، فسارع اثنان من الريابلة بتثبيت ساقيه بقوة.. ثم وجد أوس يد مالو تمتد فتلمس رأس جاد بخفة وهي تتلو التعويذة بسرعة.. فتكرر الأمر مع جاد وهو يطلق صيحة متألمة قبل أن يخرج ذلك الدخان من فمه ويتشكل على هيئة كائن قبيح المنظر أمامهم.. عندها تهاوت مالو أرضاً قائلة لأوس "أتركه لكم.. لا يمكنه مسّ الريابلة، لذا سيكون الخلاص منه أسهل عليكم الآن.."

لم يدرِ أوس كيف يمكنه الخلاص من كائن كهذا، لكنه قدّر أن الأمر أسهل مادام قد تجسّد أمامهم بهذه الصورة.. فحمل خنجر جاد القريب وتوجه إلى المخلوق الذي يطلق فحيحه المهتز بتحذير متكرر.. بينما نظرت مالو لديها المرتجفتين وهي تهمس دامعة العينين "لمَ حدث ذلك؟.. أنا لم أكن أريد أن أفعل هذا.. لم أتمنّ هذا قط.."

شعرت بآلام جمّة في جسدها، فانطوت على نفسها مغمضة عينيها بألم ودفقات الطاقة تنبع منها بتكرار وسرعة أشد.. أحاطت جسدها بذراعيها، وكأنها تمنعه من أن يتغير.. ورغم محاولاتها لإعاقة التغيير الذي حدث لها بإرادتها وقواها الذهنية، لكنها فشلت في ذلك فشلاً ذريعاً.. بدأ جسدها يتحول ويزداد طولاً، وبدأ وجهها يتمدد ويتخذ ملامح أكبر عمراً، وشعرها استطال بعشوائية غريبة على هيئتها القديمة المرتبة.. لم يكن ما تشهده مالو معتاداً بالنسبة لها، فهي لم ترَ تحوّل أحد (الشنّ) قط.. وبدت لها يداها اللتان مدتهما أمام عينيها غريبتان، وكأنهما يدا شخص آخر.. وبينما تعارك أوس مع (الوينتيكو) محاولاً الخلاص منه بضربة خنجر سريعة، وبينما تولّى الحكيم أمر الكائن الآخر، فإن مالو انشغلت عن كل ما يدور حولها وهي تشعر أنها معزولة عما حولها.. استمرت دفقات الطاقة تتذبذب منبعثة من جسدها، واستمر التحول الذي يشهده جسدها مثيراً آلاماً قوية فيها قبل أن يهدأ كل شيء دفعة واحدة.. وبالنسبة للناظر إليها، بدت مالو أكبر من عمرها السابق بعشر سنوات دفعة واحدة، رغم أن عيناها حملتا ذعرها وصدمتها السابقة ذاتها..

وبينما أصبح حذاؤها السابق صغيراً على قدميها، فإن ملابسها الواسعة سابقاً كانت كافية لتغطية جسدها بحجمه الجديد.. فرغم كل الرفض الذي أصرّت عليه مالو سابقاً بخصوص هذا التغيير، إلا أنها طوال حياتها كانت ترتدي ملابس أكبر من حجمها بشكل لا إرادي.. وكأنها تخشى اللحظة التي قد يرفض جسدها إرادة عقلها ويتحول رغماً عنها.. وعندها، لن تكون صدمتها بجسدها العاري أمام الآخرين أقل من صدمتها بتحولها الذي تبغضه بشدة..

سمعت صوت صراخٍ متألمٍ بشع يصدر من ذلك الكائن، عندما تمكن أوس أخيراً من إغماد خنجر جاد في قلبه حتى النصل.. تلوى الكائن متألماً، وتعالى صياحه مرات عدة والجبال القريبة تردده أضعافاً مضاعفة.. مد الحكيم يده نحو الكائن الذي يصارعه أوس، فصمت الكائن فجأة مختنقاً وقد تقطعت أنفاسه، وعيناه تجحظان وتدوران في محجريهما قبل أن يتهاوى أرضاً بصمت أخيراً..

تقدم الحكيم نحو أوس مقطباً وقال "صياحه قد يجذب عدداً أكبر من هذه الكائنات.. لمَ لمْ تنحر عنقه وتتخلص منه بصمت؟"

قال أوس بغيظ "وما أدراني ما يمكن أن يفعله بصياحه هذا؟.. لقد تمكنت من قتله بعد جهد فقد كان يتفلّت من يدي بسرعة.."

تلفت الحكيم حوله مغمغماً "علينا أن نبتعد.. يبدو أن وكر هذه الكائنات ليس بعيداً عنا، ورائحة الدماء تجتذبها نحونا.. ولو تكاثرت علينا فلن نقدر على الهرب منها قط.."

دارت الكاهنة بعينيها فيما حولها وهي تحاول الخلاص من قيودها أو الخلاص من هذه الكمامة التي تمنعها من تنفيذ التعاويذ السحرية.. لعنت نفسها لأنها تعجلت في الهرب من الكاهن يوريت قبل أن تتعلم التعاويذ الحركية، والتي ستوفر عليها الكثير من الجهد الذي تبذله عادة.. لكن كانت رغم قصور علمها وانهزامها أمام هذه الشرذمة أكثر إصراراً وعزماً على تنفيذ مخططها قبل أن يزول الوقت، ولم يبقَ منه إلا دقائق معدودة..

بدأت دقات قلبها تتسارع وهي تبذل جهداً بغير طائل، فيما تجمد مَن حولها مع تلك الضحكة العالية التي اندلعت حول الساحة مصحوبة بفحيح قوي.. تكرر الأمر مرة ومرة وعدة مرات حتى شعر الحكيم بذلك الحشد من الطاقة السلبية التي بدا أنها تتجمع حول جدران الساحة وتحيط بها بكثافة لا تصدق..

كان الخلاص من هذا الموقف دون المواجهة عسيراً، لذا اتخذ الحكيم احتياطاته بإلقاء تعليماته للبقية قائلاً بحزم وتوتر "أغمضوا عيونكم وابقوا في الوسط.. لو لم تتلاقَ أعينكم مع (الوينتيكو) في لحظة تجسده فلن يقدر على الاستيلاء على أجسادكم.."

والتفت إلى الريابلة مضيفاً "حاولوا الخلاص منهم.. فأنتم منيعون عليهم بكل الأحوال.."

تساءل أوس وهو يرمق الأجساد الدخانية التي سبحت في الفضاء حول الساحة بتهديد واضح "كيف نفعل ذلك؟.. هل يمكن القضاء عليها وهي بهذه الحالة؟"

قال الحكيم وهو يتقدم خطوات "لا.. من المستحيل القضاء عليها وهي بهذه الصورة.. لكن يمكن ذلك بخطوة بسيطة نوعاً ما.. سأقوم بدفعها للتجسد بأحد تعويذاتي، ومن يتجسد منها قوموا بقتله كما فعلتم سابقاً.."

تساءلت سولينا بقلق "وكم سيطول ذلك؟.. لا يمكنني تحديد أعدادها، لكن تبدو لي بالمئات.."

زفر الحكيم مجيباً "سنحاول قدر استطاعتنا.. هذا كل ما نقدر عليه.."

أسرع الريابلة للتحلق حول المجموعة بتحفز كبير وأوس يقف بينهم مجاوراً للحكيم، وبقيت سولينا وتيما وإيار في الوسط مغمضين أعينهما بصمت وفزع واضح بجوار الكاهنة التي لم تبدِ أي ذعر لما يجري.. تراجعت مالو بدورها بساقين ترتجفان بعد الجهد الذي بذله جسدها في هذا التحول، وإزاء نظرات الحكيم فإنها خفضت بصرها دامعة العينين.. لكن الحكيم ربت على كتفها قائلاً "ليس الوقت وقت ندم أو حسرة يا مالو.. يمكنك المعاونة في هذا القتال، وحياة الجميع تعتمد عليه.. فدعي عنك هذه المشاعر جانباً.."

هزت مالو رأسها إيجاباً، ومسحت عينيها المبللتين بالدموع وهي ترمق ذلك السواد الذي بدأ يحيط بهم وبالساحة حولهم.. تردد صوت الفحيح المنتهي بضحك يثير القشعريرة في الأبدان والجبال القريبة تردده أضعافاً مضاعفة، وبدا أن هذه الساحة قد أصبحت معزولة عما خلفها بعشرات ومئات من تلك الكائنات التي لا تبدو أجسادها الدخانية الطائرة إلا كظلال سوداء.. بدأت دوامة سوداء من تلك الأجساد الدخانية تسبح بشكل دائري حول الساحة، وتكاثرت أعدادها حتى غدا من العسير عليهم رؤية ما خلفها.. وبين هذا وذاك، ظلت الكاهنة صامتة دون أي قلق إلا قلقها على انتهاء المدة المتاحة لها.. وظلت ترمق السماء فوق رأسها حيث بدت النجوم المتعامدة صفاً تلمع بخفوت في ظلام هذه الليلة، ثم نظرت لجسد جاد

الساكن حيث جذبه أحد الريابلة ورماه وسط الدائرة المكونة من أجسادهم.. لم يكن إحضارهم له خوفاً على حياته، بل خشية من هجومه الجديد لو تلبّسته إحدى تلك الكائنات آكلات اللحوم..

تساءلت سولينا في هذه اللحظة وهي تفتح عيناً بحذر وتراقب ما يجري "ألا يمكنك الخلاص منها دفعة واحدة بأحد تعاويذك أيها الساحر؟"

قال الحكيم بتوتر لم يملكه "لا تنادِني بهذا اللقب، بل نادني بالحكيم.. ولو كنت قادراً على ذلك بالفعل لما انتظرت سؤالك هذا.. امتلاكي لهذا العلم لا يعني أنني قد أصبحت كليّ القدرات ومنيعاً ضد أي شيء.."

بعد أن بلغت أرواحهم أعلى حلوقهم، وهم يراقبون هذا المنظر المفزع حيث تحيط الأجساد الدخانية بالساحة وتسبح في حركة دائرية لا تتوقف، وحيث الأصوات المفزعة تتردد بتواتر مخيف، بدا أن تلك الكائنات قد سئمت من لعبة التخويف تلك، وبدأت مرحلة الهجوم الجدية.. بدأ بعضها بالانسياب بين الأعمدة الرخامية بحركة سلسة دائرية حول نفسها، فتأهب الحكيم ومالو والأول يقول "حاولوا القضاء عليها بحركة سريعة خاطفة.. ليس الوقت ملائماً لأي صراع طويل معها فأعدادها بالمئات.."

رأوا بعضاً من تلك الكائنات تندفع نحوهم بسرعة وهي تطلق فحيحها المتعالي.. وبينما تفادت الريابلة المتحفزين، فإنها اندفعت نحو الأشخاص الذين بدوا لها أقل مناعة ضدها.. فرفع الحكيم ومالو راحتي يديهما، وبتلاوة تعويذة قصيرة وتوجيهها نحو بعض تلك الكائنات المتطايرة، وجد أوس ومن معه أن اثنين من تلك الكائنات قد ارتدا بحركة قوية وكأن لطمة غير مرئية قد أصابتهما، وسرعان ما سقط الجسدان الضبابيان أرضاً وهما يتجسدان بوضوح والكائنان يصدران أصواتاً متألمة وفحيحاً غاضباً..

اندفع أوس وأحد الريابلة نحو هذين الكائنين، وباستخدام مخالبهما التي استطالت هاجماهما بتزامن واحد.. فتخلص أوس من الأول بضربة في عنقه، فيما رمى الثاني جسد (الوينتيكو) بعد أن غاصت مخالبه في صدره.. ثارت الكائنات أكثر فأكثر، فيما استمر الحكيم ومالو بدفعها للتجسد بتكرار التعويذة مرات ومرات بأسرع ما يمكنهما.. كلما تجسدت تلك الكائنات، كلما أصبحت غير منيعة لأنياب ومخالب الريابلة التي لم تتردد في القضاء عليها ولو للحظة.. ورغم كل الأجساد التي تكومت جانباً، والتوتر الذي بدا على الريابلة وهم مستمرون بتلك المهمة الثقيلة، لكن بدا أن هذا الهجوم بلا نهاية.. وبدت هذه الليلة الطويلة بلا فجر يعقبها ويزيل ظلمتها الحالكة..

وسط انشغال الجميع بالأحداث الدامية التي دارت في هذه الساحة وما حولها، ومواجهتهم لمئات الكائنات من (الوينتيكو) التي احتلت الفراغ بشكل تام، فإن انتباههم للكاهنة المقيدة قد تضاءل بشكل كلي.. استمرت محاولات الكاهنة للخلاص من قيدها دون فائدة، عندما لمحت جاد الذي نهض واقفاً بنشاط رغم تظاهره السابق بفقدان الوعي، فتولى أمر قيودها التي حُلّت ببساطة دون أن يفطن أحدهم لما يجري، ثم ابتعد عنها عدة خطوات ليركع جوار جثة أحد الريابلة.. سارعت الكاهنة لإزالة الرباط عن فمها، والذي يحجمها عن تلاوة تعاويذها وهي مصدر قوتها الوحيدة، ونظرت نحو جاد الذي رمي رأساً أمامها قائلاً بصوت متحشرج "والآن، أوفيت بوعدي لك.."

نظرت الكاهنة لرأس أحد الريابلة الذي استقر عند قدميها، والذي فصله جاد عن الجثة القريبة منهم دون تردد.. فلم تعلق على الأمر وهي تنظر لجاد هامسة بحزم "مازال عليك إلهاؤهم عني.. دماء الريابلة ستحميك من الآخرين.."

وأسرعت تحمل الرأس القريب راكضة نحو الدائرة التي رسمتها سابقاً.. تسللت بين الأجساد وبين الظلال السوداء لكائنات (وينتيكو) التي كانت تبرز فجأة أمام وجهها مطلقة فحيحها المرعب.. لكن الكاهنة لم ترتبك أو يخايلها أي ذعر لمرآها، بل كانت ترفع راحة يدها في وجهها وتتلفظ بتعويذة سريعة لتجد تلك الكائنات ترتفع بسرعة هاربة من وجهها، أو تسقط جانباً متجسدة بفحيح متألم.. كان (الوينتيكو) رغم الذعر الذي يسببه للكائنات الأخرى، ضعيفاً ضد من يعرف أبسط التعاويذ السحرية.. لذا لم تشعر الكاهنة بأي قلق لرؤيته بهذه الجموع الهائلة، ولم تقلق لأمره عندما خططت لهذه الرحلة مع علمها بما قد يحدث في هذه الجزيرة..

أما جاد، فباتباع تعليمات الكاهنة، عاد للجثة القريبة وأحدث فيها جرحاً غائراً يكفيه ليغمّس يديه في الدماء حتى الرسغين.. ثم قام بتلطيخ وجهه وأجزاء من جسده بدماء الريابلة عالماً أنها قد تمنحه شيئاً من المناعة ضد هجوم (الوينتيكو).. فآخر ما تبغيه الكاهنة في هذه اللحظات هو هجوم شرس من هذا الرجل..

تناولت الكاهنة رؤوس القرابين التي لم يعبأ لأمرها أحد، ووزعتها في مواضعها المعينة في الدائرة واضعة رأس (الريبال) في الوسط فوق النجمة، مستغلة انشغال الحكيم وبقية الريابلة بالهجوم عما تفعله، مما يسرّ لها إتمام ما تفعله دون مقاطعة.. عندها وقفت في الوسط تلهث انفعالاً، وألقت نظرة سريعة نحو السماء تراقب النجوم بإثارة بالغة.. رغم كل ما يدور حولها، ورغم الأجساد الدخانية التي تطفو حولها وبعضها يقترب منها بتهديد واضح، لكن ما شغل انتباه الكاهنة هي اللحظات المعدودة التي بقيت لها لفتح الثغرة بين العالمين.. وربما كان من سوء حظ البشر تواجد (الوينتيكو) في هذا المكان وفي هذا الوقت بالذات، فهم سيكونون أول ما يلاقيه البشر من كائنات عالم الأطياف..

انتبه الحكيم لما تفعله الكاهنة عندما بدأت بتكرار الكلمات المعنيّة لهذه التعويذة ست مرات، ورآها تشير بإصبعيها للدائرة وللقرابين المستكينة فوقها.. فرفع يده نحوها عازماً على الإطاحة بها عندما بوغت بهجوم جاد عليه والذي طوّح خنجره نحوه وأصاب يده إصابة بليغة.. تراجع الحكيم ضامّاً يده المصابة، فيما أدار جاد الخنجر محاولاً الخلاص من الحكيم للمرة الأخيرة.. لكن بلمسة من يد الحكيم على صدره في لحظة مباغتة، وجد جاد نفسه يطير بضعة أمتار ويسقط خلفاً بعنف..

نهض جاد بسرعة على قدميه وركض نحو الحكيم غير عابئٍ بالأجساد الدخانية التي ترتطم به، والتي عجزت عن احتلاله مع دماء الريابلة التي لطخته.. فاضطر اثنان من الريابلة للتصدي له متخلين عن مهمتهم الأصلية بمهاجمة (الوينتيكو).. تغاضى الحكيم عن يده المصابة وهو يلتفت نحو الكاهنة، لكن عشرات من تلك الأجساد الدخانية قد حالت بينه وبينها بحيث تعذّر عليه تنفيذ مراده، كما لاحظ ارتباك مالو التي وجدت نفسها مضطرة لمواجهة (الوينتيكو) وحيدة لانشغاله.. عندها صاح الحكيم موجهاً حديثه لأوس الذي فرغ من قتل كائنٍ متجسدٍ آخر "عليك أن توقف الكاهنة.. امنعها من إتمام ما تفعله بأي وسيلة كانت.."

هز أوس رأسه موافقاً واستدار راكضاً نحو الكاهنة، ملاحظاً ذلك الضوء الذي بدأ ينبعث من جوانب الدائرة حولها بخفوت إنما بشكل تصاعدي.. فيما استدار الحكيم لأقرب الكائنات إليه ودفع راحته نحوه وهو يتلو إحدى التعاويذ السريعة، وسرعان ما تدحرج الكائن أرضاً متجسداً وهو يطلق فحيحه المتألم الممتزج بضحكة طويلة..

كان الضجيج المتزايد حولهم يشعر سولينا بتوتر حيث وقفت مغمضة عينيها وشاحذة سمعها لأقصى درجة.. هي لم تعتدْ قط على الصمت والاستسلام لما يجري، فتجرأت على النظر بطرف عينها ومسح الموقع حولها بنظرة سريعة، عندها لاحظت عراك جاد مع الريابلة في جانب المكان، ورأت ما فعله جاد للتخلص من هجوم (الوينتيكو) التي بدت أنها تبتعد عن جسده بوضوح تام.. أدركت سولينا أن الدماء التي تلطخ جاد هي للريابلة، فدماؤه التي سالت سابقاً لم تمنعه من تلك الكائنات عندما احتلته في المرة الأولى، وهذا كان أكبر دليل أن الدماء خاص بالريابلة..

لم تتردد سولينا في الاندفاع نحو جسد (الريبال) الساكن على مبعدة منها، مغمضة عينيها قدر استطاعتها ومتجنبة تلك الكائنات التي ارتطمت بوجهها وجسدها عدة مرات محاولة دفعها لفتح عينيها.. لكن سولينا لم تعبأ بها، ولم تعبأ بصياح أحد الريابلة بها وهو يحاول إيقافها، حتى ارتمت قرب الجثة وبدأت بتلطيخ وجهها وعنقها بدمائه.. لم يكن ذلك فعلاً مستنكراً بالنسبة لها، فغريزة الصياد فيها التي لا تعبأ بالدماء ولا تشمئز منها، والتي تحركها غريزة البقاء المتعاظمة فيها، جعلتها لا تتردد ولو لهنيهة..

استدارت سولينا خلفاً بعد أن أتمّت عملها، ورأت مالو تراقبها بصدمة واضحة.. عندها غمغمت لنفسها "الآن، يمكنني أن أجرب صحة هذه النظرية.. ولو فشلت، فلابد أن تدرك تلك الصغيرة ما جرى لي قبل أن ألتهم أحدهم.."

نهضت واقفة وهي ترى جماعة من (الوينتيكو) تقترب منها وتطلق فحيحها في وجهها.. صمدت سولينا للحظة وهي ترى تلك الكائنات تنقض عليها وتكاد تغيّبها في سوادها، لكن سرعان ما تبعثرت تلك الكائنات جانباً مع رائحة الدماء التي تغطيها وجعلتها تفر هاربة من حولها بلا هوادة..

عندها، اندفعت سولينا نحو أقرب كائن تجسد أمامها بتعويذة من مالو، فاستلت خنجراً طويلاً من جرابها وأغمدته في قلبه قائلة بانتصار "الآن، لن أقف مكتوفة الأيدي بتاتاً.."

بدأت سولينا مشاركة الريابلة في الهجوم على تلك الكائنات التي لم يقل عددها رغم كل ما جرى.. وبقيت أجسادها تسبح من حولهم في الفراغ وهي تبحث عن ثغرة لاحتلال جسد أحدهم والتهام البقية بواسطته بشغف ولذة.. وبقيت تيما في منتصف الدائرة المكونة من الريابلة وهي ترتجف مختبئة خلف إيار، ودمدمت بصوت مرتجف "ما الذي يجري هنا؟.. كيف لنا أن ننجو من كل هذا؟!.."

قال إيار مغمضاً عينيه رغم الضربات التي يتلقاها من تلك الأجساد الدخانية "نحن بخير حتى الآن، لذا علينا أن نأمل أن يتمكن الآخرون من التخلص من تلك الكائنات.."

عندها قالت بعصبية "إياك أن تحاول فتح عينيك.. وإياك أن تهاجمني من جديد كما فعلت سابقاً.."

غمغم إيار "آسف.. لم أكن أتحكم بجسدي في ذلك الوقت.."

لم تعلق تيما وهي ترتجف بذعر واضح، فيما شعر إيار بأن الطاقة السلبية التي تجمعت حولهم قد أثارت رجفة قوية في جسده وذعر واضح تمالكه بصعوبة.. لم يسبق له أن رأى مثل هذه الكائنات في هذا العالم، ويبدو أن أحداً من رفاقه لم يعرف بوجودها سابقاً بخلاف الحكيم.. فهل يقدرون حقاً على الخلاص منها في الوقت الملائم؟..

اندفع أوس نحو الكاهنة متجاوزاً الأجساد الدخانية التي تسارعت مبتعدة عنه بتوتر واضح، فيما تجرأ بعضها للطمة بقوة دون أن يؤثر فيه ذلك.. كان النور الذي يضيء ما حول التعويذة قد بدأ يزداد قوة، وبدأ الهواء حولها يستثار بحركة دائرية مكتسحاً ما أمامه وهو يكوّن زوبعة متوسطة ومرتفعاً للسماء بإصرار واضح.. كان كل ما على أوس فعله أن يبعد الكاهنة عن التعويذة، ويمنعها من تلاوة الكلمات المطلوبة.. لو تمكن من إفقادها وعيها، فقد انتصروا في هذه اللحظة وفشلت خطتها فشلاً ذريعاً..

ركض أوس نحو الكاهنة مادّاً ذراعه نحوها، لكن الألم الذي اندلع من خاصرته والضربة التي أصابت جانبه قد أوقفت اندفاعه وهو يتهاوى على ركبته عابساً بألم.. التفت لصاحب الضربة، فرأى جاد الذي التحم به وأغمد خنجره في خاصرته بقوة رغم التعب البادي عليه.. ومن خلفه، لمح أوس رجلي الريبال جريحين بعد عراكهما مع جاد..

قال جاد من بين أنفاسه المتلاحقة "لن أسمح لك بتعطيلها.. لحظات فقط، وينتهي كل شيء.."

دفعه أوس بعيداً وهو يقول عابساً بألم "لحظات فقط ولن يبقى شيء على حاله في هذا العالم.."

قال جاد بإصرار "لا أعبأ بذلك.."

أمسك أوس جرح خاصرته محاولاً إيقاف الدماء المتصببة منه، ولاحظ الدماء التي غطت وجه جاد

وبسببها بدأت تلك الكائنات تتفاداه أو تضربه بأجسادها الدخانية دون أن تتمكن من السيطرة عليه.. لم يكن أوس يملك وقتاً يضيّعه بالقتال مع جاد، وكما قال لحظات فقط تفصلهم عن النهاية التي لن يكون لها أي نهاية..

اندفع أوس فجأة نحو الكاهنة، لكن جاد الذي كان يتحسّب لخطوته تلك اعترضه بسرعة مطوحاً يده بالخنجر نحو عنقه.. لكن الأخير أوقفه بإمساك قبضته بقوة، وبيده الأخرى أمسك ذراع جاد الثانية محاولاً إبعاده من طريقه.. لكن جاد بالتصميم والعزم الذي يشعر بهما قد وقف كصخرة صلدة أمامه لا يمكن زحزحتها بتاتاً.. فصاح أوس وهو يحاول دفع جاد عنه "توقفي.. لا تكملي هذه التعويذة.."

لم تكن الكاهنة لتعبأ بصياحه ذاك، لكن أوس حمل أملاً طفيفاً في أن يصل صوته لساما الغافية في جسدها.. وفي المقابل، كان الانفعال والإثارة التي تشعر بها الكاهنة وهي تنفذ تعويذتها قد تجاوزاها ليغمرا ساما الساكنة في عالمها المظلم.. تاهت ساما وسط تلك المشاعر الغريبة التي لا تنتمي لها، وبعد لحظات من الضياع بدأت تلك المشاعر تتداخل مع مشاعرها الخاصة، بحيث لم تتمكن من التمييز بينهما.. وسرعان ما بدأت ساما تنفعل بدورها بشوق لرؤية نتيجة ما يحدث.. لم تكن تقدر على الرؤية بشكل فعلي، لكنها تستطيع معرفة ما يدور حولها بالاستماع لما يجري مع لمحات بسيطة وسريعة من الرؤى تراها بعينيها عندما تخفت سيطرة الكاهنة عليها للحظات..

ومن بين لهفتها وانفعالها، سمعت ساما صوت أوس يصيح من بعيد "لا تفعلي.. إياك أن تكملي هذه التعويذة.."

غمر الكاهنة إصرار أشد مع صياح أوس وهي مستمرة بتمتماتها، بينما سمعت ساما صوت أوس يصيح بغضب ممتزج باليأس الشديد "لا تفعلي هذا.. ما ذنبهم؟.. ما ذنب الجميع بكل ما جرى؟"

تجاهلته الكاهنة من جديد وهي تراقب دوائر النور التي بدأت تنبع من حول التعويذة، وترتفع بشكل دائري متقاطع للأعلى حتى تغيب في السماء السوداء.. ازدادت قوة النور وحركته، وازداد تأثيره والهواء المندفع بقوة حولها يعبث بملابس الكاهنة ويكاد يقتلعها من مكانها بقوته.. لكن ساما لم تشاركها الانفعال هذه المرة.. ظلت صامتة تستمع لصياح أوس الحانق، وبعض الرؤى تتراءى أمامها في ومضات سريعة لم تستغرق من الزمن الفعلي إلا ثانية أو أقل.. لكنها لم تكن رؤى عما يجري لجسدها في هذا العالم.. كانت

لقطات من عالمها الأصلي، من عالم البشر حيث عاشت السنوات الخمس الأولى من حياتها بسعادة تامة.. تذكرت الصبية والفتيات اللذين قضوا أيامهم يلعبون معها ألعاباً مرحة بريئة بلا ضغائن.. تذكرت أهل القرية اللطفاء ومعاملتهم لها بلطف وحنو قبل أن تتردد الشائعات بكونها طفلة مستبدلة، وتتبدل معها معاملتهم تبدلاً تاماً.. تذكرت والديها، وعندها شعرت بهلع شديد لما قد يحدث لو أنجزت الكاهنة وعدها..

لم تكن تحمل أي ضغينة لأهل القرية رغم كل ما فعلوه.. لكنها لم تقدر أن تغفر للكاهنة ما فعلته بها قط.. موت والديها كان نقطة تحول في حياتها، والكاهنة هي المسؤولة الأولى عن هذه الجريمة التي لا يمكن لساما نسيانها..

وبينما كانت الكاهنة تتلو المجموعة الأخيرة من كلمات التعويذة المنشودة، ودائرة الضوء حولها قد ازدادت قوة حتى عجز أوس القريب من رؤية ما يجري بقلبها، شعرت فجأة بتجمد في شفتيها ويديها وجسدها كاملاً دون أن تتمكن من تحريك إصبعها.. اتسعت عينا الكاهنة بذعر واضح، وهي ترى ذلك الضوء قد بدأ يتباطأ ويبهت بعد أن عجزت عن إكمال الكلمات المطلوبة.. أدركت أن الفتاة البشرية تحاول استعادة السيطرة على جسدها، وللأسف جاء ذلك في أسوأ الأوقات الممكنة.. لكنها لم تستسلم وهي تدفع ساما بقوى عقلها وتغيّبها بعيداً فتستعيد السيطرة على جسدها.. عندها عادت بحزم تتلو الكلمات بسرعة أكبر شاحذة ذهنها وقواها السحرية بأقوى ما تستطيع..

كانت محاولة ساما السابقة قد فشلت سريعاً، لكن الطفلة التي اعتراها الغيظ لما جرى لها، ولما جرى لوالديها، ولكل ما جرى لها منذ أشيع أنها طفلة مستبدلة.. الغيظ الذي بدأ منذ زارتها الكاهنة في تلك الليلة ووشمتها بذلك الوشم المنحوس.. كل ذلك قد استثار قواها وهي تصيح من أعماقها "لا.. لن تفعلي هذا.."

شعرت الكاهنة بوخزة ألم قوية شقّت رأسها، وساد الظلام أمام عينيها لوهلة وهي تقاوم بإصرار عميق.. لم يفُت الوقت بعد، ومحاولات تلك الطفلة التافهة لن تقضي على جهود السنوات الماضية كلها بلمحة واحدة.. تردد الوخز والألم مرة بعد مرة، ثم وجدت الكاهنة إصبعها الذي يشير للدائرة ينثني رغماً عنها، وبدلاً من إكمال تعويذتها ندّت عن فمها صيحة ألم طويلة قبل أن تصرخ "لن تفعلي هذا.."

وفي لحظة، شعرت الكاهنة بأن جسدها قد رُمي أمتاراً للخلف، بينما في الحقيقة هي لم تتحرك مقدار إصبعٍ من مكانها.. ولما فتحت عينيها، رأت ذلك السواد المدلهم من حولها، وذلك الصمت والسكون يحيط بها بشكل لم تعايشه من قبل.. صاحت بارتياع وهي تدور حول نفسها "لا.. ليس الآن.. ليس وأنا على حافة النجاح.. ليس وأنا قد قدمت روحي لتنفيذ هذا الانتقام.."

حاولت شحذ قواها النفسية والسيطرة على الجسد من جديد، لكنها فشلت وازداد الألم في رأسها في كل مرة.. فتهاوت أرضاً بذعر وهي تدمدم بصوت مقهور "لِمَ الآن؟.. ما الخطأ الذي ارتكبته؟.. ما الذي جنيته لأفشل الآن؟.."

وفي الواقع، رفعت ساما بصرها لما حولها لاهثة، ثم تهاوت على ركبتيها وجسدها كله يرتجف.. رأت تلك التعويذة التي نقشت أرضاً، ورأت الزوبعة المضيئة التي اكتسحت ما حولها وكادت تصل لعنان السماء.. قبل أن يتهاوى كل شيء ويتبعثر الضوء في الظلام ويسكن الهواء الذي دار بعنف للحظات.. وسكن كل شيء عدا تلك المعركة التي لم تنقضِ بعد بين (الوينتيكو) وبين الآخرين..

ومع رجفة جسدها، كانت ساما أضعف من أن ترفع رأسها وهي نظر ليديها متلاحقة الأنفاس ملاحظة الدماء التي سالت من جرح يدها السابق، بينما وجدها أحد تلك الكائنات الخبيثة فرصة للاستيلاء على جسدها وتحقيق مآربه عبرها.. فاندفع نحوها مطلقاً ضحكة مهتزة ومستغلاً غفلتها عما يجري لها.. وبينما تمكن أوس من الخلاص من جاد بضربة غائرة من مخالبه، لكنه لم يجد الوقت الكافي للاقتراب من ساما وحمايتها مما قد يجري لها.. وفيما اندفع الكائن نحو ساما المرتجفة وأوس يصيح منبهاً إياها، فوجئ الكائن بضربة أصابته من إحدى التعاويذ التي ألقته بعيداً عن جسد ساما، ووجد نفسه يتجسد رغماً عنه فيما تعالى صوت مالو "عليك به يا أوس.."

استدار الكائن مطلقاً فحيحاً طويلاً وهو يركع على أطرافه الأربع بحثاً عن فرصة للفرار.. فمع تجسده، يصبح من المحال عليه الدفاع عن نفسه إلا باحتلال أحد الأجساد.. ولم يكن جسد ساما بعيداً عنه.. لكن أوس قفز عليه وأغمد مخالبه التي استطالت في عنقه بقوة، قبل أن يجذبها جانباً بعنف فصلت رأس الكائن عن جسده بحركة خاطفة..

استدار أوس على الفور وركض نحو ساما، فألقى جسده قربها وضمّها إليه بقوة متلفتاً حوله للكائنات

التي ظلت تحوم حولها.. بدأت الكائنات تلطم أوس بجسدها الضبابي الذي أورثه آلاماً قوية رغم مناعته ضدها.. لكن أجسادها المشحونة بالطاقة السلبية كانت تضاعف آلامه أكثر من المعتاد وهو يحمي ساما بذراعيه.. لاحظ ارتجاف جسد الطفلة بقوة، وربما كان ذلك راجعاً للمجهود النفسي الذي بذلته للسيطرة على جسدها مجدداً.. لقد سمعها، وأدرك من تكون من تغيرّ نبرة صوتها.. رغم أنهما تستخدمان الحنجرة ذاتها، لكنه تعرّف ساما فور أن سمع صوتها من جديد.. ولما استجمعت قواها قالت بانفعال "لقد تمكنت من طردها.. أليس كذلك؟.. تمكنت من هزيمتها، واستعدت جسدي.. أليس كذلك يا أوس؟"

قال أوس بتوتر وهو يتلقى ضربة جديدة من أحد (الوينتيكو) "لا بد أنك فعلت ذلك.. انتصرتِ عليها أخيراً يا صغيرتي.."

شعرت ساما بآلام لا تطاق في جسدها، وشعرت بشيء يموج في صدرها دون أن تفهم ما هو.. لكنها كانت سعيدة.. رغم الفزع الذي بدا في عينيها لمرأى تلك المخلوقات المرعبة حولها، وأوس يضع يده على وجهها ليمنع عينيها من ملاقاة عيني إحدى تلك الكائنات.. رغم كل ذلك، كانت ساما سعيدة لأنها عادت أخيراً وغادرت ذلك العالم المظلم الكئيب.. رغم أن حالها الآن أبعد عما يمكن تسميته بـ-النجاة- لكنها رغم ذلك سعيدة بما حققته بضعفها وقصورها وهوانها السابق..

سمع الجميع في تلك اللحظات أصواتاً تدك الأرض من حول الساحة، وتزايد الفحيح والضحكات المهتزة حولهم أضعافاً.. مما دفع الحكيم ليصيح بهم "كونوا حذرين.. يبدو أن جماعة جديدة منهم قادمة إلينا.."

تساءلت مالو بقلق وتعب واضحين وهي تتلفت حولها "هل سنكون بخير يا سيدي؟"

لم يجبها الحكيم وهو يحاول موازنة تنفسه واستعادة بعض قواه النفسية.. لقد استهلك الكثير بالفعل، وغدا موقفهم حرجاً أكثر فأكثر مع كل لحظة تمضي.. أما سولينا، فقد وقفت أمام تيما وإيار حاملة خنجراً في كل يد وهي تدمدم "ألن ينتهي هذا الكابوس؟"

أما أوس، فقد ربط جرح يد الطفلة بسرعة بقطعة من المعطف الذي ترتديه، ثم حملها بيدٍ وهي تتعلق بعنقه، وسارع للتراجع حيث البقية رافعاً يده الأخرىٰ بالمخالب بتأهب..

ربما كان صراعهم عنيفاً مع الكائنات في الساعة السابقة.. لكن ما الذي يمكن أن يطلق علىٰ المواجهة القادمة والتي تبدو أكثر خطورة بعشرات المرات؟.. من الذي لا يمكنه الاستسلام مع مرأىٰ تلك الجموع التي أحاطت بهم وأصوات فحيحها وضحكاتها يكاد يصمّ الآذان؟...

الفصل العشرون: بين عالمين

تزايدت ظلمة هذه الليلة ونفذ نور القمر عبر الأجساد الدخانية السوداء بصعوبة كبيرة.. ازداد الموقف تأزماً مع مرور اللحظات، وشعرت الجماعة المتحفزة وسط ساحة القرابين بيأس لم تتمكن من السيطرة عليه.. وكيف لا ييأس أمثالهم مع هذا القتال الذي لا نهاية له؟..

تزايدت الضحكات ضجيجاً، وتعالت الأصوات التي تدك الأرض بقوة.. وبينما ازدادت الحلقة المحيطة بالحكيم وأوس ومن معهما، وتعالى الضجيج الذي أصمّ آذانهم وأرجف قلوبهم، تبعثرت تلك الحلقة بعد لحظة بسرعة خاطفة والكائنات تتشتت بصورة لم يستوعبها رفاقنا بسهولة.. بدا لوهلة أنها تهجم عليهم بعشوائية، لكنها تطايرت بسرعة خاطفة وهي تلطم من تلطمه دون تدقيق وضحكاتها تحولت لصياح مرتعب.. ومن خلفها، رأى الرفاق أشباحاً سوداء ضخمة الحجم تقفز على الساحة بعد أن تسلقت المنحدر الصخري بأذرعها الطويلة، وبدأت تلاحق كائنات (الوينتيكو) التي لم تتردد في الفرار وهي تتبعثر في السماء بسرعة لا يمكن للعقل أن يصدقها.. بدا نور القمر واضحاً في الساحة بعد أن غاب الغطاء السميك من أجساد (الوينتيكو) الذي كان يمنعه عنها.. وفي الوسط، بقي الريابلة برفقة الحكيم ومن معه وهم يحدقون بتلك الكائنات الضخمة التي لم تكن لها سمعة مريحة في أوساط سكان هذا العالم.. فأمامهم، رأوا ما لا يقل عن ثمانية كائنات ضخمة الحجم تسمى (الياوي)، توازي حجم جاد وتفوقه بمرتين على الأقل.. غزيرة الشعر بلون أبيض ثلجي، عيناها صغيرتان سوداء اللون، وأنفها مفلطح يعلو فماً عريضاً.. أطرافها ضخمة نوعاً ما، ومع حركتها الخافتة فإن القريب منها يشعر بأنها تدك الأرض دكاً تحتها..

ظلت جماعة (الياوي) تراقب هؤلاء الغرباء بأعينهم الصغيرة للحظات، فيما غمغم أحد الريابلة بشيء من الشحوب "ماذا بعد هذا؟.. هل سنضطر لقتال هذه الكائنات أيضاً؟"

علقت مالو بقلق وهي تتأمل حجم (الياوي) المهيب "ألا يمكننا الهرب منها قبل أن تهاجمنا؟"

غمغم الحكيم مقطباً "لا.. لا تقوموا بأي حركة مفاجئة.. هذه كائنات (الياوي)، وهي حساسة جداً للأصوات والحركات المباغتة، وقد يستثيرها هذا ويدفعها للهجوم علينا دون هوادة.."

ورغم تحذيره، رأى سولينا تدفع من حولها وتتقدم خطوات وهي ترمق (الياوي) بصمت مذهول.. أمسك إيار ذراعها قبل أن تبتعد قائلاً بتوتر "إلى أين؟.. لا تستثيريها رجاء.."

لكن سولينا لم تستجب له وهي تقلب بصرها بين تلك المجموعة بدهشة وذهول، قبل أن تغمغم "هناك صياد..."

نظر لها البقية بدهشة وتيما تهمس بفزع "ما الذي تقولينه؟.. لا تقومي بأي تصرف أحمق يا سولينا.."

لكن سولينا لم تعبأ بفزعها وهي تقول بانفعال "هناك صياد.. أستطيع أن أميّز رائحته بوضوح.."

بدا أن صياح سولينا قد وتّر تلك المجموعة، فسمعوا صوت ضربة قوية من قدم كبير تلك الجماعة من (الياوي) والذي وقف متقدماً على البقية.. ضرب الأرض بقدمه مرة واثنتان بشيء من العصبية.. وفي المرة الثالثة، وقد ازداد توجس المجموعة أكثر فأكثر تحسباً لهذا الهجوم، رأوا كبيرهم يستدير ويركض نحو حافة الساحة بخطوتين واسعتين، قبل أن يقفز من هذا العلو تابعاً أطياف (الوينتيكو) التي فرّت مذعورة لمرآه.. لم تتردد بقية جماعة (الياوي) باللحاق بكبيرها وهي تقفز من جوانب الساحة مطلقة صيحات عالية تابعة فلول (الوينتيكو) الهاربة..

ومع غياب آخر تلك الجماعة، وخفوت أصواتها وهي تبتعد بخطوات ترج الأرض رجاً، تنفس البقية الصعداء ومالو تتهاوى أرضاً قائلة "يبدو أنها لم تكن تسعى خلفنا.. هل تلاحق (الوينتيكو) لتأكلها؟"

قال الحكيم وهو يمسك يده التي لم تزل تتصبب دماً "ربما.. من يدري ما تهدف إليه هذه الجماعة الغامضة؟"

رأوا سولينا تهرع نحو جدار الساحة، ونظرت عبره لحيث اختفت تلك الجماعة هابطة من ذلك المنحدر رغم حدته بكل يسر.. ثم ركضت حاملة حقيبتها على كتفها نحو الدرج المؤدي لأسفل المنحدر ولقلب الغابة من هذه الساحة دون أن تلتفت خلفها ودون أن تقدم أي تفسير للبقية الذين راقبوها بدهشة تامة..

فقالت تيما بعصبية تخفي بها قلقها الواضح "تلك المجنونة ستقتل نفسها.. إلى أين تحاول الفرار هاربة؟"

ارتفع إيار بجناحيه قائلاً "سأذهب خلفها وأرى ما بها.. لا يريحني ما جرى لها.."

فقال الحكيم "السفينة التي جئت بها ستعود مع مطلع شمس الغد.. لا تتأخر مع تلك المرأة وإلا بقيتما في هذه الجزيرة وحيدين.."

هز إيار رأسه موافقاً وقال "سأعود بها بأسرع ما يمكنني.."

وغادر دون تردد محلقاً فوق الساحة ومتجاوزاً إياها نحو الغابة القريبة باحثاً بعينيه عن سولينا.. فيما استدار أوس إلى ساما التي خبأها خلفه خشية هجوم جماعة (الياوي)، وسألها "أأنت بخير؟"

وجدها تتشبث به وهي تقول بنبرة ارتياع "إنها لم ترحل بعد.. لا تزال موجودة.."

نظر لها للحظة غير مدرك لمن تقصده، ثم رآها تشير لصدرها وهي تقول بفزع وارتباك "أشعر بها هنا.. وهي تحاول العودة.."

ونظرت لأوس بتوسل مضيفة "ما الذي يمكنني أن أفعله لئلا تعود؟"

كان أوس يدرك أنها تعني الكاهنة، وأنها لا تزال مختبئة في جسد ساما فلا يمكن أن ترحل بهذه البساطة.. لكنه قال بتصميم شاداً يده على يدها "لكنها سترحل بالتأكيد.. لا تتركيها تستعيد السيطرة على جسدك من جديد.. قاوميها بقوة يا ساما كما فعلتِ قبل قليل.."

وجدها في تلك اللحظة تدفعه عنها بقوة وعنف.. وتأملت ما حولها بعينين مختلفتين عما سبق ونظرات الارتياع تكسوها من جديد.. لكن لسبب مختلف تماماً.. نظرت للدائرة التي غاب عنها النور، وبقيت مجرد نقش يزين أرضية الساحة بطريقة فجة.. ونظرت للسماء حيث زالت بعض النجوم عن مواقعها وغدا انتظامها مشوهاً وواضحاً للعين المجردة.. عندها صاحت "هذا مستحيل.. لا يمكن أن يحدث هذا.."

لم يعلق أحدٌ على صياحها وهي تصرخ بدموع غزيرة "لا يمكن أن أفشل.. لقد رأيت هذا في رؤياي.. رأيت أنني نجحت، وأن العالمين قد أصبحا واحداً دون أي حواجز.. لا يمكن أن أفشل بهذه السهولة.."

قال الحكيم محاولاً التقاط أنفاسه بعد كل الجهد الذي بذله "لا شيء يؤكد أن ما ترينه في تلك الرؤى سيتحقق بالتأكيد.."

صاحت "بل تتحقق في كل مرة.. أنا أثق أنها تتحقق.. فما الذي تغيرّ الآن؟"

علق الحكيم قائلاً "تلك الرؤى هي خيارٌ متاح أمامك.. إما أن تسعَيْ لتحقيقه، وإما أن تنبذيه.. رؤية هذه الرؤى لا يعني بالضرورة أنها يجب أن تتحقق، ولا يمكنك إلقاء اللوم عليها.. هي فقط تريك ما يمكن أن يتحقق والطريق الذي يمكن أن تسلكيه.. والخيار بعد ذلك لك، ومسؤولية هذا الخيار تقع عليك.."

غمغمت الكاهنة بصدمة "ولكن.. في المرات السابقة....."

أضاف الحكيم مقاطعاً اعتراضها "ما تحقق من تلك الرؤى سابقاً كان بسبب سعيك أنت لتحقيقها.. لا أكثر من ذلك....."

تهاوى الحكيم بعدها على ركبتيه منهكاً، فيما بقيت الكاهنة تراقب الدائرة التي ظلت ساكنة على الأرض بصدمة ودموع لا تكاد تجف.. تهاوى حلمها وتهاوت كل جهودها في السنوات السابقة في لحظة واحدة.. تضافر الجميع لإعلان فشلها قبل أن تحصد ثمرات نجاحها، وضاعت سنوات عمرها هباءً منثوراً..

هرعت مالو نحو الحكيم الذي عبس بألم ظاهر، فقالت بقلق وهي تركع قربه "أأنت بخير يا سيدي؟.."

غمغم الحكيم "سأكون بخير.. لقد استهلكت من طاقتي ما يفوق ما استهلكته في الخمسين سنة الماضية.."

ونظر لمالو بهيئتها الجديدة الغريبة عليه، ثم أضاف "أنا آسف يا صغيرتي لما جررتك له.. ولما جرى لك.."

ابتسمت مالو ابتسامة شاحبة معلقة "أما كبرت على هذا اللقب؟"

ابتسم الحكيم مربتاً على رأسها وقال "لا.. ليس قبل أن تتجاوزي مائتي سنة من عمرك.."

غابت ابتسامة مالو وهي تقول بصوت مرتجف "لِمَ أحضرتني معك إلى هذه الجزيرة حقاً يا سيدي؟.. أنت لم تحتج عوني حقاً، ولولا هجوم (الوينتيكو) لما قمتُ بأي عمل يذكر.. فلأي سبب أحضرتني؟"

قال الحكيم بعد برهة صمت "لأنني رأيتك كما أراك الآن.."

نظرت له بدهشة، ففسر الأمر قائلاً "أنت تعلمين أن من يمتهن السحر والكهانة تراوده بعض الرؤى.. بغض النظر عن كون هذه الرؤى حقيقة أم لا، فقد رأيت هذا المكان في إحدى الرؤى، ورأيتك فيه بهيئتك البالغة هذه.. لذا أحضرتك لهذا المكان، لتواجهي قدرك يا مالو.."

قالت باعتراض مرير "كان بإمكانك إخباري.. لكنت اخترت عندها خياراً آخر وفضّلت عدم خوض هذه التجربة.."

فقال الحكيم "هذا قدرك في النهاية يا مالو.. فكيف لك أن تفرّي منه؟.. سواء أحدث ذلك هنا أم في أي مكان آخر، فلابد أن يحدث ما حدث عاجلاً أم آجلاً.. فلم الهرب؟"

قالت بحرقة "أنا لم أهرب قط.. لكني أردت أن أحدد مصيري بنفسي.. أردت أن أختار حياتي، ولا أتبع آبائي وأجدادي بشكل أعمى لا مغزى له.."

قال الحكيم بتصميم "ربما كان المغزى حقاً فيما جرى لك.. لِمَ قد ترفضين المستقبل فقط لأنه مشابهٌ لمن

سبقوك؟.. أنت لن تصبحي كالآخرين فقط لأنك اتبعت مسارهم.. بل قد تسبقينهم في هذا الطريق، أليس كذلك؟"

لم يكن لحديثه أي تأثير في تهدئة حزن مالو، لكنها صمتت وقد أدركت أن لومه لن يأتي بنتيجة بعد أن جرى ما جرى بالفعل.. وهي لا تقدر على لومه أكثر من لوم نفسها لأنها فقدت السيطرة على جسدها لمدة محدودة، وكانت نتيجتها تغييراً لا يمكن عكسه مطلقاً..

تساءل أحد الريابلة في تلك اللحظة "ما الذي سنفعله بهذا الغول؟"

نظر الجميع لجاد الذي سقط جانباً بجرح جديد في كتفه وذراعه إضافة لجرح صدره السابق.. كان منهكاً لطول عراكه مع الريابلة، والذي خلف العديد منهم جرحى بهجومه العنيف قبل أن يوقفه أوس بالجرح الذي أصابه به.. عندها قال الحكيم "ما كان عليك معاونة الكاهنة بهذا الإصرار.. لمَ قد يخون شخص مثلك عشيرته لمعاونة الكاهنة في مخططها الدنيئ هذا.."

قال جاد بغلظة رغم الألم والتعب البالغ الذي ألمّ به "لأنني كنت أريد الخلاص منها.. لقد وعدتني أنها ستمكنني من الخلاص منها إن عاونتها في تحقيق هدفها هذا.."

ضحك الحكيم لما سمعه وقال " أنت أحمق.. الخلاص منها يتطلب شخصاً بقدرات سحرية ومعرفة بالتعويذة الملائمة.. حتى لو أخبرَتْك ما عليك فعله، فأنت لن تقدر على إيذائها قيد شعرة.. ولو حاولت الخلاص منها، ستموت الطفلة، وتعود الكاهنة في جسد جديد.."

نظر جاد بغيظ للكاهنة التي ظلت في مكانها ودموعها الغزيرة لا تكاد تجف.. شعر بأكثر من مجرد الغضب.. شعر بالإهانة، لأن تلك الكاهنة استغفلته وهي مدركة أنه لن يقدر على الخلاص منها.. كيف يمكن أن تسلم نفسها له في الوقت الذي يفترض بها أن تجني ثمار نجاحها هذا؟.. كيف ترضى بالموت وهي على وشك أن تشهد انتقامها الذي تاقت له لزمن طويل؟.. كان عليه أن ينتبه لهذا التناقض وما يحمله من معنى واضح وضوح الشمس..

نهض بألم شديد، وتقدم من الكاهنة بغضب واضح فأمسك ثوبها ورفعها عالياً وهو يقول بغلّ "هل خدعتني أيتها الحقيرة؟"

لم تلتفت الكاهنة إليه وهي تدير بصرها جانباً، فيما سارع أوس ليدفع جاد بعيداً عنها وأمسك الطفلة قائلاً

بغضب "إياك أن تؤذيها.."

تقدم جاد خطوة بكره عارم، لكن الحكيم استوقفه قائلاً "ما الداعي لهذا الغضب؟.. يمكنني تحقيق ما تأمله بسهولة.. وربما كنتَ محظوظاً بوجودي هنا في هذه اللحظة.."

تراجع جاد خطوة زافراً، ثم قال بجفاء "وكيف لي أن أثق بقدرتك على تحقيق ذلك؟"

أجاب الحكيم متقدماً من الكاهنة "لقد وثقتَ بها في الأيام الماضية ثقة عمياء.. ألا تستطيع أن تثق بي ولو قليلاً؟.. لاحظ أنني لا أستفيد أمراً من الكذب عليك.."

وقف عند رأسها يتأملها بصمت، فيما تساءل أوس بإلحاح "ألن يضرّ هذا الأمر ساما بأي طريقة كانت؟"

رفعت الكاهنة رأسها تنظر له ببغض بينّ، وقالت بصوت يرتجف "لن أغفر لك ذلك قط.. لكل ما فعلته، ولما تنوي فعله بي.."

قال الحكيم بابتسامة "سنرى بشأن ذلك.."

نظر نظرة خاطفة تجاه أوس، فاقترب من الكاهنة وأمسك بها من الخلف مثبتاً ذراعيها لئلا تقاومه.. استجمعت الكاهنة ما بقي من قواها، بعد أن استُنزفت في الصراع الذي بدأ منذ بداية هذه الليلة، ونفثت في وجه أوس بقوة.. كانت ترمي لإسقاطه في غيبوبة، عسى أن تجد فرصة ولو ضئيلة للهرب، لكن أوس ظل ثابتاً دون أن يتهاوى بتأثير تعويذتها.. عندها قال الحكيم الذي وقف أمامها "أنسيت أنه من الريابلة؟.. لذا تعاويذك هذه لن تأتي بنتيجة معه.."

عندها تهاوت الكاهنة أرضاً وقد فقدت كل طاقة لديها للمقاومة.. كان مصيرها محتوماً، ولم يعُد بيدها ما تفعله للفرار من هذا المصير.. مد الحكيم يده فأمسك برأسها، فيما ظلت الكاهنة تقول بانهيار "لا.. ما الذي فعلته لكم؟.. لمَ تريدون القضاء عليّ دون سبب؟.. ما الذي تبغضونه بوجودي؟"

قال أوس بغضب "كم روحاً أزهقت لتسألي هذا السؤال؟.. أأنت عمياء؟.. أم أن انتقامك له الأهمية العظمى في حياتك ولا شيء عداه له أي معنى؟"

وصل صوته لساما بوضوح، وراودتها دهشة عميقة من تبلد مشاعرها لما يجري، رغم إدراكها سابقاً أن سيطرة الكاهنة على جسدها تشمل مشاعرها كذلك.. لكنها بعد لحظة أدركت أن ما تشعر به هو انعكاس لمشاعر الكاهنة.. شعرت بالغضب والحنق.. شعرت بمشاعر قوية غمرتها بشكل تام، لكن للدهشة لم يكن

بينها ذرة خوف.. لم يكن بينها أي ذعر أو قلق، ولم تلمح حتى أي استسلام لما يفعله الحكيم بها.. هل تنوي مغافلة الجميع أو خداعهم بوسيلة ما؟..

ظلت ساما صامتة عازفة عن اتخاذ أي تصرف وهي تراقب بإحساسها ما يجري.. وبعد لحظات معدودات، بدأت ترى رقعة من النور أمام عينيها تتسع بإضطراد.. نهضت ساما بلهفة، وقد أدركت أن هذا هو طريقها للخروج.. لاستعادة نفسها وجسدها بعد طول استعمار.. ركضت نحو الضوء الذي يزداد ويتسع بتسارع، وبدأت تسمع صوت الحكيم وتمتماته التي كانت خافتة في البدء، قبل أن يملأ صوته المكان بشكل فعلي..

رغم أنها شعرت أن قدماها لا تتحركان، لكن الضوء كان يقترب ويزداد اتساعاً مع مرور اللحظات، ولما شعرت به قريباً لم تتردد ساما في القفز نحوه بكل لهفة وشوق..

ولما أنهى الحكيم تعويذته تلك، تهاوت الطفلة فجأة فتلقفها الحكيم قبل أن تسقط وهو يلاحظ رجفة جسدها وتلاحق أنفاسها.. ولما فتحت عينيها، نظرت للحكيم الذي ابتسم لها ابتسامة واسعة وقد أدرك أن التي تطالعه بتلك العينين تختلف عن التي رمقته بهما ببغض قبل لحظات.. ثم سمعها تقول أخيراً بشيء من القلق "هل رحلت؟"

بتحديقه في عيني ساما السوداوين، تيقن الحكيم بأن روح تلك الكاهنة لم تعد موجودة في هذا الجسد قط.. فقال بنبرة راحة "أجل.. رحلت ولن تعود إليك قط.."

وحملها ليناولها أوس الذي كان قريباً، والذي قال بابتسامة "هل أنت بخير يا صغيرتي؟.."

هزت ساما رأسها إيجاباً، ثم أغمضت عينيها قائلة "أشعر بأني متعبة.."

ظل أوس يراقب سكونها وأنفاسها التي بدأت تهدأ، ورغم قلقه عليها، لكنه لم يلح عليها لمعرفة ما بها، واكتفى بأن حملها بذراعيه مريحاً رأسها على صدره..

نظر الحكيم لمالو التي انشغلت بربط جراح جاد ومن أصيب من الريابلة، ونظر للأجساد التي سقطت في الساحة بعد صراعٍ عنيف كالذي واجهوه.. رغم أنه توقع جزءاً مما جرى في هذا المكان، ورغم أنه رأى بعضه في الرؤى التي راودته لزمن طويل، لكن المحصّلة كانت أسوأ مما توقعه بكثير..

استطاع إيار اللحاق بسولينا بشيء من الصعوبة.. كانت تركض دون هوادة، متجاوزة أشجار الغابة ومتجهة نحو المنحدر الذي غابت عنده جماعة (الياوي) تلك.. ولما حاذاها إيار محلقاً بجناحيه هتف بها "ما الذي جرى لك يا سولينا؟.."

لم تجبه سولينا وجدية غريبة تبدو على ملامحها.. ولما وصلت لحافة المنحدر ووقفت قربه، نظرت من مكانها العلوي محاولة البحث عن (الياوي) بعينيها على ضوء القمر الشحيح.. وقف إيار قربها متسائلاً بقلق "ما الأمر؟.. هل تسعين خلف هذه الكائنات لاصطيادها؟.. هذا أسوأ وقت ممكن لحاستك أن....."

قاطعته سولينا قائلة بتوتر "لا.. ليس هذا ما أسعى إليه.."

قال إيار بحيرة "إذن لمَ؟.."

قالت بحيرة لا تقل عن حيرته "لقد شممت رائحة صياد.. كانت تأتي من تلك الكائنات بالتحديد.."

ونظرت لإيار مضيفة باضطراب "أنا واثقة أن الصيادين لا يقتربون من هذه الجزيرة عادة.. الصياد الوحيد الذي تجرأ على الاقتراب منها، ومحاولة صيد هذه الكائنات، قد وصلتني أخبار موته وموت الصبي الذي معه قبل سنة.. فمن هو صاحب تلك الرائحة؟.. من هو صاحب تلك الرائحة منهما؟.."

أدرك إيار من تعني، لكنه لم يتمكن من تهميش هذه الفكرة ودحضها لئلا تثور سولينا في وجهه.. كانت واثقة مما شمّته، وواثقة أنها قد تجد شيئاً له علاقة بزوجها وابنها اللذان قتلا في هذه الجزيرة قبل سنة.. فكيف له أن يثنيها عما تفعله؟..

رآها تشرع بهبوط المنحدر الخطر دون أدنى تردد، وهي تثبت أقدامها وتتمسك ببعض الشجيرات التي نبتت من بين تلك الحجارة الصماء.. فلحق بها إيار قائلاً "هذا جنون.. ماذا لو سقطت وتهشم جسدك على هذه الصخور؟"

ومد ذراعيه لها بدعوة صامتة.. لم تتردد سولينا في التمسك بذراعيه، ورغم ثقلها فقد حاول الهبوط بها ببطء ودون تهور لئلا يواجه أحدهما نهاية مأساوية.. وفي الأسفل، تمكن الإثنان من رؤية بعض جماعة (الياوي)، وقد استقرت في جانب بارز من هذا المنحدر مخفيّ ببعض الصخور الضخمة بحيث لا يبدو للناظر إليه من الأعلى..

اقترب إيار بسولينا بحذر شديد، ومع اقترابهم، غمرتهم رائحة قوية منتنة تثير اشمئزاز أي كائن بحاسة

شم قوية.. وأمامهم، رأيا جماعة (الياوي) منشغلة بالتهام بعض أجساد كائنات (الوينتيكو) المتجسدة والتي سقطت صريعة ورائحتها تفعم الأنوف.. هبط الإثنان في جانب المكان، ورغم حذرهما، بدأت أقرب كائنات (الياوي) في إظهار غضبها واستفزازها بحركات عصبية وصيحات تحذيرية وهي تضرب الأرض بأقدامها.. ورغم الرائحة القبيحة، تمكنت سولينا من التقاط رائحة بني جنسها بشكل خافت.. عندها لم تتردد في الاقتراب من تلك الجماعة بخطوات حذرة مترددة متجاهلة عصبيتها، بينما فضّل إيار البقاء في طرف المكان بحذر وتأهب للفرار.. وبعد بعض الوقت، هدأت تلك الكائنات وتململت في مواقعها قبل أن يجرؤ أقربها على التقدم متفحصاً سولينا التي اقتربت منه بدورها بخطوات حذرة..

تلفتت سولينا بلهفة بحثاً عن أثر من تلك الرائحة، وسارت بهدوء كبير بين تلك الكائنات وإيار يهمس قلقاً "كوني حذرة.."

لم تعلق سولينا وهي تبحث بين الكائنات الضخمة وما خلفها عن صاحب تلك الرائحة.. كانت واثقة أنه قريب، لكنها لم ترَ أثراً له في المكان.. هل تيأس؟.. هل تظن بعقلها الظنون؟.. هل كانت واهمة رغم كل شيء؟.. وقفت تنظر حولها بحيرة، عندما سمعت من يقول "من أنت؟"

ارتجفت أعماق سولينا مع ذلك الصوت، فرفعت رأسها بحثاً عن صاحبه.. وعلى ظهر إحدى تلك الكائنات، رأت صبياً لا يكاد يجاوز إيار في العمر كثيراً، يتشبث بشعر ذلك الكائن وهو يجلس على كتفيه.. لم تكن رؤيته ممكنة عند مواجهة ذلك الكائن، بسبب حجم الصبي الصغير واختبائه خلف (الياوي).. لكن من هذه الناحية، يمكن رؤيته بوضوح والصبي يبادلها النظر بفضول واضح.. تجمدت سولينا في مكانها وهي تنظر للصبي، وبدأت الدموع تتجمع في مآقيها منذرة بالهطول وهي تهمس بصوت يرتجف "رود.. أهذا أنت؟.. أنت حي!!.. أنت حي حقاً؟"

بدأت سولينا تهذي بأسئلة لا معنى لها وهي ترى الصبي يراقبها بفضول من على كتفي الكائن.. فيما راقب إيار ما يجري بفضول متأهباً للتدخل لو أثارت سولينا غضب تلك الجماعة.. عادت سولينا تهتف بانفعال "رود.. أنت رود، أليس كذلك؟.. اقترب يا بني.."

لكن الفتى ظل يرمقها وقد تحول فضوله توجساً، فتقدمت سولينا خطوة بلهفة واضحة، لكن صوتاً تحذيرياً صدر من (الياوي) الذي يحمل الصبي على ظهره، وبدا التحفز واضحاً في وجوه البقية.. عندها

قال إيار بقلق وهو يتأهب للطيران "يبدو أنك قد تجاوزت حدودك.. تراجعي بسرعة أرجوك.."

التفتت إليه سولينا قائلة بانفعال "لن أتخلى عن ابني الآن بعد أن عثرت عليه.."

سمعت سولينا الفتى يقول بحيرة "ابنك؟.. أنا لا أعرف من أنت ولم أرك في حياتي.."

نظرت له سولينا بصدمة لم تملكها.. كانت واثقة أن هذا هو رود.. يبدو بحال سيئة، أشعث الشعر ومهلهل الملابس فيما غطى الغبار والطين وجهه.. لكنه هو.. لا يمكن أن تكون مخطئة في هذا الأمر، وصوته الأحب لقلبها هو أكبر دليل على ذلك..

بدأت الدموع التي قاومتها سولينا لوقت طويل تحتشد في عينيها وتسيل على وجهها، وتهاوت على ركبتيها وهي تقول بصوت يرتجف "أنت ابني.. كيف لك ألا تعرفني؟.. هل نسيت؟.. هل تنكرني؟.. ما الذي جرى لك يا صغيري؟"

بدا أن بكاءها قد هدّأ تلك الكائنات وأثار فضولها وهي تراقبها بصمت.. وبعد لحظات قليلة، رأت رود يهبط من ظهر ذلك الكائن ويسير نحوها ببعض التردد.. ظلت سولينا جالسة بلا حراك خشية أن تثير حفيظة الصبي، إنما ظلت تتطلع لوجهه بلهفة تتأمل تفاصيلها التي لم تنسها قط طوال السنة الماضية.. والتي رأتها في أحلامها كل ليلة دون استثناء..

ركع الفتى قريباً منها، إنما على مسافة حذرة، وتساءل متأملاً دموعها بدهشة "ما الذي يبكيك؟.. أأنت تبحثين عن شخص ما؟"

قالت سولينا بصوت متهدج "أبحث عنك يا صغيري.."

قال بدهشة أكبر "لكنني لا أعرفك.. لا أعرف أحداً عدا هذه الكائنات التي لا أعرف اسمها.. فكيف ولِمَ تبحثين عني؟.."

مدت سولينا يدها قبل أن يهرب وأمسكت يده، فسقط الفتى خلفاً للمفاجأة وهي تقول بلهفة "هل فقدت ذاكرتك؟.. ألا تذكر من أنت ومن أين أتيت؟.. ألا تذكر أباك الذي جاء لهذه الجزيرة معك؟"

حاول الفتى التملص من قبضها وهو يقول مذعوراً "أطلقيني.."

لكنها تشبثت به أكثر قائلة "أنا أمك.. لقد غادرت أنت وأبوك مدينتنا قبل سنة لاصطياد هذه الكائنات، لكننا فقدنا أثركما وعددناكما مقتولين.. في الواقع، قيل لي إنهم عثروا على جسد أبيك في جانب من جوانب

الجزيرة، لكنهم لم يعثروا عليك وظنوا أنك هويت من فوق الجرف القريب.."

كان الفتى يستمع لما تقوله بصدمة، وظل يحاول التحرر وصوته يعلو صائحاً "اتركيني.."

تعالت زمجرات (الياوي) من حولها، وهتف إيار من مكانه "ابتعدي يا سولينا قبل أن يقتلوك.. اتركي الصبي واهربي.."

لكن سولينا تشبثت بالفتى أكثر فأكثر.. كيف لها أن تتخلى عن ابنها بعد أن عثرت عليه؟.. كيف تتناسى الليالي التي قضتها باكية بحرقة لما جرى له ولأبيه؟..

تزايدت مقاومة الفتى لها، وتلقت سولينا على إثرها ضربة جانبية بيد إحدى الكائنات الضخمة رمتها جانباً تصيح متألمة.. عندها هرع الفتى للركض نحو ذلك الكائن وتسلق ظهره قبل أن تبتعد به تلك الكائنات متسلقة المنحدر بكل خفة وهي تطلق صيحات تحذيرية والظلام يغيّبها في ثناياه..

هبت سولينا واقفة وهي تصيح "رود.. بني.. لا ترحل.."

لكن إيار تشبث بها بقوة وهو يهتف "لا تلحقي به.. سيقتلك ذلك الكائن الشرس.. ألا ترين أنها تعامله كفرد منها؟.."

صاحت سولينا "لكنه ابني.. كيف يمكنني أن أتركه يغيب عني مجدداً؟"

قال إيار وهو يدفعها لتجلس أرضاً وتهدأ قليلاً "سنلحق به.. لابد أن نفعل.. لا يمكن أن يختفي بشكل تام في هذه الجزيرة.. ألم تتعرفي على رائحته قبل أن تريه حقاً؟.. لابد أن نجده بعد أن تهدأ الأمور قليلاً.."

سالت دموع سولينا غزيرة وهي تخفض رأسها بصدمة وشيء من الاستسلام.. كان تريد لحظات فقط.. لحظات تضمّه لصدرها وتسمع دقات قلبه الصغير.. لحظات لتشعر بدفء جسده وتتأكد أن هذا ليس هذياناً من عقلها المكدود.. عندها، ربما تقدر على تمالك انفعالها والتفكير بشكل أفضل مما هي عليه الآن..

وجدت إيار يجثو قربها ويربت على رأسها قائلاً "ما بال امرأة سليطة اللسان مثلك تُبدي هذه المشاعر الجياشة؟.. ما الذي جرى لك ولسخريتك الدائمة؟"

أجابت سولينا وهي تمسح دموعها بيدها "وما بال فتى مثلك أخضر العود يعاملني كطفلة؟.. لا بد أن السماء ستهوي على رؤوسنا بعد لحظات.."

قال إيار بابتسامة "بما أنك قادرة على المزاح في هذه الحالة فهذا يعني أنك بأتم ما يرام.."

وابتعد عن سولينا التي نهضت بتثاقل، وزفرت وهي تنظر لحيث اختفى (الياوي) عن ناظريها.. فقال إيار "الشمس توشك على الشروق، لذا علينا أن نعود.. سترحل السفينة ونحن بعيدان عنها.."

زفرت سولينا من جديد مغمغمة "أتظن أنني أستطيع الرحيل حقاً؟.. سألحق به.. سأجوب هذه الجزيرة كلها لو استلزم الأمر حتى أستعيده.."

وتعلق بصرها حيث اختفى (الياوي) حاملاً صغيرها لمكان مجهول لا تعرف عنه شيئاً.. ستستعيده.. ولو قضت ما بقي من حياتها وهي تسعى خلفه..

على الشاطئ الرملي للجزيرة، ومع أولى ساعات ذلك الصباح الذي أعقب الليلة المظلمة الدامية، رست سفينة متوسطة الحجم قرب الجزيرة بانتظار عودة الحكيم ومن بقي معه من الريابلة..

وقف الحكيم ومالو وبقية الريابلة بانتظار اقتراب القارب الذي سيقلهم للسفينة، فيما وقف خلفهم أوس حاملاً ساما الغافية بتعب، ومعه تيما التي تلفتت حولها بشيء من القلق بعد كل ما جرى في الساعات الماضية.. وأخيراً، سمعها أوس تقول باهتمام "ها هي سولينا.."

التفتوا خلفهم ليروا سولينا تقترب منهم وهي تجر خطواتها بتثاقل، وإيار يحلق فوق رأسها بصمت..

بادرها أوس فور اقترابها متسائلاً "ما الذي جرى لك يا سولينا؟.. هل عثرت على ما كنت تبحثين عنه؟"

هزت سولينا رأسها نفياً وهي تقول بأسى "عثرت عليه، وهرب مني من جديد.."

نظروا لها بدهشة وتساؤل، فبادر إيار ليقول شارحاً الأمر "لقد عثرت على ابنها الذي فقدته في هذه الجزيرة قبل سنة، والذي ظنه الجميع قد مات مقتولاً بأيدي (الياوي).. لكنه لا يزال حياً، وإن كان فاقداً لذاكرته وقد رفض الانصياع لها بشكل تام.."

تساءلت مالو مشفقة "وهل ستتخلين عنه؟"

هزت سولينا رأسها من جديد قائلاً "قطعاً لا.. لكني لن أكسب ثقته بسهولة.. أحتاج للمزيد من الوقت، وأحتاج جهداً مضاعفاً لئلا يهاجمني (الياوي) دفاعاً عنه.."

علق الحكيم قائلاً "هذا عجيب.. لم أتوقع قط أن تكون جماعة (الياوي) أكثر لطفاً في معاملة الغرباء.. ربما

لأنها لا تستشعر خطراً منه، لذا ضمّته إليها وعاملته كفرد منها.. أنت محظوظة بهذا الأمر، وإلا ما أبقته كائنات (الوينتيكو) لليلة واحدة قبل أن تقضي عليه.."

زفرت سولينا وهي تبعد هذا التفكير من رأسها، ونظرت إليهم قائلة "سأعود للبحث عنه، لذا أتيت لأخبركم ألا تنتظروا عودتي.. سأبقى هنا ولن أعود إلا بعد أن أعثر على طفلي.."

وضع أوس يده على كتفها متسائلاً "هل ستكونين بخير؟"

ابتسمت سولينا لنظرات القلق في عينيه وعيني تيما، وقالت "كف عن الانغماس في شؤون الآخرين يا أوس، وإلا ستهلك نفسك في قضية لا صلة لك بها.."

ومسحت على وجه ساما مضيفة "عليك إعادة الطفلة بأسرع ما يمكن.. فقد طال بقاؤها هنا.."

انتبهت لنظرات القلق في عيني تيما، رغم صمتها وعزوفها عن الحديث.. فقالت بابتسامة جانبية "لا تقلقي يا تيما.. سأعود وأبحث عنكما حتى أعثر عليكما فور استعادتي لطفلي.."

قالت تيما مقطبة رغماً عنها "ومن الذي ينتظر عودتك؟"

قالت سولينا بإصرار ممتزج بالحنق "لن تتخلصي مني بسرعة يا فتاتي.."

أدارت تيما وجهها جانباً، فيما علق إيار قائلاً "أظنني سأبقى هنا كذلك.. فلا أملك دافعاً يدفعني للعودة بهذه السرعة.."

نظرت له سولينا قائلة بمرح "مرحى يا فتى.. إذن سنقضي أوقاتاً ممتعة.."

عندها أسرع إيار ليقول بضيق "أو ربما أغيّر رأيي.. مادمتِ مصرّة على مناداتي بهذا اللقب.."

وضعت سولينا ذراعها على كتفيه قائلة بإصرار "فتى.. صبي.. سأناديك كيفما أشاء.."

ابتسم أوس رغماً عنه لرؤيتها تستعيد بعضاً من مرحها، وقال "كوني بخير يا سولينا.. سننتظر عودتك دون شك.."

هزت سولينا رأسها موافقة، فيما استدار الحكيم صاعداً القارب الذي وصل للشاطئ في تلك اللحظة.. ومن خلفه صعد جاد وبعض الريابلة.. لاحظ الحكيم أن مالو بقيت واقفة على الشاطئ دون أن تتبعه كعادتها.. فسألها "ما الأمر يا صغيرتي؟"

خفضت مالو رأسها قائلة "الآن، لن ألقى أي ترحيب في منزلك يا سيدي.. أليس كذلك؟"

ابتسم الحكيم قائلاً "لم أعنِ ذلك قط يا مالو.. لكنك تعلمين أن بقاءك فيه لن يتجاوز بضع أيام على الأغلب.."

خفضت مالو بصرها بتفكير وهي تفرك يديها، ثم قالت "إذن، أظنني سأبقى هنا بدوري.."

ونظرت تجاه سولينا قائلة "يمكنني أن أعاونك لتحقيق ما تسعينَ إليه، إن لم تمانعي اصطحابي معكما.."

قالت سولينا "لا تقلقي يا فتاة.. أنا لا أحمل ضغائن لأحد، حتى لمن طردني من منزله.."

احتقن وجه مالو للحظة، ثم قالت "لا بأس.. يمكنني تجاوز مزحتك هذه.. سأبقى معكما، وسأعاونك قدر استطاعتي حتى تغادري هذه الجزيرة.. هل يكفي هذا؟"

لم ترفض سولينا ذلك، فيما قال الحكيم "كما تشائين يا مالو.. لكن ابقي على اتصال بي قدر استطاعتك.. يهمني أن تكوني بخير.."

هزت مالو رأسها موافقة، ثم استدارت وتراجعت خطوات حتى وقفت جوار سولينا وإيار، ليعلق الأخير قائلاً "يغيظني رؤيتك تفوقينني طولاً هذه المرة.."

كانت مالو بجسدها الطويل وأطرافها النحيلة قد أصبحت تفوق إيار في الطول بالفعل، بينما غدا رأسه لا يجاوز كتفيها هذه المرة.. عندها ابتسمت مالو معلقة "إذن، بدأت أحب ما جرى لي بالفعل.."

رحل القارب حاملاً جزءاً من المجموعة للسفينة، وسرعان ما عاد ليحمل في رحلته الأخيرة بقية الريابلة وتيما وأوس وساما التي غفت على كتفيه بسكون ربما لم تعرفه منذ وصلت لهذا العالم.. فيما وقفت سولينا على الشاطئ تراقب السفينة وجوارها إيار ومالو.. وبعد رحيل الجميع، قالت سولينا بانشراح "هيا بنا.. أيامنا هنا ستكون حافلة بالكثير من الأحداث.."

لحقتها مالو متسائلة "أتملكين خطة معينة أو فكرة عما يجب فعله؟"

هزت سولينا كتفيها معلقة "لا.. سنفعل ذلك وقتها بكل تأكيد.."

علق إيار محلقاً فوقها "ربما لهذا السبب لم تتمكني من اصطيادي لشهر كامل.. عليك التخطيط جيداً لهذا الأمر هذه المرة.."

قالت سولينا بغيظ "يبدو أنك أتيت للاستهزاء بي لا لمعاونتي.."

ونظرت لمالو التي تسير قربها وتكاد توازيها في الطول مضيفة "ماذا عنك؟.. هل اكتسبت أي قدرات

خارقة أو قوىٰ سحرية بتحوّلك هذا؟"

قالت مالو مبتسمة "من قال لك إن (الشنّ) يكتسبون أي قوىٰ خارقة بتحولهم؟.."

علقت سولينا بدهشة "ظننت أن هذا هو سبب عدم بقائهم في قريتهم بعد البلوغ.. فما السبب؟"

أجابت مالو هازة كتفيها "ليست قوىٰ خارقة بالمعنىٰ المفهوم.. لكن أجسادنا بعد البلوغ تحمل مخزوناً كبيراً من الطاقة الإيجابية.. هذا يفيدنا في كثير من الأمور، ويفيدني بشكل شخصي لمعرفتي بالسحر والتعاويذ، لأنه يعني أنني لن أفقد طاقتي بالسرعة التي يفقدها الساحر العادي.."

تساءل إيار "إذن ما سبب مغادرتكم القرية؟.."

صمتت مالو للحظات وقد راودها بعض القلق من تقبل هذين الاثنين لما ستقوله، ثم قالت أخيراً "الطاقة الإيجابية التي يحتويها جسدي قد لا تشعر بها الكائنات العادية.. لكن هناك كائنات أخرىٰ لا نراها تشعر بها وتتجمع حولها.. هذه الكائنات يسميها الحكيم (الضبابيات)، حيث تبدو لمن يضطلع بالسحر كأشباح ضبابية.. ولو بقيت في مكان واحد لوقت طويل فقد تسبّب هذه الكائنات بعض المآسي في المكان.. لذا كان رحيل البالغين عن القرية لمصلحة أطفالها.."

غمغم إيار "ليس هذا عذراً مقبولاً لنفي البالغين منكم بهذه الصورة القاسية.."

فقالت سولينا "هذا لا يهم الآن.. مادامت لا تملك أي قوىٰ، فيمكنها علىٰ الأقل معاونتنا بتعاويذها.."

شعرت مالو بشيء من الراحة لأن رفيقيها لم يفزعا لما قالته، ولم يطالباها بالرحيل كما توقعت سابقاً.. ثم سمعت سولينا تحثهم علىٰ السير قائلة "علينا أن نبذل الكثير من الجهد حتىٰ تتم رحلة صيدنا الأخيرة بنجاح.."

وجدّت الخطىٰ نحو عمق الجزيرة مضيفة بابتسامة "رحلة صيد صياد.."

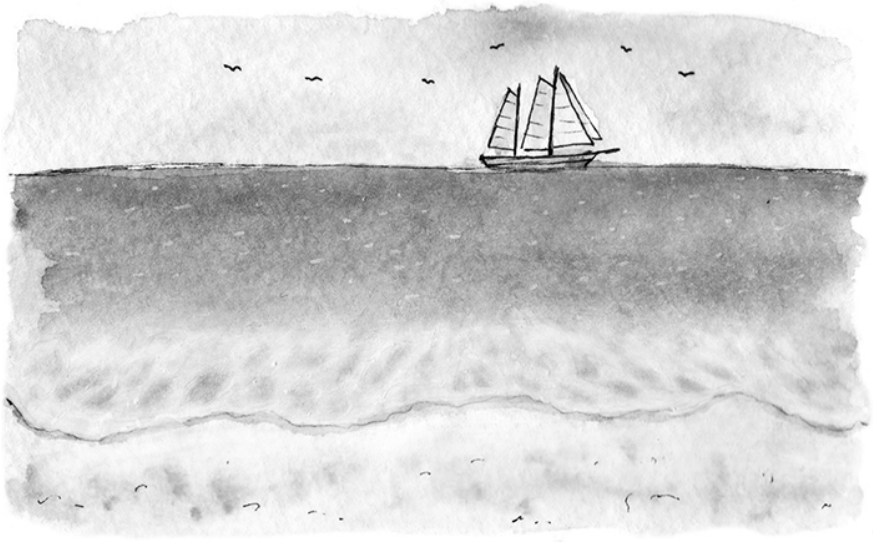

غابت الجزيرة عن أعين ركاب السفينة بسرعة لا تصدق.. غابت بكل كائناتها الغريبة وأطلالها المهجورة التي نبذها سكان هذا العالم كله.. وعلى سطح السفينة، وضع أوس ساما جانباً، تاركاً إياها تغفو بصمت وسكون.. كان نومها هذا يثير قلقه أكثر فأكثر، فاقترب من الحكيم متسائلاً "ما الذي يجعلها نائمة بهذا العمق بعد كل ما جرى؟.. أليس هذا أمراً يثير الريبة؟"

أجاب الحكيم "بالعكس، ربما كان هذا أمراً جيداً.. أتوقع أن جسد ساما بحاجة لبعض الوقت ليتأقلم على وضعه الجديد، بعد رحيل الكاهنة.. وجود الكاهنة في هذا الجسد ينهكه ويدمره، ولو طال بقاؤها لوقت طويل لربما بدأ الجسد يبلى بشكل واضح.. هذا ما قرأته مذكوراً في بعض المخطوطات التي أملكها، ولكني لم أرَ من يجربه قط.. لذا هذه كانت الحالة الوحيدة التي رأيتها في حياتي الطويلة هذه.."

نظر أوس إلى ساما المنهكة بوجهها الشاحب، وغمغم "إذن من حسن حظها أننا لم نتمهل في استعادتها.."

التفت الحكيم إلى جاد الذي جلس جانباً يتفحص جراحه الكثيرة ويحاول ربط الأربطة حولها من جديد.. فسأله الحكيم "ماذا عنك أيها الشاب؟.. ما الذي تنوي فعله بعد الآن؟.. هل ستعود للقلعة بعد كل ما جرى؟"

قطب جاد وهو منشغل بعمله، ثم قال "لا أظن وجودي سيكون مرحباً به.."

وزفر مفكراً للحظات، قبل أن يقول "أظنني سأبحث عنها.."

قال الحكيم ببساطة "لكنها لم تعُد موجودة.."

نظر له جاد عابساً وقال "لا أصدق ذلك.. لا زلت أخشى أن تستغفلنا وتعود بطريقة ما.. لقد ذكرت سابقاً أنها جهزت عدداً من الفتيات للاستيلاء على أجسادهن في وقت سابق لالتحاقها بالملك.. سأذهب للبحث عن هاته الفتيات، وسأزيل تلك العلامة التي يحملنها على أعناقهن لأتأكد أنها لم ولن تجد وسيلة للعودة.."

علق الحكيم "هذا تفانٍ أكبر مما يجب فيما يخص أمرها.. أأنت واثق مما ستفعله؟"

قال جاد بحزم "بالطبع.. لن أنسى ما فعلته، ولن أسمح لها بأن تكرره من جديد.. لقد عاهدتها سابقاً..

سأقتلها حتى لو اضطررت لفعل ذلك مئات المرات.."

لم يتعجب أوس لإصرار جاد الواضح من كلماته وفي ملامحه.. لقد لاحظ سابقاً إصراره على بلوغ هدفه رامياً حياته السابقة خلف ظهره.. ورغم أنه لا يعلم السبب الذي لأجله يتحلى بهذا الإصرار، لكن لم يسعه إلا أن يعجب بتفانيه في هذه القضية حتى النهاية..

قال أحد الريابلة في تلك اللحظة بغضب من موقعه مع البقية "هذا ما لن نسمح لك به.. يجب أن تلقى الجزاء على من قتلت ومن تسببت بإصابته من الريابلة.. لا يمكن أن نتركك تفلت بعد كل ما فعلته.."

رمقه جاد باستهانة قائلاً "من تظن نفسك؟"

تقدم (الريبال) خطوة بغضب صائحاً "ما الذي تقوله أيها المأفون؟"

قاطع الحكيم جدالهما قائلاً "لا أظن ذلك وارداً بالفعل.. لقد كان من سوء حظكم أنكم اضطررتم لمواجهته.. هو ليس مذنباً فهو كان يسعى لتحقيق ما جاء لأجله.. وأنتم أتيتم لتحقيق طلبي الذي تقدمت به لزعيمكم.. لذا لا يحق لنا أن نحاسبه على ما جرى.."

قال الرجل بحنق "كيف تقول ذلك مع سعيه السابق لمعاونة تلك الكاهنة؟.. كيف تسامحه بكل بساطة؟"

أجاب الحكيم "أنا لا أغضب لما حدث لأنني أدرك أنه أمرٌ لا بد منه.. ثم إن هذا الغول كان مستلباً (بالوينتيكو) عندما قتل رفاقكم.. وهذا أدعى لئلا نحمّله مسؤولية موتهم.."

استمر الريابلة بالجدال الغاضب مع الحكيم، وجاد يرمقهم بنظرة صارمة وتحدٍ واضح لمن يفكر بالاقتراب منه.. ولم يهدؤوا إلا عندما وعدهم الحكيم بتحمل المسؤولية أمام كبير الريابلة ذاته..

بعد أن سارت السفينة بسلاسة وسط البحر الشاسع، واختفت الجزيرة في الأفق تماماً.. وبعد أن لاحظت تيما أوس القابع قرب ساما دون حراك، اقتربت متسائلة بقلق "هل ستأخذ ساما بنفسك لعالمها يا أوس؟"

هز أوس رأسه إيجاباً، فقالت تيما بضيق ظاهر "لمَ؟.. يستطيع الحكيم أن يفعل ذلك.. فهو يقدر على المرور عبر طريق الأطياف دون أن تؤذيه.."

قال أوس "لا.. سأذهب بنفسي لأطمئن على المكان الذي سيؤويها في السنوات القادمة.. لا يمكنني أن أوكل أمرها لأي شخص آخر.."

أسرعت تيما تقول "إذن سأذهب معك.."

نظر لها أوس بدهشة، ثم قال بحزم "مستحيل.. لا يمكنك الذهاب معي.. بل عليك انتظاري حتى أعود.."

قالت تيما بشيء من العصبية "وهل ستتركني وحيدة؟.. أنت وعدتني أن تحميني.. لذا سأرحل معك لعالم البشر.."

قال أوس مقطباً "لا يمكنني المخاطرة بك هناك.. كما أنني أشك بأن تتمكني من عبور طريق الأطياف سالمة.."

لم تحاول تيما إخفاء استيائها لهذا الأمر، فيما التفت أوس إلى الحكيم سائلاً السؤال الذي لم ينفك يفكر فيه بحيرة "ما شأن طريق الأطياف هذا؟.. لقد ذكرتَ أنه أنشئ بعد دمار حضارة (الكهان) منذ قرون.. فمن فعل ذلك؟.. ولم تكبّد عناء نقل الأطياف لذلك الطريق مادامت كائنات عالمنا معتادة على الرحيل لعالم البشر؟"

أجاب الحكيم "ربما يتبادر لأذهانكم أن من فعل ذلك قد أراد حماية البشر من كائنات عالمنا الشرسة.. لكن العكس صحيح كذلك.."

نظروا له بصدمة وجاد القريب يعلق بهزء "أتعني أن البشر يلتهمون كائنات عالمنا كذلك؟"

ابتسم الحكيم مجيباً "ليس بالضرورة أن يكون هذا ما عنيته.. أتعلمون كيف أبيدت حضارة (الكهان)؟"

هزوا رؤوسهم نفياً، فقال "قرأت في أحد الكتب أن الحضارة قد أبيدت في أيام معدودة، والسبب مرض غريب لم يجد له أحدٌ علاجاً، رغم أن تلك الكتب لم تذكر هوية ذلك المرض ولم تطلق عليه اسماً.. لكن في الحقيقة، أنا أعرف ما جرى لهذه الحضارة العريقة.. فقد رحلت من هذه الجزيرة عندما كنتُ في السابعة من عمري، ومعي يوريت وذام كبير الكهنة في ذاك الوقت.."

تساءلت تيما باستنكار "أتحاول إقناعي أنك أنت سليل تلك الحضارة؟.. كم يبلغ عمرك حقاً الآن؟"

أجاب الحكيم "أبلغ السبعين بعد المائتين.. وهو عمر لا يعدّ شيئاً في أعمار بني شعبي.."

نظرت له تيما بصدمة واستنكار لهذا الجواب، فيما نظر الحكيم للبقية قائلاً "كما توقعتم، في الوقت الحالي أنا الباقي الوحيد من هذه الحضارة التي عمرت الدنيا في ذلك الوقت، بالإضافة لفتى التنين.."

ثم عقد كفيه مكملاً حديثه "كما أخبرتكم، دأب ذلك الرجل الذي ترك السحر وامتهن العلم على الرحيل

لعالم البشر بحثاً عن علومهم ومعارفهم.. هذه الجزيرة تحوي منفذاً آخر لعالم البشر، لكنه كان مهملاً لا يستخدمه إلا قليلون.. لم يدرِ ذاك الرجل وقتها أثناء انشغاله بما يحصل عليه من معرفة من عالم البشر، أنه سيحضر معه ما هو أخطر من أي علم أو معرفة.. أحضر معه مرضاً من أمراض البشر لم يجد أحد له ترياقاً قط، وسرعان ما قتله ذلك المرض خلال أيام معدودة.. لم يتخذ أحد السحرة والكهان أي احتياطات ضد المرض الذي انتشر كالنار في الهشيم بسرعة لا يصدقها أحد.. تهاوى الرجال والنساء والشيوخ والأطفال بسرعة خاطفة، ولم ينفعهم أي سحر أو علم أو حتى هربهم في القوارب من هذا المرض المجهول.. اقتضى الأمر أياماً قليلة لتُباد هذه الحضارة النيرّة، ولحسن الحظ لم ينتقل هذا المرض لباقي عالمنا.."

ودار في المكان للحظة مضيفاً "طُمس ذلك المنفذ في أحد الزلازل التي هزت الجزيرة بعد فناء حضارتها بوقت وجيز.. ولم يبقَ لعالمنا أي منفذ إلا ذلك الطريق الذي تعرفونه حق المعرفة.. وذام، كبير الكهنة الذي هرب بي ويوريت من هذا المرض، قد أخذ على نفسه حماية هذا العالم من أي نكبة جديدة قد تصل إليه من عالم البشر.. لذا، عقد صفقة مع الأطياف التي كانت تستوطن جزءاً آخر من عالمنا.. أن تقوم بحماية ذاك الطريق من البشر ومن كائنات هذا العالم على حد سواء، مقابل أن تحصل على جسد أي عابر يحاول عبور هذا الطريق.."

غمغمت تيما بدهشة "لم أتوقع قط أن يحمل البشر خطورة كهذه لنا.."

نظر الحكيم لساما التي لم تستفق من نومها قائلاً "أظننتم أنني أخذت ساما لمنزلي خوفاً عليها؟.. لقد آويتها في منزلي حتى أراقبها، وأتأكد أنها لن تحمل الموت في جسدها الذي قد تنقله لأي كائن آخر من كائنات عالمنا.. ولما تأكدت أنها لا تحمل أي مرض معها، عدتُ لعادتي السابقة بعدم التدخل بأمور أي شخص في هذا العالم.. ولم أكسر هذه العادة إلا عندما علمت أن الكاهنة تنوي تدمير العالمين معاً بضربة واحدة.."

علق أوس بضيق "كان بإمكانك إعادتها لعالمها فور وصولها لعالمنا بدل جرّها لكل هذه المصائب.."

قال الحكيم "كنت أنوي ذلك بالفعل، لكن ربما تأخري في ذلك ليوم واحد قد قادها لقدرها، وقدرنا، الذي لا نقدر على تغييره.."

ونظر لساما مضيفاً "هي تجربة لها، خيرّة كانت أم سيئة.. لكن الأهم من ذلك، لا يمكننا إعادة الطفلة لعالمها بما تعرفه عن هذا العالم.."

قال أوس باستياء "أتعني أنك تنوي إبقاءها هنا رغماً عن الجميع؟.. لا يمكننا حمايتها في هذا العالم أكثر مما فعلنا.."

اقترب الحكيم من ساما وقال "لست جاف المشاعر لهذا الحد.. ليس من مصلحتها بقاؤها هنا أكثر من هذا، لذا سأقوم بعمل احتياطي صغير فور عودتنا من هذه الجزيرة، سيمسح من ذهنها كل الذكريات الخاصة بهذا العالم.. وبعدها، يمكنك الرحيل بها لعالمها للمرة الأخيرة.."

تساءلت تيما بدهشة "أيمكنك أن تفعل ذلك؟.. ألن يضرّها هذا بأي شكل كان؟"

هز الحكيم رأسه نفياً، فيما صمت أوس دون اعتراض.. ربما كان من الخير لساما أن تنسى كل ما جرى هنا.. أن تنسى خوفها وذعرها، وأن تنسى الأيام التي قضتها مغيّبة لا تدري ما يحدث لجسدها وللعالم من حولها.. ربما عندما تنسى سيتسنّى لها أن تعيش حياة طبيعية كأي بشرية عادية..

وقفت تيما أمام منزل الحكيم تنظر له بصمت وشيء من الاضطراب.. لقد أمضوا عدة أيام في رحلة العودة، مستخدمين السفن في الانتقال عبر النهر عوض السير عبر السهول، وها هم قد وصلوا للهدف الذي يسعون إليه.. أو بالأحرى الذي سعى إليه أوس مصطحباً معه ساما ومرافقاً الحكيم الذي سيساعد الطفلة على نسيان ما جرى لها هنا.. لكن، ما الذي تفعله هي هنا؟.. ليس هذا المكان هدفها، ولا تملك أدنى قدر من الاهتمام بما يجري هنا.. فما الذي جاء بها هنا تابعة أوس كل هذه المسافة؟..

ورغم أن الحكيم لا يبدو معارضاً لمجيئها وأوس لمنزله، بعدما كان بينهما وبينه في السابق، لكن هذا لم يجعلها أكثر حماساً في اللحاق بهما إليه.. فما الذي جاء بها حقاً؟..

لاحظ أوس صمتها وترددها وهي تقف عند الحد الفاصل بين ظل الشجرة وبين السهول التي تضيئها الشمس بضوئها الدافئ.. وكأنها بسيرها وسط ظلال الشجرة قد دخلت في حرمة ذلك المنزل، وأصبحت بقلبه قبل أن تلج من بابه.. اقترب أوس منها متسائلاً "ما الأمر؟.. ألن تدخلي؟"

قالت بضيق "وما الذي يدفعني لذلك؟.. أنا لا أهمية لوجودي هنا حقاً.."

تساءل بتعجب "وهل هناك مكان تنوين الذهاب إليه؟"

صمتت مديرة وجهها جانباً بضيق، فمد يده وأمسك يدها قائلاً "لا آمن عليك في أي مكان في هذا العالم أثناء غيابي، إلا في منزل الحكيم.. وهو وعدني بحمايتك حتى عودتي.."

أطرقت تيما للحظة قبل أن تغمغم بكدر "وهل ستعود حقاً؟"

أجاب أوس بتأكيد "سأعود.. ألم أعدك بأنني سأحميك؟.. لا يمكنني أن أخلف وعدي لك مطلقاً.."

نظرت له بصمت لوقت طويل، وكأنها تتهمه اتهاماً ضمنياً بخداعها.. فهي لا تصدق أنه سيعود لأجلها إن عاد.. لكن أوس لم يحاول إثبات موقفه بالكلمات، بل جذبها متجهاً بها لمنزل الحكيم بصمت.. ورغم ترددها في عبور عتبة بابه، لكنها سرعان ما استسلمت أمام إصرار أوس ودخلت المنزل الذي كانت تبغض الاقتراب منه.. وللدهشة أثناء اقترابهما، لم يشعر أحدهما بتلك القوة التي كانت تطردهما سابقاً دون هوادة.. بدا أن مجرد قبول الحكيم لدخولهما منزله كافٍ لاستثنائهما من تلك التعويذة..

نظرت ساما التي سبقتهما في الدخول لأرجاء المنزل بصمت، ثم غمغمت "ليت مالو كانت هنا.."

علق الحكيم وهو يقتادها للجلوس على أحد الكراسي "بالفعل.. المنزل كئيب بدونها.. ويبدو أنني سأستغرق وقتاً طويلاً لأعتاد غيابها.."

انقادت ساما للحكيم وهي تجلس متلفتة في وجوه من حولها مع تباين ما حملته من تعابير.. الحكيم كان هادئاً كعهدها به، وتيما مقطبة ومديرة بصرها جانباً بضيق اعتادته.. أوس كان الوحيد الذي ظل يرمقها بقلق واضح.. للقرار الذي عليها وعليهم اتخاذه، ولمدى التأثير الذي قد يتسببه لطفلة في عمرها..

وقف الحكيم أمام ساما قائلاً "أتفهمين ما ننوي فعله يا طفلتي؟.. ستفقدين ذاكرتك، وستنسين كل ما جرى لك في هذا العالم.. قد يبدو الأمر قاسياً، لكنه أفضل لك وللجميع.."

هزت ساما رأسها ببساطة تعجب منها أوس، ولما ابتعد الحكيم تقدم أوس ووضع يده على كتفها متسائلاً "أأنت واثقة من ذلك حقاً يا ساما؟.."

هزت رأسها من جديد بابتسامة، ثم أحاطته بذراعيها وتعلقت بعنقه بقوة.. شعر أوس بأن ساما تحاول بثه امتنانها وحبها بعفوية وبساطة، فلف ذراعيه حولها وصمت وهو يسمعها تقول "أنا سعيدة للغاية أنني قابلتك من جديد، ولا أريد أن أنساك مطلقاً.. لكني سأفعل ما تطلبه مني مهما يكن.. أعلم أنك لا تريد الخلاص مني، لذا سأرضى بهذا.."

شعر بشيء من الحزن لما يسمعه منها.. هذه الطفلة الصغيرة تاقت لبعض الحب والاهتمام منذ فقدت والديها.. ورغم بساطة ما تطلبه، لكنها لم تجد استجابة من أي شخص حولها قد يعوضها عما فقدته.. والآن، رغم القليل الذي حصلت عليه من أوس، هي ممتنة له بأكثر مما أعطاها.. وبعد هذه اللحظة ستفقد هذه الذكرى وستنسى أن شخصاً ما قد اهتم بها ولو لوقت قصير.. فأي حياة ستحياها بعد هذا؟..

ضمّها أوس بقوة وقال "اطمئني يا صغيرتي.. سأتركك عند من يحبك ويرعاك.. ولن أغادر حتى أطمئن عليك وعلى حياتك في عالم البشر.."

هزت ساما رأسها موافقة، ثم نظرت للحكيم الذي تقدم منها حاملاً زجاجة صغيرة بها سائل أزرق اللون، وقال "هذا الشراب سيساعد على إفقاد ذاكرتك.. لا أدري لأي مدى ستفقدين منها.. لكن، ما الذي تخشين من نسيانه؟"

لم تعلق ساما وهي تتناول الزجاجة وتنظر للحكيم ولأوس بصمت.. نظر لها أوس بابتسامة مشجعة، فرفعتها ساما وشربت ما بها دون تردد، عندها أغمض الحكيم عينيه وتلا تعويذة بسيطة واضعاً يده على جبينها.. ظلت ساما ممسكة بيد أوس بصمت وهي تستمع لما يتلوه الحكيم، بينما شد أوس على يدها برفق حتى وجدها تتهاوى غائبة عن الوعي.. أمسكها قبل أن تسقط، ونظر للحكيم باستفهام وشيء من الدهشة.. فقال الأخير "لا تقلق.. ستكون بخير.. عندما تستيقظ ستكون هذه الذكريات قد محيت من عقلها.."

تساءل أوس "هل ستنسى كل شيء؟.. حتى والديها؟"

قال الحكيم "ربما.. لست واثقاً من ذلك.. الأهم أن تغادر بها قبل أن تستفيق.. قد تحاول مقاومتك عندها وتهرب منك.."

لم يتمهل أوس في الاستجابة لطلبه، وحمل ساما الغافية على ظهره برفق، ثم التفت إلى تيما التي جلست تراقب ما يجري من مبعدة وقال لها "هل ستبقين هنا حتى أعود؟"

قالت مديرة وجهها جانباً بضيق "وهل أملك حلاً آخر؟"

لم يملك أوس التعليق على ذلك، وقد اعتاد نبرة الضيق والتذمر الدائمين من تيما، فاستدار حاملاً الطفلة نحو الباب.. لكن تيما لم تملك نفسها أن تشبثت بقميصه لتوقفه وهي تنظر له باضطراب.. دهش أوس

للحظة، ثم تساءل برفق "ما الخطب؟"

تساءلت تيما والقلق يتبدى في عينيها "هل ستعود؟"

ابتسم محاولاً منحها بعض الثقة وهو يجيب "طبعاً سأعود.. فلا تقلقي.."

عندها جاهدت تيما نفسها لتقول بضراعة "لا تجرؤ على كسر وعدك لي.. سأنتظرك حتى تعود، فلا تجرؤ على جعلي أنتظر طويلاً.."

ربت أوس على رأسها وهو متفهم لقلقها من بقائها وحيدة.. وغمغم بتأكيد "سأعود يا فتاة.. سأعود.."

بعد تردد، تخلت عنه تيما أخيراً، فاستدار أوس دون تعليق، وغادر المنزل من بابه متجاوزاً تلك البقعة التي تظللها الشجرة بأوراقها الكثيفة، وسرعان ما تحول لذئب وهو يركض بشيء من الحرص حاملاً ساما على ظهره.. فيما بقيت تيما قرب النافذة تراقبه بصمت وشيء من الاضطراب.. لقد رحل متخلياً عنها رغم وعده لها، سابقاً والآن.. فهل لها أن ترتجي عودته؟.. هل تنتظره، أم أن عليها أن تيأس من ذلك؟..

لكن.. في اللحظات التي تراودها الشكوك بأهمية وجودها معه، وفي الأوقات التي تنتابها الرغبة بالفرار من هذه المشاعر، فإن أوس يؤكد لها بكلمات بسيطة وبتصرف عفوي أنه لن يتخلى عنها.. لو أنه تركها تيأس منه، ولو أنه نبذها بشكل كامل، لما ترددت في الرحيل.. أما بهذه الحالة، فعلاقتها به متذبذبة بين شد وجذب دون أن يبدو لها أي نهاية..

ظل بصرها معلقاً بالجهة التي تؤدي لطريق الأطياف وهي ساهمة في أفكارها، بينما قال الحكيم "لا أظنك تتوقعين مني أن آويك في منزلي دون ثمن.."

نظرت له باستياء، فأضاف "لقد فقدت مساعدتي.. لذا عليك القيام بعملها في الوقت الحالي حتى عودة ذلك (الريبال).."

قالت تيما بحنق "من تظنني؟"

ابتسم الحكيم بجانب فمه مجيباً "ظننتك (فيّ) طريدة ومشردة، وتخشى على نفسها من البقاء في العراء حتى عودة ذلك الرجل.. أليس كذلك؟"

ثم أضاف قبل أن يبتعد "ولا تحاولي البحث عن حجر الكهّان.. فهو ليس في هذا المنزل بالفعل.."

ظلت تيما تنظر له بغيظ.. هذا ما ينقصها.. ما الذي ساقها لكل هذا؟.. فتساءلت محاولة إفراغ ضيقها

وحنقها "ما حكاية حجر الكهّان ذاك؟.. ما الذي يجعلك مستميتاً بالحفاظ عليه رغم أهميته بالنسبة لنا؟"

قال الحكيم وهو يقلّب بعض كتبه ويتفحصها "عيب (الفيي) أنهم لا يحتفظون بتاريخهم مكتوباً.. وهذا يغيّب الكثير من الحقائق في غياهب النسيان.. حجر الكهّان، والذي يسميه بعض العامة بحجر الفلاسفة، هو أثرٌ من حضارة (الكهّان) كما لك أن تخمني.. وهو ملكٌ لمعلمي ذام لذا يهمني استعادته.."

نظرت له تيما بدهشة وتساءلت "كيف تثبت ذلك؟.. هذا الحجر موجود في قريتنا منذ زمن قديم، وتوارثناه لعدة أجيال دون أن نفرط فيه حتى أتى ذلك الوغد سامار وباعه لك.."

نظر لها الحكيم بهدوء مجيباً "لست بحاجة لإثبات أي شيء، وأنا قد دفعت ماله بالفعل، لذا ليس لكم عليّ أي حجة.."

ثم حمل أحد كتبه ووضعها أمام وجه تيما مضيفاً "انظري، هذا هو رسمٌ لهذا الحجر ووصف لخواصه وما يمكن تحقيقه باستخدامه.. وهذا أحد الكتب التي أحضرها الكاهن ذام معه من الجزيرة.."

قالت تيما بشيء من العصبية "أنا لا أقرأ.."

فغمغم الحكيم "جيد.. إذن عثرت على ما سيسليني في الأيام القادمة.."

ووضع الكتاب جانباً قائلاً "حجر الكهّان، هو حجر ذو قوى وخواص لا يمكن العثور عليها في أي نوع آخر من الأحجار، وهو لا يصنع إلا بوسائل خاصة لا أملكها للأسف.. هذا الحجر، بإضافة بعض التعاويذ إليه، يمكن أن يؤدي بعض المهام بصورة تفوق ما قد تنفذه التعاويذ العادية.. معلمي (ذام) قد التقى ببعض قرى (الفيي) بعد هجرتنا من جزيرة (رؤوس الشياطين).. كانت قرى (الفيي) أثناءها تقع على أرض تلك الغابة، وكانوا يواجهون صعوبة في حماية أنفسهم من بعض الكائنات الساعية خلف دمائهم.. وقد ارتضى ذام بأن يمنح تلك القرى أجزاء من حجر الكهان مقابل أن يمنحوه كل ما يملكونه من معلومات عن (الفيي).. وهذا الحجر يساعد (الفيي) على التخفي وإخفاء رائحة دمائهم عن بقية الكائنات الطامحة إليه.."

قالت تيما مقطبة "ولِمَ قد يبيعك سامار هذا الحجر مادام مهماً لنا بهذه الصورة؟"

أجاب الحكيم "لقد خفتت التعويذة التي تحيط بالحجر منذ مدة مع تطاول السنين عليه، ولم يعد (الفيي) بحاجة له بعد أن ارتفعوا بمنازلهم لذلك الارتفاع الذي لا يصل إليه إلا قلة.. ولما سمعت أن بعض

الأحجار التي منحها ذام (للفيي) قد وجدت طريقها لمناطق أخرى من هذا العالم، أدركت أنكم ما عدتم تحتفظون بها وبعضكم قد بدأ بالاستهانة بأهميتها.. لذا سعيت لاستعادة كل ما أمكنني منها قبل أن تصل ليد من لا يستحق.."

ونظر لها مضيفاً "ألا ترين أنني بعد كل هذا صاحب حق في تلك الأحجار؟"

أدارت تيما وجهها جانباً قائلة "كان عليك أن تطلب الحجر بوضوح، لا بطريقة خفية وخسيسة كتلك.."

علق الحكيم بابتسامة "رئيس قريتكم هو من حرص على التعامل بهذه الطريقة، لئلا تناله اتهاماتكم هذه بالخسّة.. ورضيَ أن تكون هذه الاتهامات من نصيبي أنا.."

ثم توجه لسلم المنزل مضيفاً "اختاري أي غرفة مفتوحة لك، ولا تقربي المغلقة منها.. أنصحك ببدء تحضير الطعام منذ الآن، فأنا جائع بالفعل.."

نظرت له تيما باستنكار لما تسمعه، ولما يطلبه منها، ثم زفرت وهي تنظر من النافذة بضيق شديد.. متى سيعود ذلك الرجل؟.. لقد بدأت تسأم بقاءها في هذا المنزل منذ هذه اللحظة..

مضت أيامٌ تلتها أسابيع تبدلت فيها الفصول.. بدأت الشمس تفقد بعض دفئها، وبدأت أشعتها تصل للأرض ضعيفة خافتة لا حرقة لها وإنما احتفظت بزهوّها وجمالها في النهار.. بينما انقلب الليل قارساً شحيح الدفء، واختفت نجومه خلف قوافل من الغيوم المتلاحقة.. وفي ذلك اليوم، اجتاز أوس الجانب الجنوبي من السهول عائداً لمنزل الحكيم الذي بدا له بوضوح من مبعدة.. كان قد أمضى شهراً كاملاً في عالم البشر، وقضى ذلك الوقت يطمئن على حال ساما بعد أن أودعها إحدى العوائل في مدينة بعيدة عن قريتها السابقة.. لم يكن يرغب بأن تحتك ساما بأحد من قريتها السابقة، لئلا يصل لعائلتها الجديدة إشاعة كونها طفلة مستبدلة أو أي حديث عن اجتيازها طريق الأطياف.. لكن لم يكن الأمر بتلك السهولة مع الثورة والفزع الذي تبدى على وجه ساما عند استيقاظها ورؤيتها له.. وكان الأمر أصعب مع هيئته التي لم يكن يقدر على الظهور بها أمام البشر دون أن يثير ذعرهم وفزعهم منه..

استلزم منه الأمر وقتاً طويلاً حتى هدأت ثورتها وأطاعته بعد أن حدثها وحاول أفهامها أنه لا ينوي بها

سوءاً.. رغم أنه لم يتمكن من التحول لهيئة بشري في ذلك العالم، لكنه استطاع كسب ثقة ساما بعد بعض الجهد.. والآن، بعد أن اطمأن لوضعها في بيتها الجديد، يأمل بأن تنسى ما جرى لها معه وتنسى هويته بشكل تام..

نظر أوس لمنزل الحكيم الذي انتصب أمامه بحجمه الهائل، وزفر مفكراً فيما عليه فعله في الأيام القادمة.. لم يعد بحاجة للاختباء، ولم يعُد الريابلة يعبؤون لأمره.. لكن لا يظن أنهم سيرحبون به بينهم رغم كل ما جرى.. وهناك أمر تيما واعتمادها عليه للحفاظ على حياتها من أي كائن.. فأين يمكن لمثلهما العيش دون إثارة المشاكل؟..

حالما خطا فوق ظل الشجرة الداكن، انتبه لصوت خافت صدر من أعلاها، فرفع بصره باحثاً بين فروعها الكثيفة بعينيه حتى تمكن من رؤية تيما التي قبعت فوق إحداها بصمت وهي تراقبه.. استطاع أن يلمح ابتسامتها وهي تنظر له، فصاح بها "ما الذي تفعلينه في هذا المكان؟"

أجابته "أدرب نفسي على تسلق الأشجار.. ما عدت أستطيع الوصول إليها طائرة، ولذا أحتاج للتدريب على هذا الأمر أكثر.."

لم يتردد أوس في صعود الشجرة بدوره بخفة وسرعة.. ربما تملك تيما فكرة أفضل عن المكان الذي عليهما البقاء فيه، وما قد يناسبها كفرد من (الفيي) دون المخاطرة بحياتها.. ولما وصل لأحد الأفرع القريبة من مكانها وقف عليه متأملاً المساحات الشاسعة التي تزهو بنور الشمس، رغم خفوت حدته، ومياه النهر الملتمعة وهي تجري في مسارها الذي لا ينقطع نحو البحر الشمالي.. فقال أوس معلقاً "يبدو أنك لا تخشين هجوم أحد عليك في الأماكن المرتفعة.. وهذا أفضل بالتأكيد.."

نظر لتيما الصامتة، فرآها تخفض بصرها بارتباك وشيء من الاضطراب.. وقبل أن يعلق على الأمر قالت بصوت متغير "لقد تركتني أنتظر طويلاً.."

صمت أوس بدهشة من قولها، وهي تضيف خافضة وجهها بارتباك "ظننتك لن تعود.. شهرٌ كامل مضى منذ رحلت دون أن أراك فيه، حتى ظننت أنك لن تعود لهذا العالم قط.."

قال أوس معتذراً "لم أتوقع أن يستغرق الأمر مني هذا الزمن.. لكنني تمكنت من العودة أخيراً.. وساما أيضاً أصبحت في أيدٍ أمينة.. لقد عثرت على امرأة بدت لي طيبة، وهي تعيش وحيدة.. وقد لاحظت

عطفها على ساما منذ اللحظة الأولى.. لذا....."

قالت تيما مقاطعة حديثه "أنت تعلم أنني لم أعبأ لأمر ساما بهذا القدر طوال الوقت.."

غمغم أوس "أدرك ذلك.."

فمالت نحوه مضيفة بجرأة "لم أعبأ إلا لأمرك أنت.. لذا أصبت بالقلق الشديد لتأخرك عني.."

تأمل أوس انعكاس نور الشمس في عينيها الخضراوين الزاهيتين، واللتين ذكرتاه بهذه السهول التي تزهو بنور الشمس في أغلب أيامها.. دار ببصره حولهما للحظات وتيما تتحرق لسماع رده، ثم غمغم "أتعلمين؟.. لا أشعر أن الشمس غمرتني بنورها منذ سنة كاملة.."

نظرت له بحيرة لحديثه عن هذا الأمر في هذه اللحظة، فأضاف "منذ هربي من الريابلة، واضطراري الاختباء، شعرت أن الظلام يحيط بي بشكل دائم.. رغم خروجي نهاراً في بعض الأحيان، لكني لم أكد أنتبه للنور وهواجسي تغشي عينيّ عن كل ما عداها.. لذا أشعر أنني في هذه اللحظات أرى الشمس للمرة الأولى منذ ذلك اليوم.."

نظرت تيما لما ينظر إليه، ثم قالت بدورها "ربما تكون محظوظاً.. أنا عشت في قرية لم تكد تنعم بنور الشمس إلا أقل القليل منه.. لقد عشنا مستترين بالظلام طوال حياتنا وحياة آبائنا وأجدادنا.. لذا شعرت بصعوبة كبيرة في التأقلم مع نور الشمس عندما رأيته بكامل قواه في ذلك اليوم.. ونوعاً ما، ارتبط ضوء الشمس بلقائي بك.. فمنذ عرفتك، لم أعُد لظلام تلك القرية، ولم أستسِغ البقاء فيه.."

وصمتت للحظات قبل أن تضيف مديرة وجهها جانباً "يمكن القول إن الشمس لم تغِب عن عيناي منذ التقيت بك.."

نظر لها أوس بابتسامة متعجبة، ثم قال "ألا تظنين أنك تبالغين؟"

قالت بتكبرّ وهي تراه يحبط محاولاتها للتلطف بأي كلمات "لأنك أحمق.."

لمس أوس خصلات شعرها القصيرة مغمغماً "بودي أن أعرف من أين تأتيك هذه الثقة.."

أدارت تيما بصرها له وثبتت عينيها في عينيه.. تمنت لحظتها ألا يكون أوس منيعاً أمام سحرها، وأن تفتنه عيناها كما تفتن أي مخلوق آخر على وجه هذه الأرض.. لكن لم يبدُ أن لأمنيتها تلك أي سبيل للتحقق.. على الأقل، نظراته اللطيفة وابتسامته الصافية التي تراها الآن لها هي وحدها ولا ينافسها فيه أحد.. كان من

النادر أن تراه يبتسم، ولم تكن تدرك أنه عندما يفعل، فإن ملامحه كلها تعكس ابتسامته تلك.. شعرت بأصابعه تتسلل بين خصلات شعرها، وشعرت بالدماء التي تجمعت في خديها لقربه منها ولنظراته التي تغوص في عمق عينيها.. راودتها نفسها في تلك اللحظات أن تعبرّ له عن شوقها له وقلقها لغيابه الذي طال.. تاقت للتعبير عن بعض تلك المشاعر الغريبة التي بدأت تنتابها حياله، عندما سمعا صوت الحكيم من أسفل الشجرة يقول "عوداً حميداً أيها (الريبال).."

استدار أوس ناظراً للحكيم الذي وقف قرب باب منزله، وعلق قائلاً "ألم تحفظ اسمي بعد أيها العجوز؟"

ابتسم الحكيم معلقاً "أنا أعرف اسمك قبل أن أراك بالفعل.."

واستمر في سيره حتى دخل منزله بصمت.. فيما قالت تيما متأففة، والضيق يغمرها لمقاطعة الحكيم لحظاتها القصيرة مع أوس "ذلك العجوز لم يتردد في دفعي للعمل منذ اليوم الأول.. تخيّل أي عذاب عشته لمدة شهر كامل وأنا أعمل كخادمة عنده.."

ابتسم أوس معلقاً وهو يشرع بالنزول "لا أظن الأمر كان قاسياً لتلك الدرجة.."

هتفت تيما بحنق "قاسياً؟.. هذه كلمة بسيطة لما واجهته.. كيف لي أن أقبل بالخشونة التي اعترت يداي لكثرة العمل؟.. كان عليه تقدير من أكون، وأن يلزم حدوده معي.. لكنه....."

لم يعلق أوس على تذمر تيما أثناء هبوطهما من أعلى الشجرة.. لا يزال غير مدرك لأفضل طريق يتخذانه بعد الآن، ولا الحياة التي سيحياها بدون هواجسه السابقة.. لكن لمَ القلق؟.. منذ أن عبر طريق الأطياف عائداً من عالم البشر، ورأى السهول التي تشرق بضوء الشمس الزاهي، أدرك أنه الآن وبعد زمن طويل أصبح خالي البال.. لم يعد يحمل همّ حياته ومطاردة الريابلة له، ولم يعد يحمل همّ الطفلة التي يدين لها بحياته..

وبعد تلك السنة التي قاسى فيها من النبذ وعاش فيها وحيداً خائفاً يترقب ما حوله، تبدو هذه الأيام هانئة ووادعة مقارنة بما سبق.. وهو قد بدأ يستطيب ذلك بالفعل..

عندما فتحت تلك الفتاة عينيها، بعد غيبوبة طويلة لم تعرف لها زمناً.. تأملت أرجاء المكان البائس الذي كانت ترقد فيه، ولاحظت عجزها عن الحركة والخمول الغريب في جسدها الذي لم تعهده قط..

ندّت من الفتاة ضحكة قصيرة بصوت مبحوح، ولم تمضِ لحظة حتى سمعت باب الغرفة يفتح بشيء من العجلة.. وقفت امرأة مسنة قرب الباب وهي تتطلع إليها بصدمة، وسرعان ما انكبّت عليها باكية وهي تقبل وجهها ويديها بسعادة لم تجد لها منفذاً إلا عبر الدموع الغزيرة.. ظلت الفتاة صامتة وهي تسمع المرأة تقول من بين نشيجها "من كان يصدق.. بعد كل هذه السنوات؟.. لقد آمن الجميع أنك لن تستفيقي من غيبوبتك حتى يضمّ القبر رفاتك.. لكن ها أنت حيّة.. ها أنت حية.."

لم تستطع الفتاة التعليق على ذلك، ولا طرح أي أسئلة.. فحنجرتها لم تستجب لها رغم محاولاتها، وجسدها بقي ساكناً رغم أنها تستطيع الإحساس بأطرافها بلا معوقات.. كم سنة بقيت في هذه الغيبوبة؟.. لا تعلم.. ولن تعلم قبل أن تستعيد قواها وتتمكن من السيطرة على جسدها بشكل أفضل..

انقضت عدة أيام قبل أن تتمكن الفتاة من تحريك يديها وساقيها، وإن تحقق ذلك بصعوبة تامة وألم شديد.. لكنها نهضت بعزم وثقة، ووقفت على قدميها رغم ارتجاف ساقيها.. مدّت يدها خلف عنقها تتحسس الموضع الذي ما برح يؤلمها منذ استيقاظها.. تلمّست ذلك الجزء من بشرتها الذي حمل حرقاً واضحاً تخفيه بخصلات شعرها الكثيفة.. ثم تجاهلت تلك الوخزات وسارت نحو باب الغرفة عازمة على اتخاذ كل ما يمكنها اتخاذه من سبل لتعود بأفضل مما كانت.. وبينما واجهت صدر المنزل البسيط الذي حوى غرفتها تلك.. وبينما تأملت القرية البسيطة التي بدت من النافذة المفتوحة والشمس تتلألأ على أسطح منازلها، فإن ضحكة ندّت من شفتيها تتالت بعدها ضحكاتها العالية وهي تكاد تسقط أرضاً لضعف جسدها..

إنها لم تنتهِ بعد.. طريقها لم يصل لنهاية مسدودة.. وجهودها لم تضِع عبثاً رغم كل ما جرى..

ستذيق الجميع ويلاتها، وستنتقم لكل ما فعلوه بها..

ستنتقم.....

الخاتمة

ساد هدوء تام تلك الحديقة الصغيرة الملحقة بأحد المنازل البسيطة، في أقصى جانب من جوانب إحدى المدن الصغيرة الساحلية التي تعجّ بخليط عجيب من البشر ما بين سكان ومسافرين عبر مينائها المحدود.. كانت الشمس قد غربت منذ بضع ساعات، وسكن المكان كله في ذلك الحيّ الهادئ.. ولم يقطعه إلا ذلك الصوت الذي صدر من على كرسي بسيط وضع في الشرفة الملحقة بالمنزل الذي يتكون من طابق واحد.. وعلى ذلك الكرسي، جلست ساما وعلى ساقيها طفلة لا تتجاوز الخامسة من العمر، وهي تدندن لها بأغنية خافتة لتساعدها على الاسترخاء والنوم..

كانت ساما قد شبّت وتجاوزت سنوات الطفولة والمراهقة، وأصبحت تتجاوز العشرين من العمر بثلاث أو أربع سنوات.. استطال شعرها الأسود الحريري، وغدا وجهها أكثر امتلاءً وصحة مما كانت عليه في طفولتها.. انشغلت ساما بطفلتها الناعسة انشغالاً تاماً حتى سمعت صوتاً من إحدى الشجيرات التي تشكل طوقاً حول الحي يفصلها عن الغابة خلفه.. نظرت لذلك الموضع بشيء من القلق خشية أن يكون صاحب الصوت حيواناً برياً شرساً، عندما اصطدمت عيناها بعينين فضيتين لامعتين..

ظلت ساما تنظر للذئب الذي برز وجهه من خلف الشجيرة دون أن تبدي حراكاً لوقت طويل.. كان ذئباً أبيض بفرو لامع، وعينان فضيتان تبرزان وسط ظلمة هذه الليلة.. وللدهشة بدل أن يراودها شيء من الذعر لرؤيته فإن قلقها السابق قد هدأ تماماً.. ظلت تبادل الذئب الصامت النظرات بينما لم يتحرك الذئب من موقعه وكأنه تمثال برز من العدم.. ولما انتبهت الطفلة للذئب قالت بقلق وذعر "أمي.. إنه ذئب.."

ربتت ساما على رأسها ومسحت على شعرها الناعم قائلة "لا تخافي يا صغيرتي.. إنه لا ينوي بنا شراً.."

غمغمت الطفلة "كيف تعرفين ذلك؟"

ابتسمت ساما مجيبة "لا أدري.. لكني أعرف ذلك فقط.."

ونظرت للذئب من جديد مضيفة "إنه دائم الاقتراب من هذا الجزء من المدينة.. وفي كل مرة أراه فيها يكتفي بالوقوف في موضعه للحظات قبل أن يغيب تماماً.."

تساءلت الطفلة وهي ترمق الذئب بقلق "ألا يأكل الذئب البشر؟"

أجابت ساما بتأكيد "لا.. هذا الذئب لا يأكل إلا حيوانات الغابة.. ولا يسيء للبشر بأي صورة.."

ثم نظرت لوجه الطفلة مضيفة بابتسامة "لقد أخبرني هو بذلك.."

اشتعلت نظرات الطفلة انبهاراً للفكرة، وأمطرت ساما بأسئلتها عن كيفية التحدث مع الذئاب، لكن ساما اكتفت بالصمت وهي تبتسم وتنظر للذئب.. لا يمكن للذئاب أن يتحدثوا بلغة البشر.. لكن لا تدري لِمَ يراودها شعورٌ بأن الذئب قد أخبرها بهذا الأمر بنفسه.. متى؟.. وكيف؟.. لا تدري..

كل ما تعرفه أن الذئب يأتي في كل شهر مرة ليقف وقفته الصامتة يحدق بها من بعيد.. وكأنه يراقبها ويطمئن عليها بشكل أو بآخر.. ورؤيته تحمل لها بعض الأمان رغم تناقض هذا الأمر الصارخ، ورغم أنها لا تستطيع التصريح بما تفكر به حتى لأقرب الناس إليها..

اتسعت ابتسامتها الموجهة إليه، فيما ظل الذئب واقفاً وعيناه توحيان لها بمعانٍ شتى لا يمكن للسانه نقلها.. أو أن هذا ما يبدو لها من نظرته الصامتة الطويلة تلك.. وبعد بعض الوقت، يثني الذئب عنقه ويستدير مغادراً بصمت كما حضر.. وتبقى ساما بعدها تراقب رحيله، وفروه الأبيض يبدو لامعاً في سواد هذه الليلة، حتى تغيّبه الغابة بين ثناياها.. وتبقى بعد غيابه تُسائل نفسها إن كانت قد رأته حقاً، أم أنه جزءٌ من الخيالات التي تتراءى لها في لمحات تبرز في عقلها بين وقت وآخر.. لمحات تحمل لها ذكرى عن حياتها التي نستها.. أم أنها مجرد تهيؤات لا يصدقها عقل؟..

لن تعرف جواب هذا السؤال أبداً..

تمت

للقراءة عن بعض الكائنات التي وردت في الرواية، يمكنكم زيارة المدونة في موضوع بعنوان {كائنات أسطورية}